الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة 1 – الحاج لخضر

كلية العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين

نيابة العمادة لما بعد التدرج
والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

السنن الإلهية للحياة الطيبة في القرآن الكريم

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في العلوم الإسلامية
تخصص: قرآن وسنة وفكر إنساني

إعداد الباحثة:
فريدة زعبوب

إشراف الدكتور:
عمر حيدوسي

السنة الجامعية: 1440 – 1441 هـ / 2019 – 2020 م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: 97)

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(آل عمران: 137)

إهداء

إلى والدي ووالدتي حفظهما الله وأطال في عمرهما..

إلى إخوتي وأخواتي كل باسمه..

إلى من ساندني ووقف إلى جانبي وأمدني بجرعات من الأمل رفيق العمر: زوجي الغالي نور الدين ريال ...

إلى فلذات كبدي وقطعة من روحي أبنائي: حمزة، خالد، رحمة، بلقيس، ماريا البتول، شيراز..

إلى صديقاتي ورفيقات دربي..

إلى كل من هو أهل للتقدير والاحترام والإهداء..

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل..

شكر وتقدير

الحمدللّه الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر للّه أولًا وأخيرًا أن منّ عليّ بفضله وكرمه فوفقني لإنجاز هذا البحث، وأسأله تعالى أن يكون خالصا لوجهه الكريم.

ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله..

لذا لا يسعني وأنا في هذا المقام إلا أن أتقدم بشكري وتقديري..

إلى الأستاذ المشرف الدكتور: عمر حيدوسي، لقبوله الإشراف على هذا العمل، وتوجيهه.

بإرشاداته ونصائحه القيمة، وأرائه السديدة، وحرصه على إتقان العمل، فجزاه الله عني خير جزاء.

كما أتوجه بخالص شكري وتقديري إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة لتكرمهم بتخصيص جزء من وقتهم لقراءة البحث وتقييمه وتقويمه..

كما أحرص على تقديم شكر خاص لأساتذة كلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة 1 الذين أشرفوا على تكويني خلال مساري الدراسي والعلمي..

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى كل العاملات بمكتبة كلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة1..

كما أودت تقديم جزيل شكري لأختي ليندة محلبي، والأستاذة راضية قصباية، والباحث لخضر عفيف، وكل من ساعدني بتوجيهاته وآرائه من قريب أو بعيد في سبيل إنجاز هذه الرسالة.

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، رب كل شيء ومليكه، جل جلاله وتعاظمت صفاته، والصلاة والسلام على خير الأنام، وصفوة خلقه، محمدٍ ﷺ المبعوث رحمة للعالمين.

أما بعد:

فإن الله أنزل على عبده الكتاب، وبيّن فيه الحلال والحرام، وذكر فيه السنن الإلهية الحاكمة لخلقه، ما كان منها من المادي المجبور، وما كان من الحي المختار؛ فكان بذلك فرقانا بين سنن السعادة وسنن الشقاء، وجعل السعداء من يتبعون هديه ومواعظه، ويأخذون بالسنن التي بثها في كونه ويستثمرونها، وجعل الأشقياء الذين غفلوا عنها فتنكبوها.

هذا الكتاب الذي جاءت فيه الدعوة صريحة، إلى السير والنظر للاستبصار والاعتبار؛فجاءت سوره الطوال والقصار تقرر ظواهرَ سننيةً جاريةً، تحكم الاجتماع البشريَّ، سننًا بقدر الأخذ بها وتفعيلها ينال الإنسان النعيم، ويفوز بنصيب من السعادة الحياة الطيبة، مطمحِ ومطلبِ البشر جميعِهم، وإن اختلفت وتنوعت هذه المطالب والمطامح، بين أبناء هذا الجيل من المحبوبات المحصلة والمحققة لطيب الحياة،وأبناء الجيل الذي سبق؛ الذي لم يكن يرى كذلك، وهكذا...

وتبقى المحبوبات التي ذكَرَتْها هذه الدراسة هي الأصل العام، والغاية والمقصد لبني البشر، وهي خاضعة لسنن ربانية تتجسد على مستوى الأفراد والجماعات،جاءت في كتاب الله وعدا حقا، وقولا صدقا، من قدَّم الأسباب نال المسببات، ومن حقق المقدمات فاز بالنتائج، ولعل هذا ما جعل الأمر ينقدح في ذهني مُلِحًّا علي البحث في موضوع هذه الدراسة المعنونة:ب: "**السنن الإلهية للحياة الطيبة في القرآن الكريم**"، ناشدة إدراك السنن الإلهية وفقهها، والوصول إلى كيفية تفعيلها في حياتنا، تفعيلا به يحسن تحقيق الحياة الطيبة الكريمة، التي في ظلالها تتم للناس السعادة.

1- الإشكالية:

لذا رأيت لزاما علي أن أتتبع البيان القرآني حول موضوع السنن الإلهية للحياة الطيبة أسبابا ومظاهرا وآثارا؛ حتى يتحقق للناس الحياة الطيبة التي إليها يسعون جميعًا، وذلك من رؤى مختلفة وزوايا متعددة؛ فمنهم من يراها من الناحية المادية؛ مالا يتنعم به، ومنهم من يراها من الناحية النفسية؛ استقرارًا وسكينة، ومنهم من يراها من الناحية الاجتماعية؛ زوجةً صالحةً ومسكنًا واسعًا ومركبًا فارهًا، ومنهم من يراها من الناحية السياسية؛ في رحاب وطن مستقرٍ آمنٍ يحكمه العدل.

فكان من الطبيعي أن أطرح التساؤل الآتي:

كيف يمكن للسنن الإلهية الحاكمة في حياة الناس – سعادةً وشقاءً– أن تستثمر لتحقق الحياة الطيبة، التي هي سبيل السعادة في الدارين؟

وللإجابة عن هذا التساؤل الرئيس، لابد لنا من طرح مجموعة من الإشكالات الفرعية الخادمة له، وهي الآتية:

- ما مفهوم السنن الإلهية؟ وما أنواعها؟
- وما مدى تحكم هذه السنن في حياة البشر؟
- وأي هذه السنن الإلهية إذا استوفت شروطها تحقق الحياة الطيبة للأفراد والجماعات؟
- ما أهم تجليات وآثار تفعيل هذه السنن الإلهية؟ وما مدى تمثلاتها في حياة الجيل الرباني؟

2- **أسباب اختيار الموضوع:** تعددت الأسباب التي دفعتني لاختيار موضوع البحث،ومنها:

أ_ **الأسباب الموضوعية:**

- تعلقه بالقرآن الكريم وتفسيره، والنظر في دلالاته وهداياته.
- أهمية موضوع السنن الإلهية، ويبدو ذلك من خلال تركيز نصوص الوحيين عليه؛ إذ هي مفاتيح لفهم الكون، وتفسير لحركة التاريخ، والاجتماع البشري.
- حاجة الأمة لفقه السنن؛ لارتباطها بعقيدة المسلم؛ فتوحيد الله وعبادته حق العبادة، يقتضي العمل بسنن الله.
- وضع المسلمين المزري اليوم، وحالهم من سيطرة الكدر وتغير الخاطر، وانحباس الطبع، وفقدان الطمأنينة والراحة النفسية، ما انعكس سلبًا على نواحي حياتهم اليومية، وذلك بسبب غفلتهم وجهلهم بسنن الله، ولا سبيل للخروج منه إلا بفقه السنن الإلهية، والوعي بها وتفعيلها.
- تأكيد القرآن الكريم والسنة النبوية على أن سعادة العبد، وفوزه بالحياة الطيبة، مرهون بسنن الله الضاربة في الآفاق والأنفس.
- اهتمام الدعاة والمصلحين، ومدربي التنمية البشرية المحترفين بموضوع السنن الإلهية للحياة الطيبة، ترغيبًا للناس في الرجوع والتمسك بالكتاب والسنة، لمن يطلب سعادة الدارين.
- فقر المكتبة الإسلامية -فيما اطلعت عليه- من رسائل تتحدث عن سنن الله في الحياة الطيبة، لاسيما السنن التي ذكرت؛ لأن أكثر ما كتب في الحياة الطيبة خص الجانب الروحي النفسي، معرضا بذلك عن الجانب الجسدي والمادي للحياة الطيبة.

ب- أما **البواعث الشخصية** فألخصها فيما يلي:

-كوني أستاذة في التعليم الثانوي، فقد صادفت كثيرا من مظاهر الانحراف، فكان منها الفكري العقدي مثل الإلحاد، وكان منها السلوك الأخلاقي، كمحاولات التلاميذ الانتحارية، أو حالات فرار من

المنزل العائلي، أو تعاطي المخدرات رغم حالاتهم المادية الميسورة، ما دفعني إلى البحث عن بعض السنن الإلهية التي تحقق لهم الحياة الطيبة التي يفتقدونها.

- وضع المسلمين وحالهم، لاسيما في هذه الأزمان التي ظهرت فيها الفتن وتعاظمت، وسيطرت الأكدار وترسبت على النفوس فأثقلتها، وبرزت المحن المؤدية إلى تغير الخاطر وانحباس الطبع الملازم لليأس والقنوط، والتي لا أرى سبيلا للخروج منها إلا بفقه السنن الإلهية ومجاراتها.

3- أهمية الموضوع:

يكتسي الموضوع أهمية بالغة من نواحي متعددة:

- أهمية موضوع السنن الإلهية، ويبدو ذلك من خلال تركيز نصوص الوحيين عليه؛ إذ هي مفاتيح لفهم الكون، وتفسير لحركة التاريخ، والاجتماع البشري.
- انطلاق الموضوع من إشكالية مدى تحقق السنن الربانية في حياة الناس، ومدى حاجتهم إلى الحياة الطيبة، المحققة للسعادة المفقودة في عصر الناس هذا، وتشكيل رؤية واضحة حول سنن الحياة.
- اشتمال القرآن الكريم على كم هائل من الآيات التي تناولت موضوع السنن أو أشارت إليها، ما جعل كثيرًا من المفكرين المسلمين المعاصرين يتطرقون إليها، طلبا لحقيقة الحياة الطيبة التي يحققها تفعيل هذه السنن.
- لفت الانتباه، والتذكير بسنن الله الكونية والاجتماعية، والتشريعية، وسنن المعية والتوفيق الرباني.

4- أهداف البحث:

من خلال إشكالية البحث والتساؤلات المنبثقة عنها، يمكن إجمال الأهداف التي يسعى لتحقيقها فيما يأتي:

- الخروج بمفهوم دقيق، وواضح للسنن الإلهية، وأنواعها وخصائصها، اعتمادا على الكتاب والسنة وآراء المفكرين المعاصرين.
- بيان ما لهذا المفهوم من أهمية كبيرة، ليس على مستوى العقيدة فقط، بل على مستوى حياة الناس بعامة؛ لذلك جعلها الله سبحانه وتعالى هدى وموعظة للفائزين بطيب الحياة في الدارين.
- إبراز إعجاز القرآن والسنة، وبيان اشتمالهما على ما يحتاجه الناس ليحيوا الحياة الطيبة في كل عصر ومصر.
- تجلية ما أغفله كثير من الناس من سبل السعادة الروحية المعنوية، وطلبهم السعادة المادية، فأردت بذلك بيان سبل السعادة من جانبيها الحسي والمعنوي.

- بيان ما افتقده المسلمون بمخالفتهم لسنن الله؛ ففاتتهم الحياة الطيبة رغم توفر أسباب الرغد والترف بين أيديهم.
- بيان سبل السعادة المعنوية من جانبيها الحسي المادي والمعنوي، من دون تفريط ولا إفراط، ودون تغليب لجانب على جانب؛ لتجاهل كثير من الناس سبل السعادة الروحية المعنوية، وطلبهم السعادة المادية.
- العمل على إضافة لبنة جديدة – ولو كانت متواضعة- في صرح الدراسات السننية.

5- الدراسات السابقة

مع كثرة الدراسات حول موضوع السنن الإلهية، إلا أنّه لم يحظ بعد بدراسات أكاديمية شاملة تأصيلا وتنظيرا؛ إذْ لا يزال الموضوع جديدا، وقد وقفت على أطروحات تمس جوانب من الموضوع، وأهمها دراستان من جامعتنا الغراء ودراسة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

1- **أسباب الحياة الطيبة من خلال القرآن الكريم**: للباحث صالح بن عبيد صالح العبيد، رسالة ماجستير، كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، 1433هـ- 1434هـ.

طرحت هذه الدراسة أسباب الحياة الطيبة في القرآن الكريم، وذلك في بابين؛ الأول منهما خصصه للعبادات، ومداخلها في الحياة الطيبة؛ حيث تجسد في فصول خمسة، تضمنت أركان الإسلام، ثم أركان الإيمان، ثم الذكر ودوره، ثم الإحسان، ثم أخيرا أعمال القلوب.

والباب الثاني للأخلاق والمعاملات، وتجسد في فصلين، الأول منهما في الأخلاق كالصبر والشجاعة، ودورها في الحياة الطيبة، والثاني للمعاملات من قول حسن، وألفة، وصدق.

وتمثلت إضافتي في إثبات استحالة تحقق الحياة الطيبة دون أسباب مادية حسية؛ لأن الحياة الطيبة كما يوردها القرآن، ذُكِرت بشقيها المادي والروحي.

2- **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة**: للدكتور حسين شرفة، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة1، ويقع البحث في ثلاثة أبواب، الأول منها نظري، تبعه بابان تطبيقيان.

والدراسة محاولة للبحث عن سنن الله في إحياء الأمم؛ حيث خصص الباب الثاني لأهمية الإيمان، وضرورة الفكرة الدينية، وعظيم أثرها في حياة الأمم، وخصص الباب الثالث للعمل الصالح، وأعمال القلوب المصلحة للأمم، كالاستغفار والتوبة والاستقامة والتقوى؛ فكان الأوسع بالنظر إلى ما سبقه.

وتكلم فيه عن الشعائر التعبدية، وسننيتها وفوائدها، ودورها في إحياء الأمم، وهذا ما تتقاطع به مع دراستي، وقد أضاف بحثي الجانب المادي لسنن الحياة الطيبة للأمم.

3- **التدافع وسننه في القرآن الكريم**: للدكتور المشرف على هذا العمل المتواضع، الدكتور عمر حيدوسي؛ الذي جعل السنن الإلهية أساس موضوع دراساته؛ سواء في مرحلة الماجستير أو مرحلة الدكتوراه.

بحثت هذه الدراسة ظاهرة سننية جارية، مقتضاها أنّ الله عزّ وجل يدفع النّاس بعضهم ببعض، ويدفع ظلم بعضهم وشرّهم عن بعض، محاولا الوصول إلى سنن التدافع من خلال القرآن الكريم، وفق منهج التفسير الموضوعي، وجاءت هذه الدراسة في أربعة فصول، وتقاطعت مع دراستي في فصلها الأول في التأصيل لموضوع السنن؛ مفهوما وخصائص، وأنواعا. وبهذا يتبين عدم دراسة الموضوع دراسة شاملة من جميع جوانبه المادية والمعنوية الدينية والدنيوية، حسب ما وقفت عليه،فأردت أن أتوسع في هذا الموضوع، وأجعله رسالة علمية شاملة لسنن الحياة الطيبة.

6- **منهج البحث**:

في سبيل إنجاز هذا البحث، تم اعتماد المنهج **الوصفي بآليتي الاستقراء والتحليل**.

- الاستقراء بتتبع واستقصاء مادة "السنن"، و"الحياة الطيبة" في نصوص القرآن والسنة، ومجمل مصادر البحث ومراجعه.

- التحليل: تحليل وتركيب ما تم استقراؤه من مادة البحث، ومحاولة استنباط أفكار الموضوع المشكلة لهيكل الدراسة.

7- **منهجية كتابة البحث**:

1- عزو آيات القرآن الكريم إلى سورها في المتن، وكتابتها بالرسم العثماني وفق مصحف ورش عن نافع.

2- كتابة الأحاديث النبوية الشريفة مشكولة، مع الإحالة على مصادرها الأصلية، مخرجة برقم الحديث والكتاب والباب والجزء والصفحة.

3- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة، وغالبا ما يكون من الأصول والمصادر المشهورة: صحيحي البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك وكتب السنن: سنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارمي، ومسند الإمام أحمد، مع الاستعانة أحيانا بسنن البيهقي وبعض المصنفات، وإذا ورد الحديث في الصحيحين أكتفي بذكر ذلك، وإذا لم يكن فيهما وكان في غيرهما؛ أُبيّن حكم العلماء على الحديث ودرجته.

4- الحرص على توثيق كل النصوص التي تم الاستشهاد بها في البحث، مع وضعها بين شولتين إن كان الاقتباس حرفيا، ودونهما إن كان الاقتباس فكرة، مع الإشارة إلى مصدرها في الهامش.

5- في توثيق الاقتباس في الهامش، وعند ذكر المصدر أو المرجع أول مرة يتم ذكر اسم المُؤَلِف، ثم مُؤَلَفه والمحقق إن وجد، ثم معلومات النشر بين قوسين (البلد: دار النشر، الطبعة، تاريخ النشر) إن وجدت، وإلا تمت الاستعانة بالرمز (د.ط) بمعنى دون طبعة، والرمز (د.ت) بمعنى دون تاريخ، ثم الجزء والصفحة.

- اعتمدت ذكر سنة النشر بتاريخ ميلادي وهجري أو بحسب ما توفر.

- في حالة استعمال المؤَلَّف مرة أخرى لا يُعاد ذكر معلومات النشر، وإذا تكرر الاعتماد على نفس المصدر مرتين متتاليتين في نفس الصفحة يشار إلى أنه "نفسه".

- أما إذا فصل بين استعماله مرتين فاصل فيُكتب في الإحالة الثانية "اسم المؤلف والمصدر أو نفسه" أو اسم المؤلف مع ذكر الجزء والصفحة إن تغيرت.

6- عند وجود عنوانين للكتاب الواحد أذكرهما معا في أول إحالة، ثم اعتمد الأكثر شهرة في باقي الإحالات، مثلا: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ثم اعتمد تفسير القرطبي لشهرته.

7- عند تهميش مواقع الانترنت يُشار إلى تاريخ التصفح مع ذكر الرابط.

8- لم تتم ترجمة الأعلام المذكورين في البحث، تفاديا للحشو وتضخيم حجم الرسالة، ونظرا لسهولة الحصول على ترجمة أي علم بسبب التطور التكنولوجي.

9- ذُيلت مباحث الرسالة بخلاصة لكل مبحث وفصل.

10- تم وضع فهارس للبحث تشمل: فهرسا للآيات القرآنية الكريمة، وفهرسا للأحاديث النبوية الشريفة، وفهرسا للمصادر والمراجع المعتمدة في البحث، وفهرسا أخيرا لموضوعات البحث.

8- **صعوبات البحث:**

من الطبيعي أن تواجه أي باحث وهو يخوض غمار بحثه بعض الصعوبات، ومن أبرز الصعوبات التي واجهتني:

1- الالتزامات والانشغالات الأُسرية التي تفرض صرف الجهد والوقت والاهتمام، مما يشتت الذهن ويقطع الاسترسال في البحث.

2- جدة الموضوع وكونه مازال خاضعا للدراسة والبحث، وندرة المصادر التي تناولت العلاقة بين السنن الإلهية والحياة الطيبة.

ورغم هذا كان إكمال البحث تحديًا والتزامًا علميًا وأخلاقيًا، وجب خوضه حتى يصل البحث إلى تحقيق أهدافه، ويمثل إضافة علمية تسد فراغا بحثيا في المكتبة السننية.

9- استفاد هذا البحث من دراسات عديدة، أهمها:

- سيد قطب، في ظلال القرآن.
- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الكريم.
- الطيب برغوث، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدعوة.
- حسين شرفة، سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة.

10- خطة البحث:

انطلاقا من التساؤلات التي عُرضت في الإشكالية، وتحقيقا للأهداف المسطرة، واستنادا إلى المادة العلمية المجموعة، تبلورت خطة البحث وتم تقسيمه إلى: مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

المقدمة تم فيها إبراز إشكالية الموضوع، وأهميته، وأسباب اختياره، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث ومنهجيته.

وفي خصصت **الفصل الأول** للسنن الإلهية؛ مفهوما وخصائص وأنواع، في ثلاثة مباحث؛ المبحث الأول: تناول مفهوم السنن الإلهية لغة واصطلاحا، فكان مدخلًا تأصيليًا لتحديد مفهوم السنن وتأصيلها الشرعي. **والمبحث الثاني**: فصلت فيه خصائص السنن الإلهية ببعديها الفطري والاختياري، وختمت الفصل الأول بمبحث ثالث يبين أنواع السنن الإلهية، مع اعتماد تقسيم مطابق لمصطلحات القرآن الكريم، وفي **الفصل الثاني**: تم إبراز السنن الأسباب للحياة الطيبة في القرآن الكريم، وقد قسم إلى ثلاثة مباحث، **المبحث الأول**: جاء فيه تعريف الحياة الطيبة، **والمبحث الثاني**: تم فيه التطرق إلى السنن الأسباب للحياة الطيبة في القرآن الكريم بالنسبة للأفراد والجماعات، وتم تقسيم السنن الأسباب إلى فطرية ومكتسبة، أما **المبحث الثالث**: فخصص للسنن الشروط للحياة الطيبة، **والفصل الثالث** من الدراسة فتناول السنن المظاهر والآثار للحياة الطيبة وتمثلاتها في الجيل الرباني – جيل التنزيل- وتم هذا في ثلاثة مباحث، المبحث الأول: عرضت المظاهر السننية واللاسننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم، والمبحث الثاني: جاء فيه عرض الآثار السننية والشروط للحياة الطيبة في القرآن الكريم، والمبحث الثالث منها: مثلت فيه للحياة الطيبة في المجتمع المسلم، الجيل الرباني جيل التنزيل.

وفي ختام هذه المقدمة تم عرض أهم نتائج البحث، إضافة إلى جملة من التوصيات والمقترحات حول ما يخدم موضوع الرسالة.

الفصل الأول:

السنن الإلهية في القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاث مباحث:

المبحث الأول: مفهوم السنن الإلهية

المبحث الثاني: خصائص السنن الإلهية

المبحث الثالث: أنواع السنن الإلهية

المبحث الأول:

مفهوم السنن الإلهية

قبل الخوض في بحث دلالة المفهوم يحسن بالدراسة تقديم بسط معرفي حول السنن الإلهية بدلالاتها المختلفة اللغوية والصوتية والمعجمية والصرفية، وبيان ذلك في مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم السنن في اللغة

المطلب الثاني: السنن في الاصطلاح

تمهيد حول أهمية السنن:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: 137].

كرم الله الإنسان بالعقل، وزوده بالحواس ليدرك بها ما حوله، واستخلفه في الأرض وحَمَلَهُ مسؤولية الإعمار والتعمير، ومنحه الإرادة والحرية في أفعاله، وهداه لما يَصلَح به أفعالُه ويَحسُنَ أعماله، وسخر له الأرض والسماء وما بينهما ليُحقق منافعه ومصالحه وأخضع كونه بشقيه المادي الصامت، والحي غير العاقل لسنن ربانية نظم بها حياته.

وجعل هذه السنن متصلة بوثاقة بالأنفس والمجتمعات، حتى إنّ كتاب الله حين يذكرها يخصها بالأقوام الغابرة والأمم البائدة، أكثر من تخصيصه أياها بالسنن الكونية، حيث يعتبر القرآن الكريم أول كتاب طرح موضوع السنن ونبه المجتمع البشري إلى أنّ هناك قوانين ونواميس ربانية تحكم وتسير حركة الإنسان والتاريخ والكون واضعا بذلك حدا للتفسير الخرافي، والأساطير الباطلة التي هيمنت على عقول البشر زمنا ليس بالقصير، نفسها السنن التي ترسم منهجا لحياته، ولها علاقة كبيرة بمصيره – سعادة وشقاء- من أخذ بحظ وافر، ذلك أن الحياة لا تمضى عبثا، فحياة الناس على هذه المعمورة محكومة بنواميس ثابتة متى تحققت أسبابها جاءت نتائجها حتما، فالأمور لا تجري جزافاً والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويعلنها للناس، صراحة من أراد الحياة الطيبة فهي محكومة بسنن عادلة، لا تحابى، لا تجامل، ولا تتأثر بالأماني تطبق على الناس فرادي، كما تطبق عليهم جماعات ومجتمعات، حتى لا يتنكبوها، ويعيشوا غافلين عنها، فيذكرهم بثباتها كما يذكرهم باطرادها ليعتبروا، ويتدبروها في تاريخ الحضارات، نهوضا، وسقوطا، تقدما وتخلفا، مرشدا أياهم بأن كل شيء في الوجود محكوم بالقانون الرباني المتمثل في السنن الإلهية، المبثوثة في آفاق السموات والأرض، والجارية في أعماق الأنفس، ليلفت نظر الإنسان ويثير عقله إلى ضرورة اكتشافها محركا وجدانه، لتستيقظ فطرته ويقيم بنيان حياته بدأ وانتهاء وفق هذه السنن، ليحيا حياة طيبة، يقول عمر أحمد عمر: "فإذا اهتدوا إلى تلك السنن سعدوا، وحدث التوافق بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين مجتمعهم، وبينهم وبين الكون الذي يعيشون فيه، ويحصلون منه على كل ما يحتاجون إليه، ومن ثم يطلعون على أسراره، ويعثرون على كنوزه، وينعمون بخيراته، أما إذا انحرفوا عن تلك السنن فإنهم يشعرون بالشقاء لعدم التوافق بينهم وبين أنفسهم التي فطرها الله على تلك السنن، وبينهم وبين المجتمع الذي تجري أحداثه وفق السنن الإلهية سواء علم الناس بها أم جهلوها،

وبينهم وبين الكون الذي يعتبرون جزءا منه؛ ومن ثم فإنهم لا يهتدون إلى معرفة أسراره، ولا يسهل عليهم العثور على ثرواته، أو تراهم يدأبون ويرهقون أنفسهم لمواصلة حياتهم"[1].

لهذا كان المقصد العام والغاية من إخضاع الكون وحياة البشر إلى سنن ربانية تأطير الوجود الإنساني بكل أبعاده، وتوجيهه ليضطلع بمهمة الاستخلاف.

ومن هذا المنطلق الرسالي يُعد الوعي السنني ممّا حرص القرآن الكريم على غرسه في قلوب المخاطبين، من خلال الحث والدعوة المستمرة إلى السير والنظر والتدبر للاستبصار والاعتبار سواء في ساحة التاريخ ، فأخبار الأمم ومصائر الأقوام حاضرة مشاهدة في الواقع أو النظر والتدبر في الآفاق والأنفس لاكتشاف الحقائق التي تؤهلهم إلى تسخير الكون وما فيه ومن ثمة تحقيق الإنجاز والإبداع الحضاري الذي يمكنهم من أن يحيا حياة طيبة كريمة.

"هذا السير وهذا الاستقراء، الذي يحقق الاعتبار لأولي الأبصار، لم يأخذ بعد البعد المطلوب في العقل المسلم المعاصر، وعلى الرغم مما قيل حتى الآن من تعريف للسنن وأهمية إدراكها، وضرورة إدراكها، وضرورة التعامل معها، إلا أن رصيدنا لم يخرج في ذلك عن بدايات ونظرات لم تتجاوز إلى الكنه، ولم تتسع لتشكل مجرى ثقافياً عاماً في الأمة"[2].

فإذا كان الوعي السنني لم يبلغ بعد درجة أهمية موضوع السنن وارتباطه بواقع الحياة والأحياء حيث يعتبر اكتشافها والانضباط بمقتضياتها هو حقيقة التكليف[3]، لم يأخذ الموضوع أبعاده المطلوبة لحصول الشهود الحضاري، المرجو للخروج من ضيق نفق الانحسار الحضاري الذي عانى ويعاني منه المسلمين في عصرنا هذا ويبين الأستاذ الندوي سبب الانحسار المخيف الذي تشهده أمة الإسلام بفقدانها الوعي السنني الإيماني الذي جعل الله مفاتيحه مسطورة من خلال نماذجه القرآنية الراقية التي تحرر الإنسان من أغلال العبودية بأشكالها، ليحقق ما كلف به من إعمار وتعمير، وبناء حضاري ليحيا حياة طيبة؛ يقول: "إن أخوف ما يخاف على أمة ويعرضها لكل خطر ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة للعابثين هو فقدان الوعي في هذه الأمة، وافتتانها بكل دعوة واندفاعها إلى كل موجة وخضوعها لكل متسلط وسكونها على كل فظيعة وتحملها لكل ضيم، وأن لا تعقل الأمور ولا تضعها في مواضعها ولا تميز بين الصديق والعدو وبين الناصح والغاش وأن تلدغ من جحر مرة بعد مرة ولا تنصحها الحوادث، ولا تروعها التجارب، ولا تنتفع بالكوارث، ولا تزال تولي قيادها من جربت عليه الغش والخديعة والخيانة

---

[1]- عمر أحمد عمر، السنن الإلهية في النفس البشرية، ط 1، 1412هـ- 1992م، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر والتوزيع، ص 3-4.

[2]- أحمد محمد كنعان، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، ط 1، 1411هـ، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ص 12.

[3]- ينظر أحمد كنعان، أزمتنا الحضارية، ص 20.

والأثرة والأنانية، ولا تزال تضع ثقتها فيه وتمكنه من نفسها وأموالها وأعراضها ومفاتيح ملكها وتنسى سريعا ما لاقت على يده الخسائر والنكبات فيجترئ بذلك السياسيون المحترفون، والقادة الخائنون ويأمنون سخط الأمة ومحاسبتها ويتمادون في غيهم ويسترسلون في خياناتهم وعبثم ثقة ببلاهة الأمة وسذاجة الشعب وفقدان الوعي"[1].

لاشك أن النباهة الإنسانية المحققة لطيب الحياة، أساسها الوعي السنني الذي يمدّ المسلم بالقوة الدافعة لاسترجاع أمجاد السلف، ومواصلة مسيرة الفتح والامتداد التي توقفت قرون وانقلبت خنوع وانحسار وتخلف وأفول.

المطلب الأول: مفهوم السنن في اللغة

يشكل الاشتغال على المفهوم باعتباره نقطة بدايةٍ، المهمةَ الأشد صعوبة وإحراجا؛ إذ ليس من السهل القبض على المفهوم في عُذريته الأولى دون القيام بحفر معرفي للكشف عن مساراته، ودلالاته، وانغراساته في متون النصوص الشرعية، فالولوج في دلالته واشتقاقاته،هو ما يضعنا في هذه الدراسة البحثية، والتي تمثل موضوعا راهنيا في محاولة منا لاستعادة مقولة السنن الإلهية بوصفها موضوع لم ينل من الدراسة استحقاقه اللازم، ومن ثمة فإن التعاطي مع المفهوم إيذان وفسح للمجال أمام الاستشكال المعرفي الناشئ عن الرغبة الجامحة في محاولة إيجاد مَولِجٍ يدخلنا في قلب "السنن".

وقد اعتنى الدارسون بمفهوم السنن بكثرة، حتى صار لفظًا متداولاً ومعروفًا، خاصة عند رجال العلم والمفكرين المتأخرين، فألفه الباحثون بتعريفيه اللغوي والإصطلاحي، حتى كاد يُستغنى عن التعريف، لذلك سعيت إلى إحداث تغيير في خطوات تعريفه حتى لا يسأم المتصفح لوريقات البحث من التَّكرار الممل بتجديد طفيف يُدخِل الحركة والحيوية على المبحث.

الفرع الأول: الدلالة الصوتية والدلالة المعجمية والدلالة الصرفية لمفهوم السنن

أروم من خلال هذا الفرع بيان مفهوم الدلالة الصوتية والدلالة المعجمية و الدلالة الصرفية.

أولا: الدلالة الصوتية

توخيتُ هنا أن لا يكون التعريف مقتصرا على الدلالة المعجمية المتداولة في البحوث والرسائل الجامعية، بل حاولت إيصال معنى "السنن" صوتيا وصرفيا لعلّها تكون سنة حسنة يقتدى بها ويحذى حذوها، علما أنه قد سبقني في هذا التجديد أستاذي المشرف على هذا العمل "الدكتور عمر

[1]- الندوي أبو الحسن على الحسني، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (د.، د.ت)، مصر، المنصورة، مكتبة الإيمان، ص 251.

حيدوسي"، وسبقته في ذلك الأستاذة "سعاد كوريم" في مقال نشر في مجلة إسلامية المعرفة[1]، ولتتضح هذه الدلالة لابد من تعريفها.

"هي دلالة مستمدة من عمليات النطق، ومن طبيعة بعض الأصوات في المنطوق به، ومن النبر الذي تتغير به الدلالة، ومن النغمة الكلامية"[2].مما لا شك فيه أن"مقدمة كتاب العين مادة غزيرة في علم الأصوات العربية و علم وظائف الأصوات"[3]؛وتعرض هذه الدلالة في النقاط التالية[4]:

1- من السمات الصوتية المميزة لحرف السين أنه حرف أسناني، صفيري، غير مطبق، وحرف النون لثوي، أنفي، مانع مجهور من حروف الذلق،يخرج من ذلق اللسان.

2- لما أذلقت النون انطلق اللسان بها، وسهلت عليه في المنطق، لذا كثرت في أبنية الكلام فليس بناء يعرى من النون.

3- يقول الخليل "إن وردت عليك كلمة معراة من حروف الذلق، وليس فيها حرف واحد، فاعلم أن تلك الكلمة محدثة، مبتدعة، ليست من كلام العرب".

4-"إذا كان البناء اسما لزمته السين، ولا تدخل السين على بناء إلا حسنته، ولما لانت السين بين صلابة الصاد، وصفير الزاي حسنت".

5- "السين أسلية؛ مبدأها أسلة اللسان، والنون لثوية؛ مبدؤها ذلق اللسان، فإذا التقتا جرى بهما اللسان، فهما من الحروف المجهورة".

6- "تمد الصوت جاريا ومعنى المجهور من النفس أن تجري مع السين"[5].

وكذلك السنن تجري في الأنفس والآفاق، والنون شبها بحروف اللين قويا لأشياء منها:

أنّ الغنّة التي في النون كاللين الذي في حروف اللين، وفي السين من معاني الشدة والقوة[6]، ولفظ القوة فيه معاني التشدد والنشاط والحركة، فواضح أنه دال على الصرامة واللزوم التي تلازم السنن، وهي

---

[1]-كوريم سعاد، (**تفسير القرآن بالقرآندراسة في المفهوم والمنهج**)، (مجلة إسلامية المعرفة بين 13ع، 1428هـ- 2007م)، ص: 79-132

[2]-إبراهيم أنيس، **دلالة الألفاظ**، القاهرة، ، مكتبة الانجلو المصرية، (د،ط،ت)، ص: 47.

[3]- الخليل الفراهيدي أبو عبد الرحمان بن أحمد، **كتاب العين**، تح: محمد المخزومي، إبراهيم السامرائي، بيروت، دار مكتبة الهلال، (د،ط،ت)، 12/1.

[4]- ينظر: نفسه، 12/1-51-54-58 .

[5]- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جنى إمام العربية، **سر صناعة الإعراب**، تح: حسن هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1442هـ-2000م)، ص: 440.

[6]- العايد أحمد وآخرون، **المعجم العربي الأساس**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وتوزيع لاروس، (د،ط)(1989م)، ص: 1011.

من سماتها الأساسية المتأصلة فيها، حتى عُرِفَتْ "السنة" من حيث لزومها "بالقوة "عند بعض العلماء[1]؛ ولا ينكر إلا جاحد أو جاهل التناغم الصوتي الجرسي في الفاظ القرآن الكريم،تناغم السنن بأنواعها و توافقها مع حاجات الإنسان و مطالبه.

"وإذا ما حاولنا التماس الجرس أو الدلالة الصوتية في ألفاظ القرآن الكريم وقفنا على حقيقة راسخة وهي أن القرآن الكريم قد ناسب بين أصوات ألفاظه ومعانيها مناسبة عجيبة لفتت الأنظار، وأذهلت العقول حتى كأن اللفظة القرآنية[2]، تكاد تستقل بجرسها ونغمها، بتصوير لوحة فيها اللون زاهيا أو شاحبا وفيها الظل شفيفا أو كثيفا"[3].

"السين من الأصوات ذات الجرس الصارخ، يلحظ لدى استعراضها أنها تؤدي مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة، وهي بذلك تعبر عن الشدة حينا، وعن العناية بالأمر حينا آخر، مما يشكل نغما صارما في الصوت وأزيزا مشددا لدى السمع"[4].

كما نجد من معاني "السنن" سواءٌ اللغوية، أو الاصطلاحية معنى "العناية"؛ يقول سن الإبل: إن رعاها واعتنى بها، ويصدق عليها أيضا معنى الشدة، فهو يلازم معنى السنن.

كما أن صوت السين الذي جاء في أول اللفظ هو من الأصوات المهموسة التي من إيحاءاتها التأثير في النفوس بما فيه من همس خفي، عَمَّق لدى المتلقي الإحساسَ بشدة الموقف، واقترابِ العذاب، فهي كما نقل القرطبي عن المبرد سين الوعيد [5].

وبالعودة إلى آيات القرآن الكريم التي صرح فيها بلفظ "سنن" قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[آل عمران: 137].

فالعاقبة توحي بالعذاب كما توحي بالجزاء الحسن، ولكن أكثر ما يقع في نفس المتلقي والسامع أنها عاقبة العذاب، يقول الطبري في تفسيرها: "قوم عاد وثمود وقوم هود وقوم لوط..."[6].

---

[1]- عرفها الدهلوي: القوى المودعة في العالم؛ ينظر: الدهلوي، أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بالشاه ولي الله، **حجة الله البالغة**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1(1415هـ- 1995م)،ص: 35.

[2]- الخالدي ياسر علي عبد، الطائي كاظم صافي حسين، (**الجرس الصوتي دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن**)، (كلية الآداب، جامعة القادسية، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 18، كانون أول 2014م)، ص: 448.

[3]- الصالح صبحي، **مباحث في علوم القرآن**، بيروت، دار العلم للملايين، ط 24(2000م)،ص: 334.

[4]- محمد حسين علي، **الصوت اللغوي في القرآن**، بيروت، دار المؤرخ العربي، ط 1(1420هـ- 2000م)،ص: 179.

[5]- الخالدييياسر علي عبد، الطائي كاظم صافي حسين، **الجرس الصوتي**، ص: 451.

[6]- الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير أبو جعفر، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تح: أحمد محمد شاكر، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1420هـ- 2000م)، 7/ 228.

كما توحي السنن بالوعيد واقتراب العذاب عرفها بعض العلماء بوقائع الله في الأمم المكذبة وبعذاب الله للأمم المكذبة: "فمكذبو الرسل حق فيهم سنة العذاب"[1]. كما نجد أن من المصطلحات المقاربة للفظ السنة في الاستعمال القراني "العاقبة فهي جزاء الأمر وآخر الشيء" عند الفيروز آبادي[2]، فهو قريب من معنى السنة التي هي الجزاء العادل لفعل الإنسان، والنتيجة الأخيرة لكل سلوك،"والعقاب عاقبة سننية للفعل"[3].

العاقبة توحي بالعذاب كما توحي السنن بالاعتبار، "والسين والنون فيهما من الصفات المحسنة، ولما استقرت الغنة في جوهر النون زادتها حسنا"[4]، الصفيرعبارة عن صويت زائد يخرج مصاحبا السين الأسلية[5].

كما أن دلالة التحسين التي اتسمت بها السين والنون حاضرة في ضرورة حسن فقه السنن واستكشافها وحسن تسخيرها، ليحقق النهوض الحضاري.

– من هنا تظهر أهمية مثل هذه المباحث الصوتية في التأسيس للفظ، لما في ذلك من تداخل وتناسب بين الدلالة الصوتية للفظ والمعاني اللغوية والاصطلاحية.

ثانيا: الدلالة المعجمية

لن تقتصر الدراسة على الدلالة المعجميةالتي احتوتها المعاجم القديمة والحديثة، بل استحدثت خطوات غير مألوفة و لا منتهجة في حدود اطلاعي المحدود لإيضاح معاني اللفظ بناء على إيحاءته، وما يتبادر إلى ذهن المتلقي عند سماع الكلمة. والدلالة المعجمية مفتاح رئيس، يتسنى بعدها صياغة بقية الدلالات، التي تتفرع عن بنية اللفظة؛ و"هي الدلالة اللفظية، ودلالة البنية المورفولوجية على الحديث، وقد عدها ابن جني رأس الدلالات؛ لأنها دلالة أساسية تعد جوهر المادة اللغوية المشترك في كل ما يستعمل من اشتقاقاتها وأبنيتها الصرفية"[6].

---

[1]– عمر حيدوسي، (**التدافع وسننه في القرآن الكريم**)، (رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، 1423هـ– 2002م)، ص: 38.

[2]–الفيروزآبادى مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تح: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، (د.ط) (1412 هـ – 1992م)، 81/4.

[3]– حيدوسي عمر، **التدافع وسننه**، ص: 37.

[4]– ينظر: الحصري محمد خليل ، **أحكام قراءة القرآن**، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط 4(1999م)،ص: 110 .

[5]– ينظر: الزواوي سعيد قاضي، **الجرجرية في ترتيل القرآن**، الجزائر، عالم المعرفة، ط 1(2011م)، ص: 1.

[6]– منقور عبد الجليل، **علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي**، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دط)(2001م)، ص:132.

تعددت وجوه استعمال لفظ "السنة" "السنن" عند أصحاب المعاجم، وأرباب اللغة وأهلها، على معان، هي: الطريقة، والسيرة، والمثال، والعادة، والحكم، والصورة، والوجه، والطبيعة، والدوام، والقصر، والدين.

وسنحاول ترتيب هذه المعاني بحسب ترتيب أصحاب المعاجم، السابقَ فاللاحقَ، للوصول إلى بيان حقيقة دلالة لفظ "السنن" موضوع الدراسة، وبادئَ ذي بدء يلزمنا أن نشير إلى أن كتاب العين أول معجم للعربية قد وضع، فلم يستطع أحد ممن تقدمه، أو ممن عاصره، أن يهتدي إلى شيء من ذلك[1]، ولهذا تم تقديمه لتعريف "السنن".

يقول صاحب العين: "السِّنُّ واحدة الأسنان... والمِسَنُّ: الحجر الذي يُسنُ عليه السكين، أي يحدد.... والمسنون في كلام العرب المصوَّر، وما أحسن سنة وجهه أي دوائره"[2].

و"معناه الدوام" عند الكسائي فيما نسبه إليه الشوكاني في "إرشاد الفحول"[3].

– ثم جاء صاحب أقدم معجم في المعاني ابن السكيت فقال:"سنن الطريق... معناه عن متن الطريق وقصره"، "سننت الماء على وجهي... صببت"[4].

– وأورد ابن فارس أن السين والنون أصل واحد مطرد، هو جريان الشيء واطراده في سهولة، من قولهم سننت الماء على وجهي أسنه سناً... ومنه اشتقت السنة يراد بها السيرة؛ سميت بذلك لأنها تجري جريا، ومن ذلك قولهم:امض على سَنَنِك وسُنَنِك، يريدون وجهك، وقولهم: جاءت الريح سَنَائِنَ، إذا جاءت على طريقة واحدة، وعلى هذا يحمل سننت الحديدة أسُنُّها سَناً: إذا أمررتها على السنان، فأما قولهم: سن إبله: فهو رعاها حتى حسنت بشرتها، فكأنها قد صُقلت صقلا فاستوت كما تستوي الحديدة إذا سنت[5].

---

[1]– ينظر: الخليل، **العين**، 7/1.

[2]–نفسه، 7/ 197.

[3]– الشوكاني محمد بن علي بن محمد عبد الله اليمني، **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، تح: أحمد عزو عناية، دمشق، دار الكتاب العربي، ط 1(1419هـ- 1999م)، 1/ 95.

[4]– ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، **كتاب الألفاظ**، تح: فخر الدين قجاوة، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، باب أسماء الطريق، باب صفات النساء، ط 1(1998م)، ص: 218-343.

[5]– ينظر ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين، **معجم مقاييس اللغة**، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر، باب سن، (دط) (1399هـ- 1979م)، 3/ 60-61.

– ثم جاء أبو هلال ليبين الفرق بين السنة والعادة، فيقول: "إن العادة ما يديم الإنسان فعله من قِبَل نفسه، والسنة تكون على مثال سَبَق، وأصل السنة الصورة، ومنه يقال سنة الوجه؛ أي صورته"[1].

– ويعرف الزمخشري "السنن": "سن سنة حسنة طرق طريقة حسنة... وألزم سنن الطريق قصده، وسن الماء على وجهه صبه صبا سهلا، وسن الحديدة حددها، وسن إبله: أحسن رعيتها، وصقلها كما يسن السيف... وسن الأمير رعيته: أحسن سياستها... وسن الله على يدي فلان قضاء حاجتي: أجراه... واستنّت الطرق وضحت"[2].

– ومما جاء في مختار الصحاح أن: "السنن الطريقة ويقال امض سَنَنِكَ وسُنَنِكَ أي على وجهك والسنة السيرة"[3].

– السنة عند ابن منظور:أن "العرب تقول الحمضُ، يَسُنُّ الإبل على الخلَّةِ أي يقويها كما يقوي السِنُّ حدَّ السكين، فالحَمْضُ سِنانُ لها على رعي الخلة، ... والسِنان الاسم من يَسُنُّ وهو القوة. فالسنة هي الصورة والوجه، والطريقة المحمودة المستقيمة، والوجه لصقالته وملاسته، والسنة الطبيعة، وهي السيرة، حسنةً كانت أم قبيحةً، والسَّنن القصد، ويقال: بنى القوم بيوتهم على سنن واحد؛ يراد به على مثال واحد"[4].

– السنة هي: "العادة" عند الجرجاني[5].

– أما عند الفيروز آبادي فهي: "السيرة والطبيعة وحكم الله وأمره ونهيه"[6].

– ويرى الكفوي"أن السنة هي الأمة، وأن السنن هي الوقائع، والطريقة، ولو كانت غير مرضية"[7].

---

[1]– العسكري أبو هلال ، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران، **الفروق اللغوية**، تح: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة، (د،ط،ت)، 1/ 226.

[2]– الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله، **أساس البلاغة**، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1419هـ- 1998م)، 1/ 478- 479.

[3]– الرازي زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي عبد القادر الحنفي ، **مختار الصحاح**، تح: يوسف الشيخ، بيروت، صيدا المكتبة العصرية، ط 5(1420هـ- 1999م)، 1/ 155.

[4]– ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الإفريقي، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط 3(1414هـ)، 3/ 220- 221- 223- 224- 225- 226- 227.

[5]– الجرجاني الشريف ، علي بن محمد بن علي الزين ، **كتاب التعريفات**، تح:جماعة من العلماء بإشراف الناشر، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1403هـ- 1983م)، 1/ 122.

[6]– الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب ، **القاموس المحيط**، تح: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 8(1426هـ- 2005م)، 1/ 1207.

[7]– الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء الحنفي، **الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تح: عدنان درويش محمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، (د،ط،ت)، ص: 497- 498.

– السنة جاءت بمعان عدة في تاج العروس منها: "الصورة، الوجه، الأمة، السيرة حسنة كانت أو قبيحة، الاستقامة"[1].

– "السنن الطريقة والمثال يقال بنوا بيوتهم على سَنَن واحد، سنة الله: حكمه في خليقته"[2].

بعد تتبع ما قاله أهل اللغة، وأصحاب المعاجم في تعريفهم للسنن، نتوصل إلى أن دلالات لفظ السنن تتعدى إلى مجالات متنوعة، كما تتنوع السنن إلى سنن هداية، وسنن كونية، وسنن اجتماعية، فتحتم تقسيم التعريفات إلى ثلاث دلالات حسب ما تقتضيه الدراسة.

ثالثا: الدلالة الصرفية

"وهي مستمدة من الصيغ وبنية الكلمات"[3]، أنه مما ينبغي تسجيله في هذا المهْيَع – الدرس الدلالي للأبنية – هو ذلك الاحتياج البحثي الذي امتد من لدن علماء اللغة السابقين، الأمر الذي جعل المعاصرين يتبعون تلك المادة العلمية الثّرّة في استشفاف الدلالات الصرفية للأبنية المختلفة، وأدى اقتصار جهود السابقين على توليد دلالات بعض الأبنية دون غيرها إلى تجرؤِ بعض المعاصرين على القول: "إن تعدد الجموع القياسية سواء أُسْمِعت أم لم تُسمع، استعملت أم لم تستعمل لا يعني شيئا أكثر من فوضى اللغويين في تحديد الفروق بين الجموع"[4].

1- **تصريف كلمة سنن:** سَنَّ[5]: سَنَنْتُ، يَسُنّ، اسْنُنْ/ سُنّ، سَنًّا، فهو سانّ، والمفعول مَسْنون وسَنِين.

2- الدلالة الصرفية للفظ "السنن": يصنَّف لفظ السنن على أنه جمع تكسير[6]، على وزن فُعَل، ومفرده "سُنَّة" على وزن فُعْلَة، وهو من الصيغ التي تدل على الكثرة.

---

[1]- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بالمرتضى، **تاج العروس من جواهر القاموس**، بيروت، دار الهداية، ط 1(1414هـ)، 35/ 230- 232.

[2]- إبراهيم مصطفى، الزيات أحمد، حامد عبد القادر، النجار محمد، **المعجم الوسيط**، القاهرة، (د،ط،ت)، دار الدعوة، 1/ 456.

[3]- إبراهيم أنيس، **دلالة الألفاظ**، ص: 47.

[4]-الصالح صبحي، **دراسات في فقه اللغة**، بيروت، دار العلم للملايين، ط 3(2009م)،ص: 336.

[5]- أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1(1429 هـ - 2008م)، 2/ 1120- 1123.

[6]- يشير ابن عاشور إلى الخلاف الحاصل بين اللغويين في تصنيف لفظ "سنة" من الجامد او من المشتق فيقول: "وَقَدْ تردّد اعْتِبَار أئمّة اللُّغَةِ إِيَّاهَا إِيَّاهَا جَامِدًا غَيْرَ مُشْتَقٍّ، أَوِ اسْمَ مَصْدَرِ سَنَّ، إِذْ لَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ السَّنُّ بِمَعْنَى وَضْعِ السُّنَّةِ، وَفِي «الْكَشَّافِ» فِي قَوْلِهِ: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ [38]: سُنَّةَ اللَّهِ اسْمٌ مَوْضُوعٌ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ كَقَوْلِهِمْ تُرْبًا وَجَنْدَلًا، وَلَعَلَّ مُرَادَهُ أَنَّهُ اسْمٌ جَامِدٌ أُقِيمَ مَقَامَ الْمَصْدَرِ كَمَا أُقِيمَ تُرْبًا وَجَنْدَلًا مَقَامَ تَبًّا وَسُحْقًا فِي النَّصْبِ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ شَأْنِ الْمَصَادِرِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى تُرَابٌ لَهُ وَجَنْدَلٌ لَهُ أَيْ حُصِبَ بِتُرَابٍ وَرُجِمَ بِجَنْدَلٍ. وَيَظْهَرُ أَنَّهُ مُخْتَارُ صَاحِبِ «الْقَامُوسِ» لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِي مَادَّةِ سَنَّ مَا يَقْتَضِي أَنَّ السنّة اسْم مصدر، وَلَا أَتَى بِهَا عَقِبَ فِعْلِ سَنَّ، وَلَا ذَكَرَ مَصْدَرًا لِفِعْلِ سَنَّ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِعْلُ سَنَّ هُوَ الْمُشْتَقُّ مِنَ السُّنَّةِ اشْتِقَاقَ الْأَفْعَالِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْجَامِدَةِ، وَهُوَ اشْتِقَاقٌ نَادِرٌ.

– استعملت كلمة "سنن" أو "سنة" في مواطن من الكلام، وفي كل مرة يخصصها الاستعمال بمعان أخصَّ من المعنى العام. فخصصها العلماء بمعان متنوعة (الطريقة، المثال، العادة، الشرائع، كلمات الله، القوانين، النواميس...).

– و بهذا يتم لكلمة السنن في اللغة العربية، أكثر من معنى، ويجتمع لها أكثر من دلالة، وهذه الاستعمالات أو المعاني المتعددة تتصل كلها بالمعنى الأصلي اتصالا قويا.وهذا ما ستبينه الدراسة فيما بعد.

فكلمة السنن لها أكثر من معنى من حيت استعمالاتُها، متعددة الآفاق والمجالات التي تتصل ببعضها البعض، اتصالا قويا، اتصالَ تكامل وتعاضد، تعاضدِ المعاني المتعددة بالمعنى الأصلي، فلا نستطيع الفصل بين المعنى الأصلي للكلمة في اللغة العربية، كما لا تستطيع الفصل بين أنواع السنن فكلها خلق الله، سواء السنن الكونية، أو السنن النفسية أو السنن الاجتماعية.... أو التشريعية... قل ما شئت فكثرة السنن، توحي بالدلالة الصرفية للفظ "السنن" والتي تدل على الكثرة.

الفرع الثاني: الدلالة الدينية الشرعيةوالدلالة الطبيعية

أروم من خلال هذا الفرع بيان مفهوم الدلالة الدينية الشرعية والدلالة الطبيعية للفظ السنن.

أولا:الدلالة الدينية الشرعية

حاولت جمع كل معاني السنن التي تدل على مرجعيتها الشرعية الدينية لحصرها في مجال واحد عنونت له بالدلالة الدينية للفظ السنن فيكون كالتالي.

عرفت السنن بأنها دين الله وحكم الله، أمره ونهيه، وقائع الله، الدين شرائعه؛ ونجد هذا المعنى الشرعي الديني حاضرا بقوة في التعريفات الاصطلاحية للفظ "السنن"، ما يدل على التناسب والتعاضد والعلاقة المتينة بين المعاني اللغوية والمعاني الاصطلاحية للألفاظ، وهذا ما أشار إليه مصطفى اليعقوبي في قوله: "إن بين المصطلح وأصله اللغوي وجوه من المناسبة، وهذه لا تنقطع باكتساب اللفظ لدلالته الاصطلاحية"[1]؛ وهذا ما توخيت الوقوف عليه في التعريف الاصطلاحي للسنن.

وَالْجَارِي بِكَثْرَةٍ= عَلَى أَلْسِنَة المفسّرين والمعربين: أَنَّ السُّنَّةَ اسْمُ مَصْدَرٍ سَنَّ وَلَمْ يَذْكُرُوا لِفِعْلِ سَنَّ مَصْدَرًا قِيَاسِيًّا"؛ ينظر: محمد الطاهر بن عاشور التونسي،**التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**، تونس، الدار التونسية،(دط)(1984م)، 4/ 96-97.

[1]– اليعقوبي مصطفى، (**الدراسة المعجمية للمصطلح**)، (مجلة دراسات مصطلحية فاس، معهد الدراسات المصطلحية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 5، 2006م)، ص: 33.

جاء في المعجم الوسيط تعريف السنن بحكم الله في خليقته، وحكمُ الله ثابتٌ في الخلق لا يتغير بتغير الزمان، أو المكان، أو الأمم، وكذلك السنن من خصائصها الثبات؛ فهي لا تحابي، ولا تعادي، جارية على الكل، مطردة، دائمة دوامَ دين الله، ومادام هناك من يعرف "السنة" بالدين.

ثانيا: الدلالة الطبيعية

إذا تتبعنا أقوال العلماء في تعريفهم للسنن نجد للفظ وجوها من المناسبة بينه وبين كل ما يسري في الطبيعة، فمن معاني السنن الدالة على الطبيعة في عذريتها والتي اعتمدها المعرفون في تعريف السنن ما يلي: الطبيعة، جريان الماء، جاءت الرياح سنائن، الوجه، الصب، سننت الماء على وجهي صببت.

اتَّفق على هذا المعنى الذي يحمل الدلالة الطبيعية للفظ "السنن" جمع غفير من علماء اللغة، منهم: ابن منظور في اللسان وأبو بكر الرازي في مختار الصحاح، وقبلهم ابن السكيت، وأشار إلى هذا الأصل ابن فارس في المقاييس، والزمخشري في الأساس في إيراده معنى صب الماء وجريانه بسهولة، وحركة الرياح وتصريفها في جميع الاتجاهات والحركة، والجريان، وكل هذه الأقوال قرائن دالة على الطبيعة، بما يحمله اللفظ من حيوية ونشاط وحركة، وكل هذه المعاني حاضرة في مدلول السنن، وحقيقتها.

الفرع الثالث: الدلالة الاجتماعية والدلالة الجمالية للفظ السنن

أروم من خلال هذا الفرع بيان مفهوم الدلالة الاجتماعية والدلالة الجمالية.

أولا: الدلالة الاجتماعية

ترد صيغة سنة الله في القرآن الكريم خاصة بالسنن الاجتماعية وخير دليل على هذا اقترانها بالامم السابقة، أو سنن الأولين في أكثر من تسعة آيات[1]، فدلالة اللفظ على الناحية الاجتماعية أو التاريخية للأمم والأقوام أقوى منها دلالة على السنن الكونية، ويعضد رأيي كلام للدكتور إبراهيم أنيس.

يقول إبراهيم أنيس في كتابه "دلالة الألفاظ": "إن لكل كلمة دلالتها الاجتماعية المستقلة... وفيها تؤدي كل كلمة وظيفة معينة"[2].

وبتتبع آيات القرآن الكريم التي ورد فيها بلفظ "السنن"، نجد موضوعها السنن الاجتماعية الخاصة بالأفراد والأمم والجماعات.

وما جاء في معاجم اللغة في معنى السنن، يدل على هذا، فعرفت السنة بالسيرة، والطريقة، والعادة، والأمة، والمثال، ولعل أشهر تعريف للسنن في كتب المتقدمين والمتأخرين، وأوسعه هو المثال المتبع، والإمام المؤتم به[1]؛ وأكاد أجزم أن أغرب تعريف لها أنها "القُوى المودعة في العالم"[2].

---

[1]- آل عمران 137، النساء 26، الأنفال 13، الكهف 55، الأحزاب 38-62، فاطر 43، غافر 85، الفتح 23.

[2]- إبراهيم أنيس، **دلالة الألفاظ**، ص: 48.

ومن معاني القوة: الصرامة، والحركة، والنشاط؛ وهو أساس السنن، سواءٌ أكانت اجتماعية أم كونية أم شرعية، ولا ننسى التأثير القوي لها في إحداث النهوض أو الاستدمار الحضاري، وبالأمة عرف الكفوي السنة، إذ إن مجال السنن الأمم، ومدلولَ الجريان سارٍ في الأفراد والأمم.

و"السنة": هي العادة عند الجرجاني، كما أن عادات الله في الأولين: سنن يجب الاعتبار بها، ما دامت مطردة، إذ هي طريقة من كان قبلنا من الأقوام، والطريقة مثل السيرة والعادة، تحمل معنى الاستمرار والتتابع، والمداومةِ على الفعل، وجريانَها على "مثال سبق"[3].

ثانيا: الدلالة الجمالية

تحمل بعض آيات القرآن الكريم وسوره كل مناظر وأوصاف الجمال والبهاء كأنها لوحات زيتية مفحمة بالحياة والحركة، بما يثير الوجدان ويحرك العاطفة، فقد ذكر القرآن مظاهر الجمال بنوعيه الحسي والمعنوي فمنه ما يّدرك بالحسّ كجمال الطبيعة في سمائها وأرضها، وشمسها وقمرها، وليلها ونهارها،وبرّها وبحرها، وكجمال الإنسان من حيث تكوينه، ومنها ما لا يدرك بالحس والمشاهدة فالجمال المعنوي جمال الأقوال الحسنة والأفعال الصالحة والألفاظ الطيبة مصداقا لقوله تعالى:﴿ وَمَنَ اَحۡسَنُ قَوۡلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[فصلت: 33]، والملاحظ والمتأمل في تعاريف لفظة السنن يجد أنه حَمَل دلالات الجمال وصفاته والتي منها:

حمل تعريف "السنة" عند بعض علماء اللغة كل صفات الجمال، فمن صقالة وجه الإنسان وملاسته، إلى سن الإبل إذا رعاها حتى حسنت بشرتها، إلى الوجه وصورته، وصفحته، ودائرته، وهذه الصفات؛ الصقالة، والأسالة، والملاسة، تضفي جمالا على الوجه، كما "قيل: سن المنطق حسنه، فكأنما صقله وزينه" نقل هذا المعنى ابن منظور ويتصل هذا المعنى بالجريان والاطراد والحركة، إذ لا يتحقق صقل الوجه، أو السكين، ولا "تزين الصورة إلا باطراد فعل الإحداد والتحسين، وجريانه في سهولة، ابتداءً، وقصدًا، واتباعًا"[4].

وباستحضار المعاني السابقة، باختلاف دلالاتها، نجد أنها تدل على أن معنى الجريان والاطراد هو المعنى الأساس للسنن، فلم يعدَم منه تعريف، سواءٌ في المجال الديني، فحكم الله جار في الخلق، أو في

---

(1)- الطبري، **جامع البيان في تأويل آيات القرآن**، 4/ 100.

(2)- الدهلوي، **حجة الله البالغة** ،1/ 49.

(3)- ينظر: العسكري، **الفروق اللغوية**، القاهرة، دار العلم والثقافة، (د،ط،ت)، ص: 226.

(4)-البطيوي عزيز ، **سنن العمران البشري في السيرة النبوية**، هردن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط 1(1439هـ- 2018م)، ص: 46.

المجال الطبيعي، إذ كل ما في الطبيعة يجري وفق نواميس وقوانين، يخضع لها المجتمع البشري، أو في المجال الاجتماعي؛ فنجد الأمم تعتمد طرقًا متنوعة في تشييد العمران وبناء الحضارات، طبقا لسيرة أفرادها، سواء أكانت حميدة أم كانت ذميمة، وما دِيم عليه من عادات أقوام مضت في الاعتبار بعاقبتهم، والنظرِ أمرا يُحَثُّ إليه ويُنْدَبُ، هذه خلاصة المبحث اللغوي، وفيها من المعاني والدلالات ما ينفع.

المطلب الثاني: السنن في الاصطلاح

ليتضح لفظ السنن لابد من بيانه معانيه في تخصصات وعلوم مختلفة.

الفرع الأول: السنن في العلوم الإسلامية

تعتبر العلوم الإسلامية بحرا غويصا لا قرار له، متلاطم التخصصات، متشعب العلوم والمعارف، لهذا قبل الشروع في تحديد معنى السنة اصطلاحا، رأيت أنه لابد من بيان اختلاف العلماء في معاني لفظ السنة باختلاف فنونهم، فكل فريق أوطائفة ينظر إليها من زاوية تخصصه، فتنوعت تعريفاتهم تبعا لتنوع اختصاصاتهم واهتماماتهم، لهذا يشيع عادة الاختلاف حول الاستعمال الاصطلاحي، وهو ما يقتضيه النظر، والتأمل، والمقارنة لتحديد أوجه الاتفاق، والاختلاف؛ وبما أن طبيعة الموضوع لا تسمح بالتفصيل في هذا الاختلاف وفي جل التخصصات مما يستلزم التركيز على بعض منها فقط[1].

وما نلحظه أولا أن المعرفة العلمية السننية هي الإمام المتبع في كل علم من علوم الشريعة الإسلامية، وأول ما نبدأ به من معاني السنة معناها في علم التفسير؛ لأنه أحق ما يُبدأ به، باعتباره علما يكشف به عن معاني كلام الله سبحانه في كتابه العزيز، ولأنه أول العلوم ظهوراً.

---

[1]- أروم من خلال هذا الفرع إبراز معنى السنة عند علماء التفسير وعلماء الحديث والفكر الإسلامي دون الاستفاضة والتوسع في العلوم الأخرى غير أن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى بعضها هاهنا ممن ذلك علماء الأصول حيث اهتموا ببيان مدلول السنة فهي تلي الكتاب في مصادر التشريع وكذا الفقهاء وعلماء العقيدة وغيرهم؛ ينظر: الآمدي أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي ، **الإحكام في أصول الأحكام**، تح: عبد الرزاق عفيفي، (د،ط)، لبنان، بيروت، دمشق، 169/1؛ وينظر: الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير، **الموافقات**، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، مصر، الجيزة، دار ابن عفان، ط 1(1417هـ- 1997م)، 4/ 290 وينظر: النفراوي أحمد بن غانم بن سالم ابن مهنا، شهاب الدين الأزهري المالكي، **الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، لبنان، بيروت، دار الفكر، (د،ط)(1415هـ 1995م)، 21/1، وينظر: الطوفي سليمان بن عبد القوي بن الكريم الصرصري، أبو الربيع نجم الدين، **شرح مختصر الروضة**، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، باب تعريف الخبر، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1407هـ- 1987م)، 2/ 63؛ وينظر: ابن تيمية أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، **الوصية الكبرى، رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أتباع عدي بن مسافر الأموي**، تح: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، الطائف، السعودية، مكتبة الصديق، ط 1(1408هـ- 1987م)، 1/ 78.

أولا: تعريف السنة في اصطلاح المفسرين

نتناول ابتداءً مفهوم السنة في تفاسير القدامى، وبعدها نعرج على تفاسير المعاصرين.

1- تعريف السنة في تفاسير القدامى: فُسِرَ لفظ (السنة) بحسب موقعه في الآيات القرآنية، ولم تتنوع معانيه كثيراً، على تنوع التفاسير بين المأثور والرأي؛ لأن أخذ اللاحق عن السابق كان مجرد تقليد جامد دون اجتهاد فاعل مع الاعتراف والعرفان الكامل لجهود العلماء القدامى ومدى خدمتهم وعنايتهم لكتاب الله، فتشابهت التعريفات على كثرة التفاسير المعتمدة في هذا البحث، حيث اطلعت على كثير من التفاسير، وبعد الاستقراء ظهر أن المعنى اللغوي لكلمة "سنة" هو الغالب في تعريفاتهم الاصطلاحية.

ففي تعريف الطبري هي المثال المتبع، والإمام المؤتم به[1]، وأضاف معاني أخرى للسنة في ثنايا تفسيره مثل السبل، والأمثال، والوقائع، والطرق، والمناهج، وتبعه الواحدي[2].

وجاء بعدهما الفخر الرازي ليزيد معنى الطريقة المستقيمة على تعريف الطبري، فيصبح تعريف السنة عنده "الطريقةُ المستقيمةُ، والمثالُ المتَّبعُ"[3].

وعقَب الرازيَّ جمعٌ من المفسرين بإضافات قليلة لتنطبق عليهم مقولة "ما ترك الأول للآخر"، حتى لم يكد تفسير يخلو من "الطريقة المستقيمة"، و"المثال المتبع"، و"الإمام المؤتم به".

ونعرض أقوالهم على النحو التالي:

أ- "ما سنه الله في الأمم من وقائعه"[4].

ب- "مناهج من كان قبلكم"[5].

بعد هذا العرض لأقوال المفسرين في معنى "السنة"، يتبين لنا أن المعنى الغالب فيها للفظ "السنة" هو الطريقة والطرائق، ثم يليه الوقائع، والمناهج، والعادة، والشرائع، والمثال، والإمام، وبذلك يكون التعريف اللغوي معتمد أكثر عند المفسرين في اصطلاحاتهم على اللفظ، مع ورود بعض الإضافات

---

[1]- الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، 7/ 228- 229- 230، 8/ 209.

[2]- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، تح: الشيخ عادل بن أحمد عبد الموجود، ود. عبد الرحمان عويس،لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1415هـ- 1994م)،1/ 496، 2/ 37.

[3]- الرازي الإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي، **مفاتيح الغيب**، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 3 (1420هـ)، 9/ 369.

[4]-الشوكاني محمد بن علي بن عبد الله اليمني، **فتح القدير**، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، الكلم الطيب، ط 1 (1414هـ)، 1/ 439.

[5]- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد جار الله، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، لبنان، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 3 (1407هـ)، 1/ 414- 501.

القليلة على هذا المعنى، لا تتعدى في أكثرها اللفظة، واللفظتين على المعنى السياقي، أو إضافة في الوصف، مثل "الطريقة المستقيمة" عند الرازي، و"الطريق المستقيم" عند القرطبي، و"الطرائق الحميدة" عند ابن كثير.

ولا يعاب على المفسرين القدامى هذا التكرار والتقليد، والنقل عن من سبقهم، وإن رآه من رآه عقيما، إذ أن مصطلح "السنن" لم يكن قد تبلور بعد، والمفهوم لم يكن مدروسا ولا محددا، والإدراك بالسنن كان إدراكا أوليا لم تفرد له التآليفات، ولا أسيلت فيه المحابر، أوبيضت المسَوَّدات.

بعد عرض معنى "السنة" في تفاسير القدامى نعرج الآن على بيان معنى السنة عند المفسرين المعاصرين، لنرى إبداعهم وتجديدهم في الكشف والبيان عن المعنى، كونه اتضح أكثر وأصبح مألوفا ومفهوماً، واضح المعالم والدلالات، مدروسا وافي المصادر والمراجع، فهل أضافوا جديدً!؟ وهل أماطوا الحجب، وتعدوا التقليد، والتكرار!؟ إذ إن عذر المتقدمين لا يصدق عليهم.

2- تعريف السنة في تفاسير المتأخرين: تبع المفسرون المعاصرون أسلافهم القدامى بإحسان لتبقى كلمة السنة تعرف عندهم بالطريقة، والعادة، والمثال، تعريف السلف دون أدنى اجتهاد يذكر، عدا بعض المحاولات المحتشمة من بعض المفسرين، لإعطاء حيوية وحركة وفاعلية لمصطلح السنة، وقد يعود هذا الاتباع للخوف والخشية من التجرؤِ على كتاب الله، والحياء من الاجتهاد مع وجود أقوال السلف، مع أن التفسير لا يغلق له باب متى توفرت الشروط.

وسنعرض أقوال المفسرين المعاصرين لنبين مظاهر التباين في تفسير وتعريف لفظ "السنة".

أ- يعرفها صاحب المنار بأنها"الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة"[1]؛ فغَيَّر محمد رشيد رضا صفة المعنى اللغوي للسنة عند القدامى "الطريقة المستقيمة بالطريقة المعبدة".

ب- وأما مصطفى المراغي، فالطريقة المعبدة عنده هي الطريقة المعتبرة، وحافظ على الشق الثاني من تعريف صاحب المنار، حيث يقول: "السنن واحدها سنة، وهي الطريقة المعتبرة والسيرة المتبعة"[2].

ج- وجاء بعدهما السِّعدي، ليعرفها بقوله الطرق القويمة[3]، ليحافظ على المعنى ويغير في الصفة فقط.

---

[1]- محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د، ط) (1990 م)، 4/ 114.

[2]- المراغي، أحمد بن مصطفى، **تفسير المراغي**، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 1(1365هـ- 1946م)، 4/ 74.

[3]- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تح:عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط 1(1420هـ- 2000م)، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1/ 666.

د- فالسنة عند رشيد رضا كانت الطريقة المعبدة، لتُعتبَرْ عند المراغي فتصير المعتبرة، ثم يُقومَهَا السِّعدي فتصبح القويمة.

هـ- وجاء صاحب التحرير والتنوير بمرادف للطريقة وهي "السيرة من العملِ أو الخلقِ الذي يلازم المرءُ صدورَ العملِ على مثالها"[1].

و- وتعدى الشعراوي في تفسيره المعنى اللغوي للسنة، المحصورَ في الوصف، إلى معناه التسخيريِّ الوظيفيِّ بقوله: "هي الطريقة التي يُصَرِّفُ الله بها كونه، بما يحقق مصلحة ذلك الكون"[2]؛ رغم تكراره للفظ الكون.

ز- وزاد المفسر الجزائري أبو بكر جابر الجزائري، حيث عرف السنة بالسيرة، والطريقة، فجاء بمعنى جديد؛ هو: "القانون"[3].

ي- وبالقانون أيضا عرفها المفسر وهبة الزحيلي، حيث قال: "فذلك حكم الله وقانونه القديم"[4]. فأضاف وهبة الزحيلي القانون إلى الله لبيان مرجعيتها.

بالنظر والمقارنة بين هذه التعاريف، أرى -والله أعلم- أن الشعراوي قد وفق في تعريفه للسنة باعتبار التعريف جامعا لكل أنواع السنن، سواء منها سنن الهداية، أو الآفاق، أو الأنفس، لأن ما يصلح الكون لابد أن يتضمن الأنواع الثلاثة، ويبين مرجعيتها، وخصيصةً من خصائص السنن؛ أنها تسخيرية.

بعد هذه الرحلة المباركة في كتب التفاسير، قديمها وحديثها، وبعد تتبع أقوال المفسرين في تحديد معنى السنة عبر آيات القرآن الكريم، خلُصنا إلى أن جُل المفسرين لم يفصلوا في معنى "السنة" تفصيلا لائقا بأهمية موضوع السنن، ودرجوا على تكرار بعض المعاني، كما تناولوا مفهوم السنة تناولا لغويا، وغاب معنى السنة في القرآن الكريم كوحدة موضوعية، كما أن كثيرا من المفسرين القدامى لم يتعرضوا للأبعاد التاريخية والحضارية للسنن، لهذا جاء معناها "الطريقة، المثال، العادة، السيرة، الأمثال، المناهج..." دون استحضار معناها في السياق القرآني كلّه؛ أي بقية الآيات التي ورد فيها ذكر السنة أو السنن، فجاءت النظرة جزئية، وأهملت النظرة الشمولية الكلية للسنن، فضاعت بذلك الرؤية السننية

---

[1]- ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، 4/ 96.

[2]-الشعراوي محمد متولي ، **تفسير الشعراوي، خواطر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم**،القاهرة، طبعت بمطابع دار أخبار اليوم، 6 أكتوبر، (د،ط،ت)، 1773/3.

[3]- أبو بكر الجزائري جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر ، **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، السعودية، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط 5(1424هـ- 2003م)، 381/1.

[4]- الزحيلي وهبة بن مصطفى ، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط 2(1418هـ)، 26/ 185.

القرآنية؛ مما نتج عنه اختلال، وضعف، وقصور معرفي، ومنهجي لموضوع السنن، الأمر الذي أسقط الأمة حضاريا، فغفلت عن تحقيق وظيفتها في الاستخلاف والعمران.

ثانيا: السنة في اصطلاح المحدثين

بما أن كتاب الله هو المشرع الأول للسنن، وكتاب الله لا يفهم معناه إلا بالرجوع إلى كتب التفاسير، فقد تصدر علم التفسير الريادة في بيان معنى السنة، وتعريفها، ولما كانت السنة النبوية ثاني الوحيين؛ شارحة ومفصلة، ومبَيِّنَةً لكتاب الله ومشَرِّعة للأحكام، فمن الواجب التعرض لمعنى "السنة" عند المحدثين الحفاظ.

ولبيان معناها في كتب المحدثين لابد من عرض بعض الأحاديث التي ورد فيها لفظ "السنة" أو "السنن"، من غير استقراء كلي لها.

1- جاء لفظ السَّنَن في حديث أبي سعيد الخذري عن النبي ﷺ قال: «لَتَتّبِعُنّ سَنَنَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حَتّىَ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبَ لاَتّبَعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللّهِ آلْيَهُودُ وَالنّصَارَىَ؟» قَالَ: «فَمَنْ؟»[1].

2- وورد لفظ "السنة"في قوله ﷺ، عن جرير بن عبد الله البجلي قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا»[2].

3- ووردت نسبته إلى الأولين في قوله ﷺ عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ – رضي الله عنه-، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لا تَتْرُكُ هَذِهِ الأُمَّةُ شَيْئًا مِنْ سَنَنِ الأَوَّلِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُ»[3].

4- وورد بلفظ "سنتي" عنه ﷺ عن أنس بن مالك – رضي الله عنه- قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ

---

[1]– أخرجه البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، **صحيح البخاري**، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا، باب قوله النبي ﷺ « لَتَتْبَعُنّ سَنَنَ من كان قَبْلِكُمْ»، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، [6889]، دمشق، دار طوق النجاة، ط 1 (1422هـ)، 3/ 2663.

[2]– أخرجه مسلم أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وإنها حجاب من النار، [1017]، لبنان، بيروت، دار ابن حزم، ط 1(1416هـ- 1995م)،2/ 583 .

[3]–رواه الطبرانيسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الحافظ الطبراني، **المعجم الأوسط**، تح: محمد الطحان، [315]، الرياض، السعودية، مكتبة المعارف، ط 1 (1405هـ- 1985م)، 1/ 213، وهذا الحديث لا يروى عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ إِلا بِهَذَا الإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهِيعَةَ، وصححه محمد ناصر الدين الألباني؛ ينظر: الألباني، **صحيح الجامع وزيادته**، المكتب الإسلامي، (د،ط،ت)، [7219]، 1210/2.

آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [1].

5- وجاء أيضا لفظ السنة مضافا إلى أهل الكتاب في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»[2]، وذلك عندما سأل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- عن المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم.

6- وورد أيضا لفظ السنة مضافا إلى الصحابة – رضوان الله عليهم – عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «فقال العرباضُ: صَلَّى بنا رسولُ الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبلَ علينا، فوَعَظَنا موعظةً بليغةً ذَرَفَتْ منها العيونُ ووَجِلَت منها القلوبُ، فقال قائل: يا رسولَ الله ﷺ كانَ هذه موعظةُ مودعٍّ، فماذا تَعهدُ إلينا؟ قال: «أوصيكُم بتقوى الله والسمعِ والطَّاعةِ وإنْ عَبْداً حبشيَّاً، فإنَّه من يَعِشْ منكم بَعْدي فسَيَرى اختلافاً كثيراً، فعليكُم بسنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ، المهديِّينَ الرَّاشدينَ، تَمَسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ، وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمورِ، فإن كُلَّ مُحدَثَةٍ بدْعَةٌ، وكل بدعَةٍ ضَلالةٌ»[3].

7- وجاء لفظ السنة لوصف "سنة الجاهلية"، قال ﷺ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلاَثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ»[4].

8- إضافة السنة إلى النبي ﷺ، عن الرسول ﷺ قال: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ»[5].

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، [4776]، 5/ 1949.

[2]- رواه مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني، **موطأ الإمام مالك**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الزكاة، باب جزية أهل الكتاب، [42]، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ، (د،ط) (1406هـ- 1985م)، 278/1.

- قال عنه ابن عبد البر في التمهيد: "حديث سادس لجعفر بن محمد منقطع لأن محمد بن علي لم يلق عمر ولا عبد الرحمان بن عوف، ولكن معناه متصل من وجوه حسان"؛ ينظر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، **التمهيد لما في الموطإ من المعاني والأسانيد**، تح: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري،[42]، المغرب، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، (د،ط) (1387هـ)، 2/ 114 .

[3]- رواه أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، **سنن أبي داود**، ت: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، [4607]، دمشق، دار الرسالة العالمية، ط 1(1430هـ- 2009م)، 7/ 16، وقال شعيب الأرنؤوط حديث صحيح وهذا إسناد حسن، وهذا الحديث قد صححه الترمذي والبزار فيما نقله عنه ابن عبد البر حديث عرباض حديث ثابت، [2306] .

[4]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق، [6882]، 6/ 2523.

[5]- رواه مالك بن أنس، **موطأ الإمام مالك**،باب النهي عن القول بالقدر ، [1874]، 2/ 70.

بعد عرض مجموعة من الأحاديث النبوية التي تضمنت لفظ "السنة" نجد أن الحديث النبوي يزخر بلفظ "السنة"، حيث ورد في سياقات متنوعة، هي:

أ- الإخبار والإنباء، حيث يتنبأ الرسول ﷺ لحال أمته بعده.

ب- الوعظ والإرشاد (وعظ الصحابة رضوان الله عليهم).

ت- التأنيب والتحذير (التحذير من عدم اتباع سنته).

ث- التعبير والتوبيخ (الخشية من اتباع اليهود والنصارى).

ج- التبشير (تضاعف الأجر لمن سن سنة حسنة).

ح- التشريع (بيان مشروعية السنة وحجيتها).ويأتي معنى السنة في شروحات المحدثين الحفاظ بدلالات ومعان، هي: الطريق، والطريقة، وطرائق، والسيرة، والآثار، والعادة، والهدى، والفطرة، والأحكام).

خ- السنة بمعنى الطريقة: المراد بالسنة الطريقة التي تقابل الفرض[1].

د- السنة بمعنى طريق: "لا تترك" خبر بالمغيب "هذه الأمة" أمة الإجابة "شيئا من سنن" ضبط بفتح المهملة أي طريق "الأولين" من الأمم[2].

ذ- السنة بمعنى الطريق: قال ابن حجر: "قوله لتتبعن سنن... وهو الطريق"[3].

ر- السنة بمعنى طرائق: "سنن الأولين" أي طرائق الأولين[4].

ز- السنة بمعنى العلم: قال ابن حجر: "استدل ابن عبد البر في باب ذم القول بالرأي، إذا كان على غير أصل، بما أخرجه ابن وهب: "وكان أبي يقول: السنن: فإن السنن قوام الدين"، وعن ابن وهب، أخبرني بكر بن مضر عن من سمع الزهري وهو يذكر ما وقع الناس فيه من الرأي وتركهم السنن، فقال: "إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي كان بأيديهم حين استقلوا بالرأي..."[5].

فالسنن قوام الدين، كما كان العلم قوام الدين، ويكفي في هذا أن أول آية نزلت تدعو إلى العلم، فالانسلاخ من العلم هو جهل بالسنن التي هي قوام الدين.

---

[1]- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي أبو الفضل الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي محب الدين الخطيب، كتاب النكاح،باب بسم الله الرحمن الرحيم، 9/ 105.

[2]- الصنعاني محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاوي أبو إبراهيم عز الدين، **التنوير شرح الجامع الصغير**، تح إسحاق محمد إبراهيم، الباب المبدوء بحرف "لا"، [9715]، الرياض، مكتبة السلام، ط 1(1432هـ- 2011م)، 83/11.

[3]- ابن حجر، **فتح الباري**، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، [7320]، 13/ 301.

[4]- المناوي زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ، **التيسير بشرح الجامع الصغير**، باب حرف "لا"، الرياض، مكتبة الإمام الشافعي، ط 3(1408هـ- 1988م)، 2/ 490.

[5]- ابن حجر، **فتح الباري**، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، [7320]، 13/ 301.

س- **السنة بمعنى الهدي:** قال ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى...شَيْئًا»[1]. وأما حديث « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً» «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ.... شَيْئًا»[2].

جمع الحافظ في فتح الباري[3] الحديثين في باب واحد، وهذا الجمع يفيد أن ابن حجر شرح حديث "سنة حسنة" بحديث "من دعا إلى هدى"؛ يريد بذلك إضفاء معنى الهدى على السنة الحسنة، ومن تراجم الإمام البخاري للحديثين يفهم المعنى نفسه.

ش- **السنة بمعنى السيرة يقول ابن الأثير:** "قد تكرر في الحديث ذكر "السنة" وما تصرف منها، والأصل فيها: الطريقة، والسيرة"[4].

ص- **السنة بمعنى أمر النبي ﷺ "السنة":** إذا أطلقت في الشرع فإنما يُرادُ بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولا وفعلا، مما لم ينطق به الكتاب العزيز[5].

ض- **السنة بمعنى الفطرة: قال ابن الأثير:** النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ سُنَّتِي، وَمِنْ سُنَّتِي النِّكَاحُ» [6].

ط- **السنة بمعنى الأحكام:** "السنة ما وضعه رسول الله ﷺ من أحكام الدين.."[7].

ظ- **السنة بمعنى مآثر:** "ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية"، وهو: "الطالب في ملة الإسلام إحياء مآثر أهل زمن الفترة قبل الإسلام"[8].

---

[1]- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب العلم، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، [1017]، 2/ 704.

[2]- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، [2674]، 4/ 2060.

[3]- ابن حجر، **فتح الباري**، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة، 13/ 302.

[4]-ابن الأثير، الإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تح: محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، باب (السين مع النون)، لبنان، بيروت، دار الفكر، ط 2(1399هـ- 1979م)، 409/2.

[5]- ابن الأثير،**النهاية في غريب الحديث والأثر**، 409/2.

[6]- ابن الأثير، **الشافي في شرح مسند الشافعي**، تح: أحمد سليمان، أبي تميم ياسر بن إبراهيم، السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، ط 1(1426هـ- 2005م)، 4/ 326.

[7]- الطيبي شرف الدين الحسين بن عبد الله ، **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للمسمى بالكاشف عن حقائق السنن**، تح: عبد الحميد هنداوي، باب الاعتصام بالكتاب والسنة، الرياض، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1(1417هـ- 1997م)، 2/ 637.

[8]- المناوي ، **التيسير بشرح الجامع الصغير**، باب حرف الهمزة، 16/1.

ع- **السنة بمعنى العادة:** "ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية"، قوله: "عادة الجاهلية كالميسر وقتل الأولاد وغير ذلك"[1].

غ- **السنة بمعنى الدين:** «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ...» "من دان بدينهم وسار سيرهم..."[2].

بعد تتبع لفظ "السنن" في كتب متون الحديث، وشروحها نلاحظ التوافق في معاني "السنة" بين علماء الحديث وعلماء التفسير، ولا نعجب لهذا الاتفاق لأن الحديث النبوي صاحبه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وهذا الاتفاق دليل على حجية السنة النبوية ومكانتها من القرآن الكريم، والألفاظ التي تكررت في كليهما (الطريقة، والأحكام، والعادة، والسيرة)، وكذلك الجمع بينهما، يتفق لنا إضافة السنة في القرآن "للأولين"، و"من قبلكم"﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ ﴾[الحجر: 12-13]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[النساء: 26]، وفي الحديث "سنن الأولين" "سنن من كان قبلكم".

- أضيفت السنة إلى الله في القرآن الكريم ولم تضف إلى الله في الحديث النبوي.

- في الحديث أضيفت السنة إلى النبي ﷺ (سنة نبيه) ولم تضف في القرآن إلى النبي ﷺ.

- خص الله سبحانه وتعالى السنة له لذاته ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خَلۡفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ٧٧ ﴾[الإسراء: 76- 77]، كما خص النبي ﷺ السنة لنفسه "سنني".

- أضاف القرآن السنة للرسل، وأضاف الحديث السنة إلى الخلفاء الراشدين، وإلى الجاهلية.

من خلال عرض السنة في علم الحديث ندرك فعلا أن لمصطلح السنة ورودا معتبرا في الحديث النبوي، وبمعان متنوعة.

---

[1]- المظهري الحسين بن محمود بن الحسن مظهر الدين الزيداني الكوفي الضرير الشيرازي الحنفي ، **المفاتيح في شرح المصابيح**، ت: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، كتاب الانتصار بالكتاب والسنة، دار النوادر، وزارة الأوقاف الكويتية، ط 1(1433هـ- 2012م)، 239/1.

[2]- القاضي البيضاوي ناصر الدين عبد الله بن عمر، **تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة**، تح: نور الدين طالب وغيره، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، الكويت، (د،ط) (1433هـ- 2012م)، 137/1.

وأما "السنة" في اصطلاح المحدثين، فهي: "كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقِية أو خُلُقِية أو سيرة سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها"[1].

كما تطلق أيضا على "ما أضيف إلى النبي – عليه الصلاة والسلام– من قول أو فعل أو تقرير"[2]. وهي بهذا المعنى تشمل معنى الحديث، إذ هي أعم منه؛ لأنها تتناول الفعل، والقول، والتقرير.

وأما الرأي السائد عند المحدثين "فإن الحديث والسنة مترادفان متساويان يوضع أحدهما مكان الآخر"[3].

ثالثا: السنة في الفكر الإسلامي

كانت نظرة بعض المفكرين والكتاب المعاصرين إلى موضوع "السنن" نظرة كلية موضوعية، حيث اعتبروه منظومة متكاملة، وأسسوا من خلال تعاريفهم رؤية حضارية كلية لمفهوم "السنن".

وسنعرض في هذا المطلب كوكبة من رجال الفكر الإسلامي لنبرز نظرتهم المستجدة لموضوع "السنن".

1– محمد عبده: يشير محمد عبده إلى موضوع السنن من خلال أعماله المتنوعة، وكتبه القيمة؛ فقد عرفها في كتابه الإسلام بين العلم والمدنية بأنها: "الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون، وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين"[4].

يعرفها بالطرائق الثابتة وكأنها نظام واحد يخضع له البشر، وعلى حسبه تكون النتائج، فهو يذكر بعض أنواع السنن، سنن الهداية (الشرائع)، وسنن الآفاق أو الكون (النواميس)، دون أن يغفل عن خصيصة الثبات المتأصلة في السنن.

ففي تعريف محمد عبده هناك جمع بين المعنى اللغوي للسنن (الطرائق) وبعض خصائصها وأنواعها، فكأنه يجمع لَبِناتٍ لتأسيس المصطلح وبنائه ، وهذا ما غفل عنه جمع من المفسرين أثناء تفسيرهم لكلمة "سنن" دون إنكار لجهودهم النفيسة في خدمة كتاب الله، مع وجود اجتهادات حسنة لبعضهم.

---

[1]– السباعي مصطفى بن حسين، **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، لبنان، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 3(1402هـ– 1982م)، 1/ 47.

[2]– الجزائري طاهر بن صالح ابن أحمد بن موصب السمعوني، **توجيه النظر إلى أصول الأثر**، تح: عبد الفتاح أبي غدة، حلب، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط 1(1416هـ– 1995م)، 1/ 40.

[3]– السندي عبد القادر بن حبيب الله، (**حجية السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي**)، (السنة الثامنة، العدد الثاني، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ط 1(1395هـ– 1975م)، 1/ 90.

[4]– محمد عبده **الإسلام بين العلم والمدينة**، سوريا، دمشق، دار الصدى للثقافة، ط 1(2002م)، ص: 77.

2- إبراهيم بن علي الوزير: يرى ابن الوزير أن "السنن هي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الكون، والتي يستفيد منها الكائن الإنساني بما يؤهله ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة: 31]، فيسخرها ويستفيد منها، إنها نظم هذا الكون المفتوح بما فيه ومن فيه المسيرة له وفق ما أراده الخالق المبدع جل شأنه، مجالها الواسع: السماوات والأرض، الحياة والكون... والإنسان"[1].

يظهر من تعريف ابن الوزير المعنى العام للسنن، وهو: "القوانين"، وأشار من خلاله إلى الغاية منها، وهي: التسخير والاستفادة، وأنها مسيرة للإنسان في هذا الكون وفق المشيئة الإلهية التي أنعمت على الإنسان آليات المعرفة، لكي يحسن تسخير السنن (العلم)، وفي الأخير نوه إلى مجالها الواسع، وهو: السماوات والأرض، فيُستخلص من هذا التعريف أن العلم من الوسائل المساعدة على استثمار السنن.

3- علي شريعتي: يرى شريعتي أن السنن هي: "مجموعة النواميس العلمية المدخرة في صميم الإنسان، فوصفها شعوراً وبنية فسلجية، وفي صميم المجتمع مسيرة وعلاقات"[2].

يطغى على تعريفه هذا الجانب العلمي، فهو يوطد العلاقة بين السنن والإنسان بشقيه الفسيولوجي العضوي، والنفسي الشعوري، والسنن كأنها مكونات (مدخرة) داخل الإنسان (يوحي التعبير بأنها دهون، وهرمونات، وسكريات...)، ثم ربط هذا الإنسان بمجتمعه، الذي لا يستطيع أن يعيش منفردا عنه، فلا يعيش إلا في جماعة بشرية (الجمعية البشرية التي تحكمها سنن ونواميس).

وهو يرى أنه" يكفي للمؤرخ، أو عالم الاجتماع أن يضع يده على هذه النواميس والسنن، ليتمخض عن ذلك ولادة علم الإنسان، وعلم المجتمع، والتاريخ"[3].

4- تعريف أحمد محمد كنعان: يعرفها بقوله إنها: "مجموعة القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعاً، على اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها"[4].

يبرز تعريف أحمد كنعان جِبِلِّيَّةَ السنن وطبيعتها، من حيث إنها قوانين الله الصارمة التي تسيطر على أمور الخلق، ويخضع لها جميع الموجودات على اختلاف أجناسها.

5- عبد الكريم زيدان: يرى عبد الكريم زيدان في كتابه السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد أن السنن هي: "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم

---

[1]- ابن الوزير إبراهيم علي، (**على مشارف القرن الخامس عشر الهجري**)، (دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر)، مصر، القاهرة، دار الشروق، ط 4(1409هـ- 1989م)، ص: 7.

[2]- علي شريعتي، **معرفة الإسلام**، لبنان، بيروت، دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م، ط 2(1428هـ- 2007م)، ص: 87.

[3]- نفسه، ص: 87.

[4]- أحمد محمد كنعان، (**أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**)، (سلسلة كتاب الأمة (26)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (1411هـ)، ص: 52.

من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة حيث خضوع أفعال البشر وسلوكهم إلى أحكام هذه التي يمكن تسميتها بالقانون العام"[1].

نلاحظ من هذا التعريف أنه تناول في معنى السنة الدلالتين اللغوية والاصطلاحية معا، ورتب النتائج على الأسباب، وبين أن سنة الله مبنية على قانون السببية، وهذا القانون العام جارٍ على جميع البشر، وأنه جزاء الله للبشر، قائمٌ على سلوكهم وأعمالهم، فالله يراقب أفعال العباد ثم يجازيهم وفقها، وهذا القانون ثابت لا يتغير، ولا يحابي ولا يجامل؛ فهو مطرد.

6- محمد هيشور: قال في تعريفه للسنن إنها: "مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة، وتحكم جزئياتها ومفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق، وما في الكون من ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسنة وما من حركة نفسية أو اجتماعية أو نقلة حضارية إلا ولها قانون أيضا يتجلى في الأسباب والعوامل المؤيدة إليه وكان الإنسان هو وحده المطالب بالبحث عن السنن ومعرفتها في الحياة... للاضطلاع بإعمار الأرض وأعباء الاستخلاف"[2].

هذا التعريف ألمَّ فيه صاحبه بموضوع السنن من كل جوانبه؛ فبين أهميةَ السنن، وضرورةَ معرفتِها واكتشافِها، والبحثِ فيها، وبأنها نطاق واسع للتسخير، وجعلها مرتبطةً، ومخصوصةً للإنسان فقط، وذلك بما أودع الله فيه من قُوًى، وطاقاتٍ عقليةٍ، ونفسيةٍ لأداء وظيفته الاستخلافية في عمارة الأرض، كما أظهر بأن هذه القوانين عامرة بالحركة والحياة، شاملة لكل مظاهر الكون، وحقائق التاريخ، ومصارع الحضارات، دون أن يغفل عن قانون السببية الذي تقوم عليه السنن، حيث ترتبط النتائج بالأسباب. فهو بهذا تعريف شامل أكثر من سابقيه مما يوحي باستفادته من سابقيه في هذا الموضوع.

7- الطيب برغوث: يقول: "ونقصد بالسنن هنا الأنساق الخلقية الهيكلية، أو البنيوية المنتظمة في المفردات الكونية، لتضمن أداء كل مفردة لوظيفتها الوجودية الداخلية والخارجية، في النسيج الكوني العام باطراد سواء تعلق الأمر بمفردات عالم الآفاق، أو عالم الأنفس، أو عالم الهداية، أو عالم التأييد (الرباني) وهي العوامل الأربعة التسخيرية المباشرة بالإنسان التي يقوم كل منها على نسيج سنني متكامل، يحكم وجوده، أو يحدد طبيعته وهويته الذاتية، التي ينبثق منها المنهج المعرفي الوظيفي، الذي يمكن من فعالية البحث فيها، وتوسيع المعرفة بها أولا، ومن ثم الفهم لآليات عملها وأدائها لوظائفها التسخيرية

---

[1]- عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1 (1413هـ، 1999م)، ص: 13-14.

[2]- محمد هيشور، سنن **القرآن في بناء الحضارات وسقوطها**، الولايات المتحدة الأمريكية، هرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1(1997م) ، ص: 27.

ثانيا والوصول إلى القدرة اللازمة على التحكم التسخيري فيها أو الاستثمار لها بعد ذلك في نهاية الأمر"[1].

لو اطلع على هذا التعريف إنسان لا علم له بموضوع السنن الإلهية لرد هذا التعريف إلى علم الكيمياء العضوية، أو علوم الطبيعة والحياة، لاحتوائه على مفردات ومصطلحات تخدم المفاهيم العلمية أكثر منها المفاهيم التشريعية والشرعية خاصة، رغم اضطلاع صاحبه وتمرسه في موضوع السنن، إذ هو صاحب "سلسلة المنظور السنني في الاستخلاف والتجديد الحضاري"، التي قدم فيها جهودا حسنة لبناء المنظور السنني، الذي ينبغي على أبناء الأمة الاطلاع عليه لفهم ووعي موضوع "السنن"، فهو يعتبر السنن وحدات، أو بنيات لها وظيفة في الوجود والكون، ويشير إلى أنواع السنن كما ذكرها القرآن (سنن الآفاق والأنفس)، وهذا ما رّد لتعريفه بعده القرآني نوعا ما، ويحث على ضرورة توسيع المعرفة، والبحث فيها لحسن تسخيرها، ولتحقيق مهمة الاستخلاف.

8- محمد جابري: يعرفها الشيخ بقوله: "جملة المواثيق والعهود التي عهد الله بها لكل شيء في هذا الوجود وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر"[2].

يعتبر محمد جابري صاحب سلسلة "السنن الإلهية: ضوابط العلوم المعرفية" السنة مواثيق وعهودًا ربانية، وهو بذلك يؤكد مرجعيتها (عهد الله بها)، فهي سارية في هذا الوجود، حيث بين التعريف محل جريانها، ويلمح إلى صرامة وجدية هذه المواثيق حيث أنها لا تحابي ولا تجامل أحدا.

9- أبو اليسر كهوس: يقول عنها إنها: "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر، بناءً على سلوكهم وتصرفاتهم، وأفعالهم، والنظامُ الذي أقام عليه الكون والحياة والقوانين التي بثها في هذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته"[3].

هذا التعريف يؤسس لمفهوم السنن، ويؤكد على مرجعيتها وبعدها الإلهي (معاملة الله تعالى للبشر)، معتمدا على دلالتها اللغوية (الطريقة)، ويعقب بالدلالة الاصطلاحية، ثم يبين بعدها الجزائي بناء على سلوكهم وتصرفاتهم، ويشار في تعريفه إلى محلها (الوجود) الواسع، ثم يبين أن هذه القوانين تخضع لها جميع المخلوقات.

---

[1]- الطيب برغوث، (**الفعالية الحضارية السننية**)، سلسلة آفاق في الوعي السنني (5)، الجزائر، دار قرطبة، ط 1(1425هـ- 2004م) ،ص: 32.

[2]- محمد جابري، **التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين**، ص: 66، نقلا عن رشيد كهوس، **تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح**، القاهرة، دار الكتاب المغربي، ط 1 (1437هـ- 2015م)، ص: 12.

[3]-نفسه، ص: 13.

رغم ما يبدو على تعريف كهوس من جمع لمعاني السنن (الطريقة، القوانين، النظام) إلا أنه لم يؤسس بهذا التعريف لرؤية شاملة لمفهوم السنن، فهو على اضطلاعه بمهمة البحث في السنن الإلهية لم يستثمر جهود السابقين والمعاصرين له في هذا الموضوع، ويلاحظ عليه تأثره بتعريف عبد الكريم زيدان للسنن.

وله تعريف ثانٍ في كتابه "السنن الإلهية في السيرة النبوية"، حيث يقول فيه: "السنة الإلهية هي أقدار الله وعهوده الثابتة ووعوده الحقة وكلماته التامات، التي لا تبديل لها ولا تحويل يعتريها ولا تغيير يشملها، ولا تحابي أحدًا مؤمنًا كان أو كافرًا"[1].

والملاحظ على هذا التعريف أنه شبيه بتعريف محمد جابري رغم محاولته إدخال تجديد على مفهوم السنن.

10- حسين شرفة: يعرفها الأستاذ بقوله إنها:"مجموعة من القوانين والقواعد الثابتة والمطردة التي تحكم حياة الخلق وحركة التاريخ في نظام دقيق ترتبط فيه المقدمات -سلبا وإيجابا- بالنتائج بمقتضى حكمة الله تعالى وعدله"[2].

وهو بهذا يعرفها ببيان خصائصها مثل الثبات والاطراد، وأنها قائمة على مبدإ السببية، مع بيان خضوعها لحكمة الله وعدله، إلا أنه لم يُحل على مرجعية السنن (القوانين والقواعد الإلهية)، مع أن عنوان الكتاب "سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة"، والملاحظ أنه عرفها بلفظ القواعد باعتبارها مرادفا للقوانين التي توحي بمعنى النظام واللزوم.

11- عمر حيدوسي: عرفها بقوله:"هي القانون الذي وضعه الله عز وجل في كونه ووحيه، لتخضع عبره الموجودات له سبحانه، فتطّرد حركتها وتنتظم أحوالها"[3].

يضيف الدكتور عمر حيدوسي السنة إلى الله مؤكداً بذلك مرجعيتها، وأنها القانون الحاكم للكون، والذي بمقتضاه تستمر، وتنتظم شؤون الموجودات في الكون، دون أن يغفل عن ذكر بعض خصائصها كالاطراد، ثم يبرز أهميتها بأنها تنتظم بها أحوال الموجودات.

12- عزيز البطيوي: عرفها بقوله: "السنة في الاصطلاح القرآني والحديثي هي أقدار الله تعالى وأحكامه القدرية، والتكوينية التي جرت بها عادته في وقائع الاجتماع الإنساني، وأحوال العمران البشري

---

[1]- رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، مصر، القاهرة، دار السلام، ط1(1438هـ- 2017م)، ص: 53.

[2]- حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة**، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1429هـ- 2008م)، ص: 57.

[3]- عمر حيدوسي، **التدافع وسننه في القرآن الكريم**، ص 23.

وطبائعه، تداولا وتدافعا وتجديدا، بحسب تحقيق الخلق – اختياراً- بمقتضات الميثاق الإلهي، ومقومات التوحيد والاستخلاف والعمران، فيجازي بذلك - عدلا بلا محاباة- من وافقها، ويعاقب من خالفها، ابتلاء للمؤمنين وهداية وتأييدا، وإملاءً للكافرين استدراجا وإهلاكا"[1].

لم أقف على تعريف بهذه الدقة والشمول طيلة هذه الرحلة المباركة بين متون نصوص العلماء وتعاريف المعرفين "للسنن" فقد حاول صاحب كتاب "سنن العمران البشري في السيرة النبوية" أن يضيف الكثير لموضوع السنن من خلال مؤَلَّفهِ، حيث ذكر السنة في الاصطلاح القرآني والحديثي؛ جامعا في تعريفه كل الدلالات اللغوية والاصطلاحية للفظ السنن (أقدار الله، أحكامه، عادته وقائعه، أحوال، طبائع)، موظفا كل كلمة في سياقها المناسب، الخادم للتعريف في تسلسل ماتع، مشيرا إلى سنتي "التدافع، والتداول"، ليؤكد مرجعيتها وغاياتها، وأنواعها، ثم أعقب ذلك بالبعدين الأخروي والدنيوي للسنن، رابطًا السنن بمبدإ السببية، فهو بذلك يعطي معنى واسعا للمصطلح، محاولا الإحاطة باللفظ وتسييجه بكل معانيه.

ومن خلال هذه الدراسة، وتحليل التعريفات السابقة لمفهوم السنن، في مختلف العلوم والتخصصات، يمكننا استخلاص تعريف إجرائي للسنن، فنقول: **هي حقائق الله المطلقة التي لا تتبدل ولا تتغير، حيث بثها في كتابه المنظور وأثبتها في كتابه المقروء، تحكم كونه المادي المجبور المسيَّر، وكونه الحي المختار المخيَّر بما يحقق مصلحة خلقه العاقلِ، بتسخير خلقه الجامد، وخلقه غير العاقل، وما يرتبط بها من نتائج منطقية لعمل الإنسان وسلوكه، لتمثيلها حقائقَ ثابتةً عادلةً مطَّردةً لا تقبل النَّقْضَ.**

قطاف أفانين التعريفات: يحسُن بنا بعد النظر في هذه المجموعة من التعريفات، و التحليل لها، الخلوص إلى النتائج التالية:

- أفردت بعض التعريفات السنن ضمن المجال الكوني فقط، مضيقة بذلك مفهوم السنن عن أصلها الرئيسي.

- وحافظت تعريفات أخرى على المعنى اللغوي للسنن، بقطع النظر إلى معناها الاصطلاحي الشرعي؛ فباتت السنة عندهم "الطريقة، العادة".

- وذكرت تعريفات الخصائص، وأخرى ذكرت الأنواع، وهناك من المعرفين من دمج بين الخصائص والأنواع.

---

[1]- عزيز البطيوي، **سنن العمران البشري في السيرة النبوية**، الولايات المتحدة الأمريكية، هرندن، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث، عمان، الأردن، ط 1(1439هـ- 2018م)، ص: 99.

- فيما خصتها تعريفات بالتنويه على وظيفتها وغايتها.
- وكان أكثر ما عرفت به لفظ القانون.

بعد مناقشة وتحليل التعريفات، عمدت إلى رسم جدول لعرض الأبعاد التي عرفت وفقها السنة وهي ستة أبعاد: البعد الكوني المادي، البعد العقدي، البعد اللغوي (الدلالة اللغوية)، البعد الإنساني الاجتماعي، البعد الوظيفي، بعد الخصائص.

البعد العقدي	البعدالكوني المادي	البعدالإنساني الاجتماعي	البعد اللغوي	البعد الوظيفي	بعد الخصائص
-أحمد محمد كنعان (فطر الله عليها) عبد الكريم زيدان (سنة الله، معاملة الله) -محمد جابري (عهد الله بها) -إبراهيم بن علي الوزير (وفق ما أراده الخالق المبدع) -الطيب برغوث (عالم الهداية أو عالم التأييد الرباني) -حسين شرفة (حكمة الله تعالى وعدله) - عمر حيدوسي (سنة الله ووحيه) - عبد عزيز البطيوي (أقدار الله)	-محمد عبده (النواميس) -علي شريعتي (النواميس العلمية) - أحمد محمد كنعان (القوانين التي سنها الله لهذا الوجود). - إبراهيم بن علي الوزير (يسير وفقها الكون) -محمد هيشور (مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله) -الطيب برغوث (عالم الآفاق) -عمر حيدوسي (وضعه الله عز وجل في كونه) - عبد عزيز البطيوي (والتكوينية) -محمد جابري (عهد الله بها، لكل شيء في الوجود)	- أحمد محمد كنعان (اختلاف أنواعها وتباين أجناسها) - إبراهيم الوزير (والإنسان) - محمد هيشور (فلا يشذ عنها مخلوق، وكان الإنسان هو وحده) - الطيب برغوث (عالم الانفس) - حسين شرفة (تحكم حياة الخلق وحركة التاريخ) - عمر حيدوسي (تخضع له الموجودات) -عزيز البطوي (وقائع الاجتماع الإنساني) -محمد جابري (عهد الله بها لكل شيء في الوجود)	- محمد عبده (الطرائق) - عبد الكريم زيدان (الطريقة المتبعة) - عزيز البطوي (عاداته)	- إبراهيم بن علي الوزير (فيسخرها ويستفيد منها) - محمد هيشور (اعمار الأرض، أعباء الاستخلاف) - الطيب برغوث (وظيفتها الوجودية الداخلية والخارجية، العلاقة التسخيرية) - عزيز البطوي (الاستخلاف)	- محمد عبده (الثابتة) - الطيب برغوث (باطراد) - حسين شرفة (الثابتة المطردة) - عمر حيدوسي (فتطرد) - عزيز البطوي (عدلا بلا محاباة)

من خلال هذا الجدول نستنتج أن التعريف الوحيد الذي نجد صاحبه استغرق في تعريفه "للسنن" جميع الأبعاد هو عزيز البطيوي.

نخلص أنه لا حرج في اختلاف المعرفين وتعدد الرؤى وتنوعها في تحديد مفهوم السنن، إذ كل دلالة تكمل وتجبر جانبا من جوانب السنن، وتتمم مجالا من مجالاتها الواسعة، غفل عنها المتقدمون في تصنيفاتهم للسنن، وهذا التنوع من ما يقتضيه مثل هذا الموضوع، إذ يعتبر من موضوعات الحضارة، وتحضرني هنا مقولة مالك ابن نبي: "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن

لشعب أن يفهم، أو يحل مشكلته مالم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، ومالم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها... وما الحضارات المعاصرة والحضارات الضاربة في ظلام الماضي، والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن"[1].

ولذلك فنحن بحاجة إلى مثل هذا التنوع والتعدد في شرح المفهوم السنني، حتى يمكننا بناء حضارة راقية، ومن محاسن التنوع والاختلاف محمدة تنوع المشارب، والمعارف، والتخصصات.

فكانت هذه عصارة تعريفات كُتَّابٍ، ومفكِّرين معاصرين بحثوا هذا الموضوع.

سابعا: مفهوم السنة في الاصطلاح القرآنيوأشكال وأساليب التعبير عنها

المتتبع للفظة السنن في الاستعمال القرآني يجدها مكررة ستة عشر مرة في إحدى عشرة آية وبأشكال متعددة تذكرها الدراسة في العناصر التالية:

1- مفهوم السنة في الاستعمال القرآني:

ورد لفظ "السنة" في كتاب الله بالصيغ الصريحة في ستة عشر موضعا (سنن، سنة الأولين، لسنتنا، سنة الله، لسنة الله)، دون تَكرار للفظ "السنة"، وفيما يلي نعرض المواضع والآيات التي صرح القرآن فيها "بالسنن" أو "السنة".

- ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[آل عمران: 137].
- ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[النساء: 26].
- ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الأنفال: 38].
- ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿11﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿12﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿13﴾ ﴾[الحجر: 11-13].
- ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿76﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿77﴾ ﴾[الإسراء: 76-77].
- ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾[الكهف: 55].

[1]- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، تح: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط 4 (1407هـ- 1987م)، ص: 19.

- ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[الأحزاب: 38].

- ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿60﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿61﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿62﴾ ﴾[الأحزاب: 60-62].

- ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿42﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿43﴾ ﴾[فاطر: 42-43].

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿82﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۖ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿83﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿84﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿85﴾ ﴾[غافر: 82-85].

- ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿22﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿23﴾ ﴾[الفتح: 22-23].

بتتبع هذه الآيات الكريمة نجد أن لفظ "سنة" جاء مفردا في أربعة عشر موضعا، وبصيغة الجمع في موضعين "سنن".

- جاء اللفظ بصيغة المفرد في سورة الأنفال الآية 38 ﴿ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، وفي سورة الكهف الآية 55 ﴿ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، وفي سورة فاطر الآية 42-43 ﴿ سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، جاءت السنة مضافة إلى الأولين.

- جاء اللفظ بصيغة الجمع في سورة آل عمران الآية 137 ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾، وفي سورة النساء الآية 26 ﴿ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾.

- جاء اللفظ المفرد المضاف إلى الله سبحانه وتعالى سورة الأحزاب الآية 38، وفي الآية 60-62 تكرر لفظ السنة مرتين في الآية 61، وفي سورة فاطر الآية 42-43، وفي سورة غافر الآية 82-85، وفي سورة الفتح الآية 22-23.

ونلاحظ أن ذكر السنن جاء في القرآن المكي والقرآن المدني، سور القرآن المكي (الحجر، الإسراء، الكهف، فاطر، غافر)، أما سور القرآن المدني (آل عمران، النساء، الأنفال، الأحزاب، الفتح)، حيث

وازن القرآن بين السور المكية والسور المدنية في الإشارة إلى السنن، ولا يغيب عن أحد أن القرآن المكي كان بمثابة القاعدة والأساس لبناء الدين، وأصول الإيمان، ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وأنهم جاؤوا جميعا بالتوحيد، ومنه نلمس أن السنن من صميم الدين وموضوعها أصالةً التوحيد.

وإذا عدنا إلى السور المدنية التي أشارت أيضا إلى موضوع السنن، وما تحدث عنه القرآن المدني من دقائق التشريع، وتفاصيل الأحكام، ومحاجة أهل الكتاب ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة، يبرز لنا جليا أهمية موضوع السنن وأنه حاضر بشقيه العقدي والتشريعي في حياة المسلمين، سواء قبل الهجرة أو بعدها، وبتأملنا بتدبرٍ في مجموع هذه الآيات الكريمة، نصل إلى أنها تتكلم عن السنن المتعلقة بالأنفس أفراداً وجماعات، وأحوال الاجتماع، والعمران البشري.

ولعل الأمر الذي نستطيع استنتاجه من خلال تصريح القرآن بالسنن الاجتماعية أكثر من السنن الكونية، لتعلقها بسلوك الإنسان وأفعاله خيراً أو شراً، وما يترتب عن ذلك من جزاء أو عقاب في العاجل والآجل.

ولأن السنن الكونية بمثابة العادات، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب، وغيرِ ذلك من العادات"[1].

فهذه السنن لا دخل لسلوك البشر، ومعتقداتهم، وأفعالهم بنتائجها؛ فهي تجري في الكون الصامت، ولكن بينها علاقة وطيدة؛ علاقة خصوص وعموم، فلا يمكن للسنن الاجتماعية أن تجري بمنأى عن السنن الكونية، لأنها امتداد طبيعي لها، فحدوث العقاب أو الجزاء، والنهوض أو السقوط، والتطور أو التخلف حُضْنُهُ السنن الكونية، ومجالها الكون بآياته المنظورة، وبالرجوع إلى الآيات المسطورة التي تحدثت عن عقاب الله للأمم العابرة والقرون الماضية كقوم لوط، وقوم عاد وثمود، وقوم نوح... الخ، نجد أن إهلاك الله قوم نبيه لوط عليه السلام كان بالصيحة، والمطر السوء، والحجارة المحرقة، وهذا العذاب الدنيوي، أو عذاب المعاشِ مجالُه ووسائلُه وآياتُه سنن كونية (الصيحة، ارتجاجات هوائية، ذات ذبذبة عالية، فساء مطر المنذرين)، ليأتي دور عذاب الحجارة (حاصبا) مصدقا لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿33﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿34﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿35﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿36﴾ ﴾ [القمر: 33-36]، ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿33﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿34﴾ ﴾ [الذاريات: 33-34]، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿73﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿74﴾ ﴾

[1]- ابن تيمية، **جامع الرسائل**، تح: محمد رشاد سالم، السعودية، الرياض، دار العطاء ، ط1 (1422هـ - 2001م)، 1/ 52.

[الحجر: 73-74]، ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿172﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿173﴾ ﴾ [الشعراء: 172-173]، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: 82]، و(جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) تشير إلى أن المنطقة قد أصابها هزة أرضية قوية.

وفي قوم عاد، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر: 19]، ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: 20]، عذبهم الله بالريح السريعة، المدمرة، القوية التي اقتلعتهم من أعماق الحفر ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات: 41]، رياح ليس معها إلا الهلاك والدمار، في الليالي السبع والأيام الثمانية ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: 07].

لقد حطمت وأفنت الآيات الكونية (الرياح، الأمطار، الصيحة) معالم الحياة الاجتماعية منها (العمران، مساكنهم، وعمرانهم، وحضاراتهم)، أما عذاب قوم نوح فكان الطوفان ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 14]، والخسف كما قال القرطبي، هو: "الذهاب في الأرض"وهو عذاب الله لقارون (ذهاب المكان ومن عليه وغيبوبته في بطن الأرض)، ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: 81]،﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: 9].

ومن صور الخسف الزلازل التي تخرب العمران، وهذه بعض الأمثلة لأنواع من العذاب الدنيوي للأقوام الماضية، والتي تعتبر من صميم السنن الاجتماعية الضاربة في عمق السنن الكونية. فلا تتحقق سنن الله في الأمم، بالنصر والتمكين والاستخلاف في الأرض للمطيعين، أو بالاستئصال وعذاب الهون للعصاة الكافرين ، تماشيا وموازاة مع سنن الآفاق. فهما تمثلان وحدة متكاملة يتحد مصدرها وغايتها، صادرة عن الإله الواحد خالق كل شيء، مشرع الأحكام لمصالح الأنام، والذي يفرق بين مفهومي السنن الكونية، والاجتماعية، إنما يعللّ لذلك من جهة أن السنن الكونية واضحة مكشوفة للعامة، أحكامها محددة، ونتائجها مضبوطة.

2- أشكال ورود لفظ سنة الله في القرآن الكريم: مع تعدد وجوه الدلالة على السنن في القرآن الكريم من دلالة صريحة بلفظ "سنن أو سنة الله" وجاءت في مواضع محددة من كتاب الله، أشرنا إليها سالفا؛ فإنّ الملاحظ أن ما جاء من السنن في كتاب الله العزيز كان متنوع بين أسلوبي الإخبار، والتقرير، وهذا ما دل عليه الدكتور عبد الكريم زيدان مشيرا إلى كيفية الوصول لمعرفة سنن الله في آياته المسطورة قال: "والسبيل لمعرفة سنة الله تعالى يكون بالرجوع إلى كتاب الله العظيم، وسنة نبيه الكريم محمد ﷺ فما فيهما هو القول الفصل... وقد يخبرنا الله تعالى عن سنته... بغير لفظ "السنة"، كأن يعبر

عن (سنته) بتقرير نتيجة معينة، بناء على وصف معين، أو حالة معينة، أو بناء على سبب أو شرط معينين، فيكون هذا الإخبار بهذه الصيغ إخبارا عن سنن ثابتة لله تعالى"[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[الكهف: 59]، وقوله تعالى:﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[الرعد: 11].

فجاء تقرير هلاك القرى كنتيجة حتمية سببها الظلم، وهذا كما في الآية 59 من سورة الكهف، وجاء تقرير نتيجة تغيير الله ما بالقوم من حال إلى حال، وشرطه وجوب تغيير القوم ما بأنفسهم، وهذا ما قررته الآية 11 من سورة الرعد.

أما الأستاذ باقر الصدر في كتابه المدرسة القرآنية عبر عن السنن التي صاغها القرآن الكريم من غير تصريح بلفظ "السنن أو سنة" بثلاثة أشكال:

أ- شكل القضية الشرطية: قضية شرطية يربط بين حادثتين وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء[2]. وساق لهذه القضية الشرطية أمثلة من نصوص القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾[الجن: 16]، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء: 16].

ب- شكل القضية الفعلية الناجزة الوجودية المحققة: العالم الفلكي حينما يصدر حكما علميا على ضوء قوانين مسارات الفلك بأن الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلاني أو أن القمر سوف ينخسف... هذا قانون علمي وقضية علمية إلا أنها قضية وجودية ناجزة[3].

ج- شكل السنة المصاغة على صورة اتجاه طبيعي في حركة التاريخ: هو مشكل اهتم به القرآن اهتماماً كبيراً، صاغها القرآن على صورة اتجاه طبيعي في حركة التاريخ لا على صورة قانون صارم حدي، وفرق بين الاتجاه والقانون[4].

وضرب لهذا الشكل ليتضح المعنى من أمثلة الفرق بين القانون العلمي الذي لا يخرق من قبل الإنسان كغليان الماء، ومثل الاتجاه بالعلاقة بين الذكر والأنثى في مجتمع الإنسان، ضمن إطار من أطر

---

[1]- عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، ص: 16.

[2]- محمد باقر الصدر، **المدرسة القرآنية**، لبنان، بيروت، دار التعارف، ط 2 (1401هـ- 1991م)، ص: 77.

[3]- نفسه، ص 81.

[4]- نفسه، ص: 84.

النكاح والاتصال، وهذا الاتجاه ليس تشريعا، وليس تقنينا اعتباراً، وإنما هو اتجاه موضوعي أعملت العناية في سبيل تكوينه في مسار حركة الإنسان[1].

أما الدكتور عمر حيدوسي فقد توصل في رسالته "التدافع وسننه في القرآن الكريم" إلى الأشكال التالية[2]: الشكل التصريحي، والشكل التقريري، والشكل الخبري، والشكل الإنشائي، والشكل التمثيلي، والشكل الترتيبي؛ ووضح كل شكل من الأشكال المذكورة، وضرب لها مثالا بنص من كتاب الله.

ولقد حصر باقر الصدر في كتابه المدرسة القرآنية أشكال التعبير عن السنن في القرآن الكريم في ثلاثة أشكال؛ وهي: شكل القضية الشرطية، وضرب لها أمثلة من كتاب الله، ولقد تم عرض هذه الأمثلة فيما سلف، وشكل القضية الفعلية الناجزة والوجودية المحققة وخصها بالسنن الكونية، وشكل السنن المصاغة على صورة اتجاه طبيعي في حركة التاريخ وذكر لها مثالين (سنة التدين، سنة الزواج)، وذلك على المثالين (سورة الشورى الآية 13، والروم الآية 30).

3- أساليب القران الكريم في التعبير عن السنن الإلهية: وبالرجوع إلى القرآن الكريم ،وقراءته قراءة تدبرية تأملية استخلصت أساليب وأشكالا أخرى يصوغ فيها القرآن الكريم السنن، ويخبرنا عنها، حتى نكتشف سنن الله في الوجود والكون بشقيه الصامت والناطق؛ المادي المجبور، والحي المختار.وهذه الأساليب هي الآتية:

أ- الأسلوب التحذيري التنبيهي.

ب- الأسلوب الوجداني.

ولا حرج في عرض الأشكال، أو الأساليب التي تعرض لها الباحثون، والمشتغلون في موضوع السنن، حتى نستفيد منها، محاولين الإضافة، والزيادة لإثراء الحقل السنني، راجين من الله النفع وتحصيل الفائدة.

أ- الأسلوب التصريحي: دل القرآن الكريم صراحة على الآيات التي نطق فيها بلفظ (سنة- سنن) في مواضع محددة من كتاب الله أحصاها العلماء عداً، وجاءت في معرض الحديث عن وقائع، وحوادثَ بشريةٍ تاريخيةٍ، تذكر بمصارع الأقوام السائدة، وتبين عاقبة الصراع الأبدي بين الحق والباطل.

ويقول عمر حيدوسي عن هذا الأسلوب: "هو أيسر الطرق وأسرعها وأوثقها، فمتى أخبرنا الله عنها أنها سنة تعرفنا عليها"[3].

---

[1]-محمد باقر الصدر، **المدرسة القرآنية** ص: 85.

[2]- ينظر: عمر حيدوسي، **التدافع وسننه في القرآن الكريم**، ص: 43-44.

[3]- عمر حيدوسي، **التدافع وسننه في القرآن الكريم**، ص: 44.

ب- الأسلوب التقريري:وقد أشرنا إليه سالفا، بعد عرض الأساليب التي ذكرها أهل العلم في التعبير عن السنن تذكر الدراسة أسلوبين توصلت إليهما في محاولة بسيطة لتقديم بعض الإضافات لموضوع السنن علها تكون خادمة للباحثين في موضوع السنن.

ج- الأسلوب الوجداني: وهو من الأساليب الماتعة للقرآن، يثير فيها المشاعر، ويحرك الوجدان، ليذكر الإنسان بنعم الله عليه، وآلائه التي لا تعد ولا تحصى، حتى تستيقظ فطرته التي علقت بها أشكال من الأدران فانتكست، وضربت على القلوب المغاليق فأُقفِلت، حتى لا تجدُ للحق طريقا، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: 24].

يقول سيد قطب: "لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة الإنسان.... ويستنقذها فطرته من الركان، ويخلص أجهزة الاستقبال مما ران عليها... ويفتح منافذ الفطرة لتلقي الموحيات والاستجابة لها"[1]. ومن الموحيات التي تدرك بتخليص آليات الاستقبال من طبقة الران السنن الإلهية، فقد جاء الأمر الإلهي بضرورة اكتشافها وفقهها واستثمارها.

ولأن القرآن الكريم يجاري الفطرة البشرية في حبها ولهثها خلف كل ما فيه نفع ومصلحة للإنسان، فإننا نجد كتاب الله فياضا بالآيات التي تشير إلى تسخير الكون، وما فيه لصالحه لينتفع به، ويستفيد منه، ويؤكد على هذا المعنى راشد سعيد شهوان، في كتابه السنن الربانية في التصور الإسلامي، حين يتكلم عن السنن المسخرة للبشر، القابلة للكشف، فيقول: "أكد القرآن الكريم أن عناصر الكون مخلوقة حادثة وأن الله سخرها لمنفعة الإنسان؛ ففي آيات عديدة من كتاب الله المعجز نجد تأكيدا على أن السماء والأرض وما في هذا الكون من أشياء بصفاتها وتركيبها الجغرافي، والفيزيائي، والكيميائي، والحيوي، قد هيئت تهيئة خاصة، وذلك لكي يستخدمها الإنسان في تطبيقاته العلمية، وفي مجالات حياته المختلفة، وينتفع بها في المعاش والعمران، ولو لم تكن كذلك لما استطاع الإنسان بإمكان عقله، وبإمكان حسه، أن يستثمرها فيها، أو يصل إلى شيء من كشفه، أو الاستفادة منه على الإطلاق"[2].

وإذا استقرينا القرآن فإننا نجده مليئا بالسنن الإلهية، على اختلاف أنواعها التي تتناسب وتستجيب لمطامح الإنسان وتطلعاته، لتحقيق منافعه المادية والروحية، حسب مقدرته على توظيف ما أودع الله فيه من آليات وملكات تمكنه من اكتشاف السنن، للاضطلاع بمهمة الاستخلاف الفعالة، ولقد حفل القرآن بالآيات التي تحقق الغرض الديني من التأثير الوجداني.

وهذه بعض الآيات أسوقها أنموذجا للأسلوب الوجداني في الكشف عن السنن:

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، مصر، القاهرة، دار الشروق، ط 15(1408هـ- 1908م)، 2/ 1014.

[2]- راشد سعيد شهوان، **السنن الربانية في التصور الإسلامي**، الأردن، عمان، الأكاديميون، ط 1(1430هـ- 2009م)، 1/ 112.

- قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴾[إبراهيم: 32].

- قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[النحل: 78].

وبقراءة تدبرية تأملية في هذه الآيات، وبالعودة إلى كتب التفاسير نجد أن الله عرض فيها مجموعة من السنن والنواميس التي تحكم الخلائق، وأرشد إلى اكتشافها بأسلوب فذ يجعل الإنسان يستقبل هذه النعم، أو المسخرات المبثوثة في ثنايا هذه النصوص، وكأنه يراه لأول مرة، فينفعل بذلك حسه، وينتفض لذلك وجدانه، فيستعد للاستجابة لأوامر منعمه، سواءً بالشكر المأمور به، أو بالعودة والرجوع إلى صاحب النعم، أو بالقيام بوظيفته الاستخلافية لتعمير الأرض وفق منهج السنن العادل.

يقول الأستاذ محمد المبارك: "القرآن يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق منافعه ومصالحه وحاجاته وملذاته، أو عن طريق قضاياه ومشكلاته، ليحرك تطلعه وقلقه إلى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة ومصيره البعيد، ويجعله بذلك متهيئاً للتفكير في الله، ومستعدا لقبول نتائج المنطق السليم مع منفعته"[1].

والمنطق السليم الذي يلمح إليه الأستاذ في قوله هو منطق "السنن الإلهية"، ونعرض في ما يلي ما قاله بعض المفسرين في الآيات الكريمة سالفة الذكر.

يفسر الطبري قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴾[إبراهيم:32].

بقوله: "يعني تعالى ذكره بذلك أنه أنزل من السماء مطراً، فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه في الأرض من زرعهم وغرسهم ثمرات، رزقا لهم، غذاء وأقواتا، فنبههم بذلك على قدرته وسلطانه، وذكرهم به آلاءه لديهم"[2].

ويقول الواحدي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[النحل: 78]، ما نصه: "أي: أخرجكم جاهلين غير عالمين، وخلق لكم الحواس التي بها هذه الحواس فتعرفوا نعمته وقدرته"[3].

---

[1]- محمد عبد القادر بن محمد المبارك الحسني، **العقيدة في القرآن الكريم**، لبنان، بيروت، دار الفكر، (د،ط،ت)، ص 81.

[2]- الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، 1/ 367.

[3]- الواحدي، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، 3/ 75.

فالإنسان أيّا كان يولد جاهلا، ولولا نعمة الله عليه بالحواس أو آليات التعلم، وأدوات أخْذِ العلم لظل على جهله، ولولا فضل الله على الإنسان بهذه الحواس لما استطاع فقه هذه السنن واكتشافها، ومن ثم استغلالها لأداء مهمة الاستخلاف في الأرض، ما دام الاستخلاف قائما على السنن، وقد أكد الدكتور حسين شرفة هذا الأمر بقوله: "إن أكبر مهمة خلق الإنسان لأدائها هي الاستخلاف في الأرض، وهذا لا يتم إلا بالاستفادة من السنن الكونية، والسيرِ وفق السنن الاجتماعية"[1].

وفي سياق التذكير، ومخاطبة القرآن الإنسانَ بتحريك مشاعره لإحياء عاطفته، فينظرَ إلى نعم الله عليه، التي تعتبر آيات كونية في حد ذاتها، سننٌ ثابتة لا تتغير ولا تتحول، تصاحب كل ما يتعلق بغذائه وطريقة توفيره له وإنباته، وما يتعلق بالماء من سنن وقوانين سنها الخالق الحكيم، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴾[طه: 53]، ويقول عز من قائل:﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾[الحج: 5]، فالماء ينزل من السماء وهو ضرورة الحياة، فيكون رحمة ونعمة تحيا به الأرض، وتهتز له وتستجيب، فإذا هي تربو وتنبت من كل صنف ناضر مُسِرٍّ[2].

"فإنه يجري في ذلك على سنة إلهية حكيمة تدل على الوحدة والرحمة، ثم إنه آية في تأثيره"[3]. فقد امتن الله تعالى بذلك علينا وأرشدنا إلى آياته[4]، وسننه لاستنباطها، ومن ثم تسخيرها لتحصيل المنفعة.

ويسترسل رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴾[طه: 53]، تنبيها لهم (لبني إسرائيل) بتلوين الكلام، وبما في مخاطبة الرب لهم كفاحاً من التأثير الخاص بإثارة الوجدان، ويلفت هنا المفسر إلى الأسلوب الوجداني لتحريك الحس، وإثارة المشاعر "إلى كونه المسدي لهذا الإنعام"[5].

ونخلص بعد عرض هذا الأسلوب أن كل نعم الله وآلائه في هذا الكون لها سنن تحكمها، فللماء سنن، كما أن للإنبات وللإثمار سننا، وللأرزاق، وللغذاء، والمطر، وللنصر والهزيمة سنن...

---

[1]- حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 72.

[2]- ينظر الزمخشري، **الكشاف**،3/ 144.

[3]- ينظر: رشيد رضا، **تفسير المنار**، 2/ 50.

[4]- نفسه.

[5]- نفسه، 9/ 101.

فلكل ما خلق الله من خلائق قوانين وسنن تخضع لها، وفي هذا المعنى يقول راشد شهوان: "ولو ذهبنا نستقصي سنن الله الكونية التي تتعلق بالطبيعة الكونية، والطبيعة الإنسانية، وكل ما في الكون من مخلوقات حية، أو جامدة... لاحتجنا في ذلك إلى مجلدات"[1].

ولما أسبغ الله نعمه ظاهرة وباطنة على عباده دعاهم إلى شكره، لأن عدم الشكر جحود لصاحب الفضل المنعم، مما يستلزم التحذير من عذاب شديد، وعقاب أكيد، لذلك نجد أن أسلوب التحذير والتنبيه من الأساليب التي عبر بها القرآن عن السنن.

د-الأسلوب التحذيري: من سنن الله تعالى في خلقه تعذيب الظالمين المكذبين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾[المؤمنون: 76]، لما كانت سنته سبحانه وتعالى جارية في هلاك القرى والأمم الكافرة وتعذيبهم، كان مقتضى عدله ومطلق إنصافه تنبيه المشركين الطغاة، وتحذيرهم من سوء العاقبة، وحلول العقاب الدنيوي والأخروي، والتحذير هو تنبيه المخاطب إلى أمر مكروه لينتبه، قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿60﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿61﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿62﴾ ﴾[الأحزاب: 60-62].

هذا الإنذار الإلهي الخطير في حق المنافقين، أصحاب القلوب المريضة، المرجفين الذين يشيعون الأباطيل والأكاذيب لتثبيط الهمم وشل العزائم، فتوعدهم الله بالعقاب والتقتيل واللعن، ويؤكد الله سبحانه وتعالى بعد ذلك بأن هذا العذاب قانون الحياة، وناموسها الذي عرفته البشرية، وسنة الله منذ القدم في الدفاع عن سلامتها ضد الأخطار، وحفظِ أمنها[2].

إذن فإحقاق العقاب، وإهلاك الأمم الظالمة، لا يأتي بغير إنذار وتحذير من المنذِرين، من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف: 59].

قال تعالى:﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾[العلق: 15]، أسلوب التحذير في هذه الآية بارز، فهذات هديد للشقي، وزجر له بأقصى العقوبات، إذا استمر على غيه وضلاله[3].

فالقرآن يُبِينُ عن سنة العقاب بأسلوب التحذير، ويُتبِعُه بالتهديد بوقوع العقاب.

---

[1]- راشد شهوان، **السنن الربانية في التصور الإسلامي**، ص: 105.

[2]- ينظر: محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، بيروت، لبنان، دار العرب الإسلامي، ط 1(1405هـ- 1985م)، 5/ 154.

[3]- ينظر: مجمع البحوث، **التفسير الوسيط**، 10/ 1964.

جاء في تأويل قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿155﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿156﴾ ﴾[الشعراء: 155-156]، خالفت ثمود أمر نبيها صالح عليه السلام فعقروا الناقة، فلم ينفعهم ندمهم، وأخذهم عذاب الله الذي كان صالح توعدهم به فأهلكهم، وكان في ذلك آية، يقول الطبري: إن في إهلاك ثمود بما فعلت من عقرها ناقة الله، وخلافها أمر نبي الله صالح لعبرةً لمن اعتبر به يا محمد من قومك[1]، فكانت سنة الله في إهلاك قوم صالح عبرةً تعتبر بها أمة محمد ﷺ حتى لا يحل بهم العذاب.

وعلى نفس المنوال نسوق مثالا آخر لأسلوب التحذير، يدعو الله فيه أمة حبيبه محمد ﷺ للاعتبار، ويرشدها إلى اتباع سنن النصر والتمكين، والابتعاد عن سنن الخزي والهوان، فيُحذِّر جل شأنُه نبيَّه ﷺ بأسلوب شديد، قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم ﴾[بالبقرة: 145]، مع علمه سبحانه المسبقِ الأزليِّ باستحالة أن يقع هذا الأمر، وهو اتباع اليهود والنصارى في أهوائهم من قِبَلِه عليه الصلاة والسلام ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾[البقرة: 145]، فمَن حالُهُ نزولُ الوحي عليه بالحق، والقولِ المبينِ، والدينِ القيمِ، لا يكون منه مجاراةٌ أهل الكتاب على أباطيلهم، وضلالهم عن منهج الله، بتحريفهم لكتبهم ويجوز من الله سبحانه توعد من علم منه استحالة وقوع الشيء منه، فيتوعده على فعله، وكذلك ما في هذه الصورة،ونظيره قوله: ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزمر: 65][2]، ويستمر التهديد على ذلك ويسري؛ لأنها سنة الله على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾[البقرة: 120]، إن سنن الله جارية على الجميع متى توفرت أسبابها تحققت نتائجها، لا تحابي ولا تجامل، ماضية إلى يوم القيامة، وكل من يتبع أهواء اليهود والنصارى فلن يجد له وليا ولا نصيرا ولا معينا، ولا من يدافع عنه أو يناصره، فيذهب عنه المهالك، فيذوق لذلك الذل والهوان والخسران، والانهزام الحضاري، فمن" سنن الله تأييد متبعي الهدى على علم صحيح، وأنهم هم الغالبون المنصورون"[3].

فسنة الله سارية في نصرة المؤمنين المتبعين لهدى الله وسنة رسوله ﷺ، وإذا أمعنا النظر والتأمل والتدبر في هذه الآية الكريمة من سورة البقرة، فإننا نجد أسلوب التحذير الكاشف عن سنن الله في خلقه واضحا كل الوضوح، رغم أن المخاطب به والموجه له نبي كريم، حبيب الرحمان محمد ﷺ، فمن لطائف

---

[1]- الطبري، **جامع البيان**، 19/ 387.

[2]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 4/ 24.

[3]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 366.

هذه الآية أن الخطاب موجه إلى أمة الإسلام لأخذ العبر، والنظرِ إلى عاقبة الاتباع، والتقليد الأعمى للأمم الضالة المضلة.

ومن كلام صاحب تفسير المنار نفقه هذا المعنى: "من تدبر هذا الإنذار الشديد الموجه من الله تعالى إلى نبي الرحمة، المؤيد منه بالكرامة والعصمة، علم أن المراد به الوعيد والتشديد على الأمة"[1].

بعد هذا العرض نخلص إلى أن القرآن نوّع في صيغ الإخبار عن السنن، وهذه الصيغ المختلفة تمكن من اكتشاف السنن، حتى تسخر في أوسع نطاق، ويتم الانتفاع بها.

نلاحظ أن مواضع التصريح بلفظ السنن كانت محدودة، وفي هذا حث على ضرورة إعمال العقل، ودعوة لوجوب التدبر في القرآن، لاستخراج كنوزه التي لا تنقضي.

الفرع الثاني: السنن في العلوم الإنسانية

السنن الإلهية مفاتيح لجميع العلوم؛فإنها بغير شك يحتاجها كل باحث وعالم، وكل صاحب فن من الفنون؛ فتدخل كلبنات نيرة ،تضيءللمتخصصين تخصصاتهم ..

أولا: السنة في اصطلاح رجال القانون

نعرج الآن على علم القانون لنرى كيف عبر رجال القانون عن السنن الإلهية. حيث يحتاج علماء القانون كعلماء علم الاجتماع و العلوم الآخرى إلى إكتشاف سنن الله على أنها قوانين و ضوابط عامة يخضع لها الكون .و نجد أن أكثر لفظ استعمل، وعرفت بها سنن الله هو مصطلح القانون أو القوانين، ونحاول في ما يلي استعراض معنى السنن لدى رجال القانون؛ ولا يتسنى لنا ذلك إلا ببيان مدلول القانون .

1- **التعريف اللغوي**: القانون كلمة يونانية الأصل تلفظ كما هي Kanun، وانتقلت من اليونانية إلى اللغات الأخرى وهي تعني العصا المستقيمة، وانتقلت إلى الفارسية بنفس اللفظ (كانون) بمعنى أصل كل شيء وقياسه، ثم عربت عن الفارسية بمعنى الأصل، ودرج استخدامها بمعنى أصل الشيء الذي يسير عليه، أو المنهج الذي يسير بحسبه، أو النظام الذي على أساسه تنتظم مفردات الشيء، وتكون متكررة على وتيرة واحدة، بحيث تصبح خاضعة لنظام ثابت. فمثلا يقال في معرض الأبحاث الطبيعية: "قانون الجاذبية"، ويقال في معرض الأبحاث الاقتصادية: "قانون العرض والطلب"[2].

---

[1]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 366.

[2]- السديري توفيق بن عبد العزيز، **الإسلام والدستور**، السعودية، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط 1(1425هـ)، ص: 9.

ومن خلال التعريف اللغوي لكلمة "القانون" يظهر أن أصل الكلمة أجنبي، وليس عربيا، يقول الجوهري في الصحاح: "القوانين: الأصول، الواحد قانون، وليس بعربي"[1]؛ وأصل الشيء هو قاعدته التي لا يقوم إلا بها.

وصاحب المعجم الوسيط فيرى "أن القانون في اللغة مقياس كل شيء وطريقته"[2]؛و الطريقة هي المنهاج .

2- **التعريف الاصطلاحي**: هو "القواعد التي تنظم سلوك الأفراد في المجتمع تنظيما ملزما، ومن يخالفها يعاقب وذلك كفالة لاحترامها"[3].

فكلمة "**القانون**": "تطلق على القواعد التي تفرض بقوة"[4]، وعلماء القانون عرفوه بأنه: "مجموعة القواعد التي تحكم سلوك الأفراد في الجماعة بحيث يتعين على كل فرد أن يخضع لها طوعا أو كرها"[5].وكذلك السنن تحكم في الأفراد والمجتمعات وهي أنواع،منها الجبرية التي تحكم فيهم بقوة ،ومنها الاختيارية التي تجاريهم بحسب إرادتهم و اختياراتهم.

يقول عبد الحميد طهمان: "ولا بد أن تكون هذه القواعد أو الأحكام صادرة عن سلطة عليا تملك حمل الناس على الالتزام بها ولو بالقوة، كما تملك معاقبتهم إذا هم خالفوها كما ينبغي أن تكون عامة ودائمة"[6].

وبالنظر إلى هذا التعريف الاصطلاحي للقانون نجد أن مصطلح "القواعد" أيضا من المصطلحات التي عرفت بها "السنن" عند المعرفين، وكذلك يقع العقاب على مخالف القانون كما يقع العقاب على مخالف السنن.

ومعناها في اللغة اللاتينية: "القاعدة والتنظيم ويكثر إطلاقها في العصر الحاضر على السنن الإلهية مثل قانون الجاذبية وقانون الغليان، فهو يشمل النظام التعليمي والتربوي الذي يبنى في ضوئه شخصية الأفراد، والنظام الاجتماعي الذي ينظم العلاقات الاجتماعية بين الناس، والنظام الاقتصادي الذي

---

[1]- الجوهري، **تاج اللغة وصحاح العربية**، 6/ 2185.

[2]- إبراهيم مصطفى، **المعجم الوسيط**، 2/ 763.

[3]- نفسه، ص: 9.

[4]-نفسه 16.

[5]- نفسه.

[6]- عبد الحميد طهمان، **ميزان الشريعة على القوانين الوضعية**، ص: 35-36، نقلا عن يونس وهبي ياؤوز، ص: 16.

توضع بمقتضاه أسس الإنتاج والتوزيع والتبادل في الثروة، وعددا من مجموع القواعد التي تكرر سلوكنا في شتى مسالك الحياة"[1].

ولو أعملنا المقارنة، أو الجمع بين تعريف القانون في اللغة اللاتينية، وتعريف السنن الإلهية عند المعرفين لها، لتحصلت لدينا نقاط مشتركة بينهما، فنلمح بعض خصائص السنن وأنواعها كالثبات والاطراد، وفيما يخص الأنواع سنن كونية يمثل لها في التعريف بقانون الجاذبية، وقانون الغليان؛ فهما يخصان الكون المادي، الثابت الذي لا يتغير، فلم نسمع ولن نسمع يوما أن الماء تعرض لدرجة الغليان فلم يحدث الغليان، فهذا قانون طبيعي ثابت، والقانون يشمل ويعم جميع النظم الاجتماعية باختلافها، تعليمية، وتربوية، واقتصادية، كذلك سريان السنن واتساعها وشمولها في الاجتماع البشري، ولم يغفل القرآن عن ذكر سنن الأرزاق والأموال، والسنن التي تحكم العلاقات الاقتصادية، قال تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾[الحشر: 7]، وقال: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[فصلت: 10]، وقال عز وجل: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[البقرة: 276]، وهذه بعض سنن الله في المجال الاقتصادي وغيرها كثير.

ويختم التعريف بقوله: "مجموع القواعد التي تكرر سلوكنا في شتى مسالك الحياة"، فنجد أن معنى السنة هو معنى القانون، من حيث خضوعُ أفعال البشر، وسلوكاتهم المتكررة في شتى مجالات الحياة إلى أحكام السنن، التي يسميها أصحاب القانون ورجاله بالقانون العام، والفرق الجوهري بينهما هو سرمدية السنن الإلهية، والفناء، والزوال، واضمحلال القوانين الوضعية.

وبناء على معنى القانون عند رجال القانون، وعلمائه، يمكن أن نطلق مصطلح القانون على السنن الإلهية، وهذا ما اعتبره علماء الإسلام المتأخرون والمعاصرون، حين عرفوا السنن الإلهية بالقانون، لأنها صادرة عن الله تبارك وتعالى (السلطة العليا)، وتحكم الأفراد والجماعات، ويخضع لها الكون والوجود، بشقيه الصامت، والناطق، طوعا، أو كرها،وهي سبيل للتقدم والنهوض، لمن فقهها وأحسن تسخيرها واستثمارها، وهي بمثابة معول هدم واستدمار وتخلف وأفول لمن عزف عنها وتنكبها، وغفل عن تدبرها.

ثانيا: السنة في اصطلاح علماء النفس

علم النفس من العلوم التي يحتاج الباحث والعالم والدارس فيها، إلى فقه سنن الله، وحسن تدبرها؛ ليستطيع الغوص في أغوار النفس البشرية، والكشف عن أسرارها وعلاج إضطراباتها.

---

[1]- الاقطوغاني يونس وهبي ياؤوز، (**حركة التجديد في تقنين الفقه الإسلامي**)، (مجلة الأحكام العدلية وقوانين ملاق الإسلامية كمثال تجريبي، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية،1971م)، ص: 14.

من أشهر علماء هذا القسم العالم الإنجليزي "**جيفنوس JevonIs**"، ويقرر أن الحوادث والظواهر الطبيعية العادية مثل السماء، والأرض، والليل والنهار، لا تكفي لإيقاظ الشعور الديني، لأن تكرارها يجعلها مألوفة للنفس، فيمتنع بذلك أن يكون ما يدعو إلى البحث عن تفسير لها، بينما المظاهر السماوية المفاجئة مثل الرعد والبرق، والصواعق، والزلازل والبراكين، والخسوف والكسوف، هي مظاهر مهددة لأمن الإنسان، مثيرة لخوفه واضطرابه وقلقه، ما "يدعوه للتفكير فيها وكيفية إرضائها وجلب نفعها ودفع ضرها، مما يؤدي إلى عبادتها"[1].

يذكر "**جيفنوس**" في سياق حديثه عن ظاهرة التدين ظواهر طبيعية وحوادث، هي ما نعبر عنه بالسنن الكونية، ثم يصفها بالتَّكرار، وهو خاصية الاطراد القائمة في السنن، ويقول بعدم كفايتها، وكأنه يشير إلى وجود سنن غيرها، ليخرج بحقيقة يسلم بها، هي وجوب التفكر والبحث في هذه السنن، أو المظاهر –كما يسميها– لحسن تسخيرها، والانتفاع بها، ودفع ضررها.

يقول "**أوجست ساباتيه Aguste Sabatier**" إن العقيدة الإلهية تنشأ من تناقض قوتي الإحساس والإرادة اللتين تؤلفان الحياة النفسية في أبسط مظاهرها، وأن الحياة النفسية قائمة على حركتي الشعور الذاتي والتجربة الخارجية المتعاكستين، فيحدث بهما صراع يصل بالإنسان إلى التناقض بين العلم والعمل، بين قوانين الطبيعة وقوانين الأخلاق، ثم ينتهي به إلى أزمة داخلية يكون منها منشأ التدين عند الإنسان[2]. شعور داخلي فطري بوجود قوة عظيمة، يخضع لها الكون بشقيه وهذه القوة نظمت حركة الكون والإنسان بمجموعة قوانين ونواميس الطبيعية والأخلاقية.

فهو يقول العقيدة الإلهية، ومن علمائنا من عرف السنن بالعقائد، ثم يذكر أن للطبيعة "قوانين"، كما ورد في أكثر من تعريف للسنن، وأشار إلى نوعين من القوانين الطبيعية والأخلاقية، أي السنن الكونية، والسنن الإنسانية، أو الاجتماعية، التي ترجع إليها أفعال الأفراد، وسلوكاتهم، وأخلاقهم، ثم ينتهي إلى أن هذه القوانين هي منشأ التدين عند الإنسان، حيث خضوع أفعال البشر إلى أحكام "السنن" التي يسميها أوجست "القوانين".

---

[1]– صالح بن إبراهيم الضيع، **الدين علاج لجريمة النفس**، الرياض، دار علم الكتب، ط 2(1998م)، ص: 19–20، نقلا عن بوعون فوزية، (**مستوى التدين وعلاقته بالسلوك الإجرامي**)، (مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم النفس، تخصص علم النفس العيادي، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، شعبة علم النفس)، ص: 49–50 .

[2]– فوزية بوعون، **مستوى التدين وعلاقته بالسلوك الإجرامي**، ص: 49–50.

ثالثا: السنة في اصطلاح علماء الاجتماع

يعتبر القرآن الكريم منهلا وافراً لجميع العلوم والمعارف، ومنبعا ثرا يغرف منه أصحاب التخصصات، والاتجاهات المعرفية والفكرية المختلفة، لذا كان طبيعيا أن يأخذ أهل الاجتماع وعلماؤه من هذا المصدر العظيم، محاولين سبر أغواره، واستنطاق مكوناته، لاستنباط كنوزه، واستجلاء مراميه.

ولما كان القرآن الكريم بقَصَصِه عن الأمم الغابرة، والأقوام السابقة منهجاً حيا، يعرض أحوال السابقين من عز وخزي، وسقوط ورقي، وتطور وأفول، فقد كان وجهةً لعلماء التاريخ والاجتماع لدراسة نشأة المجتمعات البشرية، ومختلف الروابط والعلاقات بين أفراد المجتمع، والناظر في كتاب الله يجد مساحة واسعة خصتها آيات الله المسطورة للحديث عن الاجتماع البشري، لذلك نجد أن الرابطة القومية أقوى الروابط الاجتماعية حيث ذكرت كثيرا في القرآن الكريم.

وإن دل هذا الأمر على شيء، فإنما يدل على اهتمام القرآن الكريم بالاجتماع الإنساني، ولما كان ابن خلدون مؤسس علم العمران البشري بلا منازع، فقد عمدت إلى الانطلاق لبحث السنن الإلهية في علم الاجتماع من مقدمة كتابه العبر، لبيان المنهج العلمي الذي استخدمه العلامة ابن خلدون، لمعرفة السنن الحاكمة في حياة المجتمعات والدول.

يقول ابن خلدون في فضل علم التاريخ في مقدمته: "إنَّهُ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتّى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدّنيا"[1].

ومن خلال هذا التقديم لعلم التاريخ ندرك أنه يحاول اكتشاف سنن الله الحاكمة في الأمم الماضية، وأحوال السابقين، طبقا لأخلاقهم وسلوكهم، وبناء على أفعالهم وموقفهم من أنبيائهم، ومن جور الملوك في دولهم وسياستهم مع رعيتهم، وعدلهم فيهم، لما فيها من عظيم الاتعاظ، والاعتبار .

وبعد أن عرض فضل علم التاريخ، وضع له تعريفا جامعا مانعا نشتم منه عبير السنن الاجتماعية الفواح، حيث يقول: "فنّ التّاريخ من الفنون الّتي تتداولها الأمم والأجيال، وتشدّ إليه الرّكائب والرّحال، وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهّال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيّام والدّول، والسّوابق من القرون الأول... وتؤدّي لنا شأن

---

[1]- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ط 2 (1408هـ- 1988م)، 1/ 13.

الخليقة كيف تقلّبت بها الأحوال، واتّسع للدّول فيها النّطاق والمجال، وعمّروا الأرض... وتعليل للكائنات... وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق..."[1].

ومن خلال هذا التعريف نستنتج أن ابن خلدون يعلل الوقائع، وأسبابها للوصول إلى سنن تعمير الأرض، حيث استعمل لفظ الكائنات (تعليل للكائنات) للدلالة على الوقائع والحوادث.

"وتعتبر دراسة ابن خلدون، وتحليلاته لمراحل التجمع البشري من أرقى أنواع التعليل، وأشملها لمعرفة السنن والمحركات الديناميكية التي تتحكم في الظواهر الاجتماعية، واستخراج القوانين الأساسية التي تتحكم في حياة المجتمعات والدول وتطوراتها"[2].

لا أبالغ إذا اعتبرت دراسة ابن خلدون، ومنهجه الفذ في تحليل وتمحيص الوقائع الاجتماعية، ومحاولة الوصول إلى سنن النهوض وسنن سقوط الأمم، والحضارات، من البذور الأولى للدراسات الاستشرافية[3]، التي تنبىء عن مستقبل بديل للدول والأمم، فهو بذلك كان سباقا لزمانه، في هذه الدراسة التنبئية بمستقبل المجتمعات، حيث سافر وارتحل في أغلب البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، وجمع الأخبار والمعلومات عن الحالة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، وصاحب البدو، والحكام، وأحصى الأسباب، ومحص الأخبار والوقائع الدالة على السنن والقوانين المنظمة للعمران والحاكمة لحركة التاريخ.

كما اهتم بالناحية الاقتصادية، واعتبرها المحرك الحيوي والأساس للمجتمع البشري، وتوصل إلى أن هناك سننا تحكم الاقتصاد، فهو يرى: "أن رسوخ الرفاهية لدى سكان الحضر يؤدي إلى إلحاق ضرر هائل بالنظام الاقتصادي والثقافي، فالنسق الجماعي للثقافة الحضارية يمارس ضغوطا مادية على كل من الحاكم والمحكوم في الثقافات الحضرية، فالرغبة الجامحة نحو اقتناء الثروات تصبح شعورا لا يقاوم في التركيبة الكلية للحضارة المترفة، ويقدم صاحب "المقدمة" وصفا مناسبا لما يجري في اقتصاديات مثل هذا النوع من الحضارات، فيقول: "وقد كنّا قدّمنا أنّ المصر الكثير العمران يختصّ بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته، ثمّ تزيد المكوس غلاء، لأنّ كمال الحضارة إنّما تكون عند نهاية الدّولة في استفحالها...، فتعظم

---

[1]- ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، 1/ 6.

[2]- سعيد شهوان، **السنن الربانية**، 2/ 274.

[3]- الدراسات المستقبلية الاستشرافية: وهي التي تسهموتساعد من خلال مناهجها في التوجيه والتخطيط، من خلال توفير قاعدة المعلومات المستقبلية، والبدائل الممكنة التي تسبق عملية اتخاذ القرارات بشأن الخطط والسياسات وتعين صانع السياسات العامة، والمخطط والمنفذ؛ ينظر: ساحلي مبروك، **مناهج وتقنيات الدراسات المستقبلية وتطبيقاتها في التخطيط**، جامعة أم البواقي، الجزائر، ص: 1.

نفقات أهل الحضارة، وتخرج عن القصد إلى الإسراف...،فتكسد الأسواق، وتفسد حال المدينة، وداعية ذلك كلّه إفراط الحضارة والتّرف، وهذه مفسداتها في المدينة على العموم في الأسواق والعمران"[1].

والعمران البشري في الفكر الخلدوني قائم على أساس النَّصَ الشرعي، الذي يشير إلى وجود سنن تحكم الإنسان وحركته في ضوء قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[الأحزاب: 62].

"وقد تحصل لابن خلدون علم العمران البشري بالدراسة والملاحظة، فهو علم عثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص" وهو في دراسته لهذه السنن، يتعامل معها بمقتضى "الأمر الوجودي"، واستجابةً للتوجيه القرآني، الذي يأمر بالنظر في سنن الكونن والحياة، والناس، ومعنى "الأمر الوجودي" في مصطلح ابن خلدون: "فهم قوانين العمران الإنساني"، كما وضعها الله تعالى وأحبها، معتمدين في فهمها وإدراكها على الملاحظة، والتحليل العلمي؛ إذ قلَّ أن يكون الأمر الشرعي مخالفا للأمر الوجودي، فابن خلدون بذلك لم يبحث عن قوانين الاجتماع بالنظر في آيات القرآن، بل بالنظر والبحث، والغوص في السنن الاجتماعية...، هكذا تحصل لابن خلدون إدراك قوانين العمران البشري عن طريق الجمع بين دعوة القرآن للاعتبار لفهم السنن، والمنهج العقلاني القائم على النظر، والتدبر، والملاحظة، والاختيار"[2].

إذن فقد كان منطلق ابن خلدون من كتاب الله، استجابةً لدعوة التدبر في نصوص القرآن الكريم، ومحاولةً لاكتشاف القوانين الحاكمة للتجمع الإنساني، من خلال الأمر بالسير الحسي، حيث ارتحل في مشارق الأرض ومغاربها طالبا للمعرفة، مستخدما لما أودع الله فيه من آليات التعلم، فالسير وحده بدون نظر لا يفي بالغرض، فكان النظر، والتفكر، والتدبر، عن طريق الجمع والإحصاء، ثم التحليل والتمحيص، معللا الأسباب للوصول إلى النتائج، فقد استخدم المنهج العلمي، والمنهج العقلاني.

فاستحق بذلك لقب مؤسس العمران البشري، وتوصل بهذا المنهج القويم إلى اكتشاف القوانين الحاكمة للعمران البشري "كشف عن قوانين ذاتية ثابتة في العمران، وأعراض متغيرة، فهذه الأحوال على الرغم من كونها أعراضاً متغيرة، إلا أنها يحكمها قانون ثابت هو "السنن"، التي لا تتبدل، ولها خصائصها الذاتية بحسب الرؤية القرآنية"[3]؛ فابن خلدون يرى أن لابد للمجتمع الإنساني البشري من

---

[1]- أحمد علي وآخرون، **الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1(2004م)، ص: 113-114.

[2]- محمد علي الأحمد وآخرون، (**إسلامية المعرفة**)، (مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد 51)، ص: 176-177.

[3]- نفسه، ص: 178.

قوانين وسنن تحكمه، ليصل إلى الكمال الاجتماعي، ويمثل لهذه القوانين بالدولة والسلطان، "السوق الأعظم أم الأسواق كلها"[1].

وتعرض الدراسة لبعض النماذج من السنن التي توصل إليها ابن خلدون في مقدمته.

1- سنن هلاك الدول وسقوط الحضارة الإسلامية:

جعل ابن خلدون الظلم سبباً رئيسياً في هلاك الدول وخرابها.

أ- الظلم المؤذن بخراب العمران: حيث يقول: "واعلم أنّ هذه هي الحكمة المقصودة للشّارع في تحريم الظّلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه"[2].

وكل أنواع الظلم التي ذكرها ابن خلدون اجتمعت في واقع الأمة اليوم، وتمثلت في حقيقة المعيشة الضنك، فالناظر إلى بلد الرافدين أُولى المراكز الحضارية في العالم، وبلاد الشام، سورية التاريخية، يعلم جيدا مدى صدق السنن، ومدى اطرادها ما إن توفرت أسبابها؛ والظلم أبرز أسبابها، وتوفره في الأمة الإسلامية لا يخفى على أحد.

ب- الانحلال الأخلاقي والانغماس في الترف: يعتقد ابن خلدون،أن اكتمال الترف، والتخلق بعوائد الحضارة، والكلف بالصنائع، وما يتبعه من تأنف في كافة أحوال حياة المجتمعات،من مهدمات أسس الحضارات،ومن مسقطات الأخلاق ومذهباتها،ويذهب في تفسير ذلك إلى تعاظم نفقات الحضارة بشكل يعجز الكسبُ عن الوفاء بها، الأمرُ الذي يتسبب في غلاء أسعار الحاجيات بالأسواق، ثم تزيدُها المكوسُ غلاءً، حيث يضيف التجار على أسعار بضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم، وتنعكس هذه الأحوال على نفوس الناس وأخلاقهم،فتنتشر الرذائل وتشيع الأفات الاجتماعية المختلفة.

والترف معدود من المعاصي الاجتماعية الخطيرة التي أدت بالأمم والأقوام إلى مصير الهلاك والخراب والدمار، وتسليط العقوبة الدنيوية. ذلك أن المسرف لما توسعت عليه النعمة وملاذ الدنيا، استغلها لتحقيق شهواته اللامتناهية واللامحدودة، ما أدى به إلى التجبر والتكبر المصاحبين للطغيان والفساد في البلاد والخلق، فيسعى إلى ترجمة كل شهواته على أرض الواقع دون اعتبار لحد أو شرع، فيعيث في الأرض فساد؛ فهو عدو لكل صلاح ومصلح وإصلاح، وتعمير وبناء، ومن كثرة الانغماس في وسائل النعيم والرفاهية، واتِّباع الشهوات الحسية والمعنوية، يصل به الأمر إلى مخالفة الطبع البشري، ومخالفة الطبيعة تلبيةً لشهواته. و يكفي ما نراه اليوم من المثليين و مجاهرتهم بالفاحشة و عمل السوء.

---

[1]- محمد علي الأحمد وآخرون، (**إسلامية المعرفة**)، ص: 178.

[2]- ابن خلدون، **المقدمة**، 1/ 356.

ج- انعدام الدعوة الدينية، وضعف الوازع الديني، وخنوع روح العصبية: يشير ابن خلدون إلى دور الدين في حياة العرب، ويرى أن الملك لا يحصل لهم "إلا بصبغة دينية من نبوة، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة"[1].

فالدين عنصر أساس لقيام الملك عند العرب؛ وذلك للغلظة، وخلق التوحش كما يصفهم ابن خلدون، وهذه الأخلاق المتأصلة فيهم لا يهذبها إلا الدين، كما يشير إلى دور شوكة العصبية، ويثني عليها كثيراً في قوة الدول، ولكن العصبية العاقلة التي هذبها الإسلام، وليست التي نهى عنها النبي ،صلى الله عليه وسلم ونعتها بالمنتنة، "الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق"[2].

فهو يجعل عامل العصبية من العوامل المؤسسة للحضارة الإسلامية، وهي عصبية واعية، فاعلة، أصلها الدين. ونخلص إلى أن العصبية والدين عاملان ضروريان للمجتمع في نهوضه.

د- فساد الطبيعة البشرية، وولع المغلوب بالاقتداء بالغالب: لاحظ ابن خلدون فساد الطبع الإنساني، والمجتمع العربي على الخصوص، حيث جعله ميدانا لدراسته، فذكر جملة من الطباع الفاسدة، مثل الترف، والدعة، والكسل، والانغماس في النعيم، والتقليد الأعمى، وميل المهزوم دائما إلى تقليد الغالب، والفسق، والشر، والسفسفة، والتحايل على تحصيل المعاش (الغش)، والمكر، والخديعة، والكذب، والمقامرة، والفجور، والرياء، والمجاهرة بالمعصية ، والربا...).

فربط ابن خلدون بين هذه الطبائع السيئة والانحلال على مستوى الأخلاق، وبين ارتفاع الإجرام والانحراف في المجتمع.

انظر إلى طريقة ابن خلدون في تحليل عوامل فساد المجتمع العربي واحدا واحدا، فيكون بذلك أول من أسس لنظرية التحليل السوسيولوجي[3] بالمعنى الحديث، فلقد سبق في تأسيس علم العمران البشري، ونظرية التحليل السوسيولوجي، فيصبح بذلك كل علماء الاجتماع، والدراسات العلمية الحديثة للمجتمع البشري عيالا على ابن خلدون،وقدخص ابن خلدزن فصلا في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب، في شعاره وزيه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده[4]، وهذا هو ما يطلق عليه التقليد الأعمى، أو

---

[1]- ابن خلدون، **المقدمة**، 1/ 189.

[2]- نفسه، ص: 197.

[3]- **التحليل السوسيولوجي**: يشير مفهوم التحليل السوسيولوجي إلى عمليات تجزئة الكل إلى مكونات بسيطة في مقابل التركيب الذي يعني إعادة بناء الأجزاء في وحدات كلية؛ ينظر: يوسف سعدون، (**علم الاجتماع ودراسة التغير التنظيمي في المؤسسات الصناعية**)، (مخبر التنمية والتحولات الكبرى في المجتمع الجزائري، جامعة باجي مختار عنابة)، ص: 3.

[4]- ابن خلدون، **المقدمة**، 1/ 184.

الغزو الثقافي، والغزو القاتل، وهذا هو السلطان الذي استفحل في جسد الأمة المسلمة المريضة، ونخر قواها وشتت جمعها، وأذهب ريحها، فأضحت معلولة ضعيفة ذليلة، عقيمة العطاء والإنتاج في جميع الميادين، استطعمت ذلة وخزي التبعية السياسية والثقافية والاقتصادية، فاستوردت القوانين الوضعية بديلا عن القوانين الشرعية، ودفعت مقابل ذلك الملايين، واستوردت الغذاء ضاربة بذلك عرض الحائط أمن شعوبها الغذائي، وبرعت في استيراد متاع الدنيا بمختلف أشكاله وألوانه، ما يصلح للإنسان المسلم وما لا يصلح، بداعي حرية التجارة وعالميتها، فوقعت بذلك في وحل الغثائية والعبثية، بداعي التحضر ومواكبة الحضارة، وفي هذا يقول محمد الغزالي: "إنها حضارة ذكية بلا ريب، جميلة بلا ريب، لكن مذاقها مر، وكيدها سيء، كأنها المرأة اللعوب "مي" التي وصفها الشاعر بقوله:

على وجه مي مسحة من ملاحـــــة.... وتحت الثياب الخزي لو كان باديـا

ألم تـــر أن المـــــــاء يكدر طعمه.... وإن كان لون المـــاء أبيض صـافياً[1].

فقد ذقنا مرارة التحضر ، ودفعنا ثمن الاتباع المخزي، ضياعا للقيم والمبادئ الإسلامية الفاضلة، والانحلال الأخلاقي، والتفسخ الجنسي، فانتشرت الرذائل، وعمت الفوضى حياتنا، وشهدنا على عصر وواقع طالب فيه "المثليون" بحقوقهممن على منابر ومنصات الإعلام!، وهل هناك أكثر من هذا الواقع المهين لنطلق عليه مسمى المعيشة الضنك.

ونخلص إلى نتيجة جد مهمة، هي أن ابن خلدون اكتشف سننا تحكم المجتمعات البشرية، واستخرج منها قوانين عامة لانحطاطها ورقيها، وسقوطها وتطورها.

رابعا: السنة في الفكر الفلسفي

إن المساءلة الفلسفية لموضوع السنن الإلهية في خطابها الإسلامي، لتضعنا أمام حقيقتين جوهريتين لابد من الإقرار بهما قبل المضي قدماً؛ ألا وهما:

1- القيمة المعرفية لأصحاب الفكر الفلسفي، واستخدامهم للتبريرات والأدلة العقلية للتأكيد على وجود قوة استثنائية تتعالى عن الإنسان، والكون، ومن ثمة تؤثر في سلوكياته – الإنسان-، ونظام الكون وحركته.

2- والقضية الثانية التي ينبغي التنويه إليها هي مشكلة المصطلحات الفلسفية، التي تتقارب معرفيا مع مقتضيات هذه الدراسة البحثية، إذ التعامل مع موضوع السنن الإلهية داخل المنظومة الإسلامية فقط، يضعنا أمام خطاب ديني يرتفع عن إمكانية حضور ثقافات وأديان أخر؛ لذا استلزم أن

[1]- محمد الغزالي، **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، دار الشروق، (د،ط،ت)، ص: 27.

نوضح مهمة أساسية، هي أننا بصدد شق معرفي لوضع مقاربات تمكن للقاء، لقاء الفلاسفة مع رجال الدين على موضوع السنن الإلهية.

لقد أطلق الفكر الفلسفي مصطلح (القانون المطلق)، بما يطلق عليه في الفكر الإسلامي "السنن الإلهية"، وآمن الفكر الإنساني منذ أقدم عهود التفكير الفلسفي بوجود قانون عام مطلق، ونظام منسق، أو عقل كوني يحكم الوجود كله، يمكن إدراكه بالعقل النير الذي يكشفه ولا يوجده، وسمي هذا القانون قديما لدى فلاسفة الإغريق "القانون الطبيعي"، وفكرة القانون الطبيعي لديهم تتمثل في أن هناك قانونا يعم الأشياء جميعا، وعلى العقل البشري في سبيل اكتشافه أن يتمعن في نظام الكون، ومنطق الأشياء، وطبيعة الروابط الاجتماعية، فيستخلص منها هذا القانون الطبيعي[1].

وقد عرف السنن غير واحد بالقانون، ووصفها بالإطلاق، من الخصائص التي ذكرت خصيصةً في السنن، مثل الشمول إذ "هو يعم الأشياء جميعا"؛ أي سنن نافذة جارية، سارية في الوجود كله، ثم يلمح إلى أنه على العقل الإنساني اكتشافها، وفقهها، للوصول إلى قوانينها، لحسن تسخيرها.

– فالمعرفة العلمية هي المعرفة البشرية التي اكتشفت القوانين الكلية للوجود الواسع، والكون الفسيح[2].

– وتظهر النتائج الفلسفية أن المعرفة قسمان: دينية؛ هي الإلهية الكلية المطلقة السابقة،وبشرية [3].

وتؤكد الدراسات أن هذه القوانين الكلية، التي هي سنن إلهية مبثوثة في هذا الوجود بشقيه المادي والبشري، ما كانت لتكتشف، ولا لتسخر وتستثمر، لولا المعرفة البشرية؛ أي لو لم تحفز المعرفة الإلهية – كما يسميها الفلاسفة– المعرفةَ البشريةَ العلميةَ لظلت القوانين (السنن) غيرَ مستغلةٍ، وغيرَ مكشوفة.

– لقد سعت الفلسفة إلى اكتشاف القوانين الجوهرية الثابتة، وسعى العلم كذلك إلى أن يضع بصمته على ما يفترض أنه المعرفة المطلقة، أو القانون المطلق.

– وتقول في هذا الصدد **الدكتورة بتول قاسم ناصر**: إن هذا القانون بتنظيم الكون كله يضمن تحقيق النظام فيه، فهو يسري على كل الموجودات، ويخلو من الشروط أو الصفات الخاصة، التي قد تؤدي إلى تطبيقه على طرف أو شيء معين بذاته أو على واقعة محددة بذاتها... وهذا القانون ثابت لا يتغير زمانا ولا مكانا، لازم للأشياء والوحدات المرتبطة بطاعتها وتنفيذها بواسطة سلطة عليا تمنع مخالفته أي أن هناك نوعا من الجبر يضمن عدم الخروج على القواعد الواجبة الاتباع. ويتبين من هذا أن القانون

---

[1]– ينظر: بتول قاسم ناصر، **القانون المطلق**، لبنان، بيروت، دار الفارابي، (د، ط) (2011م)، ص: 12-14.

[2]– نفسه، ص: 76.

[3]– نفسه.

له مصدر توجيه وتحكم، هو الذي يضعه، وهو الذي ينظم العلاقة بين أطرافه، وهو الذي يوجه سيره بما يخدم أهدافه، ويطور مسيرته، ويمنع الأطراف المخالفة من الخروج عليه[1].

والفلسفة –بحسب ما تم تداوله– لم تنشأ إلا بعد أن قطعت مع الأسطورة[2]، وكان هذا قبل القرن السادس قبل الميلاد.تبدأ الدراسة مع عملاقين، وهما أفلاطون[3] وأرسطو[4]، ولماذا بالتحديد أفلاطون وأرسطو؟ لأن مسيرة (اللوغوس[5])، وهو القانون الذي يسيطر على الكون ويسيره وفق مشيئة وإرادة خالق الكون،وهذا ما أشار اليه هرقليطس لأنه أول من قال به،يلمح أو يصرح بشكل أو أخر إلى السنن الإلهية،وهذه المسيرة التي انطلقت من اللوغوس ستبدأ وتتواصل معهما، باعتبارهما واضعي البرنامج الفلسفي لفكرة الأنساق الفلسفية، وهنا يشير الطيب برغوث حين يتكلم عن الازدواجية الثقافية المتنافرة وضرورة الثقافة السننية المتكاملة، يقول: "غياب رؤية أو نظرية للإنسان، حيث تقول إحدى الباحثات في علم الاجتماع، بعد أن أشارت إلى عينات من الأطروحات والنظريات الكلية، التي أخفقت في تقديم تفسير كلي مقبول عن الإنسان، والكون، والحياة، وأشارتإلى الفراغ والقلق، والفقر

---

[1]–بتول قاسم ناصر، **القانون المطلق**، ص: 11-12.

[2]– الميثوس: كلمة يونانية معناها الأسطورة. Myth : an ancien story use –contain –ing religious or magical ideas which may explain natural or historical events، وهي القصة القديمة التي تستعمل الأ فكار السحرية ،و الدينية، والتي ربما تفسر وتشرح طبيعة، وتاريخ الحوادث.

longman / dictionary of contempoprary english librairie du liban-p722 . editor inchief paul procter .

[3]– **افلاطون (427–347 ق.م)**: هو ارستو كليس ابن ارسطون وافريقطيون، فيلسوف ورياضي يوناني كلاسيكي، وتلميذ سقراط وقد اطلق عليه من قبيل السخريه لقب افلاطون اي العريض لامتلاء جسمه وعظم من كبير وقوه بنيته ولد باثينا وعاش فيها معظمه سني حياته التي ناهزت الثمانين.

انقطع افلاطون الى الدرس والتعليم في الاكادميه زهاء 40 سنه تخللتها رحلتان قصيرتين الى ثقليه بعد موت دونيسوس الاول وانتقال الحكم الى ابنه دونيسوس الثاني وذلك في محاوله لاقامه مدينه فاضله ونظام مثالي في الحكم والعداله افلاطون مؤلف مكثر ترك لنا عددا كبيرا من الكتب وصلت الينا كامله لحسن الحظ فهو من بين الفلاسفه القدماء اول الفيلسوف تظل جميع كتبه محفوظه دون ان تصدو عليها يد الضياع.

عبد الرحمن مرحبا، **من الفلسفة اليونانيه الى الفلسفة الإسلامية**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيه، ط3 (1983م)، ص: 112، 114.

[4]– **ارسطو (384 – 324 ق.م)**: هو فيلسوف يوناني، يلقب بالمعلم الأول، ذلك لانه لم يترك شيئا الا وكتب فيه، وهو تلميذ افلاطون، ولد في اسطاغيرا وهي مدينه مقدونيه تقع على بعد نحو مئتي ميل من شمالي أثينا، كان والده صديقا وطبيبا للملك مينتاس ملك مقدونيا وجد الأسكندر الأكبر، ويبدوا ان ارسطو نفسه اصبح عضوا في جمعيه اسكيبيادس الطبية"، وكان على مدى 20 عاما تلميذا لافلاطون في اكاديميته عام 342 ق.م استدعيا ليكون الاستاذ للاسكندر الاكبر اسس فيما بعد في اثينا مدرسه خاصه به عرفت بالمدرسه المشائيه، ولذلك فان المؤلفات التي وصلتنا منه عباره عن المحاضرات كان يجري تداولها في الليسيه، وقد عرفت بالمؤلفات الاريسطيه الكامله التي تشمل: كتبا في المنطق عرفت لاحقا باسم الاورغانون، الكتب الطبيعيه، الماورائيات، الكتب الاخلاقيه، الكتب الفنيه.

ولديورانت، **قصه الفلسفه**، تح: فتح الله المشعشع، بيروت، مكتبة المعارف،ط4 (1989م)، ص: 67.

[5]– اللوغوس: القانون الكلي للكون، يقول هرقليطس: "كل القوانين الانسانية تتغذى من قانون الهي واحد لان هذا يسود كل من يريدو يكفي للكل ويسيطر على الكل، ينظر: عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1 (1984م)، 371/2.

المعرفي الذي تركته في هذا المجال: يجب أن نمتلك شجاعة القول إن أزمة التفسير في علم الاجتماع، تجد اليوم علتها في غياب نظرية للإنسان"[1].

وفكرة الأنساق الفلسفية، التي تستمر إلى فترة المعاصرة، ونقصد بطبيعة الحال المذهبين العقلاني والتجريبي، حيث ذهب كل من أفلاطون وأرسطو إلى أن هناك قوانين كونية لا دخل للإنسان في وضعها، ليست عملا إراديا له، هذه القوانين الكونية، يكتشفها الإنسان بالتأمل العقلي المجرد القائد إلى عالم المثل[2].

لقد قاد التفكير في نظام الكون، القائم على السنن، الفلاسفة إلى اعتبار الكائن الحي خاضعا لقانون معين، يتحكم في تطوره الداخلي، وإلى نظام تبدو عليه الطبيعة، والحركة المنتظمة للأجرام والكواكب، والترتيب خاضع لناموس معين وهو نفسه القانون الكلي للكون اللوغوس.

فالسنن عند أفلاطون هي ذلك النظام البادي المتسم بالحركة، الذي لا يخضع للصدفة، أوالعبثية، ويخضع له كل ما في الوجود، وهذا النظام ترتبط فيه الأسباب بمسبباتها.

ويرى أرسطو أن النظام ثابت لا يتغير، "يحكم الأشياء، وليس تبعا للصدفة، وما يدل على وجود قانون واحد ثابت وراء الأشياء هو انتظام العالم وتناسب الحركات،... وكان أرسطو قد قسم القانون إلى قانون عام طبيعي، وقانون خاص مدني... ويرى أن القانون الطبيعي هو غاية أو جوهر الوجود المادي (أعراف وعادات)، وأنه محاكاة للقانون الإلهي"[3].

ومن خلال رؤية أرسطو للقانون الحاكم للوجود والكون، فهو يؤسس لخصائص السنن (الثبات) (التوازن والاتساق)، ومن ثم فإن تقسيمه للقانون يوافق تقسيمات السنن وأنواعها (السنن الكونية) (السنن الإنسانية)، ومن المصطلحات التي عرفت بها السنن مصطلح "العادة"، الذي يستخدمه المفسرون عند تفسيرهم للآيات الناطقة والمصرحة بلفظ السنة، ثم نلحظ في الأخير بُعدها المرجعيَّ الرباني (القانون الإلهي)، لذلك فلقد ألمَّ أرسطو في رؤيته للقانون المطلق بما يحتاجه موضوع السنن، ليمكننا القول بأن السنن لها جذور في الفكر الفلسفي.

---

[1]- الطيب برغوث، (**الأطروحة السننية الخلدونية ونظرية المدافعة والتجدد**)، (برج الكيفان، الجزائر، دار النعمان، 2017م)، ص: 95-96.

[2]- ينظر بتول قاسم ناصر، **القانون المطلق**، ص: 16.

[3]- نفسه، ص: 17.

إذن فالفلاسفة يؤمنون بقانون وناموس يحكم الكون والعالم، ويقرر هذا المعنى الثلاثي العملاق والشهير (أفاطون، وأرسطو، وسقراط[1])، والمتمثل في القانون الطبيعي: "إن هناك قانونا يعم الأشياء جميعا، وعلى العقل البشري في سبيل اكتشافه أن يتمعن في نظام الكون ومنطق الأشياء"[2].

إذا انطلقنا من القرآن الكريم نجده يأمر بالنظر في عاقبة الأولين ،والنظر يصحبه التفكر والتدبر، الذي هو من مهام العقل، لأخذ العبر، وبالتالي تفادي وتجنب سنن العذاب والعقاب التي حلت بالمكذبين في الأمم عبر التاريخ، وكذلك نجد الفكر الفلسفي منذ عصوره الأولى يحث على التمعن، والتأمل العقلي، لاكتشاف القوانين الحاكمة للكون، (ومنطق الأشياء) المراد بها الحاكمة للآفاق والأنفس.

وعليه نخلص إلى أن السنن الإلهية، التي جعل الله مفاتيحها في كتابه المسطور، علم من علوم الآلة التي يحتاج إلى تفعيلها وإستثمارها في شتى العلوم والتخصصات وهي وسيلة لفهم الكون وتسخيره.

---

[1]- **سقراط (470 ق.م – 399 ق.م): هو** فيلسوف وحكيم يوناني، يعتبر من اهم مؤسسي الفلسفه الغربيه الحديثه مع افلاطون وارسطو. جاء سقراط في غمره تأرجح الفكر اليوناني بين الانسان والطبيعه عندما كان الصراع على اشده بين الذات والموضوع، ان سقراط لم يكتب شيئا كما يعرضه بنفسه، فالعلم في الصدور لا في السطور هذا هو الشعار الذي كان يدين به طوال حياته، لم يترك اثرا مكتوبا فما هي مصادرنا عنه ربما المصدر الاساسي هو افلاطون تعد حوارات افلاطون وهو تلميذ سقراط المصدر الاساسي لما نعرفه عن هذا الاخير فقد اظهرته الحوارات الافلاطونيه منشغلا مع مواطنيه بحوار وبجدل لا ينقطعان محاولا امتحانهم وجرهم الى ممارسه حياه صحيحه، ادت العداوات التي نشات عن ذلك الى محاكمته عام 399 قبل الميلاد، بحجه تسفيه الآلهه ودفع الناشئه الى الانحراف.

بيتر كونزمان واخرون، **اطلس – dtv الفلسفه**، تح: جورجكتوره، المكتبه الشرقيه، (د، ط،س)، ص: 37.

[2]– بتول قاسم ناصر، **القانون المطلق**، ص: 13-14.

المبحث الثاني: خصائص السنن الإلهية

ما من كاتب كتب في موضوع السنن، ولا من باحث درسها إلا وبين مفهومها، ووقف على أهميتها في حياة البشر، وذكر أنواعها، وساق صيغها، وأشكال التعبير عنها في القرآن الكريم، للخروج بتصور أولي عن الموضوع، وكذلك سننت نفس المنهج، واتبعت نفس الخطوات لبلوغ هذا المبحث الموسوم "بخصائص السنن"، ورغم اقتدائي بسنة من سبقني في هذه الدراسة، إلا أنني في كل مبحث حاولت الإضافة والتجديد، والابتعاد عن التقليد ما استطعت، لتجديد الأفكار والوصول إلى الإبداع المنشود من وراء البحث والدراسة، لذلك سوف أذكر خصائص للسنن مهمة معروفة، تعهدها الباحثون بالدرس والتحليل، وأشير إلى خصائص ربما تكون جديدة لم يتعرض لها بحث أو دراسة في حدود علمي، حتى يتسنى لنا الاستفادة منها، ونحسن التعامل معها، وفق منهج سليم سديد موفق، لاستثمارها أحسن استثمار.

أما الخصائص التي تكلم عنها من ألف في السنن فهي كثيرة ومتنوعة، فمنها: الربانية، والعموم والشمول، والاطراد، والثبات، النفوذ وعدم التخلف، والتسخير وقابلية الكشف، والتوازن والاتساق، والحاكمية (السنن الإلهية حاكمة على الجميع).

ومن خلال مطالعة ما سطره السابقون في ميدان السنن، ظهرت لي خصائص أخرى، هي الآتية: سنن فطرية جبلية، وسنن اختيارية لا جبرية، وسنن عملية حركية، وسنن حيوية فعالية (الحيوية والفاعلية)، والسعة والمرونة، والتكامل. وفي ما يلي أتجاوز الخصائص المعروفة، لأنها بحثت بشكل كاف وافٍ، ثم أفصل في الخصائص التي توصلت إليها الدراسة؛ وذلك في مطلبين:

المطلب الأول: فطرية السنن

المطلب الثاني: إختيارية السنن

المطلب الأول: فطرية السنن

المقصود بالفطرية في السنن أنها توافق أصل الخلقة، والطبيعة الأولى التي خلق الله عليها الإنسان؛ فسنن الله فطرية جبلية، ومن صميم فطريتها أنها تتميز بالمرونة والسعة كذلك، بثها الله في آفاق السماوات والأرض آيات بينات أخضع لها كونه وخلقه.

الفرع الأول:معنى فطرية السنن

الفَطْر: الشَّقُّ، والفُطْر: الْقَلِيلُ مِنَ اللَّبَنِ،والفِطْرَةُ: مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الخلقَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِهِ. وَقَدْ فَطَرَهُ يَفْطُرُه، بِالضَّمِّ، فَطْراً أَي خَلَقَهُ، والفِطْرَةُ الْخِلْقَةُ، والفَطْرُ الِابْتِدَاءُ وَالِاخْتِرَاعُ[1].

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: 30].

يتبادر إلى الذهن تساؤل مفاده: لِمَ افتتحنا هذه الخصيصة بهذه الآية الكريمة؟ وما وجه العلاقة بينها وبين موضوع السنن؟ ويأتي الجواب على هذا التساؤل في النقاط التالية:

أولا: هناك من المعرفين من عرف السنن بـ(خلق الله) و(دين الله)، وإذا رجعنا إلى تفسير هذه الآية الكريمة في كتب التفاسير نصل إلى العلاقة الوثيقة المرادِ بيانُها، وبذلك يتم لنا التأكيد على هذه الخصيصة، ومن ثم التدليل عليها لبيان المراد. فقد فسرها الطبري بأنها صبغة الله، وقال إن دين الله هو فطرة الله[2]؛ وقال مجاهد: "فطرة الله: سنة الله"[3].

وبالجمع بين القولين نستنتج أن سنة الله ميزتها الأساسية الربانية، التي تعتبر الأصل الذي ينبثق منه سائر الخصائص، بعد كونها سننا فطرية جبل عليها الإنسان وفطرعليها منذ الأزل.

ويحضرني قول لباقر الصدر يبين فيه "بأن الدين لم يعد مجرد تشريع، لكنه في مجال آخر يبينه سنة من سنن التاريخ، وقانونا داخلا في صميم تركيب الإنسان،... والدين هنا فطرة للناس"[4].

---

[1]-ينظر ابن منظور، **لسان العرب**،5/ 55-56.

[2]- الطبري، **جامع البيان**، 2/ 605.

[3]- البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء ، **تفسير البغوي**، بيروت، دار التراث العربي، ط 1(1420هـ)، 1/ 173.

[4]- باقر الصدر، **المدرسة القرآنية**، ص: 88.

ببسط هذا القول يتضح سبب إيراد تعريف سنة الله بدين الله، فدين الله فُطِر الإنسان عليه، وباقر الصدر يراه سنة داخلة في صميم فطرة الإنسان، والدين هو فطرة الله، وفطرة الله سنته في خلقه التي لا تتبدل ولا تتحول، وبالتالي تقرر الآية أنه لا تبديل لخلق الله.

ثانيا: ومن فطرية السنن كونها لا تخالف أصل الخلقة والجبلة الأولى، بل توافق تكوين الإنسان الفسيولوجي والنفسي، جارية في الخلق المادي المجبور بما يتماشى والطبيعة السوية طبيعة الكون الحي المختار، سنن من ثباتها وعدم تغيرها تعاطف المنطق الرشيد وتقويه، سنن بشمولها وعمومها غير محتاجة إلى أسلمتها، أو محاولة إلباسها ثوب ملّة أو نحلة معينة، سنن فطرية لا تفرق الناس حسب المذاهب، والانتماءات، والأيدلوجيات، تنسب إلى كل إنسان كائن مفطور على مسايرة السنن وعدم مصادمتها.

ثالثا: من سنن الهداية: الإخلاص، وحب الخير، والاعتدال، والعفة، والإصلاح... وكل هذه السنن مصبوغة بخصيصة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وإذا ألغيت هذه الخصيصة وعطلت من مجموع خصائص السنن نجد العقوبة جاهزة في حياة الناس، متجلية في مظاهر المعيشة الضنك التي يتخبط فيها معظم البشر، من تنكبهم ومصادمتهم لسنن الله في كونه، وخلقه، ودينه، وأمره ونهيه.

يقول صاحب التفسير السنني محمد رشيد رضا: "... وفي هذا تكريم للإنسان، يجعل عمله أصلا في كل ما يحتاج إليه لإتمام تربية نفسه وتزكيتها، وإرشاد له إلى أن ترك العمل والكسب ليس من سنة الفطرة، ولا من هدي الشريعة،... فيكون من الهالكين في عاقبة أمره"[1]؛ فالعمل وسيلة لكسب الرزق، وهو من سنن الفطرة التي فُطر الإنسان عليها، وبالعمل يحقق دوره في الاستخلاف.

فإذا وافق المسلم خصيصةَ فطريةِ سننِ الله، ورعاها حق رعايتها، كان مسلما قويا، فعالا، عزيزاً، متبعاً، لا ذليلاً تابعا، مُسخَّرًا له الكون، لا مُسَخَّراً هو للكون؛ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[الجاثية: 21].

رابعا: من سنن الله التمييز بين الإيمان والعمل الصالح وأهله، وبين اجتراح السيئات والعمل السوء وأهله؛ وبالنظر إلى أن السنن فطرية فيستطيع الإنسان بفطرته النقية الصادقة الاهتداء إلى الإيمان، الذي هو في الأصل قد فطر عليه أيضا، قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرانه أَوْ يُمَجسانه، كَمَا تَنْتِج الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعاء، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»[2].

---

[1]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 51.

[2]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلي عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، [1358]، 2/ 94؛ وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب القدر،باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، [2658]، 2047/4.

ومن لوازم الإيمان العمل الصالح الذي جعله الله مهيأً لكافة الناس بذله؛ لأن من مقتضى فطرية السنن قابلية جريانها في الأنفس، فنجد أن الله جعل الناس جميعا مفطورين ومخلوقين مستعدين لقبول الإيمان، وترجمته بالعمل الصالح، لا يمنعهم عن ذلك إلا مخالفتهم، ومصارعتهم، ومعاندتهم لسنن الله التي بثها في الوجود.

ولما جرت سنة الله في عباده أنه لا يبدل ما أنعم عليهم من نعم ظاهرة وباطنة، إلا بتركهم ما كانوا عليه من إيمان، وعمل صالح، وخلق قويم، منحرفين ضالين عن الطريق، متنكبين السنن، ومهملين بذلك خصيصة الفطرة المتأصلة والأساس في السنن، وعملوا على مخالفتها، استحقوا بذلك الحرمان من النعم، ومن ثمة إنزال العذاب بساحتهم، وما خبر القرآن عن الأمم المكذبة في قصصه عنّا بمحال، وما نراه اليوم من واقع الأمة الشاهدة من استدمار، واستعمار، وتبعية اقتصادية، وثقافية، وسياسية، وتخلف، عنّا بالعجيب، فلا يستغرب ما حل بالأمة من نوازل عظام، ومرجع ذلك أن السنن الإلهية صارمة لا تحيد ولا تميل ولا تحابي ولا تجامل، ولا تنال بالأماني؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[البقرة: 27].

خامسا: يفسر محمد عبده الآية الكريمة حيث يربط بين العهد والميثاق وبين رفض السنن الإلهية، ثم يبن من حال فسوقهم نقض العهد، وقطع ما يجب أن يوصل من أمر الله، والإفساد في الأرض، وسجل عليهم الخسران وحصرهم في مضيقة، بحيث لا يسلم منه إلا من رجع عن فسوقه، وفي السياق نفسه يشير الإمام إلى أن معنى الفسوق الخروج عن سنن الله تعالى في خلقه، التي هداهم إليها بالعقل و"المشاعر"[1]... فعهد الله تعالى هو أخذهم به بمنحهم ما يفهمون به هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والإعجاز[2].

يقول الإمام بأن هذه السنن معهودة للناس؛ أي إنها سنن فطرية عهدها الناس؛ فهي مألوفة لديهم، ليست دخيلة على أصل خلقتهم، ما ييسر عليهم مجاراتها ومسايرتها وعدم مصادمتها، ويطلق عليها في مقام آخر لفظ "العهد الفطري"[3].

حيث ما خلق الله الإنسان، وأمره بضرورة الأخذ بالسنن، إلا أنها قابلة للإدراك بكونها سننا فطرية، والإدراك متاح له أيضا، بما أودع الله فيه من آليات يتوصل بها إلى غايته (العقل والحواس).

---

[1]- يذكر الإمام "المشاعر" كأسلوب من الأساليب التي يهتدي بها الإنسان إلى استنباط وكشف السنن من آيات الكتاب العزيز وهذا ما نوهت إليه الدراسة عند عرض أساليب استنباط السنن من القران الكريم بالأسلوب الوجداني في الكشف عن سنن الله؛ ينظر ص: 34.

[2]- ينظر رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 202.

[3]- نفسه، 1/ 203.

يتحصل من ما سبق أن حديث القرآن الكريم عن أحوال الأمم السابقة وبيان مصائرها، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن سنن الله في خلقه سنن فطرية جبلية؛ فطر الإنسان عليها، وتشمل الفطرة إمكانيةَ اكتشافها، وقابليةَ فقهها، وضرورةَ العمل بها ومجاراتِها وعدمِ التنكب عنها، وذمَّ الغفلة عنها، والدعوةَ إلى تسخيرها لاستجلاء منافعها، التي أَجلِّها بثَّها الله في كونه، وخلقه جميعا.

سادسا: وبتدبر خصيصة فطرية السنن يتجلى لنا أمر مهم؛ ذلك أن مسألة السنن الإلهية تخضع خضوعا مباشرا لأمرين عظيمين، هما الإيمان، والسير والنظر في أحوال الأمم الغابرة وعاقبة تكذيبهم؛ فأما الأمر الأول وأعني الإيمان فهو من صميم فطرية سنن الله التي تحكم الأنفس، ومن ثمة فهو في مقدور كل إنسان؛ لأنه من أصل خلقته يشمل الميثاق والعهد الأول، الذي لا ينبغي إخلافه بالنظر إلى فطرية السنن، «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرانه أَوْ يُمَجسانه، كَمَا تَنْتِج الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعاء، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»[1]، وأما الثاني وهو السير والنظر، فهذا ممكن حصوله بما أنعم خالق السنن في من أمرهم وندبهم إلى فقه سننه، من نعم عظيمة، منها ما هو سر التكريم والتفضيل، ومناط التكليف وعماده ، ووسيلة الاجتهاد والتجديد، وأداة الفكر ومنشأُه، وبإعماله وتشغيله يفوز هذا المأمور بالغاية التي يتغياها أي إنسان، من وراء السير والنظر والتدبر، ومنها السمع والأبصار ومنها أن بسط الأرض وجعل فيها سبل فجاج، فسيروا واعتبروا فإن في النظر والاعتبارسبب للفوز بالحياة الطيبة.

فسنن الحياة الطيبة، وسنن المعيشة الضنك معروفة، واضحة لكل إنسان، مؤمنا براً، أو كافراً فاسقاً، بكونها فطرية (موافقة للفطرة البشرية)[2]، تتماشى و(النظام الفطري)[3]، النظام المعبر عنه بالسنن الإلهية[4]، فما يطرأ على فطرة الإنسان من ران يميل به عن حد الاستقامة والهداية، فيضل عن سنن الهداية، التي منها سنن الحياة الطيبة، فيذوق بذلك شقاوة سنن المعيشة الضنك.

يقول محمد عبده: "من يطلب السعادة في هذا الاجتماع عليه أن ينظر في أصول هذا النظام"[5]، يقصد به النظام السنني؛ أي السنن الإلهية، وبالعودة إلى بعض التعريفات الاصطلاحية لسنة الله أو سنن الله، نجد من عرفها بعهد الله، وعهود الله، إذن فالعهد فطري خلقي، وديني شرعي، وهذا تأكيد آخر من صاحب التفسير السنني على فطرية سنة الله التي يعبر عنها بالنظام والعهد، ... ولما اتسمت سنة الله

---

[1]-سبق تخريجه، ص:58.

[2]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 10/ 313.

[3]- نفسه، 1/ 203.

[4]- نفسه، 7/ 329.

[5]- نفسه، 1/ 202-203.

بخصيصة الفطرية كان الخروج عنها فسوقا؛ لأنه ليس من أصل خلق الإنسان وفطرة الله الفسوق، فإذا كان "معنى الفسوق الخروج عن سنن الله تعالى في خلقه"[1].

ونخلص مما سبق إلى أن الذي جعل سننا تحكم حياة الإنسان، فردا كان أو جماعة، وتجري في الوجود بشقيه المادي والبشري، علويه وسفليه، سننا تحقق انتظام الكون وانسجامه، سننا للهداية وسننا للضلال، سننا سخرها الله ليقوم الإنسان بوظيفة الاستخلاف التي أنيط بها، ولو لم تكن سنن الله فطرية لشعر الإنسان وهو يقوم بهذه المهمة الاستخلافية –التي هي أعظم أمانة استودعها– بعداوة وتناقض، واختلاف كثير وتنافر يستحيل معه مسايرة هذه السنن سواء كانت كونية، أو نفسية، أو اجتماعية إنسانية، ويعجز بذلك عن المضي قدما لتعمير الأرض، ويقوي هذا الرأي قول سعيد شهوان في كتابه السنن الربانية في التصور الإسلامي: "لا يشعر المسلم الذي يؤمن بهذه الحقيقة بأي عداء أو مناقضة بينه وبين الكون، بل يجد التيسير والانسجام، لأن هذا الكون عابد لله مسبّح له"[2]؛ والحقيقة التي يلمح إليها سعيد شهوان "السنن الإلهية".

إذن فالسنن والفطرة تخرج من مشكاة واحدة، ورؤية سنن الله بغير خصيصتها الفطرية تؤدي إلى اصطدام الإنسان مع الكون والوجود، واستحالة استمرارية الحياة، ما يؤدي إلى انقراض الجنس البشري.

وبالرجوع إلى كتاب "المرأة والعمل السياسي"، نجد الدكتورة هبة رؤوف قد قسَّمت السنن قسمين: سننا كونية، وسننا فطرية وجعلت لها مستويين: السنة التي تحكم الإنسان فردا وتشكل سماته وطبيعته البشرية، وسنن تحكم الاجتماع الإنساني، وحركة المجتمعات، وهي التي تعرض لها القرآن خاصة في القصص القرآني...، وسنن التكليف... التي تنسجم مع ناموس الكون والفطرة الإنسانية[3].

هذا التقسيم الذي ارتضته هبة رؤوف في كتابها دليل آخر على خصيصة فطرية السنن، والتي جعلتها خاصة بالإنسان فردا كان أو جماعة، ومن فطريتها أنها خصيصة تتسم بها سنن التكليف، وتنسجم –كما قالت– مع الكون والفطرة الإنسانية، فمن يكلف عباده بسنن، مستحيل أن تكون لا تتسم بخصيصة الفطرية وبذلك فسنن الله فطرية جبلية.

---

[1]–رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 202-203.

[2]– راشد شهوان، **السنن الربانية**، 1/ 158.

[3]–ينظر: هبة رؤوف عزت، (**المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية**)، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (18)، قضايا الفكر الإسلامي، 1416هـ– 1995م)، ص: 65-66.

الفرع الثاني: اتساع السنن

ثاني خصيصة بعد خصيصة فطرية السنن، أجدها خصيصة الاتساع، فإذا أردنا أن نصف السنن بصفة عامة فإني أرى الاتساع ، ميزةَ أساسٍ للسنن، ضاربةً في عمقها، شاملةً للآفاق والأنفس، ومختزنةً في ذات سنن الهداية، فاتساعها ومرونتها مسّا جميع أنواعها وأقسامها في جميع المجالات.

أولا معنى اتساع السنن

والتوْسِيعُ: خِلَافُ التضْيِيقِ[1]، المقصود بها توسع نطاقها اتساعا كبيرا ليخضع لها الكون، والخلق على السواء .

1- سنن الآفاق: خلق الله -عز وجل- الكون، وسن له نوامبس ربانية، وأخضع لها خلقه على إختلاف طبائعهم و تباين أخلاقهم فما من دابة ولا ذرة ولا جماد أو نبات إلا وله سنة من سنن الله تحكمه، ويسير وفق قوانينها. ولفهم هذه القوانين التي تحكم الآفاق جاء التوجيه الرباني للضرورة التدبر والتفكر، وكشف السنن التي تحكم الكون؛ لتسخيره بصورة أكثر فعالية، يستطيع من خلالها الإنسان أن يحيي حيلة طيبة. ولنحافظ على ترتيب الخلق، بدأنا بتوضيح خصيصة الاتساع في سنن الخلق المادي المجبور الصامت، حيث خلق البارئ عز وجل السماوات والأرض، والآيات الكونية الملخصة في الكون المنظور، تهيئةً، وتذليلاً، وتسخيراً لقدوم الخلق الناطق المختار الحي.

قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[العنكبوت: 20]، فسنن الله وسعت كل المخلوقات على اتساع أجناسها وأنواعها، فهي في الكون المادي آياتُه المرئية في سمائه وأرضه، بره وبحره، في ليله ونهاره، ودوابه وجميع خلقه، ولعل مصطلح "آية" هو أقرب مصطلح قرآني يعبر به جل ثناؤه في كتابه المعجز عن لفظ (السنة)؛ فهو مرادف لها، فسعة السنن شملت جميع أنواع السنن سالفة الذكر، اتساعها لبيان قدرة الله على الخلق مصداقا لقوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: 164].

2- اتساعها لتنظيم حياة الجماعة البشرية: قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[آل عمران: 13]، قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ

[1]-ينظر ابن منظور، **لسان العرب**، 392/8.

كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[سبأ: 15]، قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[الحجرات: 6]، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿9﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿11﴾ ﴾[الحجرات: 9-11].

وبالعودة إلى التفاسير نستنتج بعض السنن من هذه الآيات الكريمة: سنة الله في تأييد الفئة المؤمنة على قلتها، ونصرها على الفئة الكافرة رغم كثرتها، خذلانًا من عند الله، "والآية نفسها تهدي إلى السر في هذا النصر،... ما يمكن أن نفهم به سنته تعالى في مثل هذا التأييد"[1].

فالامتثال لأمر الله، والتصدي للدفاع عن الحق، وطاعة القائد، أسباب مجتمعة محققة للنصر، موجبة للاعتبار.

ومن قابل نعم الله بالكفر والعصيان والجحود، بدّل الله –عقوبة له– نعمة الرزق ورغد العيش، بالعذاب المهين، وفق سننه العادلة، فسنن العذاب كانت نتائج لمقدماتٍ، وأسبابالطغيان والكفر.

والمعنى: "اعملوا بطاعته إذ أنعم عليكم بما انعم،... حتى قيل إن المرأة تخرج فتحمل مِكْتَلها على رأسها وتمر، فيمتلئ من ألوان الفاكهة، من غير أن تمس شيئا بيدها"[2]، وهل نعمة أكثر من ذلك، حتى يعيش الإنسان مستقرا نفسيا بتحقُّق أمنه الاقتصادي.

ولكن بانحرافهم عن سنن الله الفطرية، وميلهم إلى الكفر، بدل الله نعمهم في طيب المسكن والبلدة والرزق إلى سيل العرم، وأكل الخمط، قال تعالى:﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿16﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ يُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿17﴾ ﴾[سبأ: 16-17]، فمن سنن الله أنه يجازي الكافر بسوء عمله.

---

[1]- ينظر: رشيد رضا، **تفسير المنار**، 194/3.

[2]- الواحدي، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، 3/ 490.

وحركة أي جماعة بشرية في التاريخ ليست اعتباطية، بل تجدها "محكومة بسنن وقوانين، ونواميس تقوم على تنظيمها وترتيبها، لتستطيع أن تمد من عمر حضارتها، وتضع حدا لقوارع الدنيا والآخرة، وتحقق حضورها التاريخي أو أفولها الدنيوي ويستوي في ذلك أن تكون مسلمة أو كافرة"[1].

ولأن القرآن الكريم أعظم مدرسة يتعلم منها الإنسان قيمًا تمكنه من العيش الكريم، ارتضاه له ربُّه حين استخلفه في الأرض، نجد آيات تنير درب الأمة بالمواعظ والمبادئ السامية، ولأن الحياة ميدان للاعتبار واستخلاص الدروس فيجب التسليم فيها بفقه سنن الله في إحياء الأمم، ومن هذه السنن التي تنظم حياة الجماعة المسلمة،... ما يلي:

أ- ضرورة التبين في الأمور والأخبار قبل الوقوع في ما لا يحمد عقباه، فسنة التبين والتأكد في الأخبار من السنن التي تحفظ وحدة المسلمين، وتقضي على أسباب الفرقة والعداوة، وهي من خصائص السنن التي يؤكد عليها هذا البحث كونها سننا فطرية؛ ولهذا نجد القرآن يلفت إليها الأبصار، ويحرك بها الوجدان ليتفاعل معها حس الإنسان ومشاعره؛ فبقراءة تدبرية لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝6 وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡۖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝7 ﴾[الحجرات: 6-7].

فبعد أن دلّهم القرآن على سنة التبين، والتأكد في الأخبار حتى لا يقعوا في الندم، وربما يصيبهم العذاب من جراء ظلمهم للقوم دون بينة؛ لأن من أسباب العذاب والهلاك الظلم، شرع في إرشادهم بما أودع فيهم من فطرة الإيمان، التي من لوازمها العمل الصالح المفضي إلى التمكين والتأييد، وليس من العمل الصالح بمكان الفسوق في الإخبار، والظن الذي لا يغني من الحق شيئا.

فبالعمل وفق سنة التثبت والتأكد من الإخبار، تحافظ الأمة على وحدتها واستقرارها وأمنها، وأيضا بالأخذ بسنة التثبت والتأكد من الأخبار قبل إشاعتها، أو التصرف بمقتضاها، تصيب الأمة جزءا كبير من الحق، وتسلك سبل الرشاد، وبسلوك سبل الرشاد تنال السعادة المنشودة.

وبالأخذ بسنن التثبت نتجنب الشك والريبة بين الجماعة المسلمة، وتشيع الثقة بين أفرادها، ما يؤدي إلى تماسكها وقوتها، والقضاء على أسباب النزاع والخلاف، فتقوى شوكتها؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن

[1]- ينظر راشد شهوان، **السنن الربانية**،1/ 94-95.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿9﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾ ﴾[الحجرات: 9- 10].

ب- ومن سنن صيانة المجتمع، والجماعة المسلمة من الفتن وعوامل التفكك والفرقة، الإصلاح والصلح بين المسلمين لأنهم إخوة، والصلح يكون وفق مبدإ العمل والقسط المتأصل في السنن، ومن سنن الله تحقيق الأمن والوحدة المطلوبة بين الجماعة المسلمة، وقتال الفئة الباغية الظالمة لحد وضع للفتنة والنزاع والخصومة، ويستمر القتال إلى رجوعها عن بغيها، يقول سيد قطب: "وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله، وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه، وأدى إلى الخصام والقتال، فإذا تم قبول البغاة لحكم الله، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق، طاعةً لله وطلبا لرضاه.."[1].

فهذا هو منهج الإسلام القائم على سنن تنظم الجماعة البشرية، وتحكم العلاقة بين أفرادها واتساعها، لتنظيم الحياة كلها، حتى تبلغ العلاقة الزوجية، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم: 21].

3- فهذه سنة تشريعية في قيام العلاقة الزوجية، وأن أساسها المودة والرحمة، وغايتها المنشودة السكينة والاستقرار، فهناك سنن كبرى تحكم العلاقة بين الزوجين، إن سنة الله هي التي تؤدي إلى أن يسكن كلا الزوجين إلى بعضهما البعض، ومن سنته أن يجعل المودة والرحمة بين الزوجين حتى تستمر الحياة الزوجية، بعد أن كان كل منهما غريبا عن الآخر، فالاستمرار تلزمه الألفة التي لا تتحقق إلا بالمودة والرحمة، ونعدم بذلك الصراع والخلاف المفضي للفرقة، رغم اختلاف الطباع واختلاف المشارب، وتباين البيئات بين الزوجين.

يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية الكريمة: "والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين، وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة، ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجا، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكنا للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقرارا للحياة والمعاش، وأنسا للأرواح والضمائر، واطمئنانا للرجل والمرأة على السواء"[2].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 6/ 3343.

[2]- نفسه، 5/ 2763.

فسبحان الذي خلق الأزواج من نفس واحدة، وبث سننا تحكم الحياة الزوجية ليستمر النوع البشري.

يؤكد سعيد شهوان أن هذه السنن، ويقصد بها السنن التشريعية، لأنه جعلها نوعا من أنواع السنن التي سنها الله من أجل صلاح عباده في الدنيا وفي الآخرة، تنظم قانون الحياة الاجتماعية والعلاقات الزوجية بين الذكر والأنثى، يثرى ويزداد من خلالها النوع، وتستقر بها النفوس وتتحدد الاختصاصات والالتزامات، ويوم تحيد البشرية عن هذا السنن التشريعي والاجتماعي، يضيع النسل، وتختلط الأنساب، وتتنافر طباع البشر، وتتفشى فيهم أمراض الزهري والإيدز[1].

4- وكذلك من السنن الاجتماعية التي تحافظ على وحدة الأمة، قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[آل عمران: 103]، فتكشف هذه الآية عن سنن الهداية، التي إن طبقتها الجماعة المسلمة نجت من العذاب وفازت بالنعيم، متمثلةً في الاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق والتشيع؛ لأنه مدعاة للانهيار والسقوط.

وحين يذكر سعيد شهوان هذه الآية يؤكد على أنها: "سنة سياسية، تتعلق بوحدة الأمة واعتصامها بحبل الله، ومادامت الوحدة مهيمنة على المسلمين، فهم في طليعة الأمم، وإن فقدوا قانون الاعتصام ذهبوا في غثاء السيل، مصداقا لسنة أخرى في قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[الأنفال: 46].

وليس غريبا حينها تكالب الأمم على المسلمين بعد أن تنازعوا، بعد اعتصامهم، مصداقا لقوله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ»، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الْحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[2].

5- اتساعها لتنظم اقتصاديات الدول والبلدان فلا يتحقق الأمن السياسي للدول إلا بتحقق الأمن الاقتصادي، ولأن الإنسان مطالب بتحقيقه، لينعم ببحبوحة العيش وحياة الرفاهية، فكان عليه لزاما الوصول إلى أسباب الأمن من الجوع، وبالتالي تحقيق الأمن من الخوف والاستقرار السياسي.

---

[1]- ينظر: راشد سعيد شهوان، **السنن الربانية**، 1/ 96.

[2]- نفسه، 97/1؛ والحديث رواه أحمد، **مسند ثوبان**، [22397]، 82/37، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

ومن المعلوم عند المسلم أن الله واهب الحياة، وكاتب الأرزاق، ومسخر الأرض وما فيها من خيرات ظاهرة وباطنة، ذللها للبشر للانتفاع، والنفع والتعمير، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝﴾[الملك: 15].

قال صاحب الكشاف في تفسيره هذه الآية: "مَثَلٌ لفرط التذليل، ومجاوزته الغاية،... وسهل لكم السلوك في جبالها... فهو أبلغ التذليل... وإليه نشوركم، فهو مُسائلُكم عن شكر ما أنعم به عليكم"[1].

فمن فرط التذليل أنه سخر الأرض وذللها، ودل الناس على خيراتها وأرزاقها، وأنعم عليهم بهبات ربانية لا تعد ولا تحصى، ولهذه الهبات سنن فمن عقلها وأخذ بها، حُق له طيب الحياة، ومن خالفها وتنكب عنها استحق العيش الضنك الكدر. و يأتي البيان والتوضيح لأسباب الرزق والخيرات، والبركات بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝﴾[الأعراف: 96]، ﴿وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝﴾[الجن: 16].

ويبدع كعادته صاحب التفسير السنني محمد رشيد رضا حيث يقول "بين لأهل القرى – مكةولسائر الناس– ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسل، واعتبروا بالسنن"[2]؛ إذن فمن سنن الله في سعة الرزق وازدهار الاقتصاد وتنمية الأموال، وحصول البركات، الإيمانُ بالله.

6– الإيمان بالله ووجوب تقواه: أي لو "آمنوا بما دعاهم إليه رسلهم، من عبادة الله وحده، بما شرعه من الأعمال الصالحة، واتقوا ما نهوهم عنه من الشرك والفساد في الأرض بالظلم والمعاصي وارتكاب الفواحش، وأكل أموال الناس بالباطل"[3].

ولما كانت سنن الهلاك، والعذاب ماضية في الأمم والقرى المكذبة، والظالمة المترفة المفسدة، جارية مطردة لا تتخلف، كذلك كانت سنن الرخاء حاضرة واضحة بينة فطر الإنسان عليها لما فطر على الإيمان، وهو موجبها، فكذلك الاستقامة على الطريقة السوية المستقيمة فطر عليها الناس وهي من أسباب الفلاح والتمكين، والنصر والعزة، والعيش الكريم الذي يتحقق بسعة الرزق والأمن من الجوع، بنعمة بركات السماء وهي الماء، وما الاستقامة المفضية لنزول الماء الغدق إلا استجابة لأوامر الله التي أرسل بها رسله لتبليغها، ومن هذه الأوامر تطبيق العدل، والإحسان، والبعد عن الظلم والطغيان؛ ومن آثار الاستقامة، والاستجابة لأوامر الله، ما يترتب عليها من مظاهر للحياة الطيبة، فالماء أعظم نعمة

---

[1]– الزمخشري، **الكشاف**، 4/ 580.

[2]– رشيد رضا، **تفسيرالمنار**، 9/ 22.

[3]– نفسه، 9/ 22.

يتوصل بها الإنسان إلى طيب الحياة، والاتصال بالله سنة إلهية لتحقيق رغد العيش، فدلت الآية على سنة من سنن الله في إحياء الأمم وازدهار الاقتصاد.

ويشهد لهذه السنن الربانية أن الرعيل الأول أصحاب رسول الله ﷺ، لما استقاموا على الطريقة، واتقوا الله في السر والعلن فتحت عليهم أبواب الرزق، وغنموا إيوان كسرى وكنوز قيصر.بعد أن وضحت خصيصة اتساع السنن ،أنوه أنني لا أعني بالاتساع خصيصة الشمول والعموم، التي بحثتها معظم الدراسات السننية.

وفاتساع سنن الله ماضية في الآفاق والأنفس والأفراد والجماعات، حاكمة للوجود بشقيه.

الفرع الثالث: مرونة السنن

سنن الله في خلقهتتميز بالمرونة، والتي معناها :

أولا: معنى المرونة

مرن، مَرَنَ يَمْرُنُ مَرَانةً ومُرُونةً وهو لِينٌ، ومَرَنَ على الشيء يَمْرُن مُرُوناً ومَرَانة تعوَّده واستمرَّ عليه[1].

نعرج الآن على خَصِيصَةِ المرونة، وجعلتها خصيصة ثابتة في سنن الله في خلقه بعد خصيصة الاتساع؛ إذ لابد من إعطائها حقها من الدراسة، فسنن الله في الكون المادي المجبور ثابتة لا تتغير، تصحبها الآنية؛ متى توفرت شروطها وانتفت موانعها ظهرتنتائجها بصورة آنية فورية حتمية، ويضرب باقر الصدر لهذا النوع من السنن مثالا بغليان الماء ، حيث "لا يمكن أن يجعل الماء لا يغلي، إذا توفرت شروط الغليان، لا يمكنه أن يتحدى الغليان، أن يؤخر الغليان لحظة عن موعده المعين لأن هذا قانون، والقانون صارم، والصرامة تأبى التحدي"[2].

وقريبا من مثال باقر الصدر يمثل له عبد الكريم زيدان بظاهرة تجمد الماء، إذا بلغت درجة برودته كذا درجة[3].

وفي الجهة الأخرى لهذا القانون الإلهي، نجد أن سنن الله الجارية في الكون الحي المختار الخلق الناطق العاقل مرنة، تصحبها ميزة الإمهال، غير آنية الحصول والوقوع والنفوذ، أي حتى وإن توافرت الأسباب، وانتفت الموانع، فقد تتأخر النتائج، وقد لا تظهر كلية، فهي بذلك مرنة، لا فورية النتيجة، فالحتمية هنا تنعدم، وهذا ما يضفي عليها خاصية المرونة، ويضرب لنا باقر الصدر بعض الأمثلة لبيان هذه الخاصية بتركيب الإنسان وتكوينه، وأن اتجاه العلاقة بين الجنسين "في مجتمع الإنسان –ضمن إطار

---

[1]- ينظر: ابن منظور ،**لسان العرب**، 4186/6.

[2]- باقر الصدر، **المدرسة القرآنية**، ص: 85.

[3]- ينظر: عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**، ص: 24.

من أطر النكاح والاتصال- هذا الاتجاه ليس تشريعيا، ليس تقنينا اعتباريا، وإنما هو اتجاه موضوعي، عملت العناية في سبيل تكوينه،... والتحدي لهذه السنة لحظة أو لحظات ممكن، أمكن قوم لوط أن يتحدوا هذه السنة فترة من الزمن بينما لم يكن بإمكانهم أن يتحدوا سنة الغليان بشكل من الأشكال"[1].

أي إن قوم لوط امكن لهم تحدي سنن الطبيعية في الخلق وخروجهم عن حدود التركيب الطبيعي للعلاقة بين الرجل والمرأة، وتحقق الشروط بذلك، واختفاء الموانع، غير أن النتيجة لم تظهر آنية فورية وإنما تأخرت، حيث أمهلوا أياما قبل وقوع العذاب.

وقد يقع التحدي وتنتهك عذرية الطبع البشري الذي فطر عليه الإنسان، ويتسع نطاق الشذوذ الجنسي، حتى نرى ونعيش من يجاهر به وينادي بحقوق - المثليين[2]-، من منابر الإعلام المختلفة، وننتظر عقاب الله الدنيوي لهم، لتطمئن به قلوبنا ويُشفي به غليلُ صدورنا، ومع ذلك يحيى ذلك الفاسق ويموت دون رؤية العذاب رأي العين.

فقد شهدنا أناسا عاشوا المعصية والفجور والشذوذ، ولم نر لهم نهاية مؤسفة تشمت فيهم الأعداء، أو تشفي صدور قوم مؤمنين؛ وهذا لأن مرونة السنن اقتضت عدم وقوع النتيجة وهي العذاب والعقاب الدنيوي المنتظر، رغم توفر الأسباب، حسب القوانين السننية، وتقتضي حكمة الله ومشيئته تأخيره إلى العقاب الأخروي، ويستطرد باقر الصدر ليوضح أكثر مرونة السنن، فيقول "سوف لن يستمر هذا التحدي على شوط طويل، سوف ينقطع في شوط قصير، كل اتجاه من هذا القبيل هو في الحقيقة سنة موضوعية من سنن التاريخ، ومن سنن حركة الإنسان، ولكنها سنة مرنة تقبل التحدي على الشوط القصير، ولكنها تجيب على هذا التحدي"[3].

يريد باقر الصدر القول بأن تحدي السنن الإنسانية قد يحدث، ثم لا تظهر نتائجه الآنية والفورية كما تظهر نتائج مقدمات وأسباب السنن الكونية، أي تكون النتيجة فورية آنية الحصول، فهو يقصد أن الإهمال يكون فترة من الزمن وتقع النتيجة بعدها، وهو ما يطلق عليه على الشوط القصير.

---

[1]- باقر الصدر، **المدرسة القرآنية**، ص: 86.

[2]- **المثلية الجنسية**: بالإنجليزية (Homosexueality): شذوذ جنسي وتعني اشتهاء المماثل (تعلق جنسي بين فردين من جنس واحد، وهو اللواطة أو اللوطية لدى الذكور والسحاق لدى النساء)، ينظر :جويس م هوكنز، **قاموس أكسفورد الأساسي إنكليزي- عربي**، لبنان، بيروت، اكاديميا، (د،ط) (1990م-1994م)، ص: 282، وينظر: سهيل إدريس، **المنهل، قاموس فرنسي – عربي**، لبنان، بيروت، دار الآداب، ط31 (2003م)، ص: 619.

[3]- باقر الصدر، **المدرسة القرآنية**، ص: 87.

فمن مرونة السنن الإنسانية الإمهال وعدم المعاجلة بالمؤاخذة، فمن سنة الله ومن مقتضى عدله وحكمته الإنذار، والإعذار، وهنا يكمن التحدي للسنن الإنسانية، فمن لوازم الإمهال تقديم الإنذار والإعذار للقوم الظالمين، المتجبرين المفسدين، قبل حلول العذاب الدنيوي، "أما سنته في الحياة الإنسانية فهي سنن مرنة غير قهرية تحمل خاصية الإمهال بعض الوقت لصالح الإنسان"[1].

ويظهر هذا المعنى بمثال من واقع الناس: "أن الأمم لابد أن تنال جزاءها خيراً كان أم شراً، عاجلا في الدنيا، أما الأفراد فليس ذلك بمطرد فيهم ولا لازم في حقهم، فقد ينالونه في الدنيا، وقد يموتون دون أن يجزوا بأعمالهم، وكم شهدنا وشهد الناس قبلنا، من الطغاة والمتجبرين، من سام الناس سوء العذاب، ثم هلك دون أن يلاقي عُشر معشار ما يستحقه في نظر الناس وفي تقديرهم، وبالمقابل فكم من الأنبياء ومن الدعاة والمصلحين ممن أنقذ الله بهم خلائق لا يحصون من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة، يموتون يوم يموتون ما بين مطرود ومسجون، ومعذب"[2].

ولأن الفكرة، تحمل في طياتها بعض الاتهامات، والشكوك لوعد الله الصادق والنافذ في نصره لعباده الصالحين، ولعذابه للطغاة الفاسدين لابد من بسط وبيان وشرح لهذه الفكرة لإزالة اللبس والغموض عنها، ولإقرار صدق وعد الله الحق، وعدم تخلفه، من خلال مايلي:

يجيب صاحب كتاب" سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم"، عن هذا التساؤل بطرحه لمجموعة من الآيات القرآنية محاولا بيان خصيصة مرونة السنن، واطرادها في آن واحد.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[غافر: 51]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿171﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿172﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿173﴾ ﴾[الصافات: 171-173]، يلخص الجواب في أمرين[3]:

الأول: أنه يجب أن نفهم معنى النصر المقصود بهذه الآيات وأمثالها.

والثاني: يجب أن نفرق بين نصر الفرد، ونصر الفئة والجماعة والأمة، وأنه لا تعارض بين انتصار الفكرة والأمة، وبين أن لا يلقى الفرد جزاءه الذي يستحقه في الدنيا.

فيلخص النصر في صبر الداعي واستمراره في دعوته رغم ما يلاقيه من صور العذاب، وفي انتشار فكرته، ومبادئه بعد موته، وشيوعها بين الناس أكبر نصر له، وهلاك عدوه ولو بعد موته، نصر أيضا،

---

[1]- حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، الرياض، السعودية، دار الفضيلة، ط 2(1432هـ-2011م)، ص: 26.

[2]- نفسه، ص: 38.

[3]-ينظر: حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، ص: 39.

والمقصود بالجزاء الذي يلقاه في الدنيا، ليس هو المرادف للنصر بمعناه الأعم ضرورة، وإنما المقصود هو الجزاء الدنيوي الذي يلقاه الفرد بذاته من عموم الأمة، من أجيالها المتعاقبة لقاء ما قدمه لهم من خير وإصلاح.

وقد اجتمع الأمران، من تحقق النصر على مستوى الأمة، وتأخير الجزاء الدنيوي على مستوى بعض الأفراد، اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿141﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿142﴾ ﴾[آل عمران: 141-142].

ومن خلال هذا الطرح نستنتج أن نصر الأمة الصالحة بمجموعها لا يعني عدم وقوع العذاب والجزاء الدنيوي على بعض أفرادها، وكذلك هلاك الأمة الطالحة بمجموعها لا يعني نجاة بعض الأفراد الصالحة فيها. فقد وقع الهلاك على قوم نوح ولوط، مع نجاة بعض المؤمنين وأنبيائهم، وقد انتصرت الجماعة المسلمة في غزوة بدر مع لقاء بعض أفراد الجماعة المسلمة مصرعَهم خلال المعركة.

ونجد في نفس المعنى كلاما رائعا لسيد قطب، يقول فيه: "إن وعد الله قاطع جازم: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[غافر: 51] بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل، ومنهم من يهاجر من أرضه مكذبا مطرودا، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب، وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد،.. فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا!؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل! ... إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. وهي مقاييس بشرية صغيرة، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان،... وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها؛ فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها، وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها"[1].

نخلص إلى أن مرونة السنن تقتضي الإمهال فقط دون غياب الجزاء، أو العقاب الدنيوي، وهذا الأخير حصوله حتمي على مستوى الأمم سواء بالنصر والتمكين، أو الهزيمة والخذلان، وحتمي على مستوى الأفراد، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[يونس: 13]، وقال:﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[الإسراء: 58].

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 5/ 3085- 3086.

ونظراً لكون الفرد أو الأفراد عناصر فقط محددة في مجموع الأمة الكبير ،كانت نهاية أمرهم ومآلهم لا يلفت له نظر ولا يعتبر بها، لكونهم يذنبون في وسط الجماعة البشرية (الأمة)، ولذا تجد من يغفل حتى على تتبع مصيرهم وفق سنن الله العادلة، أما أمر الأمة فعظيم، والاعتبار كان مأمورا به، فالتدبر والنظر لجماعة الأمة أو الأمم لا بحسب الأفراد، لأن الجزاء الفردي قد يقع منه ما يشفي الصدور في الدنيا وهو حتمي في الآخرة.

يضيف صاحب كتاب "سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم"، فائدة عظيمة لوجوب تحقق الجزاء الجماعي للأمة في الدنيا، دون وجوب تحققه على مستوى الفرد، يقول: "وإذا كنا متفقين على أنه لابد لكل عامل من جزاء وهو كذلك، فإن الأمة (الكيان الجماعي ذا المسؤوليات المحددة) يجب أن تلقى جزاءها الجماعي في الدنيا، لأنها غاية تنتهي، ولأن قيمتها وثمرتها لا تحصل إلا في إيقاع الجزاء وتلقيه في الدنيا، ثم إن تأخير هذا الجزاء الجماعي عن الدنيا، فيه من المفاسد مالا يحصى: من غلبة الباطل، وسيادة المبطلين، وفساد الأرض، وضعف الحق وقهره وإذلال أهله، وفي إيقاعه في العاجلة من المنافع والحكم مالا يعلمه إلا الله"[1]؛ وهذا ما تقتضيه سنة التدافع التي أقرها القرآن الكريم.

إنه بإثبات مرونة سنن الله الإنسانية أعظم مظهر من مظاهر الحكمة والمشيئة الإلهية، بالإضافة إلى أنه من مقتضى المرونة التي هي من خصائص السنن الإلهية أن تكون هذه السنن في مقدور أي إنسان الأخذ بها، ومجاراتها لحسن استثمارها للفوز بحياة سعيدة طيبة، لأنها تتوافق وطبيعة الإنسان، وفطرته التي فطر عليها، تتماشى والمنطق السليم، والعقل الرشيد، ففيها من السهولة واليسر ما في مقدور أي كان دون النظر إلى دينه أن يسايرها، ويجاريها دون أن يخالفها، أو يصادمها أو يعارضها.

ومن مرونة السنن أنها متعلقة بالإنسان فردا كان أو جماعة، ضاربة في تاريخه وظاهرة في اجتماعه، متعلقة بالتفكر والنظر والاعتبار، لإمكانية حصول ذلك منه بما أودع الله فيه من طاقات، وقدرات، ومواهب، وآليات.

فمن مرونتها أنها تراعي إنسانية الإنسان من جميع الوجوه، فإمكانية إدراكها أكبر دليل على مرونتها، لذلك نجد القرآن يلفت نظر الإنسان، وعقله، وكل جوارحه إلى ضرورة فقهها واكتشافها ومن ثم استغلالها، ومن مرونة سنن الله في الخلق الناطق المختار تعلقها بكسب البشر، وعملهم، ومواقفهم من شرع الله، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ

[1]- حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، ص: 41-42.

مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿40﴾ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿41﴾ ﴾[الروم: 40-41].

فهو يواجههم -يقول سيد قطب- بواقع أمرهم وحقائق حالهم التي لا يملكون أن يماروا في أن الله وحده هو موجدها، فلا "يملكون أن يزعموا أن لآلهتهم المدعاة مشاركة فيها، يواجههم بأن الله هو الذي خلقهم، وأنه هو الذي رزقهم. وأنه هو يميتهم، وأنه هو يحييهم، ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم، وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد، ويملأها برا وبحرا بهذا الفساد، ويجعله مسيطرا على أقدارها، غالبا عليها، فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثا، ولا يقع مصادفة إنما هو تدبير الله وسنته... «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» من الشر والفساد، حينما يكتوون بناره، ويتألمون لما يصيبهم منه: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فيعزمون على مقاومة الفساد، ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم"[1].

إذن فمن مظاهر الفساد في الأرض تحدي سنن الله في الكون وفي النفس، رغم مرونتها، و يمكن للإنسان إدراكها والتفاعل معها، فالصلاح الذي هو عكس الفساد متاح لأي إنسان القيام به، لأنه من أصل فطرته، والفساد ضد فطرية السنن ومرونتها، وهو بذلك مظهر من مظاهر العقاب الدنيوي، وسنن الله في خلقه قائمة على العدل، فمتى قدموا المعاصي والشر والذنوب كان الجزاء من جنس العمل وفق سنة الله، فحل بهم الفساد وأحاط بهم من كل جانب براً وبحراً، حتى يتوبوا ويعودا إلى الله بعدم مخالفتهم لسننه، فالله سبحانه وتعالى جعل في الوجود سنن الصلاح والفلاح والفوز والتمكين، وسنن الحياة الطيبة، ولكن هذا الإنسان بكفره وشره وتنكبه عن سنن الخير، وركوبه سنن العذاب، والهوان، والذل، والخسران، ذاق الفساد بأنواعه، وانحرف عن فطرية السنن، وإلى هذا المعنى يشير المتنبي في قوله:

كلما أنبت الزمان قناة..... ركب المرء في القناة سنانا[2].

فالفساد من كسب الإنسان ومن فعله، فيستحق بذلك كل صور المعيشة الضنك؛ ذلك أن الله يسر له سبل الحياة الطيبة بما بث في الوجود من سنن فطرية جبلية مرنة، ليست سننا مستوحشة جافة مستغربة، أو صلبة قاسية فظة، وزاد في تكريمه بأدوات بما يتوصل إلى اكتشاف سنن الفوز والفلاح، فلما حاد وانحرف وتنكب وغفل عنها، كان الفساد والعذاب متجسدا في المعيشة الضنك.

ونختم خصيصة السعة والمرونة بكلام جميل لمحمد عمارة: "وهذه السنة... النظام... القانون... قد جعلها الله خلقا مبثوثا في أجزاء هذا الوجود، سماء، وأرضا، وأفلاكا،... فحكمت سير ومسيرة هذا

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 5/ 2772- 2773.

[2]- عبد الكريم يوسف الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، القاهرة، دار الفكر العربي، (د،ط،ت)، 11/ 527.

العالم عبر تاريخه، وفق الحكمة الإلهية التي قدرها سبحانه، فتاريخ كل شيء في هذا الوجود قد حكمته هو أيضا السنن والقوانين... ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[الإسراء: 77]"[1].

إذن نستنتج أن سنن الله في خلقه وسعت وحكمت كل صغيرة وكبيرة، فلم تغادر شيئا، وهي بمرونتها في مقدور كل إنسان.

ومن خاصية السعة والمرونة إلى خاصية الاختيارية وعدم الجبرية والقهرية، فسنن الله جارية نافذة سارية في الوجود بأسره كما أثبتنا ذلك، موافقة لإرادة الإنسان واختياره.

المطلب الثاني: اختيارية السنن

سنن الله اختيارية لا جبرية، تتميز بالحركة وبتفعيلها يحظى الإنسان بطيب الحياة، ونجدها في كتاب الله كلها من منبع واحد ربانية المصدر والغاية ،تجمعها هذه الخاصية لتسم بالكمال فيما بينها، وإذا أثبتنا خصيصة الاختيارية للسنن، فسوف تصحبها لزاما سمة الحركية و الفاعلية.

الفرع الأول: معنى الاختيارية.

وأنتَبالخِيارِوبالمخْتارِ،أي: اخْتَرْماشِئْتَ[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: 11]، وقال عز من قائل: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص: 59].

يقول الطبري:"إن الله لا يغير ما بقوم، من عافية ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض، فَتَحِلَّ بهم حينئذ عقوبته وتغييره"[3]، وندلّل على هذه الخاصية بالنقاط التالية:

– يقول محمد عمارة: "فإن فعل الله هذا في التغيير، لا يتخذ بالعالم والفعل المقدور للإنسان صورة الجبر والحتم، الذي يجعله عاريا عن اتساق السنن والقوانين، ملغيا لحرية خليفته فيما هو مقدور له من الأفعال،... فلقد شاءت حكمة الله –سبحانه وتعالى– كمالا لانتظام ونظام الكون بالسنن والقوانين، أن تكون حرية الإنسان في التغيير هي الأخرى سنة حاكمة فيما تغييره مقدور لهذا

---

[1]– محمد عمارة، **معالم المنهج الإسلامي**، ص: 40.

[2]– الفيروزآبادى، **القاموس المحيط**، 1/ 389.

[3]– الطبري، **جامع البيان**، 13/ 471.

الإنسان﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾[الرعد: 11]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[الأنفال: 53]"[1].

– فيرى محمد عمارة أنه حتى التغيير والتبديل الذي هو إبداع من الله في هذا الوجود، محكوم بسنن، وهذه السنن في مقدور الإنسان، وهذا ما أبرزته الدراسة من قبل، لما بينت خاصية فطرية السنن، وأنها لا تخالف حرية الإنسان وإرادته؛ فهي بذلك تتمتع بالاختيارية لا الجبرية.

ويطلق على حرية الإنسان في التغيير "سنة"، وهي سنة جارية في الإنسان تتمتع بالاختيارية، ويضيف ليوضح المعنى أكثر، فيقول: "والنبوات والرسالات التي مثلت سبل الهداية من الضلال، والتغيير الإلهي لما عليه الناس من ظلم وظلمات، قد حكمتها هي الأخرى السنن"[2].

– فسنن الهداية، سنن جارية في الخلق البشري، فلو لم تكن ميزتها الاختيارية وعدم القهرية، لأمن الناس جميعاً، وما تعرض الرسل للتكذيب والتعذيب، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾[يونس: 99].

فإرادة الله، وحكمته، ومشيئته، التي اقتضت أن يبنى هذا الوجود على سنن ونواميس، وقوانين تسري في الآفاق والأنفس، وصانت حرية الإنسان، وجعلته مخيرا لا مجبرا، كذلك جعلت هذه السنن الحاكمة في الخلق المختار اختيارية.

– يقول سيد قطب في كتابه مقومات التصور الإسلامي: "هو الناموس الثابت المطرد لهذا الوجود الحادث الفاني،... وينفي عنها الجبرية والآلية، مع ثبات السنن التي تنفذ كل مرة بقدر خاص طليق"[3]، إذن فالوجود تحكمه قوانين ونواميس وسنن ثابتة مطردة اختيارية لا جبرية.

– لما حكمت السنة وجرى القانون في خلق الله المادي المجبور بالقهر والجبر، فإننا نجد أن سنن الله الكونية نافذة بطريقة القهر، ولا دخل لإرادة الإنسان وفعله وسلوكه فيها، فلا يستطيع أن يخالفها أو يغيرها، لأنها حاكمة بطريقة الجبر والقهر، ولكن هذا الوجود ليس ماديا فقط، فهناك الخلق البشري الإنساني الذي تجري فيه سنن الله الاجتماعية والإنسانية، وهذا هو القسم الذي اتسمت سننه بالاختيارية، "فليست هناك جبرية آلية في الخلق"[4]؛ وسمة الاختيارية هذه تجري بمقتضاها سنة من سنن الله العادلة أن الجزاء من جنس العمل،فكل نفس بما كسبت رهينة.

---

[1]– محمد عمارة، **معالم المنهج الإسلامي**، ص: 41.

[2]– نفسه.

[3]– سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، القاهرة، دار الشروق، ط 3(1408هـ- 1988م)، ص: 62.

[4]– نفسه، ص: 63.

وبهذا ترتبط فطرة النفس البشرية بطبيعة هذا الدين، فكلاهما من الله وإرادته، وكلاهما موافق لناموس الوجود، وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه[1]، كيف لا يكون ذلك وهما من الحكيم الخبير!؟

يريد سيد قطب بهذا أن يوطد العلاقة بين سنن الله التي سماها بناموس الوجود، وبين دين الله، وهو بذلك يضفي على ناموس الوجود صفة الربانية، ثم يوضح أن فطرة النفس البشرية تألف دين الله، لأنها مفطورة عليه، وكذلك توافق السنن ولا تخالفها ومتناسقة معها، لأنها في الأصل فطرية، وكل من النفس البشرية والسنن الإلهية فطرية في طبيعتها واتجاهاتها.

الفرع الثاني: فاعلية السنن

لقد حث القرآن إلى ضرورة السير في الأرض،وجعله واجب شرعي فكان الهدف من وراء ذلك، النظر والتدبر في الآفاق والأنفس لاكتشاف سنن الله وفقهها للتأكد من فاعليتها في كل مناحي الحياةلتأهيل الإنسان إلى المهمة الكبيرة،مهمة الخلافة وإعمار الأرض، ومن آثار فاعلية السنن الإلهية أنها سنن تتميز بالحيوية و الحركية.

حيث ثبتت لنا خصيصه الاختيارية لسنن الله الإنسانية، وانتفت عنها الجبرية القهرية، فلابد من إثبات خصيصة أخرى مقاربة ومتآخية مع ما سبق، وهي من خصائص السنن الإلهية المميزة والمهمة، ألا وهي خصيصة فاعلية السنن ، فلما نفينا عن السنن كونها قوانين صماء عمياء، فإنه لزام علينا أن نثبت لها فاعلية التأثير التغيير في كل ما يخص الإنسان، فهي تجري وتحكم في كل مجال من مجالات الحياة، سارية في كل مرحلة من مراحل نشأة الإنسان، نافذة في كل نفس من الأنفس البشرية، لا تختص بقوم دون قوم، ولا بزمن دون زمن، ولا بمكان دون آخر على وجه المعمورة، فهي ماضية في التاريخ، تحكم حركته وتطوره، نهوضه وسقوطه، حضوره وشهوده، وأفوله وتقهقره، وسوف نلخص هذه الخاصية في نقاط كالآتي:

– يقول سيد قطب إن صفات الله سبحانه "توحي بالفاعلية الإيجابية، فلا سلبية في التصور الإسلامي لله وهو أكمل تصور وأصدقه"[2].

– فالله سبحانه وتعالى هو خالق السنن وموجدها، وخَلْقُ الله يتسم بالفاعلية الإيجابية والحركية العملية، حيث نجد كل حركة في هذا الكون العظيم محكومة وخاضعة لسنة من سنن الله، وكون الله وخلقه دائم الفاعلية والحركية والإيجابية، ولهذا نجد سنتة تتميز بخصيصة الفاعلية و الحركية، حيث تجعل

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 5/ 2767.

[2]- نفسه، 1/ 379.

من يأخذ بها ويعمل وفقها، فردا كان أو جماعة، فعالاً، ومؤثرا، وإيجابياً، ومنتصراً، ومُمَكنناً، وقائماً بدوره الاستخلافي على أكمل وجه وأتم دور، يسخر الكون لاكتشاف أسراره والفوز بكنوزه، ويسير في الأرض مجيباً لأمر التدبر والتأمل المخاطب به للاتعاظ، ومنه تحقيق مبتغاه في الاستخلاف الحق، واستحقاق ميراث الأرض بالوعد الصادق.

– من فاعلية وحركية وحيوية السنن الحاكمةِ، الجاريةِ في الإنسان عامة، والمسلم خاصةِ، الذي يؤمن بها، ويترقب آثارها في حياته، ووسط جماعته البشرية المحكومة بسنن النصر والتمكين، وسنن الهزيمة والخذلان، أنها تدفع بالفرد المسلم إلى تفعيل دوره في الحياة، لإنشاء وتكوين الجماعة المسلمة القدوة النموذج، المهيأة لقيادة الأمة نحو هدفها في تثبيت دعائم النهوض والشهود الحضاري، في خضم معركتها الحضارية الحتمية لاسترداد مكانتها بين الأمم الرائدة المتطورة.

– ومن هنا تبرز أهمية هذه الخصيصة ضمن خصائص سنن الله التي بثها في كونه وخلقه وشرعه، فما كانت الدعوة للتأمل في تجارب الأمم السابقة، والإشارة إلى مآلها وعاقبتها إلا بهدف الاستفادة من حركتها، ومن فعاليتها، لتجنب المصائر المخزية، ولتدلنا على الأمراض والأعراض التي تلحق الأمم والجماعات، للوقاية منها ومن عللها.

ومن آثار هذه الخصيصة تحقيق الطليعة بين الأمم، للقيام بدورها في الشهادة على الناس، ومن آثارها استغلالها وتسخيرها لحصول التغيير المنشود، الذي يقود إلى الصلاح والإصلاح؛ إذ لا إصلاح لشؤون الخلق إلا بتحقيق سنة المدافعة، وكما يقول الرازي: "المدافعة مفاعلة"[1].

ويوضح الطيب برغوث سنة المدافعة والمداولة وفق المنظور السنني القرآني، ليدلّل على خاصية الفاعلية المتأصلة في السنن، فيقول: "إذا كانت الفعالية الإنجازية هي المؤثر المباشر على حركة المدافعة والمداولة الحضارية،كما أسلفنا، فإن المنظور السنني القرآني بشموليته، وتكامليته ،وتوازنيته، يدفع هذه الفعالية الإنجازية إلى أعلى مستوياتها النموذجية القصوى، ويتيح بذلك للمجتمع أو الأمة القدرات المثالية لتحقيق نهضتها ومداولتها الحضارية المطلوبة، كما يتضح لنا ذلك، من خلال محاولة استعراض المسار السنني لتطور وتأثر الفعالية الإنجازية التكاملية، للفرد والمجتمع"[2].

وما كانت لتتحقق المداولة والمدافعة الحضارية لو لم تكن سنن الله تتميز بالحيوية، والفاعلية، والحركية، وإذن لعم الفساد والشر الدنيا، ولساد الكفر في الأرض وانتشر؛ لأن أعظم فساد في الأرض انتشار الكفر، الذي يعني انهزام المسلمين، وغلبة وانتصار الكفار، الذين يعيثون فساداً في الأرض فتبطل

---

[1]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 6/ 518.

[2]– الطيب برغوث، **التكاملية المعرفية والحاجة إلى منظور سنني كوني متوازن**، الجزائر، دار النعمان، ط 1 (2017م)، ص: 89.

منافعها، وتعدم مصالحها من حرث ونسل وعمران، لأن من سنن الله في الاجتماع البشري، دفع الباطل بالحق، وهذا الدفع لا يكون إلا وفق سنن بثها الله في خلقه العاقل، ليقاوم فساد المفسدين، ويرد الباطل وأهله في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: 251].

ومن عظيم فضل الله على العالمين أن أصبغ سننه بالفاعلية، والحيوية، والحركية، الموجبة للإيجابية، والدافعة للسلبية المفضية لاستئصال الحق وأهله، والمؤدية إلى انقراض الجنس البشري.

ويبين الطيب برغوث دور هذه الخاصية في الوجود وفق منظومات سننية أربع، منها منظومة سنن الآفاق، ودورها الحيوي في حركة الاستخلاف، والتي تغطي جميع الاحتياجات المادية بخلافة الإنسان في الأرض، وهي موضوعة تحت سلطة العقل الإنساني، الذي يكتشفها عبر الملاحظة، والفرضية، والتجربة، والاستنتاج، والوصول إلى النظريات والقواعد...[1].

فهو يرى أن من حيوية وفاعلية وحركية سنن الله في الآفاق أنها تلبي جميع ما يحتاجه الإنسان، من ماديات تعينه على القيام بوظيفة الاستخلاف التي أنيطت به، وهي خاضعة له إذا استعمل عقله، وسعى إلى اكتشافها بتتبع خطوات المنهج العلمي (الملاحظة، الفرضية، التجربة والاستنتاج)، للوصول إلى قوانين وقواعد تنظم حياته المادية والاجتماعية، وهذا ناتج عن وعيه بحيوية وفاعلية السنن والقوانين الإلهية.

– وإذا نظرنا في القرآن الكريم، فإننا نجده فياضا بالنصوص التي تشير إلى سنن الآفاق، وتصف حيويتها وحركيتها وفعاليتها، لتحفز وتلفت عقل الإنسان لتسخيرها وحسن استثمارها، تلبية لاحتياجاته المختلفة، والتي إذا لبّاها فاز بالسعادة المنشودة وذاق طيب الحياة.

– حيث إن الإنسان وفق المنظور القرآني السنني، إذا فقه سنن الله كان المؤثر الأساس الأول في خط سير التاريخ بجميع أطواره، من نصر وتمكين وشهود، أو أفول وهزيمة وانحطاط، فهو: "الكائن المستخلف في هذه الأرض، الذي ينفذ قدر الله في الأرض وفي الحياة الأرضية، من خلال نشاطه الشعوري والحركي، والذي خلق ابتداء، ليتولى الخلافة عن الله، والذي سخر الله له كل مدخرات الأرض وطاقاتها، وأودعه القدرة على معرفة نواميسها وقوانينها، لينهض بهذه الخلافة، وليحقق قدر الله فيه وفي الحياة من حوله بعمله وحركته ونشاطه"[2].

---

[1]– الطيب برغوث، **التكاملية المعرفية والحاجة إلى منظور سنني كوني متوازن**، ص: 81.

[2]– أحمد الغمراوي، **سنن الله الكونية**، ص: 22.

وإذا رجعنا إلى التعريفات الاصطلاحية للسنن وجدنا من عرفها بأقدار الله، لذا نجد صاحب كتاب "سنن الله الكونية" يرى أن الإنسان إذا نفذ قوانين الله وسننه في الأرض، التي تتسم بالحركية والحيوية والفعالية، انعكس هذا على نشاطه وحيويته وشعوره، فتولى مهمة الخلافة من أوسع أبوابها، وسعى للقيام بها بما أودع الله فيه من قدرات، وهذا من آثار خصيصة فاعلية السنن،التي تتميز بها سنن الله، حيث تدفع الإنسان إلى الجد والنشاط والحركة، والتغيير نحو الأفضل لتحقيق الأفضلِ، والأفضلُ لخصه القرآن في قوله تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: 97].

- ويترجم سيد قطب الشهيد هذه الخاصية بقوله: "إن التصور الإسلامي يوحي بأن الحركة الدائبة، والتحول المستمر، هو الناموس الثابت المطرد لهذا الوجود الحادث الفاني، وهو بصفة خاصة قانون الحياة وقاعدتها، ومن ثم يوجه النظر إلى هذه الحركة الدائبة، وهذا التحول المستمر في الكون والحياة، وما يطرأ عليها دائما من تقلبات وأطوار،... ولكنه ينسب هذه الحركة الدائبة وهذا التحول المستمر إلى مشيئة الله وقدره"[1].

يؤكد سيد قطب أن الحركة الدائبة والتحول المستمر هو الناموس، فهو يقر بصفة الحركية للسنن ، المكملة لجملة ومجموعة الخصائص الأخرى سابقة الذكر، ويشير إلى أن الله يوجه نظر الإنسان إلى حركتها وفعاليتها، حتى يستغلها الإنسان في حياته، وتكون مترجمة بالفعل، وتتجسد مؤثرا حيويا إيجابيا حركيا نافعا.

وفي موضع آخر يؤكد ويبين هذه الخاصية الإيجابية للسنن، وآثارها الطيبة في حياة الإنسان، لحسن القيام بواجبه الاستخلافي، فيقول: "ونزوع الإنسان إلى الحركة لتغيير الواقع الأرضي وتطويره،... منبثقة أولا من الطبيعة الكونية العامة، وهي مقتضى وظيفته في خلافة الأرض، فهذه الخلافة تقتضي الحركة لتطوير الواقع الأرضي وترقيته"[2]، لذلك نؤكد على هذه الخصيصة، وضرورة إدراجها ضمن خصائص السنن في الدراسات والأبحاث السننية، لنخرج قليلا عن التقليد والأخذ عن السابق، في محاولة لإدخال الحيوية والحركية على هذه الدراسة.

ومن آثار هذه الخصيصة الإيجابيةُ في تفعيل دور الأمة؛ حيث تستعيد الجماعة المسلمة حيويتها وفعاليتها وقدرتها على البناء والتشيد، المحقق للرقي والازدهار، والتغيير والإصلاح الذي يقضي على العشوائية والفوضى، والسلبية لإدراك حركة الحضارة الإنسانية، ولن يكون لها هذا الأمر إلا بالتفاعل

---

[1]- سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، ص: 62.

[2]- سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، دار الشروق، (دط، دس)، ص: 74.

الإيجابي مع سنن الله في الآفاق والأنفس، ومسايرة النواميس الحاكمة لأسباب النصر والتمكين والتطور، والتي من سماتها الحركية والفعالية الحضارية والحيوية.

وجميل ما قاله السيد الشهيد، ونستطيع إضافته إلى آثار خصيصة حركية وحيوية السنن: "أثر الفاعلية الإيجابية أنها تعلق القلب بالله، وإرادته فتصبح العقيدة مؤثرا حيا دافعا لا مجرد تصور فكري بارد"[1].

فعلا عندما يشعر الإنسان بعظمة خلق الله، وقدرته الباهرة في الكون المادي، والوجود البشري من خلال قوانين وسنن بثها في الوجود، لتحكم نظام واستقرار وثبات الكون، وتحافظ على التوازن المطلوب لتستمر حركة الإنسان، فيستثمر حيويته، ويستغل فعاليته الإنجازية الحضارية للاضطلاع بمهمته الاستخلافية لتعمير الأرض، وفق هذه السنن الحيوية الحركية الإيجابية، فيتعلق قلبه بخالقه، وتثبت عقيدته، وتظهر ثمار هذا الثبات والتعلق دافعيةً إنجازية حية نحو التعمير والبناء والإصلاح، واستئناف الدورة الحضارية.

ونختم هذه الخصيصة الإيجابية بأثر عظيم المنفعة، في واقع الجماعة المسلمة إنْ فقهت هذه السنن وعملت بموجبها، وهو الوصول إلى منزلة فاعلية مغالبة القدر بقدر أحب إلى الله، أو الفرار من قدر الخزي والخذلان إلى قدر العز والتمكين والنصر، وهذا رداً على من يزعم أن الرعيل الأول- خير القرون، جيل الصحابة- لم يعرفوا السنن، فتأمل قول المحدَّث الملهم عمر الفاروق، وهو يرد على من عاتبه في فراره من الطاعون، فلما قيل له: "أتفر من قدر الله؟" قال: "نفر من قدر الله إلى قدره"[2].

الفرع الثالث: آثار فطرية واختيارية السنن الإلهية

تتمخض آثار جليلة بالجمع بين خصيصة فطريةالسنن و كونها اختيارية وما يثمر من فاعليتها الانجازية ضمن تكاملية السنن و النظرة الكلية الموضوعية لها لتأهيل الإنسان للفوز بالحياة الطيبة .

سنن الله تتميز بالتكامل حيث لا نستطيع دراسة خصائص السنن الإلهية دون الخروج بثمرة تكاملية السنن، والتي أعتبرها ثمار مهمة، حيث تحقق البعد البنيوي للسنن القائمة على التكامل والتناسق، والثبات والاطراد، والعموم والاتساع والحركية والفعالية، والفطرية والجبلية...، والتي تظهر العلاقة الوطيدة، والعروة الوثقى، بين خصائص السنن الإلهية، باختلاف أنواعها وأقسامها، من سنن كونية، وإنسانية، واجتماعية، وتشريعية، وهذه العلاقة الوطيدة تظهر الوحدة الموضوعية للنسيج السنني

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1/ 379.

[2]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، [5729]، 130/7، وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة وغيرها، [2219]، 1740/4.

المتكامل، لأنها "تنظر إلى السنن على أنها وحدة هيكلية تتشكل من عوامل أربعة: عالم الآفاق (الكون المادي)، وعالم الأنفس (الكون النفسي والاجتماعي)، وعالم الهداية، وعالم التأييد (الكون الغيبي)"[1].

فهي ثمار قطافها من خصائص السنن الإلهية حيث لا يمكن نفيها، أو إبطالها وتجاوزها، وهذا فيه دلالة واضحة على أن جميع الخصائص التكاملية السننية سالفة الذكر تخرج من مشكاة واحدة، وللتدليل على هذه التكاملية السننية، أحاول الجمع بين الخصائص لصياغة تكاملية السنن، في النقاط التالية:

- تنبثق جميع الخصائص من خصيصة الربانية؛ فهي الأصل والأساس، حيث جاءت بالعبارة الصريحة في القرآن الكريم، ونسبها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه في العديد من آيات القرآن الكريم، وحسبنا دلالة على ذلك قوله تعالى:﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[الأحزاب: 62]، ودلالةً في مقام الجمع يأتي قوله تعالى:﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[النحل: 4]،﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[الحجر: 26].

يقول صاحب التفسير السنني: "جاء القرآن بموضع العبرة في خلق آدم واستعداد الكون؛ لأن يكتمل به، وكونه قد أعطى استعداداً في العلم والعمل لا نهاية لهما؛ ليظهر حكم الله، ويقيم سننه في الأرض، فيكون خليفة له"[2].

فالذي خلق الإنسان، هو نفسه الذي بث في الوجود سننا جارية وحاكمة، تسري في الآفاق والأنفس، بما ينفع هذا المخلوق، وتدرك بما أودع الله فيه من طاقات وآليات وأدوات، يتمكن بها من اكتشافها، ومجاراتها؛ ليتمكن من القيام بواجب الخلافة الراشدة، وهذه السنن تتناسب وتتوافق وخلق هذا الإنسان، بمقتضى خصائصها، فكونها ربانية المصدر يضمن أساس ربط الإنسان بالله تعالى، وجعله يطمئن أن الأخذ بالسنن والعمل وفقها لا يخالف ولا يصادم إنسانيته، وكونها فطرية أعظم دليل على إمكانية مجاراتها، ومسايرتها، وباطرادها وعدم تخلفها أو توقفها يؤمن بعدلها في إحقاق الحق، ونصرة أهله، وإبطال الباطل، وخسران أصحابه، فسنة الله ظاهرة في أن الباطل لا يثبت أمام الحق، "كما يليق بعدل الله تعالى رب العالمين، وكما هو ظاهر معقول من اطراد سنة الله تعالى في تأييد أنصار الحق وخذل أهل الباطل، فإنها واضحة جلية للمتأملين"[3].

ومقتضى اطراد السنة ارتباط الأسباب بالمسببات، وهذا ما يجعل الكون منظما تحكمه السنن التي تنفي العشوائية والصدف من حياة الإنسان، فيسعى في جد وموضوعية للقيام بأمانة الاستخلاف، مجيبا

---

[1]- عزيز البطيوي، **سنن العمران البشري في السيرة النبوية**، ص: 80.

[2]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 232.

[3]- نفسه، 2/ 83.

لأمر السير والنظر للاعتبار، والاستفادة من تجارب السابقين، متأكدا واثقا -مادامت سننا ربانية- خالية من الجهل والهوى، والتحيز، والزيغ، والظلم والجور، قويمةً لا انحراف فيها.

"وصفة الاطراد في السنن هي التي تضمن لها ثباتها وعمومها"[1]، وقد توصل عبد الكريم زيدان من خلال الجمع بين الاطراد والثبات والعموم إلى خصيصة التكامل، حيث جعل الاطراد خصيصة لازمة أساسية للسنن، وهذا قمة التكامل بين خصائص السنن الذي أصبو إلى بيانه، فثبات السنن وعدم تبدلها وتحولها أمر مسلم به، وقد تم تفصيله في موضعه، ولسنا بصدد إعادة طرحه، ولكن نريد الإشارة إلى العلاقة التكاملية التي تجمع خصائص السنن، فاطراد السنن وثباتها أمر بَدَهي خاضع للملاحظة والتجربة، فسنة الله في الذين خلوا من قبلنا يدركها كل صاحب بصيرة، وهذا محقق بفطرية السنن التي هي من الخصائص المهمة، وهي في إمكان ومقدور كل إنسان يعي ويدرك قانون السببية الثابت، الذي فطر عليه هذا الإنسان وتأصل في خلقته، وما لا شك فيه، بل هو مسلم به، ويدركه كل ذي بصيرة شمول السنن وعمومها ونفوذها لعامة البشر؛ حيث لا انتقاء ولا انتخاب، جارية وحاكمة، نتائجها نافذة في المؤمنين والمشركين على السواء، وكل هذا جاء واضحا في القرآن والسنة النبوية، وفي الواقع الحاضر المشاهد، وما الانحصار الحضاري الذي يعيشه المسلمون اليوم إلا بسبب العدول والتنكب عن هذه السنن، والجهل والغفلة عن استثمار آثار خاصية التكاملية لسنن الله، في الآفاق والأنفس جميعا.

وإن المخرج للأمة الإسلامية من عثرتها، ليمر عبر إدراك السنن التي تحكم أية قضية من قضاياها"[2].

ومن خصائص السنن قابليتها للكشف والتسخير، فبإمكان الإنسان تسخيرها لتحقيق حياة طيبة بما أودع الله فيه من طاقات وآليات يستطيع بها كشفها، ومن ثمة استغلالها للقيام بواجب الاستخلاف على أحسن وجه، مفعلا بذلك خاصية الاختيارية وعدم القهرية التي تم تفصيلها في موضعها، والدراسة الآن في موضع الجمع بين الخصائص، لبلوغ التكامل المنشود والمعدود من خصائص السنن، فتسخير السنن لا يتحقق لو لم تكن تتسم بالتوازن، "توازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن"[3]، والفائدة العظيمة في الجمع بين التسخير وقابلية الكشف من جهة، والتوازن والاتساق من جهة أخرى، يظهر في

---

[1]- عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية**، ص: 14.

[2]- هبة رؤوف عزة، **المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية**، ص: 68.

[3]- فتحي حسن ملكاوي، **بحوث المؤتمر التربوي، نحو بناء نظرية تربوية إسلامية معاصرة**، عمان، الشركة الجديدة، ط(1411هـ-1991م)، 89/2.

أن الله لما ذلّل هذا الكون ومهده للإنسان ليتمكن من كشف أسراره، ومن ثم تسخيره منافعَه لمصلحته، ما كان له هذا لو لم تكن السنن تتسم بالتوازن، الذي ينفي التصادم والاضطراب عن هذا الكون بشقيه المادي والبشري، فهو محكوم بسنن ونواميس دقيقة فائقة الانتظام، من الذرة أصغر مخلوقاته إلى المجرات أكبرها ، انسجام واتساق يثير الدهشة، قال تعالى:﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: 19]،﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان:2].

يقول سعيد شهوان: "نجد هذا التوازن والتكامل في أصغر الأشياء، التي تظن أن وجودها في هذا الكون عبثا ولا فائدة فيه"[1]؛ فسعيد شهوان جعل لفظ التكامل مرادفا للتوازن، فكأن خصيصة التوازن عنده نفسها خصيصة التكامل.

وهكذا يكون هذا الاتساق والتوازن والانتظام نتيجة حتمية لخصيصة ربانية السنن، التي ترتكز عليها الخصائص جميعها وتعود إليها، عودةَ الفرع للأصل، في حيوية وفعالية إنجازية نموذجية، فسنن الله بحيويتها، وإيجابيتها تهيء هذا الكون للإنسان، وبفطريتها يتمكن ويكون في مقدوره التفاعل معها، وبتوازنها وثباتها واطرادها يستحيل التصادم معها، وتنعدم فرص مخالفتها، وبقابلية تسخيرها والكشف عنها تستحيل الغفلة، والتنكب عنها، ومن شمولها وعمومها، وعدم انتخابها، وانتقائها جاءت الدعوة إلى ضرورة النظر والتدبر للاتعاظ والاعتبار.

"ومن هذا التكامل بين السنن التشريعية والسنن الاجتماعية في الرؤية الإسلامية وتأسسها على الفطرة، يكتسب الطرحُ الإسلامي صلاحه وصلاحيته"[2].

فلابد أن نتجاوز النظرة الجزئية، إلى النظرة الشمولية الموضوعية التكاملية لموضوع السنن؛ لأن السنن تتفاعل وتتداخل وتتوافق وتتكامل وتتكافل معا لتحقيق الفعل الحضاري، مبرزة بذلك دورها الفعال في النهوض والشهود الحضاري، مؤكدة فاعليتها وحركيتها وحيويتها الثابتة المطردة، القاضية والحاكمة للوجود؛ بإثبات هذه الخصائص المشتركة للسنن الإلهية، نخرج برؤية سننية، موضوعية، إسلامية، كاملة وموحدة مجالها واسع غير محدود، يتضمن الفعل الإنساني من آدم أبي البشرية إلى آخر معمر على وجه الأرض؛ راجين في الأخير تحقيق الوعي السنني المؤدي للحياة الطيبة، العادم للمعيشة الضنك ومسالكها.

---

[1]- سعيد شهوان، **السنن الربانية**، 1/ 130.

[2]- هبة رؤوف عزة، **المرأة والعمل السياسي**، ص: 69.

إضافة إلى ما ورد ذكره من خصائص سابقة هناك خصائص أخرى كالربانية[1]؛ والثبات[2]؛ والاطراد[3]؛ والتسخير[4]؛ وقابلية الكشف والشمول[5]؛ ما لا يسعنا ذكره في هذا المقام.

---

[1]-ينظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، 26/ 246، وينظر: الألوسي، **روح المعاني**، 5/ 132، وينظر: الطبري، **جامع البيان**، 17/ 512؛وينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 178/15؛وينظر: الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 14/ 8694؛وينظر: باقر الصدر، **المدرسة القرآنية**، ص ص: 77-101؛وينظر: سعيد شهوان، **السنن الربانية**، 1/ 108؛وينظر:حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 101،

[2]- ينظر: رشيد رضا، **تفسير المنار**، 224/2؛وينظر: ابن تيمية، **جامع الرسائل**، 54/1 ؛وينظر: الطبري، **جامع البيان**، 22/ 566.

[3]- ينظر: أحمد كنعان، **أزمتنا الحضارية**، ص: 76-77؛وينظر: ابن تيمية، **جامع الرسائل**، ص: 55؛وينظر:ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 20/13؛وينظر:جودت سعيد، **اقرأ وربك الأكرم**، لبنان، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 2(1988م)، ص: 55؛وينظر: عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية**، ص: 9؛وينظر: أبوبكر جابر الجزائري، **أيسر التفاسير**، 4/ 524؛وينظر: سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، ص: 62.

[4]- ينظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 439/4؛وينظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 13/ 2107؛وينظر: راشد سعيد شهوان، **السنن الربانية**، ص: 113.

[5]- ينظر: حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 169؛وينظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 513/1؛وينظر: جودت سعيد، **حتى يغيروا ما بأنفسهم**، لبنان، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 8(1979م)،ص: 57؛وينظر: محمد عمارة، **معالم المنهج الإسلامي**، ص: 42.

المبحث الثالث: أنواع السنن الإلهية

بعد أن استعرضت الدراسة في المبحث الثاني عددا من خصائص السنن، فقد خصصت الحديث في هذا المبحث عن أنواع السنن الإلهية الحاكمة لهذا الوجود، ولما كانت الدراسة قرآنية فقد كان تفصيل الأنواع مطابقا لمصطلحات القرآن، وتضمن المبحث ثلاثة مطالب يعنى الأول بسنن الآفاق؛ ويعنى الثاني بسنن الأنفس؛ ويعنى الثالث بسنن الهداية والوحي .

وخير ما نفتتح به هذا المبحث قوله تعالى:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: 53].

هذه الآية تستحق أن يكتب فيها كتاب خاص بها، لثراء مواضيعها، وما تشتمل عليه من كنوز، فهي تستحق أن تكون مجالا لدراسة عميقة دقيقة، متنوعة المجالات اتساع آفاق خلق الله في كونه.

يجد المتصفح في كتاب الله كما هائلا من الآيات الكريمة التي تتحدث عن سنن الله، وهي تعتبر اليوم مبادئ أساسية، وثوابت علمية في فروع العلوم المختلفة، مثل الطب، والفلك، والكون، الأرض، وغيرها من العلوم المادية.

ولهذا نعرض أولا جملة من الآيات التي تدل على سنن الله في الآفاق، تكون المنطلق والمرجع لهذا المبحث؛ وذلك في ثلاث مطالب:

المطلب الأول: سنن الآفاق

المطلب الثاني: سنن الأنفس

المطلب الثالث: سنن الهداية

المطلب الأول: سنن الآفاق

خلق الله- عز وجل-الكون ،و سن له نواميس وقوانين ربانية،وأخضع لها خلقه على اختلاف وتباين طبيعة الخلق،فما من دابة أو ذرة أو جماد ونبات إلا وتحكمه سنة من سنن الله ويسير وفق قانون ،ولفهم هذه القوانين التي تحكم الآفاق جاء التوجيه الرباني للتدبر والتفكر وكشف السنن التي تحكم عالم الأحياء والحياة والكون لتسخيره بصورة أكثر فعالية يستطيع من خلاله الإنسان ان يحيا حياة طيبة.

للخوض في سنن الآفاق لابد من تعريف لفظ الآفاق لغة واصطلاحا حتى يتضح المعنى.

أولا:تعريف الآفاق لغة

جاء في كتاب العين باب القاف والباء: أفق الرجل يأفق، أي ركب رأسه، فمضي في الآفاق، والأفيق: الأديم إذا فرُغِ من دباغه، وريحُهُ فيه بَعْدُ، والجميع أفق، وواحد الآفاق، أفق وهي النواحي من الأرض، وكذلك آفاق السماء نواحيها[1].

والأُفُقْ: يدل على تباعد بين أطراف الشيء واتساعه، وعلى بلوغ النهاية، ومن ذلك الآفاق النواحي والأطراف[2].

وقال صاحب لسان العرب: الأفق ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض، كذلك آفاق السماء نواحيها[3].

قال عطاء في الآفاق: يعني أقطار السموات والأرض، من الشمس والقمر والنجوم والليل، والنهار، والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات، والأشجار والجبال والبحار، غير ذلك[4].

وتكون بذلك كل الآيات التي ذكرت أقطار السموات والأرض وما فيهما من كواكب، وشمس وقمر، وسماء وأرض، وبحار وأشجار تمثل سنن الآفاق، أو سنن الكون المادي، فكانت هي موضوع الدراسة في هذا المطلب، فكل عنصر من هذا الكون يخضع لسنة وقانون يستقل به.

ثانيا:تعريف الآفاق اصطلاحا

الأفق نواحي السماء والأرض، ويقال في النسبة إليه أفقي، وأفق فلان ذهب في الآفاق، والآفق بالمد من بلغ النهاية في الكرم تشبيها بالآفق الذاهب في الآفاق[5].

---

[1]- الخليل، **العين**، باب القاف والفاء، 5/ 227.

[2]- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، 1/ 114.

[3]- ابن منظور، **لسان العرب**، 10/ 5.

[4]- الشوكاني، **فتح القدير**، 4/ 599.

[5]- المناوي زين الدين محمد، **التوقيف على مهمات التعاريف**، القاهرة، عالم الكتب، ط 1(1410هـ- 1990م)، 1/ 57.

الأُفُق Horizon (ويقال **الأفْق**): في اللغة الطرف، والآفاق الجمع على ما في الصراح، والأفق الحسي ويسمى بالأفق المرئي أيضا: هي دائرة ثابتة يرتسم محيطها في سطح الفلك الأعلى، من طرف خط يخرج من البصر إلى سطح الفلك الأعلى مماشيا للأرض،... وهي الفاصلة بين ما يُرى من الفلك وما لا يُرى منه حقيقة[1].

ويعرف الطيب برغوث سنن عالم الآفاق بأنها: "الذي يشكل الكون المادي بكل مفرداته وعناصره الحيوية، التي تمنح الإنسان كل ما يحتاجه وجوده واستمراره الحيوي ككائن عضوي مادي، وهو المجال أو العالم الحيوي الأول الذي لا غنى للإنسان عنه في أية لحظة؛ إذ فيه يوجد معاشه، وأدوات تحصيله لهذا المعاش وتكثيره وتنويعه،... وقد نظم بدقة شديدة عبر قوانين وسنن ثابتة، تسهل على الإنسان عملية تسخير مفرداته، لتلبية ضروراته وحاجاته الحياتية الحيوية والتحسينية، وقد وضعت هذه السنن مباشرة تحت سلطة الفطرة والعقل والتجربة يتحكم فيها، ويستثمرها لتلبية احتياجاته في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد التي يجد نفسه في مواجهة مستمرة لتحدياتها المتلاحقة[2].

يرى الطيب برغوث أن سنن الآفاق هي تلك السنن التي بثها الله في الكون المادي، التي لابد منها ليعيش الإنسان ويستمر في ممارسة حياته ككائن حي، وهذه السنن منتظمة دقيقة، سارية ونافذة في كل عناصر هذا الوجود، وهي ممكنة وفي وسع الإنسان، مادامت سننا فطرية، جبلية، اختيارية، تدرك بالحواس والعقل، لتستغل أحسن استغلال، لتحقيق مهمة الاستخلاف في الأرض.

وبالجمع بين الدلالة اللغوية والدلالة الاصطلاحية لكلمة "أفق"، يتضح لنا أنها شملت كل معاني السعة والتباعد بين أطراف الشيء، والامتداد في نواحي الأرض، وبلوغ النهاية في الشيء، وهي ما يدرك بالرؤية من أفق "السماء وما ظهر منه"[3]، وما خفي منه، وما يستطيع العقل أن يحيط به من المعرفة والاطلاع، إذ "كثرة القراءة توسع أفق الإنسان"[4].

ولسعة وامتداد سنن الله في الآفاق، رأيت أن أقسمها إلى: سنن آفاق السماوات، وسنن آفاق الأرض.

---

[1]- التهانوي محمد علي،**موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم** ، تح:على دحروج، عبد الله الخالدي، جورج زيناتي،لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1(1996م)، 1/ 239.

[2]- الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية**، المحمدية، الجزائر، دار قرطبة للنشر، ط1 (1425هـ- 2004م)، ص: 64.

[3]- أحمد مختار عبد الحميد عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، 1/ 103.

[4]- نفسه، 103/1.

الفرع الأول: سنن آفاق السماوات

لو حاولت جمع وإحصاء الآيات القرآنية التي تحدثت عن سنن آفاق السماوات، لاستغرقت الدراسة صفحات البحث، ولما استطعت درسها وتحليلها، والإحاطة بكل مناحيها، لذا آثرت انتخاب بعض الآيات، تنوب وتمثل الكم الهائل المتبقي من الآيات الكريمة التي تذكر آفاق السماوات.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[يونس: 5].

قال عز من قائل: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿15﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿16﴾ ﴾[نوح: 15-16].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[النور: 43].

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[لقمان: 10].

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾[الذاريات: 7].

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[ق: 6].

قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿75﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿76﴾ ﴾[الواقعة: 75-76].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأعراف: 54].

قال تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[فصلت: 12].

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: 2].

قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿38﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿39﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿40﴾ ﴾[يس: 38-40].

لا شك أن القرآن لما أعطى كل هذه المساحة للآيات التي تدل على سنن الله الكونية في آفاق السماوات، فهو تنبيه للإنسان لما لها من عظيم النفع والإفادة لخلقية الله في الأرض، فهو بهذا يدله ويبين له كيفية تسخيرها، ويحفز عقله إلى النظر والتفكر والتدبر فيها، ليحسن العيش في هذه الأرض، "إن معرفة الإنسان للسنن الكونية طريق لتحقيق سعادة الإنسان"[1].

وفي ذلك فوائد عظيمة توصل إليها العلماء من خلال هذه الآيات الكونية، منها ما أشار إليه القرآن الكريم من سنة إنزال المطر حتى "أمكن العلماء من معرفة قانون التبخير والتكثيف، وتوظيف المطر الاصطناعي لتلطيف الجو والطقس، كما أن العلماء استطاعوا أن يكتشفوا أن البرق يولد النيتروجين المخصب للنبات، والذي ينزل مع المطر فيحيي الأرض بعد موتها، من خلال هذا الكشف أمكن تخصيب النتروجين لمضاعفة الإنتاج الزراعي، واكتشاف سنة التيار الكهربائي في مجال مغناطيسي مكن العلماء من الوقاية من خطر الكهرباء، وأية فائدة كان من الممكن أن يجنبها الإنسان من الكهرباء، وأية فائدة كان من الممكن أن يجنيها الإنسان من الكهرباء لولا أن الله سبحانه أودع في المطاط تلك الخاصية وغيرها من خواص التمدد واللين"[2].

والأمثلة كثيرة في هذا المعنى، وكيف أن سنن الله في آياته الكريمة كانت مرجعا في اكتشاف قوانين علمية سهلت حياة الإنسان. "لقد أعطى القرآن الكريم نماذج للسنن الكونية من أجل أن يكون مدرسة يتعلم فيها، وميدانا يهتدي الإنسان فيه إلى قوانين التسخير... إن القرآن الكريم ليس كتابا فلكيا بالمعنى المطابق لهذا الاسم، ولهذا فإنه لا يهتم بتفاصيل الكون وسننه الدقيقة، وإنما يستعرض العلاقات الكبرى فيه، من أجل تكوين بيئة عمل وإنجاز، تضمن الشروط التي تمكن الإنسان من استنطاق السنن والنواميس المبثوثة في الآفاق والأرجاء"[3].

ويجدر بنا الاطلاع على بعض الحقائق العلمية الكامنة في هذه الآيات الكاشفة لسنن الله في الكون، من ما توصل إليها العلم الحديث بعد قرون من نزول القرآن لإبراز الإعجاز العلمي في كتاب الله المقروء، مصداقا لقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾[النساء: 174]، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾[لقمان: 10].

---

[1]- سعيد شهوان، **السنن الربانية**، 88/1.

[2]- نفسه، 89/1.

[3]- نفسه، 1/ 90.

يبين القرآن عن قدرة الله العظيمة في الكون، من خلال إظهار الآيات الكونية، وأعظم آية هي "السماء"، يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "إنه رفع السماء بغير عمد ترونها؛ أي لها عمد في الحقيقة إلا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى، وحفظُه وتَدَبُّرُه، وإبقاءُه إياها في الجو، وأنهم لا يرون ذلك التدبير، ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك"[1].

ونحمل معنى السماء على أنها الكون العُمُد: أي الدعائم، اسم جمع للعمود، وأعمدة: وهو ما تحمل عليه الأشياء الثقيلة العالية كالسقف ،والقوى الأربعالتي يقوم عليها النظام الكوني[2]و تبين كيفية خلق السموات والأرض، والنظام البديع المحكم الذي قامت عليه جميع المخلوقات هي:

أ- قوة الجاذبية Force de la gravité.

ب- القوة الكهرومغناطيسية Force électromagnétiqu.

ج- القوة النووية القوية La force nucléaire forte.

هـ- القوة النووية الضعيفة La force nucléaire faible.

ومن هذا نفهم وجها من معاني قوله تعالى:﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾[لقمان: 10]، بمعنى خلق السموات بغير دعائم مرئية، إلا أن العلم استطاع أن يرى هذه القوى على نحو غير مباشر، من خلال المعادلات الحسابية، ومن خلال ما تتركه من آثار في الأشياء، ومن هذه الزاوية نفهم وجها آخر من معاني قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: 2]، بمعنى خلق السموات بغير دعائم، ولكن هذه القوى التي ليست بعمد نراها، ولقد رآها العلم بطريقة غير مباشرة من خلال آثارها الظاهرة والمتخفية في الأشياء منذ القرن السابع عشر.

"فإذا قرأنا الآية الكريمة التي نحن بصدد التعليق عليها وتوقفنا عند كلمة "ترونها" وجب أن نفهم الآية بالآتي: خلق السموات بغير عمد مرئية، وإذا قرأناها وتوقفنا عند كلمة "عمد" ثم أكملنا، وجب أن نفهمها: خلق السموات بغير عمد، إلا أننا نرى ذلك وهو ما حصل منذ ثلاثة قرون والله أعلم"[3].

---

[1]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 18/ 526.

[2]- عدنان شريف، **من علم الفلك القراني، الثوابت العلمية في القران الكريم**، بيروت، دار العلم للملايين، ط1(2001م)، ص: 24-27.

[3]- نفسه، ص: 29.

فهذه الحقائق العلمية المثيرة، المثبتة بالتجربة والبرهان، تقر بعظمة الخالق، وصدق ما جاء به محمد ﷺ في القرآن الكريم، وهذه معجزة القرآن في عصر العلم والمعرفة، فالتحدي الآن في هذا العصر لا يصلح إلا بالعلم المشاهد بالعين، والمجرب في المخابر، ووحدات البحث.

وإذا رجعنا إلى كتاب الله المسطور، نجد كما هائلا من الآيات الكريمة التي أقسم فيها المولى تبارك وتعالى بمخلوقاته، سواءٌ العظيمة الضخمة، أو الصغيرة المتناهية في الصغر، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على عظمة وأسرار الخلق، وإعجاز الخالق سبحانه وتعالى في كل خلق من مخلوقاته، ليلفت نظر الإنسان إلى هذه المخلوقات، ومن ثم يثير عقله، ليفكر ويتدبر في خلقها، فبإكمال عقله وتشغيله، والبحث عن أسرارها، لمعرفة كنهها، تفتح له آفاق البحث والعلم والمعرفة، فيفقه سننها، ويصل إلى قوانينها، ليحسن تسخيرها.

ومن الآيات التي أقسم بها سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿38﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿39﴾ ﴾[الحاقة: 38-39]، ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾[الواقعة: 75]، ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾[الإنشقاق: 16]، ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿15﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿16﴾ ﴾[التكوير: 15-16]، ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[الطارق: 5]، ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿1﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿2﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿3﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿4﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿5﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿6﴾ ﴾[الشمس: 1-6].

وغيرها كثير في كتاب الله العظيم فما أقسم الله سبحانه وتعالى بها إلا لعظمتها، ولأن الإنسان مفطور على الإعجاب والانبهار والحيرة من الأمور العظيمة، الجليلة، الغامضة، التي تنطوي على أسرار في الخلق، وكان له الشرف العظيم في محاولة كشفها لاستجلاء مواطن العظمة فيها، وهذا هو المقصود من وراء إثارة عقله وحسه إليها بالقسم بها، والتأملُ والتدبرُ يوصل الإنسان إلى دراستها وبحثها مستجيبا لأمر الله له بالتدبر وإعمال عقله، ومن هذا المنطلق توسع العلماء والمفسرون لإعادة النظر في آيات الله الكونية، لإظهار الإعجاز العلمي فيها، بثبوت الحقائق العلمية التي جاء بها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا مضى.

ونقف أمام قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿38﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿39﴾ ﴾[الحاقة: 38-39] وقفة تدبرية تأملية بتتبع ما قاله أصحاب التفاسير والعلماء فيها.

نعرج الآن على ما قاله العلماء المعاصرون في هذه الآية لبيان وجه الإعجاز فيها، يقول عبد الباسط الجمل في كتابه "عالم الحياة بين القرآن والعلم": "إذن يوجد في البيئة ما يعيش معنا ولا نبصره، ولكن قد نبصره مستقبلا، ولذا كانت دقة اللفظ القرآني (وما لا تبصرون)، ولم يكن القول، ولله المثل

الأعلى في قوله (بما لن تبصروا)، وذلك يمثل عطاءً من الله للإنسان، ممثلا في تلك القدرات العقلية التي منحه إياها، ليستخدمها في كشف اللثام عن هذه الكائنات"[1].

وقد أشار القرآن إلى كيفية إبصارنا منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان.

ويبين أستاذ علوم البصريات ممدوح شعيب الباحث في الإعجاز العلمي، وجه الإعجاز في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[الإسراء: 12]، فيقول إننا لم نستطع كشف حقيقة الإبصار، وأهمية ضوء الشمس لحدوثه، إلا بعد تقدم الدراسات البصرية حديثا، بينما أشار القران الكريم إلى تلك الأهمية قديما، وذلك في الآية 12 من سورة الإسراء، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، والتعبير بكون النهار مبصرا في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ يراد به الأشعة المرئية المضيئة للنهار، والتعبير باسم الفاعل "مبصر" يفيد بأن النهار هو مصدر تلك الأشعة، ولا ينفي هذا الأهمية الكبرى للعين للإبصار، إذ هي المستقبلة لتلك الأشعة الساقطة، وهي الناقلة لها إلى مركز الإبصار بالمخ، من خلال العُصُب ، ومن ثم كان قوله تعالى في الآية [38-39] من سورة الحاقة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿38﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿39﴾﴾.

وفي هذا دلالة على دور العين وأهميتها في عملية الأبصار، ودلالة على قدرة العين على التعامل مع بعض الأشعة الساقطة عليها "الأشعة المرئية"، فيحدث الإبصار، وهو ما يعبر عنه قوله تعالى: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾، وعدم قدرتها على التعامل مع بعض الأشعة الأخرى (فوق المرئية، وتحت المرئية) فلا يحدث الإبصار، وهو ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾" [2].

فهذه الحقائق العلمية التي أثبتتها الدراسات الحديثة عن كيفية حدوث الإبصار، والتي تكلم القرآن عنها قبل دهر من الزمن أكبر دليل على عظمة ومعجزة كتاب الله، حيث إنَّ أُولى الآيات تنزلت في العلم والتعلم، وبها تأصل الدين الإسلامي، فديننا دين العلم، وشريعتنا تحث عليه، إذن فعلاقة الإسلام بالعلم علاقة وطيدة إيجابية، فلا نجد تناقضا بين الآيات المسطورة المعجزة، والحقائق العلمية المثبتة. ومن بين هذه الحقائق العلمية حقيقة المشاهد الكونية المذكورة في القرآن الكريم والمبرهن عنها بالعلم الحديث، مايلي قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿38﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿39﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

---

[1]- عبد الباسط الجمل، **عالم الحياة بين القرآن والعلم**، القاهرة، عالم الكتب، ط 1(1421هـ- 2001م)، ص: 85.

[2]- نفسه، ص: 90.

يَسۡبَحُونَ ﴿40﴾ ﴾[يس: 38- 40]، إذ تؤكد الآية الكريمة على حقيقة دوران النجوم والكواكب، وهذا الإخبار الرباني الذي كان قبل الاكتشافات العلمية بقرون يثبته العلم الحديث الآن حيث اكتُشِف أنه يوجد في الكون مائة مليار مجرة، وكل مجرة تحتوي على مائة مليار نجم وكوكب، وأن النجوم والكواكب تدور ضمن مدارات خاصة بها لا تتعداها، ضمن نظام إلهي محكم[1].

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[يونس:5].

يبين صاحب كتاب حقائق العلم في القرآن والسنة بعض مظاهر الإعجاز العلمي في كتاب الله ويرتبها حسب الحقائق العلمية الآتية[2]:

أ- **حقيقة اتقاد الشمس حرارة ونورا:** قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴾[النبأ: 13].

فسر مقاتل الوهج بأنه مجمع النور والحر، وفي القاموس وهجت النار: اتقدت، وقد ثبت اتقاد الشمس، وإشعاعها بالنور والنار في آن واحد، تغذي بهما السيارات المرتبطة بها، و"ثبت بالحساب أن الشمس تفقد من مادتها في الثانية على أقل تقدير أربعة ملايين طن، وثبت بالحساب أيضا أن الشمس تحتاج إلى مائة مليون وخمسين ألف سنة حتى تفقد جزءاً واحداً من مائة جزء من حجمها"[3].

ب- **حقيقة تعدد السموات:** قال تعالى:﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴾[نوح: 15]، ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾[ق: 6]، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴾[الذاريات: 7]، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴾[الطارق: 11].

في هذه الآيات الكريمة إخبار صريح بعدد طبقات السماء (سبع سموات)، ولكن المعرفة الإنسانية حتى نهاية القرن السابع عشر كانت قاصرة عن هذه الحقيقة العلمية المثيرة، التي تم اكتشافها بفضل الأقمار الاصطناعية مؤخرا فقط، وهي كالآتي[4]: طبقة الهواء، وطبقة غاز الأوزون، والطبقة المتأنية الأولى، والطبقة المتأنية الثانية، والطبقة ف2، وطبقة غاز الهاليوم، وطبقة غاز الهيدروجين.

---

[1]- ينظر: غازي عناية، **حقائق العلم في القرآن والسنة**، لبنان، بيروت، دار الكتاب العلمية، (دط) (1417 هـ – 1997م)، ص: 126.

[2]- نفسه، ص: 127.

[3]- عبد العزيز جاويش، **الإسلام دين الفطرة والحرية**، تقديم مجدي سعيد، القاهرة دار الكتاب المصري ،مكتبة الاسكندرية، (دط) (2011م)، ص: 170.

[4]- ينظر: عدنان الشريف، **من علوم الأرض القرآنية، الثوابت العلمية في القران الكريم**، لبنان، بيروت، دار العلم للملايين، ط1 (2003م)، ص: 63.

"فمعنى ذلك أن الإنسان سيرى عاجلا أم آجلا المضامين العلمية في تلك الآية الكريمة، فالإنسان مثلا لم ير أن الغلاف الجوي الأرضي مؤلف من سبع طبقات إلا في القرن العشريني"[1]. وغيرها الكثير من الآيات القرآنية التي توسع العلماء في استجلاء مظاهر أوجه الإعجاز العلمي فيها، ومازال البحث قائما إلى يومنا هذا، وكما أننا نستطيع اكتشاف سنن الله من النصوص القرآنية التي جاءت بلفظها الصريح (سنن- سنة الله)، كذلك ما كانت بلفظ "ألم تر"، أو "ألم يروا"، أو ما جاءت بصيغة "التسخير"، أو بلفظ "آية"، أو بلفظ "النظر- والتدبر"، فصيغها في القرآن متعددة، ومازال باب الاجتهاد والبحث فيها على مصراعيه، كذلك نلمح الإعجاز العلمي في سنن آفاق السموات والأرض بكل هذه الألفاظ، وهذا ما أشار إليه عدنان الشريف.

الفرع الثاني: سنن آفاق الأرض

إن سنن الله سبحانه وتعالى تملا آفاق الأرض، ولكننا غافلون عنها، ومن الإعجاز الإلهي أن سنن الله في الأرض لا حدود لها ولا تنتهي، فإنك متى أطلقت البصر انقلب البصر إليك بسنة أو سنن، فسنة إنزال المطر تحاكي سنة الإنبات على الأرض، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[لقمان: 10]، وسنة الماء تحاكي سنة الإحياء على الأرض، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[البقرة: 164].

ولصعودنا إلى القمم الجبال سنن، ولنزولنا إلى قاع البحار والغوص في عوالمها الغامضة الشيقة سنن، وإذا حاولنا الحفر في بواطن الأرض وطبقاتها لاستخراج كنوزها وثرواتها سنن، والإنسان لا يستطيع حتى تحصيل غذائه من هذه الأرض لو خالف أو صادم هذه السنن، قال تعالى:﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[البقرة: 60].

يقول صاحب تفسير المنار في هذه الآية: "المراد بها الاعتبار والعظة، ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها"[2]؛ فسنن الله في تكثير النعم وجلب الخيرات وزيادة البركات معلومة واضحة كما هي بيّنة صارمة ثابتة في اجتناب النقمات و إنزال سوط العذاب بساحة المعتدين.

وقال عز من قائل: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾[الأعراف: 85]، يقول صاحب التفسير السنني "إن الإفساد بعد الإصلاح أظهر قبحا من الإفساد على الإفساد، فإن وجود الإصلاح

---

[1]- عدنان الشريف، **من علوم الأرض القرآنية، الثوابت العلمية في القران الكريم**، ص: 64.

[2]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 270.

أكبر حجة على المفسد، إذا هو لم يحفظ ويجري على سننه، فكيف إذا هو أفسد وأخرجه عن وضعه "[1].

والأرض وما عليها من دواب عرضة للإفساد والفساد، وهذا الإفساد بسبب الإخلال بالنظام البيئي، الذي يؤثر سلبا على الكائنات الحية، ما يعرض الإنسان إلى المعيشة الضنك، وهذا الذي نوه إليه القرآن، ولفت وحذر الإنسان من عواقبهاالوخيمة منذ قرون مضت، "وعلم توازن البيئة"[2]، علم فتي لا يتجاوز عمره ربع قرن، ما ظهر إلا بعد انتشار التلوث وإضراره بحياة الإنسان والحيوان والنبات على السواء، ودق ناقوس الخطر، فسنت القوانين التي تحمي البيئة من هذا الدخيل (التلوث) [3].

والأرض لا صلاح فيها ولا استقرار لسكانها، ما لم تثبت بالجبال فيحفظ توازنها، ويستطيع الذي مهدت وأصلحت من أجله الأرض أن يعيش فيها وينعم بخيراتها، قال تعالى:﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[النحل: 15].

ومن حديث رسول الله ﷺ ما يقوي ويعضد معنى الآية الكريمة (15) من سورة النحل، ما رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ، أنه قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ، فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ، فَعَجِبَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الْجِبَالِ»[4].

فكتاب الله وسنة نبيه ﷺ يذكران بسنن آفاق الأرض، والتي هي أكبر وأعظم من هذا الإنسان، عساه يتدبر ويتفكر فيها، ليدرك ما فيها من مصالح وفوائد خاصة به، فيستغلها مادامت قد سخرت له، ونقف قليلا عند بعض الآيات التي ذكرت كلمة "رواسي" في القرآن الكريم، نتبين وجه الإعجاز فيها.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ﴾[الرعد: 3].

وقال جل وعلا: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[النحل: 15].

---

[1]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 8/ 410.

[2]- **التوازن البيئي**: معناه قدرة البيئة الطبيعية على ضمان الحياة على سطح الأرض دون مشكلات أو مخاطر تمس الحياة البشرية، ولعل التوازن البيئي على سطح الكرة الأرضية ما هو إلا جزء من التوازن الدقيق في نظام الكون. وهذا يعني أن عناصر الكون أو معطيات البيئة تحافظ على وجودها ونسبها المحددة كما أوجدها الله، لكن الإنسان بلغ في تأثيره على بيئته مراحل تنذر بالخطر، إذا تجاوز في بعض الأحوال قدرة النظم البيئية الطبيعية على احتمال هذه التغيرات، وإحداث اختلافات بيئية تكاد تهدد حياة الإنسان وبقائه على سطح الأرض؛ ينظر: محمد عبد القادر الفقي، **البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د،ط) (2006م)، ص:32.

[3]- ينظر: عدنان الشريف، **الثوابت العلمية في القرآن الكريم**، ص: 132.

[4]- أخرجه أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني، **مسند بن حنبل**، تح: شعيب الأرنؤوط، باب مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، [12253]، مؤسسة الرسالة، ط 1(1421هـ-2001م)، 19/ 227 .

وقال جل ثناؤه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النمل: 61].

بالرجوع إلى أصحاب المعاجم نجد أن كلمة أرسى من الجذر (ر س ا): رَسَا الشيء،يرسو بمعنى ثبت، والرواسي من الجبال الثوابت الرواسخ، واحدها (راسية)[1].

يقول الرازي: من الدلائل بأحوال الجبال وإليه الإشارة بقوله: "وجعل فيها رواسي من فوقها ثابتة باقية في أحيازها، غير منتقلة عن أماكنها، واعلم أن الاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم من وجوه، الأول: أن طبيعة الأرض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها لابد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم، ومن الوجوه التي ذكرها الرازي في تفسيره، الوجه الثالث: حيث جعل من الاستدلال بأحوال الجبال أنها سبب لتولد الأنهار على وجه الأرض، ونبه أنه لهذا السبب أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الأنهار، وذكر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾[المرسلات: 27].

يقول ابن عباس: لما بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل بأهلها[2].

بهذا كانت كتب التفاسير قد ذكرت هذه الإشارات العلمية المذهلة، عن كون الجبال هي العامل الأساس والرئيس في تثبيت الأرض، وتخزين المياه العذبة قبل قرون من الاكتشافات الجيولوجية، ذلك أن التفسير ما هو إلا علم من علوم القرآن الكثيرة، فلقد سبق القرآن الكريم بآياته المسطورة جمعا من المستكشفين والعلماء، الذين توصلوا في القرن التاسع عشر، إلى أن مصدر المياه الجوفية قمم الجبال الباردة.

ولابد أن نشير إلى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان قد فسر عملية توازن الأرض بالجبال نقرأ الآتي: "ووتد بالصخور ميدان أرضه"[3]، "وعدل حركتها بالدارسات من جلاميدها، وجعلها للأرض عماداً، وأرَّزها أوتاداً، فسكنت عن حركتها"[4]،

وإذا كانت الأرض لا يستقر للإنسان فيها العيش إلا بتثبيتها بالجبال، فإن معيشتة لا تستمر بدون نبات، وزرع المحتاج في نموه إلى الماء،ولا شك بأن في هذا الماء الضروري لكل حياة سننا ربانيةت

---

[1]- الرازي، **مختار الصحاح**، باب (ر س ا)، 1/ 122.

[2]-نفسه، 22/ 138.

[3]- العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني الطالبي، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، بيروت، المكتبة العصرية، ط1 (1423هـ)، 87/1.

[4]- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله أبو حامد عز الدين، **شرح نهج البلاغة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية، (د،ط،ت)، 6/ 446.

حكم خلقته وسيرورته في الحياة، فما هي سنن الله الحاكمة و الجارية في الماء، وفي النبات والزرع، والتمر منها خاصة؟، وما أوجه الإعجاز العلمي فيها، التي إذا فقه المسلمون سننه في الآفاق والأنفس فازوا بطيب الحياة؟ و "حينما فقه المسلمون الأوائل سنن الله في الآفاق والأنفس والمجتمعات على هدى من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، كان وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة والريادة يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو الموجه له فطاف برحابة عقله وأمعان فكره ودقة نظره آفاق السموات والأرض والأنفس نظارا باحث يستشف الحقائق العلمية الكونية من وراء السجف، يكشفها له القرآن الكريم ويهديه لأصولها وماهياتها بأسلوب معجز،و معان جديدة لم يسبق إليها أحد"[1].

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: 99].

الآيات في كتاب الله المسطور تلفت النظر وتستحث عقل الإنسان للتدبر في آياته في كتابه المنظور، الدالة على عظيم قدرته، ووجوب توحيده سبحانه وتعالى، وهذا أسلوب عظيم من أساليب القرآن المتعددة والمختلفة والمتنوعة في الكشف عن سنن الله في كونه، وهي من دعائم ووسائل القرآن الجَّمة في تثبيت عقيدة الإنسان وترسيخها في النفس البشرية. يقول صاحب التفسير السنني في تفسيره لهذه الآية: "فهي مزيد تأكيد في إثباتها، وكمال بيان في معرفة الله تعالى، بما فيها من بيان سننه وحكمه في الإحياء والإماتة والأحياء والأموات، وتقديره وتدبيره لأمر النيرات في السماوات، وأنواع حُجَجِه ودلائله في أنواع النبات"[2].

تشير الآية الكريمة 99 من سورة الأنعام إلى نبات الأرض والشجر مختلف الحب والثمار، الذي ينتج التمر، وعناقيد العنب، والزيتون، والرمان، مع الاختلاف والتشابه بين هذه الأنواع في الأوراق والحب والمذاق والحجم، إلا أنها خاضعة كلها لسنن الله الكونية وهي سنة الإنبات، وما يترتب عليها من سبب إيجاد الماء، وإنزاله من السماء بقدرة الله العظيمة الباهرة، فبعد تعرفنا على مظاهر لفت القرآن نظر الإنسان إلى هذه الآيات الكونية، ليتأمل ويتدبر فيها ليصل إلى وجود خالقها وموجدها، "ما يدل أوضح الدلالة على وجوب توحيده"[3]، وأن نعرج إلى بيان وجوه الإعجاز العلمي في النبات والشجر في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، للوقوف على السبق العلمي للقرآن والسنة في الحث على تناول

---

[1]- محمد أمحزون، **الإعجاز السنني في القرآن الكريم**، كلية الآداب والعلوم، مكناس، المغرب، (د،ط،ت)، ص:10.

[2]-رشيد رضا، **تفسير المنار**، 7/ 524.

[3]- نفسه، 7/ 524.

بعض أنواع الثمر كالتمر والزيتون، والرمان لفوائدها الطبية والعلمية العظيمة، ونتناول وجوه الإعجاز في هذه النباتات المذكورة في هذه الآية بترتيبها القرآني وهي على النحو الآتي:

أولا: الإعجاز السنني العلمي في النخيل

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾[الأنعام: 99].

الطلع: هو أول شيء يبدو من ثمرة النخيل، ثم ينشق الطلع ويخرج منه القنو أو العذق أو العُرجون، والقنوان جمع قنو؛ وهو العرجون لذي تدلى من الطلع، ودانية: قريبة، "ينالها القائم والقاعد، وخص الدانية بالذكر، لأن من الغرض في الآية ذكر القدرة والامتنان بالنعمة، والامتنان فيما يقرب متناوله أكثر"[1].

ولعظيم فوائد النخل وثمره ذكر كثيرا في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[إبراهيم: 24].

ومن السنة ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِنَاعٍ مِنْ بُسْرٍ، فَقَرَأَ: مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ» [2].

وقد تميزت النخلة عن باقي الأشجار بأنها مصدر الخير والبركات، وورد ذكرها في القرآن الكريم في عشرين مرة[3]، كما حث النبي ﷺ إلى ضرورة تناول التمر ووجه الصحابة إلى بركتها وخيراتها، قال ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ شَجَرَةً بَرَكَتُهَا كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ النَّخْلَةُ» [4].

وهذا التوجيه النبوي إليها إنما هو نتويه لما فيها من عظيم النفع والفائدة في كل أجزائها، فقد نبه النبي الكريم ﷺ إلى هذا النفع العظيم، وقد ألح على ضرورة وجود التمر في كل بيت، واعتبره مُذهِبًا

---

[1]–القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، **الجامع لأحكام القرآن**، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط 2 (1384هـ – 1964م)، 7/ 47.

[2]– أخرجه النسائي، **السنن الكبرى**، كتاب التفسير، باب سورة إبراهيم، [11198]، 138/10، ورواه أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، **المستدرك على الصحيحين**، تح: عبد القادر عطا، كتاب التفسير، تفسير سورة إبراهيم، [3341]، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1411هـ– 1990م)، 2/ 383، وقال هذا شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[3]– محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، القاهرة، دار الكتب المصرية، (دط) (1364 هـ)، ص:690.

[4]–أخرجه أحمد، **مسند عبد الله بن عمر**، [5000]، ص: 47، قال شعيب إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأطعمة، باب أكل الحمار، [5444]، 7/ 80.

للجوع، فعن عائشة رضي الله عنها، أن النبيﷺ: قال: «يَا عَائِشَةُ: بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ، يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ، قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا»[1].

وهذا تأكيد من الرسول ﷺ من خلال الحديث الشريف على أهمية التمر في تغذية الإنسان، حيث إنه قد يستغنى به مع الماء عن بقية الطعام لأشهر (الأسودان: التمر والماء)، كما وصفه النبي ﷺ علاجا للسحر والسم، قال ﷺ: «مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ»[2]، وكان ومن هديه عليه الصلاة والسلام في أكل التمر أنه كان يأكلها وترا؛ أي فردا (ثلاثا أو خمسا أو سبعا).

بعد عرض هذه الأحاديث النبوية الهادية لأهمية التمر في حياة الرسول ﷺ، تبين من خلال التفسير العلمي لها أهمية وضرورة تناول التمر غذاءً أساسيًا، حتى لا يعدم منه بيت، ووجه الإعجاز العلمي في التمر أنه قد "أثبت العلم أن التمر غني بالعناصر الضرورية للجسم، وهي السكريات، والدهنيات، والبروتينات، والفيتامينات، والمواد المعدنية، والماء! ويأتي كلام النبي ﷺ «مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ»، ليبين أن تناول عدد قليل من التمر يسد الجوع في الجسم، .... فالتمر يعدّ غذاء مركزاً بالسكريات البسيطة وأهمها الفركتوز، والذي يتحول سريعا إلى سكر الدم الجلوكوز، حالما يتم هضمه وامتصاصه، وتزداد فائدته عند تناوله مع الحليب، فالتمر فيه كل أنواع السكريات ماعدا اللاكتوز الموجود في الحليب، لذلك سماهما النبي ﷺ بالأطيبين"[3]، وقرن بينهما الله تعالى في قوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿66﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿67﴾ ﴾[النحل: 66-67].

وقد أثبت العلم الحديث أيضا أن التمر أساس الولادة الميسرة، في الآياتِ القرآنيةِ التي تتحدّثُ عن قصةِ السيدةِ مريمَ كلماتٌ ثلاثٌ، يكشفُ الطبُّ الحديثُ أنها أساسُ الولادةِ الميسَّرةِ، يحتوي على مادة تنبه تقلصات الرحم، وتزيد من انقباضها خاصة عند الولادة وهذه المادة تشبه هرمون (الأوكسي توسي Oxytocin)، وهو هرمون يسهل عملية الوضع (الولادة)، ومِن أغربِ الكشوفِ العلميةِ أنّ في الرُّطبِ مادةً تزيد من حجم الرحم في أثناء الحملِ من اثنين ونصفِ سنتيمترٍ مكعبٍ، إلى سبعمئة

---

[1]- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الأشربة، باب في ادخار التمر ونحوه من الأقوات للعيال، [2046]، 3/ 1618، وعند أحمد بيت ليس فيه تمر، كأن ليس فيه طعام، ينظر: مسند أحمد، [24740]، 251/14،وقال شعيب حسن.

[2]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأطعمة، باب العجوة، [5445]،7/ 80.

[3]- محمود محمد ربيع عمران أبو شخيدم، (**الإعجاز العلمي في عالم النبات في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**)، (دراسة موضوعية، رسالة ماجستير في أصول الدين، كلية الدراسات العليا، جامعة الخليل،1437هـ- 2016م)، ص:80.

وخمسين سنتيمتراً مكعباً، وهذا الجنينُ، وتحته المشيمةُ، والمشيمةُ موصولةٌ بأوعيةِ الأمِّ الدمويةِ، فإذا نزلَ الجنينُ من رحمِ الأمِّ، وتَبِعَتْهُ المشيمةُ، تقطَّعتْ هذه الأوعيةُ وفُتِحَتْ، ولو بقيتْ مفتوحةً لنزفتِ الأمُّ، وماتتْ، لذلك جعَلَ ربُّنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغةٍ الرحمَ تنقبضُ انقباضاً شديداً، إلى درجةٍ أنّ قوامَ الرحمِ يصبحُ قاسياً كالصخرِ، فإذا وضعتِ القابِلَةُ يَدَها على الرحمِ، ورأتْه قاسياً، تطمئنُّ إلى أنّ الولادةَ صحيحةٌ، فإنّ الرحمَ بانكماشها الشديدِ تغلقُ كلَّ الشرايينِ المفتوحةِ، وبهذا ينقطعُ النزيفُ، وفي التمرِ والرطبِ مادةٌ تعينُ على انقباضِ الرحمِ، لذلك وردتْ كلمةُ الرُّطبِ في آيةِ المخاض: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 25-26].

المطلوب لتيسير الولادة، وبعد خروج الجنين يساعد عودة الرحم إلى طبيعته الأولى، ويحمي المرأة من حدوث النزيف الرحمي، ومن آثار الرطب أيضا أنه يخفف ضغط الدم لدى الحامل[1].

وبعد الإثبات العلمي لأهمية تناول الرطب للمرأة الحامل قبل الولادة وأثناءها الولادة وبعد الولادة، نتأمل قوله تعالى في سورة مريم ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، وهو يوجه ويرشد أم المسيح مريم، ليطمئن فؤادها ويخفف من معاناتها النفسية، والجسدية: ولكمال الاستفادة والنفع، وعدم التقصير في إظهار فوائد التمر، تمرِ النخيلِ، رمزِ العطاء المتجدد، والوفاء واللين، حيث بكت من مفارقة الرسول ﷺ لها، حين جعلوا له منبرا للخطبة، فبعد أن كانت للسيدة مريم غذاء، وراحة نفسية، ودواء مسكنا لآلام الولادة، هاهي غذاء وأول طعام يوصي به النبي الكريم ﷺ للمولود بعد أن ينقطع عن غذاء أمه (المشيمة)، حين ولادته، يعتمد جسمه على ما كان مخزنا من جليكوجين قليل في كبده وعضلاته، لحين إفراز اللبن من ثدي أمه، وقد يستهلك الجليكوجين قبل أن يرضع الولد، فيهبط مستوى السكر في الدم، فبالتحنيك بالتمر الغني بالسكريات يمتص الطفل التمر ويحافظ على مستوى السكر في الدم، "وبخاصة إذا علمنا أن السكر في التمر من أسهل أنواع السكاكر امتصاصا وهضما، فيكون مناسبا للمولود، وقد أثبت العلم ضرورة إعطاء المولود شيئا من الماء والسكر لإمداده بالغذاء، وإكسابه المناعة اللازمة ضد الأمراض"[2].

ولا ننبهر بنتائج العلم وحقائقه الثابتة المجربة بالفرضية والتجربة والبرهان، لأن من لا ينطق عن الهوى سبق العلم والطب الحديث المعاصر، وسن سنته، وعمل بهديه في تحنيك المولود.

---

[1]- ينظر: محمد راتب النابلسي، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، سورية، دمشق، دار المكتبي، ط2 (1426هـ-2005م)، 135/2.

[2]- محمود عمران، **الإعجاز العلمي في عالم النبات في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية**، ص: 82.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: «وُلِدَ لِي غُلَامٌ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ، فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ، وَدَفَعَهُ إِلَيَّ» [1]. التحنيك: هو أن يُمضغ شيء حلو ويوضع في فم الصبي ويدار في حنكه[2]ومن وجوه الإعجاز العلمي في التمر، من خلال إلحاح النبي ﷺ على إفطار الصائم، والسحور بالتمر والماء، حيث نلاحظ القيمة الغذائية[3] العظيمة للتمر.

ولهذه الفوائد العظيمة، والمنافع الجليلة للتمر، التي توصل إليها العلم الحديث، وغيرها كثيرا لم يكشف بعد، تربعت النخلة وتكرر ذكرها في كتاب الله، وبها وبطلعها افتتحنا بيان سنن الآفاق في الأرض من النبات والزروع المختلفة.

ونثني ببيان أوجه الإعجاز في ما ذكر في سورة الأنعام من جنات الأعناب، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: 99].

ثانيا:الإعجاز السنني العلمي في العنب

ذكر العنب في القرآن الكريم في إحدى عشرة آية بالجمع وبالإفراد (أعناب- عنب)، وهو من فواكه الدنيا والآخرة، حيث جعله الله طعاما للمتقين في الجنة ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾[النبأ: 31]، ولو لم يكن ذا قيمة عالية، وفائدة عظيمة للإنسان، ما جعل فاكهة لأهل الجنة، واعتمد الإنسان قديما وحديثا على العنب فاكهةً وغذاءً، واتخذ منه سُكَّرًاوخمرا، وهو الآن موضوع بحث دراسة، وتجارب من أكبر المخابر في العالم لمكافحة السرطان، والبحث عن علاج لهذا الداء الخبيث، حيث أثبتت الدراسات الطبية الحديثة فعالية مستخلص بذر العنب، وقشره في معالجة أمراض السرطان بأنواعه، حيث يقتل الخلايا السرطانية بنسبة كبيرة ،ولا يؤثر على الخلايا السليمة، ويلعب مستخلص بذر العنب دوراً في حث خلال سرطان الدم على الانتحار، حيث يقوم المستخلص بتنشيط أحد أنواع البروتين بالجسم، يشرف على عملية انتحار الخلايا لعدد من أمراض السرطان، منها سرطان القولون، والجلد، والصدر، فيعمل على تثبيط تصنيع هرمون الاستروجين،... وتؤكد المؤشرات العلمية أنه يدخل قريبا في علاج الأورام السرطانية، ويستخدم في الوقاية من أمراض السرطان، وسجل العلماء أن مستخلص العنب يحتوي على نسبة كبيرة

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**،كتاب العقيقة، باب تسمية المولود، [5467]، 83/7 .

[2]- ينظر: ابن حجر، **فتح الباري**، 9/ 588.

[3]-ينظر: محمد راتب النابلسي، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، دمشق، دار المكتبي، ط2(1426هـ-2005م)، 132/2.

من مضادات الأكسدة القوية والفعالة، حيث لوحظ أن لهذه المكونات تأثيرا فعالا في الحد من المواد الخطيرة في الجسم، ترتبط زيادتها في الجسم بحدوث أمراض عديدة[1].

كان هذا رأي علماء الطب الحديث، والباحثين في فوائد العنب، فنستطلع أقوال علماء السلف في بيان منافع الأعناب، حيث عدوه" أشرف أنواع الفواكه، فإنه ينتفع به من أول ظهوره، لأنه أولاً يكون له خيوط خضر دقيقة حامضة لذيذة، ثم تكون الحُصْرم، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى، وقد يتخذ منه رُبّ الحصرم وأشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء، ويطبخ منه ألذ الأطعمة الحامضة، وهو عنباً ألذ الفواكه وأشهاها، ويدخر قريباً من سنة، ويكون زبيبه غذاء، ويكون منه الدِبس والخل وغير ذلك، وأحسن ما فيه عَجمُه، وهو يتخذ منه جوارشات[2] عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة"[3].

وكما ذكر العنب في القرآن، فقد ورد ذكره في السنة النبوية، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْقَعُ لَهُ الزَّبِيبُ، فَيَشْرَبُهُ الْيَوْمَ وَالْغَدَ وَبَعْدَ الْغَدِ إِلَى مَسَاءِ الثَّالِثَةِ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِهِ فَيُسْقَى أَوْ يُهَرَاقُ»[4].

ومن منافع العنب، ما بينته الدراسات العلمية الكثيرة، إذ وجد أنه يساعد على تحسين مجرى الدم، وتقوية الأوعية الدموية، ويقوي القلب ويحميه، كما ينفع المصابين بتشنجات الساق، وأمراض السكري، وعروق الدوالي، وتخدر الساقين والذراعين، وله دور كبيرا في تقوية ونضارة الجلد ومرونته، ما يسهم في سلامة وصحة الجلد، فيمكن فرك مستخلص بذر العنب على الجلد، وهو يستخدم كثيرا من طرف شركات تصنيع مستحضرات التجميل[5].

وإضافة إلى فوائده الكثيرة، فهو يستخدم كمادة طبيعية لحفظ الأغذية، لاحتوائه على مادة مضادة للأكسدة،من خلال عرض فوائد العنب الجمة في الوقاية والعلاج، والتمتع بصحة جسمية كما أرادها لنا القرآن الكريم، وأمرنا بالحفاظ عليها من خلال آياته المعجزة، نفهم جيدا مقامات ورود لفظ

---

[1]- ينظر: ميساء محمد الراوي، (**العنب إعجاز بين غذاء وشفاء**)، (من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الطب وعلوم الحياة)، 1/ 267-268.

[2]- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، (دط)(1415هـ- 1995م)، 675/2.

[3]- جوارشات/ جوارش: هو نوع من الأدوية المركبة يقوي المعدة ويهضم الطعام وليست اللفظة العربية، ومنه حديث: أهدى رجل من العراق إلى عمر رضي الله عنه جوارش، ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمد محمود الطناحي، الباب جهد، بيروت، المكتبة العلمية، (دط)(1399 هـ- 1979م)، 1/ 319.

[4]- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الأشربة، باب إباحة النبيذ الذي لم يشتد ولم يصر مسكرا، [81]،3/ 1589.

[5]- ينظر: ميساء الراوي، **العنب إعجاز بين غذاء وشفاء**، ص 368.

الأعناب في سور القرآن الكريم فقد جاءت كلمة (الأعناب- عنب) في بيان نعم الله على عباده، وعظيم قدرته في الخلق، كما وردت للفت نظر الإنسان وفكره، لإعمال عقله للوصول إلى خالق وموجد هذه الأعناب، والتفكر في كل أطوار ومراحل نموها، كما جاءت في مقام الترغيب في طعام وفاكهة أهل الجنة للإقتداء بصفاتهم، ومنها حذو حذوهم في الفوز بالنعيم الأبدي.

وفي سياق بيان نعم الله على عباده، وعظيم رزقه، وإظهار وسائل القرآن في الحفاظ على الصحة، باتباع ما أنزل على الإنسان من هدي ومواعظ ورحمة، وشفاء، ودلائل متمثلة في آيات مسطورة، مبينة وكاشفة لسنن الله في الفوز بالحياة الطيبة، لأن أساس الحياة الطيبة، الصحة الجسمية للإنسان، فبالأخذ بسنن الله يتجنب الأضرار والمهالك الناجمة عن التفريط في قواعد الوقاية الصحية من الأمراض، أو الغفلة عنها، والتي شرعها الله لعباده وبينها في كلامه المعجز، ومن ذلك على سبيل التمثيل لا الإحصاء قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: 99].

وبعد أن وضحت الدراسة الإعجاز العلمي في كل من التمر والأعناب تبين في هذا النقطة في القرآن الكريم سبع مرات.

ثالثا: الإعجاز السنني العلمي في الزيتون

أقسم المولى عز وجل في تنزيله بشجرة الزيتون لعظم منفعتها وبركتها، قال عز من قائل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾[التين: 1].

وقد اكتشف الإنسان منافعها وفوائدها منذ القديم، حيث استعملها للأكل وللتداوي، عن طريق الشرب والدهن، ولم يجئ قسم الله سبحانه وتعالى بها في القرآن إلا بضرورتها لجسم الإنسان، لأن جواب القسم في الآية الكريمة جاء بخلق الإنسان في أحسن تقويم، أي إن جسم الإنسان، وصحته، وعافية بدنه بأن يكون في أحسن هيئة، وأجمل صورة، متعلقةٌ (بالزيتون)، حيث «خَصَّ الزَّيْتُونَ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ، وَلِأَنَّهُ شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ جَاءَ بِهَا الْحَدِيثُ، وَهُوَ ثَمَرٌ وَدُهْنٌ، يَصْلُحُ لِلِاصْطِبَاغِ وَالِاصْطِبَاحِ»[1]، ومن عجائب شجرة الزيتون أنها دائمة الخضرة، لا يسقط ورقها، معمرة تعيش أكثر من ألف سنة، تتحمل الجفاف بشكل كبير، وتلقح بواسطة الرياح، وأول من علم الناس زراعة الزيتون هم المصريون القدماء، واستخدموا

[1]- البغوي، **معالم التنزيل**، 8/ 468.

غصن الزيتون رمزا للسلام، حيث يُروى أن حمامة أحضرت غصنا من الزيتون في فمها إلى سفينة نوح عليه السلام كدليل على انحسار الطوفان، وتوارث الأجيال اعتبار غصن الزيتون رمزا للسلام.

وأيا ما كان فقد عرف نوح ورقة الزيتون، فدل على أنهم كانوا يعرفون هذه الشجرة من قبل الطوفان، واستعمل زيتها في عهد نبي الله موسى عليه السلام، حين أنار بزيتها خيمة الاجتماع بوحي الله حول طور سيناء، ودهن به رأس أخيه هارون حين أقامه كاهنا لبني إسرائيل[1].

وفي مقام بيان عظيم شرفها ومكانتها وبركتها، في كتاب الله، أنه سبحانه وتعالى قد ضرب بزيت الزيتونة مثلا لنوره، حيث قال في تنزيله: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[النور: 35].

والسنة النبوية أيضا تقر أن الزيتونة شجرة مباركة، فقد حث الرسول الكريم ﷺ على أكل تمرها والدهن بزيتها، قال: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»[2].

وإضافة إلى حثه عليه الصلاة والسلام على تناول الزيتون وبيان فضلها، فقد ثبت أنه كان يستعمله في الأكل والدهن، والسنة القولية واضحة في ذلك، حيث إن الزيت هو زيت الزيتون، والشجرة المباركة المذكورة في الحديث السابق هي شجرة الزيتون.

ولأن فوائدها كثيرة، ومنافعها عظيمة، ها هو النبي ﷺ يرشد صحابته بالتداوي من ذات الجنب بزيت الزيتون، وذات الجنب[3] هو ما يصيب الإنسان من أمراض صدرية كالتهاب الرئتين، والسعال، وضيق التنفس، ما يؤدي إلى ارتفاع حرارة الجسم، وعن زيد بن أرقم أنه قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَدَاوَى مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ بِالْقُسْطِ الْبَحْرِيِّ وَالزَّيْتِ»[4].

بعد تناول هذه الأحاديث التي يلح فيه النبي ﷺ على ضرورة التداوي، والعلاج، والدهن، وأكل الزيت، نوضح وجه الإعجاز العلمي في زيت الزيتون، كما يراه العلم الحديث، يقول ابن قيم الجوزية عن

---

[1]- ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، 18/ 36.

[2]- أخرجه الترمذي، في سننه، أبواب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت، [1851]، 3/ 349، ورواه النسائي، **السنن الكبرى** ، كتاب الوليمة، باب الزيت، [6669]، 6/ 244، وأحمد، المسند، حديث أبي أسيد الساعدي، [16055]، 448/25.

[3]- ذات الجنب : ورم حار يكون إما في الحجاب الحاجز أو في الغشاء المستبطن للصدر، وهما خالصان، والخالص يلزمه الأعراض الخمسة (حُمَّى لازمة، وجع فاحش، وضيق النَّفَس، صفر وتواتر، ونبض متسارع، وسعال ثاقب)؛ ينظر: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، سوريا، دمشق، دار النوادر، ط 1 (1429هـ- 2008م)، 27/ 375.

[4]- رواه الترمذي، **سنن الترمذي**، أبواب الطب، باب ما جاء في دواء ذات الجنب، [2079]، 3/ 475، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الذهبي: هذا حديث صحيح.

منافع زيت الزيتون: "وينفع من السموم، ويطلق البطن، ويخرج الدود، ... وجميع أصنافه ملينة للبشرة، وتبطئ الشيب، وماء الزيتون المالح يمنع من تَنَفُّطِ حرق النار، ويشد اللّثَةَ، وورقُه ينفع من الحمرة والنّملة، والقروح الوسخة، والشَّرى، ويمنع العرق، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا"[1].

يذكر ابن قيم الجوزية منافع جمة لزيت الزيتون وهنا يكمن سر الإعجاز العلمي فيها، حيث يذكر منافع عظيمة أذعن لها العلم اليوم، وأقرها، وأثبتتها البحوث، والدراسات العلمية من مخابر عالمية مشهورة، فعرفت بأنها مصدرا للتداوي، والعلاج، وموردا للشفاء إلى يوم الناس هذا، وما يزال الناس يستعملونها طلبا للشفاء والبركة، خاصة بعد اكتشاف الطب الحديث لفوائدها ومزاياها المتنوعة، وسر بركتها، وأنها احتوت على مكمن للدهون عظيم نافع، ليس منه ما هو ضار للجسم كبقية الدهون، فهو يحتوي سعرات حرارية، وبروتين ودهن وكربوهيدرات، وألياف، وكميات قليلة من الكالسيوم، والفوسفور، والحديد، والصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم، والفيتامين أ، وآثار من الزنك والنياسين، وفيتامين ب1، فيتامين ب2، ويتألف زيت الزيتون كيميائيا من مواد دهنية وانزيمات، وفيتامينات (أ، ب، ج، د، هـ)، ومواد ملونة (كلورفيل، زنثوفيل)، وبعض الأحماض التي تساعد في عملية التمثيل الغذائي، تنظم ضربات القلب، والضغط الدموي، وأثبت الطب الحديث أن زيت الزيتون يخفض الكولسترول، و أوصى بها علماء الطب بضرورة تناول زيت الزيتون كغذاء، لأنها وقاية من أمراض القلب والشرايين، والضغط الدموي، والكولسترول، ومرضى السكري، والبدانة، وتقي من الإصابة بالسرطان[2].

وستعرض الدراسة لنتائج دراسات علمية حديثة، أثبتت الإعجاز العلمي في زيت الزيتون:

– أثبتت الدراسات العلمية الحديثة العلاقة العكسية بين حدوث السرطان وبين تناول زيت الزيتون، وأن هذا الأخير يخفض خطر الإصابة بهذا المرض الخبيث بنسبة كبيرة ، وهذه فوائد زيت الزيتون المنشورة في جميع المجلات العلمية[3]: الوقاية من سرطان الثدي بنسبة كبيرة، ومن سرطان الرحم ، وسرطان القولون.

– يساعد زيت الزيتون على تنشيط وظائف الكبد وزيادة إفراز العصارة الصفراوية من المرارة.

– يلطف الغشاء المخاطي المبطن للأمعاء.

– يفتت حصوات الكلى والمرارة والحالب.

– يمنع نمو الجراثيم المسؤولة عن قرحة المعدة.

---

[1]– ابن القيّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين الجوزية، **الطب النبوي**، بيروت، دار الهلال، (د،ط،ت)، 1/ 238.

[2]– ينظر: محمد راتب النابلسي، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، سوريا، دار المكتبي، ط 2 (1426هـ- 2005م)، 138/2.

[3]– نفسه، 138/2.

- يخلص من الديدان التي تعيش في الجهاز الهضمي.

- يقلل من تساقط الشعر ومن ظهور الشيب، وهنا يكمن وجه الإعجاز في قوله تعالى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[المؤمنون: 20]، فهو يحتوي على الأحماض الدهنية والأمنية (التيروزين Tyrosine)، المساعدة على تكوين مادة الميلانين، التي تصبغ الشعر باللون الأسود.

ولا عجب بعد ذلك في إلحاح النبي ﷺ على تناول زيت الزيتون والدهن به، فبركته أثبتتها فوائده العظيمة، المثبتة بالتجارب العلمية القديمة والحديثة.

ومن أحسن ما قيل في الإعجاز العلمي لزيت الزيتون، ما ذكره الدكتور النابلسي: بأن في زيت الزيتون وقود "لجسم الإنسان، حيث سمى ربنا سبحانه وتعالى زيت الزيتون وقوداً، فقال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[النور: 35]، وهو ما اكتشفه العلماء، أنه إذا تناول الإنسان مئة غرام من زيت الزيتون فكأنما استمد طاقة تزيد على ثماني مئة حريرة، أي نصف حاجته اليومية من الغذاء"[1].

ولن يكتمل إعجاز القرآن الكريم في سورة الأنعام الآية 99 بدون الحديث عن الرمان، وكما يقول الرازي في مفاتيح الغيب: "وأما الرمان فحاله عجيب جدا، وذلك لأنه جسم مركب من أربعة أقسام: قشره وشحمه وعجمه وماؤه... فإنه ألذ الأشربة، وألطفها، وأقربها إلى الاعتدال، وأشدها مناسبة للطباع المعتدلة، ... وهو غذاء من وجه، ودواء من وجه"[2].

ويذكرني كلامه بما كانت تفعله الجدات قديما، من تجفيف قشور الرمان، وطحنها لتدخر دواء في البيوت، يستعمل لأمراض عدة، منها اللثة، والأمعاء، والإسهال، وأكثر ما بقي عالقا في الذاكرة، أنه كان يستعمل كثيرا للرضع، حيث ينقع في الماء، ويترك لمدة ثلاثة ليال، ثم يغرغر للرضيع الذي لم يعرف وجه مرضه على التحديد.

4- **الإعجاز السنني العلمي في الرمان:** استعمل الرمان للتفكه وللدواء، قديما وحديثا، وذكر مع ثمار فوائدها عظيمة، ومنافعها جليلة، ثبت علميا إعجاز هذه الأصناف المذكورة إلى جنب الرمان، وهي: التمر، والعنب، والزيتون، فما وجه الإعجاز العلمي للرمان؟

في سياق ذكر الرمان بعد ذكر كل من النخيل، والأعناب، والزيتون، أخبر سبحانه وتعالى بأنه: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾وهذا فيه مباحث ووجوه في التفسير، منها "أن هذه الفواكه قد تكون متشابهة في اللون والشكل، مع أنها تكون مختلفة في الطعم واللذة، والأعناب والرمان قد تكون متشابهة في الصورة

---

[1]- محمد راتب النابلسي، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، 142/2.

[2]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 13/ 68.

واللون والشكل، ثم إنها تكون مختلفة في الحلاوة والحموضة... ومنهم من يقول الأشجار متشابهة والثمار مختلفة"[1].

وما قرن ذكر الرمان في كتاب الله العزيز بالنخيل، والزيتون، والعنب، إلا لاشتراك هذه الأشجار الأربعة في مصالح الإنسان الأساسية للإنسان كالغذاء و الدواء ،و لما أمتن الله تعالى في سورة الأنعام الآية 99 على عباده بهذه الثمار الأربعة، آخرها الرمان وأمرهم وحثهم على النظر، وكما سبق بيانه في المباحث السابقة، لا وجود في القرآن للنظر دون إعمال العقل والتفكر، والتدبر الموجب للاعتبار والاتعاظ، وفي الاعتبار بيان لسنن الله في الآفاق والأنفس.

وبالاستجابة للأمر بالنظر، والتأمل للاعتبار، نحاول عرض بعض أوجه الإعجاز العلمي في الرمان من خلال القرآن والسنة.

أول ما يوجب النظرُ في الرمان، الالتفات إلى بديع خلق البارئ سبحانه وتعالى، في الحَبِّ، وطريقة تركيبه العجيبة والغريبة، متراكبا منضودا نضدا، حتى ليعجز أحدث صنع بشري عن التفكير في إعادة نضد حبات الرمان على نفس المنوال حين تفكيكها، وفي هذا المعنى كلام رائع لابن القيم، حيث يقول: "تأمل خلقه الرمان، وماذا فيه من الحكم والعجائب؛ فإنك ترى داخل الرمانة كأمثال التلال شحما متراكما في نواحيها، وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا، ومنضودا نضدا، لا يمكن الأيدي أن تنضده، وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا، وكل قسم وفرقة منه ملفوف بلفائف وحجب، منسوجة أعجب نسج، وألطفه وأدقه، على غير منوال إلا منوال كن فيكون، ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله، وضمه أحسن ضم، فتأمل هذه الحكمة البديعة في الشحم المودع فيها، فإن الحَّب لا يمد بعضه بعضا؛ إذ لو مدَّ بعضه بعضا لاختلط وصار حبة واحدة"[2].

فالحمد لله الذي أرشد ووجه عباده إلى منافع الثمار والفواكه، بعد ما أمرهم بالنظر والاتعاظ، وما كان سبحانه وتعالى ليأمر بالنظر لو انعدمت المنافع والفوائد، وكان علي رضي الله عنه يحث الناس على المنبر بالتداوي بالرمان، فيقول: "يا أيها الناس كلوا الرمان بشحمه، فإنه دباغ المعدة"[3].

---

[1]–الرازي، **مفاتيح الغيب**، 13/ 162.

[2]– ابن القيم، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت)، 1/ 227.

[3]– رواه أحمد، **مسند أحمد بن حنبل** ، [23237]، 38/ 273، علق الأرنؤوط، هذا أثر عن علي بن أبي طالب، وإسناده محتمل للتحسين من أجل ربيعة بنت عياض الكلابية، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، من طريق سعيد بن خثيم به، ورواه ابن عدي (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير)، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، (1399هـ- 1979م)، 2/ 449.

وإذا كان حال الصحابة رضوان الله عليهم في اهتمامهم بقيمة هذه الفاكهة الدواء (الرمان)، دون معرفة منهم بمكوناتها وقيمتها الغذائية بطرق علمية تحليلية دقيقة، فتأمل ابن القيم وهو يصنف الرمان إلى أنواع كل حسب استخداماته ومنافعه، فيقول: "حُلْوُ الرُّمَّانِ حَارٌّ رَطْبٌ، جَيِّدٌ لِلْمَعِدَةِ، مُقَوٍّ لَهَا بِمَا فِيهِ مِنْ قَبْضٍ لَطِيفٍ، نَافِعٌ لِلْحَلْقِ والصدر والرئة، جيد للسعال، وماؤه ملين للبطن، يغذي الْبَدَنَ غِذَاءً فَاضِلًا يَسِيرًا، سَرِيعُ التَّحَلُّلِ لِرِقَّتِهِ وَلَطَافَتِهِ، ... وَحَامِضُهُ بَارِدٌ يَابِسٌ، قَابِضٌ لَطِيفٌ، يَنْفَعُ الْمَعِدَةَ الْمُلْتَهِبَةَ، وَيُدِرُّ الْبَوْلَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الرُّمَّانِ، وَيُسَكِّنُ الصَّفْرَاءَ، ويقطع الإسهال، ويمنع القيء، ويلطف الفضول، ويطفىء حَرَارَةَ الْكَبِدِ، وَيُقَوِّي الْأَعْضَاءَ، نَافِعٌ مِنَ الْخَفَقَانِ الصَّفْرَاوِيِّ، وَالْآلَامِ الْعَارِضَةِ لِلْقَلْبِ، وَفَمِ الْمَعِدَةِ، وَيُقَوِّي المعدة، ويدفع الفضول عنها، ويطفىء الْمِرَّةَ الصَّفْرَاءَ وَالدَّمَ، وَإِذَا اسْتُخْرِجَ مَاؤُهُ بِشَحْمِهِ، وَطُبِخَ بِيَسِيرٍ مِنَ الْعَسَلِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْمَرْهَمِ وَاكْتُحِلَ بِهِ، قَطَعَ الصَّفْرَةَ مِنَ الْعَيْنِ، وَنَقَّاهَا مِنَ الرُّطُوبَاتِ الْغَلِيظَةِ، وَإِذَا لُطِّخَ عَلَى اللِّثَةِ، نَفَعَ مِنَ الْأَكَلَةِ الْعَارِضَةِ لَهَا، وَإِنِ اسْتُخْرِجَ مَاؤُهُمَا بِشَحْمِهِمَا أَطْلَقَ الْبَطْنَ وَأَحْدَرَ الرُّطُوبَاتِ الْعَفِنَةَ،... وحب الرمان مع العسل طلاء للقروح الخبيثة"[1].

وبعد سرد كلام ابن القيم –هو ابن العصر الوسيط –، في أنواع الرمان ومنافعه وكيفية استعمالاته لمختلف الأسقام، فضلا عن كونه فاكهة الجنة، نعرج إلى العصر الحديث، لنرى ما جاء من العلم، في فضل هذه الثمرة العجينة صورة ومضمونا.

يثبت العلم للرمان فوائد جمة، إذ يستفاد من قشرها وثمرها، حيث يستخرج من قشرها صبغة تحتوي على "مركبات القانين، والبلليترين، ويحتوي على مواد قلوية قابضة في دباغة الجلود، وتلوين العجائن التي تستخدم في صناعة الأسنان المستعارة"[2].

وقد أثبتت الدراسات أن الرمان "يحتوي على نسبة كبيرة من الماءً، والسكرياتٍ، والبروتين، وحمضَ الليمون، والدهنياتٍ، والألياف، وكمياتٍ من الأملاح المعدنية، وبخاصةٍ الحديد، والكبريت، والفسفور، والبوتاسيوم، والكالسيوم والمنجنيز، وكميات كبيرة من الفيتامينات أ. ب.ج، وتحتوي بذور الرمان على كمية عالية من الأحماض النباتية، أهمها حمض الستريك، وكذلك فإن قشور الرمان تحتوي على حمض الجلوتانيك، والبليترين، وتصل نسبة وجود التانين إلى ما يقرب 28%، وهي مادة قابضة تفيد كثيرا في علاج الدوسنتاريا وإيقاف الإسهال.وأكدت بعض الدراسات الحديثة أن الرمان، يحتوي على فعالية

[1]– ابن القيم، **الطب النبوي**، تح: عبد الغني عبد الخالق،بيروت، دار الفكر، (د،ط،ت)، 1/ 243.

[2]– سالم مختار، **الإبداعات الطبية لرسول الإنسانية**، بيروت، مؤسسة المعارف، (د،ط،ت)، ص: 239.

كبيرة مضادة للأكسدة، ويعمل على تحسين كمية ونوعية الخلايا المنوية، كما قد يتوفر على عناصر مضادة للسرطان، وخصوصا سرطان البروستات"[1].

وخلاصة القول يبقى البحث جاريا حول منافع التمر والعنب والزيتون والرومان في سبيل اكتشاف سنن الوقاية وسنن العلاج،ومن ثمة تسخيرها بطرق فعالة قصد استثمارها في نيل طيب الحياة،ولهذا عمدت في هذا المطلب إلى الحديث عن الإعجاز القرآن الكريم في سوره وآياته. ولعل سائلا يتساءل ما علاقة السنن الإلهية بوجوه الإعجاز. وإنما اعتمدت في مطلب سنن الله في آفاق السماوات والأرض وفي الأنفس، على بيان وجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟ باعتبار أنه "بحث وتتبع سنن الله في الأمم، من خلال آيات القرآن الكريم، ودراستها دراسة موضوعية، إسهامًا في تجليه آية من آيات إعجاز هذا القرآن وعظمته، وإن لم يكن بحاجة إلى ذلك؛ لأن دلائل عظمته وبراهين صدقه أكثر من أن تُحصى، فإننا نحن الذين بحاجة إلى أن نعيد إلى أنفسنا الثقة بعظمته وصلاحية توجيهاته لكل زمن وأمة، ومتى تم لنا ذلك، فسيصبح لآياته وتعاليمه مذاق خاص، وسنكتشف من أسراره مالم يكن يخطر لنا على بال"[2]. ذلك أن الإعجاز السنني في القرآن الكريم يكشف عن فتح رباني عظيم، باعتباره كتابا سماويا أنزل منذ قرون، وذكرت فيه سنن الله في الآفاق والأنفس بطرح علمي بحت.

المطلب الثاني: سنن الأنفس

يقدم هذا المطلب دراسة مختصرة حول السنن الإلهية الحاكمة في النفس الإنسانية، بغرض الوقوف على أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو إعجاز القرآن في النفس البشرية.

الفرع الأول: سنن النفس البشرية

أولا: معنى النفس لغة

عرفها ابن منظور بأنها: الروح[3]، ونقل عن أبي بكر الأنباري قوله: "من اللغويين من سوى النفس والروح، فقال: هما شيء واحد، إلا أن النفس مؤنثة، والروح مذكر"، ثم قال: "وقال غيره: الروح هو الذي به الحياة، والنفس هي التي بها العقل، فإذا نام النائم قبض الله نفسه ولم يقبض روحه، ولا يقبض الروح إلا عند الموت"[4].

---

[1]- محمد كريمي، **شجر الرمان بين العلم والقرآن**، الهيئة العالمية للكتاب والسنة، https://www.eajaz.org/index. تاريخ التصفح، 2019/01/20م.

[2]- حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، الرياض، دار الفضيلة، ط 2 (1432هـ- 2011م)، ص: 9.

[3]- ابن منظور، **لسان العرب**، 6/ 233.

[4]- نفسه، 6/ 235-236.

والحقيقة أن ابن منظور نقل معاني عديدة للنفس في اللغة، فلا نستطيع حصرها بمعنى واحد "كالروح"، فهي: "الدم، والأخ، والروع، والإنسان جميعه، والجسد، والعين، والفرج من الكرب"[1].

وليس من صميم دراستنا وغرضنا في هذا المطلب الخوض في هذه المعاني، وتفصيلها، لذلك اكتفيت بتحديد معنى النفس المراد بحثه، والتعرض له في هذا البحث؛ وهو معنى الإنسان كله فرداً كان أو جماعة.

ثانيا: معنى النفس اصطلاحا

عرفت النفس بأنها الجوهر البخاري اللطيف، الحامل لقوة الحياة، والحس، والحركة، والإرادة، وسميت الروح الحيوانية، فهي جوهر مشرق للبدن، وعند الموت ينقطع ضوؤها عن ظاهر البدن[2].

والنفس في علم الاجتماع هي ذلك الكل المركب من الجسد والروح، الذي تطلق عليه أحيانا الذات أو الأنا، فهي تحمل سمات الجسم والروح[3].

فالنفس التي أعنيها في هذا المطلب من الدراسة، هي ذات الإنسان، جاء في معجم "متن اللغة"[4] أن النفس تعني الذات؛ أي عين الشيء جوهره، وقد وردت آيات كثيرة تدل على ذات الإنسان، منها قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَۖ ﴾[البقرة: 9].

ونجد في تفسير المنار إقرارا لهذه الحقيقة، حيث يقول: "الذين يخدعون أنفسهم ويخادعون الله تعالى، عندهم علم حقيقي تنبعث عنه أعمالهم، وإن كان باطلا في نفسه، وهو تصديقهم بما في شهواتهم من المصلحة لذواتهم"[5]. فالنفس هاهنا ذات الإنسان.

وقد خلق الله النفس وأودعها ذات الإنسان وجسمه، وخلق معها سنن التوازن النفسي والاستقرار، وسنن الاضطراب والتمزقات الداخلية، فإن فقه الإنسان وأخذ بسنن الخير والهداية والاستقرار النفسي، لانت له واستجابت، وذاقت حلاوة الحياة الطيبة، وإن حاد وانحرف عن السنن وتنكبها، تجرع مرارة المعيشة الضنك، وسقط في هوة الندم، والذنب، والانحسار، والقلق والاضطراب، والانفصال النفسي والاجتماعي.

---

[1]-ابن منظور، **لسان العرب**، 6/ 233-240.

[2]- الجرجاني، **التعريفات**، باب النون، 1/ 244.

[3]- ينظر: الطويل عزت، **النفس في القرآن الكريم**، المكتب الجامعي الحديث، (1403هـ - 1982م)،ص: 55، وعبد العزيز مفتاح، **القرآن الكريم وعلم النفس**، بنغازي، منشورات جامعة قابوس، ط 1(1997م)،ص: 20، وينظر: قاروط محمد محمد، **الإنسان والنفس في ضوء الكتاب والحديث**، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1423هـ - 2002م)،ص: 82.

[4]- أحمد رضا، عضو المجمع العلمي العربي، **معجم متن اللغة**، لبنان، بيروت، دار مكتبة الحياة، (1377هـ - 1958م)، 514/5.

[5]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 126.

فما هي سنن الاستقرار النفسي للفوز بها!؟ وما هي سنن التمزق والاضطرابات حتى لا نقع في حبائلها!؟

الفرع الثاني: سنن الاستقرار النفسي

لا شك أن النفس السوية تتوق لتنعم بالطمأنينة والهدوء الساجي، وصفاء الروح، لما لذلك من آثار وعوائد إيجابية على صحته الجسمية، حيث أكد العلم الحديث أن معظم الأمراض العضوية مرجعها نفسي، بل ليس يقف الأمن النفسي عند ذلك، حتى ليؤكد علماء الاجتماع أن أكثر أخطر الحوادث التي تودي بحياة الإنسان (حوادث المرور، حوادث العمل، ...)، سببها النفس المضطربة، يقول هاري امرسون موضحا هذه الحقيقة: "إن أهم الأركان التي تقوم عليها الأصول الجوهرية للحياة الصحيحة الخالية من أمراض البدن والنفس هو سكينة النفس"[1].

فإذا كان الطب النفسي القائم على التحليل والتجربة العلمية الدقيقة، قد توصل إلى هذا الاكتشاف بعد سنوات طوال من العمل والجهد، فإن القرآن الكريم قد سبق هذا العلم، حيث فصل الخطاب في أمر سكينة النفس، ولفت نظر الإنسان إليها، وأرشده إلى وسائل تحقيقها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أولا: تقوية الصلة بالله

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[الرعد: 28].

يقول صاحب مفاتيح الغيب إن الوجل ضد الاطمئنان، فلما ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصي، جاز وصفهم بالوجل ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[الأنفال: 2]، وكانوا إذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم، لأن الوجل كان بذكر العقاب، وكانت الطمأنينة بذكر الثواب[2].

والذكر طاعة تدخل في جميع العبادات المفروضة، والمندوبة المستحبة، فهي تلازم الإنسان المؤمن في جميع أوقاته وفي كل أحواله، فلا يخصص لها محراب، أو كتاب موقوت، أو طهارة مخصوصة، بشروط خاصة، فهي تطيب الفم، كما تسكن النفس.

"لقد كان الصوم والصلاة والاستعاذة، والاستغفار، وكظم الغيظ، والصبر والذكر الدائم عبارة عن طب وقائي يمنع تراكم الأمراض النفسية من الخواطر الشيطانية وتمنعها من النفاذ إلى قلب الإنسان، ومن

---

[1]- رانيا محمد عزيز نظمي، (**النفس وحقيقتها في القرآن الكريم**)، (مجلة مركز الخدمات للاستشارات البحثية، 2006م، جامعة المنوفية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية)، ص: 37.

[2]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 19/ 39-40.

ثم يصبح قلب المسلم على الدوام مستفرغا ومحصنا من ولوج الأوقات والأمراض التي تسبب له تراكما وأزمات نفسية"[1].

وهو جامع لكم هائل من الطاعات، منها:

1- تلاوة القرآن: وهي أعظم الوسائل لتقوية صلة العبد بربه، والحبل المتين، فهو كتاب هداية، ونور مبين، ورحمة للعالمين، فيه الشفاء للقلوب والصدور، وموعظة للناس، فمن تمسك به عصمه الله، ومن اتبع بيانه فاز ونجا، وزكّى نفسه، وصانها من الأدران الجالبة للوساوس والريبة[2] والاضطرابات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[يونس: 57].

فمن رحمته أن هدى الإنسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله، فمتى أصابه في نفسه ما يكره من ريبة، أو قلق، أو خوف، أو اضطراب، بحث عن سببه، ليجتهد في تلافيه من السنة التي سنها الله تعالى[3].

وهذا كله طلبا لتحقيق الاطمئنان والسكينة، التي منها تقوية صلته بخالقه، بذكره، والمداومة على تلاوة كتابه العزيز.

ولما كانت المداومة على تلاوة القرآن أنجع الطرق لمعالجة أمراض النفس باختلافها وتنوعها، فقد دل عليها الشارع الحكيم، وأمر بها، حيث كانت أفضل أسس الوقاية من الأزمات النفسية والتمزقات الداخلية، وهذا قمة الإعجاز، إعجاز القرآن في العناية بالنفس الإنسانية.

تكمن عناية القرآن بالنفس الإنسانيةأنها السبيل الوحيد لمعرفة الله فمتى عرف الإنسان أسرار نفسه عرف بالتالي ربه وخالق هده النفس وفي هذا المعنى قال ﷺ: «مَنْ عَرَّفَ نَفْسَهُ لِرَبِّهِ عَرَّفَ رَبَّهُ لِنَفْسِهِ»[4]، ولن يتم ذلك إلا بادراك سنن الله التي تحكم النفس الإنسانيةوفقهها فقها أساسه ما جاء عن الوحي من نصوص شرعيةلهذا فقد عني القرآن الكريم بالنفس الإنسانية عناية تامة، فلم يترك زاوية ولا جانبا إلا تعرض له، فتناول نفوس الناس وقلوبهم، إذ كانت مكمن سر قوة الإنسان، فبدأ بها

---

[1]- ناهد عبد العال الخراشي، **أثر القرآن في الأمن النفسي**، دار الكتاب الحديث، ط 1(1423هـ-2003م)، ص: 32، نقلا عن عبد الله علي عبد الرحمن أبو السعود، (**الإعجاز النفسي في القرآن الكريم (دراسة تأصيلية)**، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2005م)، ص: 178.

[2]- الريبة: قلق النفس واضطرابها، ينظر: الزمخشري، **الكشاف**، 1/ 34.

[3]- ينظر: رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 352.

[4]- الزركشي محمد بن عبد الله بن بهادر، **اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة**، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت)،33/1، وأبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتب العلمية، (دط)، (1409هـ)، 208/10 .

الإصلاح وإليها انتهي، فكانت عناية القرآن بشمولها واستيعابها ما يمنح الإنسان معرفة صحيحة بالنفس، وقاية وعلاجا، دون حساب طاقة أخرى، وهذا وجه الإعجاز والروعة[1].

لقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة التأثير المذهل للقرآن الكريم على الصحة النفسية، وفيما يلي بعض النماذج لهذه الدراسات، ننقلها ونقارنها، ببيان علاج القرآن للنفس البشرية المضطربة، وغير المتوازنة.كما "ينظر العلاج النفسي الديني من منظور إسلامي للصحة النفسية والاضطراب النفسي على أساس التوازن بين المطالب الجسدية والمطالب الروحية،فإذا حدث اختلال في هذا التوازن يؤدي ذلك إلى ظهور الاضطراب النفسي لذلك فهو يعتبر الصلاة والذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم والاعتدلالفي الأكل والشرب والنوم ...مصدر للصحة النفسية للإنسان"[2]. ولبيان وجه الإعجاز القرآني السنني في علاج النفس المضطربة نذكر بعض ما قاله علم النفس الحديث في فائدة الإيمان كعلاج لامراض واضطرابات النفس.

أ- العلاج النفسي المعرفي: من الاتجاهات الحديثة في العلاج[3] النفسي ما بات يعرف بالعلاج المعرفي السلوكي الديني Religious Cognitiv Behavioral Therapy (RCBT) وتقوم فلسفته على استخدام الأفكار والنصوص الدينية، قال تعالى:﴿فَمَنِ إِتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123]. وهذا هو العلاج النفسي الإسلامي الذي يقدمه الإسلام لأتباعه، يقوم على الأخذ بسنن الله التشريعية، سنن الأمر والنهي، عن طريق إرساء قواعد الإيمان وأركانه لترسيخها داخل النفس الإنسانية"، إنه علاج إيماني، أي يعتمد على ترسيخ دعائم الإيمان في نفس الفرد وللإيمان قيمة علاجية عظيمة وقيمة وقائية تجعل المؤمن يشعر بالأمن والأطمئنان والاستقرار والهدوء والسكينة"[4].

ب- العلاج بالمعنى Logotherapy: تبنى هذا العلاج[5] فيكتور فرانكل في ألمانيا، ومفاده أن الإيمان ومقتضياته من أهم المعاني التي تمنح للإنسان وقاية من الأمراض النفسية، فكلما كان للإنسان

---

[1]- ينظر: ناهد الخراشي، **أثر القرآن في الأمن النفسي**، دار الكتاب الحديث،ص: 19.

[2]- بوعود أسماء، (**برنامج علاجي معرفي سلوكي ديني مقترح للتكفل باضطراب القلق العام لدى طلبة الجامعة**)، (مجلة تنمية الموارد البشرية، العدد 10، جامعة سطيف 2)، ص:243.

[3]- فكرة العلاج المعرفي: فكرة قديمة قدم التفكير العقلاني الإنساني، هو ممارسة تهدف إلى إضفاء معنى، وهو أيضا علاج عند الاقتضاء، حل المشاكل النفسية للأفراد، والتي تظهر مثل الاكتئاب والقلق أو اضطرابات سلوكية، ويعود الطابع المركزي لهذه الممارسة إلى العلاقة بين المعالِج النفسي والمعالَج، لإسقاط اضطراباته النفسية، أي ما يطلق عليه بالتحويل. ينظر: إسماعيل علوي وبنعيسي زغبوش، **العلاج النفسي المعرفي**، عمان، الأردن، جدارا للكتاب العالمي، ط 1(1429هـ-2009م)، ص: 3.

[4]- عبد الرحمن عيسوي، **الإسلام والعلاج النفسي الحديث**،بيروت، دار النهضة العربية، (د،ط،ت)، ص:65.

[5]- العلاج بالمعنى: مدرسة علاجية وجودية تتكامل مع التطبيق، ويلعب فيها المعنى دورا رئيسيا في اعطاء قيمة حقيقية لحياة الناس، وهو أكثر من مجرد تحليل بمعنى أنه علاج تفاؤليا لانه يجعل المريض يرى كيف يمكنه الشعور باليأس إلى إحساس بالإنتصار، وهو علاج واقعي في مواجهة=

معنى وهدف وغاية يسعى لتحقيقها في حياته كان أقل عرضة للأمراض النفسية،و الإيمان وحده كفيل لإعطاء للحياة معنى وقيمة والاسلام دين يدعو إلى الإيجابية والتفاؤل"فالإسلام يربي المسلم على نصرة الحق ة إغاثة الملهوف والسماحة وإنذار المعسر والحلم والوفاء بالعهود وطلاقة الوجه والتمسك بالأدب العامة والنظافة وما إلى ذلك من السمات والخصال الحميدة والفضائل الخلقية"[1]، ولا شك أن من كانت هذه أخلاقه فقد حقق المعنى الحقيقي للحياة،كما يستطيع بعقيدتة التي رسخها الإيمان وثبت دعائمها فهم حقيقة وجوده ومصيره.

وفي هذا الصدد نجد القرآن يجيب عن الأسئلة الكونية الفلسفية الكبرى للوجود مثل (من أين؟ وإلى أين؟...)، ويعطى الجواب الكافي و الشافي للإنسان، مما يكون الأثر العظيم في الاستقرار النفسي تحت مطارق الضغوط والشدائد.

بتحليل أطروحات العالم فيكتور فرانكل الألماني حول وسائل تحقيق الصحة النفسية، التي أطلق عليها اسم العلاج بالمعنى (Logotherapy)، نتوصل إلى الوسيلة الثانية التي أرشد إليها القرآن الكريم، ودفع الإنسان إلى البحث عن كنهها بإثارة عقله عن طريق دعوته، وأمره بالتدبر والتفكر وإعمال عقله، لتثبيت عقيدته المضطربة، بوسيلة تخاطب العقل وتثير الوجدان، هي وسيلة إثارة العقل، لغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفسه، وذلك لما لها من أثر عظيم في تحقيق الأمن والاستقرار النفسي، فإنه يُحتاج إليه للفوز بالسعادة والطمأنينة النفسية المحققة للحياة الطيبة، حيث لا تتحقق إلا بإمكانية فهم حقيقة "الوجود والمصير"، إذ ما فتئت تقلق وتكدر صفاء النفس البشرية التواقة للفهم الصحيح، الباحثة عن الإجابة عن الأسئلة المؤرقة للراحة النفسية، ومنها: من أكون؟ ومن أين جئت؟ وما وظيفتي في ذي الحياة؟ ما مصيري بعد الموت؟ ... فمتى حاول الإجابة عنها بعيداً عن نصوص الوحيين القرآن والسنة، سقط في دوامة الاضطراب والقلق، وحاصرته الشكوك، وأثقلت كاهله الفلسفات، وتخبط في وحل الأفكار المنحرفة الهدامة، وذاق مرارة المعيشة الضنك، قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[طه: 124]؛وكانت وسيلة القرآن الثانية لتنعم النفس الإنسانية بالاستقرار والتوازن.

الثالوث المأساوي للوجود الإنساني (الألم- الإنسان- الإثم)، تحقيق المعنى في الحياة، وتوظيف هذا المعنى لخدمة الصحة النفسية. ينظر: فيكتور إيميل فرانكل، **إرادة المعنى أسس وتطبيقات العلاج بالمعنى**، تر: إيمان فوزي تربية عين شمس، القاهرة، دار زهراء الشرق، ص : 2- 4- 8.

[1]- عبد الرحمن عيسوي، **الإسلام والعلاج النفسي الحديث**، ص:75.

ثانيا: الفهم الصحيح للوجود والمصير

ونعني به الفهم الدقيق، حيث يقر أكثر علماء النفس أن الأمراض النفسية منشأها المعاناة الوجودية، التي تؤرق عقول الحائرين في فهم معاني الثالوث الغامض (الحياة – الموت – المصير)، وهذه الحيرة المَرَضية نشأت بسبب الغفلة والتنكب عن فقه سنن الله في خلقه، حيث إن الوجود المادي والبشري خاضع لها، ولا يستطيع الإنسان فهم سير وجوده، أو تحقيقَ دوره الاستخلافي في هذه الحياة الدنيا، ومن ثَمَّ يتمكن الفوز بالمصير الذي ارتضاه له خالق السنن ومجريها، الخلودِ في النعيم الأبدي، ما لم يفهمها حق فهمها. إذن فلولا وجود سنن الهداية ما استقامت النفس الإنسانية، ولما نعمت بالراحة والصحة النفسية بعيداً عن التمزقات الداخلية، يقول الرافعي الأديب: "يزعمون أننا في عصر العلم، وفي دهر القانون، ويريدون أن يسلبوا الناس إيمانهم، كأن الإيمان هو مشكلة الإنسانية، مع أنه لا حل لمشكلاتها إلا به، إن مسألة الغنى والفقر، وما كان من بابهما لا يحلها العلم ولا القانون؛ إذ هي من مواد القضاء والقدر في إنشاء البلاء والأحزان وأضدادهما التي تقابلهما، وما كان فوق الإنسانية من السماء قوة لا تحد، وتحت الإنسانية من القبر هوة لا تسد، فلا نظام إلا على تصريف النفس أمراً ونهياً، وتأويل الحياة معنى وغاية، فإن لم يكن الشأن في ذلك مقرراً في الغريزة على جهة الإيمان، فلن يكون العلم والقانون على ظاهر النفس إلا ثورة بما في باطنهما، ولن يبرح الناس على ذلك بعضهم من بعض كالهارب منه وهو مضطر إليه، أو كالمضطر إليه وهو هارب منه، وكل في كل معنى من معاني النفس لا إنسانية فيه"[1].

ويتابع في إبداعٍ فكرته بنقاء عقيدته، ليوضح سبيل الفهم الوجودي الوحيد للحفاظ على استقرار النفس وتوازنها، فيقول: "ما زاد العلماء على أن خلقوا في ساعدَي الحياةِ العضلةَ البخارية، وذلك العصبَ الكهربائي، فمن لم يستطع أن يتوقى ضربة الحياة المدنية بعُدَّةٍ من قوة، وعتاد من المال، طاحت به فدكَّتْه دكّ الخسف، ووضعته من الناس موضع الحبة من الرَّحى الدائرة، فما بينه وبين أن ينهار موضعٌ يستمسك عليه، وإنما هذا الموضع هو إيمان المؤمن إذ يعطف على الضعفاء، أو يسعد أو يبرُّ بما كُتِب عليه أن يرقَّ لهم من ذات نفسه، وينحني ويتوجع،... ومتى كان العلم والدين يقومان جميعاً على تنظيم الطبيعة في مادتهما وإنسانيتهما، لم تجر الإنسانية إلا على بقاء الأصلح في الجهتين، فإذا تخلى بها العلم وحده، فلن تجري إلا على ناموس بقاء الأصلح في ظاهرها، لإيجاد الأفسد في باطنها"[2].

---

[1]- مصطفى صادق الرافعي، **كتاب المساكين**، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط2 (د،ت)، ص: 22-23.

[2]- نفسه، ص:23.

فكلام الرافعي يؤكد أن لا سبيل للفوز بالحياة الطيبة إلا بتحقيق التوازن بين الأخذ بسنن الوجود المادي، وسنن الوجود البشري، فترجمته للفهم الحقيقي للوجود صاغه بالإيمان، وكل مقتضيات الإيمان، من العطف على الضعفاء، والبر بهم، والإحسان إليهِم، وفهمُ الحياة لا يكون إلا مناصفة بين العلم والدين، فلا تستقيم الحياة بدون قوانين العلم، ولا تنتظم حياة البشر وتحقق إنسانيتهم إلا باتباع أوامر الدين، فهذه الثنائية تضمن للإنسانية الصلاح والإصلاح والبقاء والتمكين وفق ناموس رباني عادل، ومن أخذ بسنن العلم وسنن الدين جميعا اطمأنت نفسه إلى مصير الفوز والفلاح في الدارين، وحق له الخلود في النعيم الأبدي، والغرف في جنة الروضات داره.

يقول الأستاذ محمود شاكر: "ما الحياة؟ ما الإنسان؟ ما العقل؟ ما الحضارة؟ إلى أين نسير؟ كيف نعمل؟ لماذا نعيش؟ فيم نتعب؟ تبا لكل هذه الضلالات الداجية التي لا يبرق فيها نجم واحد، يقول للإنسان: اتبعني سوف تهتدي!!"[1]. فالأستاذ لا يتساءل بنفسه بل يثير للإنسان التائه عن سنن الوحي جملة من الاسئلة تحاول الدراسة الجواب عليها.

إننا لنجيب مع الأستاذ شاكر، مطمئنين بمصدر الإجابة، ولن تكون كجواب "الطلاسم" لست أدري! لست أدري! ... وإنما عقيدة إسلامية مبنية على الإيمان الجازم بوجود الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فهي المعين على الإجابة، التي تُعَرف الإنسان الحائر حقيقة وجوده ومصيره.

العقيدة التي تحُل لغز الوجود، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت، وتجيب عن أسئلته الخالدة، العقيدة الصافية من كل كدر، بها بعث الأنبياء جميعا، وبها نزلت الكتب قاطبة[2]، إذ كان للسكينة مصدر واحد لا غير، هو الإيمان بالله واليوم الآخر[3].

إذن؛ فالنظرة السامية للوجود الإنساني، والفهم الحقيقي، والصحيح للمصير قام على مسألة السنن الإلهية العادلة القائمة على الجزاء الإلهي وفق العمل الإنساني (سنة الجزاء من جنس العمل).

يقول الإمام ابن القيم: "في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدقُ معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقةُ الصبر على ذلك

---

[1]- محمود محمد شاكر، ويلك آمن..، (**جمهرة مقالات الاستاذ محمود شاكر**)، (القاهرة، مكتبة الخانجي، مجلة الرسالة، العدد 365، ط3(2003م))، 1940/07/1م).

[2]- ينظر: يوسف القرضاوي، **الإيمان والحياة**، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ط 4(1399هـ- 1979م)،ص: 24.

[3]-نفسه، ص: 94.

إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبت والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبد"[1].

وضع الإمام ابن القيم منهجا كاملا متكاملا يفهم به الإنسان حقيقة وجوده، وسر مصيره، بهذه القبسات النورانية المجلية لظلمات وقصور الفلسفات الوضعية، والأيدلوجيات المادية المعاصرة، التي أخفقت من كل النواحي، في توفير أجوبة مقنعة يهتدي بها الحيران، ويسكن إليها الخائف، ويطمئن بها القلِق، ويتسلى بها الحزين ويعرف بها الجاهل مصيره.

يقول سيد قطب إن الحياة مقطوعة الصلة بالله، وبرحمته الواسعة، ضنك لا يرفعه ما فيها من سعة ومتاع، متى انقطع الإنسان عن الاتصال بالله، وهجر الاطمئنان إلى حماه، فيمتلئ قلبه بالحيرة والقلق، ويعمه الحرص والحذر، فهو لا يعيش الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي إلا في قربه من ربه، ولا ينعم بالراحة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها،... إن الإيمان منبع الثقة في الحياة يعيشها المؤمن طولا وعرضاوعمقا وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان[2].

يرى سيد قطب أن المعيشة الضنك سببها الإعراض عن ذكر الله، والانقطاع عن الاتصال به سبحانه وتعالى، وهو بذلك يقرر أن تقوية الصلة بالله –الوسيلة الأولى التي تعرضت لها الدراسة في تحقيق الصحة النفسية–، هي السبيل الأول الموصل إلى الفهم الصحيح للوجود والمصير، وهذا من عظمة القرآن وعظمة الشريعة الإسلامية، ووجه من وجوه الإعجاز القرآني، المتمثل في تكامل وتناسق كل آيات القرآن، وأحكام الدين الحنيف، وهذا ما يرفع الذكر الحكيم رايته عالية، خفاقة في سماء الحقيقة والمعرفة، راية تأمر بضرورة التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: 82].

فالقرآن الكريم يتمتع بوحدة موضوعية بين سوره، وبين آياته وأحكامه وشرائعه وأوامره ونواهيه، بحيث يشكل لحمة واحدة متكاملة، لا تناقض ولا اختلاف بين أعضائها، ومن طرائق القرآن ووسائله المتنوعة المتعددة في تحقيق الصحة النفسية، من ما له علاقة وثيقة بوسائل القرآن الكريم في تثبيت العقيدة الإسلامية، وغرسها في النفس الإنسانية، وسيلة رسم الصور المحببة للمؤمنين، التي تعتبر من وسائل الترغيب، ليستقيم سلوك الإنسان تجاه الله، ويثبت على العقيدة الصحيحة، وذلك بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا، وبيان صفاتهم النبيلة بصورة مغرية ومحببة للنفس، والتذكير بما ينتظرهم من أجر وثواب عظيم ونعيم في الجنة، للترغيب في اتباع صفاتهم، والفوز معهم بالنعيم الأبدي، ونلاحظ بوضوح أن لهذه

---

[1]– ابن القيم، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تح: محمد حامد الفقي، الرياض، المملكة العربية السعودية، مكتبة المعارف، 71/1 .

[2]–ينظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2355/6 .

الوسيلة صلة وثيقة بالنفس الإنسانية، لأن المؤمنين يتمتعون بالراحة النفسية إضافة إلى مصيرهم في الآخرة إلى النعيم المقيم، ونكتفي بما ذكرنا، ونأتي على وسيلة أخرى للفوز بالصحة النفسية، هي:

ثالثا: التزكية والأخلاق

التزكية لها معنى التطهير والزيادة،و قيل إن الزكاة صفوة الشيء تطهره [1]، وعلى هذا المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي لتزكية النفوس، فتزكية النفس تطهيرها من كل ما يدنسها، قال صاحب الظلال: "التزكي: التطهر من كل رجس ودنس"[2].

وتزكية النفس لا تكون إلا بالاتصاف بالأخلاق النبيلة الحسنة، التي تسمو بالإنسان إلى عليا المراتب، فيستحق بذلك المدح والثناء، لما للأخلاق الكريمة من عظيم الأثر في رقي الأمم، ولما يضادها من أثر في اندحارها، والتاريخ خير شاهد، فيوم مكن الله لأمة خاتم النبيين النصر والشهود، كان للأخلاق الحسنة دور أساسي بارز قبل السيوف المسلولة، وهذا بشهادة الأعداء، وهذه الأخلاق صقلها الإسلام، وهذبها الدين والإيمان، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: 164]، وقال عز قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[الجمعة: 02].

ولقد حرص الرسول ﷺ طيلة حياته على تعليم الصحابة –رضوان الله عليهم –مكارم الأخلاق، والتأكيد عليها من خلال تعامله، مع العدو قبل الصديق، وفي الحرب قبل السلم، فسنّ لهم بذلك منهجا، رايته "بعثت لأتمم حسن الأخلاق"[3]، بإقرار رباني عظيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، إذن فمن كمال الإيمان حسن الأخلاق، ونتيجة حسن الأخلاق التنعم بصحة نفسية واستقرار باطني، ومصالحة مع النفس والذات، وهذا ما حرص عليه الإسلام وحث عليه القرآن؛ إصلاح الأخلاق، وتهذيب السلوك لتزكى النفوس، وتحظى بالتوازن، لأن صاحب الأخلاق الفاضلة يكون محبوبا في مجتمعه مرغوباً للصحبة، ممدوح السيرة، وكل هذه الامتيازات، لا تأتي إلا بنتيجة حتمية لسكينة النفس، التي بشر بها القرآن المؤمنين فالله تعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[الفتح: 04].

---

[1]- ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، 14/ 14.

[2]- ينظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 6/ 3893.

[3]- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، **موطأ الإمام مالك**، تح: بشار عواد معروف، محمود خليل، كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق، [1885]، مؤسسة الرسالة،(د،ط،ت)،75/2 .

ثم يكرر القرآن ليؤكد مرة ثانية أن من لوازم الإيمان سكينة النفس، وهي من سمات المؤمن ما فاز بها محاباةً، ولكن باهتدائه لسنن الله التي سنها لعباده، ليصلوا إلى التوافق بينهم وبين أنفسهم، فينعموا براحة البال وهدوء النفس، المحقق لسبل الفوز والفلاح، الموصلة إلى الحياة الطبية، ومن سنن الله التي فطر نفس الإنسان عليها، التطلع إلى الأخلاق الحميدة النبيلة، التي أمر القرآن الإنسان بضرورة التحلي بها مثل الصدق، والعفو، والإحسان؛ والصبر، والتعاون والتكافل الاجتماعي وغيرها كثير.

"فالسعيد من أنست نَفسه بالفضائل والطاعات، ونفرت من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نَفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الْفَضَائِل والطاعات"[1].

وليس هاهنا إلا مجاراة السنن الإلهية في النفس البشرية طلبا للسعادة بالحياة الطيبة، ومجانبة الشقاء والمعيشة الضنك، فكان لابد من بيان مدى تأثير هذه الأخلاق الحسنة على نفس الإنسان، وكيف تحصنه ضد الاضطرابات والأسقام النفسية، حتى يسلم من الشذوذ في القول والفعل.

وفي ما يلي عرض لبعض الأخلاق، ببيان أثرها في النفس الإنسانية، بمراعاة الصدق، كون جل الأمراض النفسية ناشئة من الكذب، فالذي اعتاد الكذب على الناس، يألف الكذب حتى على نفسه؛ فتجده عرضة لشتى أمراض النفس وعللها.

1-**الصدق**: نقيض الكذب[2] وهو قول الحق في مواطن الهلاك، بمطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم[3].

ولا يخفى ما للصدق من أثر عظيم في استواء النفس واستقرارها، فهو سبيل النجاة من خزي الدنيا، والصادق أبعد الناس عن آفات اللسان من كذب ودجل، وقول زور، وباطل أيا كانت نتيجته، فبذلك وحده يتمتع بشخصية قوية، وإرادة سوية ليست متذبذبة، فيؤثر بكلامه وصدقه وحرارة عاطفته في السامع والمتلقي، ويكسب بذلك الثقة والطمأنينة والراحة النفسية والأنس، ويركن إليه الناس، وتألفه القلوب وتميل إليه، وتجتمع عليه المحبة والمودة من أفراد المجتمع، ويحظى بالقبول، ومتى حصل هذا التواصل قويت الوشائج بينه وبين الناس، وهي نعمة لا تقدر بثمن، ولن تحصل إلا باتباع سنن الله، المحققة للسكينة والطمأنينة والصحة النفسية، سنن الخلق الحسن.

---

[1]- القرطبي ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي الظاهري، **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 2 (1399هـ - 1979م)، 1/ 18.

[2]- ابن منظور، **لسان العرب**، 10/ 193.

[3]- الجرجاني، **التعريفات**، 1/ 132- 511.

قال تعالى عن إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾[مريم: 54]، وقال عز وجل عن إدريس عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾[مريم: 56]، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[التوبة: 119].

2- **العفو**: هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه[1]. قال رسول الله ﷺ: «وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا »[2]، ويعد العفو من أهم ما حضّ عليه الإسلام في تعامل المسلمين فيما بينهم، ومن كان هذا خلقه صحت نفسه، وسلم صدره من الضيق، وخلا من التشفي والغل والغلظة، والعفو يورث العزة، التي يسعى إليها كل إنسان سوي السلوك متوازن الطبع، والعفو يطفئ نار الخصومة الجالبة للانتقام المفضية للثأر، حيث يعتبر الانتقام والثأر من أمراض النفس وهواجسها الخطيرة، فهو كالنار التي تأكل بعضها، فكيف تكون نفسية من هذا حاله!؟ سيشعر حتما بالاستياء وبمزاج سلبي، وقد أظهرت الأبحاث أن الانتقام تجربة سلبية تماما، وأن الباحثين عن الثأر لا يجنون إلا متعة لحظية فقط، حيث يشعر المرء بالراحة في لحظة الانتقام،ليعود بعدها إلى حالة من الفراغ خطيرة وربما الندم.

وإذا كان الانتقام يدمر العلاقات الاجتماعية، فإن العفو يوطد العلاقات وينشر المحبة، ويزيد صاحبه عزة ورفعة، فإقالة العثرة وكظم الغيظ، وقبول الاعتذار، والصفح والتسامح، سمات المؤمن سوي النفس كريم الخلق، سليم الفطرة، والعفو أمارة من أمارات القائد الناجح، وهو قمة الشجاعة، مع تمام الرفق واللين، وطيب النفس، فالعفو وَصْفةٌ سحرية لسلامة الصدر من شوائب الغل وآفات أمراض القلوب، كالشحناء والبغضاء، يقضي على العداوة المؤدية إلى الجرائم، فهو من فضائل الأخلاق، وأصولها المجموعة في قوله تعالى:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[الأعراف: 199].

3- **الإحسان**: ضد الاساءة، والحسنة ضد السيئة[3]؛ هو فعل ما ينفع غيره بحيث يصير الغير حسنا به[4].

---

[1]- ابن منظور، **لسان العرب**، المصدر السابق، 15/ 72.

[2]- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، [2588]، 2001/4.

[3]- الزبيدي، **تاج العروس**، 34/ 422.

[4]- الكفوي، **الكليات**، 1/ 53.

ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها في كلمة واحدة، هي قوله في الإحسان «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[1]، فهو أصل ومنبع كل الأخلاق الحسنة، التي حضّ عليه القرآن، إذا باشر القلب منعه من المعاصي[2].

والإحسان أوسع أبواب الخير والبر، إذ يشمل كل ما ندب إليه الإسلام من أمور مادية ومعنوية لتحقيق الصحة النفسية، وتنمية وتقوية العلاقات بين البشر عامة، وتوطيد الروابط الأخوية بين المسلمين خاصة، فهو عبارة عن تقديم الخير للآخرين، بأسلوب عملي، كل حسب حاجته ومطلبه، فهو نفع متعد،وحسن خلق مع جميع الخلق، فإسداء النصيحة إحسان، وكف الأذى إحسان، ونصرة المظلوم إحسان، وقضاء حاجات الفقراء والمساكين إحسان، وتفريج هم المكروبين، وإغاثة الملهوفين، وقضاء الدين عن المدينين، والرحمة والرأفة بعباد الرحمن أبلغ طرق الإحسان وأنفعها وأوصلها إلى حب الرحمن، لأن الله تعالى شأنُه أمر بالإحسان، وكتبه على كل شيء، ولا نستطيع إعطاء خُلق الإحسان قدره من المدح أو البيان، لذلك نعرج على بعض آثاره على تحقيق الأمن والاستقرار النفسي.

فنقول إنه يورث محبة صاحبه المتحلي به، وهذا أمر فطر عليه البشر، فالإنسان يحب من قدم له معروفا، وأحسن إليه عند الحاجة، وقد تقدم بيان ذلك عند الحديث عن التزكية والأخلاق، وفي هذا الشأن يقول ابن قدامة المقدسي: "إن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه، وانتدب لنصرته وقمعِ أعدائِه، وأعانه على جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محالة"[3].

ولا شك أن محبة الناس تحقق التوازن النفسي، والمحسن يميل إليه كثير من الخلق، وإن لم يصل إحسانه إليهم، ذلك أنه عُرِف بخلق الإحسان، لذلك فهو يتمتع بمستوى اجتماعي قوي، يجعله في منأى عن الوحدة، والتهميش، والعزلة المسببة للاضطرابات النفسية.

والمحسن عرف عظمة الله جيدا، ذلك أن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه، فهو يستشعر رقابة الله له، في السر والعلن، ما يجعله يخشى معصيته خوفا من عذابه، فيرتبط قلبه بخالقه، الذي بدأه بكل أنواع الإحسان، ما يقوي صلته بربه، وهي من أنجع الطرق والوسائل في تحقيق الصحة النفسية،

---

[1]- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تح: محمد عبد السلام إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(د، ت)، 4/ 156، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، الباب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان وعلم الساعة، [50]، 19/1.

[2]- ابن القيم، **الجواب القاضي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء**، المغرب، دار المعرفة، ط 1(1418هـ- 1997م)، 1/ 71.

[3]- بن قدامة المقدسي نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن ، **مختصر منهاج القاصدين**، قدم له الأستاذ محمد أحمد دهمان، دمشق، مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ، (1398 هـ - 1978 م)، 339/1.

"وإذا عرف الإنسان حق المعرفة، علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط، وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر"[1]، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم: 34].

وخذ هذا الترياق من صيدلية القرآن علاجا لأمراض النفس العضال؛ فالإحسان خلق نبيل دليل على صفاء النفس ونقاء السريرة، واعتراف بالفضل وعلامة على الوفاء، وسخاء ينشر الحب والمودة، وينمي العلاقات ويوطدها، ويشتري النفوس، وتكسب به القلوب، ويهيمن على الروح، وبه تستعبد الأفئدة، والإحسان نور وبصيرة يضيء الدروب، به تحقق الآمال، فهو عطاء بلا حدود في شتى مجالات الحياة الدنيا، ومحطاتها، ناهيك عن مواقف الآخرة، ومقاماتها.

المطلب الثالث: سنن الهداية

من البدهي والمسلم به أن هذا الكون، بما فيه ومن فيه من عوالم (إنسان، حيوان، نبات، جماد)، خاضع لسنن وقوانين إلهية تحكمها، لحصول الانسجام والاتساق بين هذه العوالم، باختلاف أصل خلقتها، ولأن الإنسان سيد هذه المخلوقات وأفضلها، بما فضله الله وكرمه به من عقل ، وبمقتضى هذا التكريم الإلهي لهذا المخلوق، فقد سّن له قوانين وأحكام، وشرائع تنظم حياته، وتجلب له المصالح، وتدفع عنه المفاسد، فبالإضافة إلى السنن الكونية، فقد سن للنفس الإنسانية سننا تصلحها، ومن ذلك سنن الهداية، التي تشمل كل ما جاء به الوحي، من أحكام، وشرائع، وعقائد، وقصص، وأخلاق، وقيم، ومبادئ، وغيرها من ما نص وحضا عليه الوحي[2]، وقد اقتصرت هذه الدراسة على سنن الأمر والنهي، وليس ذلك تقصيرا، ولكن تجنبا للإطناب والحشو المّل الذي لا طائل تحته.

وسنن الأمر والنهي هي جملة التكاليف الشرعية التي خاطب بها المولى عز وجل عباده المكلفين، للفعل أو الترك، "فتكون بهذا المعنى التكاليف الشرعية، والأوامر والزواجر الإلهية، سننا إلهية كونية بمعنى ما، وليست فقط سننا شرعية"[3].

يصف صاحب المقال المعنون بـ"السنن الإلهية في الكون المادي والحياة البشرية"، التكاليف الشرعية بالسنن الكونية، وهو صائب في رأيه هذا، وأوافقه وأشاطره الرأي، وهذا لتكامل السنن الإلهية فيما بينها، فلا يتصور وجود سنن كونية دون وجود سنن خاصة بالنفس الإنسانية، أو بمنأى عن السنن

---

[1]- بن قدامة، **مختصر منهاج القاصدين**،1/ 339.

[2]- ويبين هذا الأمر سعيد شهوان في كتابه السنن الربانية في التصور الإسلامي في معرض الكلام عن السنن التشريعية حيث يقول: "وسميت السنن بالتشريعية من باب التغليب اللفظي، أو بالمعنى العام للشريعة، وإلا فتدخل فيها العقيدة من باب أولى، لأن العقيدة أساس البناء التشريعي حيث لا يتصور في الإسلام شرع عملي إلا على أساس عقدي"؛ ينظر: سعيد شهوان، **السنن الربانية**، 1/ 96.

[3]- يونسملال، (**السنن الإلهية في الكون المادي والحياة البشرية**)، (دراسة قرآنية تأصيلية في المفهوم والموضوع،مجلة الحقيقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة أدرار،العدد 11)، ص: 279.

التاريخية، والسنن التشريعية، أو التكليفية أو سنن الهداية والوحي، فكلها مسميات للقوانين والقواعد والأصول، وكانت مدار دعوات الأنبياء والرسل، وتمثل منظومة متكاملة شاملة، تحقق سّر الوجود الإنساني البشري، وتترجم لمعنى الاستخلاف – الأمانة – التي كلف بها الله الخليقة.

بالقول بهذا التكامل، والتداخل بين السنن الإلهية، نصل إلى تحقيق التوازن المنشود بين المادة والروح، وبين الحضارة المادية وعالم الأخلاق والمثل العليا، "فالمنظور الكوني المرجعي، إذا كان سننيا وشاملا ومتكاملا ومتوازن الأبعاد، ومنفتحا على كل المنظومات المعرفية السننية في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد...."[1].

وبتكامل هذه السنن الإلهية ورعايتها، والعمل بها مجتمعة دون غفلة أو تنكب عن مجموعة منها، يوصل الإنسان عامة، والمسلم خاصة، إلى مزيد من الفعالية التكاملية، كما يسميها الطيب برغوث، ويكون بذلك قد اضطلع فعلا بدور الخلافة المحققة للحياة الطيبة.

وسنن الهداية هي السنن الإلهية الوحيدة ضمن المنظومة التي تمثل المجال الواسع، الذي ترك للإنسان حريته في تنفيذ الناموس، والقانون الإلهي، المتمثل في سنن الأمر والنهي، وهذا ما سنبحثه في هذا الفرع من هذا المطلب.

الفرع الأول: سنن الأمر والنهي

لقد سبق أن تعرضت الدراسة للسنن الإلهية في الآفاق؛ أي السنن الكونية، والتي عرفها بعض العلماء بأنها أفعال الله، وفي الأنفس؛ أي سنن النفس البشرية، ونخص هذا الفرع بسنن الأمر والنهي، وهي عبارة عن أقوال الله وأوامره، كلف بها الإنسان حتى يتم الانسجام والتوافق بينه وبين عناصر الكون، وبينه وبين أخيه الإنسان.

أولا: سنن الأمر

من مقاصد الشريعة الضرورية حفظ مصالح الإنسان الأساسية في الدنيا والآخرة،ودفع المفاسد والمضار عنه في الدارين،وما كانت أن تحفظ هذه الكليات العظيمة؛كالدين والنفس والعقل والعرض والمال، لو لم تشرع سنن الأمر والنهي.

"فالسنن الكونية فعل الله، والسنن التشريعية قوله وأمره، ومحال أن يخالف قول الله فعله، بل هما متكاملان متلازمان، فلا يعلم أمر الله إلا من علم فعله، ولا نفع تام لأحدهما إلا بالعلم بالآخر"[2].

---

[1]- الطيب برغوث، **التكاملية المعرفية والحاجة إلى منظور سنني كوني متوازن**، ص: 158.

[2]- عمر حيدوسي، (**السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث**)، (رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، 1433هـ- 2012م)،ص: 279-280.

وسنن الأمر والنهي تظهر جليا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿123﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿124﴾ ﴾[طه: 123-124].

لن أتناول هاتين الآيتين بالتفسير والشرح، لأنهما تمثلان محور الدراسة ومنهما استقيت عنوان هذا البحث المتواضع، وسأفسرهما وأشرحهما -بإذن الله- في الفصل المحوري للموضوع، ولكن أرى والله أعلم أن هداية الله تمثل سنن الأمر، والإعراض عن ذكره تمثل سنن النهي.

ومن خلالهما أرى تقسيم سنن الهداية -التقسيم الذي ارتضيته في الدراسة-إلى سنن الأمر وسنن النهي، وللإفادة أكثر لابد أولا من إيراد بعض التعريفات للباحثين، والكاتبين في موضوع السنن كيف عرفوا سنن الهداية أو السنن التشريعية، وذلك في النقاط الآتية:

1- يعرفها الإمام الدهلوي بأنها: "الشَّرَائِع الْمَكْتُوبَة على بني آدم، وَتحقّق الْإِيجَاب وَالتَّحْرِيم، فَإِنَّهَا سَبَب ثَوَاب الْمُطِيع وعقاب العاصي"[1].

ما يلاحظ على تعريف الإمام الدهلوي للسنن التشريعية ربطه لها بقانون السببية، حيث رتب الجزاء والثواب للمطيع والعقاب للعاصي التارك لها.

2- تعريف إبراهيم الوزير: "أما من حيث سلوك الفرد، والأمة، والنظام الذي يجب أن يكون شريعة للفرد والأسرة والجماعة، هي القواعد والضوابط التي تضمنتها السنن التشريعية، التي جاء بها الرسل منسجمة مع سنن الفطرة وناموس الكون، مكملة لها في الجانب الاختياري الحر، مضيئة للعقل سبل الحقائق،... تجمع في فقهها وتطبيقاتها بين السنن الكونية الماضية في الكون وما فيه ومن فيه، والسنن التشريعية المادية الموضوعية أمام الاختيار الحر للإنسان"[2].

يغلب على تعريف الوزير الوحدة الموضوعية، وخصيصة التكاملية، التي تجمع بين السنن بأنواعها، دون أن يغفل عن الجانب الاختياري الحر للإنسان فيها، وبيان دورها وأثرها في إجلاء وكشف الحقائق ومنطقيتها، حيث إن العقل لا يتعارض معها، كما لمس فاعليتها في بلوغ الأمم القمة لتحقيق الشهود الحضاري.

3- وعرفها الطيب برغوث الذي اهتم بموضوع السنن الإلهية، وخصه بطرح فريد وجعل له سلسلة من الكتب تحت تسمية آفاق في الوعي السنني، فقال إن سنن الهداية "ما انبثق عن حركة الرسالات من مفاهيم عقدية، عن الوعي بـ(الدورة الوجودية) للإنسان في منشئه وطبيعته، ووظيفته ومصيره، وما يتعلق

---

[1]- ولي الله الدهلوي، **حجة الله البالغة**، 1/ 36.

[2]- إبراهيم الوزير، **دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر**، ص ص: 10-11.

بذلك كله من ثوابت وأصول في فقه التسخير والاستخلاف، لا طاقة للعقل البشري للاستقلال بالوعي به، وتمس الحاجة البشرية إليه"[1]، كما قال ابن تيمية بأن الرسل جاءت: "بمحارات العقول لا بمحالات العقول"[2] مصدقالقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر: 24].

يرى الأستاذ برغوث أن سنن الهداية هي مدار الرسالات السماوية جميعها، متمثلة في العقائد التي تفسر سر الوجود والمصير الإنساني، وأشار كذلك إلى أصول التشريعات والأحكام، حيث لا تنفك التشريعات عن العقائد، وأكد على أن استقلالية العقل في فهمها دون اللجوء إلى الوحي أمر مستحيل، كما وضح حاجة البشرية جمعاء لهذه السنن (سنن الهداية)؛ أي سنن الأمر والنهي، واستشهد بقول ابن تيمية مبينا أن ما جاء به الأنبياء والرسل من أوامر ونواه على الرغم من أن مصدرها إلهي لا دخل للعقل أو التجربة الإنسانية فيه، إلا أنها ممكنة التطبيق، سهلة التنفيذ، لموافقتها لفطرة الإنسان، وقدرته على ممارستها في حياته، بل الإنسان في حاجة إليها.

ويعرفها في كتابه "مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية" تعريفا رائعا، حيث يقول: "سنن عالم الهداية التي يشكل الكون الروحاني المفتوح على المعنى والقصد، وما وراء المادة والشكل، في علاقات الإنسان بالله والكون والحياة، وقد نظم هذا العالم بدوره بسنن وقوانين عقدية وروحية واجتماعية مطردة،... يتكفل بتلبية حاجات ما وراء أو ما بعد الفطرة والعقل العادي أو الطبيعي، والخبرةوالتجربة"[3].

تقريبا نفس الأفكار الواردة في التعريف السابق، مع إضافة أبرز فيها خصيصة الاطراد المميزة للسنن الإلهية.

4- عرف سعيد شهوان سنن الهداية، التي أطلق عليها السنن التشريعية بأنها "مجموعة القواعد التي رسمها الله لعباده، من أجل صلاحهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة، على مقتضى حكمته ومشيئته"[4]، هي إذن قواعد سنها الله لعباده، لتحقيق صلاحهم في الدارين الدنيا والآخرة، وفق مشيئة الله وحكمته النافذة، ومثل لهذه السنن التشريعية بعدة نصوص قرآنية، وبين أن لها علاقة بجميع مجالات الحياة الإنسانية؛ سواء من الناحية الاجتماعية وضرب لها مثلا من كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ

---

[1]-الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافية السننية**، ص: 161.

[2]- ابن تيمية، **مجموع الرسائل والمسائل**، 1/ 82.

[3]- الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية**، ص: 64-65.

[4]- سعيد شهوان، **السنن الربانية في التصور الإسلامي**، 1/ 96.

أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21]، قال: فهذه سنة تشريعية في انتظام قانون الحياة الاجتماعية والعلاقات الزوجية"[1].....

أو كانت اقتصادية، ومثل لها بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[الأعراف: 96]، وعلق بأنها "سنن اقتصادية تبين أثر التقوى في سعة النعمة ومدى أهمية التكامل الاجتماعي في الحياة الاقتصادية"[2].

أو تشريعية، ومثل لتعلقها بكل مجالات ونواحي حياة الإنسان، وضرب لكل مجال بنص قرآني، وختم طرحه للسنن التشريعية: بأنها لجميع الرسل، ولرسالة محمد ﷺ، تُكوّنُ بناء منسجما مع فطرة الإنسان وناموس الكون، وأن التمسك بها (السنن التشريعية) هو سبب خيرية أمة النبي الخاتم "محمد ﷺ"[3].

وبعد عرض هذه التعريفات ومناقشتها، حاولت أن أصوغ التعريف الذي سوف تعتمده الدراسة وتبنى عليه التقسيمات، وهو الآتي: **سنن الأمر والنهي: هي القوانين التي وضعها الله عز وجل، وكلف بها الإنسان من خلال خطابه في القرآن الكريم، وتشمل سنن الفعل وسنن الترك، وعلى قدر تنفيذها يفوز بالحياة الطيبة ويتجنب المعيشة الضنك في الدنيا والآخرة،وقوانين الله التي شرعها لعباده لا تخرج عن كونها أوامر، حاملة للمصالح والمنافع، أو نواه دافعة للمفاسد والمضار.**

والأصل في الأمر أن يكون لطلب الفعل على وجه الوجوب، سواء بيَّن الله لعباده وجه الخيرية والحكمة، والمصلحة في تنفيذ هذا الأمر أم لا، لذلك نجد كثيرا من الأوامر والتشريعات لا يظهر وجه المنفعة فيها، وهذا القسم ليس هو المعني في الدراسة، لأننا سوف نتعرض لبعض الأوامر الربانية التي بيّن فيها سبحانه وتعالى لعباده المصلحة في اتباعها وتنفيذها، أو العكس؛ أي النواهي الربانية التي بيّن فيها المولى سبحانه وتعالى لعباده المساوئ والمفاسد الكبيرة التي تنتج عن إتيانها، وعليه نقسمها إلى:

---

[1]- سعيد شهوان، **السنن الربانية في التصور الإسلامي**، 96/1.

[2]- نفسه، 97/1.

[3]- نفسه، 1/ 98-99.

ثانيا: سنن الأمر الجالبة للمصالح

جاء في مواضع كثيرة من كتاب الله أمر الله تعالى لعباده بأوامر، مبينا لهم ما فيها من مصالح، نحو قوله تعالى في سنة الإعداد[1]: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: 60]، فهي من سنن سياسية كبرى، ومهمة في الإعداد والجهاد، لاستمرار عزة الأمة الإسلامية[2].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر: 06]، فهذا بيان أن عداوة الشيطان عامة، اقتضى اطراد سنن الاه عدم زوالها[3].

فلعداوة الشيطان الأزلية للإنسان، جاءت سنة الله محذرة من كيده وحيله، ومكره، ليبين الله أن طاعته – أي الشيطان– واتباع حزبه وشيعته، نتيجة حتمية للخلود في النار والعياذ بالله، فتكون السنة الإلهية هنا سنة التحذير "من طاعة الشيطان".

ثالثا: سنن النهي الدافعة للمفاسد

كما بين المولى تبارك وتعالى الحكمة والمصلحة في سنن الأوامر، كذلك بين –سبحانه وتعالى– العواقب المشينة والسيئة للنواهي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[النساء: 22].

ففي الآية سنة إلهية في النهي عن نكاح نساء الآباء بعد موتهم، وإبطال فعل الجاهلية في جعلهن من جملة ما يورث، وهذه الصفات الثلاث تدل علىشدة حرمته وقبحه، حتى كان يسمى في الجاهلية نكاح المقت[4]، والآية تبيين أنه ممقوت؛ أي: مبغوض محتقر، "وساء سبيلا؛ أي: بئس طريقا طريق ذلك النكاح الذي اعتادته الجاهلية، وبئس من يسلكه"[5].

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء: 29]، سنة إلهية حكمية في التوازن في الإنفاق، تظهر عاقبة البخل والشح، كما تحذر عاقبة التبذير والإسراف، وكعادة سيد قطب في الإبداع في التفسير وإظهار التصوير الفني، يقول:

---

(1)– رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، القاهرة، دار السلام، ط 1(1438هـ– 2018م)،ص: 104.

(2)– سعيد شهوان، **السنن الربانية في التصور الإسلامي**، 1/ 9.

(3)– ينظر: رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، المرجع السابق، ص: 104.

(4)– نفسه، ص: 442.

(5)– رشيد رضا، **تفسير المنار**، 4/ 380.

"فالتعبير هنا يجري على طريقة التصوير، فيرسم البخل يداً مغلولة إلى العنق، ويرسم الإسراف يداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئا، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قعدة كقعدة الملوم المحسور"[1].

فهذه أمثلة من النصوص القرآنية التي بينت بعض سنن الأمر والنهي، وغيرها كثير، وسنن الهداية -كما سلف بيانه- تشمل التشريعات والعقائد والقصص القرآني، والأخلاق، والقيم وغيرها، وقد سماها بعض العلماء السنن التشريعية من باب التغليب اللفظي لا غير، لذا نعرض في ما يلي لبعض السنن الإلهية من قلب القصص القرآني، تحوي كثيرا من سنن الأمر والنهي، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر سنن الله في إرسال الرسل والأنبياء.

المتتبع للقصص القرآني يجده وافرا زاخرا بسنن الله في بعث الأنبياء والرسل، وسننه ماضية لا تتخلف، جارية على جميع الرسل، وقد حكى القصص القرآني من هذه السنن الإلهية الكثير، وعرض نماذج متنوعة لأنبياء مع أقوامهم، وقص حكاية الصراع الأبدي بين الشرك والتوحيد، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: 36].

في هذه الآية الكريمة تأكيد لسنة الله في بعث الرسل، وبيان الغاية العظمى من إرسال الرسل؛ وهي تبليغ رسالة التوحيد القائمة على تقرير الإيمان ودفع الكفر، ومن أصولها الأساسية وجوب عبادة الله وحده دون سواه، وفي بيان هذه السنة يقول الرازي تفسيرا لهذه الآية: "بين تعالى أن سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت،... لما كانت سنة الله تعالى في هذا المعنى سنة قديمة، في حق كل الأنبياء، وكل الأمم والملل"[2].

والأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة الطاغوت، هو محور هذا المبحث، الذي عنونت له بسنن الأمر والنهي، حيث إن الله سبحانه لا يريد لعباده الشرك، ولا يرضى لهم غير الإيمان، "وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه، على ألسنة الرسل الذين كلفوا التبليغ وحده، فقاموا به وأدوه"[3].

فالتبليغ خاضع لسنن الأمر، والاجتناب خاضع لسنن النهي، وحول سنن الأمر والنهي، كان مدار جميع الشرائع والرسالات السماوية، ومن عظيم رحمة الله بعباده أنه جعل هذه الشرائع من الأوامر والنواهي في مقدورهم، حتى لا يكلفوا بما لا طاقة لهم به، وحتى يستجيبوا لدعوة الرسل، إذهو سبحانه" لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقة من القدرة عليه، أو دفعهم قسراً إلى مخالفته"[4].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 15/ 2223.

[2]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 20/ 203.

[3]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 14/ 2170.

[4]- نفسه، 14/ 2170.

وبمقتضى قدرتهم هذه في الاستجابة وتلبية نداء التوحيد بعبادة الله وحده، جاءت سنة الله في بعث الأنبياء والرسل، ومضت السنة الإلهية في أخذ المكذبين بالعذاب، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: 36]، وبَيْن سنة بعث الأنبياء والرسل، وسنة الله في عقاب المكذبين، نستخلص سنة إلهية عظيمة تابعة بالضرورة لسنن الأمر والنهي، ومتضمنة – كتحصيل حاصل– لبعثة الرسل، وعقاب المكذبين، هي سنة الله في الهداية والضلال.

وحول هذه السنن الإلهية وغيرها، التي لا تخرج في مجملها عن سنن الأمر والنهي، أو كما يطلق عليها السنن التكليفية، أو التشريعية، سنحاول استخلاص عدة سنن، في ما تتناوله الدراسة في هذا المطلب بإذن الله.

وهذا الإصلاح في الأرض، ومدافعة الفساد فيها لا يكون إلا بمجاراة المنهج الرباني القائم على سنن الأمر والنهي، لتحقيق التمكين في الأرض، وحسن الاستخلاف فيها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿116﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿117﴾ ﴾[هود: 116-117]، فالقرآن يجعل ممارسة سنن الأمر ، والعمل بمقتضاها ودفع ما يضادهامن سنن النهي ،سببارئيسا للفوز بالحياة الطيبة.

الفرع الثاني: سنة الله في بعث الأنبياء والرسل

لما كان الأمر بتطبيق الشرائع واجبا، وفيه خير ومصلحة ومنفعة للبشرية جمعاء، كانت سنة الله جارية في بعث الأنبياء لأقوامهم، لتبليغ رسالات ربهم، والدعوة إلى عبادة الله وعدم الشرك به، "وسنة الله في بعث الأنبياء سنة مطردة، توالت على فترات متفرقة من عمر البشرية، وقد انقسم الناس في جميع العصور إلى مؤمن وكافر، ولكن الأكثرية من الأمم كذبت وجحدت، وعليه ، فقد اقترنت بسنة الله في بعث الرسل سنة إلهية أخرى، ألا وهي سنة الله في عقاب الأمم المكذبة؛ فما من نبي كذبه قومه، إلا حل بهم عذاب أليم"[1].

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء: 15]، يقول سيد قطب: "من رحمة الله عز وجل ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية المبثوثة في صفحات الوجود، ولا بعهد الفطرة الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم؛ إنما يرسل إليهم الرسل منذرين ومذكرين"[2].

---

[1]- ديانا صاحب محمد صاحب، (**السنن الإلهية في سورتي الإسراء وفاطر**) (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في أصول الدين غزة فلسطين، جامعة الخليل، 1439هـ- 2018م)، ص: 98.

[2]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 15/ 2217.

إذن فإضافةً إلى عهد وميثاق الفطرة الأول، والسنن الكونية في آفاق السماوات والأرض، يتفضل الرحمن الرحيم بوعد، وهو الذي لا يخلف وعده بأن لا يعذب حتى يبعث رسولا يبلغ وينذر، ويذكر، وهذا منتهى العدل، حتى لا تبقى للناس حجة بعد الرسل والأنبياء، "فالناموس الكوني الذي يحكم الليل والنهار، يرتبط به سعي الناس للكسب ويرتبط به وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولا، ويرتبط به سنة الله في إهلاك القرى"[1].

وكل شيء في هذا الوجود محكوم بقاعدة السنن، لا مجال للعبثية أو الصدفة، وبهذه السنة الإلهية العادلة سنة بعث الله الأنبياء والرسل، يرتبط مآل الأمم وعاقبتها من دمار وهلاك وعذاب أليم، أو تمكين وقوة، ونصر، هذا هو العدل الذي قامت عليه سنن الله في الوجود المادي والبشري.

وبالنظر لما لهذه السنة الإلهية من أهمية بالغة وعظيمة في تاريخ البشرية، وهي تواجه صراعا أزليا أبطاله الأنبياء والرسل مع أقوامهم، والهدف إنقاذ البشرية من ويلات الشرك والجهل والظلال، فقد خصها القرآن بمساحة واسعة في كتابه، حيث عرض أهم وأعظم النماذج لدعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبين عوامل وأسباب الشهود الحضاري لهذه الأقوام والأمم، وعوامل الانحسار والسقوط والهلاك ، تلخصها خطوط عريضة: أولها الاستجابة لبلاغ الأنبياء والانتهاج بالمنهج الرباني في الأخذ بسنن الأمر ومجاراتها والكف واجتناب النواهي[2].

وتجتمع وتكتمل فيما بينها لتحقق الهدف الأسمى "الإصلاح في الأرض ودفع الفساد عنها"[3]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[هود: 116-117].

والإصلاح في الأرض، ومدافعة الفساد فيها، لا يكون إلا باتباع ما جاء به الرسل، من إنذار ودعوة بالحق إلى عبادة الله وحده، وبمجاراة سنن الأمر والنهي، لتحقيق التمكين في الأرض لحسن الاستخلاف فيها.

"والقرآن حينما جعل ممارسة الإصلاح والعمل على دفع ما يضاده، قاعدة كلية ومرجعا للعوامل والأسباب الأخر التي تتألف من مجموعها السنة الإلهية"[4]. ومن منطلق الإصلاح في الأرض والعمل على تعميرها، مضت السنة الإلهية في بعث الرسل.

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 15/ 2216.

[2]- أما سنن الأمر والنهي وآثارهما في تحقيق الحياة الطيبة ومجانبة المعيشة الضنك وعواقب الإعراض عن سنن النهي، لما بينها من تناسب وتلافيا للتكرار، فسأعرض لها – بإذن الله- في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

[3]- حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، الرياض، دار الفضيلة، ط 2 (1432هـ- 2011م)، ص: 27.

[4]- حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، ص: 287.

وكان نبي الله نوح عليه السلام أول الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن أولي العزم الخمسة، بعثه الله لما عبد الناس الأصنام والطواغيت، وحادوا عن التوحيد، فهو أول رسول بعد آدم عليه السلام، خاض معركة الحق ضد الباطل، ودعا إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة دون سواه، لذلك تكررت قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه في مواضع متعددة من كتاب الله، باستخدام أساليب متنوعة بين المفصلة كما في سورة "هود"، والإشارة كما في سورة الأعراف، ويونس، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات ....، مع وجود سورة كاملة من سور القرآن تحمل اسمه، وهذه السور المختلفة تحكي لنا قصته مع قومه، وتبرز لنا سنة الله العادلة في بعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، التي تعتبر من السنن الإلهية المهمة بمكان، وذلك لما تحويه من عبر ومواعظ، نستجليها لأخذ الدروس منها، فربنا سبحانه بعث نوحا عليه السلام ليدعو قومه لعبادة الله، وينذرهم من عاقبة الشرك وعبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾[نوح: 1-4].

جاء في تفسير الطبري عن قتادة، قال: "أرسل الله المرسلين بأن يعبد الله وحده، وأن تتقى محارمه، وأن يطاع أمره"[1]، وهي الغاية التي تجمع بين دعوات جميع الرسل، وهي جوهر الإسلام ولبه، والإرسال جاء بالإنذار "أرسلناه بأن قلنا له: أنذر أي أرسلناه بالأمر"[2]، لقد أرسل الله رسله بتبليغ أوامره لأقوامهم، تجنبا لوقوع العقاب والعذاب الأليم، كعادة المرسلين في الامتثال لأوامر الوحي في وجوب الإنذار والتبليغ، "واعلم أن الله تعالى لما أمره بذلك امتثل ذلك الأمر وقال: يا قوم إني لكم نذير مبين"[3]، وينفذ نبي الله نوح عليه السلام التعاليم الربانية بأمانة وإخلاص، - التعاليم الربانية- المتمثلة في سنن الأمر والنهي، أمر بها قومه خاضعا مطيعا ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[نوح: 4]، "أن اعبدوا هو نظير أن أنذر في الوجهين، ثم إنه أمر القوم بثلاثة أشياء بعبادة الله وتقواه وطاعة نفسه، فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح، والأمر بتقواه يتناول أمرهم بطاعته وجميع المأمورات والمنهيات"[4].

---

[1]- الطبري، **جامع البيان**، 23/ 630.

[2]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 30/ 649.

[3]- نفسه، 30/ 649.

[4]- نفسه.

جاء الإنذار من نبي الله نوح ويتضمن بعض سنن الأمر كالإيمان بالله وعبادته وحده، ووجوب تقواه، وكما رأينا أن الأمر بالتقوى يتناول الزجر والكف عن المحظورات والمحرمات، وأن جزاء الإيمان بالله، التمتع بطول العمر والتعمير في الأرض مع التمكين، ذلك أن الإنسان مفطور على حب البقاء والتعمير طويلا ويكره الموت وقصر الأجل، "قضى الله مثلا أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى... وهو الوقت الأطول"[1].

وتتلازم سنة الله في إرسال الرسل، وبعث الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام-، مع سنة وقوع العذاب والعقاب الإلهي لأقوامهم المكذبين، "ولهذا السبب، كانت الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام- يتخوفون على أممهم - المستخلفة الممكنة- العقوبات والمآلات، في الوقت الذي تنفض فيه هذه الأمم – الممكنة المستخلفة- "أن تُدرج مسألة الإيمان وتحكم شريعته والاهتداء بهديه ضمن الشروط اللازمة للبقاء في الأرض، جهلا واستكبارا"[2].

الفرع الثالث: سنة الله في الجزاء والعقاب

لما غفلت الأقوام عن سنن الأمر، وتنكبت عنها، وخالفت أوامر الرسل - عليهم الصلاة والسلام- بالنذر التي كُلفوا بتبليغها لأقوامهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء: 15]، حلت عليهم سنة إلهية عادلة مطردة، وثابتة في جميع الأقوام على اختلاف الرسل والمنذرين، هي سنة الإنذار قبل الإعذار، والآية "تشير إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يهلك الأمم، ولا يبيدها تعسفا واعتباطا دون سابق هداية وإنذار، بل إنه ينبهها من غفلاتها، المرة تلو المرة، ويذكرها لما آل إليه أمر الأمم السابقة التي تمردت على الله من خراب وتدمير، حتى إذا أصرت على إهمال دعوة الرسل، وهجرتها بالمرة، ورمت بها عرض الحائط، ولم تتعظ بالإنذارات المتوالية، جاءها الحق الماحق، والعذاب الساحق من عند الله"[3].

فهذا نبي الله نوح يواصل دعوته لقومه، بضرورة توحيد الله، مظهرا خوفه عليهم -جراء كفرهم وتكذيبهم رسالته-، من وقوع العذاب الأليم بساحتهم، فهو ينذر ويبلغ وينصح لهم، من مقام أعلميته عليهم بما جاء بع عن ربه من ذكر وشرائع، فهذه الآيات الكريمة من سورة الأعراف تنبئ عن خبرهم،

---

[1]- الزمخشري، **الكشاف**، 4/ 615.

[2]- حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، ص: 290.

[3]- محمد المكي الصالحي، **التيسير في أحاديث التفسير**، لبنان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1(1405هـ- 1935م)، 2/ 167.

وتبرز سنة الله في عقاب القوم الجاحدين، وسنة الله في نصرة رسله ومن آمن معهم، فهي تزخر بمواطن العبرة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿59﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿60﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿61﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿62﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿63﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿64﴾﴾[الأعراف: 59-64].

نصت هذه الآيات الكريمة من سورة الأعراف على سنة ثابتة مطردة، يجدها كل من يقرأ التاريخ، تاريخ الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام– مع أقوامهم منذ الأزل، واضحة، بينها الله لنبيه محمد ﷺ ليبلغها لأمته، حتى لا يسومهم من العذاب والعقاب ما سام قوم نوح، وهود وغيرهم من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام–، وهنا كلام رائع لسيد قطب يعقب على مجموعة من آيات سورة الأعراف: "ها نحن أولاء في هذه السورة نلتقي بموكب الإيمان، يرفع أعلامه رسل الله الكرام: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا،... ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم – بتوجيه الله وتعليمه – إنقاذ الركب البشري من الهاوية، التي يقوده إليها الشيطان وأعوانه، من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان. كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال. وبين الحق والباطل، وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والإنس،... ثم نشهد مصارع المكذبين في نهاية كل مرحلة، ونجاة المؤمنين، بعد الإنذار والتذكير..."[1].

فبالقراءة التدبرية لهذه الآيات الكريمة نجدها زاخرة بسنن إلهية متباينة، ومنها التشريعية، التي أطلقت عليها في هذه الدراسة سنن الأمر وسنن النهي، ومن سنن الأمر الواردة:

أولا: الأمر بتوحيد الله والدعوة إلى عبادته وحده وتعالى، متمثلة في"الأوامر، والنواهي، والموعظة، والزواجر، والبشائر، والنذائر"[2]، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 65].

ثانيا: النصح للقوم أو للأمة واجب من واجبات الرسل أو المصلحين والدعاة، قال تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[الأعراف: 62].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 8/ 1304.

[2]- الزمخشري، **الكشاف**، 2/ 112.

ثالثا: الصبر والرحمة والرأفة بالقوم، ومحاولة استمالتهم لاتباع الرسالة بالموعظة والكلام الحسن، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[الأعراف: 59]، وقال أيضا: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ ﴾[الأعراف: 61].

قال القاضي عبد الجبار: "وهذه الجملة يعرف بها رفاق الأنبياء وحسن دعائهم إلى الدين، وفيها إذا تأملها المرء ما يعتبر به ويعرف آداب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام–، في الدعاء إلى الدين، وصبرهم على ما نالهم من الأمم، فيقتدى بهم"[1].

ويقول رشيد رضا: "فناداهم بصفة القومية مضافة إليه استمالة لهم، وبأنه لا يريد بهم إلا الخير"[2].

رابعا: وجوب تقوى الله للفوز برحمته تعالى ﴿لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾، "فإن الإنذار سبب للتقوى، والتقوى سبب لتعلق الرحمة، ولعلكم ترحمون بسبب التقوى"[3].

خامسا: وجوب التبليغ، مع توضيح وبيان مصدر الرسالة بأنها ربانية ﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ [الأعراف: 62].

سادسا: ضرورة الأخذ بالعلم الرباني المتمثل في الوحي لإقامة الحجة على القوم ﴿لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[الأعراف: 63].

قال صاحب تفسير المنار: "وأعلم من أمر الله وشؤونه ما لا تعلمون؛ وهو العلم بصفاته، وتعلقها، وآثارها في خلقه، وسننه في نظام هذا العالم، وما ينتهي إليه، وما بعده من أمر الآخرة والحساب والجزاء، فإذا نصحت لكم وأنذرتكم عاقبة شرككم وما اقتضته حكمته تعالى، من إنزال العذاب بكم في الدنيا إذا جحدتم وعاندتم، فإنما أنصح لكم عن علم يقين لا تعلمونه"[4].

وأما سنن النهي التي اشتملت عليها هذه الآيات فمايلي:

1- تحريم الشرك والنهي عن عبادة الأوثان يقول ابن عطية في المحرر الوجيز: "وهذه نذارة من نوح لقومه دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة وداً وسواعاً ويغوث وغيرها مما لم يشتهر"[5].

---

[1]- القاضي عبد الجبار، بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي أبو الحسين، **تنزيه القرآن عن المطاعن**، (د،ط) (1426هـ-2005م)، بيروت، دار النهضة، 1/ 149.

[2]- رشيد رضا، **تفسيرالمنار**، 435/8.

[3]- الألوسي، **روح المعاني**، 8/ 153.

[4]- رشيد رضا، **تفسيرالمنار**، 8/ 435.

[5]- ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 2/ 414.

2- النهي عن الضلال، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿60﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿61﴾﴾[الأعراف: 60-61]، نفى عن نفسه الضلال لما اتهموه به، وهذا فيه إثبات اضلالهم، "فَبَالَغَ فِي النَّفْيِ كَمَا بَالَغُوا فِي الْإِثْبَاتِ، وَفِي تَقْدِيمِ الظَّرْفِ (بِي) تَعْرِيضٌ بِضَلَالِهِمْ"[1].

3- النهي عن تكذيب الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾[الأعراف: 64]؛ أي: إنهم بعد ذلك كذبوه، ولم يعملوا بما جاء به من الإنذار، فأنجيناه والذين معه من المؤمنين به المستقرين معه في الفلك، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، واستمروا على ذلك، ولم يرجعوا إلى التوبة"[2].

تجلت هنا بوضوح سنة الله في هلاك المكذبين، يقول ابن كثير: "وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة فيها للمتقين، والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين"[3].

إذن فسنة الله في نصرة الأنبياء واتباعهم، ووقوع العذاب الدنيوي قبل الأخروي على القوم المكذبين الجاحدين، سنة إلهية ماضية، جارية، مطردة، ثابتة، مرتبطة بالإيمان وأهله، والشرك وأهله، وهذا ما نجده في قصص أنبياء الله ورسله – عليهم الصلاة والسلام-، يقول صاحب كتاب "سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم" معلقا على مصرع قوم نوح: "فلما ضللّوا سعيه، وأبوا إلا خلافه، عاقبهم الله بالأعراف، ونجَّى نوحا والذين آمنوا معه، وجعلهم الوارثين، بمقتضى سنته في الاستخلاف، والتمكين لعباده المؤمنين"[4].

كانت نهاية تكذيب قوم نوح لرسالة ودعوة نبي الله نوح – عليه السلام- الغرق، فتأمل قوله تعالى كيف يختم مصرع القوم بعد التكذيب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾[الأعراف: 64]، قال ابن عباس: "عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد، والنبوة، والمعاد، عمين عن الحق:من عمي القلب؛ أي: غير مستبصرين، قال ابن عباس: كفاراً"[5].

---

[1]-رشيد رضا، **تفسيرالمنار**، 438/8.

[2]- الشوكاني، **فتح القدير**، 2/ 246.

[3]- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 3/ 387.

[4]- حسن بن صالح الحميد، **سنن في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، ص: 291.

[5]- ينظر: الطبري، **جامع البيان**، 502/11، وينظر: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، تح: صدقي جميل، بيروت، دار الفكر، (د،ط)(1420هـ)، 5/ 84، وينظر: مجمع البحوث، **التفسير الوسيط**، 144/3.

فكانت نتيجة عمى البصيرة، والقلب، عن اتباع التوحيد، والحق، وتكذيب الإنذار وعدم الاستماع إلى الوعظ والنصح، والتذكير بعاقبة كفرهم، وشركهم، الغرق، ومصيرهم والاستئصال مآلهم، واستخلفهم الله بقوم هود فكانوا هم التالين بعد قوم نبي الله نوح – عليه السلام-، فهل اعتبروا بما وقع لقوم نوح من عذاب الغرق، لأن خبر ذلك العذاب الأليم (الطوفان) شاع واشتهر بين الأقوام؟!.

تمضي سنة الله المطردة في بعث الأنبياء والرسل، للإنذار والتبليغ، رغم عمى الأبصار والقلوب عن اتباع الحق، والاهتداء إلى سبيل الرشاد، وفقه التوحيد المطلق جوهر جميع الرسالات السماوية، بدءاً من نوح – عليه السلام-، وختاما بمحمد ﷺ، وفي ما يلي نعرض قصة نبي الله هود – عليه السلام- مع قومه عاد، حتى نخلص إلى السنن الإلهية المشتركة بين جميع دعوات الرسل إلى أقوامهم، لنصل إلى أن الصراع بين الحق والباطل، بين الإيمان والضلال، بين التوحيد والشرك، صراع أزلي.

فهذه سنة إلهية عظيمة تتمثل في إرسال كل رسول إلى قومه، بلسانهم حتى لا ينفروا منه، بحجة أنه غريب عنهم أجنبي لا يستطيعون التواصل والتفاهم معه.

وهانحن أولاء نواصل الترحال في سورة الأعراف، لنحط رحالنا أمام عاد قوم هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿65﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿66﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿67﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿68﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿69﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿70﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿71﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿72﴾ ﴾[الأعراف: 65-72].

حطت سفينة نوح بركابها الناجين من الطوفان وويلاته، ليكونوا موحدين لله يعبدونه وحده سبحانه بعدما عايشوا عاقبة المكذبين من قومهم، ولكن "لما طال عليهم الأمد، وتفرقوا في الأرض، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية، وقادهم من شهواتهم، وفي أولها شهوة الملك وشهوات المتاع، وفق الهوى لا وفق شريعة الله، عادَ قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد"[1]، فجاء الأمر بالتوحيد على لسان نبي الله هود يدعوهم إلى عبادة الله، وتحريم الشرك به، وهو لب

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 8/ 1310.

الرسالات السماوية، وأول ما تدعو إليه الرسل، إذن نفس الدعوة، ونفس الأمر، سنة جارية، وقانون عام، يطبقه جميع الأنبياء مع أقوامهم، الإنذار والتبليغ، والحث على عبادة الله وحده لا إله غيره، ويأتي التكذيب والصّد والاستنكار من الملإ، نفس الملأ الذين اتهموا نوحا بالضلال يتهمون هودا بالسفه، والكذب، نفس الدعوة (التوحيد)، ونفس الرّد (الاستنكار والإصرار على التكذيب والكفر)، تعددت دعوات الرسل، والسنة الإلهية واحدة ماضية في الأولين والتالين، على نفس المنوال (إنذار مع تبليغ= صّدا مع استنكار واستكبار)، والاتهام بالكذب، والسفه والجنون، كما قال مشركو العرب عن محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾[الصافات: 36]، ويأتي الرّد من الله سبحانه وتعالى على اتهامات المبطلين، منزها رسوله الكريم عن الجنون قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَٰحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ ﴾[التكوير: 19-22]، وقال عز من قائل: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[الأعراف: 184].

وبلحاظ التشابه بين ردود أفعا ل المشركين تجاه أنبيائهم، نستنتج رسوخ خصائص سنن الله وثباتها واطرادها، وجريانها على وتيرة واحدة رغم تغير الأقوام والأزمان، فما نادى الأنبياء والمصلحون والدعاة بكلمة التوحيد لترسيخ وتثبيت العقيدة،إلا وطفت على الساحة سنة تكذيب الرسل، ونعتهم بكل ما هو قبيح وشائن وباطل، وبأدب الأنبياء وأخلاقهم العالية، وقبل تحذيرهم بما ينتظرهم من عذاب على شاكلة قوم نوح من سبقوهم بالإعراض والتكذيب، يرّد نبي الله هود عليه السلام بمثل ما ردّ به نوح عليه السلام ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأعراف: 67]، يذكرهم أنه جاء بالرسالة والبلاغ الحق، والنصح لهم، والإنذار قبل الإعذار، وبحلم الأنبياء وصبرهم، وردهم المهذب الجميل على افتراء أقوامهم، تبرز سنة إلهية أخرى من سنن الله التي بثها في كتابه الكريم، يذكر بها وينكر حتى يثير الوجدان ويحرك المشاعر في قومه تجاه المنعم الخالق الله جل وعلا، وهذه السنة هي:"سنة الزيادة"، وهي سنة تكرر ذكرها في كتاب الله، في سور كثيرة منها سورة فاطر، وهذه آياتها، تجلت فيها هذه السنة الإلهية، قال تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[فاطر: 1]، وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ ﴾[فاطر: 29-30]، ومن الكهف قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾[الكهف: 13]، وفي سورة الفتح قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾[الفتح: 4]، ولم أتعرض لتفسير هذه الآيات المباركة، التي اشتملت على

سنة الزيادة، لأن الدراسة عنيت بسنة الزيادة الواردة في سورة الأعراف، حتى يتم لنا إحصاء بعض السنن الإلهية التي تخص سنة الله في بعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

يلاحظ المتتبع لهذه الآيات أن سنة الزيادة وردت في مقام المدح والثناء والوعد والجزاء الحسن، حيث تناولت الزيادة (في الخلق والإيمان، والهدى، والخير والطاعة...)، وذهب بعض المفسرين إلى القول بأن "هذه الزيادة مطلقة في الأشياء المستحسنة"[1].

ومثلما وردت سنة الزيادة في مقام المدح في الآيات السابقة، فهي أيضا ترد في مقام الذم والوعيد والعذاب، وكما جرت على عباد الله المؤمنين، فهي تجري على الكفار الآثمين، ومثالها في كتاب الله العزيز قوله عز وجل ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾[فاطر: 39].

أي إن من كفر بعد إنذار الرسل وإمهال الله له، وبعد التمكين له في الأرض، فهذا عليه كفره ويزيده كفره عند ربه مقتا وسخطا وكراهية، وكل هذا مدعاة للخسارة الدنيوية، ناهيك عن الأخروية، فالكفر "لا يزيد العبد عند الله إلا مقتا، ولا ينفعه في نفسه، ولا يزيده إلا خسارة،بينما من اشترى رضا الله ربح، ونجا من السخط والخسر"[2].

«فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يُمْلِي لِلْكُفَّارِ وَالمَنَافِقِينَ، وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ، وَيَزِيدُهُمْ شَرًّا إِلَى شَرِّهِمْ، وَظُلْمًا إِلَى ظُلْمِهِمْ؛ عُقُوبَةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، فَيَزِيدُوا أَسْبَابَ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لِتَكُونَ نِهَايَتُهُمْ أَلِيمَةً، وَعَاقِبَتُهُمْ وَخِيمَةً»[3].

وكأن هذه السنة؛ سنة الزيادة، تتقاطع وتتلاقى بشكل كبير مع السنة الإلهية: الإمهال، فنتيجة الكفر والمعصية وعدم الاتعاظ والاعتبار، رغم الإنذار والإمهال، أن يزيدهم الله على ما هم عليه من كفر واستكبار، حتى تتفاقم وتتزايد عليهم الذنوب والمعاصي، فتغلق الأبصار وتقفل القلوب، وتَصِمَّ الآذان عن الحق وتغفل، فيتحقق فيهم الوعيد، ويكون حينها العذاب والعقاب أمر حتميا، ونهاية أليمة.

فاللهم زيادة في كل خير وإيمان، وطاعة، وعافية، وعلم نافع، وحسن العاقبة،... وتتجسد هذه السنة الإلهية، ويتوضح مدى تعلق سنة الزيادة معها وتداخلها، بسنة الإملاء، أو الإمهال، وتؤكد أن

---

[1]- ديانا صاحب محمود الصاحب، **السنن الإلهية في سورتي الإسراء وفاطر**، ص: 15.

[2]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 26/ 244.

[3]- من سنن الله تعالى في خلقه (5) سنة الزيادة، لإبراهيم بن محمد الحقيل،

يوم التصفح 2019/01/19م https://khutabaa.com/khutabaa-section/corncr-speeches/180777

بينهما علاقة عموم وخصوص، حيث لا تكون الأولى بمنأى عن الثانية، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[آل عمران: 178].

ففي هذه الآية أن الله يملي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم[1]، والله لا يملي لهم بقصد الخير[2]، وتركه سبحانه البطش، والضرب على أيديهم بكفرهم، ولم عدم معاجلتهم بالعذاب، فذلك كله قد لايكونفيه خير لهم، وقد يكون شرا لهم، إذ كلما تأخروا عن التوبه والرجوع يوما اكتسبوا فيه إثما، وبقدر ما تطول حياتهم يعظم ذنبهم،... ويهلكون هلاكا عظيما ذا مهانة[3].

إذن فالإملاء، بطول العمر، ورغد العيش، مع الزيادة في الكفر والطغيان والإفساد في الأرض، باقتراف المعاصي، يؤدي إلى الإهلاك والاستئصال، فلا يظن بأن هذا خير.

ولا يغفل تفسير الأستاذ الإمام لهذه الآية، وتفسير سيد قطب، وقد اعتمدت كثيرا في هذا البحث على هذين التفسيرين، وذلك لحاجة الدراسة والموضوع خاصة لهذا التفسيرين، باعتبارهما خدما موضوع السنن الإلهية أحسن خدمة، لذلك نعرج عليهما معا للاستزادة والمنفعة.

يقول رشيد رضا إن الله بين لنا سنة حكيمة في كل اجتماع البشري، وهي بلوغ الإنسان الخير بعمله الحسن، ووقوعه في الضير متى قصر في العمل الصالح، وشمر في عمل السيئات، والعبرة بالخواتيم، ويشد انتباهنا أن هذا الإملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم، إنما هز سنته في خلقه، التي من مقتضاها أن يكون الإملاء للكافر زيادة لغروره، واسترساله في فجوره، فيقع بذلك في الإثم، ويحق عليه العذاب المهين[4].

استخلص الأستاذ الإمام سنة إلهية من هذه الآية الكريمة، بغية الوصول إلى رؤية القرآن الكريم للسنن، ولهذا نال شرف لقب التفسير السنني باستحقاق وجدارة، أما سيد قطب فيقول: إنه "إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء، فإنما هو الفتنة، وإنما هو الكيد المتين، وإنما هو الاستدراج البعيد"[5].

ومن خلال هذا الترحال في التفاسير نصل إلى أن سنة الله في الزيادة، تَبرُز جيدا حين يتعلق الأمر بالكفر وأهله، والنفاق وأربابه المصرين على الباطل والإثم خاصة، حين يُمَكَّنُ لهم، ويُوسَّعُ عليهم في الرزق، وتتقوى شوكتهم فيغترون بالقوة، ويفرحون بالتمكين، حتى يشكل الأمر، وتدخل الشكوك

---

[1]-الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، لبنان، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (1415 هـ - 1995 م)، 1/ 217.

[2]- الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 3/ 1893.

[3]- أبو بكر جابر الجزائري، **أيسر التفاسير**، 11/ 413.

[4]- ينظر رشيد رضا، **تفسير المنار**، 4/ 202.

[5]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 4/ 524.

والظنون إلى النفوس الضعيفة، مع طول الأمد والزيادة في الخير، الذي يعتقده المشرك خيرا، وليس غير إمهال واستدراج منه يأتيه الشر والخزي والمهانة.

فعلى المؤمن الحق أن يدرك أن ليس من سنن الله العادلة ترك الكافر الفاسق بدون نهاية الحسرة والخسران.

فهذه سنن الله العادلة الحكيمة، فمن تبع سنن الأمر، واتبع نداء الإيمان، وهدى النبوة، فإنه يزداد إيمانا وطاعة ويقيناكنتيجة زيادة العمل بسنن الأمر، وزيادة العلم بها من خلال التدبر في كتاب الله المسطور واكتشاف سننه، وفقهه تبعا لذلك وتفعيله في حياته، برعايتها لتحقيق وظيفته الاستخلافية في عمارة الأرض، وأما من تنكب سنن النهي، واختار طريق الضلال وأعرض عن آيات الله وذكره، فسيهيم على وجه في الأرض، ليلقى المعيشة الضنك.

نواصل التبحر في ثنايا قصة هود عليه السلام مع قومه، محاولين استخلاص سنة إلهية، من سنن الله في الخلق، فإذا كانت الزيادة في نعم الله وآلائه أفضل زيادة يسعى إليها العبد، فإن إسدال هذه النعم على العباد ظاهرة وباطنة، هو مبدأها وأصلها، وهذا ما يأتي في ما يلي:

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف: 69]، ويذكرهم في موضع آخر بآلائه عليهم ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾[هود: 52].

بعد أن استعرضنا بالدراسة في الفرع السابق **سنة الله في الزيادة**، نحاول الآن الحديث عن **سنة الله فيالنعم**، وجدير بالذكر هنا هو تكامل وارتباط وتداخل سنن الله؛ حيث نجد أن هذه السنة متداخلة ووثيقة الارتباط بسنة الزيادة، وهذا ما أشرنا إليه في مبحث خصائص السنن الإلهية، تحت مسمى تكاملية السنن[1].

يواصل نبي الله هود –عليه السلام– دعوة قومه، متجاهلا اتهامات قومه له بالسفاهة والكذب، بل قابلها بالحلم والعفو والصبر، والحرص والخوف على القوم من العذاب الأليم، خاصة أنهم كانوا على علم ودراية بعذاب قوم نوح قبلهم، واستعمل هود –عليه السلام– نفس أسلوب نوح –عليه السلام–، في إثارة حسهم، وتحريك مشاعرهم، بتذكيرهم بنعم الله العظيمة، محاولا النفوذ إلى أعماق أنفسهم، فذكر النعم كفيل بأن يوقظ فطرة الإيمان بداخلهم، يقول الرازي في مفاتيح الغيب: " تذكر النعم يوجب الرغبة والمحبة، وزوال النفرة والعداوة، وقد ذكر هود –عليه السلام–، هاهنا نوعين من الأنعام؛ الأول: أنه

[1]– ينظر: **مبحث خصائص السنن**، تكاملية السنن، سنن الله تتميز بالتكامل، ص: 75.

تعالى جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وذلك بأن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وما يتصل بها من المنافع والمصالح، والثاني: قوله "وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً"[1].

وجاء في زاد المسير في علم التفسير: زادكم في الخلق بسطة؛ أي: طولا وقوة، وقال الزجاج: وآلاء الله نعمه[2].

نعم الله على عباده كثيرة لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل: 18]، والله هو وحده المنعم، خاصة هذه النعمة التي خص بها قوم هود (القوة، وطول القامة، وعظمة الجسم)، لأنها لا تحصل بالسعي، ولا باتخاذ الأسباب، من السعي لتحصيل المال أو الرزق، فهي أكبر دليل على أن المنعم هو الله الخالق العظيم، المستحق لإفراده بالعبادة، ونبذ ما سواه.

مثل هذه النعم الاستخلاف في الأرض بعد قوم نوح، وعذاب الغرق بالطوفان، ونعمة البسطة والزيادة في بناء الجسد وقوة البدن، هي سنن إلهية، وحجة عليهم، وسلطان بيِّن يقدمه لهم نبيهم "هود"، لتذكيرهم بآلاء الله حتى لا يؤخذوا بالعقاب كأسلافهم؛ يذكرهم بنعم الله حتى يشكروا المنعم، وشكر الله عبادة تسبب للفلاح ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف: 69]، إن شكر النعم لمن أعظم وأجمل سنن الأمر، لأن الله سبحانه وتعالى أمر عباده في أكثر من موضع في القرآن بوجوب شكر الله، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[البقرة: 185]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: 7]، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ﴾[سبأ: 15].

يقول صاحب التحرير والتنوير في هذه الآية: "لأن النفس تنسى النعم فتكفر المنعم، فإذا تذكرت النعمة رأت حقا عليها أن تشكر المنعم، ولذلك كانت مسألة شكر المنعم من أهم مسائل التكليف"[3]، إذن فالشكر على النعم من أهم مسائل التكليف، وما كلفنا به المنعم يدخل كلّه تحت مسمى سنن الأمر والنهي، وبهذا تندرج سنتا الزيادة والنعم ضمن سنن الأمر والنهي، السنن التشريعية أو السنن التكليفية، وذلك حسب كل باحث أو كاتب كتب في السنن، وجعل لها أقساما باعتبارات متعددة.

---

[1]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 14/ 299.

[2]- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، تح: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1(1422هـ)، 2/ 133.

[3]- الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، 8/ 204.

وهذه السنة في التعامل مع النعم تجري في الخلق،مع جميع النعم المادية و المعنوية ،لذلك وجب شكر الله عليها، فشكر الله عبادة، وأمر كلف به العبد، فهل قابل قوم هود النعم بالشكر أم الجحود!؟ وهل استمرت لهم نعمة الخلافة في تعمير الأرض!؟ خاصة أنهم "أول أمة اضطلعت بالحضارة بعد الطوفان، والهيمنة على الأمم، فإن عادا كانوا ذوي قوة ونعمة عظيمة"[1]، حتى قالوا من أشد منا قوة.

جاء جواب القوم على طريقة الاستفهام الإنكاري ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[الأعراف: 70]، فهم على آثار آبائهم وأجدادهم مقلدون لهم ولو على ضلالة، لعدم تدبرهم وتفكرهم، وتركهم إعمال العقل في خلق الله وسننه سواء في الآفاق أو في أنفسهم، فكانوا يعلمون على اليقين أن نعمة الزيادة والبسطة في الخلق من نعم الله، ولا ينبغي أن تكون لسواه، "وانتقل من أمرهم بالتوحيد إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم التي لا ينكرون أنها من نعم الله دون غيره"[2].

فهم بهذا الجواب لم يعترفوا بأية نعمة، فضلا عن شكرها، وبذلك استحقوا زوالها، ووقوع العذاب المهين.

وازداد جهلهم وعنادهم ومكابرتهم إلى أن بارزوه بالتحدي، وطالبوه بتعجيل العذاب دليلا على صدقه، وأكثروا من مجادلته بطريقة الاستهزاء، والاستكبار والسخرية من المرسلين، كعادة الملإ في كل قوم، وفي هذا المقام استخدم القرآن وسيلة رائعة من وسائله المتعددة في تثبيت عقيدة المسلم، وترسيخها في النفس الإنسانية، ألا وهي مناقشة الانحرافات[3] التي يقع فيها الإنسان نتيجة جهله، وتنكبه عن سنن الله الشرعية التكليفية، سنن الأمر والنهي- كما اصطلحت عليها-، وأثناء الرد على جدالهم العقيم ضرب لهم نبي الله موعدا لانتظار العذاب، وجاء الخبر الحق، والوعد الصادق، ووقع عليهم سخط وغضب المنعم لجحدان نعمه، وتكذيب رسله، وحل بساحتهم عذاب الريح فاستأصلهم عن بكرة أبيهم.

فكان "المحقَ الكاملَ الذي لا يتخلف منه أحد، وهو ما عبر عنه بقطع الدابر،... وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين، وتحقق النذير مرة أخرى بعد أن لم ينفع التذكير"[4].

---

[1]- الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، 8/ 204.

[2]- نفسه.

[3]- مناقشة الانحرافات من وسائل القرآن الكريم في تثبيت العقيدة الإسلامية، والتي كانت واحدة من وسائل القرآن المتعددة التي تعرضت لشرحها، والتمثيل لها بنصوص من كتاب الله العزيز في مقال (**وسائل القرآن الكريم في تثيب العقيدة الإسلامية**)، (مجلة الإحياء، العدد21،كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة1)، 2018م، ص:123.

[4]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 8/ 1312.

وهكذا تتحقق سنة الله في نصرة أنبيائه، والذين آمنوا معهم مرة أخرى، لتؤكد اطراد السنن الإلهية، وثباتها وعدم تخلفها، وعدم محاباتها لرسول على حساب رسول، أو قوم على حساب قوم آخر، فالكل في ميزان السنن سواء، التفاضل بمدى الاعتبار ومجاراة السنن ورعايتها، والعناية بها.

وتنتهي قصة قوم عاد بالاستئصال والعذاب، ولا تنتهي قصة الحق ضد الباطل، والإيمان والتوحيد ضد الكفر والشرك، ولا تنتهي السنن الإلهية ولا تتوقف، ماضيةً في تاريخ البشرية، مادامت السنن تجري مع أنبياء أكرمين، وأقوام آخرين، ولا تتسع وريقات هذه الدراسة لتحصى جميع تجارب البشرية مع الأنبياء والرسل.

نحاول في هذا الفرع الأخير من المبحث الأخير من الفصل الأول استخلاص بعض السنن الإلهية التي توصلنا إليها:

- سنة الله في تشريع الأوامر والنواهي.
- سنة الله في بعث الأنبياء والرسل.
- سنة إرسال الرسول إلى قومه خاصة، سنة النصح للقوم، سنة الرحمة والرأفة بالقوم والخوف عليهم، سنة الصبر على القوم .
- سنة الله في الإنذار قبل الاعذار، سنة الله في الإمهال.
- سنة تكذيب الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام–.
- سنة صراع الأنبياء مع الملإ من القوم.
- سنة الله في الزيادة.
- سنة الله في النعم.
- سنة الله في الإمهال دون الإهمال.
- سنة الله في عقاب الأمم المكذبة.
- سنة الله في نصرة أنبيائه والمؤمنين.
- سنة الله في الهداية والضلال.

خلاصة الفصل:

يبدو لي من خلال ما تم عرضه في هذا الفصل الأول، أن موضوع السنن الإلهية حظي بنصيب وافر في كتاب الله العزيز، وله أهمية بالغة في حياة الناس عامة والمسلمين خاصة فهي قوانين ونواميس ربانية تحكم وتسير حركة الإنسان والتاريخ والكون، والسنن الإلهية ترسم منهجا للحياة، ولها علاقة كبيرة بمصير الإنسان – سعادةوشقاء–، وقد تبين المعنى المقصود من السنن الإلهية من خلال التعريفات اللغوية والاصطلاحية عند جمع غفير من العلماء، على اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم.

كما تسنى لي ذكر بعض خصائص السنن الإلهية التي تعرض لها كل من خاض موضوع السنن، مع ذكر بعض الخصائص التي أراها جديدة.

ومن خلال ما اتضح من تداخل وتكامل الخصائص فيما بينها، لإبراز الوحدة الموضوعية لها كمنظومة متكاملة متوازنة، ومن خلال هذه الخصائص، فقد توصلت إلى أن السنن الإلهية أربعة أنواع، وتفعيلا لمصطلحات القرآن الكريم، فقد كانت المصطلحات مستوحاة من نصوص الوحي، سنن الآفاق والأنفس والهداية.

الفصل الثاني:

الحياة الطيبة في القرآن الكريم – مفهومها أسبابها شروطها–

بعد أن تحدثت في الفصل الأول عن سنة الله، من حيث مفهومها وخصائصها، وأنواعها، وأساليب الكشف عنها، أخصص هذا الفصل – بإذن الله– لبسط الحديث عن سنن الحياة الطيبة، إلى تعريف الحياة الطيبة في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي، ثم أحاول بيان السنن المسببة للحياة الطيبة في قسمين: هما أسباب فطرية، وأسباب كسبية، ثم أعرض بعد ذلك للسنن المعبرة الناتجة عن الحياة الطيبة، أيضا في قسمين: المظاهرالسننية (الحقيقية)، ثم المظاهراللاسننية (الخادعة)، للوصول أخيراً إلى استنتاج السنن الشروط للحياة الطيبة.

وجاء هذا الفصل في ثلاث مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الحياة الطيبة.

المبحث الثاني: السنن الأسباب للحياة الطيبة.

المبحث الثالث: السنن الشروط للحياة الطيبة.

المبحث الأول:

مفهوم الحياة الطيبة.

أتناول في هذا المبحث مفهوم الحياة الطيبة في اللغة وفي الاصطلاح، وأمر بعد ذلك إلى النصوص القرآنية المذكور فيها لفظ الحياة، ثم لفظ الطيبة، لكشف مدلولات اللفظ اللغوية، والسياقات القرآنية، وأقوال المفسرين، لضبط المفهوم القرآني للحياة الطيبة، وبجمع النصوص أصل إلى ما يحمله اللفظ من معاني، لتحديد السنن الأسباب لها، وبتحديد الأسباب الحقيقية، والخادمة لها نستطيع الخروج في الختام برؤية قرآنية واضحة لسنن الحياة الطيبة، وعلى أساس هذه الرؤية السننية يمكن الفوز بها.

المطلب الأول: مفهوم الحياة

قبل الخوض في بيان مفهوم الحياة الطيبة والبحث عن سننها التي ينشدها كل إنسان،ويدأب المسلم أكثر منغيره للفوز بها؛ لذكرها في كتاب الله، قلت قبل ذلك لا بد من عرض ما قاله أئمة اللغة في تعريف لفظ الحياة أولا.

الفرع الأول: تعريف الحياة لغة واصطلاحا

أولا: لغة؛ هي من: الحيو، والحيوة، كتبت بالواو ليعلم أن الواو بعد الياء، ويقال: بل كتبت على لغة من يفخم الألف التي مرجعها إلى الواونحو: الصلاة والزكاة. ويقال: حَيَي يَحْيا فهو حيَ، ويقال للجميع: حَيُّوا، ولغة أخرى: حيّ يَحَي، والجميع: حَيوا خفيفة مثل: بقوا، والحيوان: كل ذي روح، الواحد والجميع فيه سواء، والحيوان: ماء في الجنة لا يصيب شيئا إلا حيَّ بإذن الله، والحية اشتقاقها من الحياة، ويقال: هي في أصل البناء: حيوة، والحي نقيض الميت[1]، والحياة: ضد الموت، والمحَيا فعل من الحياة، تقول محياي ومماتي... قال العجاج: وقد ترى إن الحياة حي[2]، الحياة: هوالعمر[3]، قال ابن برى: الحيُّ والحيوان والحياة مصادر، ويكون الحيوان صفة كالحي... وأحياه إحياء: جعله حيا، ومنه قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: 4]، واستحياه: استبقاه، هواستفعل من الحياة أي تركه حيا، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: 4]، أي يتركهن أحياء، وطريق حيٌّ أي بيّن، والجمع أحياء، وأرض حية مخصبة، والحي: البطن من بطون العرب، والحيا: اسم امرأة[4]، والحركة لازمة لها، فكل حي هوفَعال، جاء في لسان العرب عن ابن عباس قال: "فلنحيينه حياة طيبة[5]، هوالرزق الحلال في الدنيا، والحي من كل شيء، نقيض الميت" قال أبوعبيدة قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: 179]، أَي مَنْفَعة، ومنه قوله ليس بفلان حياةٌ أَي ليس عنده نَفْع ولا خَيْر، أحيا القوم إذ أمطروا فأصابت دوابهم العشب حتى سمنت، وأحيا الله الأرض: أخرج فيها النبات، وقيل إنما أحياها من الحياة كأنها كانت ميتة بالمحل فأحياها بالغيث، والحياة بقاء"[6].

وبعد هذه الرحلة مع كتب اللغة والمعاجم، نصل إلى أن الحياة في اللغة تدور حول معان، هي:ضد الموت، العمر، الحيوان، الحركة، البقاء.

---

(1)- الخليل الفراهيدي، **العين**، 3/ 317- 318.

(2)- الجوهري، **الصحاح**، 6/ 2323.

(3)- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، 4/ 140.

(4)- الزبيدي، **تاج العروس**، 37/507- 509- 511.

(5)- ابن منظور، **لسان العرب**، 212/14.

(6)- نفسه، 211/14-217.

ثانيا: تعريف الحياة اصطلاحا

قد ذكر أهل اللغة في معرض تأصيلهم للمادة تعاريف مختلفة؛ سأقف على أهمها:

– عرفت الحياة اصطلاحا بأنها: "صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر، الحياة الدنيا: هي ما يشغل العبد عن الآخرة"[1].

– وقيل: هي بحسب اللغة عبارة عن "قوة مزاجية تقتضي الحس والحركة، وفي حق الله تعالى لا بد من المصير إلى المعنى المجازي المناسب له وهوالبقاء"[2].

– أما صاحب جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، فيقسم الحياة إلى قسمين:

"الحياة العقلية: هي مبدأ الإدراك وغيره من الكمالات، وهي غير مختصة بالحيوان بخلاف.

الحياة الحسية: التي هي مبدأ الحس والحركة الإرادية فإنها مختصة بالحيوان"[3].

قال ابن سينا: "الحياة ماهيات المحسوسات غنية عن التعريف، وقيل هي قوة تتبع الاعتدال النوعي، وتفيض منها سائر القوى الحيوانية، وفي الملخص الحياة إما اعتدال المزاج، أوقوة الحي والحركة، أوقوة تتبع ذلك الاعتدال، سواء كان نفس قوة الحس والحركة، أومغايرة لها كما اختاره ابن سينا"[4].

وقال الصوفية: "الحياة عبارة عن تجلي النفس وتنورها بالأنوار الإلهية؛ فهي الوجود، وهي تعم المعاني والهيئات، والأشكال والصور والأقوال والأعمال، والمعادن والنباتات، وغير ذلك"[5].

بعد هذا العرض لمعاني الحياة، لعلى أحسن تعريف، وأقربه هو ما تبناه الجرجاني بأنها: "صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر، الحياة الدنيا: هي ما يشغل العبد عن الآخرة".

وتضع الباحثة تعريف للحياة: "هي جملة الخصائص التي تميز الكائن الحي عن الميت،وهي القدرة الكامنة في الأحياء، والمنعدمة في الجماد وتثيت بالتغذية، وتظهر بالنمو لتتجسد بالبقاء والإستمرار".

---

[1]– الجرجاني، **التعريفات**، 1/ 94.

[2]– الكفوي، **الكليات**، 1/ 406-407.

[3]– القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، **دستور العلماء**، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، بيروت،دار الكتب العلمية، ط 1 (1421هـ – 2000م)، 2/ 49.

[4]–التهانوي، **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، 1/ 721- 722.

[5]– نفسه، ص: 723.

الفرع الثاني: الحياة في القرآن الكريم

جاء لفظ الحياة في القرآن الكريم مستعملا في أوجه مختلفة، هي ذي في سياقاتها:

أولا: الرزق الحلال في الدنيا

قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[النحل: 97]، عن ابن عباس – رضي الله عنه– قال: هو الرزق الحلال في الدنيا[1].

ثانيا: نقيض الموت

حيث جُعِل المؤمن حيا، وجعل الكافر ميتا[2]، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾[فاطر: 22]، ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النحل: 21].

ثالثا: القتل (الشهيد)

فأَعْلَمنا أَن من قُتل في سبيله حَيٌّ، فالأَمْرُ فيمن قُتِلَ في سبيل الله لا يُوجِبُ أَن يُقالَ له ميت، ولكن يقال هوشهيد، وهوعند الله حيّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154]، أحياء عند الله، تعرض أرزاقهم وأرواحهم[3].

رابعا: الإهتداء

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: 122]، "مثل المهتدي مثل الميت الذي أحييي، وجعل مستضيئا في الناس بنور الإيمان؛ المهتدي حي والكافر ميت"[4].

خامسا: المنفعة والمصلحة

قال أبوعبيدة في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: 179] أي منفعة، "إقامة حياة آمنة مطمئنة يعيش في ظلالها الجميع عيشة راضية"[5].

---

[1]– ابن منظور، **لسان العرب**، 14/ 211.

[2]– الطبري، **جامع البيان**، 20/ 457.

[3]– ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، المصدر السابق، 14/ 211؛ وينظر: البغوي، **معالم التنزيل**، 1/ 15.

[4]– الواحدي، **الوسيط في تفسير القرآن**، 2/ 318.

[5]– محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 1/ 107.

سادسا: الخصب

وأتيت الأرض فأحييناها أي وجدتها خصبة، قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: 17]، وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ، قال: عن هشام بن عروة عن أبيه يرفعه إلى النبي ﷺ، أنه قال: «مَنْ أَحْيَا مَوَاتا مِنْ الْأَرْضِ فَهِي لَهُ، وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ»[1].

سابعا: الحيوان

والحيوان اسم يقع على كل شيء حيّ، وسمى الله الآخرة حيوانا[2]، فقال: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾[العنكبوت: 64]، قيل هي الحياة، وقيل: المعنى أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيا فيها لا يموت.

أما الراغب[3] فقد قسم الحياة إلى أقسام، وهي الآتية:

القسم الأول– القوة النامية: التي تسمح للحيوان والنبات بالاستمرار في النمو، وهذه القوة هي "الماء"، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[الأنبياء: 30].

القسم الثاني– القوة الحساسة: التي بها سمي الحيوان حيوانا، قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾[فاطر: 22]، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) ﴾[المرسلات: 25-26]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فصلت: 39]، "فقوله (إن الذي أحياها) إشارة إلى القوة النامية، وقوله: (لمحيي الموتى)، إشارة إلى القوة الحساسة"[4]، هذا نص ما قاله الراغب في القوة الحساسة، ويمكن القول بأن الميت يختلف عن الحي في إمكانية الإحساس والحس؛ "ومنه كلمة الحَوَاسّ؛ أيالمشّاعِرالخَمْس؛ وهي السَّمْع والبَصَر والشَّمُّ والذَّوْقُ واللَّمْس"[5]، أي إن الحياة تقتضي الحس والحركة، وسبق أن رأينا أن من المعاني اللغوية للحياة، معنى الحركة.

القسم الثالث– القوة العاملة العاقلة: نحوقوله تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: 122]، وقول الشاعر أبي منصور الحوافيّ (من بحر الوافر):

لقد أسمعت لو ناديت حيّا..... ولكن لا حياة لمن تنادي.

---

[1]- رواه البيهقي، **السنن الكبرى**، كتاب أحياء الموات، باب من أحيا أرضا ميتة ليست لأحد ولا في حق أحد فهي له، [11774]235/6.

[2]- ابن منظور، **لسان العرب**، 14/ 211-212.

[3]- الراغب، **المفردات**، 1/ 268.

[4]- نفسه.

[5]- الرازي، **مختار الصحاح**، ص: 57.

ويعرف الألوسي القوة العاقلة بأنها: "الروح والنفس الناطقة قائمةً بنفسها"[1].

فالعلم والمعرفة سبب للحياة، ومن دونهما كان الإنسان ميتا، ويتضح المعنى جليا بالعودة إلى كلام الراغب عن الموت، فيجعله أنواعا بحسب أنواع الحياة، فيجعل نوعا ثالثا: زوال القوة العاقلة وهي الجهالة[2]، إذن يعتبر العلم والمعرفة وإعمال العقل، في كل المجالات تطبيقا فعليا للحياة التي ضدها الموت.

القسم الرابع– عبارة عن ارتفاع الغّم: قال الشاعر الحماسي عدي بن الرعلاء (من بحر الخفيف):

ليس من مات فاستراح بميت... إنما الميت ميت الأحياء[3].

والحزن والهم والغم، كله معكر لصفاء الحياة، وبارتفاع الغم والحزن يحيا الإنسان حياة طيبة، فكأنما الغم موت الإنسان، ومنه قول الراغب: "الحزن المكدر للحياة، وإياه قصد"[4] بقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[إبراهيم: 17].

وجعل الراغب هذا القول في ذكر أنواع الموت، يقول الألوسي: "ورب حياة الموت خير منها، وذكر قول الشاعر ابن الرعلاء الغساني آنف الذكر: إنما الميت من يعيش كئيبا ... كاسفا باله قليل الرجاء"[5].

القسم الخامس– الحياة الأخروية الأبدية: وذلك يتوصل إليه بالحياة، التي هي العقل والعلم، قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: 24]، وقوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[الفجر: 24]، يعني بها الحياة الأخروية الدائمة.

وجعل الراغب نوعا من أنواع الحياة، الحياة الأخروية، لأنها في مفهومها الواسع ليست تقتصر على الدنيا، بل هي فترة من عمر البشرية فقط، بل تمتد في حقيقتها لما بعد الموت، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: 64]، عن مجاهد: "لا موت فيها"[6]، ففي الدار الآخرة الحياة الدائمة التي لا زوال لها، ولا انقطاع، ولا موت معها[7].

---

[1]- الألوسي، **روح المعاني**، 7/ 282.

[2]- الراغب، **المفردات**، 1/ 781.

[3]- الألوسي، **روح المعاني**، 1/ 262.

[4]- الراغب، **المفردات**، 2/ 92.

[5]- الألوسي، **روح المعاني**، المرجع السابق،3/ 96.

[6]- مجاهد بن جبر، التابعي المكي القرشي، **تفسير مجاهد**، تح: محمد عبد السلام أبوالنيل، مصر، دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط1(1440هـ- 1989م)، 1/ 537.

[7]- الطبري، **جامع البيان**، 18/ 439.

القسم السادس– الحياة التي يوصف بها الباري: فإنه إذا قيل فيه تعالى هوالحيّ؛ فمعناه لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: 255].

يبدع سيد قطب كعادته في تفسير هذه الآية؛ فيقول: "والحياة التي يوصف بها الإله الواحد هي الحياة الذاتية، التي لم تأت من مصدر آخر، كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثم يتفرد الله سبحانه بالحياة على هذا المعنى، كما أنها هي الحياة الأزلية الأبدية، التي لا تبدأ من مبدإ ولا تنتهي إلى نهاية، فهي متجردة عن معنى الزمان، المصاحب لحياة الخلائق المكتسبة المحددة البدء والنهاية، ثم إنها هي الحياة المطلقة من الخصائص، التي اعتاد الناس أن يعرفوا بها الحياة"[1].

هذه بعض أوجه استعمالات القرآن الكريم، واجتهاد العلماء في وصف وعدّ أنواع للحياة، وغيرها كثير لم يتم التعرض له في هذه الدراسة، تجنبا للإطالة والحشو، لأن القرآن الكريم وصف واستعمل لفظ الحياة على أوجه كثيرة، و الاستعمال القرآني المناسب للفظ الحياة في تقديري هو :أولا معنى الحياة نقيض الموت والمعنى الثاني الحيوان.

المطلب الثاني: تعريف الحياة الطيبة كمركب

هذا هو المصطلح الرابع في عنوان الدراسة،وهو محورالبحث (الطيبة)، والطيبة تدل على معان جميلة نبيلة،كلها جالبة للسعادة، والخير، والانشراح، والحسن.

الفرع الأول: تعريف الطيبة لغة واصطلاحا

جاء في معاجم اللغة في معنى الطيبة ما يلي:

أولا: تعريف الطيبة لغة

"الطَّيِّب في المعاجم ضِدُّ الخَبِيث، وطَابَ الشيء يَطِيبُ طِيبَةً وتَطْياباً. قال علقمة: يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْحُ العبير بها ... كأنَّ تَطْيابَها في الأنف مَشْمومُ. وأطابه غيره وطيبة أيضا. والاسْتطابة: وجده طيبا. والاسْتطابة الاسْتنْجاء. والطيب: ما يُتطيب به"[2].

"والكَلِم الطَّيِّب هُو قَوْلُ: لا إِلَه إِلاَّ الله. وماء طيب إِذَا كَانَ عَذْباً أَو طَاهِراً. وطَعَامٌ طَيِّبٌ إِذَا كَانَ سَائِغاً في الحَلْق. وفُلاَنٌ طَيِّبُ الأَخْلاَقِ إِذَا كَان سَهْلَ المعَاشَرَة، وبَلَدٌ طَيِّب: لا سِبَاخ فيهِ"[3]، وفي وفي اللسان: "أَرضٌ طَيِّبة للتي تَصْلُح للنبات؛ وريحٌ طَيِّبَةٌ إذا كانت لَيِّنةً... وكلمةٌ طَيِّبة إذا لم يكن فيها

[1]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3/ 287.

[2]– الجوهري، **الصحاح**، 1/ 173.

[3]– الزبيدي، **تاج العروس**، 3/ 288.

مكروه، وطُعْمة طَيِّبة إذا كانت حلالاً وامرأَةٌ طَيِّبة إذا كانت حَصاناً عفيفةً؛ وبَلْدَة طَيِّبة أَي آمنةٌ كثيرةُ الخير؛ ونَفْسٌ طَيِّبة بما قُدِّرَ لها أَي راضية... طَابَ الشيءُ طِيباً وطَاباً لذَّ وزَكَا"[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [الحج: 24]، قال ثعلب: هوالحسن إنما هوالكَلِمُ الحَسَنُ أَيضاً كالدعاء... وقال الزجاج: الكَلِمُ الطَّيِّبُ توحيدُ اللّه، وقول لا إله إلاَّ اللّه[2]. هذا جملة ما ذكره اللغويين في لفظ الطيبة، وهي بلا شك معان تخدم دلالة اللفظ من جانب معين، وهذه الدلالات مادة خصبة تحقق السعادة من زواي مختلفة، وأظهر معني للكلمة، الطيب ضد الخبيث، وهو الحسن.

ثانيا: تعريف الطيبة اصطلاحا

عرفت الطيبة اصطلاحا بأنها: صفة من يحبُّ الخير ويفعله، فطيبة القلب: اتصافه بالشَّفقة والحب وخُلُوُّه من الحِقد، وطيبة النَّفس: الكَرَم، عن طيبة خاطر: عن رضًا، وهذا رجل طيب، طيب الأخلاق، كريم، فاضل، عفيف، وبلدة طيبة آمنة كثيرة الخير[3].

فأصل الطيب ما تستلذه الحواس، وما تستلذه النفس، والطَّيِّب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال[4].

والملاحظ اتساع معنى الطيبة ليشمل دلالات عديدة منها: الطاهر[5]، والحلال، والمستلذ، والخصب، والآمن، والخير الكثير، والرضى، والتزكية، والحسن، والليّن، والعفّة، وأجمع تعريف لكلمة الطيبة في الاصطلاح ما جاد به الراغب الأصفهاني في المفردات، حيث قال: "فأصل الطيب ما تستلذه الحواس، وما تستلذه النفس، والطَّيِّب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال".

وتأسيسا على ما سبق يمكن أننعرف كلمة الطيبةبأنها:"صفة توجب صفاء القلب،وطمأنينة السريرة،وسكينة النفس،وعفة الجوارح،وطهارة المنبت،ونقاء الباطن والظاهر، والحسن من القول والصالح من العمل".

ثالثا: تعريف الحياة الطيبة كمركب

للخروج برؤية واضحة، وتصور شامل عن موضوع الدراسة، وجب تعريف الحياة الطيبة كمركب، لأنها غاية الغايات، ومطلب المؤمنين في الدنيا، وطوبى موعدهم في الآخرة.

---

[1]– ابن منظور، **لسان العرب**، 3/ 563.

[2]– نفسه، 564/1.

[3]– ينظر: أحمد مختار، **معجم اللغة المعاصرة**، 2/ 1429.

[4]– الراغب، **المفردات في غريب القرآن**، 1/ 527.

[5]– الكفوي، **الكليات**، 586/1.

جاء في كتاب التيسير في أحاديث التفسير: بأن الحياة الطيبة هي السعادة[1]، و"حياة طيبة يعني حسنة في الدنيا"[2]، "والرزق الحسن في الدنيا"[3]، "والقناعة، ورزق يوم بيوم"[4]، "وأضاف الضحاك العبادة في الدنيا؛ أي الحياة الطيبة: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا" [5]، "فالحياة الطيبة هي الحياة التي فيه ثلج الصدور بلذة اليقين، وحلاوة الإيمان، والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء"[6].

ولابن القيم كلامٌ يُكتب بماء الذهب يعرف فيه الحياة الطيبة، فيقول: "فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرِّضا، والرزق الحسَن وغير ذلك، والصواب، أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكُّل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنَّة"[7].

في هذا الكلام يلخص الإمام ابن القيم الحياة الطيبة في حياة القلب وصلاحه، بالقرب من خالقه عز وجل؛ إذ مدار الحياة الطيبة حول صلاح القلب، وهذا ما يؤكد عليه الرسول ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[8].

وقال ابن كثير: "والحياة الطيبة تَشمل وجوه الرَّاحة من أيِّ جهة كانت"[9].

الحياة الطيبة هي: "السعادة والأنس والرضا والطمأنينة في الدار الدنيا، وفيما بعدها من البرزخ والدار الآخرة"[10].

والحياة الطيبة لا تتحقق إلا بالراحة المادية والمعنوية، ولا سبيل للفوز بها بوجود واحدة دون الأخرى، راحة البدن وخلوه من الأمراض والعلل وراحة البال، وخلوصه من أنواع الهموم والغموم

---

(1)– ينظر: محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1(1405هـ– 1985م)، 3/ 350.

(2)– أبوالحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تح: عبد الله محمود شحاته، بيروت، دار إحياء التراث، ط 1 (1423 هـ)، 2/ 486.

(3)– الطبري، **جامع البيان**، 17/ 289.

(4)– الواحدي، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، 3/ 81.

(5)– ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 601/4.

(6)– محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، **محاسن التأويل**، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1418هـ)، 6/ 406.

(7)– محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 3(1416هـ– 1996م)، 3/ 243.

(8)– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، [52]، 1/ 20.

(9)– ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 2/ 712.

(10)– صالح بن عبيد بن صالح العبيد، (**أسباب الحياة الطيبة من خلال القرآن الكريم**)، (رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1433هـ– 1434هـ)، ص 15.

والأحزان المنكدة لحياته. فهي تشمل وجوها من جهات السعادة؛ من الرزق الحلال، والعبادة في الدنيا، وحلاوة الإيمان، والرضا واليقين، والقناعة.

وسننها التي تبحثها هذه الدراسة هي حياة الإنسان كل إنسان؛ مسلما، ذكرا وأنثى، حياة طيبة تحكمها سنن الله الجارية في كونه وخلقه، ثابتة عادلة، لا تحابي ولا تجامل، إذا أدركها الإنسان وفقهها أولا، وعمل بها وسايرها ثانيًا نال جزءًا من طيب الحياة، بقدر ما بذل؛ لأن الحياة الطيبة ؛كما ذكرها المولى عزّ وجل في كتابه؛ لا تكون إلا للمسلم المؤمن، وعلى هذا الطرح وبعد التقديم لما تعارف عليه الناس، وعدّوه من الأسباب السننية لطيب الحياة، أولتحقيق جزء من طيبها على الأقل؛ فيكون التعريف التي تخرج به الدراسة هو الآتي:

الحياة الطيبة: هي كل المحبوبات النفسية والجسمية في ضوء المنظومة القيمية الشرعية النافعة في الدارين، التي ينعم في ظلالها الفرد وتسعد الجماعة.

فإذا كانت الحياة الطيبة زيادة في كل خير، وتدور معانيها حول الحياة الحسنة غير الخبيثة، التي يتطلع إليها كل إنسان عاقل مهما كانت انتماءاته، أوتطلعاته، أوعقيدته، والمطلب الأعلى الذي يسعى إليه كل إنسان، فلابد من إبراز السنن الأسباب التي يتم وفقها تحصيل هذه الحياة، والتي سوف نقسمها إلى أسباب فطرية وأسباب مكتسبة، والتي ستكون محور البحث في هذا المطلب بإذن الله فما هي إذن أسباب الظفر والفوز بها؟ هذا ما تخصص الدراسة الحديث عنه في هذا المطلب.

المبحث الثاني:

السنن الأسباب للحياة الطيبة

لقد حث الشرع على ضرورة الأخذ بالأسباب، وأمر بها في محكم تنزيله، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة: 105]، تعاطي الأسباب ليس مخالفا للتوكل، بل هو من صميم الإيمان بالله بأنه مسبب الأسباب، وأن قدره نافذ،وأنه قدر الأمور وأحصاها وكتبها سبحانه وتعالى، فليس من التوكل تعطيل الأسباب بل التوكل يجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله ومن عطلها فقد خالف الشرع والعقل؛ لأن الله عز وجل أمر بالأسباب وحث عليها سبحانه وأمر رسولهﷺ عليها، وجبل وفطر عباده على الأخذ بها، وتنوعت هذه الاسباب بين ما هو فطر، وماهو كسبي، تحاول الدراسة في هذا المطلب بيان الفطرية منها.

المطلب الأول: السنن الأسباب الفردية للحياة الطيبة

تعد الحياة الطيبة من المفاهيم التي اختلف فيها الناس، وكل نظر إليها من منظوره الخاص؛ فهناك من كان يرى أن تحققها موقوف على مجرد الشعور بالارتياح والبهجة وسكينة النفس، واطمئنان القلب بذكر الله، والأنس بجواره، وطلب مرضاته، وهذا ما يكفله له الإيمان بالله وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى، وآخرون نظروا إليها من زاوية مختلفة، وأنها تتحقق فقط في حصول المرء على المال الوفير، أو تمتعه بصحة جيدة أو إيجاد عمل مناسب، كما أن هناك آخرين وجدوا سعادتهم في مساعدة الفقراء والمعوزين ماديا ومعنويا، فما هي الأسباب الفطرية لتحصيل هذه الحياة الطيبة، المطلب الأعلى الذي يسعى إليه كل أحد!؟.

يقول السعدي في كتابه الوسائل المفيدة للحياة السعيدة: "فراحة القلب وسروره وزوال همومه وغمومه، هو المطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج، ولذلك أسباب دينية، وأسباب طبيعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين، وأما من سواهم ... حالا ومآلا"[1].

قرر القرآن الكريم حقيقة عظيمة مفادها أن الحياة الطيبة التي ينشدها كل حي، إنما هي ثمرة من ثمرات الإيمان بالله عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: 79].

فقد "سبقت كلمة الله ومضت إرادته، بوعده، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد"[2]، سنن جارية، جارية، ووعد نافذ؛ فالحياة الطيبة لا تكون لغير المؤمن؛ لأن الإيمان قاعدة الحياة، وهوالصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود، والرابطة التي تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد، فترده بذلك إلى الناموس الواحد الذي ارتضاه، ولابد للبناء والعمل الصالح من بناء يقوم عليه، وقاعدة يرتكز عليها، وإلا فهومنهار من أساسه[3].

فالسنة الإلهية لا ترضى ولا تجرى بغير قرن وربط الإيمان؛ الذي هوقاعدة الحياة الطيبة، بالعمل الصالح؛ الذي هوالبناء الذي ترتكز عليه دعائم وأسس الإيمان، وباستقراء نصوص كتاب الله العزيز الزاخر بالسنن الإلهية الحاكمة للوجود والحياة الدنيا والآخرة، نجده يقرن الإيمان بالعمل الصالح دائما،

---

[1]– أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر سعدي، **الوسائل المفيدة للحياة السعيدة**، المملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط 2 (1409هـ)، 1/ 12.

[2]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 5/ 3001.

[3]– علي بن نايف الشحود، **المهذب في ثمرات الإيمان**، ماليزيا، بهائج دار المعمور، ط 1 (1430هـ–2009م)،ص: 13.

ويكون الجزاء الحسن نتيجة حتمية للعمل الصالح، وعلى هذه القوانين الثابتة جرت سنن الله، وعليه نذكر في هذه الدراسة بعض السنن الأسباب للحياة الطيبة، التي نستقيها من فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، ويكون على رأسها:

الفرع الأول: السنن الأسباب الفطرية للحياة الطيبة

هناك أسباب فطرية يشترك فيها جميع البشر، وهي من محققات الحياة الطيبة على مستوى الأفراد، نذكر منها:

أولا: الإيمان بالله ومقتضياته

ونجمل الإيمان وما يتبعه من عمل صالح، وتصديق بجميع أركانه من الإيمان بالله، وملائكته، ورسله وكتبه، واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره في هذه الآية الكريمة الجامعة والمانعة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء: 136].

وبتتبع نصوص الوحي نجد أن الإيمان والعمل الصالح من أكثر المواد وروداً في كتاب الله؛ فمادة "أ.م.ن"[1] وردت في القرآن الكريم ثمانمئةو أربعا وثمانين (884) مرة، أما مادة "ع.م.ل"[2] فوردت ثلاثمئة وسبعين (370) مرة، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن سنن الله للحياة الطيبة، تتلخص في الإيمان، والعمل الصالح ابتداءً.وهذه الكثرة دالة على حث القرآن ودعوته المستمرة إلى ما ينفع الإنسان في الدارين،وتبينه الدراسةفي هذه النقاط.

1– الإيمان بالله: إذ هودليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني، وتناسقه مع فطرة الكون كله، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله، "بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق"[3].

فالإيمان فطري، وحقيقة مطلقة، فطر عليها الإنسان منذ الأزل، والميثاق الأول شاهد على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: 172].

---

[1]– ينظر محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص: 103 - 118.

[2]– ينظر: نفسه، ص: 613-620.

[3]– علي بن نايف الشحود، **المهذب في ثمرات الإيمان**، ص: 90.

يقول سيد قطب في تفسيره لآية الميثاق وقضية الإيمان، الذي قاعدته الأولى التوحيد: "تعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة، وزاوية عميقة، تعرض من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر... إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري"[1].

وعليه فإن الإيمان هوسنة الله وقانونه في هذا الوجود، الذي يحقق للإنسان أيا كان لونه، أوجنسه، أولسانه، الحياة الطيبة إن رعاهُ حق رعايته، بكل أركانه وأولها:

الإيمان بالله وهوالتصديق الجازم، والإقرار الكلي بوجود الله، وبوحدانيته تعالى، وبعظمته، وبجلاله وكبريائه، وبقدرته الباهرة، وبتصرفه، وبتدبيره لأمور خلقه وحده لا شريك له، وبعلمه الغيب، وبجميع صفاته التي وصف بها نفسه، والاستسلام والانقياد والخضوع لكل أوامره، والابتعاد واجتناب كل نواهيه، والتصديق بما جاء به جملة وتفضيلا.

ولما كان الإيمان فطريا لا يتناقض ولا يخالف أصل خلقة الإنسان، ولا يخالف الغاية السامية من خلق الإنسان، التي تتمثل في جلب المصالح، ودفع المفاسد عن هذا السيد الخليفة في الأرض، ليستطيع أداء مهمة الاستخلاف وعمارة الأرض، على أكمل وجه، كان الإيمان والتوحيد من اللوازم الضرورية والأساسية التي لابد أن تتوفر لهذا المخلوق السيد في هذا الكون ليستطيع العيش، والعيش الحسن لا يكون إلا بالفوز بالحياة الطيبة.

والتوحيد "قانون الوجود ونظام الحياة، كما أنه روح الكون به تظل حركته قائمة ومستمرة، وهوالوقود الذي يدفع عالم الأفلاك والأجرام فتبقى في سبحانها، حتى إذا انتهى ذلك الوقود – الإيمان– توقفت عن الحركة وفسد ذلك النظام ثم يكون الدمار الذي تنتهي به الحياة في هذا الكون، وإلى هذا المعنى يشير حديث النبي ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ: الله، الله»[2].

لا حياة ولا استمرارية لفاعلية الإنسان في هذا الوجود، ولا نظام يضبط موازين الحياة بدون إيمان، وبغير توحيد؛ قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: 22].

"فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً، وينسق بين أجزائه جميعاً، وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم... هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد. فلوتعددت الذوات لتعددت الإرادات – ولتعددت النواميس تبعاً لها... وانعدمت الوحدة التي تنسق

---

[1]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ص: 1391.

[2]– حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 245- 246.

الجهاز الكوني كله... ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق... هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس"[1].

إذن فهذا النظام البديع، وهذا التناسق الملحوظ، وهذه الدقة المشاهدة في خلق الله لهذا الوجود، شهادة حق بوحدة الخالق وبفطرية الإيمان، المغروسة في نفس الإنسان، بل المغروسة في الكون والوجود جميعا، فالكون بسمائه وأرضه وبره وبحره مؤمن موحد طائع لخالقه ومبدعه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت: 11].

"إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام"[2].

ومادام الكون يخضع لناموس الإيمان والتوحيد، وما دام ضروريا لوجوده، وحفظ نظامه، فليس لهذا الإنسان الضعيف خيار سوى الإيمان بالله ربا ومعبودا، ومنه الاستسلام والانقياد لجميع أوامره ونواهيه، ليقع التجاوب بينه وبين سنن الكون والحياة؛ "ذلك أن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة الإنسان وحده، ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله... إن ناموس التوحيد الذي يحكم هذا الوجود، واضح الأثر في شكل الكون، وتنسيقه، وتناسق أجزائه، وانتظام حركته، واطراد قوانينه، وتصرفه المطرد وفق هذه القوانين"[3].

وعليه فسعادة الإنسان، وحرصه الشديد على تحصيل الحياة الطيبة موصولان برباط الإيمان والتوحيد، ولا مفر له من الانطواء تحت راية التوحيد "لا اله إلا الله محمد رسول الله"، حاملا لواء الإيماء بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

وما دام "الأمر بهذا الإحكام والتنظيم، فلا مناص للإنسان إذا أراد سعادته وطمأنينة باله وصلاح حاله من أن ينخرط في ذلك النظام والناموس العام، فينسجم مع عناصر الكون، ويتناسق مع النظام الكوني له، فيجد تلك العناصر مسخرة له، خادمة له، تبذل له كل أسباب السعادة والراحة التي تؤهله لمهمة الخلافة في الأرض"[4].

إن الكون بما فيه ومن فيه منقاد لناموس الإيمان وعقيدة التوحيد، وكذلك الإنسان المفطور عليه، قال ﷺ: «مَا مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 17/ 2373.

[2]-نفسه، 3114/24.

[3]-نفسه، 9/ 1394-1395.

[4]- حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص 247.

البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ»[1]، فخضوع كل من الكون والإنسان لناموس الإيمان يجعل سعادته في حتمية إيمانه وضرورة تصديقه بكل أركانه، والعمل بمقتضاه.

يقول صاحب فتح الباري في شرح حديث كل مولود يولد على الفطرة: "كل مولود؛ أي من بني آدم... فطرة الله التي فطر الناس عليها الإسلام...، والكفر ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه، بل إنما حصل بسبب خارجي... والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة والتهيؤ لقبول الدين، فلوترك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس"[2].

وعليه نلمس التجاوب والتآلف بين الإنسان المؤمن، وبين الكون المؤمن الموحّد المسبح الطائع، ونلحظ الانسجام، والاتصال الوثيق بين المؤمن وبين سنن الله باختلاف أنواعها سواء في الآفاق أوالأنفس، أوسنن الوحي، فهذه الوحدة المتناسقة من خلق الله أعظم دليل على قدرة الله وعظمته، فالله خلق الإنسان وسخر له الكون، وأودع فيه من القُوى والأدوات ما يستطيع بها إخضاع هذا الكون لمنفعته، وحكمَ الكون بسنن إلهية، وأمر الإنسان من خلال آياته المسطورة في كتابه المقروء، وآياته المرئية في كتابه المنظور باكتشافها، ومجاراتها، وعدم الغفلة والتنكب عنها ليحق له العيش الهنيء والسعادة في مركب الحياة الطيبة.

بعد أن عرضت الدراسة لأول سبب فطري يحقق الحياة الطيبة مطلقا، وهوالإيمان بالله وكل أركانه، نتطرق إلى بيان بعض ثمار الإيمان بالله على حياة الإنسان المؤمن؛ ذلك أنه إن تمكن الإيمان في النفس وخالطها ذاق القلب بشاشته وحلاوته، ووجد طُعم الرضا والقرب.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣ ﴾[الصف: 10-13].

من حكمة الله الربانية أن جعل قلوب عباده المؤمنين تحس وتتذوق وتشعر بثمرات الإيمان، وهذا ما ذكرناه في بيان فطرية الإيمان، وجعلناه أول سبب فطري للفوز بالحياة الطيبة، وهوأكبر دليل على عظمة الله وقدرته، في خلق هذا الوجود ماديا كان أوبشريا، وحكمته البالغة في جريان سننه على كل من في الوجود بشقيه، ومتى شعر المؤمن بحلاوة الإيمان اندفع محاولا إرضاء خالقه سبحانه وتعالى، وثمار

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**،كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلي عليه، [1359]، 2/ 95.

[2]- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، باب ما قيل في أولاد المشركين، [1379]، بيروت، دار المعرفة، 3/ 246-247.

الإيمان بالله بينها الله في كتابه العزيز، وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى، نذكر البعض منها في ما يلي، وفيها فليتنافس المتنافسون.

2– السكينة والطمأنينة: إن باب السكينة والطمأنينة والأمن النفسي مفتوح أمام جميع الناس، دون محاباة أوعنصرية، مفتاحه في متناول الجميع، ألا وهو"الإيمان بالله"، لا يدفع في سبيل اقتنائه مالا ولا جاها، وهذا بمقتضى سنن الله الحاكمة، الماضية في خلقه.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ [الفتح: 4]، وقال عز من قائل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[الأنعام: 82]، تقر الآيتان أن من ارتكن إلى ركن الإيمان نال عهد الله الصادق، بحلول الأمن والطمأنينة في نفسه، يقول سيد قطب كلاماً رائعاً في تفسير الآية 4 من سورة الفتح ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾: "هذا هو الجو الذي نزلت فيه السورة، الجوالذي اطمأنت فيه نفس الرسول ﷺ إلى إلهام ربه... كما جاء في الافتتاح، الامتنان على المؤمنين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب، وعون السماء بجنود اللّه"[1].

نعم صدق سيد قطب في تفسيره، فالامتنان على المؤمنين بالسكينة، منّة عظيمة، ويجب شكر الله وحمده كثيرا على هذه النعمة، فهناك من يدفع القناطير من الذهب والفضة للوصول إلى بعض السكينة ولا يبلغها، ذلك أنها نعمة من الله ثمنها الإيمان بالله، لذلك فلا سبيل آخر للبحث عنها على رفوف العطارين، أوأدوية وعقاقير الصيادلة، ذلك أن السكينة جامعة لخير النفس كله واستقرارها، إذ هي "ما يسكن إليه القلب والنفس، ويوجب الأمن والطمأنينة"[2]، وقيل إن السكينة هي الرحمة، ورحمة الله بعباده، توفر لهم الأمن والاستقرار النفسي والهدوء والطمأنينة، حتى عبّر أحد العارفين بالله عن سعادته بإيمانه، فقال: "إن في قلوبنا من اللذة ما لم لوعلمه أبناء الملوك لقاتلونا عليه بالسيوف، وإنه ليأتي على القلب ساعات يرقص فيها طربا من لذة ذكر الله، ولوأن أهل الجنة في مثل هذا النعيم إنهم لفي خير عظيم[3]، قال تعالي: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس: 58].

---

[1]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 26/ 3313.

[2]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 16/ 19.

[3]– الطبري، **جامع البيان**، 22/ 203.

يقول ابن القيم: "وأصل السكينة هي الطمأنينة، والوقار، والسكون، الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه، من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات"[1]. فالسكينة إذن موجبة لزيادة الإيمان؛ فهي لا توهب إلا بالإيمان.

فبشرى للمؤمن بإيمانه الفطري الأول، كيف يحقق له السكينة في مواضع القلق، والاضطراب، وبها يوجب له إيمانا زائداً على إيمانه، وكان بعض العلماء: "إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة"[2]، وقال ابن عباس: "كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة"[3].

ولما كان الإيمان سببا أساسا للحياة الطيبة، فقد كانت السكينة والطمأنينة ثمرة طيبة لذيذة من ثماره بلذة اليقين، وحلاوة الإيمان اختصرها الدكتور حسين شرفة في هذه الجملة: "إن الحياة الطيبة التي يورثها الإيمان بالله تعالى، يمكن اختصارها في جملة واحدة، هي: السكينة والأمن"[4].

لقد خص المولى عز وجل نعمة السكينة للمؤمنين ورسوله ﷺ، ومن هذا المقام العظيم يتضح أثر عظيم من آثار الإيمان بالله على النفس البشرية – وفق سنن الله –، وهذا ما بيّنته الدراسة في مبحث سنن النفس البشرية، "وذلك لأنها – أي السكينة– من أعظم مواهب الحق سبحانه وتعالى ومنحه، ومن أجلّ عطاياه، ولهذا لم يجعلها في القرآن إلا لرسوله ﷺ وللمؤمنين"[5].

إذن؛ فالإيمان الموجب للسكينة والطمأنينة والأمن النفسي يجعل المؤمن في أقصى درجات الاتزان النفسي، ويقضي على القلق، والاضطراب، والصراع النفسي، والتوتر، فيحضا بالإشباع الإيماني العاطفي، فلا تجده مهموما ولا مغموما، ولا مكدورا، وفاز بذلك بحسن العيش والحياة الطيبة، حتى قال أحد السلف: "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها، قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره والأنس به"[6]، قال ابن تيمية: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة"[7].

من خلال عرض أول الأسباب السننية الفطرية لتحصيل الحياة الطيبة ألا وهي الإيمان بالله، وما يتفرع عنه من أعمال صالحة، وصلاح حال صاحبه في الدنيا، وفوزه ونجاته في الآخرة، هل نستطيع الجزم

---

[1]– ابن القيم، **مدارج السالكين**، 2/ 471.

[2]– نفسه.

[3]– نفسه.

[4]– حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 257.

[5]– ابن القيم، **مدارج السالكين**، المرجع السابق،474/2.

[6]– ابن القيم، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، 1/ 72.

[7]– ابن القيم، **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، تح: سيد إبراهيم، القاهرة، دار الحديث، ط 3 (1999م)، 1/ 48.

بأن الإيمان وحده كافٍ لتحقيق طيب الحياة، أكيد لا، لأن الإنسان بشقه الترابي المادي، يحتاج إلى أكثر من الإيمان ليسعد، ويزول عنه الغم وينفرج الهم، وتيسر أموره ويحقق مفهوم الاستخلاف ومسؤولية تعمير الأرض.

استكمالا لضرورة الإيمان وأثره في النفس الإنسانية بما يحققه من سعادة واطمئنان، واقترانه بالعمل الصالح الذي هو ثمرة لازمة عنه كان لازما أن أتطرق إلى لوازم ومقتضيات العمل الصالح الذي هو ثمرة الإيمان والأعمال نوعان قلبية وأعمال الجوارح وهي التي أعنيها في هذا العنصر أو بالأحرى سنة من سنن الله المحصلة لطيب الحياة فكل إنسان مهما كان هو في حاجة ماسة إلى العبادة باعتبارها مشتركاً فطرياً بينهم؛ وهذا ما سوف تبينه الدراسة في هذا العنصر.

وبهذا يتأكد أن الإيمان تتمخض عنه ثمرات كثيرة في الدنيا والآخرة لا تعد ولا تحصى، لوذكرت كلها لألفت فيها مجلدات، ولكن اقتصرت الدراسة على ذكر بعضها فقط ليس تقصيرا، وإنما لخصوصية البحث.

ثانيا: حاجة الإنسان إلى العبادة

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]، فلما كانت عبادة الله وظيفة الإنسان الأساس، والأولى التي خلق من أجلها، كان لازما عليه أداؤها إن أراد أن يستقيم أمره، ويهنأ عيشه على وجه المعمورة، باعتباره الخليفة فيها، القائم على تعميرها، ويعتبرها سيد قطب أعظم الحقائق الكونية، ولا تستقيم حياة البشر بدونها، يقول: "وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هناك غاية معينة لوجود الجن والإنس، تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أونكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولى، وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء"[1].

إذن فالعبادة هي التي تربط الجن والإنس بالسنن الإلهية وناموس الوجود، وعبادة الله سنة مطردة بين جميع البشر على اختلاف الشعائر التعبدية بين قوم وقوم، رغم الاشتراك اللفظي في كلمة الإله والعبادة، "وليست هذه العبادات بدعاً في الإسلام، بل هي قديمة، لم تخل منها رسالة ولم تعف منها أمة من الأمم؛ فقد عرفتها جميع الأديان مع اختلاف صورها وكيفياتها، ولذلك فهي سنة الله في الأمم"[2].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 27/ 3387.

[2]- حسين شرفة، **سنن الله في أحياء الأمم**، ص: 415.

وإذا قررنا أن كل في الوجود خاضعا لسنن الله وتكون بذلك الشعائر التعبدية التي افترضها الله ورضاها لعباده جزء من تلك السنن[1].

إذن فالعبادة من الأمور الفطرية المتجذرة المتأصلة في وجدان الإنسان، مهما كان جنسه، أوعرقه، ومهما اختلف الزمان، والمكان، فيبقى الإنسان، كل إنسان في حاجة إليها مهما كان معبوده؛ صنما، أونارا، أوبقرا...، فأمر العبادة فطري، مهما اختلف الناس في تطبيقها، وأكبر دليل على حاجة الإنسان الفطرية إلى العبادة ما تركه لنا التاريخ من آثار عمرانية، تدل على أماكن خصصت للعبادة على اختلاف المسميات (معابد، كنائس، الأديرة، المساجد، الصوامع، الأضرحة، كاتدرالية).

إذن فقد حرص الإنسان منذ القدم على بناء أماكن للعبادة، وجعلها ذات قدسية وحرمة، وكانت على مرّ الحضارات القديمة ملاذا للخائفين، يلجأ إليها طلبا للأمن والحماية، عند الشعور بالخطر أوالخوف، إذ كانت العبادة جوهر وجود الإنسان، وسر سعادة المؤمن بتحقيق الحياة الطيبة، "فالعبادات لم تشرع للفوز بالجنة والنجاة من النار يوم القيامة فحسب، ولكنها شرعت أيضا للتمتع بالحياة الطيبة في العاجلة"[2].

وهذا ما سوف تحاول الدراسة بيانه، والوصول إليه في هذا العنصر، حتى يتحقق مقصد الشرع في التشريع والتكليف، بجلب المصالح، ودفع المفاسد، فالتمتع بالحياة الطيبة مصلحة أصلية، إذا فقه الإنسان سنن الأمر والنهي، وعمل بها. فكيف تسهم عبادة الله في تحقيق الحياة الطيبة؟ ذلك ما تبحثه الدراسة في النقاط الآتية:

1– العبادة غاية خلق الإنسان: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "العبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد، من جهة أمر الله ومحبته ورضاه، كما قال تعالى في الذاريات: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب، وهي اسم يجمع كمال الذل ونهايته وكمال الحب لله ونهايته؛ فالحب الخالي عن ذل، والذل الخالي عن الحب، لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد والله غني عنها، فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها"[3].

يفهم من كلام شيخ الإسلام أن الهدف الذي خلق من أجله الإنسان عبادة الله، وهذه العبادة الإنسان أحوج إليها، وهي أنفع له، وليس لله حاجة فيها؛ فهوالغني الحميد عن عباده، فمنفعتها عائدة

---

[1]– ينظر: أحمد كنعان، **أزمتنا الحضارية**، ص:130.

[2]– حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 411.

[3]– ابن تيمية، **أمراض القلب وشفاؤها**، القاهرة، المطبعة السلفية، ط 2 (1399هـ)، 1/ 43.

على العبد في معاشه ومعاده، فجعلها الله واجبة عليه، وهيأه للطاعة، والخضوع لأوامره، وأمره بعبادته حتى يسعد بالحياة الطيبة في الدنيا، والجزاء العظيم في الآخرة، فلا مصلحة لله تعالى في عبادة العبد، ولا ضرر عليه في معصية، بل إن الضر والنفع كلّه متعلق بالعبادة، أوبالمعصية، قال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[فاطر: 18]، وقال عز قائل: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل: 41]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: 108]، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[الإسراء: 7]، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[صلت: 46]، ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ ﴾[الزمر: 7].

بتفسير هذه الآيات الكريمة نخلص إلى ما يلي: "من يشكر فإنما يشكر لنفسه، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء"[1]، ومواجهة الشدائد، وشكر الله عبادة وطاعة.

يقول الطبري في جامع البيان: " فإنما يستقيم على الهدى، ويسلك قصد السبيل لنفسه، فإياها يبغي الخيرَ بفعله ذلك لا غيرها... وضلاله ذلك إنما يجني به على نفسه لا على غيرها، ولا يورد بضلاله ذلك المهالكَ سوى نفسه"[2].

فخير الهداية والاستقامةيكون بعبادة الله وهدى الله ما هوإلا بالخضوع لأوامره والانقياد لشرعه، وما شرع لعباده من عبادات، يعود على الإنسان نفسه بالخير والصلاح، كما ترك الله عز وجل للإنسان حرية الاختيار في القيام بواجب العبادة، والطاعة، أوالمعصية، والكفر؛ لأن نفع ومصلحة العبادة تعود على نفسه بالفلاح والفوز في الدارين، ويبرىء ذاته العظيمة المقدسة، عن ارتكاب فحش الظلم، والجور في حق هذا الإنسان العابد المطيع، فيقول عز قائل: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[فصلت: 46].

يقول الرازي بأنه: "يُفِيدُ نَفْيَ كَوْنِهِ ظَلَّامًا، وَنَفْيُ الصِّفَةِ يُوهِمُ بَقَاءَ الْأَصْلِ، فَهَذَا يَقْتَضِي ثُبُوتَ أَصْلِ الظُّلْمِ... وَهَذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ إِيصَالَ الْعِقَابِ إِلَيْهِمْ يَكُونُ ظُلْمًا لَوْلَمْ يَكُونُوا مُذْنِبِينَ"[3].

فتنزيه الله تعالى الظلم عن نفسه مع استحقاق العذاب العظيم للكفار، سببه العصيان والكفر وعدم طاعة الله وتنفيذ أوامره، وعدم القيام بشرائعه المتمثلة في العبادات التي افترضها على عباده، والتي

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن** ، 22/ 2642.

[2]- الطبري، **جامع البيان**، 305/12.

[3]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 9/ 448.

هي أصلا نفع لهم، فيها مصالحهم في حياتهم الدنيا، والفوز بالنعيم الأبدي في الحياة الآخرة. وهذا ما جاء به الحديث الصحيح عند مسلم عن أبي ذر، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا »[1].

فالعبادة من حاجة العباد، وهي سبب فوزهم بالحياة الطيبة والفلاح في الدارين، وفي نفس الوقت حق الله على العباد، يقول الحافظ ابن كثير في بيان حاجة الإنسان للعبادة: "إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِآمُرَهُمْ بِعِبَادَتِي، لَا لِاحْتِيَاجِي إِلَيْهِمْ... خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، وَمِنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ، بَلْ هُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، فَهُوخَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ"[2].

وقد روى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[3].

والتفرغ للعبادة لا يعني الاشتغال بعبادة الله وترك ما سواه من الأعمال الدنيوية، كتعمير الأرض، والضرب في مناكبها سعيا لتحصيل الرزق لأن هذا مخالف لقانون وناموس السنن الإلهية، "والتفرغ للعبادة إيثارها على حظوظ الدنيا والإتيان بما أمر به منها فلا تلهيه عن ذكر الله لا أنه لا يفعل إلا العبادة... يغنيه الله في نفسه ويبارك له في القليل من ماله"[4].

نفهم من هذا الحديث الشريف أن آثار العبادة تتعدى معنى الرقي بالإنسان ليكون موصولا بالله تعالى حتى لا يعيش حياة الأنعام إلى النفع المادي في حياة الإنسان، فقد أجمع شراح الحديث على أن المعنى أن "يسد فقره بأن لا يحتاج إلى أحد"[5].

ففوائد العبادة كثيرة ومتنوعة، منها المادية، ومنها المعنوية الروحية، ولقد توسع العلماء والمؤلفون قديما وحديثا في بيان فوائد وآثار العبادة في حياة الإنسان، وخصصوا لكل عبادة أبوابا وفصولا في ذكر أسرارها، وحكمها، كما جاء بيان هذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن الكريم وأحاديث جمة من السنة النبوية لهذا لا داعي لإعادة عرضها.

---

(1)– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، [2577]، 4/ 1994 .

(2)– ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 328/5.

(3)– رواه الترمذي، **سنن الترمذي**، [2466]، 4/ 642، قال هذا حديث حسن غريب.

(4)– الصنعاني، محمد بن إسماعيل الحسني، الكحلاني أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير، **التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ**، تح: محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الرياض، مكتبة دار السلام، ط 1 (1432 هـ – 2011م)، 3/ 410.

(5)– زين الدين محمد المدعوبعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، **الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية**، تح: عبد القادر الأرنؤوط – طالب عواد، بيروت، دار ابن كثير، (د،ط،ت)، 1/ 10.

والشعائر التعبدية تتنوع شكلا وموضوعا، فهي بعيدة عن النمطية والتشابه، ونتيجة لهذا التنوع ففوائدها التربوية مختلفة،ولكل "عبادة فوائدها الخاصة التي تسهم في بناء المجتمع الصالح، وباجتماع تلك الفوائد المنبثقة عن الشعائر المختلفة يتم ذلك البناء"[1]؛ جرت الحكمة والمشيئة الربانيةأن حياة البشر لا تقوم لها قائمة بدون عبادة ذلك أن "ركب الله عز وجل جبلة الإنسان من مركبين اثنين هما الجسد، والنفس"[2].

ومن ثم فالعبادة مصلحة، وفائدة عظيمة للناس فرادى أومجتمعين، سواء كانت الفائدة تعود على النفس بالأمن والطمأنينة والسكينة، أوتطهير للنفس من غرائز الحيوان، ومن نوازغ الشر والشيطان مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿19﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿20﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿21﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿22﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿23﴾ ﴾[المعارج: 19-23]، أوتعود على البدن بالوقاية من الأمراض، للتمتع بالصحة والعافية بتشريع الطهارة وجعلها شرطا للكثير من العبادات، ومنها ما يعود على الإنسان من جهة ماله ورزقه بالبركة والنموكالزكاة، "ولا تعود الزكاة بالفائدة على الغني والفقير فحسب، ولكنها تفيد المال نفسه؛ إذ تنميه وتباركه وتطهره"[3]، فهي قسط ضئيل لا يضر الغني بإخراجه، وينفع الفقير، ويسد حاجته، تنشر المحبة والمودة بين الناس، أوتعود عليه بالنفع المادي، والنفسي معاً فتحقق المساواة، وتنفي الفوارق بين بني البشر على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ،مع استواء وتوحد صفوفهم في الصلاة، وعلى اختلاف مستواهم من غني أوفقير، وعندما يتوحد لباس المحْرم للحج، تمحى الفوارق الاجتماعية ويقضي على الطبقية، ويلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها للتعارف والتواصل والتناصح، وتبادل المنافع الدينية والدنيوية، وهذا ما دعا إليه خليل الرحمان إبراهيم عليه السلام، امتثالا لأمر الله الذي كلفه بتبليغه للناس؛ إذ قال عز من قائل: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿27﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿28﴾ ﴾[الحج: 27-28].

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "إِنَّمَا نَكَّرَ الْمَنَافِعَ لِأَنَّهُ أَرَادَ مَنَافِعَ مُخْتَصَّةً بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً، لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ"[4].

---

[1]- حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 420.

[2]- أحمد كنعان، **أزمتنا الحضارية**، ص: 135.

[3]- حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 428.

[4]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 221/23.

وعبادة الحج تحتاج بخلاف غيرها من العبادات للمال (الاستطاعة المالية)، قال تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا ﴾[آل عمران: 97]، والحاج عندما انقطع عن ماله، وأهله وبلده لغرض الحج قاصدا بيت الله الحرام كلفته هذه العبادة الإنفاق، وبطبيعة الإنسان ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾[المعارج: 19]؛ فربما يضجر الإنسان لكثرةالإنفاق، مع امتناع الاسترزاق، أوتعسره مادام مشغولا بمناسك الحج؛ فجاءت الحكمة الربانية، لتبيح خلال هذه العبادة، وهذه الأيام المعدودات، المنافع الدنيوية كالمتاجرة، والتردد على الأسواق بعد الانتهاء من أداء المناسك، قال القرطبي: "﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ ﴾: الْأَسْوَاقُ، والتجارة في الدنيا، والْأَجْرُفِيالْآخِرَةِ،"[1]، فكأنها طمأنة من الله لعبده الحاج على رزقه، بتيسير إمكان الربح، حتى في حال كونه عابدًا لله متجرداً من كل مخيط، محرما لأداء شعيرة الحج مطيعا لأوامر الله، فهده مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فأَمَّا "مَنَافِعُ الْآخِرَةِ فَرِضْوَانُ الله، وَأَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَمَا يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِ البدن، والربح وَالتِّجَارَاتِ"[2].

ويبين صاحب الظلال بعض منافع الحج بأسلوبه الفذّ الرائع، فيقول: "والمنافع التي يشهدها الحجيج كثيرة فالحج موسم ومؤتمر، والحج موسم تجارة وموسم عبادة، والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ومؤتمر تنسيق وتعاون، وهوالفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة... أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقا رائجة، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء... من أطراف الأرض، ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم، يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد، فهوموسم تجارة ومعرض نتاج، وسوق عالمية تقام في كل عام"[3].

وهذه هي شمولية العبادة في الإسلام؛ فهي تشمل جميع مناحي الحياة، فلم تقتصر على الجانب الديني فقط ولم تشرع لذاتها، وإنما شرعت لتحقيق المنافع، وهذه المنافع ظاهرة جلية للعباد؛ "وذلك أن لأكثر العبادات منافع ظاهرية لفاعليها"[4]. وشمولية العبادة في الإسلام هي النقطة الموالية بعد حاجة الإنسان للعبادة.

2– شمولية العبادة في الإسلام: الإسلام دين متكامل، ومنهج حياة قويم، لا يهتم بالجانب الديني والروحي ثم يغفل عن الجانب الدنيوي المادي، ولا يجعل العبادة مقتصرة على الشعائر التعبدية من

---

[1]– الطبري، **جامع البيان**، 16/ 520.

[2]– ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 5/ 414.

[3]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 17/ 2418-2419.

[4]– محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 5/ 107.

الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، ويضيق دائرتها في التكاليف الشرعية، بل تتوسع دائرة العبادة في الإسلام لتشمل المعاملة، والسلوك، والأخلاق، والحكم، والاقتصاد والسياسة، وجميع مناحي الحياة، من ما يخص شؤون هذا الإنسان، فهذا ما جعله دينا صالحا لكل زمان ومكان، لم يغفل على شاردة أوواردة إلا ذكرها، ولهذا لم يُضَيِّق العبادة في معنى التنسك في أماكن مخصوصة، ولم يقصر التعبد في المحارب أوالمساجد فقط، بل يستطيع أن يؤدي العبادة خارج المسجد، داخل الأسواق، وفي مكاتب العمل على مقاعد الدراسة، في الطريق، جوا، وبراً، وبحراً، في السفر، وفي الحضر، في القصور، أوالأكواخ، هذا هوالدين القيم الذي يُصلِح ويقوم به أمر الناس في معاشهم ومعادهم، فلوخص العبادة في الصلاة والدعاء والابتهال، وخصص لها دورا وأماكن محددة، لحال الإسلام إلى ما حالت إليه المسيحية التي ابتدعوها، حتى تم النداء بضرورة فصل الدين عن الدنيا، والعبادة عن أمور الدولة والحكم لِما أدخلوا عليها من أباطيل وخرافات ما قال بها الله، هذا هودين الإسلام، دين إبراهيم الخليل، والعبادة التي فيه شاملة لجميع مجالات الحياة، قاعدة العبادة المبنية على توحيد الألوهية والربوبية، وتدخل فيها جميع تصرفات الإنسان، لذا نجد أن الأحكام التكليفية في الإسلام لا يشذ عليها أي نشاط إنساني، كل عمل يقوم به الإنسان يدخل تحت مسمى العبادة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾[الأنعام: 161-163].

"إنه التجرُّدُ الكاملُ لله، بكلِّ خالجةٍ في القلب وبكلِّ حركةٍ في الحياة: بالصلاة والاعتكاف، وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبدية، وبالحياة الواقعية، وبالممات وما وراءه"[1].

هذا كله يدل على شمولية العبادة لحياة الإنسان كلها، وعلى هذا الفهم وضع علماء السلف وبنوا تعاريف للعبادة، يصب مجملها في أجمع وأشمل تعريف لها، وهو لشيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: "الْعِبَادَةُ هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَانُ للجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ وَالدُّعَاءُ وَالذِّكْرُ وَالْقِرَاءَةُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ"[2].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 8/ 1240.

[2]- ابن تيمية، **العبودية**، تح: محمد زهير الشاويش، باب دعوة الأنبياء إلى عبادة الله، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 6(1426هـ-2005م)، 1/ 44.

نستنتج من هذا التعريف البعد الاجتماعي لمفهوم العبادة في الإسلام، حيث تقوى أواصر الترابط الاجتماعي والألفة والمحبة بين أفراد المجتمع، فوظيفتها الاجتماعية تحقق البناء الصحيح السليم للمجتمع، فبتأمل حديث الرسول ﷺ في الحث على ضرورة الصلح بين الناس، وتحبيب المسلمين إليه، عن أبي الدرداء – رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: «أَلا أُنَبِّئُكم بِدرجةٍ أَفضَلُ مِن الصلاةِ والصيامِ والصدَّقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاحُ ذَات البَين، وفَسادُ ذَات البَينِ هِي الحَالِقَة»[1]، نلحظ حث وترغيب على إصلاح ذات البين: "إِذْ قَدْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ الْإِصْلَاحُ فِي فَسَادٍ يُتَضَرَّعُ عَلَيْهِ سَفْكُ الدِّمَاءِ، وَنَهْبُ الْأَمْوَالِ، وَهَتْكُ الْحُرُمِ أَفْضَلُ مِنْ فَرَائِضَ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ الْقَاصِرَةِ مَعَ إِمْكَانِ قَضَائِهَا عَلَى فَرْضِ تَرْكِهَا فَهِيَ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ أَهْوَنُ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ هَذَا الْجِنْسُ مِنَ الْعَمَلِ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ... إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، أَيْ أَحْوَالِ بَيْنِكُمْ، يَعْنِي مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ أُلْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَاتِّفَاقٍ... وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَيِ الْمَاحِيَةُ وَالْمُزِيلَةُ لِلْمَثُوبَاتِ وَالْخَيْرَاتِ، وَالْمَعْنَى يَمْنَعُهُ شُؤْمُ هَذَا الْفِعْلِ عَنْ تَحْصِيلِ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، وَقِيلَ الْمُهْلِكَةُ، وَقِيلَ هِيَ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ وَالتَّظَالُمُ... وَاجْتِنَابِ الْإِفْسَادِ فِيهَا، لِأَنَّ الْإِصْلَاحَ سَبَبٌ لِلِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ، وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ ثَلْمَةٌ فِي الدِّينِ، فَمَنْ تَعَاطَى إِصْلَاحَهَا وَرَفَعَ فَسَادَهَا نَالَ دَرَجَةً فَوْقَ مَا يَنَالُهُ الصَّائِمُ الْقَائِمُ الْمُشْتَغِلُ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِهِ... وروي عن النبي ﷺ قال: «هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»[2].

وفي الباب أحاديث كثيرة غيره، تحبب وترغب المسلم في الصلح بين الناس تفاديا للقطيعة والعداوة والتهاجر بين المسلمين، لما يصحب القطيعة من قسوة القلب، وفساد في الأخلاق حتى يتمنى الأخ لأخيه الضر والهلاك، وربما يؤدي فساد ذات البين إلى الاقتتال، حيث جاء في شرح هذا الحديث: "حلق بعضهم البعض أي قتل"[3]، **فعبادة الصلاة والصوم** تقضى، وإن فات وقتها فهي حقوق الله الذي وسع فضله وعدله ورحمته كل شيء، ولكن حقوق العباد أصعب إن تعرضت للهتك والظلم والتعدي بسبب فساد ذات البين، عند الغضب والتشاجر، لهذا كان الأمر بإصلاحها أولى من بعض الفرائض، لذلك نجد الرسول ﷺ يحث ويرغب في الصلح بين الناس، ويحذر من إفسادها، والتسبب في المخاصمة والمشاجرة بين اثنين مما يؤدي إلى الفرقة، المحصلة للضعف والتشتت، المزيلة للطاعات والحسنات، لذا

---

[1]– رواه أحمد، **مسند أبي الدرداء**، [27508]، 500/45، ورواه أبوداود، **سنن أبي داود**، [4919]، 7/ 280، ورواه الترمذي، **سنن الترمذي**، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، [2677]، بهذا الإسناد، وقال: هذا حديث صحيح.

[2]– الملا الهروي علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين القاري، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، باب: ما ينهى عنه من التهاجر والتقاطع، لبنان، بيروت، دار الفكر، ط 1(1422هـ – 2002م)، 8/ 3153.

[3]– نفسه، 8/ 3153.

كانت أفضل الصدقات عند الله إصلاح ذات البين وهي من صدقات اللسان، حتى أن النبي ﷺ رخص الكذب للصلح بين اثنين، قال ﷺ: «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا»[1].

فليس هذا الترخيص في الكذب للصلح بين الناس إلا دليلا واضحا على مرونة الإسلام وشموليته، واهتمامه بالجانب الاجتماعي في حياة الناس، ولوكان في الظاهر على حساب الجانب التعبدي الشرعي؛ ذلك أن الصلح يقضي على الشحناء والعداوة المفضيتين إلى الإفساد، دون أن نغفل عن الراية، أوالقانون الإسلامي، القائم على الأخوة في الإسلام، حيث رفعت راية الإخاء بين المؤمنين منذ فجر الدعوة إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: 10].

يقول السيد الشهيد إن هذه القاعدة التشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من التفكك، والانسياق خلف النزوات والاندفاع وراءها؛ "فهويمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق"[2].

فالصلح مدعاة لرحمة الله، وهومن صفات الأتقياء؛ فمن كان أهلا للإيمان كان الصلح عليه واجبا كأنه فريضة من الفرائض التي افترضها الله على عباده، ويقول شيخ المفسرين الطبري إن الإصلاح فريضة: "وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان...ليرحمكم ربكم"[3].

هذه شمولية العبادة حيث إن الإصلاح بين المتخاصمين عبادة، موجبة لرحمة الله، حتى أن الحديث ينفي الذنب المترتب على الكذب؛ إذ كان هدفه وغايته الإصلاح بين الناس، ويقاس على هذا الأمر وما شابهه كل ما فيه مصلحة للعباد؛ فهويدخل ضمن معنى العبادة الواسع الذي لا حدود له.

3– دور العبادة في تحقيق إعمار الأرض: خير ما يُبدأ به هذا العنصر كلام في قمة الروعة لشيخ الإسلام ابن تيمية يقول فيه: "القلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة؛ فالقلب لا يصلح ولا يُفلح ولا ينعم ولا يُسَرُّ ولا يلتذّ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه، ولوحصل له كل ما

---

[1]– أخرجه أبوداود، **سنن أبي داود**،أول كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، [4920] ، 281/7؛ ورواه االترمذي، **سنن الترمذي**، أبواب البر والصلة، باب ماجاء في إصلاح ذات البين، [1938]، 395/3، وقال حديث حسن صحيح؛ ورواه أحمد، **مسند أم كلثوم بنت عقبة**، [27228]، 249/45.

[2]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 10/ 3343.

[3]– الطبري، **جامع البيان**، 22/ 233.

يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هومعبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله؛ فهودائماً مفتقر إلى حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 4].

وإذا كانت العلّة الغائية هي العبادة، فما هودور العبادة في تحقيق الإعمار الدنيوي الذي هوالنصف الثاني والمهم لغاية الخلق؟ وهل يحقق دورَه هذا الإعمار المنشود من هذا الخليفة؛ الحامل لأمانة ثقيلة، أبت السماوات والأرض حملها دون عبودية واستعانة وتوكل؟

هذا ما ستجيب عليه الدراسة في النقاط الآتية:

أ– مسؤولية الإنسان في إعمار الأرض: يرى المتأمل في آيات القرآن الكريم كما هائلا من النصوص، تحث الإنسان حثاً وتدفعه دفعاً إلى القيام بواجب الاستعمار في الأرض، حتى يستفيد مما سخره الله فيها ويحقق النفع، والمصلحة المستمرة له فيها؛ فإعمار الأرض أمر على الوجوب، وإلى هذا أشار ابن العربي الإمام المالكي، حين نقل عن بعض علماء الشافعية أن "الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب"[1].

فقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: 61]، وقوله سبحانه: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾"إنما هوطلب التعمير"[2]، واستخلفهم الله فيها ليعمروها[3]، وأمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وغرس أشجار، وقيل: "ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها"[4].

وقد صنف العلماء مسألة دور الإنسان في تعمير الأرض تحت أبواب العقيدة؛ لأنها بحثت ضمن معنى "الهدف من خلق الإنسان"؛ ذلك أن هذا الهدف وراء الغاية العظيمة؛ ألا وهوعبادة الله. ولأن سعادة الإنسان أثر بديهي ومنطقي من آثار عبادة الله، ولأن سعادة الإنسان لا تكتمل بدون عمران، وبناء، وتشييد، وغرس، ورعي، بمقتضى ما أهله الله لذلك، ووفق سنن الله سواء الكون المادي، أوالكون البشري، وحتى يفوز، وتحقق له سعادته بالحياة الطيبة وتكون خلافته في هذه الأرض خلافة راشدة،

---

[1]– ابن العربي، محمد بن عبد الله القاضي أبوبكر المعافري الاشبيلي المالكي، **أحكام القرآن**، تعليق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 3 (1424 هـ – 2003م)، 3/ 18.

[2]– الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 11/ 6529.

[3]– ينظر سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1907/12.

[4]– أبوحيان الأندلسي، محمد بن يوسف، **البحر المحيط في التفسير**، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1 (1422هـ–2001م)، 5/ 239.

فعليه أن يتبع المنهج الرباني في عمارة الأرض، وهذا المنهج بينه لهم في كتابه المسطور، وأرشدهم إلى سبيل العيش الكريم الرغيد، وهيأ لهم الكون بتسخيره براً، وبحراً، وجواً، حتى ينعم هذا الخليفة ولا يشقى، فدعاهم إلى التأمل والتدبر في الكون، ليفقهوا السنن الإلهية، التي أودعها الله في كتابه المنظور، وبفقهها ومسايرتها وعدم الغفلة وتنكبها، يصل الإنسان لأن يؤدي مسؤوليته على أكمل وأتم وجه في إعمار الأرض، قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾[الذاريات: 20-21].

ولا شك أن هذه المسؤولية عظيمة ثقيلة، تعجز وريقات هذا البحث عن الإلمام بأنواعها وأقسامها، لذلك فقد اقتصرت على بعضها مراعاة لخصوصية البحث والدراسة، وهذا العنصر الآتي يعرضها في النقاط الآتية:

ب– حاجة الإنسان إلى التعلم: قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[العلق: 1]؛ فلا سبيل إلى عمارة الأرض إلا بالعلم؛ لذا كان أول ما أنزل من كتاب الله "اقرأ"؛ فأمر القرآن الإنسان بضرورة التعلم، وجعل طلب العلم فريضة شرعية يثاب عليها، وكل تقصير في تنفيذ هذا الأمر معصية فردية تعود نتائجها على الجماعة المسلمة كلها، فتجني الأمة ثمرتها جهلا، وتخلفا ومذلة وفقرا وتبعية اقتصادية وثقافية وسياسية، فتضع رقبتها في قبضة الأعداء المتربصين بها، وتُوَقِّعُ بيِّنة انهيارها واستدمارها، ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين العلم والسنن الألهية"القوانين التي قامت عليها العلوم المختلفة، ترتكز على أساس من فهم السنن،بل إن القوانين التي ثبتت صحتها بدليل قطعي،ماهي إلاصياغة بشرية،لما اكتشفه الإنسان من السنن الربانية"[1].

وحين يقص علينا القرآن أحوال الأمم السابقة، ويذكرنا كيف جرت عليهم السنن الإلهية في الكون من ازدهار الحضارات أوانهيارها ، فكل ذلك كان على سبيل التعليم والإفادة من الدرس والعبرة من التاريخ؛ حتى يكون "تاريخ الإنسان نفسه مجالا رحبا لعمل العقل، فيتعرف منه أساس ازدهار الحضارات وانهيارها، ليعي العبرة من قص القرآن لهذه السنن وعلاقتها بالأفراد والجماعات. فالكون كله مسرح للعقل وميدان لعمله، وتاريخ الإنسان كله مسرح لنظر العقل، والعقل مهيأ للسيطرة الكلية على الكون واحتواء تاريخه، فكرا وتأملا، مقدمات ونتائج، علاقات بين الأشياء، أسبابا ومسببات، تسخيرا وتوظيفا، وتلك مهمة العقل ووظيفته في عالم الشهادة، وذلك واجبه الشرعي الذي ندبه القرآن له وحثه عليه وأمره به"[2].

---

[1]– أحمد كنعان، **أزمتنا الحضارية**، ص:112.

[2]– محمد السيد الجليند، **الوحي والإنسان – قراءة معرفية**، القاهرة، دار قباء، (د،ط،ت)، ص: 73.

وهذا الواجب الشرعي الذي يبينه صاحب كتاب الوحي والإنسان، هو جزء بسيط مما عناه الوحي بأمره للنبي ﷺ، وهو يخطو المرة تلو المرة ويأمره بالقرآن، قال ﷺ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ»[1].

إذن فالحكمة من نزول الآيات الأولى من سورة العلق وكلمة (اقرأ) هي للتعلم، ورب قائل يقول: كيف أن رسالة الإسلام جاءت لتوحيد الله وعدم الشرك به، وعبادته حق العبادة، وأول نص شرعي لهذه الرسالة يأمر بالعلم والقراءة، والجواب ميسور؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يُعبد بجهالة؛ ولم يقف الحث الشرعي عند ضرورة التعلم فقط، بل تجاوز ذلك إلى الدفع والتحفيز للتبحر والتحليق بالعقل تفكرا وتدبرا في آفاق السماوات والأرض لاكتشاف السنن ،ومن ثمة تسخيرها وتفعليها لتحقيق المنافع والمصالح المشروعة لتحقيق المقصد العام من التشريع، لذلك اهتم الإسلام بالعلم أعظم اهتمام، ورفع مكانة العلماء، فجعلها أسمى المراتب، وأعلاها حيث فضل العلماء،عن العوام من الناس، في حين نجد أن القرآن يأمر في جل نصوص الذكر الحكيم بوجوب المساواة بين الناس، وأن ميزان التفاضل في الإسلام هوالتقوى فحسب، ولكن حين يتعلق الأمر بالعلم نجد بيانا سماويا واضحا وقاطعا يفرق بين العالم وغيره، قال العليم الخبير مبينا عظمة العلم وأهله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: 9]، وقوله عز من قائل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة: 11]، فهذا تنبيه سماوي على شرف العلم ومكانة أهله من الرفعة والعلوعند أهل الأرض والسماء، فالذين يعلمون في أعلى مدارج الكمال، والذين لا يعلمون في أقصى مدارج البشر[2].

يقول الرازي في تفسيره إن الله "قَدْ فَرَّقَ بَيْنَ سَبْعِ نَفَرٍ فِي كِتَابِهِ؛ فَرَّقَ بَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ، وبَيْنَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَبَيْنَ الظِّلِّ وَالْحَرُورِ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ وَجَدْتَ كُلَّ ذَلِكَ مَأْخُوذًا مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ"[3].

وكل هذه الفروق مردها ومرجعها للعلم، أوالجهل فصاحب العلم يعرف الحلال من الحرام، وبخشيته من الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: 28]... يتحرى الطيب في المأكل والمشرب والملبس، وفي كل أموره فلا يكون خبيثاً، فهوبصير يذكر بعلمه، وحكمته وإعمال عقله، فلم يعطله فنال

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، [3]، 7/1، وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، [252]، 139/1.

[2]- مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 8/ 541.

[3]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 2/ 400

بذلك لقب "أولي الألباب"، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[البقرة: 269].

"الْمُرَادُ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعِلْمُ... وَالْعُلُومُ لَا نِهَايَةَ لِمَرَاتِبِهَا وَعَدَدِهَا وَمُدَّةِ بَقَائِهَا، وَالسَّعَادَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْهَا، وَذَلِكَ يُنْبِئُكَ عَلَى فَضِيلَةِ الْعِلْمِ"[1].

فبقاء العلم، وأثره فضل عظيم، لا يوافيه فضل إذ هومن الصدقات الجارية الباقية ما عاش الإنسان، في دنياه، وتمتع بفضائله، وكان له رحمة في قبره، ينتفع برحماته حتى ينفخ في الصور، «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»[2]. ولعل مدح القرآن لأصحاب العلم، ووصفهم بأولي الألباب في عدة آيات لتوجيه وتنبيه وإشارة منه إلى ضرورة فقه علم عظيم من العلوم، ربما غفل عنه جمهور غفير من العلماء، لانشغالهم بعلوم أخرى كعلم الكلام، وقواعد الفقه وأحكامه وعلوم الفلسفة... وغيرها، فمروا مرور الكرام على فقه سنن الله الجارية في الكون والخلق، فهذا علم عظيم ضاع، أوضُيع لدهر من الزمن ليس بالقصير وإلى هذا الأمر أشار صاحب التفسير السنني، تفسير المنار في عرضه لتفسير: "﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾، وَلَوأَنَّ عُلَمَاءَ الصَّحَابَةِ أَوالتَّابِعِينَ كَتَبُوا فِي التَّفْسِيرِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ لَبَيَّنُوا لَنَا ذَلِكَ. وَلَمْ يُقَصِّرِ الْمُصَنِّفُونَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمَا قَصَّرُوا فِي بَيَانِ مَا هَدَى إِلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ، ... فَإِنَّ الْعِلْمَ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ، لَا يَعْلُوهُ إِلَّا الْعِلْمُ بِاللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، بَلْ هُومِنْهُ أَومِنْ طُرُقِهِ وَوَسَائِلِهِ"[3].

وهذا ما أقصده بمسؤولية الإنسان في التعلم لأن موضوع العلم، وأهميته، وفضله صنفت فيه المجلدات، خصصت له رفوف عديدة في المكتبات، فمسؤولية الإنسان في تحقيق سعادته الدنيوية، للفوز بالحياة الطيبة، ومجانبة المعيشة الضنك، مسؤولية عظيمة، لذلك كان لازما عليه دراسة وفقه وتعلم – السنن الحاكمة والجارية في الخلق– وهوالقدر المحمود من العلوم؛ يقول أبوحامد الغزالي في بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة: "وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا فإن هذا علما مطلوبا لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة... وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم"[4].

---

[1]– ينظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، 7/ 57-58.

[2]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، [1631]، 3/ 1255

[3]– رشيد رضا، **تفسير المنار**، 416/7.

[4]– أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 39/1.

لقد لفت أبوحامد الغزالي الأنظار إلى موضوع السنن منذ وقت بعيد، ومما لا شك فيه أن هذه السنن كانت حاضرة في فهم وسيرة المصطفى ﷺ وكذلك فقهها كبار الصحابة رضوان الله عليهم، وعملوا وفقها، وشغلهم الجهاد لتبليغ الرسالة عن تدوينها.

"وَلَا يُحْتَجُّ عَلَيْنَا بِعَدَمِ تَدْوِينِ الصَّحَابَةِ لَهَا فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يُدَوِّنُوا غَيْرَ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا الْأُصُولُ وَالْقَوَاعِدُ، وَفُرِّعَتْ مِنْهَا الْفُرُوعُ وَالْمَسَائِلُ، (قَالَ) وَإِنَّنِي لَا أَشُكُّ فِي كَوْنِ الصَّحَابَةِ كَانُوا مُهْتَدِينَ بِهَذِهِ السُّنَنِ وَعَالِمِينَ بِمُرَادِ اللهِ مِنْ ذِكْرِهَا. يَعْنِي أَنَّهُمْ بِمَا لَهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالشُّعُوبِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُمْ وَمِنَ التَّجَارِبِ وَالْأَخْبَارِ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهَا وَبِمَا مُنِحُوا مِنَ الذَّكَاءِ وَالْحِذْقِ وَقُوَّةِ الِاسْتِنْبَاطِ كَانُوا يَفْهَمُونَ الْمُرَادَ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى وَيَهْتَدُونَ بِهَا فِي حُرُوبِهِمْ وَفُتُوحَاتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ لِلْأُمَمِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا"[1].

مادام أن موضوع السنن الإلهية كان حاضراً في حس ووعي الرعيل الأول من الصحابة – رضوان الله عليهم– في فهم سلف الأمة من أهل العلم، وأصحاب الحكمة (أولوا الألباب)؛ فلا شك أن حاجة الإنسان ماسة إلى فقه السنن، حيث كُلف بالسير والتبصر في أحوال الأمم السابقة للاستفادة من التجربة البشرية ليخرج من حالة الركود والكمون إلى دائرة البناء والتعمير، والعمل والاجتهاد للقيام بدوره الاستخلافي الفعال للوصول بالأمة إلى الشهود الحضاري؛ ولا سبيل لبناء حضارة، وتحقيق نهضة، ورقي وازدهار للعودة بالأمة المسلمة إلى دائرة الفعل الإرادي والتقدم إلا بالعمل الذي يعتبر مسؤولية هذا الإنسان في إعمار الأرض وهوأحد أطراف المعادلة للوصول إلى الحياة الطيبة.

ج– **حاجة الإنسان للعمل**: قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [التوبة: 105]؛ يقول محمد رشيد رضا في تفسير هذه الآية: "هَذِهِ الْآيَةُ حَثٌّ عَلَى الْعَمَلِ النَّافِعِ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كونه هوالذي عليه المعول... فَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالْعَمَلِ لَا بِالِاعْتِذَارِ عَنِ التَّقْصِيرِ، وَلَا بِدَعْوَى الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ، وَخَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنُوطَانِ بِالْعَمَلِ، وَهُولَا يَخْفَى عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى النَّاسِ... وَجَدِيرٌ بِمَنْ يُؤْمِنُ بِرُؤْيَةِ اللهِ لِعَمَلِهِ أَنْ يُتْقِنَهُ، وَأَنْ يُخْلِصَ لَهُ النِّيَّةَ فِيهِ"[2].

منذ بدء الخليقة، واستخلاف الإنسان لعمارة الأرض جعل الله سنة البقاء، والاستمرار في الحياة مبنية على ضرورة العمل، والضرب في مناكب الأرض بحثا عن الرزق لتلبية حاجيات الإنسان المختلفة كالطعام، والشراب، واللباس، والسكن، وغيرها، رفعا للمشقة والحرج عن هذا الإنسان، ليعيش حياة

---

[1]– رشيد رضا، **تفسير المنار**، 115/4.

[2]– نفسه، 11/ 27-87.

طيبة، فالعمل ضرورة بشرية فطر الإنسان عليها، فيستحيل أن يتم الإعمار بدونه، فعمل الإنسان وسعيه هوالمعول عليه لسد حاجاته المختلفة والكثيرة، ومن هنا تكمن أهمية العمل في حياة الإنسان.

– يعرف العمل بأنه: المهنة والفعل[1] يعرفميرسون Meyerson "العمل على أنه نشاط يخضع لمنهج معين ومنظم، مشترك بين مجموعة من الأفراد"[2]، "وهوكل جهد عقلي أوبدني في مجال النشاط الاقتصادي لغرض الكسب على وجه العموم"[3].

لا شك أن أهمية العمل واضحة، ومن الأمور المسلم بها، والتي يقع الإجماع عليها عند كل الشعوب، والأمم على اختلاف ثقافتها، ودينها، ولسانها، باختلاف الزمان والمجتمعات، كما تباينت التعريفات، والمفاهيم بشأنه بتباين العلوم، والتخصصات، حتى بلغت الكم الهائل، كذلك برع أهل كل فن من الفنون في بيان أهميته ما يصعب حصر هذه الأهمية لذلك نقتصر على بيان بعضها.

فعند علماء الاقتصاد العمل هو السبيل لإنتاج الثروة والحصول على المنافع، وهوالسبيل الوحيد للكسب على وجه العموم[4]. وعند الفلاسفة: تحقيق منافع بشرية[5]. وعند علماء النفس: العمل سنة طبيعية في حياة الناس وحركة وفعالية ،والتكوين البيولوجي لجسم الإنساني تطلب الحركة لأنها ضرورية لنشاطه وقوته، الطريق لإشباع حاجات الإنسان الطبيعية والنفسية والاجتماعية[6]. أما عند علماء الاجتماع: العمل يحقق شخصية الفرد، العمل وسيلة لحفظ الحياة وصيانتها[7].

وبالنسبة للعمل عند المسلمين فقد حظي بمكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، حيث نظر إليه الإسلام نظرة احترام وتقدير وتكريم، وتقديس، وإجلال وتعظيم، ما نبرزه في النقاط التالية:

ج–1– العمل عبادة يثاب عليها:حيث اعتبر الشرع الإرهاق والتعب من جراء العمل من مكفرات الخطايا والذنوب ورتب عليه المغفرة، كما أسقط عبادة قيام الليل، فخففها، من أجل القيام نهاراً بعبادة العمل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ

---

[1]– ابن منظور، **لسان العرب**، 11/ 476.

[2]– Yves Clot : Les histoires de la psychologie du travail, Approche pluridisciplinaire, 2 éd Octares, 1999, France, P 159.

[3]–الخرافي عبد المحسن عبد الله الجار الله، **مفهوم وتاريخ العمل الإنساني**،الكويت، مركز التطوير والتدريب للاتحاد العالمي للمؤسسات الإنسانية، (د،ط،ت)، ص3.

[4]–الخرافي عبد المحسن عبد الله الجار الله، **مفهوم وتاريخ العمل الإنساني**، ص: 3.

[5]– المرجع نفسه، ص: 4.

[6]–ينظر:**موسوعة علم النفس والتربية**،لبنان،بيروت،(د، ط) (2000–2001)،editor creps INT، ص: 186؛ وينظر: مصطفى فهمي، **الدوافع النفسية**، القاهرة، دار مصر للطباعة،ط3 (1955م)،ص: 55.

[7]– أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، بيروت، مكتبة لبنان، (1986م)، ص: 236.

يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾[المزمر: 20]، يقول سيد قطب: "إنها لمسة التخفيف الندية تمسح على التعب والنصب والمشقة... وهناك أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة ويشق معها القيام الطويل... في طلب الرزق والكد فيه، وهوضرورة من ضرورات الحياة، والله لا يريد أن تدعوا أمور حياتكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر"[1].

فالإسلام دين العمل والجد والاجتهاد، والسعي المرافق للتوكل على الله، لا ينقطع فيه المسلم عن العمل بداعي التعبد والتنسك وانقطاع الرهبان، وهذا الملهَم عمر بن الخطاب يضرب بالدرة الشباب الذين تفرغوا للعبادة في المسجد وتركوا العمل؛ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – رَأَى ثَلَاثَةَ نَفَرٍ فِي الْمَسْجِدِ مُنْقَطِعِينَ لِلْعِبَادَةِ فَسَأَلَ أَحَدَهُمْ مِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ؟ فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ، وَهُو يَأْتِينِي بِرِزْقِي كَيْفَ شَاءَ فَتَرَكَهُ وَمَضَى إلَى الثَّانِي فَسَأَلَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ لَهُ أَخًا يَحْتَطِبُ فِي الْجَبَلِ فَيَبِيعُ مَا يَحْتَطِبُهُ فَيَأْكُلُ مِنْهُ وَيَأْتِيه بِكِفَايَتِهِ فَقَالَ لَهُ: أَخُوك أَعْبَدُ مِنْك ثُمَّ أَتَى الثَّالِثَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: إنَّ النَّاسَ يَرَوْنِي فَيَأْتُونِي بِكِفَايَتِي، فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ وَقَالَ لَهُ أُخْرُجْ إلَى السُّوقِ أَوكَمَا قَالَ"[2].

فدل ذلك على أن التكسب والعمل في الإسلام أفضل من الاعتكاف والانقطاع لعبادة الله، لأن العابد في هذه الحالة سيكون عالة على المجتمع، وربما يتسبب هووأمثاله في انهيار اقتصاد الدولة المسلمة، ما يورث الفقر والبؤس بين أفراد المجتمع.

ج–2– العمل سنة الله في جميع الأنبياء والرسل: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان: 20]، يقول الرازي في تفسير هذه الآية: "أي تمشيهم حوائجهم"[3]، وحاجات الناس مختلفة من بيع وشراء في الأسواق، والرسل ليسوا بدعاً من الناس فهم أيضا يمشون في الأسواق لغرض قضاء حوائجهم والتكسب، ومن اعترض على هذا فقد اعترض على سنة من سنن الله الجارية؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل العمل سنة أنبيائه ورسله، فكان منهم التاجر وراعي الغنم، والنجار، وصانع الدروع، "وَيَدْخُلُونَ الْأَسْوَاقَ لِلتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارٍّ لَهُمْ وَلَا نَاقِصٍ مِنْهُمْ شَيْئًا"[4].

---

[1]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3749/29.

[2]– أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، **المدخل**، دار الفكر، (د، ط) (1401هـ– 1981م)، 299/4.

[3]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 445/24.

[4]– ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 5/ 334.

يقول ابن باديس فيقول: "إن الرسل يأكلون الطعام فيحتاجون للغذاء وتحصيله، وإنهم يمشون في الأسواق للسعي والتكسب"[1]، فكان بذلك السعي والتكسب والعمل ضرورة بشرية عند الأنبياء والرسل، مع تكليفهم بمهمة الدعوة واشتغالهم بتبليغ رسالات ربهم إلى أقوامهم، فكان بذلك العمل واجبا في الإسلام للفوز بطيب المعاش، يقول الإمام القرطبي: "أَيْ يَبْتَغُونَ الْمَعَايِشَ فِي الدُّنْيَا، وهذه الآية أصل في تناول الْأَسْبَابِ وَطَلَبِ الْمَعَاشِ بِالتِّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنْ أَصْفِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ بِالْأَسْبَابِ وَالِاحْتِرَافِ"[2].

وما قص الحق علينا قصص الأنبياء إلا للاقتداء بسنتهم، واتباع نهجهم، فمن كان يرغب في الاتصاف بصفاتهم – عليهم الصلاة والسلام – فليتخذ الأسباب وليسع ويكد في العمل طلبا للمعاش، فهذا كليم الله موسى يقدم العمل والرعي صداقا ومهرا لعروسه؛ قال عز من قائل: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾[القصص: 27]، ويقول النبي ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّها فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»[3].

وجاء في شرح هذا الحديث أن الإنسان مادام يسعى على ما يقوت به نفسه وأولاده، فهومثاب مأجور بهذا الخروج للعمل مثل خروجه للجهاد في سبيل الله، وكذلك من يعف نفسه عن المسألة، وعن أكل الحرام فهوكالمجاهد في سبيل إعلاء كلمة التوحيد[4].

فمن يتعبد ويبذل الجهد من أجل الإنفاق على من يعول من الأهل، فأجره عند الله عظيم، فهويعادل الجهاد بالنفس في سبيل الله، ذلك أنه يتحرى الحلال، فكان هذا السعي في العمل من معاني الجهاد في القرآن والسنة، لهذا نجد اقتران العمل بالجهاد في نصوص الوحي، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل: 20].

فقد قرن القرآن بين كلفة العمل والسعي للرزق وبين تعب الجهاد والقتال في سبيل الله، لأن في الأمرين بذلا وعطاء، وكلاهما ميدان صبر وتضحية ومشقة، وأهل الآيتين مقاتلون، جهاد من أجل

---

[1]– عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، **تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)**، تح: أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1416هـ – 1995م)، 165/1.

[2]– القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 13/ 12.

[3]– رواه الطبراني، **المعجم الكبير**، [282]، 19/ 129، وينظر: **المعجم الأوسط**، باب من أسمه أحمد، [6835]، 56/7.

[4]– ينظر المناوي، زين الدين محمد المدعوبعبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي ثم القاهري، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، ط 1 (1356هـ)، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، 31/3.

المعاش، وقتال من أجل رفع راية الإسلام، يقول الرازي: "مِنْ لَطَائِفِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى سَوَّى بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ وَالْمُسَافِرِينَ لِلْكَسْبِ الْحَلَالِ"[1].

وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما– قال: "ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله"[2].

فيالها من مرتبة عظيمة "مرتبة الشهداء"، لمن يلتمس الكسب الحلال للنفقة على النفس والأهل، وياله من فضل عظيم من الله أن يسوي بين درجة الجهاد والمجاهدين في سبيله، وبين درجة العمل والساعين، شيء إن دل فإنما يدل على أن هذا الدين القيم يشجع ويحبب في العمل، ويندب إليه لكسب الطيب، وهذا دليل على أن كسب المال بطرق شرعية بمنزلة الجهاد في الإسلام.

من خلال ما تم تقديمه نلخص إلى أن حاجة الإنسان الفطريةوالضرورية للعبادة سنة حتمية، وأنها من الأمور الجالبة للسعادة، والمحققة للحياة الطيبة، باعتبار ارتباط جميع التشريعات في الإسلام بمقاصد وأسرار وحكم جليلة، علمها من علمها، وفاز بنعميها، وغفل عنها من غفل وحُرِمَ نفعها.

ولكن هل تحقق هذه العبادة بمفردها تحقق سعادة البشر ليحيوا حياة طيبة؟ الإجابة عن هذا الإشكال المعرفي يلزم الحديث عن سنة فطرية عظيمة النفع، وعظيم حب الناس لها وحرصهم عليها،ألا وهي سنة حب المال، وما أعظمها من سنة؟!.

ثالثا: التعلق الفطري بالمال

قبل الحديث عن تعلق الإنسان،وحبه الجبلي للمالوجبأولاتعريفه وبيان أهميته في حياة الناس.

1– تعريف المال وأهميته: للمال أهمية عظيمة في حياة البشر، ولقد اعتنى به الإسلام ووضع له أحكاما وتشريعاتا لحفظه وجودا وعدما.

2– تعريف المال لغة واصطلاح:

أ– تعريف المال لغة عرف المال بأنه: "مَا يُملك مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، ثُمَّ أُطلِق عَلَى كُلِّ مَا يُقْتَنَى ويملَك مِنَ الأَعيان"[3]؛ وهناك تعريف أعم، وهو"المالُ: مَعْرُوفٌ مَا مَلَكْتَه مِنْ جَمِيعِ الأَشياء"[4].

ب– تعريف المال اصطلاحا: فمعناه عند العلماء على النحوالآتي:

---

[1]– الرازي، **مفاتيح الغيب** ، 695/30.

[2]– رواه البيهقي، **شعب الإيمان**، [1198] ،450/2.

[3]– ابن منظور، **لسان العرب**، 11/ 636.

[4]– نفسه، 11/ 635.

– عند جمهور العلماء: "لَا يَقَعُ اسْمُ مَالٍ إلَّا عَلَى مَا لَهُ قِيمَةٌ يُبَاعُ بِهَا وَتَلْزَمُ مُتْلِفَهُ، وَإِنْ قُلّت وَمَا لَا يَطْرَحُهُ النَّاسُ، مِثْلُ الْفَلْسِ وَمَا أَشْبَهَ"[1].

– عند الحنفية: "هوكل ما يمكن حيازته وإحرازه وينتفع به عادة"[2]. ويظهر أن تعريف الجمهور هو الراجح دلك أنه الأقرب لمعنى المال ودلالته،فتعريف الحنفية يدخل تحته أشياء كثيرة ينتفع بها الإنسان،من غير أن يطلق عليها مسمى المال كالماء،والغذاء، وغيرها. وقد جاء ذكره في نصوص الوحيين مثل قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[الفجر: 20]، وقال أيضا: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: 46].

فالمال من الأسباب الفطرية التي تحقق الحياة الطيبة؛ حيث جعل الإسلام حبه والرغبة في تملكه من الدوافع الفطرية التي تولد مع الإنسان، وينموحب اقتنائه مع نموه؛ فهومشترك إنساني بين بني البشر.

3- **أهمية المال في الإسلام:** يعتبر المال من الأمور المهمة في حياة الأفراد والجماعات لذا أعطى له الإسلام مكانة مهمة، فجعله قوام الحياة، ونصف زينتها ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: 46]، وعليه تم الاتفاق بين الفقهاء والأصوليين على أن حفظه يعد من المقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية، ورتب ضمن الكليات الخمس التي تتعدى آثارها الحياة الدنيا إلى الآخرة، ويمتد تأثيره الكبير على الفرد والمجتمع، فمستحيل العيش والحفاظ على كلية النفس إلا بالمال؛ فهوعصب الحياة وشريان البقاء، وهومن نعم الله العظيمة على عباده، وهوالخير كما سماه القرآن الكريم في بعض آياته، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۖ﴾[العاديات: 8]، وقال عز من قائل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ۗ﴾[البقرة: 215]، وقال أيضا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ۖ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۖ﴾[البقرة: 180]، وقد ذكره القرآن جزاءً وعطاءً لعباده المستغفرين؛ فإضافة إلى مغفرة الذنوب، يمدهم بالأموال جزاء عاجلا في الحياة الدنيا، ولا ينكر إلا الجاحد أن المال من الأسباب الأساسية ليحيا الإنسان حياة طيبة، وهوأيضا من مظاهر التمكين في الأرض؛ فالإسلام لا يصادم الفطرة وهودين الفطرة، فهذا الإنسان جُبِلَ على حب المال حبا جما، قيل: "أي كثيراً، حلاله وحرامه"[3].

---

[1]- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، **الأشباه والنظائر**، دار الكتب العلمية، ط 1(1411هـ - 1990م)، 327/1؛ وينظر: وهبة الزحيلي، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دمشق، دار الفكر، ط 4(د،ت)، 2875/4.

[2]- نفسه، 4/ 275.

[3]- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 20/ 54.

لذا حسب الإسلام حساب الفطرة، فهذب حبه للمال بوضع تشريعات تضبط وسائل اقتنائه وإيجاده، وتداوله واستهلاكه.

يقول يوسف القرضاوي في بيان منزلة المال وأهميته في الإسلام: "للمال في الإسلام مكانة مهمَّة في حياة الفرد والجماعة... يعتبره وسيلة هامَّة لتحقيق مقاصد شرعية دنيوية وأخروية، فردية واجتماعية؛ فلا يستطيع المرء أن يحافظ على حياته المادية إلا بالمال، فبه يأكل، وبه يشرب، وبه يلبس، وبه يبني مسكنه، وبه يصنع سلاحه الذي يدافع به عن نفسه وحرماته، وبه يطوِّر حياته ويرقِّيها، وبه يستطيع أن يزكِّي ويتصدَّق ويعتق الرقاب، ويسهم في الخيرات"[1].

وإضافة إلى كون المال عمودا أساسا من أعمدة الدنيا وقوامها، فهويترتب عليه أركان الدين الإسلامي، والركن الواضح والبين تعلقه بالمال هوركن الزكاة؛ فالزكاة عبادة مالية، وفريضة عظيمة تعتبر من آليات التكافل الاجتماعي في الإسلام الأساسية؛ فهي تقوي أواصر المحبة والمودة بين أفراد المجتمع، فضلا عن ضرورة المال في عبادات أخرى، وأركان إسلامية، فالحج الركن الخامس يتوقف وجوبه على نعمة المال، وبناء المساجد، ودور تحفيظ القرآن وإعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله، ينعدم بدون مال.

ويكفي إشادة بفضل المال وأهميته في الإسلام أن أصحاب الصدقات الجارية، وأهل الوقف، ثوابهم وحسناتهم مستمرة لا ينقطع نفعها بموتهم، قال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَووَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُولَهُ»[2].

والإسلام يمدح التعفف، ويذم المسألة، ولا تعفف عن سؤال الناس إلا بالمال، فعن رسول الله ﷺ قال: « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ»[3]، "يَحُضُّ الْغَنِيَّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَالْفَقِيرَ عَلَى التَّعَفُّفِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ أَوْ يَحُضُّهُ عَلَى التَّعَفُّفِ وَيَذُمُّ الْمَسْأَلَةَ ... قَوْلُهُ فَالْيَدُ الْعُلْيَا يُعِفَّهُ اللَّهُ أَيْ إِنْ عَفَّ عَنِ السُّؤَالِ وَلَوْ لَمْ يُظْهِرْ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ النَّاسِ لَكِنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ شَيْئًا لَمْ يَتْرُكْهُ يَمْلَأِ اللَّهُ قَلْبَهُ غِنًى بِحَيْثُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى سُؤَالٍ وَمَنْ زَادَ

---

[1]– يوسف القرضاوي، **مقاصد الشريعة الإسلامية المتعلقة بالمال**، المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، الدورة الثامنة عشرة للمجلس، (1429هـ– 2008م)، يوم التصفح 2019/09/13م.

https://www. e-cfr.org/blog/2014/01/31/مقاصد-الشريعة-المتعلقة-بالمال/

[2]– سبق تخريجه، ص32.

[3]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، [1427]، 2/ 112.

عَلَى ذَلِكَ فَأَظْهَرَ الِاسْتِغْنَاءَ فَتَصَبَّرَ وَلَوْ أُعْطِيَ لَمْ يَقْبَلْ فَذَاكَ أَرْفَعُ دَرَجَةً فالصبر جَامع لمكارم الْأَخْلَاق"[1].

فالله سبحانه وتعالى يعلن حبه لعبده الغني، ذلك أن هذا الغني سيساهم في بناء المجتمع والعمل على تطويره، ويشارك بماله في تحقيق التنمية الاقتصادية[2] للجماعة المسلمة، وفي الحديث الذي رواه سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»[3].

ولو تتبعنا كل النصوص الشرعية، والآثار عن أهمية المال في الإسلام ما وسعت صفحات هذه الرسالة بيان أهميته، لذلك يكفي ما ذكرناه، مجانبة للتطويل والحشو.

ولما كان المال بهذه الأهمية في الإسلام، فقد شرعت للمحافظة عليه أحكام وتوجيهات نعرضها في العنصر الموالي:

4– أحكام وتوجيهات الإسلام لحفظ المال: وضع الإسلام جملة من التشريعات متمثلة في الأوامر والنواهي للحفاظ على المال من الضياع والإتلاف، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء: 5]؛ فَالسُّفَهَاءُ هُمُ الذين يُبَذِّرُونَ أَمْوَالَهُمُ بإنفاقها "فِيمَا لَا يَنْبَغِي، وَيُخطئُونَ إِنْمَاءهَا وَتَثْمِيرِهَا، ما يفوت عليهم التمتع بعوائدها [4].

فنلحظ أن النهي عن إضاعة المال جاء صريحا في القرآن، وبذلك شرع الحجر على السفهاء والمجانين لصالح الحفاظ على كلية المال، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: 188]؛ "لأن استحلال التعدي وأخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب، وهوجناية على الأمة"[5]. إذن فالتعدي على مال الفرد بالباطل ضياع، وتعدّ على مال الأمة، وجناية على اقتصادها.

كما نهى عن كل أوجه إضاعة المال وإتلافه؛ فنهى عن الإسراف والتبذير، وذم المبذرين، ووصفهم بإخوان الشياطين، وحرم التعامل بالربا، ووصف آكله بمن يتخبطه الشيطان من المس، كما أعلن حرب

---

(1)– ابن حجر، **فتح الباري**، 296/3.

(2)– التنمية الاقتصادية: هي زيادة قصدية في الانتاج والناتج القومي، تحدث نتيجة تدخل المجتمع ممثلا بالدولة باعتماد اجراءات وتدابير مقصودة غالبا تأخذ البرامج الاستمارية أو الخطط الاقتصادية، وهي في اجتهادات الإسلاميين المعاصرين: القيام بالنشاط الإنتاجي في مناخ إسلامي يتوافر فيه الإيمان والتقوى؛ ينظر: طارق الحاج، **علم الاقتصاد ونظرياته**، الأردن، دار صفاء، (د،ط) (1998م)، ص: 186؛ وينظر: عبد الرحمن يسري أحمد، **دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي**، باكستان، الدار الجامعية، (د،ط) (2001م)، ص: 120.

(3)– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الزهد والرقائق، [2969]، 2277/4.

(4)– محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 4/ 309.

(5)– نفسه، 157/2.

الدمار والهلاك على المترفين، ووعد المطففين بعذاب الويل، والنصوص الشرعية في هذا المعنى كثيرة ومتعددة.

كما شرعت النواهي للحد من التعدي على المال بالضياع والإعدام، فقد جاءت الأوامر والتوجيهات واضحة، تحث على ضرورة إيجاده والعمل على إنمائه، واستثماره بالطرق لمشروعة، فمن سنن الله المبثوثة في الكون، والجارية في الخلق، أن السماء لا تمطر ذهبا أوفضة، وأن المال لا يأتي بالأماني، بل بالسعي والضرب في مناكب الأرض، وهذا ما يفيده معنى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾[هود: 61]؛ فلقد ذلل الله الأرض وجعلها مهيئة للإنسان، ليدفعه إلى العمل والكدح في إطار السنن الإلهية، لتحصيل الرزق وإنتاج المال وتنميته.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك: 15]، وقال عز قائل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[الجمعة: 10]، وقال أيضا: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[البقرة: 275]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الأعراف: 10]، قال القرطبي: قال القرطبي: "أيْ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ قَرَارًا وَمِهَادًا، وَهَيَّأْنَا لَكُمْ فِيهَا أَسْبَابَ الْمَعِيشَةِ وَالْمَعَايِشُ جَمْعُ مَعِيشَةٍ، أَيْ مَا يُتَعَيَّشُ بِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَمَا تَكُونُ بِهِ الْحَيَاةُ"[1].

وما تكون به الحياة وهوقوامها المال؛ فالله قدر للناس الأرزاق، وحثهم بعد ذلك على وجوب التحرك والسعي في الأرض لتحصيل المال وهومن أسباب التمكين في الأرض، وابتغاء فضل الله المذكور في سورة الجمعة المراد به اكتساب المال والرزق[2].

فالإسلام أعطى حرية للفرد فيما يخص طرق اكتساب المال مادام الطريق مشروعا؛ فأباح له البيع وسيلةً لامتلاك المال، قال سيد قطب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[البقرة: 275]: "ثم إن الفرد حر في وسائل حصوله على المال، وفى طرق تنميته، كما هوحر في طرق التمتع به... لانتفاء هذا العنصر من البيع، ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة[3] في أصلها نافعة للحياة البشرية، وعمليات الربا في أصلها مفسدة للحياة البشرية"[4].

---

[1]- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 7/ 167.

[2]- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 219/28.

[3]- عمليات التجارة: التي يقصدها سيد قطب، كل عملية تجارية قائمة على البيع المشروع، والشراء، فهي ما أبيحت إلا لأن الأصل فيها تحقيق منافع الناس، وقضاء حوائجهم ومصالحهم المتعلقة بمعاشهم في الدنيا، والتي يتعدى أثرها إلى معادهم في الآخرة.

[4]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 319/13-327.

ولم يغفل الإسلام بنظامه الرشيد عن تحقيق مصالح العباد في التكسب وتحصيل المال، حتى في أشد الأوقات، وأصعب الفرائض، التي يبذل فيها النفس، كالجهاد، فقد شرع أنواعا من الكسب المشروع في الجهاد؛ فقد أحل الغنائم للمجاهدين والتي لم تحل إلا لهذه الأمة، قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[1]؛ فهي خصيصة للنبي ﷺ ولأمته في هذا التشريع ترويح عن نفس المجاهد بعد انتهاء المعركة، فمن المعروف أن المال يطيّب القلب ويزيح عنه هم القتال، وحتى أن المعنى اللغوي للغنيمة الفوز – غنمت الشيء أي فزت به–[2]، فالفوز بالمال كفيل بأن يمحوآثار المعركة البشعة من خيال المجاهد.

وتبقى الغنائم بابا لكسب الأموال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأنه وعد العزيز الحكيم الذي لا يخلف وعده، قال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾[الفتح: 20]؛ فإباحة مال الغنائم بذلك قائمة إلى يوم القيامة. يقول صاحب كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد: "وكان أول الفتح والمغانم خيبر ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر"[3]، وقال الطبري: "غَنَائِمُ خَيْبَرَ وَالْمُؤَخَّرَةُ سَائِرُ فُتُوحِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ "[4].

ومثال الغنيمة أيضا من أنواع المال الحلال والكسب المشروع في الجهاد، الفيء وهو"ما أخذ من أموال الكفار من غير حرب ولا قتال، أوبلا إيجاف خيل ولا ركاب أوصلحا كأموال بني النضير"[5]، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر: 6]، أي: "أَنَّ مَا رَدَّ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ لَمْ تَرْكَبُوا لِتَحْصِيلِهِ خَيْلًا وَلَا إِبِلًا... فَجَعَلَ اللَّهُ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِهِ ﷺ خَاصَّةً لِهَذَا السَّبَبِ، فَإِنَّهُ افْتَتَحَهَا صُلْحًا وَأَخَذَ أَمْوَالَهَا"[6]، قال الشيخ السعدي: "فهذا الفيء يصرف في مصالح المسلمين"[7].

---

[1]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**،كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهوراً، [521]، 1/ 370 .

[2]– أبوالحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، **المخصص**، تح: خليل إبراهيم جفال، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 1(1417هـ-1996م)، 3/ 446.

[3]– ابن القيم، **زاد المعاد**، 3/ 278.

[4]– الطبري، **جامع البيان**، 280/21.

[5]– وهبة بن مصطفى الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط 2(1418 هـ)، 28/ 76.

[6]– محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، **فتح القدير**، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط 1(1414هـ)، 5/ 253.

[7]– عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1 (1420هـ -2000م)، 1/ 850.

ولهذه الحكمة كان المال سببا في تحقيق الحياة الطيبة للإنسان، ذلك أن الله تعالى شرع الأحكام لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة، فأموال الفيء تصرف في مصالح المسلمين، "ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم" [1].

فعندما يصرف المال لإعانة المحتاج، وإغاثة الملهوف، حتى لا يكسره الفقر، وتذله الحاجة، وتخزيه المسألة، كان هذا المورد المالي سببا في انتشار ثقافة البذل والعطاء بين المسلمين، والقضاء على الأنانية، وحب الذات والبخل والشح فينتشر خلق الإيثار، ابتغاء مرضاة الله وبمثل هذه الأخلاق، وهذا العطاء والبذل للغير مع ما فطر الإنسان عليه من حب المال ودوام رغبته وحاجته إليه، يستطيع الإنسان فعلا أن ينعم بطيب الحياة.

فهذه بعض أنواع الكسب المشروع، دون أن ننسى أنواعا أخرى لتحصيل المال الحلال التي حث عليها الإسلام وذكرها القرآن في مجمل تنزيله مثل الكسب من خلال الحرف والمهن المختلفة، بعضها زاولها أصفياء خلقه من الأنبياء والرسل، أقدسها وأشرفها على الإطلاق مهنة التعليم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾[مريم: 43]، وقال أيضا: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾[آل عمران: 164]، وبعد أن رغب الإسلام في العلم والتعليم أصبحت مهنة المعلم من المهن التي يتكسب من ورائها المال الكثير؛ وقد سبق وأن أشرنا إلى مهن وحرف زاولها الأنبياء كالرعي والتجارة، والحدادة، وصناعة الأسلحة والدروع، والزراعة والبناء، وقد أشار القرآن أن نبي الله إبراهيم الخليل قام ببناء الكعبة، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُۖ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[البقرة: 127]، وهي مهنة شريفة لها الفضل العظيم في قيام الإنسان بواجبه في إعمار الأرض، يقول ابن خلدون: "هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن ولدفع الأذى من الحر والبرد"[2].

ونخلص في نهاية هذا الفرع إلى نتيجة مهمة؛ وهي أن لا إ عمار للأرض بغير علم وعمل ومال، وحاجة البشر الفطرية للإيمان والعبادة والمال للوصول إلى بعض السعادة ليست كلها.

---

[1]–السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، 850/1.

[2]– ينظر: ابن خلدون، **المقدمة**، 1/ 231-232.

الفرع الثاني: السنن الأسباب الكسبية للحياة الطيبة

بعد أن بينت الدراسة السنن الأسباب الفطرية للحياة الطيبة، المتمثلة في الإيمان والعبادة والمال، والتي تعتبر مشتركا إنسانيا، ومطلبا بشريا مهما تباينت اللغات، والثقافات، والمطالب، والألوان، فتبقى هذه السنن الأسباب أمرا يجمعهم، تعرج الدراسة في هذا الفرع على السنن الأسباب الكسبية للفوز بالحياة الطيبة، والتي نعرضها في ثلاثة أسباب، وهي على التوالي: إقامة شرع الله،واختيار الزوج الصالح،والرفاه الاجتماعي المتمثل في ايجاد المسكن الواسع وانتقاء المركب الهنيء.

أولا: إقامة شرع الله

خير ما نفتتح به هذا العنصر هذه الآية من كتاب الله، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[المائدة: 66]، وقال عز من قائل: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى: 13].

إن مسألة إقامة شرع الله من المسائل الخطيرة في حياة المسلمين، ذلك أنها ترتبط أساسا بالعقيدة؛ حيث تمثل أهم جانب في عقيدتنا الإسلامية، ألا وهوالجانب التطبيقي العملي لمعنى التوحيد؛ فتوحيد الله معناه رفض وردّ لكل الآلهة المصطنعة من دون الله الأحد الصمد، وإقامة شرعه الذي جاء به رسوله ﷺ وضرورة الحكم به، والتحاكم إليه؛ فعقيدة التوحيد تستلزم التصديق الجازم بأن الله سبحانه وتعالى قد اختص – نفسه– بالتشريع ووضع الأحكام التشريعية للناس، وأمرهم بضرورة الالتزام بها، بل جعلها من مقتضيات الإيمان به سبحانه وتعالى؛ حيث نفى الإيمان عن من لا يقيم شرع الله في حياته، ويرضى بما حكم الله وشرع لعباده، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: 65]؛ ذلك أن سعادة الإنسان واستقراره ليحيا حياة طيبة مرتبط بضرورة إقامة شرع الله بتطبيق الشريعة في جميع مجالات حياتهم، ذلك أنها توافق الفطرة التي فطر عليها هذا الإنسان.

ولأهمية الشريعة وإقامة شرع الله والحكم به في حياة الناس عامة والمسلمين خاصة فاق ذكرها في كتاب الله مائتي (200) آية، ولاستحالة إيرادها جميعا في هذه الدراسة اقتصرنا على بيان بعضها فقط.فقد عرفت الشريعة في كتاب

مختار الصحاح: ش ر ع: (الشَّرِيعَةُ مَشْرَعَةُ) الْمَاءِ وَهِيَ مَوْرِدُ الشَّارِبَةِ. و(الشَّرِيعَةُ) أَيْضًا مَا شَرَعَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ وَقَدْ (شَرَعَ) لَهُمْ أَيْ سَنَّ. و(شَرَّعَهَا) صَاحِبُهَا (تَشْرِيعًا)[1].

والشريعة: اسم للأحكام الجزئية التي يتهذب بها المكلف معاشا ومعادا، سواء كانت منصوصة من الشارع أوراجعة إليه اتفقت تعاريف المعرفين للشريعة بأنها: مَا شرع الله تَعَالَى لِعِبَادِهِ[2]، وبذلك فالتشريع خاص بالله سبحانه وتعالى، هوالعالم بما ينفع، ويصلح لخلقه وهوصاحب الحكم، فلا يحق لأي إنسان أن يشرع الأحكام بدل التي شرعها الله، أويتبع شرعا مخالفا لما سن الله لعباده، فهولا يحتاج أصلا للخروج عن أحكام الشريعة ذلك أنها شاملة لكافة جوانب الحياة (فردا، أوجماعة، دولة، أومجتمعا) فيستحيل أن لا تجد في التشريع الرباني حكما، يناسب قضية من القضايا التي تخص الفرد، أوالجماعة، سواء بنص شرعي، أو اجتهاد.

ولبيان كيف أن إقامة شرع الله وضرورة الحكم بما أنزل الله سبب للفوز بالحياة الطيبة لابد أن نوضح هذه النقاط:

1– ارتباط شرع الله بتحقيق المصالح الإنسانية: تهدف كل أحكام الشريعة الإسلامية إلى تحقيق مصالح العباد الدنيوية والأخروية، حيث إن المقصد العام من المصلحة هوجلب المنافع، ودرء المفاسد، يقول العز بن عبد السلام: "والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد، أوتجلب مصالح"[3].

والكيان العام للشريعة الإسلامية يدور كله حول تحقيق المصلحة في المعاش والمعاد، ونتأمل كلام ابن القيم في إعلام الموقعين: "فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عَنْ الْعَدْلِ إلَى الْجَوْرِ، وَعَنْ الرَّحْمَةِ إلَى ضِدِّهَا، وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنْ الْحِكْمَةِ إلَى الْعبثِ؛ فَلَيْسَتْ مِنْ الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ؛ فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَظِلُّهُ فِي أَرْضِهِ، وَحِكْمَتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ وَعَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ ﷺ أَتَمَّ دَلَالَةَ وَأَصْدَقَهَا، وَهِيَ نُورُهُ الَّذِي بِهِ أَبْصَرَ الْمُبْصِرُونَ، وَهُدَاهُ الَّذِي بِهِ اهْتَدَى الْمُهْتَدُونَ، وَشِفَاؤُهُ التَّامُّ الَّذِي بِهِ دَوَاءُ كُلِّ عَلِيلٍ، وَطَرِيقُهُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي مَنْ

---

[1]– الرازي، **مختار الصحاح**، باب (ض.ر.ع)، 1/ 163.

[2]– زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبويحيى السنيكي، **الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة**، تح: مازن المبارك، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 1(1411هـ)، 1/ 20.

[3]– أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي، الملقب بسلطان العلماء، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، علق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، ط (1414 هـ – 1991م)، القاهرة، دار الكتب العلمية، 1/ 11.

اسْتَقَامَ عَلَيْهِ فَقَدْ اسْتَقَامَ "[1]، فهذه الشريعة كلها مصالح، وهي لمن أخذ بها، وعمل بأحكامها سعادة، ورحمة، خير مطلقا. "والسعادة كلها في اتباع الشريعة في كل ورد وصدر"[2].

ومن النصوص الشرعية الدالة على أن إقامة شرع الله والحكم بما أنزل سبب من أسباب الحياة الطيبة، وارتباط الشريعة بمصالح العباد الدنيوية قبل الأخروية، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[المائدة: 66]، يقول الرازي في تفسير الآية: "بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَوآمَنُوا لَفَازُوا بِسَعَادَاتِ الدُّنْيَا وَوَجَدُوا طَيِّبَاتِهَا وَخَيْرَاتِهَا، ... الْأَكْلُ مِنْ فَوْقُ كَثْرَةُ الْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ، وَمِنْ تَحْتِ الْأَرْجُلِ الزُّرُوعُ الْمُغَلَّةُ، أَنْ يَرْزُقَهُمُ الْجِنَانَ الْيَانِعَةَ الثِّمَارِ"[3].

ولو اتبع أهل الكتاب شرع الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل لرزقوا من الطيبات، رزق السماء ورزق الأرض، وهذا من موجبات السعادة والحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 179]، وهذا تشريع رباني يرتبط ارتباطا وثيقا بمصلحة المجتمع، وحفظ الأمن والاستقرار فيها؛ فمصلحة النفس ووجوب المحافظة عليها لتستمر الحياة، ولا ينقرض الجنس البشري مرتبط بتطبيق عقوبة القصاص، "لَكُمْ فِي هَذَا الْحُكْمِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَيَاةٌ، لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يُقْتَلُ قِصَاصًا إِذَا قَتَلَ آخَرَ كَفَّ عَنِ الْقَتْلِ، وَانْزَجَرَ... فَيَكُونُ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحَيَاةِ لِلنُّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ"[4].

ولو كتبت في مضار الخمر والميسر مجلدات لما أحصينا كل أضرارها، وأخطارها على الفرد والجماعة، وهذا النص الخاص بالخمر والميسر يبين القصد من تحريمها، وهودفع مفسدة أعظم وهي العداوة والبغضاء وما تسببه من خصومات، وجرائم، وإتلاف للصحة وإهدار للأموال، وتشتت للروابط الأسرية بسبب الطلاق، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة: 91]، قال ابن القيم أن الشريعة كلها رحمة وكلها مصالح[5]، وهذا القرآن يؤكد هذا المعنى من أن الغاية من بعثة الرسل – عليهم السلام– رحمة للعباد، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء: 107]، يقول صاحب تفسير روح البيان في بيان "الرحمة": "رحمة مطلقة تامة كاملة عامة شاملة جامعة محيطة بجميع المقيدات من الرحمة الغيبية والشهادة العلمية

---

[1]– ابن القيم، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، 3/ 11.

[2]– العز بن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، 1/ 16.

[3]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 12/ 398.

[4]– الشوكاني، **فتح القدير**، 1/ 203.

[5]– ابن القيم، **إعلام الموقعين**، 3/ 11.

والعينية والوجودية والشهودية والسابقة واللاحقة وغير ذلك للعالمين جمع عوالم ذوى العقول وغيرهم من عالم الأرواح والأجسام"[1]. فليس بعد هذه الرحمة رحمة، وهذا تعليل للغرض من إرسال الرسول ﷺ بشرع الله للعباد.

2–توافق شرع الله مع الفطرة: قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: 30].

وقال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»[2]، فالله شرع وسن الأحكام للعباد لتحقيق مصالحهم في الدنيا والآخرة، واختار الفطرة لهذه الأمة، وجعلها أخص خصائص شرعه ودينه، اصطبغت بها أحكام الدين وشرائعه كلها، حتى لا تصادم أصل الخلقة التي خلق عليها عباده، وهي الفطرة التي جبل عليها الإنسان؛ لذلك تجد أن من مقاصد الشريعة الحفاظ على الفطرة، حيث إن جميع أحكام الإسلام وتشريعاته توافقها، وتلائمها، ولا تصادمها بل ترعاها وتكفلها، وتحاول إحياء ما اندرس منها، ليحيا هذا الإنسان حياة طيبة، لأن في اندراسها وانحرافها شقاء ومعيشة ضنك.

خلق الله الإنسان وجعل فيه حاجات، ورغبات، وغرائز، وميولا بعضها جسدي، وبعضها عقلي وبعضها روحي، ولا سبيل للعيش والحياة الطبيعية بدون إرضائها وإشباعها والاستجابة لبناء الفطرة المغروس في النفس الإنسانية، ولولا توافق نظم وأحكام الإسلام وشرعه مع هذه الحاجات الأساسية الفطرية للإنسان لما استمرت الحياة ولا قامت لها قائمة، يقول ابن عاشور: "فالزواج وإرضاع الطفل من الفطرة، وحفظ الأنفس والأنساب من الفطرة، وأنواع المعارف الصالحة من الفطرة، والنفور من الشدة والإعنات من الفطرة، وعلى العلماء أن يسايروا هذا الوصف الجامع، ويجعلوه رائدهم في إجراء الأحكام، ومنها الاعتدال والسماحة في الأمور قال الإمام مالك: دين الله يسر وهذا من استقرائه للشريعة"[3].

وإذا كانت الفطرة تقتضي الإسلام فهذا يعني أن كل أحكام الإسلام وشرائعه تتماشى مع أسرار وخبايا وأغوار النفس الإنسانية، وإذا قلت النفس الإنسانية فلست أقصد الجانب النفسي فقط بل كل

---

[1]–إسماعيل حقي بن مصطفى، الإستانبولي أبو الفداء، **روح البيان** ، بيروت، دار الفكر، (د،ط،ت)، 5/ 528.

[2]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، [1358]، 2/ 94. وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة...، [2658]، 2047/4.

[3]– الطاهر ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، ص: 21.

ما يتعلق بكيان هذا الإنسان كما يقول ابن عاشور: "الفطرة ما فطر – أي خلق– عليه الإنسان ظاهرا أوباطنا، أي: جسداً أوعقلاً..."[1].

ولهذا راعت أحكام الإسلام هذه الفطرة، ووقرت لكل حاجات الإنسان وميوله وغرائزها ما يلبي، ويفي بطلبات ونداءات الفطرة، بل هذبتها، وقيدتها بضوابط شرعية، معقولة مقبولة تنظم حياة هذا الإنسان، حتى لا تفضي به إلى الهلاك، وفي هلاكه هلاك المجتمع، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك:14]، فوازن هذا العليم الخبير الذي يعلم بأعماق النفس وما تنطوي عليه من طاقات وملكات، بين نداءات الفطرة، وضوابط وأحكام الشرع بما ينفع هذا المخلوق في حياته، وآخرته، وبما يصلحه ويصلح له دنياه فيفوز بالحياة الطيبة، وبجنات النعيم في الآخرة، ولاشك أن هذا الانسجام والتلاؤم والتناغم والتوافق بين شرع الله والفطرة كان العامل الأساس والرئيس في دخول وإقبال الناس على الإسلام، لما ذاقوا مرارة الشقاء والبؤس من جراء تصادم وتناقض وتعارض عقائدهم وديانتهم المنحرفة والمحرفة، حتى كادت تستأصل خلق الفطرة من النفس الإنسانية، إلى الحد الذي لا يمكن العيش معه حياة إنسانية طبيعية.

وإذا كانت الفطرة تقتضي الإسلام كما سبق وأن بينا، فهذا يعني أن الخروج عن أحكام الإسلام وما شرعه الله انحراف وشذوذ عن الفطرة، ذلك أننا رأينا أن شرع الله يرتبط ارتباطا وثيقا بتحقق المصالح الإنسانية، وكذلك توافق نظم وأحكام وشرع الإسلام مع نداءات الفطرة، ومن فكر الخروج عن شرع الله، والإعراض عن الاحتكام بما أنزل الله من تشريعات فيه هلاك وأضرار ومخاطر، تعود على الإنسان ومجتمعه بالفساد، وبناءً على ما سبق فإن إقامة شرع الله، والتحاكم بما أنزل وشرع لعباده من أحكام وتشريعات أمر واجب؛ لأنه هوسبحانه وتعالى الخالق، وهوالعالم بما ينفع، وبما يضر هذا الإنسان، لذلك جاءت الشريعة بأحكام تلبي حاجات الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وعقائدهم إلى يوم القيامة، تأمل ما قاله المفسرون في آية الفطرة، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: 30].

"وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين؛ وكلاهما من صنع الله... والله الذي خلق القلب البشري هوالذي أنزل هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف. وهوأعلم بمن خلق وهواللطيف الخبير"[2]، "فقد استبان أن الآية تدل على أن جميع أصول الإسلام

---

[1]–الطاهر ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، ص: 15.

[2]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 21/ 2767.

وقواعده تنفجر من ينبوع معنى الفطرة، والإحاطة بذلك ليست إلا لعلام الغيوب... ثم إن الحكمة في أن جعل الله تعالى دين الإسلام الفطرة أنه لما أراد جعله دينا عاما لسائر البشر، دائما إلى انقضاء هذا العالم، جعله مساوقا للفطرة المتقررة في نفوس سائر البشر لتكون الجامعة العامة للبشر مشتقة من الوصف العظيم المشترك بينهم، وهووصف الفطرة"[1].

وبالجمع بين كلام السيد الشهيد، والشيخ ابن عاشور كأننا نلخص كلام العنصرين السابقين معا، وهما ارتباط شرع الله بتحقيق المصالح الإنسانية، وتوافق شرع الله مع الفطرة، وفي هذا إشارة إلى ضرورة ووجوب إقامة شرع الله، فالسعي وراء تحقيق حياة طيبة لا يتأتى حتى تستظل الأمة الإسلامية بشرع الله تعالى، والتاريخ البشري يشهد بأن أسعد فترات المسلمين التي عايشوها في هذه الحياة الدنيا، كانت حينما أقاموا شرع الله، واحتكموا إليه في جميع شؤونهم فنعمت الأمة بالأمن والاستقرار والرخاء، وساد العدل المجتمع الإسلامي بأسره؛ في حين كانت أحلك فترات البشرية شقاء وظلما وفقرا ذلك أنهم كانوا تحت حكم الطواغيت.

3– مرونة شرع الله: لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الدين الخاتم دينا جامعا لكل الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سبأ: 28]، يقول سيد قطب: "أن للإسلام – بوصفه المنهج الإلهي الأخير للبشرية – حقه الأصيل في أن يقيم "نظامه" الخاص في الأرض، لتستمتع البشرية كلها بخيرات هذا (النظام)"[2].

نفهم من كلام السيد الشهيد أن سعادة البشرية واستمتاعها بالحياة الطيبة، أمر مرهون بقيام نظام الإسلام وشرعه بصفته الدين الخاتم، والعام لكل الخلق، والدين الخالد الذي تحكم شريعته البشرية، بكونه الشرع الأصلح، والمصلح، والصالح، لكل زمان ومكان؛ ولهذا كان حريًّا بهذا الشرع أن ينفرد بخصائص ومؤهلات، خلوده، وشيوعه، وهيمنته، وصلاحية أحكامه لكل عصر ومصر، خصائص "تجعل له شخصيته المستقلة، وطبيعته الخاصة، التي لا تتلبس بتصور آخر، ولا تستمد من تصور آخر، هذه الخصائص تتعدد وتتوزع، ولكنها تتضامن وتتجمع عند خاصية واحدة، هي التي تنبثق منها وترجع إليها سائر الخصائص... خاصية الربانية"[3].

ومن بين هذه الخصائص – مرونة شرع الله، ونقصد بالمرونة قابلية التشريع للتطور ومواكبة المصالح المتجددة، والقضايا المستجدة على الساحة البشرية فتحقيق حاجات الناس، ومصالحهم المشروعة– في

---

[1]– ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، ص: 17.

[2]– سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقاوماته**، ص: 14.

[3]– نفسه، ص: 38.

كل زمان ومكان غاية الشرع ومقصد الشريعة العام والأعظم، فقوانين الإسلام ونظمه، بعضها يتم بالثبات ولا يقبل التغير؛ فهي السياج الواقي من التحريف والتبديل، وبعضها – وأعني الفروع– فمتطورة متغيرة تواكب الحاجات والمصالح المتجددة، وضمن مسائلها يجوز الاجتهاد ويُفتح بابه، لاستنباط الأحكام الشرعية للوقائع المستجدة في حياة الناس، لإمكانية إمدادهم بالحلول المعقولة والمقبولة بما يحقق مصالحهم في معاشهم ويدفع عنهم المضار، دائما في أطر الأصول الثابتة، وهذا من أجل أن يتمتعوا بالحياة الطيبة، تحت ظل شرع الله القويم الحنيف، وعلى هذا الأساس تعددت المذاهب الفقهية، وتنوعت آراء العلماء في المسألة الواحدة، وكان اختلافهم رحمة، قال ابن قدامة: "وَجَعَلَ فِي سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَئِمَّةً مِنْ الْأَعْلَامِ، مُهْدٍ بِهِمْ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ، وَأَوْضَحَ بِهِمْ مُشْكِلَاتِ الْأَحْكَامِ، اتِّفَاقُهُمْ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ، وَاخْتِلَافُهُمْ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ"[1]، فهذا الاختلاف توسعة على الأمة بما يترتب عليه من السهولة واليسر، الذي يعتبر أهم خصيصة من خصائص — شرع الله– لتحقيق ومراعاة مصالح الناس الشرعية.

وما مرونة الشريعة الإسلامية إلا دليل قاطع وبيّن على أن مصدرها رباني، فربانية الشريعة الإسلامية أول وأهم عامل في إيجاد مرونتها، فمحال في حق الله أن يشرع دينا خاتما خالدا لكل البشر، ثم تكون شرائعه عاجزة عن مواكبة تطور الزمان ومسايرة القضايا الجديدة الواقعة في حياة البشر؛ ولأن مصدر الشريعة رباني، اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تكون شرائعه جامعة بين الثبات والمرونة، فمن جعل الأصول ثابتة عَلم أن ثباتها هوالأصلح لهذا الإنسان، حتى لا تعصف به رياح الأهواء، والإغواء، "فبالثبات يستعصي هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء، أوالذوبان في المجتمعات الأخرى أوالتفكك إلى عدة مجتمعات... وبالثبات يستقر التشريع"[2].

وبالمقابل في المرونة إقرار لخلود الشريعة، واستمرارها، رغم تغير الظروف وتبدل البيئات، وتطور الحياة، أوتغير الزمان؛ هذه الازدواجية (ثبات ومرونة)، تعتبر من مظاهر الإعجاز التشريعي الذي هوميزة لشرع الله لا تنبغي لسواه، الدين المساوق للفطرة؛ ومن الأصول الثابتة في الشرع الإسلامي: أصول العقيدة، أركان الإيمان، العبادات، الأخلاق باب الحدود والقصاص والديات، والزواج والطلاق، والميراث وتحريم الربا، والزنا، والسرقة... وغير ذلك من الثوابت، بينها ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان: "الأحكام نوعان، نوع لا يتغير عن حالة واحدة، وهوعليها، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة،

---

[1]– أبومحمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، **المغني**، القاهرة، مكتبة القاهرة، (د،ط) (1388هـ – 1968م)، 4/1.

[2]– يوسف القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص: 219.

كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحوذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه"[1].

وفي ما يلي نمثل لهذا القمم الثابت من أحكام شرع الله، وأما النوع الثاني المرن. "ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له: زمانًا ومكانًا وحالاً؛ كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة"[2]. ولزيادة الإيضاح، والبيان نسوق بعض الأمثلة لكلا النوعين:

أ–نصوص القرآن الكريم الجامعة للثبات والمرونة:

– قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ﴾[النحل: 104-105- 106]، فهذا هوالثابت والأصل، ويأتي الاستثناء وهوالمتمثل في المرونة، فالنطق بالكفر للحفاظ على كلية النفس بشرط اطمئنان القلب بالإيمان واستمراره في الاعتقاد الجازم بوحدانية الله، صاحبه معذور في الدنيا مغفور له في الآخرة "جاز ذكر كلمة الكفر لمصلحة بقاء شخص"[3].

– وقال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[المائدة: 3]، الثابت تحريم الخبائث "محرمات الطعام"[4] لأضرارها البليغة على صحة الإنسان، ويأتي الاستثناء المفضي للمرونة في قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[المائدة: 3]؛ "قد وافق الشرع الفطرة فأباح للمضطر أكل الميتة وغيرها من المحرمات لهذه الضرورة"[5].

– يظهر الثبات في قوله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾[آل عمران: 28]، جاء التحذير الشديد، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم عن إسلامه "إذا هووالى من لا يرتضي أن يحكم

---

[1]– ابن القيم، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، 1/ 330.

[2]– نفسه، 330/1 .

[3]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 13/ 41.

[4]– محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 6/ 112.

[5]– نفسه، 6/ 139.

كتاب الله في الحياة"[1]، من لا يقيم شرع الله فلا تجوز موالاته، أونصرته، ومن يفعل ذلك فلا عقيدة له ولا إسلام يقبل منه، ثم يأتي القسم المرن ليرخص هذا الولاء بشرط التقية، قال تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾[آل عمران: 28]، "ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات"[2]؛ وقد عرف حبر الأمةعبد اللهبن عباس رضي الله عنهما التقيةفيما روي عنه أنه قال: التقاة: التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان [3]، ولقدنهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ،إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، و خافالمؤمن كيدهم و شرهم وهو بينهم،جاز له مدارتهم باللسان.

وقال ابن حجر: "التقية الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير"[4]، ولا يرخص الشرع للنفاق؛ فشتان بين التقية و النفاق؛ فشرطها اطمئنان القلب بالإيمان.

ب– نصوص السنة المطهرة الجامعة للثبات والمرونة: بعد أن بينا بعض هدي القرآن الجامع للثبات والمرونة نذكر في هذا العنصر بعضا من هديه ﷺ لنرى هذه الثنائية (الثبات والمرونة) مطبقة جنبا إلى جنب في سنته ﷺ.

– فمن مواقف ثباته ﷺ على الحق وثبات تعاليم الوحي الخاصة بالحدود، موقفه إزاء شفاعة – فمن مواقف ثباته ﷺ على الحق وثبات تعاليم الوحي الخاصة بالحدود، موقفه إزاء شفاعة أسامة بن زيد للمرأة المخزومية التي سرقت، فقال ﷺ لأسامة: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ... وَايْمُ اللَّهِ لَوأَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[5]. فموقفه ﷺ الحاسم تجاه قبول شفاعة أسامة دليل واضح على صرامته في كل ما يتعلق بتبليغ أمور الوحي وكليات الدين وأصوله.

– ويتمثل الثبات في تشدده وعزمه "على التعزير بتحريق البيوت على المتخلف عن حضور الجماعة لولا ما منعه من تعدي العقوبة إلى غير من يستحقها من النساء والذرية"[6]؛ فهذا التشدد في العقوبة جاء لأن الأمر يتعلق بأداء فرائض الله، وشرائعه فالصلاة ركن هام من أركان الإسلام، عموده الذي لا يقوم إلا به.

---

[1]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3/385-386.

[2]– نفسه، 3/385.

[3]– ينظر: الطبري،**جامع البيان**، 3/228-229.

[4]– ابن حجر،**فتح الباري**، 12/314 .

[5]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، [3475]، 4/175؛ وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة عن الحدود، [1688]، 3/1315 .

[6]– ابن القيم، **إغاثة اللهفان**، 1/331.

– ومن مواقف تشدده ورفضه المساومة على أمور العقيدة، وأمور الدين الثابتة، ما حكاه ابن هشام في كتاب السيرة النبوية أنه ﷺ: «أَتَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ عز وجل، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: بَيْحَرَةُ بْنُ فِرَاسٍ... وَاللهِ، لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ، لأَكَلْتُ بِهِ الْعَرَبَ، ثُمَّ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ نَحْنُ بَايَعْنَاكَ عَلَى أَمْرِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيَكُونُ لَنَا الأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: الأَمْرُ إِلَى اللهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، فَقَالَ لَهُ: أَفَتُهْدَفُ نُحُورُنَا لِلْعَرَبِ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللهُ كَانَ الأَمْرُ لِغَيْرِنَا إِلَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ؛ فَأَبَوْا عَلَيْهِ»[1].

وهذا هو دأب النبي ﷺ، في الدعوة إلى الله ينتهز فرصة تجمع الناس في المواسم لتبليغ رسالة التوحيد، دون التفريط في الثوابت والأصول والمساومة عليها.

وأما باب المرونة فهوعليه الصلاة والسلام المرن، السهل، المتسامح، العفو، الكريم، وسيرته العطرة شاهدة إلى يوم الناس هذا وحافلة بمواقف يعترف لها العدو قبل الصديق، عن صفحه وعفوه، والترغيب في الأخذ بالرخص، لتخفيف عن الناس ورفع الحرج عنهم، وتسهيله على الناس، عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: "ما خير النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله"[2]، وجاء في صحيح البخاري "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المسْجِدِ، فَقَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ تُزْرِمُوهُ» ثُمَّ دَعَا بِدَلْوِمِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ»[3].

وما جاء أيضا في حثه على التيسير على الناس ما رواه البخاري عن أبي بردة عن أبيه قال: "بعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذا إلى اليمن، فقال: «يَسِّرا ولا تُعسّرا وَبشِّرا ولا تُنفّرا وتطاوعا»[4]، وعن ابن عمر – رضي الله عنه– قال: قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: "«لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ العَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ"[5].

---

[1]– عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبومحمد، جمال الدين، **السيرة النبوية لابن هشام**، تح: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، (د،ط،ت)، 2/ 52.

[2]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، [6404]، 2491/6.

[3]– نفسه، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، [6025]، 8/ 12؛ وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، [284]، 236/1.

[4]– نفسه، كتاب المغاري، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، [4344]، 5/ 162.

[5]– نفسه، كتاب الجمعة، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء، [946]، 2/ 15.

رغم تعلق الاجتهاد بركن عظيم كالصلاة، إلا أن النبي ﷺ أقر الجميع على فعلهم، ولم يأمر أحدا بإعادة الصلاة، وهذه قمة المرونة من جانبه ﷺ وفي تهوينه على الصحابة، وعدم تقريعهم وتعنيفهم، فأقر صلاة الجميع. مظهر عظيم من مظاهر مرونة الشريعة الإسلامية، في شقها الثاني (السنة المطهرة).

"وفي قوله إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر فقرر بذلك مبدأ "الاجتهاد" لاستنباط الحكم الشرعي لكل واقعة تجد إما من نص أومن قياس عليه، أوغير ذلك من اعتبار المقاصد والمصالح التي جاء بها الشرع، كما قرر أن المجتهد في ذلك مأجور مثاب عند الله، وإن أخطأ محز الصواب"[1].

وفي إقرار النبي ﷺ مبدأ الاجتهاد، دعوة إلى إعمال العقل، والتفكر، والتدبر، الذي حث عليه الشرع، واعتبره فريضة شرعية، ومدح أصحابه.

ثانيا: اختيار الزوج الصالح

بعد أن بينتُ بالدراسة أحد أسباب الحياة الطيبة الكسبية – وهوإقامة شرع الله–؛ حيث اهتم القرآن الكريم بتطبيق الشريعة، وأعتني بها عناية فائقة، وبين أهم الأسباب التي جعلت شرع الله ضرورة حتمية للفوز بالحياة الطيبة لابد من بيان السبب الثاني، والذي يعتبر من أهم الأسباب ليحيا الإنسان حياة طيبة، وينعم بالاستقرار في حضن أسرة تشع مودة ورحمة ،مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم: 21]؛ وقال ﷺ: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[2].

ويبين الله سبحانه وتعالى في كتابه، في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان: 74]، أن من صفات عباد الرحمان أهل التقوى والإيمان الدعاء والابتهال إلى الله، أن يوفقهم للزوجة الصالحة التي تحرص على أن تكون ذريتها ذرية صالحة؛ لأن طيب الذرية مرجعها إلى طيب منبتها؛ أي: الأم للأولاد والزوجة الصالحة التي رغب فيها الرسول ﷺ، وجعلها متاع الحياة الدنيا، فسعادة الإنسان لا تكتمل، وربما لا نستطيع أن نطلق معنى السعادة على من لا أسرة، ولا ذرية له؛ وبالتالي فنعمة الزوجة الصالحة، والذرية الصالحة سبب مهم وأساس للفوز بحياة طيبة، تغمرها السعادة والمودة والرحمة، ولهذا نجد أن الإسلام اهتم أيما اهتمام بأسباب سعادة الإنسان وسنن الحياة الطيبة، فخص الأسرة بالذكر في مواضع كثيرة من الذكر العزيز، وجعلها نعمة تذكر في باب

---

[1]– يوسف القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص: 233.

[2]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**،كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، [1467]، 2/ 1090

الامتنان على عباده، حيث إن كل إنسان يطمح ويسعى لتكوين أسرة سعيدة، والاستمتاع بدفئها وحنانها، وجاء في كتاب التيسير في أحاديث التفسير بأن: "الله امتن على الرجال بأن جعل زوجاتهم بشرا من جنسهم، إذ خلق الذكر والأنثى من نفس واحدة، إن اختلفا في وظائفهما العملية والاجتماعية، فإنهما لا يختلفان في خصائصهما النوعية والإنسانية. والحكمة الإلهية في ذلك أن يعاشر الرجل امرأة من جنسه، وأن تعاشر المرأة رجلا من جنسها تتجاوب معه، فتحس نفس الإحساس، وتشعر بنفس الشعور"[1].

فالله سبحانه بفضله خلق الزوجة من نفس زوجها، وفي هذا حكمة عظيمة لتحقيق الألفة، والتقارب والميل، وديمومة الاحتياج لكل طرف للآخر، فوحدتهما وازدواجهما سر استمرار الجنس البشري، وبهما ينتظم العيش، ويتم إعمار الأرض وازدهار العمران فيها، فتمضي سنن الله في خلقه بقانون الزوجية، واستحالة الاستخلاف المنشود، بدون جريان سنة الله المتمثلة في "الزواج" وتحقيق السكينة بجعل المودة والرحمة بين الزوجين لبناء الأسرة، التي تعتبر اللبنة الأساس الأولى في إنشاء الأسرة؛ إذن فسعادة الإنسان تكمن في تكوين أسرة، وسعادة الأسرة متعلقة بصلاح الزوجة التي تكون سكنا لزوجها، ولأفراد أسرتها، ولسيد قطب كلام يثلج الصدر، وهوتفسير لقوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21]، يقول: "تلك الصلة سكنا للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقرارا للحياة والمعاش، وأنسا للأرواح والضمائر، واطمئنانا للرجل والمرأة على السواء... حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحويجعله موافقا للآخر، ملبيا لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة"[2].

والاستقرار المنشود والسكينة المطلوبة، والرحمة والمودة المرجوة، سرها والمعول عليها في تحصيلها الزوجة الصالحة.

إذن ما هي مواصفات الزوجة الصالحة: للإجابة على هذا السؤال نورد حديث الرسول ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ مَا يُكْنَزُ؟ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ»[3].

---

[1]- محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1(1405 هـ - 1985م)، 3/ 346.

[2]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 21/ 2763.

[3]- رواه أبي داود، **سنن أبي داود**،كتاب الزكاة،باب في حقوق المال، 97/3.

ومن مثل هذا الحديث، وغيره جمع صاحب كتاب الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم جملة من الصفات المطلوبة في الزوجة الصالحة حتى ينعم بها زوجها[1] وهذه الصفات هي الآتية:

– أن تكون صالحة ذات دين.

– أن تكون ذات حسب ونسب لما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ»[2].

– أن تكون ولوداً ودوداً.

– أن تكون حسنة القيام بأمور البيت.

– أن تكون مطيعة لزوجها.

– أن تكون عفيفة؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النور: 3].

– أن تكون ذات جمال يستحسنه الرجل.

– أن تكون خفيفة المؤنة لا يحتاج نكاحها إلى مؤونة شديدة (أي يسيرة الصداق)، قال ﷺ: "أعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة"[3].

– أن لا تكون غيرتها شديدة.

وبشرح صفة ذات دين يتضح المقال، وخير ما قيل في الفوز بذات الدين زوجة، كلام خير الأنام في ترغيب الرجال بالزواج بالمرأة المتدينة، قال ﷺ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ»[4].

فقد حثت السنة المطهرة ورغبت المسلم أن يختار الزوجة صاحبة الدين التقية الصالحة التي تعينه على دينه، وتحثه على طاعة الله، وتنهاه عن الاقتراب من الفواحش، تقويه على عبادة الله، والقيام بفرائضه، فبمداومتها على الطاعات والعبادات تدفعه إلى الالتزام بحدود الله، وترغبه في المداومة على الصلاة وسائر العبادات، وتقف إلى جنبه، تيسر عليه أمور العبادة، فيهتدي بذلك إلى الحق، ويُفق إلى سبيل الرشاد؛ قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾[النساء: 34]، "فمن

---

[1]– محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، **الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، كتاب النكاح، باب فائدة في الصفات المطلوبة في الزوجة، مكة المكرمة، دار طوق النجاة، ط 1 (1430هـ – 2009م)، 16/ 150.

[2]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح، [5082]، 7/ 6

[3]– البيهقي، **السنن الكبرى**، كتاب الصداق، 295/7.

[4]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، [5090]، 7/7، وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، [1466]، 1086/2.

طبيعة المؤمنة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها، بحكم إيمانها وصلاحها، أن تكون... قانتة... مطيعة. والقنوت: الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام... وهذا هوالذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة. في المحضن الذي يرعى الناشئة، ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته!"[1].

فالصلاح صفة ملازمة للمؤمنة، والمؤمنة هي التي كان الإيمان ثمرة لتدينها، فهذه هي ذات الدين التي رغب في الزواج منها رسول الله ﷺ فطاعتها لزوجها امتداد طبيعي لطاعتها لربها، التي تجعلها قائمة على دين زوجها، وأولادها، أمينة على ماله، حافظة لعرضه، قيمة على شؤون بيتها، راعية لمصالح أسرتها؛ فهذه الصفات هي المسؤولية عن دوام واستمرار هذه الأسرة، وهي التي تهيئ الحياة السعيدة الهانئة لأفرادها؛ وبمثلها يقوم المجتمع الإسلامي المثالي والنموذج، "ومن طبيعة المؤمنة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها، بحكم إيمانها وصلاحها كذلك، أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته وبالأولى في حضوره..."[2]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ تَكُونُ فِي صُحْبَةِ زَوْجِهَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ سِنِينَ كَثِيرَةً وَهِيَ مَتَاعُهُ... وَهِيَ الَّتِي أَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ «لَمَّا سَأَلَهُ الْمُهَاجِرُونَ أَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ فَقَالَ: لِسَانًا ذَاكِرًا؛ وَقَلْبًا شَاكِرًا أَوامْرَأَةً صَالِحَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى إيمَانِهِ» وَيَكُونُ مِنْهَا مِنْ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ مَا امْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا فِي كِتَابِهِ"[3].

وصلاح الزوجة يقتضي طاعتها المطلقة لزوجها عدا في معصية الخالق، وطاعتها توفر في البيت الزوجية جوا رائعا من الهدوء والطمأنينة والسكينة، فتبسط أجنحة الرحمة وتغمر لذة المودة والألفة أفراد الأسرة، فيطيب العيش في حضنها، وتصلح ذرية هذا المنبت الخصب الطاهر، وصلاح الزوجة يقتضي أن تكون حافظة لبعلها في عرضه وماله، ونفسه في حضوره وغيبته "حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ يَحْفَظْنَ فِي غَيْبَةِ الْأَزْوَاجِ مَا يَجِبُ حِفْظُهُ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ... حَافِظَاتٌ لِكُلِّ مَا هُوخَاصٌّ بِأُمُورِ الزَّوْجِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالزَّوْجَيْنِ... فَمَا بَالُكَ بِحِفْظِ الْعِرْضِ... وَتَكْرِيمِ أُولَئِكَ الصَّالِحَاتِ بِشَهَادَةِ اللهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ حِفْظُهُنَّ لِذَلِكَ الْغَيْبِ مِنْ يَدٍ تَلْمَسُ، أَوعَيْنٍ تُبْصِرُ، أَوأُذُنٍ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ... بِحِفْظِ اللهِ أَيْ: بِالْحِفْظِ الَّذِي يُؤْتِيهِنَّ اللهُ إِيَّاهُ بِصَلَاحِهِنَّ؛ فَإِنَّ الصَّالِحَةَ يَكُونُ لَهَا مِنْ مُرَاقَبَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَقْوَاهُ مَا يَجْعَلُهَا مَحْفُوظَةً مِنَ الْخِيَانَةِ، قَوِيَّةً عَلَى حِفْظِ الْأَمَانَةِ، أَوحَافِظَاتٌ لَهُ بِسَبَبِ أَمْرِ اللهِ بِحِفْظِهِ"[4].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 5/ 652.

[2]- نفسه، 653.

[3]- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 299/35.

[4]- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 5/ 58.

وهذا النوع من النساء هوالمعول عليه في إنجاب وتربية أمثال صلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، بهن تعمر البيوت، وتقوم للمجتمع الإسلامي قائمة، والصالحات لا يعدم منهن عصر ولا مصر، فهن باقيات ما بقيت السماوات والأرض على مر التاريخ واختلاف الأزمان من سنن الله تعالى المحصلة للحياة الطيبة، ومن أهم أسباب السعادة الدنيوية والثواب الأخروي.

فما كان على الرجال سوى حسن الاختيار، واتباع نصائح من لا ينطق عن الهوى "فاظفر بذات الدين تربت يداك"، ولكن رجال اليوم جهلوا سنن الله تعالى في أسباب الصلاح والسعادة وطيب الحياة، وتنكبوها، وضربوا بسنة الرسول ﷺ عرض الحائط؛ فضاعت منهم السعادة، وضيعوا أمة بأكملها، فعقرت النساء على أن يلدن رجالا أبطالا يحملون هم الأمة؛ ويضطلعون بمهمة الإصلاح، فذاك جهاد بدون سلاح، ولكنه عظيم الفائدة والنفع؛ فمتى وقف الرجال على الحكم البالغة، والأسرار العجيبة ذات المنافع العظيمة والمصالح القيمة بآثارها النفسية والاجتماعية التي تدر من مشكاة الحق، والتي تنطق بفصل الخطاب وجوامع الكلام، من أقوال المصطفى ﷺ وعملوا بها في كل أمر أونهي، صلح حال هذه الأمة وحققت نهضتها، وأخذت مكانها ودورها في الركب الحضاري؛ ولا يعني هذا أن نرد أونغفل أونستغني عن مقاصد الناس الأخرى في الزواج كالجمال والمال والحسب، خاصة ونحن نعلم أن الإنسان فطر على حب الجمال والإعجاب بالمرأة الجميلة، أوالمال الذي يفتتن به الجميع فهومطلب فطري؛ لا يمارى في أهميته وأثره، وبه تقوم الحياة وهومن زينتها كما ذكر في كتاب الله؛ والحسب من بين الاختيارات الكبرى التي عليها يعقد القصد في الزواج، وهومطلب اجتماعي لا نذكر أهميته، ولا خلاف في السعي وراء تحصيله والفوز بصاحبة الحسب... و"وَالْحَسَبُ فِي الْأَصْلِ الشَّرَفُ بِالْآبَاءِ وَبِالْأَقَارِبِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْحِسَابِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَفَاخَرُوا عَدُّوا مَنَاقِبَهَمْ وَمَآثِرَ آبَائِهِمْ وَقَوْمِهِمْ وَحَسَبُوهَا فَيُحْكَمُ لِمَنْ زَادَ عَدَدُهُ عَلَى غَيْرِهِ. وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْحَسَبِ هُنَا الْفِعَالُ الْحَسَنَةُ... وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الشَّرِيفَ النَّسِيبَ يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ نَسِيبَةً إِلَّا أَنْ تُعَارِضَ نَسِيبَةً غَيْرُ دَيِّنَةٍ وَغَيْرَ نَسِيبَةٍ دَيِّنَةٌ فَتُقَدَّمُ ذَاتُ الدِّينِ وَهَكَذَا فِي كُلِّ الصِّفَاتِ"[1].

فقد حثت السنة المطهرة ورغبت المسلم في اختيار الزوجة التقية الصالحة، صاحبة الدين؛ التي تعينه على دينه، وتحثه على طاعة الله، وتنهاه عن الاقتراب من الفواحش، وتقويه على عبادة الله، والقيام بفرائضه؛ فبمداومتها على الطاعات والعبادات تدفعه إلى الالتزام بحدود الله، وترغبه في المداومة على الصلاة وسائر العبادات، وتقف إلى جنبه؛ تيسر عليه أمور العبادة؛ فيهتدي بذلك إلى الحق، ويُوفق إلى

[1]– ابن حجر، **فتح الباري**، باب قوله باب الأكفاء، 9/ 135.

سبيل الرشاد؛ قال تعالى: ﴿فَالصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[النساء: 34]؛ "فمن طبيعة المؤمنة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها، بحكم إيمانها وصلاحها، أن تكون... قانتة... مطيعة، والقنوت: الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام، وهذا هوالذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة في المحضن الذي يرعى الناشئة، ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته!"[1].

فالصلاح صفة ملازمة للمؤمنة، والمؤمنة هي التي كان الإيمان ثمرة لتدينها، فهي ذات الدين التي رغب في الزواج منها رسول الله ﷺ، وطاعتها لزوجها امتداد طبيعي لطاعتها لربها، فتجعلها قائمة على دين زوجها، وأولادها، أمينة على ماله، حافظة لعرضه، قيمة على شؤون بيتها، راعية لمصالح أسرتها؛ فهذه الصفات هي المسؤولية عن دوام واستمرار هذه الأسرة، وهي التي تهيئ الحياة السعيدة الهانئة لأفرادها، وبمثلها يقوم المجتمع الإسلامي المثالي والنموذج، "ومن طبيعة المؤمنة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها، بحكم إيمانها وصلاحها كذلك، أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته وبالأولى في حضوره..."[2]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ تَكُونُ فِي صُحْبَةِ زَوْجِهَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ سِنِينَ كَثِيرَةً وَهِيَ مَتَاعُهُ... وَهِيَ الَّتِي أَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ (لَمَّا سَأَلَهُ الْمُهَاجِرُونَ أَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ فَقَالَ: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، أَوامْرَأَةً صَالِحَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى إِيمَانِهِ) وَيَكُونُ مِنْهَا مِنْ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ مَا امْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا فِي كِتَابِهِ»"[3].

فصلاح الزوجة يقتضي طاعتها المطلقة لزوجها عدا في معصية الخالق، وطاعتها توفر في البيت الزوجية جوا رائعا من الهدوء والطمأنينة والسكينة، فتبسط أجنحة الرحمة، وتغمر لذة المودة والألفة أفراد الأسرة، فيطيب العيش في حضنها، وتصلح ذرية هذا المنبت الخصب الطاهر، وصلاح الزوجة يقتضي أن تكون حافظة لبعلها في عرضه وماله، ونفسه في حضوره وغيبته "حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ يَحْفَظْنَ فِي غَيْبَةِ الْأَزْوَاجِ مَا يَجِبُ حِفْظُهُ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ... حَافِظَاتٌ لِكُلِّ مَا هُوخَاصٌّ بِأُمُورِ الزَّوْجِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالزَّوْجَيْنِ... فَمَا بَالُكَ بِحِفْظِ الْعِرْضِ... وَتَكْرِيمِ أُولَئِكَ الصَّالِحَاتِ بِشَهَادَةِ اللهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ حِفْظُهُنَّ لِذَلِكَ الْغَيْبِ مِنْ يَدٍ تَلْمَسُ، أَوعَيْنٍ تُبْصِرُ، أَوأُذُنٍ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ... بِحِفْظِ اللهِ أَيْ: بِالْحِفْظِ الَّذِي يُؤْتِيهِنَّ

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 652/5.

[2]- نفسه، 653.

[3]- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 299/35.

اللهُ إِيَّاهُ بِصَلَاحِهِنَّ؛ فَإِنَّ الصَّالِحَةَ يَكُونُ لَهَا مِنْ مُرَاقَبَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَقْوَاهُ مَا يَجْعَلُهَا مَحْفُوظَةً مِنَ الْخِيَانَةِ، قَوِيَّةً عَلَى حِفْظِ الْأَمَانَةِ، أَوحَافِظَاتٌ لَهُ بِسَبَبِ أَمْرِ اللهِ بِحِفْظِهِ"[1].

إن هذا النوع من النساء هوالمعَوَّلُ عليه في إنجاب وتربية أمثال صلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، وبهن تعمر البيوت، وتقوم للمجتمع الإسلامي القائمة، والصالحات لا يعدم منهن عصر ولا مصر، فهن باقيات ما بقيت السماوات والأرض على مر التاريخ واختلاف الأزمان، من سنن الله تعالى المحصلة للحياة الطيبة، ومن أهم أسباب السعادة الدنيوية والثواب الأخروي.

فعلى الرجل فقط حسن الاختيار، واتباع نصائح من لا ينطق عن الهوى في الظفر بذات الدين، ولكن رجال اليوم جهلوا سنن الله تعالى في أسباب الصلاح والسعادة وطيب الحياة وتنكبوها، وضربوا بسنة الرسول ﷺ عرض الحائط؛ فضاعت منهم السعادة، وضيعوا أمة بأكملها؛ فعقرت النساء عن أن يلدن رجالا أبطالا يحملون هم الأمة؛ ويضطلعون بمهمة الإصلاح، فذاك جهاد بدون سلاح، ولكنه عظيم الفائدة والنفع؛ ومتى وقف الرجال على الحكم البالغة، والأسرار العجيبة ذات المنافع العظيمة والمصالح القيمة بآثارها النفسية والاجتماعية التي تدر من مشكاة الحق، والتي تنطق بفصل الخطاب وجوامع الكلام، من أقوال المصطفى ﷺ، وعملوا بها في كل أمر أونهي، صلح حال هذه الأمة وحققت نهضتها، وأخذت مكانها ودورها في الركب الحضاري، ولا يعني هذا أن نرد أونغفل أونستغني عن مقاصد الناس الأخرى في الزواج كالجمال والمال والحسب، خاصة ونحن نعلم أن الإنسان فطر على حب المال والإعجاب بالمرأة الجميلة، أوالمال الذي يفتتن به الجميع فهومطلب فطري، لا يمارى في أهميته وأثره، وبه تقوم الحياة، فهومن زينتها كما ذكر في كتاب الله، والحسب من بين الاختيارات الكبرى التي عليها يعقد القصد في الزواج، وهومطلب اجتماعي لا نذكر أهميته، ولا خلاف في السعي وراء تحصيله والفوز بصاحبة الحسب... "وَالْحَسَبُ فِي الْأَصْلِ الشَّرَفُ بِالْآبَاءِ وَبِالْأَقَارِبِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْحِسَابِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَفَاخَرُوا عَدُّوا مَنَاقِبَهَمْ وَمَآثِرَ آبَائِهِمْ وَقَوْمِهِمْ وَحَسَبُوهَا فَيُحْكَمُ لِمَنْ زَادَ عَدَدُهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْحَسَبِ هُنَا الْفِعَالُ الْحَسَنَةُ... وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الشَّرِيفَ النَّسِيبَ يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ نَسِيبَةً إِلَّا أَنْ تُعَارِضَ نَسِيبَةً غَيْرُ دَيِّنَةٍ وَغَيْرَ نَسِيبَةٍ دَيِّنَةٌ فَتُقَدَّمُ ذَاتُ الدِّينِ وَهَكَذَا فِي كُلِّ الصِّفَاتِ"[2].

ونفهم من هذا أن اجتماع هذه الخصال الأربع هوغاية البغية ونهاية المطالب؛ فالإسلام لا يناقض الفطرة ولا يعارض مصالح الإنسان، فإذا وُفقَ الرجل في الجمع بين هذه الصفات في الزوجة بأن كانت جميلة دينة نسيبة ذات مال، فقد نال مطمحه وفاز بأسباب السعادة ومفاتيح الحياة الطيبة. وهذا ما لمح

---

[1]–رشيد رضا، **تفسير المنار**، 58/5.

[2]– ابن حجر، **فتح الباري**، 135/9.

إليه بعض العلماء، قال القرطبي بمعنى الحديث إن هذا الخصال الأربع هي التي يرغب في نكاح المرأة لأجلها، فهوخبر عما في الوجود من ذلك[1]، ويرى الإمام النووي أن "الصحيح في معنى هذا الحديث أن النبي ﷺ أخبر بما يفعله الناس في العادة؛ فإنهم يقصدون هذه الخصال الأربع وآخرها عندهم ذات الدين فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين"[2].

وفي الحقيقة فإن هذا الحديث لا يعني فئة الرجال المقبلين على الزواج، ليرشدهم إلى حسن الاختيار، بل هوموجه لفئة عريضة من أفراد المجتمع، إن أحسنوا فقه هذا الحديث ومن ثم العمل بمحتواه؛ فهورسالة إلى كل امرأة ترغب أن تكون زوجة في المستقبل فعليها أن تتصف بما رغب فيه رسول الله ﷺ وحث عليه الرجال لتكون مرغوبة مطلوبة كزوجة، ورسالة إلى أب البنات الذي قال فيه ﷺ: «مَنْ عَالَ ثَلَاثَ بَنَاتٍ، فَأَدَّبَهُنَّ، وَزَوَّجَهُنَّ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، فَلَهُ الْجَنَّةُ»[3]، فهذا الوعد بالجنة، كي يغرس في بناته قيم الإسلام وأخلاقه، وينشئهن النشأة الصحيحة، نشأة الدين القويم، فيخفف من صداقهن، وييسر على الرجال تكاليف الزواج من مهر وغيره، فيجزل له العطاء ويضاعف له الأجر، وإلى الحكام المسلمين وولاة أمورهم أن يضعوا نصب أعينهم موضوع الزواج وبناء الأسرة ويؤسسوا له ركائز متينة مصدرها القرآن والسنة، فيعينوا الشباب على الباءة، بتوفير العمل والسكن، فيحصنوهم برباط الزواج المقدس؛ فيستقر المجتمع، وتقل فيه الفواحش ،وينعم أفراده بالحياة الطيبة، وتستقيم الحياة بين الزوجين.

ولأن سعادة المرء لا تكتمل بدون مسكن واسع ومركب هنيء، فنعرج الآن إلى السبب الثالث من الأسباب الكسيبة للحياة الطيبة ألا وهوالمسكن الواسع والمركب الهنيء.

ثالثا: اتخاذ المسكن الواسع وانتقاء المركب الهنيء

الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع وصناعته، وبقدر ما تكون الأسرة مستقرة في أفرادها تكون سعيدة، ومن المعلوم أن سعة المسكن من أسباب سعادة الإنسان، واستقراره؛ فهو الحصن المنيع الذي يحفظ له كرامته وعزته،كما أن المركب الفاره يزيد من راحة صاحبه ويسعده؛ فالإنسان بطبعه يحب الراحة والهدوء وينفر من كل ما يسبب له المشقة والضيق والحرج.

---

[1]- ينظر القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 278/13.

[2]- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** ، باب استحباب نكاح ذات الدين،[1466]، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 2 (1392هـ)، 51/10.

[3]- أخرجه أبو داود،**السنن** ،كتاب الأدب، بَابٌ فِي فَضْلِ مَنْ عَالَ يَتِيمًا، [5147]، 4/ 338.

1– اتخاذ المسكن الواسع: عن رسول الله ﷺ قال: «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ»[1]، ويشهد لهذا الحديث، حديث: «أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ» [2].

بعد أن مر في العنصر السابق كيف أن الزوجة الصالحة سر السعادة وسبب للحياة الطيبة؛ حيث تكون عونا لزوجها في حياته على أمر دينه ودنياه، فهذه الزوجة لابد لها من مسكن يجمعها بزوجها وأولادها؛ يستر عليهم معيشتهم، ويحميهم من الحر والبرد، ويؤمنهم من الخوف، قال الرازي: "وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسْكَنَ إِنَّمَا يَطِيبُ بِشَرْطَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ آمِنًا عَنْ جَمِيعِ مَا يَخَافُ وَيَحْذَرُ... وَالشَّرْطُ الثَّانِي: لِطِيبِ الْمَكَانِ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَصَلَ فِيهِ أَسْبَابُ النُّزْهَةِ... وذَكَرَ الله هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فِي مَسَاكِنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[3].

وقال القرطبي: "ومن آثار النعمة البناء الحسن..."[4]؛ أي المسكن الحسن، وجاء في تفسير الآية الكريمة: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74] أن معناها: تبنون في سهولها قصورًا لتسكنوها... وفي الآية دلالة على جواز البناء الرفيع والاعتناء بالمسكن المتسع المليء بالمرافق؛ فإن المسكن الواسع الكثير المرافق من سعادة المسلم في هذه الحياة الدنيا "[5].

وعدَّ النبي ﷺ الدار الواسعة كثيرةَ المرافق، واحدةً من بين ثلاثة أمور تحقق السعادة، فعن سعد مرفوعا: «ثَلاَثٌ مِنَ السَّعَادَةِ، وَثَلاَثٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ، فَمِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ تَرَاهَا تُعْجِبُكَ، وَتَغِيبُ فَتَأْمَنُهَا عَلَى نَفْسِهَا، وَمَالِكَ، وَالدَّابَّةُ تَكُونُ وَطِيَّةً فَتُلْحِقُكَ بِأَصْحَابِكَ، وَالدَّارُ تَكُونُ وَاسِعَةً كَثِيرَةَ الْمَرَافِقِ»[6]... ولا شك أن الطرف الثاني من الحديث والذي يمثل "ثلاث من الشقاوة" يجسد سنن المعيشة الضنك.

ولما كان المسكن الواسع من أسباب السعادة الدنيوية، كان على الإنسان لزوما، السعي والكد لتحصيله، وفق سنن الله العادلة؛ فمن يرغب في تحسين مستوى معيشته بالكسب الحلال كان الله في

---

[1]– أخرجه أحمد في مسنده، **مسند نافع بن عبد الحارث**، [15372]، 86/24، أخرجه البخاري، **في الأدب المفرد**، باب الجار الصالح، [116]، مصر، مكتبة الخانجي، 61/1، وأخرجه الحاكم في **المستدرك**، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ فَإِنَّ جَمِيلَ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيِّ رَوَى عَنْهُ حَبِيبُ بْنُ ثَابِتٍ غَيْرَ حَدِيثٍ، ووافقه الذهبي في ذلك فقال صحيح، [7306]، 184/4.

[2]– أخرجه أحمد في مسنده، [1445]، 55/3، وقال الأرنؤوط اسناد صحيح على شرط البخاري.

[3]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 27/ 665.

[4]– القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 239/7.

[5]– مأمون حموش، **التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون**، رابطة النساخ مركز النخب العلمية، ط 1(1428 هـ – 2007م)، 194/3.

[6]– أخرجه أحمد في مسنده، بلفظ مغاير أربع من السعادة، [1445]، 55/3، والحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب النكاح، [2684]، 2/ 162، قال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين.

عونه، بتيسير أمره ومباركة سعيه؛ حيث إن المسكن يعتبر من ضروريات الحياة؛ فالإنسان يقضي معظم سني عمره في هذا المسكن، لذا كان من نعيم الدنيا وعليه تترتب آثار عظيمة نفسية واجتماعية؛ فمن يبيت في مسكن واسع جميل، نظيف، متعدد المرافق، ليس كمن يبيت في مسكن ضيق، وسخ لا مرافق فيه، فالأول يصبح سعيدا، مستقرا متفائلا، محبا للحياة، باسم الثغر، والثاني يصبح تعيسا مضطربا، متشائما عبوسا قمطريرا، ناقما على الحياة قنوطا يؤوسا، ناهيك عن نظرة الناس وازدرائهم، لاسيما ونحن اليوم نعيش مظاهر الرفاهية في كل شؤون الحياة؛ فالناس يتسابقون ويتطاولون في البنيان؛ فأصبحت المساكن تتوفر على أقصى وسائل االرفاه، وأساليب الراحة، والعيشة الهنيئة، فما بالك إذا كان الصحابة وقت نزول القرآن، وما عرفوا من قناعة، وزهد وبساطة عيش قد اشتكوا النبي ﷺ ضيق المسكن فأمرهم بالدعاء والتضرع إلى الله حتى يوسع عليهم مسكنهم، عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، أَنَّهُ شَكَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ضِيقَ مَسْكَنِهِ فَقَالَ: «ارْفَعْ ثِيَابَكَ وَسَلِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ السَّعَةَ»[1].

ولما كان المسكن للأسرة المسلمة أساسا لاستمرار الحياة الأسرية، وسببا لديمومة العلاقة الزوجية وبنائها على المودة والرحمة، جعله الشارع الحكيم في مقام المسّن على عباده، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾[النحل: 80].

ويعتبر المسكن في الوقت الراهن من المقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية، لا يرتب ضمن المقاصد الحاجية بل الضرورية؛ لأن حفظ النفس من جانب الوجود والعدم لا يكون إلا بتوفير المسكن اللائق المناسب الذي يشعر فيه الإنسان بالأمان والحميمية؛ فيستطيع أن يكون أسرة صغيرة عساها تنشئ مجتمعا كبيرا؛ وبالمسكن الواقي تحفظ أيضا كلية الدين؛ حيث لا يستطيع الإنسان تلبية واجباته الدينية، والقيام بالشعائر التعبدية إلا في حضن مسكن لائق، مناسب لخدمة دينه، ونشر دعوته، وبالله عليك كيف يمكن للمسلم حفظ عرضه ونسله وهويفتقر إلى مسكن يستر عوراته ويصون حميمته، ومن هذا المنطلق كان السكن من الحاجات الأصلية التي لا يمكن للمرء أن يعيش بدونها، وأصبح اليوم موضوع السكن وكيفية الحصول عليه، ناهيك عن كونه واسعا لائقا، فيمقدمةالمشاكلالتييجابهاالمرءفيحياته؛ خاصة لمن عقد العزم، وقرر اختيار الزوجة الصالحة ليتم نصف دينه؛ ولهذا نستطيع أن نرتب مشكل السكن في المرتبة الأولى من الأسباب التي أدت بالشباب المسلم في هذا العصر إلى العزوف عن الزواج؛ وهذا ما جعل معظم الشباب المسلم يلجأ إلى التعامل بالقروض الربوية؛ محللا ما حرم الله، مشرعا لنفسه، حتى يظفر بمسكن فقط دون إضافة صفة السعة، ويحظى بالزواج ويحفظ نفسه عن الحرام،

[1]– أبوبكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي المعروف بابن أبي الدنيا، **إصلاح المال**، محمد عبد القادر عطا، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط 1(1414هـ – 1993م)، 1/ 89.

لاسيما في عصرنا هذا أين نواجه رفض أولياء أمور النساء تزويج بناتهن لرجل لا يملك مسكنا خاصا، فارتفعت نسبة العنوسة في المجتمع الإسلامي، وانتشرت الفواحش، كالزنا، واللواط، وشاعت الأمراض النفسية والاضطرابات العصبية، وانفجرت شرايين الشباب مخلفة سكتات قلبية، وجلطات دماغية... لمثل هذه الآثار السلبية النفسية والاجتماعية وغيرها كثير رُوعي في حفظ النفس كمقصد ضروري من جانب الوجود اتخاذ المسكن[1].

"يقال: شرف الرجل بناؤه، وهمة المرء داره وحاره، كتب على جدار قصر:

إن آثارنا تدل علينا ..... فانظروا إن آثارنا تدّل علينا

... فانظروا بعدنا إلى الآثار"[2]

فالمسكن شرف الرجل وأثره الباقي بعد رحيله، ونعمة امتن الله بها على عباده في الدنيا، وخير جزاء الآخرة لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: 72]، وقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[الصف: 12].

ولما كان المسكن أثرا يدل على صاحبه، فقد اعتنى به المسلمون أيما عناية، وتفننوا في البناء والعمران فزخرفوا بيوتهم، وأحسنوا بناء قصورهم، والتاريخ يشهد على فن العمارة عند المسلمين، ولا تزال المساكن والقصور، دالة على الحضارة الإسلامية العريقة، قائمة إلى يوم الناس هذا، شاهدة على آثار المسلمين، في كل بقاع الأرض، ومن روض الأخيار[3] ننتقى بعض الأقوال الخالدة في التغني بالديار والمساكن الطيبة.

فيقال عند العرب: جنّة الرجل داره، ويقال: لتكن الدار أوّل ما يشترى وآخر ما يباع، وقال بعض الأشراف لابنه: حسّن أثرك في الدنيا واسمع قول الشاعر:

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ... ولا تكون له في الأرض آثار

ومن السعادة للفتى ... ما عاش، دار فاخره

فاقنع من الدنيا بها ... واعمل لدار الآخرة

بيت ترى الجدران فيه منابعا ... وترى السماء كثيرة الأقمار

---

[1]– ينظر: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، **الموافقات**، دار ابن عفان، ط 1(1417هـ– 1997م)، 2/ 19.

[2]– محمد بن قاسم بن يعقوب الأماسي الحنفي، محيي الدين، ابن الخطيب قاسم، **روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار**، حلب، دار القلم العربي، ط 1(1423 هـ)، 1/ 161.

[3]– نفسه، ص: 161-162.

كما جاء المسكن الواسع الجميل الطيب في باب الامتنان، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا ﴾ [النحل: 80]، ففي"سياق امتنان الله على عباده بما آتاهم من أسر وبيوت... عرض كتاب الله جملة من النعم التي هي شرط أساسي لحياة الأسرة وسعادة البيت"[1].

وهذا معنى آخر في ذكر "المسكن" نعمة توجب الشكر، يمتن الله بها على عباده "أنه هداكم إلى اتخاذ البيوت لكي تستريحوا وتسكنوا فيها بين أهليكم وأولادكم ولم يترككم تأوون إلى الغابات أَوتعيشون في الكهوف وقت إقامتكم الدائمة، أما في الترحل والانتقال فقد ألهمكم ما يعينكم على تلك الحياة... أي أرشدكم إلى صنع الخيام وضرب القباب في أَسفاركم"[2].

فمن سنن الله الكونية أن جعل الليل سكنا، ﴿وَجَعِلُ ٱلَّيۡلِ سَكَنٗاۖ ﴾ [الأنعام: 96]؛ فلا تستقيم حياة الناس ولا تقوم لهم قائمة لوكان النهار مستمرا؛ فهذا مناقض لسنن الله في خلقه؛ حيث خلق الإنسان ضعيفا لا يستطيع العيش بدون راحة وسكون؛ فهوفي حاجة إلى النوم ليسترد طاقته وقوته التي بذلها في النهار للعيش، فأنهكه التعب وأخذ به كل مأخذ، ولهذا سن الله آية الليل ؛ فجعله "يستريح فيه المتعب من العمل بالنهار ويسكن فيه، والسكون يعم سكون الجسم وسكون النفس؛ بهدوء الخواطر والأفكار"[3]، ومعظم الكائنات الحية من إنسان، وحيوان في حاجة إلى سكون الليل وراحته، وهذا السكون يستلزم مكانا يسكن فيه من وحشة الليل ومخاطره، فكان من تمام فضل الله ورحمته بعباده أن أرشدهم وهداهم إلى بناء مساكن، واتخاذ بيوت، يأوون إليها، في إقامتهم وسفرهم، راحة لأبدانهم المتعبة، وهدوءا وسكينة لأنفسهم المضطربة، وفي هذا زيادة عناية من الخالق، ومزيد من كرمه على عباده "والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة"[4].

فالمسكن تحفظ به كليتا حفظ النفس والعرض؛ وجودا، وعدما، ومن تفسير السعدي، نستنتج أن المسكن تحفظ به كلية المال أيضا، وما دامت المساكن والبيوت محققة لمصالح الإنسان ومنافعه، النفسية والاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية؛ فكلما كان المسكن أوسع، وأريح، وأجمل، وأنظف وأهدأ، تحققت مصالح أكثر وأعم، وانتفع الإنسان، ونال قسطا وافرا من السعادة المؤدية إلى الحياة الطيبة

---

[1]– محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 3/ 346.

[2]– مجمع البحوث، **التفسير الوسيط**، 5/ 661.

[3]– أحمد بن مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، مصر، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، ط 1(1365 هـ – 1946م)، 1/ 195.

[4]– السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، 1/ 445.

المستدعية لشكر الله، والاعتراف بنعمه الظاهرة والباطنة، التي ذكرها في آيات التنزيل المسطورة، والمبّينة المنظورة في آيات كونه المرئي.

ولما جرت سنن الله الكونية في تعاقب الليل والنهار في بيان سننه في خلقه، اقتضت حكمته أن يكون الليل سكنا لكل الأحياء فهدى الوحوش، والحيوانات إلى أوكارها وجحورها، وبوأ الإنسان مكانة أسمى، حيث سخر له السهول وبسطها ليبني عليها القصور والدور، كما ذلل له الجبال ليتخذ منها بيوتا يرضاها مأوى له في الحر والبرد.

فما مواصفات المساكن التي يرضاها الإنسان للإقامة فيها؛ لينعم بالحياة الطيبة وليؤدي وظيفته الاستخلافية ؟

أ– المساكن اللائقة ببني البشر: قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة: 24].

ذكرت الآية الكريمة "مساكن ترضونها"؛ أي إن هناك مساكن يرضاها الإنسان لنفسه، وهي بلا شك المذكورة في حديث الرسول ﷺ أربع من السعادة وذكر (المسكن الواسع)، وهناك مساكن لا يرضاها؛ أي إنه أرغم على الإقامة فيها بسبب من الأسباب كالفقر، أوالسفر، أوالهجرة من الموطن الأصلي، ولهذا سوف نعدد في هذا العنصر بعض الصفات التي تجعل المساكن مرضية، قيل: "أي تحبونها لطيبها وحسنها"[1].

أ–1– المساكن اللائقة ببني البشر: قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: 24].

ومن إكرام الضيف أن تخصص له غرفة مستقلة للنوم، ومن المحاسن تخصيص دورة للمياه للتطهير خاصة بالضيوف؛ حتى لا يقع الضيف في حرج ومشقة، ولا يكونُ هذا ممكنا ولا تتحقق ثماره إلا في مسكن واسع.

[1]– محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 2/ 368.

ومن هدي السنة النبوية جاء الأمر بضرورة التفريق بين الذكور والإناث في المضاجع، «وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[1]؛ وبتخصيص غرف للبنات مستقلة عن غرف الذكور يطبق هديه – عليه الصلاة والسلام– الموافق للفطرة الإنسانية.

فهذه بعض مزايا المسكن الواسع، حتى يتسع المقال للإحاطة بالصفات الأخرى.

أ–2– أمن المسكن: الأمن مطلب شرعي، ومقصد اجتماعي، قال تعالى: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾[إبراهيم: 35]، يقول الرازي في تفسير هذه الآية "فدل هذا على أنه وصف البيت بالأمن فاقتضى جميع الحرم"[2].

فقد امتن الله على عباده بنعمة الأمن ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾[قريش: 3-4]؛ لذلك يجب على الإنسان اختيار المسكن الآمن داخل الحي الآمن في جوار الجار الآمن، حتى يحيا في استقرار وأمن بعيداً عن مستنقعات الجريمة والفساد، لاسيما في المدن الكبيرة التي ينتشر فيها الإجرام، والآفات الاجتماعية المختلفة؛ فالإنسان مطالب شرعا بتوفير الأمن والاستقرار لأسرته؛ إذ هوالمسؤول أمام الله عن حماية أسرته، ويقع فيها حسن اختيار الجوار؛ فموقع الدار له أهمية بالغة من نواح شتى، فلا يُتصور مخاطر وآثار الأحياء التي تنتشر فيها المخدرات والسرقة وكل أنواع الآفات الاجتماعية، لتتحول إلى أوكار للعصابات؛ فتصدر عنها كل أنواع الإيذاء، ومنغصات العيش؛ فتتحول حياة الإنسان وعائلته إلى معيشة ضنك، ويكفينا ما نقرأه كل يوم في صفحة الحوادث عن جرائم يهتز لها كيان المجتمع، وما نسمعه على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي من حوادث يعرق الجبين لسماعها، ومشاهدتها على المباشر من قتل واغتصاب...؛ لهذا أمر الرسول ﷺ بالتعوذ من الجوار السوء، قال ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامِ، فَإِنَّ جَارَ الدُّنْيَا يَتَحَوَّلُ»[3]؛ أي في المسكن الذي يقيم فيه الإنسان إلى الأبد ولا يتحول عنه؛ فشروره باقية تطول أفراد الأسرة، فتحول حياتهم الطيبة إلى معيشة ضنك.

أ–3– **مجاورة المسكن للمسجد:** أثبتت الدراسات النفسية الحديثة أن الإنسان يحس بالراحة والاطمئنان داخل الأماكن المخصصة للعبادة مثل المساجد والكنائس، والدور المختلفة للعبادة؛ لذلك لجأ منذ القديم للبحث عن مكان يزاول فيه عبادته؛ فبدأ يتفنن في بناء المساجد والكنائس ليشبع احتياجاته الدينية؛ ولأن المسكن هوالإطار المادي الذي يقضي فيه الإنسان أفضل أوقاته، وهوالمتنفس له

---

[1]– رواه أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، [495]، 1/ 361.

[2]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 4/ 41.

[3]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، في الأدب المفرد، باب الجار السوء، [117]، 1/ 54.

من تعب العمل، ومشاق الحياة، فهويجد في حضنه السكينة والراحة، والحرية الشخصية التي يفقد جزءا منها خارجه؛ لهذه الأسباب كان المسلم حريصا على البحث عن المسكن المجاور للمؤسسات الدينية كالمسجد والمدرسة القرآنية، أوالزاوية[1] التي كانت تخصص لحفظ القرآن، وتعليم العلوم الشرعية والإعداد للجهاد، حتى ارتفعت أسعار العقار بجوار المساجد، حيث يجد القاطن بجواره راحة نفسية، بالإضافة إلى الشعور الدائم بالأمن والأمان، ونوع من الرضا، والفرح؛ وفي القرب من منافع نعدد بعضها في النقاط التالية:

1- معرفة أوقات الصلاة، وعدم فوت فضل صلاة الجماعة.

2- تملك المسلم لمسكن قريب من المؤسسة الدينية، سواء كانت مسجداً أومركزاً إسلامياً، أومدرسة قرآنية، يهيئ فرصة لأفراد أسرته للتقرب من المجموعة المسلمة المتدينة المحافظة، عسى أن ينشأ من خلال هذا التقارب جيلٌ يعطي مجتمعا إسلاميا صالحا.

3- تقوية الروابط وأواصر المحبة بين أفراد الأسرة والقائمين على هذه المؤسسة مهما كانت تسميتها، فبالتعارف يعم التعاون على العيش في ظل مفاهيم الإسلام، ومبادئه، وقيمه العليا، فيعم الخير والنفع الطرفين، وتنشر الأخلاق الحسنة.

4- تحبب الأولاد والنساء في حفظ القرآن، وتعلم الأحكام مادامت المدرسة القرآنية قريبة من المسكن، فلا حجة لهم في تقديم الأعذار، كبعد المسجد، والمدرسة القرآنية عن المنزل.

5- تحصيل الثواب والأجر العظيم، وتكفير الذنوب، ومحوالسيئات، وصلاة الملائكة واستغفارهم لرواد المساجد.

6- الفوز بالبركات، وحصول الفلاح بسماع النداء للصلاة، فكلمات الأذان تدخل السكينة إلى القلب وتقضي على همزات الشياطين، فقد ثبت أن النبي ﷺ أخبر أن الشيطان إذا سمع الأذان ولى هاربا: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ»[2].

ومن ما لاشك فيه أن فضائل ومنافع السكن بجوار المساجد عظيمة وجليلة، ولكن من دواعي الدراسة والبحث والاختصار وعدم الاتساع، لا يمكنني بيان وتفصيل بقية النقاط؛ فأسباب السعادة

---

[1]- الزاوية: هي مكان معد للعبادة، وإيواء الواردين المحتاجين وإطعامهم، وتسمى في المشرق خانقاة وهولفظ أعجمي، وهوعبارة عن المكان الذي يتلقى فيه صالحوا المؤمنين لعبادة الله وذكره والتفقه في أمور الدين، ينظر: محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، الرباط، المطبعة الوطنية، ط2 (1988م)، ص: 81.

[2]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الآذان، باب فضل التأذين، [608]، 1/ 125.

كثيرة لمن فقه سنن الحياة الطيبة، وسعى لاكتشافها؛ فقد أرشد النبي ﷺ إلى بعضها، متمثلة في المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، والمرأة الصالحة.

بينت الدراسة اثنين منها، هما: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، لنميط اللثام عن المركب الهنيء، ودوره في تحقيق سعادة المرء ليذوق حلاوة الحياة الطيبة.

2– انتقاء المركب الهنيء: ما هو المركب الهنيء الذي يُعد من سعادة المرء؟ قال ﷺ: «أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ»[1].

لاشك أن السعادة المذكورة في الحديث هي سعادة الحياة الدنيا، التي تجعل الإنسان يشعر بالراحة؛ راحة البال، وراحة البدن؛ أما راحة البال المفضية للسكينة والطمأنينة والصحة النفسية، فقد سبق أن بينتها الدراسة في مبحثها ومطلبها المخصص لها، وأما راحة البدن، فهي المقصودة بذكر المركب الهنيء؛ فالإنسان بفطرته ينجذب نحوالأمور المحققة للراحة البدنية، والميسرة والمذلّلة لمشاق الحياة؛ فنفوره من الأشغال المتعبة، والأعمال الشاقة، من صميم فطرته، ولأن الشرع يوافق الفطرة، ولا يناقضها، رغب النبي ﷺ في كل ما يلبي حاجات الإنسان الفطرية، فهذا نور آخر يخرج من مشكاة النبوة، يذكر الإنسان بنعم الله عليه؛ أن هداه للتنقل والسفر، بوسائل تحقق له الراحة، ومنها المركب الهنيء؛ على اختلاف الظهر والركب، وهذه الآيات المسطورة من التنزيل الحكيم التي يمن الله على الإنسان بتكريمه بوسائل الحمل والركوب ليستريح من السفر، قال تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٧ ﴾[النحل: 5-7].

قال القرطبي: "وَأَمَّا جَمَالُ الْأَفْعَالِ فَهُوَوُجُودُهَا مُلَائِمَةً لِمَصَالِحِ الْخَلْقِ وَقَاضِيَةً لِجَلْبِ الْمَنَافِعِ فِيهِمْ وَصَرْفِ الشَّرِّ عَنْهُمْ، وَجَمَالُ الْأَنْعَامِ وَالدَّوَابِّ مِنْ جَمَالِ الْخِلْقَةِ... وَلِأَنَّهَا إِذَا رَاحَتْ تَوَفَّرَ حُسْنُهَا وَعَظُمَ شَأْنُهَا وَتَعَلَّقَتِ الْقُلُوبُ بِهَا..."[2]؛ فجمال المركب يدخل السرور على نفس صاحبه؛ فمتى رأى دابته، أومركبة جميل، فرح، ورضي به، يقول سيد قطب: "تلبية حاسة الجمال، ووجدان الفرح، والشعور الإنساني في المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان"[3].

وبالإضافة إلى الجمال فهي تيسر عليه المشاق وتذلل الصعاب؛ فتحمل عنه متاعه وأثقاله على اختلافها؛ فتخفف عنه المشقة في قضاء حوائجه، في إقامته وسفره؛ فيبلغ هدفه، ومقصده، بأقل جهد،

---

[1]– سبق تخريج الحديث، ص 62.

[2]– القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 10/ 70.

[3]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 14/ 2161.

وفي هذا رحمة من الله ونعمة تستوجب الشكر: "وَتَقُولُوا على سبيل الشكر لله- تعالى- والاعتراف بفضله سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا"[1].

وفي شكر النعمة ذكر، وفي ذكر الله طاعة وعبادة ومنفعة لهذا الراكب المسافر؛ فيطمئن قلبه بذكر الله، ويتيسر عليه مقصده، وفي هذا إرشاد وتوجيه من الله على دوام الذكر؛ فلوكان هذا المركب يبطئ به، ويعيق سير حركته فيأخذ الغم به كل مأخذ، وتضطرب نفسه، وتضيق عليه الدنيا فينسى ذكر ربه، وشكره، قال ﷺ: «وَالدَّابَّةُ تَكُونُ قَطُوفًا فَإِنْ ضَرَبْتَهَا أَتْعَبَتْكَ، وَإِنْ تَرَكْتَهَا لَمْ تُلْحِقْكَ بِأَصْحَابِكَ»[2].

ولهذا كان المركب الهنيء الذي يسرع بصاحبه، ويوفر له أسباب الراحة، ويعينه على قضاء أمور معاشه، أحد الأسباب المفضية للسعادة التي أخبر بها رسول الله ﷺ، وفي التنزيل قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 32].

فالمركب الهنيء من آثار النعمة التي يحب الله أن يراها على عبده إذا أنعم عليه، "وَالدَّابَّةُ تَكُونُ وَطِيَّةً فَتُلْحِقُكَ بِأَصْحَابِكَ"[3]. قال المناوي: "والدابة تكون وطيئة؛ أي: هنية سريعة المشي سهلة الانقياد فتلحقك بأصحابك بلا تعب ولا مشقة في الإحثاث... والدابة تكون قطوفا أي بطيئة السير والقطوف من الدواب البطيء؛ فإن ضربتها لتسرع بك اتبعتك وإن تركتها تمشي بغير ضرب لم تلحقك بأصحابك أي رفقتك بل تقطعك عنهم"[4].

فشتان بين الدابتين؛ الوطيئة، والقطوف؛ فالأولى إحدى الراحتين لصاحبها، والثانية، أحدى المشقتين، على "والمركب الهنيء: أي الدابة السريعة غير الجموح والنفور، والخشنة المشي التي يخاف منها السقوط وانزعاج الأعضاء وتشويش البدن"[5].

فهذا المركب بّين ظاهر، فصاحبه في أمن على بدنه، وسائر أعضائه، من الكسور، والرضوض، والكدمات، وعلى نفسه من الحسرة، والهم والغم، بما يلقاه من سوء مركبه؛ فصاحب المركب الهنيء طيلة

---

[1]- محمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، القاهرة، دار نهضة مصر، ط 1(1997- 1998)، 13/ 65.

[2]- صهيب عبد الجبار، **الجامع الصحيح**، 34/ 318؛ وينظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك**، وقال الذهبي هذا حديث صحيح الاسناد، [2684]، 2/ 192.

[3]- أخرجه الحاكم، **المستدرك**، قال الذهبي حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين، [2721]، 192/2.

[4]- المناوي ، **فيض القدير**، 3/ 320.

[5]- نفسه، 399/3.

سفره يتمتع با لمناظر الطبيعة في الطريق مغتنما أوقاته بالذكر والشكر والحمد، والثناء على صاحب العطاء والفضل الجميل.

يقول الطحاوي: "الْمَرْكَبِ الْهَنِيِّ فَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِرَفْعِ الشُّغْلِ عَنْ قَلْبِهِ، وَيَكُونَ فِي رُكُوبِهِ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ؛ إِمَّا مُتَشَاغِلًا بِذِكْرِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِمَّا غَيْرَ مَشْغُولِ الْقَلْبِ مِمَّا يُؤْذِيهِ مِنْ مَرْكَبِهِ"[1].

فمن كان هذا حاله في سفره، أواعتماده على مركبه في تجارته، وأعماله، حتما سيكون إنسانا إيجابيا فعالا في مجتمعه، سهلا لينا في معاملاته مع الناس، طيب النفس، لما أنعم الله عليه ويسر له في تنقله، وخفف عنه الأثقال، فبامتلاكه مركبا مفيدا، لائقا، مساعدا، يتخلص من نصف أعبائه، ويلقي بثلث همومه، وجانب كبير من منغصات الحياة؛ ذلك لما للمركب من أهمية، ودور شديد متين في حياة الإنسان مهما كان الظهر (الإبل، خيل، دواب مختلفة، سيارة، حافلة، دراجة، ... الخ)، فمنذ التكريم الأول ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: 70]، بالعقل، والصورة الحسنة، زاد في التكريم بتسخير لهذا المكَرَمُ وسائل التنقل والسفر بحسب حاجته براً وبحراً، وفي هذا زيادة في التيسير ورفع الحرج عليه، ليحقق له منافعه، ومصالحه؛ ولمرونة شرع الله، وتطوره ومواكبته لكل زمان ومكان، مهما تغيرت الظروف، وتبدلت البيئات؛ فسّر تكريمه وتفضيله يبقى دائما يشتغل، ويفكر ليبدع لكل أهل زمان، ومكان، وسائل للتحمل والتنقل والركوب تحقيقا لمنافعهم وخدمة لمصالحهم في معاشهم؛فما قُطع في القديم في مدة شهر ركوبا على ظهر الدواب، يُقطعُ اليوم في أقل من ساعات، وربما يُقْطَعُ في الزمان الآتي في أقل من دقائق وهكذا... ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: 7].

ومنذ الزمن البعيد إلى يوم الناس هذا والمركب الهنيء يقدم للبشر خدمات جليلة نلخصها في هذه النقاط:

1- يوصل صاحبه إلى مقصده لقضاء مصالحه.

2- يسرع بصاحبه ولا يؤخره عن ميعاده.

3- يقصر لصاحبه المسافات ويقرب له المقاصد.

4- يلحقه بأصحابه فلا يقطعه عن الركب فيضيع أويتوه.

5- يحفظ صاحبه من حر وبرد فيحميه.

---

[1]- الطحاوي أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري ، **شرح مشكل الآثار**، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 1(1415 هـ، 1494م)، 7/ 207.

6- يعينه على ذكر الله، وشكره، وعبادته.

7- يحقق لصاحبه راحة البدن وسكينة النفس والرضى.

8- ولمثل هذه الخدمات وأكثر كان المركب الهنيء من أهم الأسباب السننية الكسبية للحياة الطيبة.

من خلال هذا أستشف أن أولى الأسباب السننية للفوز بالحياة الطيبة هو الإيمان بالله، وما يتفرغ من عمل صالح، وما يثمرهمن سكينة وطمأنينة وراحة البال، وحب الخير للغير، وصلاح حال المؤمن الموحد؛ فهو يعيش السلام والوئام مع نفسه ومجتمعه، ولكن هل يستطيع الإيمان وحده أن يثمر هذا؟ !مع أنه حقيقة كونية عظيمة يشهد لها الكون بأكمله؛ فهو سنة الوجود وناموسه الفطري؛ إذ يحقق الحياة الطيبة التي ينشدها كل إنسان؛ ويأتي الجواب عن هذا السؤال في السبب الثاني لطيب الحياة، المتمثل في عبادة الله ومدى حاجة الإنسان إليها، حيث تمثل العبادة التطبيق العملي للإيمان، وحتى يخشع قلب المؤمن وهو يعبد ربه،ويأمن على دمه وعرضه وماله، وجب إقامة شرع الله والحكم بما أنزل المولى تبارك وتعالى على نبيه صلوات ربي عليه، وجماع تشريعه الحكيم حفظ الدين والنفس والعرض والمال، وهذه المقاصد العظيمة سر سعادة العبد في الدارين، ولحفظها وجودا شرع الزواج وكان الزوج الصالح سبب السكينة الأسرية، كان والمسكن الواسع،والمركب الهنيءمن أعظم الأسباب المحصلة للحياة الطيبة.

المطلب الثاني: السنن الأسباب الجماعية للحياة الطيبة

بعد أن بينت الدراسة سابقا أسباب الحياة الطيبة على مستوى الأفراد، تشرع في هذا المطلب في بيانها على مستوى الجماعات والأمم؛ ذلك أن تحقق الحياة الطيبة للفرد لا يعني لزوما تحققها للجماعات والأقوام مجتمعة، علما أن السعي وراء تحقيقِ السعادة والفوزِ بعيش طيب مطلبُ كل الشعوب، ورغبةُ الأمم منذ القدم، قِدَمَ السياسات والقيادات التي ساست الشعوب والأقوام منذ الوجود الإنساني على وجه المعمورة إلى يوم الناس هذا .

وقد ظهرت مؤخرا منظمات وهيئات عالمية تعمل على وضع معايير، وضوابط لتصنيف الشعوب والدول وفق مقاييس للسعادة، ونسبة جودة الحياة، و"يعُدُّ المجلس العالمي للسعادة وجودة الحياة شبكة تضم نخبة من كبار علماء السعادة وجودة الحياة ومهنيين مخضرمين في مجالات وقطاعات متنوعة، والتي تشمل علم النفس، والاقتصاد، والتعليم، والصحة، والتخطيط الحضري، والمجتمع المدني، وقطاع الأعمال، والحكومة، ويعمل المجلس على تحديد أفضل الممارسات والسياسات المختصة بالسعادة وجودة الحياة والقائمة على الأدلة العلمية والعملية... ويعتبر عمل المجلس رافدًا وداعماً رئيسياً للتقرير العالمي لسياسات السعادة وجودة الحياة".

فسعادة الأمم، وحصولها على طيب الحياة محكوم بسنن إلهية، وقوانين ربانية مطردة، قابلة للدرس والفهم والفقه والتسخير، كما أنها قابلة للتحليل؛ لذا تحاول الدراسة طرح بعض الأسباب السننية للحياة الطيبة، وتحليلها، تحليلا سننيا.

الفرع الأول: سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

صرح القرآن الكريم بأن الله أودع بين الأمم سننا لا تتبدل، ثابتة ثبات القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية، وعلى هذه السنن تجري شؤون البشر المتغيرة، وبحسبها تكون النتائج والآثار في الدارين، ومنها سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يترتب عنها من مصالح ومفاسد، دينية ودنيوية، ووفق هذه السنن جاءت الشريعة الإسلامية بمقاصد عظيمة نبيلة، غايتها جلب المصالح ودفع المفاسد عن الناس في حياتهم ومعايشهم، ولا يتحقق هذا إلا بمقتضاها، وإلا انقلب الأمر حتى يتفاقم الشر وينتشر الظلم ويعم الفساد، فلا يوجدَ من يشد على يد الظالم فينهاه؛ فلابد للناس من يدعوهم إلى الخير، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ولابد لهم من سلطة تأمر وتنهى، وهذا ما ينبغي أن يدركوه ليعرفوا حقيقة أمتهم وقيمتها، ويعرفوا أنها أخرجت لتكون في الطليعة، وتكون لها القيادة؛ بما أنها خير أمة؛ وفي أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد[1]. فسنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمثل في الحضارة الإسلامية فضيلة عظيمة، وهي من الواجبات المنوطة بذمة جماعة المسلمين ليتحقق النهوض للأمة؛ وهي طوق النجاة من المهالك والمفاسد لتنعم بالسعادة في ظل الحياة الطيبة.

وبالرجوع إلى نصوص الوحيين نلحظ مدى أهمية هذا الأمر، بورود الحث عليه بكثرة، والدعوة إلى ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث مثل له الرسول ﷺ بسفينة النجاة للمجتمع، في ما رواه عنه النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوأَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»[2].

---

[1]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 4/ 444-447.

[2] – أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**،كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهمام فيه، [2493]، 3/ 139.

يقول صاحب كتاب عمدة القارئ: "هَكَذَا إِذا أُقِيمَت الْحُدُود وَأمر بِالْمَعْرُوفِ وَنهي عَن الْمُنكر تحصل النجَاة للْكُلّ وإلاَّ هلك العَاصِي بالمعصية وَغَيرهم بترك الْإِقَامَة"[1].

إذن فصلاح المجتمع ونجاة أفراده في الدنيا مرهون وموقوف على تفعيل هذه السنة؛ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ التي جعلها الله خصيصة من خصائص الأمة الشاهدة، ذلك أن النجاة من المهالك والأضرار والقضاء على المفاسد ومسبباتها، المتحصلة منها تعد من أعظم الغنائم التي تحقق طيب العيش، فتوفر أسباب السعادة الدنيوية، والفوز برضا الرحمان الذي هوأهم أسباب النجاة في الآخرة، قال عز من قائل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: 110].

ونخلص إلى أن إقامة سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفعيلها في الأمة الإسلامية تعينها على استعادة مكانتها التي بها استحقت أن تكون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: 110]، والحرص على ممارسة الناموس الإلهي، والقانون الرباني المتمثل في سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"كفيل بإخراج الأمة من غثائيتها، ونهوضها من عثراتها وكبواتها، وفق سنن الله العادلة؛ فالخيرية تستلزم الطليعة والقيادة، وهذا ما غاب عن واقع الأمة في هذا العصر لما تقاعست عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنكبت السنن؛ فكلّما قامت الأمة بهذا الواجب صلح حالها، وطاب عيشها، ونَعِم أفرادها بالسعادة، وفازوا بالحياة الطيبة التي وعدها إياهم ربهم في الدنيا والآخرة؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من السنن الموصلة للأعمال الصالحة المثبتة لأركان الإيمان، المقوية للهمم والعزائم، ومحال أن يتصدى لمهمةٍ بهذا القدر والأهمية مَن لا إيمان له، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: 97].

وما كرم الله هذه الأمة ورفع من قيمتها، بالذكر الحميد في عظيم تنزيله، يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إلا لعظيم نفع هذا الواجب، وقوة تأثيره في دفع المهالك عن المجتمع؛ وكونِه سنة نجاة تحفظ بها سلامة الجماعة المسلمة، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: 110]؛ فخصها بالمدح والثناء لتفعيلها هذه السنة، وإلا كيف تفسَّر كثرة النصوص المتواترة من القرآن والسنة، التي ذكر فيها سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي سوف تساق شواهد وأدلةً كلٌّ في مقامه وموضعه إن شاء الله، وكيف يُفهَمُ ترتيب هذا الواجب

[1]– العيني أبومحمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين ، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**،بيروت، دار إحياء التراث العربي، (دط ت)، 13/ 57.

الذي يلفت النظر إلى أهميته ومكانته في هذا الدين، ثم عناية الشرع القويم بكل ما يحقق صلاح المجتمع ونفعه وسعادته، بحيث يستطيع كل أفراده أن يتمتعوا بحياة طيبة خالية من المنغصات، التي تنتشر كالوباء القاتل بالغفلة عن هذه السنة الإلهية وبالتفريط فيها، ومن ثمة يقع تسليط العذاب والعقاب على الأقوام والأمم المقصرة فيها؛ وحمايةً للجماعة المسلمة من هذا المآل المخزي والمعيشة الضنك، جاءت الآيات الكريمة الكثيرة، داعية إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: 110]؛ وتفصيل فضائل إقامة سنة الأمر والنهي، وتفعيلها في المجتمعات البشرية عامة، والجماعة المسلمة خاصة تبرزه الدراسة في جملة النقاط الآتية.

أولا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقدم على الإيمان بالله ووحدة للأمة

من مقتضيات الإيمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر والنهي صمام أمان لوحدة الامة وحفظها من تشذرم والتفكك.

1– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقدم على الإيمان بالله: قدم الله ذكر سنة الأمر والنهي، ورتبها قبل الإيمان الذي يعتبر شرطاً أساساً لبناء العقيدة؛ لعظيم أثرها وتأثيرِها على الفرد والمجتمع على السواء، وبحسبها تكون الآثار الدنيوية والأخروية؛ فنجد الحريص على مجتمعه من الفساد، الراغب في إصلاحه وصلاحه، الآمر بالخير، الباذل جهدِه في نشره داخل جماعته، المحافظ عليها من كل أسباب الهلاك والفتن والأوجاع والأسقام والفرقة، موفقًا ميسرة له سبل الهداية والإيمان مذلّلة.

لتعرض الدراسة آراء المفسرين في هذا التقديم والتأخير: "وإنما قدم الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان باللهِ – مع تقدمه عليهما وجودًا ورتبة – لأن دلالتهما على أنهم خير أُمة أُخرجت للناس، أَظهر من دلالته على هذه الخيرية؛ لأن جميع الأمم تشترك في الإيمان"[1]؛ فجعل الإيمان مشتركا بين جميع الأمم، غير أن خصيصة الأمر والنهي تفردت بها أمة محمد ﷺ، أما صاحب مفاتيح الغيب فجعل المسألة تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع وجوب تقديم الإيمان بالله على جميع الطاعات، كون هذه الأمة أقوى حالا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باقي الأمم، رغم اشتراكهم في الإيمان بالله، فحصولها على الخيرية إنما هومن جراء تفعيل هذا الأمر، حتى أثر تأثيرا قويا في إصلاح حال المجتمع[2].

ويرد رشيد رضا رأي الرازي هذا في تقديمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، ويرفض قوله إن هذه الصفات الثلاث كانت حاصلة في الأمم كلها قبلنا، ويصرح قائلا: "غير صحيح

---

[1]– مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 2/ 635.

[2]– ينظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، 8/ 325 .

على إطلاقه"[1]، ثم يورد قول الأستاذ الإمام في هذه المسألة " أَمَّا تَقْدِيمُ ذِكْرِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى الْإِيمَانِ فَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ (الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ) مَحْمُودَةٌ فِي عُرْفِ جَمِيعِ النَّاسِ: مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، يَعْتَرِفُونَ لِصَاحِبِهَا بِالْفَضْلِ وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي خَيْرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمِ قَدَّمَ الْوَصْفَ الْمُتَّفَقَ عَلَى حُسْنِهِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَهُنَاكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ سِيَاجُ الْإِيمَانِ وَحِفَاظُهُ فَكَانَ تَقْدِيمُهُ فِي الذِّكْرِ مُوَافِقًا لِمَعْهُودٍ عِنْدَ النَّاسِ فِي جَعْلِ سِيَاجِ كُلِّ شَيْءٍ مُقَدَّمًا عَلَيْهِ"[2]. ورأي الأستاذ صواب؛ فلوكانت هذه الصفات منتشرة في اليهود والنصارى قبلنا لما حرفوا الكتب وقتلوا الرسل، وما كانت هذه الأمة لتظهر وتوصف بالخيرية.

2– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صدقة وعصمة لوحدة الأمة: لا شك أن الصدقة من آليات التكافل الاجتماعي المهمة، عظيمةِ النفع في المجتمع، دون أن نغفل عن أجرها الكبير، وثوابها لصاحبها في الدنيا والآخرة، ولها أثر بالغ في حياة الناس، وشأن عظيم في تحقيق كيان المجتمع المسلم وتثبيت دعائمه، فتسهم في إصلاحه، بإعدام المظاهر السلبية المضرة به، والآفات الاجتماعية المختلفة الناتجة عن الفقر، والحاجة المادية، فصاحب الصدقة، الباذل لماله لأجل إصلاح مجتمعه، تجارته لن تبور، وماله لن ينقص لأنه يتاجر مع من عنده خزائن الدنيا والآخرة، وهذا الفضل لا يعدم منه الفقير،ولايحرم منه من لا مال له،بل ينال كل هذه الفضائل، والطاعات، باتباع المنهج القويم، منهج الإسلام، الذي لا يكلف نفسا إلا وسعها، يبلغ المسلم هذه الفضائل، وأكثر منها بالقيام بواجب هذا الدين، المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقد جاء في حديث المصطفى ﷺ قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»[3].

وبهذا الحديث يتضح أن القيام بواجب الأمر بالمعروف أفضل من بعض الطاعات؛ إذ "فيه إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة في كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولهذا نكَّره، والثواب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منه في التسبيح والتحميد والتهليل؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وقد يتعين، ولا يتصور وقوعه نفلا والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل"[4].

---

[1] – رشيد رضا، **تفسير المنار**، 4/ 47.

[2] – نفسه، 4/ 52.

[3]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى وأن أقلها ركعتان، [720]، 1/ 498.

[4]– نفسه، كتاب الزكاة، باب بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، 2/ 697.

فالله سبحانه وتعالى، وسع على عباده في تحصيل الأجر والثواب؛ فأبواب الخير كثيرة، وربّ أمر يحقره العبد، ويظنه أقل أجراً وثواباً من باب البذل والإنفاق في سبيل الله وهوعند الله عظيم، وهذا ما يبينه كلام ابن الملقن حين يقول: "إن المؤمن إذا لم يقدر على باب من أبواب الخير ولا فتح له، فعليه أن ينتقل إلى باب آخر يقدر عليه؛ فإن أبواب الخير كثيرة، والطريق إلى مرضاة الله غير معدومة، ألا ترى تفضل الله على عبده حين جعل له في حال عجزه عن الفعل عوضًا من القول، وهوالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1].

لم كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعوض صدقة المال؟ ويفوق فضل التسبيح والتهليل، والحمد والثناء، والجواب بسيط، ومنطقي، فالإسلام دين الجماعة، يهتم بكل ما يصلح الجماعة، وينفعها، ويدفع عنها الهلاك والفساد والمضار المادية، والمعنوية، وبتفعيل واجب الأمر والنهي في المجتمع، تحاصر الرذيلة، وتقمع المفسدة ويرتدع صاحب الجريمة، ويمتنع الظالم عن ظلمه، ويكف أهل الفجور عن إشاعة المنكر، في أوساط الذين آمنوا، فيقضي على الفواحش لوجود من يردع ويمنع أهل المنكرات عن نشرها، والتمادي في إفساد الأمة بشرورهم.

وفي هذا الكف، والمنع، والرّدع عظيم المنفعة لكل أفراد المجتمع، فتحيا الجماعة المسلمة في جوالفضائل، وتنتشر بذلك الأخلاق النبيلة المثبتة لكل معاني الخير في حياة الناس عامة، وفي أوساط المؤمنين خاصة، فتعم الفضيلة، المقوية لروابط المحبة والألفة والأخوة، والمنمية للآداب، فيستيقظ الضمير الجماعي للأمة، ليُحِل مكان كل مفسدة مصلحة، وكل ظالم عدلا، وكل انحراف عن الجادة استقامة على الطريق السوي المستقيم، ويصلح حال الأمة بصلاح الجماعة التي استجاب كل فرد منها إلى القيام بواجب الأمر والنهي، فبذلك يكون الاضطلاع بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حِصْنًا منيعاً من دخله كان آمناً.

يقول ابن القيم: "وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ – وِقَايَةٌ تَرُدُّ عَنِ الْعَبْدِ، بِمَنْزِلَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَرُدُّ الْمَرَضَ وَتُقَاوِمُهُ، فَإِذَا سَقَطَتِ الْقُوَّةُ غَلَبَ وَارِدُ الْمَرَضِ فَكَانَ الْهَلَاكُ"[2].

فكان بذلك فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنفع من فضل التسبيح والتهليل والتكبير والحمد، فنفع هذا يعود على صاحبه فقط، فيملأ ميزان حسناته، لينال عظيم الأجر والثواب، أما نفع الأمر والنهي فهويتعدى ليشمل المجتمع، ويحقق صلاحه، ويقوي وثاق وحدة الأمة، التي تكون من أبرز

---

[1]– ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، سوريا، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، كتاب البر والصلة، باب كل معروف صدقة ، ط 1(1429 هـ – 2008 م)، 28/ 331.

[2] – ابن القيم، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، 1/ 89.

أسباب الحياة الطيبة للجماعات، فلا تنعم الجماعات بطيب العيش في ظل أمة متفرقة، مشتتة إلى فرق وشيع مختلفة الرأي، ضرب الله قلوب بعضهم على بعض.

"فَصَارَتْ قُلُوبُ جَمِيعِهِمْ قَاسِيَةً بَعِيدَةً عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ أَوالرَّحْمَةِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي وَمُخَالَطَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا" [1]، وأي خيراً من أمة قلوب أفرادها قاسية كالحجارة.

قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) ﴾[آل عمران:103-105]، فحفظ سياج الأمة،إنما يكون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]، وللوصول إلى الصلة بين هذه الفريضة وبين وحدة الأمة إجلاء وتوضيحا، ولبيان منعها من التفرق، لابد لنا من الوقوف بمحطات:

الاعتصام بحبل الله، المطلوب في الآية السالفة، هوأخذ بسنة من سنن الوحي، الحاكمة لأمور خلقه، والتي على مقتضاها تدور شؤون الناس وحياتهم، والدعوة هنا إنما هي للأخذ بها وعدم تنكبها؛ إذ إن الله سبحانه، جعل سننا للهداية والضلال[3]، حيث رتبت الهداية والفلاح، والضلال والخسران، على إمكان فقه هذه السنن ومجاراتها، واستثمارها وتفعيلها في الخير، إذ إن إمكان الوعي بهذه السنن الهدائية –كما يقول الطيب برغوث–، لا يحصل للإنسان من وعيه بسنن الآفاق والأنفس وحدها، بالرقي إلى المستوى النموذجي دون وعي بسنن الهداية، يقتدر به على أداء دوره الاستخلافي على أكمل وجه[4]؛لأن الوعي بهذه السنن يصب في تمام مصلحة الإنسان وعظيم منفعته، ومنفعة الجماعة المسلمة في تجمعها، ووحدتها، وعدم تفرقها، وهومن سنن الهداية التي يرشد إليها المولى عز وجل، ويأمر الإنسان بضرورة تنفيذها؛ لأن في الاستجابة لأوامر الله ونواهيه مصالح جليلة وعظيمة للجماعة المسلمة.

ومن هذه الأوامر الربانية، ما جاء في آيات سورة آل عمران، فاستقت ترتيبها وتسلسلها حسب أهميتها في حياة الأمم والجماعات، وكان أهمها الإيمان بالله ووجوب تقواه، ثم تلته الدعوة إلى التمسك بسننه الهادية العادلة، ثم جاءت الدعوة إلى القيام بواجب الأمر والنهي عن المنكر، المعدود من صميم

---

[1]– علي بن محمد أبوالحسن نور الدين الملا الهروي القاري، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، لبنان، دار الفكر، ط 1(1422هـ – 2002م)، 8/ 3220.

[2]– محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 23/4.

[3]–ينظر عمر أحمد عمر، **السنن الإلهية في النفس البشرية**، ص:18.

[4]–الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافية السننية**، ص: 160.

الوعي بسنن الهداية، التي جاءت بها دعوات كل الرسل، "ما انبثق عن حركة الرسالات السماوية، من مفاهيم عقدية، عن الوعي بالدورة الوجودية للإنسان في منشإه، وطبيعته، ووظيفته، ومصيره، وما يتعلق بذلك كله، من ثوابت وأصول في فقه التسخير والاستخلاف"[1].

فالبشر في حاجة ماسة إلى فقه مثل هذه السنن، التي جاء منها واجب الأمر والنهي، ما نالت بمقتضاه الأمة صفة الخيرية، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران: 110]، وبذلك يعم الخير النفع والصلاح المجتمع بجميع مكوناته، وتنعم الجماعة المسلمة بكل أسباب الفلاح والفوز؛ حيث كان الاستمساك بما سنه الله بمثابة عصمة من الوقوع في المفاسد، إضافة إلى القيام بما أوجبه الله من فريضة النجاة للجماعة المسلمة من مسببات المهالك والمضار، وهكذا يكون الأمر الرباني بالاعتصام والاستمساك من ما يقوي أواصر الألفة والمحبة بين المؤمنين، ويقضي على كل ما يؤدي إلى الفرقة والعداوة والبغضاء، وفي هذا فلاح مؤكد، إذ هوأهم أسباب الفوز بالحياة الطيبة للجماعة المسلمة.

وحبل الله المذكور هودينه، وقيل: طاعته، وقيل: إخلاص التوبة له، والاعتصام به، وتسميته حبلا تحرز من السقوط فيها، فكتاب الله وكل ما جاء فيه، حرز لصاحبه من السقوط في قعر جهنم، وفيه نهي عن الاختلاف في الدين، ونهي عن كل ما يوجب الفرقة[2].وبتأمل قوله (يعتصم، وعهده)، نتفهم سبب تعريف السنن بعهد الله[3] عند بعض العلماء والمفكرين المسلمين.

وفي هذه الآيات جملة من الأوامر والتحذيرات، التي متى اتبعتها الجماعة المسلمة، ونهضت بها، حققت دورها الاستخلافي الفعال في إقامة منهج الله في الأرض، وأساسه الأخذ بالسنن، وتفعيلها، واستثمارها، لتغليب الحق على الباطل، وإشاعة المعروف وتغليبه على المنكر، وإزالة الشر، وتعميم العدل وإبراز الفضيلة ومجاهدة الرذيلة.

"فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان، فهذا شطر، أما الشطر الآخر، فهوالقيام بسلطة الأمر والنهي"[4]، ومنه فوحدة الأمة، وعدم تفرقها أوتشتتها، مرهون بواجب الأمر والنهي، ما

---

[1]– الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافية السننية**، ص:161.

[2]– ينظر الرازي، **مفاتيح الغيب**، 309/8.

[3]– محمد جابري، **التجديد في علم أصول الفقه**، ص: 66، ينظر الفصل الأول، ص 25.

[4]– سيد قطب، **في ظلال القران**، 444/4.

ينبني عليه الحفاظ على أمن الأمة واستقرارها؛ ذلك أن الاستقرار لا يتم في ظل التمزقات والفرقة والتشيع.

ثانيا:الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رحمة ونجاة من المهالك

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 71].

قال عز قائل: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: 104].

خص الله أهل الإيمان بكل أوصاف الخير والبر والطاعات مّما أهلهم للقيام بواجب الدعوة إلى الله، ومن ذلك ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث "يندرج تحت كلمة "المعروف" كل الطيبات والصالحات، وجميع أنواع الخير والبر"[1].

وباتباع سنن الله الجارية في خلقه، العادلة كل العدل، والصارمة كل الصرامة، نصل حتما إلى أن وعد الله لمن تحلوا بهذه الصفات المميزة، وأدركوا سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفعّلوها بأن يغمرهم برحمته الواسعة في الدنيا والآخرة، وهذه بشرى من الله العزيز الحكيم، ومن شملته رحمة الله تولى الرحيم حِفظَه، ونصْرَه ورعايتَه؛ "أَي أُولئك الموصوفون بتلك الفضائل العظيمة سيُفيض الله عليهم من آثار رحمته، ما به ينصرهم على أَعدائهم، ويؤيدهم في كفاحهم وجميع أَحوالهم، ويسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة"[2].

فرحمة الله لعباده شاملة لكل أنواع الخير، مما فُطر الإنسان على الرغبة في تحصيله والفوز به، وهي مما لاشك فيه من الأسباب المحصلة للحياة الطيبة، وهكذا تكون هذه السنة (الأمر والنهي) سبيلا إلى الفوز والفلاح، وتحقيق السعادة المرجوة في الدارين؛ لأن من رُحم في الدنيا يستحيل أن لا يُرحم في الآخرة.

يقول سيد قطب: "والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنما تكون في هذه الأرض أولًا ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح. رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال بالله،

---

[1]– محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 407/2.

[2]– مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 3/ 1731.

وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث. ورحمة الله في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله"[1].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك فلاح، وفوز وتمكين للجماعة المسلمة في الأرض، ومن هذا المنطلق كان لزوما على كل أفراد هذه الجماعة من القيام بهذا الواجب، وكان عليهم أيضا الخضوع للسلطة الناهضة بالأمر والنهي، فهذه السلطة ضرورية لحصول الفلاح والفوز في الدارين، وإلا عمَّت الفوضى، وساد الفساد، واستحالت الحياة بدونها، وذاق الناس أفراداً وجماعات مرارة المعيشة الضنك؛ "فلا بد من جماعة تدعوإلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا بد من سلطة في الأرض تدعوإلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر... سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله... سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر"[2].

ومنهج الله في الحياة هونفسه سننه التي بثها في الكون والخلق، والتي متى فقهها الناس ودرسوها، واعتنوا بها، نالوا الفلاح لزاما وفازوا بطيب الحياة؛ وفلاح الجماعة المسلمة متوقف على مقدرتهم في تسخير هذه السنن وتفعيلها وحسن استثمارها، ليكونوا حقا خلفاء الله على هذه الأرض، وهذا هوواجب كل مسلم يسعى لخلافة راشدة تمكنه من فهم البعد المقاصدي لوجوده.

ففلاح الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر خلافة له في الأرض، وهذه الخلافة عن الله وعن الرسول ﷺ، وعن الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ولا اختلاف فيه أوعليه، وبذلك فخلافته تمكين وعز وتكريم، وخير بركات، وإمداد وفتح مبين، يقول الطبري في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران: 104]، "فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاح، وأدركوا الفوز بالطلبات، والخلود والبقاء في الجنات"[3].

عدَّ العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الركن السادس من أركان الإسلام، وقدمه المولى سبحانه وتعالى في كتابه بالذكر على الإيمان، وعلى شرائع تعبدية عظيمة كالصلاة والزكاة، كما في سورة التوبة قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة: 71].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1676/10.

[2]- نفسه، 4/ 444.

[3]- الطبري، **جامع البيان**، 70/10.

وفي هذا التقديم عظيم البيان لمرتبة هذا الواجب وأهميته في حياة الجماعات، ذلك أن القيام به فيه نجاة لكل فرد من أفراد الجماعة المسلمة من الهلاك، على المستويين الآجل والعاجل؛ حيث أنه لما تنعدم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المجتمع، تنتشر الآفات والرذائل، بما أنه لا وجود لصوت الحق القائم على صده والوقوف في وجه الباطل، فيكثر الظلم ويتفشى في صفوف المجتمع بانعدام من يمسك على يد الظالم ليكفه عنه، ثم يبرز الجبابرة والطواغيت على الساحة المجتمعية وأغلبهم من الملأ، ولاجتناب كل هذه المفاسد والآفات وأكثر، جاءت الدعوة صريحة في نصوص كثيرة، تحث على ضرورة الأمر والنهي.

وحديث السفينة السابق هوالعمدة في بيان أن نجاة الأمة في الأخذ على يد الظالم والمفسد، ونهيه عن المنكر وإلحاق الضرر بالعامة، وعدم المداهنة في حدود الله؛ لأن سنن الله الجارية بالحق والعدل لا تحابي ولا تجامل، فمتى شاع المنكر، وعم الظلم، وانعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المجتمع، صب الله غضبه وسخطه على الجميع، وأذاقهم العذاب والعقاب أنواعا وألوانا، فيدفع الصالح ذنب سكوته عن الحق، قبل الطالح، ويعذب الطالح بظلمه، وإفساده، وبغيه،وقد جاء في شرح حديث السفينة: "تعذيب العامة بذنوب الخاصة، وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"[1].

كَانَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ: "كَانَ يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا عُمِلَ الْمُنْكَرُ جِهَارًا اسْتَحَقُّوا كُلُّهُمُ الْعُقُوبَةَ"[2].

ومن الفوائد الجليلة التي توصل إليها العلماء من هذا الحديث الرائع: "أن ترك النهي عن المنكر يستوجب عقاب الجميع، فيشمل التارك للنهي، والواقع في الحرام والمحظور، لأن الله تعالى يعاقبهم، الأول برضاه وسكوته وعدم إنكاره، والثاني بوقوعه في المحظور"[3].

فالقيام بفريضة الأمر والنهي صِمام أمان، وطوق لجماعة المسلمين من ألوان العذاب الدنيوي، والأحاديث النبوية توضح هذا الأمر، كما ورد عن النبي ﷺ: «إِنَّ النّاسَ إِذا رَأَوُا الظّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقابٍ»، وقالَ عَمْرٌوعَنْ هُشَيْمٍ: وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ما مِنْ

---

[1]– ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، تح: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، ط 2(1423هـ – 2003م)، 7/ 13.

[2]– أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، **الزهد والرقائق لابن المبارك**، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت)، 1/ 476 .

[3]– علي علي صبح، **التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف**، مصر، المكتبة الأزهرية للتراث، ط 1(1423 هـ–2002م)، 1/ 143.

قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمِعاصي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لا يُغَيِّرُوا إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقابٍ»[1].

فالرسول الكريم ﷺ يحذر من عاقبة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم لا يقتصر على التحذير، بل يبين ويوضح حتمية وقوع العقاب عاما شاملا؛ بحيث لا يستثني منه أحدا، كما أنه يخبر عن بعض أنواع العذاب، كالأسقام والأوجاع الحديثة التي لم تكن معروفة عند السابقين.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قال ﷺ: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ»[2].

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوَلَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[3].

ولا تخفى على أحد أهمية وأثر استجابة الدعاء في إحياء الأمة، وبعثها والتمكين لها؛ فهومن العبادات والطاعات التي حثنا المولى عز وجل عليها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ﴾[البقرة: 186]، وقال أيضا: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر: 60].

وتتعدى خطورة هذا العقاب إلى خيار الأمة وخيرتها، فيحجب عنهم الاستجابة، فهذه "الآية الكريمة توجيه من الله – عَزَّ وَجَلَّ – لخلقه أن يضرعوا إليه بالدعاء، ويجأروا له بالرجاء، تعظيما لقدرته واعترافا بعجزهم وحاجتهم إلى عطائه وفضله"[4].

ورغم هذا التوجيه الرباني للعباد بضرورة التضرع والدعاء لله؛ "فإنه حقٌّ على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله"[5].

فلا تقع الاستجابة مع توفر العمل الصالح والإيمان الصالح، وهذا لتقاعس الناس عن القيام بواجب الأمر والنهي، يقول المناوي: "فوصف أمة محمد ﷺ بأنها خير أمة أُخرجت للناس، وعلل ذلك

---

[1]– رواه أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، [4338]، 6/ 394، إسناده صحيح، ورواه الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، [2168]، 4/ 467.

[2]– رواه بن ماجه، **سنن بن ماجه**، أبواب الفتن، باب العقوبات، [4019]، 5/ 150، ورواه الطبراني، **الأوسط**، باب العين من اسمه عبد الرحمن، [4671]، 5/ 61، وذكره ابن حبان، **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، كتاب الحدود، باب ذكر استحقاق القوم عقاب الله جل وعلا، [118]، 10/ 259، وقال الارنؤوط حديث صحيح.

[3]– رواه البيهقي، **شعب الإيمان**، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، 7558]، 6/ 84، ورواه أحمد، **مسند أحمد**، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ، [23301]، 38/ 332.

[4] – مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 8/ 655.

[5]– نفسه، 8/ 656.

بأنها تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر ... أن هذين الوصفين من أهم الأمور التي تحفظ الأمة من التدهور، والسقوط، وانتشار االمعاصي ،وكثرة الفساد، والفساق، وتذهب ثروة البلاد، وتنحط الأخلاق، ... ولم تزل، كذلك حتى قل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهاب العلماء نصيحة ملوكهم، وإرشاد أمرائهم، ففشت المعاصي، وعمَّ الفساد، وتسلط العدو، ووقع الغلاء، والقحط، وكثرت المصائب، والبلايا، وندعوالله فلا يستجيب لنا، ونستنصره على عدونا، فلا ينصرنا، ونسأله فلا نعطى، وأكره العلماء على عدم النصيحة لملوكهم وأمرائهم"[1].

ولا يتوقف العقاب الدنيوي عند هذا الحد؛ بل تظهر له مفاسد ومهالك أخرى لتفسد على الناس حياتهم، كغلاء الأسعار، وتسليط المسلمين بعضهم على بعض فتختلف قلوبهم، وتتشتت وحدتهم، ويضرب الله قلوب بعضهم ببعض، فيتصدع الصف وتضيع الجماعة، لأن القوة مع الاتحاد، «أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُم»[2].

فهذه هي العواقب الوخيمة المترتبة عن ترك فريضة الأمر والنهي، وما يتعرض له المجتمع المسلم من مفاسد ومهالك عظيمة تمس جميع الجوانب، أما فضائل العمل به فهي لا تحد ولا تحصى، لذا تحاول الدراسة الوقوف على أهمها وانفعها للمجتمع، رغم أن جميع ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه مهم، ونافع لا محال، لذا نقتصر على طرف منها.

الفرع الثاني: سنة القيادة السياسية الرشيدة

للحضارة قوانين ونظم مطردة، تحكم حركتها نهوضا وسقوطا وتطورا، وفق سنن إلهية ثابتة، لا تحابي ولا تجامل، ولا تتأثر بالأماني، قابلة للدرس والفقه، والاكتشاف والتحليل، ليتم التفعيل والتسخير، واستثمار عوامل السعادة والتمكين وأسبابهما، في ظل حياة طيبة أعدها الرحمن جزاء طيبا لمن لم يتخلف عن السنن بأنواعها، ولم يغفل عن مجاراتها، أوالسير وفق نواميسها العادلة الصادقة.

ولِما كان لفقه السنن وتدبرها، من علاقة وثيقة بالإدراك الشامل الكامل للغاية والحقيقة من العملية الاستخلافية، فخلافة الإنسان في الأرض، إنما تتم "بما تتضمنه من تميز وتكريم واقتدار، وسيادة، وما تعنيه من أمانة ومسؤوليات، وواجبات الله والكون والإنسان، وبما توفره للإنسان من فرصة وجودية عظيمة للاستمتاع بنعم الحياة الدنيا، وإثبات أهليته للخلافة، وجدارته بها"[3].

---

[1]– زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي، **الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية**، تح: عبد القادر الأرنؤوط، طالب عواد، بيروت، دار ابن كثير، (د،ط،ت)، 1/ 176.

[2]– أخرجه أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، [4337]، 4/ 122، ورواه البيهقي، **شعب الإيمان**، باب الحكم بين الناس، [7139]، 10/ 44.

[3]– الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، ص:37.

في هذا الكلام تظهر أهمية الفعالية الحضارية، وضرورتها في ضوء استخلاف الإنسان ومسؤولية الأمانة الكبرى، التي أبت حملها السموات والأرض والجبال وتولى حملها الإنسان؛ لجهله بأعبائها وأثقالها.

ومن السنن الباقية الدائمة في الكون، الجارية في الخلق؛ سنن الله في إيتاء الملك من يشاء ونزعه عن من يشاء، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[آل عمران: 26]، "وعلى هذا الحكم والملك تدور سنن، تتحرك صعودا وهبوطا، سعادة وشقاء، ومنها ما سخر ليستثمر، وفُعِّل كيفما أراد صانع الكون، وخالق السنن، فتنعمت الجماعات، وسعدت، وحظيت بأسباب الحياة الطيبة.

فالقيادة السياسية التي تقود الشعوب والجماعات بحكمة، وبصيرة ورشد، تحقق بلا شك جزءا كبيرا من طيب الحياة، وهذا ما يتبين بالدراسة من هذا العنصر.

يضع الأستاذ عبد الرحمن الميداني عدة وسائل، يشترطها لبناء الحضارة الإسلامية بناء واقعيا، منها: "إقامة الحكم الإسلامي المتقيد بأسس الإسلام وتعاليمه وإرشاده ووصاياه؛ والذي يستخدم في السياسة الداخلية وسائله المادية والمعنوية للنهوض بالمسلمين، وتقويم سلوكهم، ورد المنحرفين إلى الصراط الحق والخير، والأخذ على أيدي الظالمين وردعهم، وكل ذلك ضمن حدود الإسلام، ولهذه الوسيلة آثارها العظيمة في الإصلاحات التاريخية للأمم، وفيما تبلغه من رقي سامق"[1].

ولاشك أن الحكم الذي يقوم على هذه الأسس يحقق النهوض بالجماعة المسلمة، ويضمن لها العيش الكريم الطيب، وهذه الأسس من الواجب توفرها لتوقف قيام القيادة والخلافة الرشيدة عليها.

أولا: أسس قيام القيادة السياسة الرشيدة

إذا أرادت الأمة النهوض من سباتها، وجمع شتاتها،وتوحيد كلمتها ،واستعادة أمجادها السالفة،فما عليها إلا اتباع سنن التمكين والنهوض، التي تملك مفاتيحها بفضل الله عليها،تللك السنن التي تمثل أسساَمتينةالأعمدة والركائز،ونذكر أهمها في النقاط الآتية.

1–إقامة الحكم على تشريعات المصدرين الكتاب والسنة: بعد إقامة الحكم على تشريعات المصدرين، تزيد الدولة في أصل قوتها على القوة العصبية، إذ عامة الاستيلاء والملك العظيم أصلهما الدين، من نبوة أو دعوة حق[2]، فقوة الدولة من قوة أفرادها، وقوتهم في وحدتهم، واجتماعِ قلوبهم على كلمة واحدة، ومرد هذا إلى نعمة الله بأخوة الدين؛ التي جمعت شملهم ووحدت صفهم، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗاۖ وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ

[1]–الميداني، عبد الرحمن بن حسن حبنكة، **الحضارة الإسلامية وأسسها ووسائلها**، دمشق، دار القلم، ط1(1998م)، 273/1.

[2]–ينظر: ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، 197/1.

إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[آل عمران: 103]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿62﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿63﴾ ﴾[الأنفال: 62-63].

فالانتساب إلى عقيدة التوحيد المبنية على الإيمان بالله ربا، وبمحمد ﷺ رسولا، والاستجابة للأوامر، والانقياد لها، والاقتداء بالسنة واتباع الهدي، هوالمعول عليه في نهوض الجماعة المسلمة وتأييدها بالنصر، والتمكين لها في الأرض، ليحيا أبناؤها الحياة الطيبة، وتحصل لهم النعمة؛ لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، الناتج عن العصبية، واتفاق الأهواء على المطالبة، بينما جمع القلوب وتأليفها يكون بنعمة من الله في إقامة دينه[1].

فإذا كان القائد راشدا صالحا، وأعانته الرعية في تطبيق شرع الله في حكم البلاد، توحد صفهم على كلمة واحدة، واستغنوا بالوحيين عن القوانين الوضعية والدساتير البشرية، التي يعمل بها اليوم في السياسة والحكم، ما سبَّب انحسار الأمة، وتقهقر الجماعة المسلمة.

فاليوم تستورد الحكومات الإسلامية دساتير تعمل بها في تسيير شؤونها، وقيادة شعوبها، وتدفع في مقابل شرائها المبالغ الطائلة، دساتيرُ قائمة على قوانين ونظم من وضع البشر، يعتريها النقص، والخلل، والتناقض، مع اجتهاد واضعيها في بلوغ الكمال وتلافي النقص، ضاربة بتشريعات الوحي عرض الحائط، ومن هنا ضاع رشد القيادات السياسية الحاكمة للجماعة المسلمة اليوم، فضاع بذلك قسط وافر من الأسباب السننية المنتجة والمثمرة والراعية للحياة الطيبة، التي عاشتها الجماعة المسلمة خلال قرون الخيرية؛ زمنَ القيادة النبوية المعصومة، والخلافة الراشدة الحاكمة العادلة، السائرة على النهج النبوي في الحكم مُفَعِّلةً بذلك السنن الإلهية، مستثمرة إياها أحسن الاستثمار، فجاءت النتائج نصرا وتمكينا وفتحا مبينا، امتد شرقا وغربا.

ومن السنن التي فعَّلها الرسول ﷺ، في بداية الرسالة وقبل الهجرة؛ أي قبل توليه القيادة، سنةُ التدرُّج في كل شيء، المقررةُ في الشريعة بوضوح، المصورةُ تصويرا حيا، المتمثلة بكثرةٍ في المنهاج النبوي[2].

فقد استثمر النبي ﷺ هذه السنة في دعوتة إلى الله، في مرحلتي السر والجهر؛ فتدرج في الدعوة السرية ثلاث سنوات، اقتصر فيها على الأقربين، ثم تدرج في الخروج بالدعوة إلى العشيرة، حتى دخل

---

[1]– ينظر: ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، 40/1.

[2]– ينظر رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، مصر، دار السلام، ط1 (2017م)، ص: 232.

الناس في الدين أفواجا، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتُـحُدِّث به[1]، وبعد هذا أَمَر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يجهر بالدعوة، قال تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الحجر: 94]، وقد استمرت الدعوة الجهرية سنوات، حتى جاء الأمر بالهجرة، وجدير بالتنبيه أن النبي ﷺ في تدرجه في دعوته بمراحلها، كان خاضعا مستسلما لأوامر ربه؛ فكان لا يُقدِم على أمر إلا بخبر من السماء ومن ذلك هذا الجهر الذي ما قام به إلا بعد مجيء الوحي بذلك، فنفَّذ الأمر مباشرة، ولم يخش في الله لومة لائمٍ.

فهذه أُولى صفات القائد الرشيد، الملتزم في حكمه الجماعةَ المسلمةَ بالوحي، مظهرا أمر الله لا يرده عنه شيئٌ[2].

ولما كان الرسول ﷺ بشرا، فقد كان الاقتداء بهديه، واتباع سنته، أمرا يمكن الإتيان به، وليس محالا على الحاكم المسلم؛ الذي كلفه الله بسياسة خلقه، وحمَّله حراسة دينه، وقلَّده مهمة القيادة والخلافة، أن يحكم بما جاء في الوحيين من تشريعات؛ إذ كان النبي ﷺ، المؤيدُ بالوحي من رب العالمين، الأسوةُ لجميع المسلمين، غيرَ خارج عن سنن الله في الكون، والحياة، والخَلق، والأمر، بل التزم بها التزاما كاملا[3].

ومن هذا كثرة ورود القرآن الكريم بأسباب زوال الحضارات، وسقوط الدول والأمم، ومن ذلك: الكفر، والعصيان، والظلم، وقد أولى ذكرَ سنة الله في تسليط العذاب، والعقاب، على الدول والحكام المتجبرين، باهتمام بالغ وظاهر، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[هود: 117]، ولا بد من اجتماع الكفر مع الظلم حتى يسلط سوط عذابه، ما يؤدي إلى زوالها؛ إذ العدل سنة من سنن الله في قيام الحضارات، وازدهار المجتمعات ، ونهوض الأمم، وعليه فهوالأساس الثاني من أسس قيام القيادة الرشيدة.

2– تطبيق العدل في الحكم: تؤكد أحداث التاريخ –بما لا يدع مجالا للشك–، أن العدل من أهم عوامل النصر والتمكين، سواء للأمة المسلمة، أولغيرها من الأمم الأخرى، ومتى كان الحكام والقادة السياسيون، والعسكريون، ومهندسوالنهوض بها، من الحاكمين بالعدل، كانت بشائر النصر مرفوعة، وأسباب الهزيمة موضوعةً، ومعيشة السوءِ مدفوعة.

وخير النماذج وأفضلها، وأحسن الأحكام وأمثلها، وأرقى التعاملات وأعدلها، مثال الرسول الكريم ﷺ في مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار في المدينة، في الخطوة الأولى في بناء دولة الإسلام، لِما لها من

---

[1]– ابن هشام، **السيرة النبوية**، 262/1.

[2]– نفسه.

[3]– ينظر رشيد كهوس، **السنن االإلهية في السيرة النبوية**، ص:240.

حكم جليلة، تسهم في حفظ وحدة الجماعة، فكانت "هذه المؤاخاة حكمة فذة، وسياسة صائبة حكيمة، وحلا رائعا، لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون"[1]،وفيما يلي عرض لأهم محطات تجسيد العدل في حياة الرسول الكريم ﷺ.

أ– عدل النبي ﷺ في وضع معاهدة المدينة: قام النبي ﷺ، بإبرام معاهدة في المدينة على شكل صحيفة، هي صحيفة المدينة، فكانت بنودها تتلألأ عدلا وإنصافا، ممتزجا بذلك كلُّ ما علِق بقلوب الأتباع من مآثر الجاهلية، ومن بعض بنودها أن من تبع المسلمين من يهود فله النصر والأسوة، لا يظلم ولا يُتَناصر عليه، وأن المؤمنين سلمهم واحدة؛ لا يسالم مؤمن دون مؤمن، في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهما، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، ومن ظلم منهم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته، وأن بطانة اليهود كأنفسهم، وأن بينهم جميعا –المسلمين واليهود– النصر على من حارب هذه الصحيفة، ولا يؤثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم، ولا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وما كان بين أهل هذه الصحيفة، يُخاف فساده، فمرده إلى الله ورسوله ﷺ، وأن من خرج من المدينة ومن قعد بها فهوآمن، إلا من ظَلَم أوأثِم...[2].وبقراءة تدبرية تحليلية لبنود أول دستور مدني، وضع للبشرية، فإننا نستطيع استنتاج مظاهر العدل التي صبغت بها هذه الصحيفة، ونوضحها في النقاط الآتية:

– المساواة بين الجماعات المختلفة في المدينة من المهاجرين، والأنصار، ومن تبعهم ولحق بهم؛ وهذا إعلان صريح بأن المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم وانتسب للإسلام، ودخل تحت رايته، فهومن أمة الإسلام، مهما كان لونه، أوحسبه، أونسبه؛ إذ كان أساس الانتساب إلى هذه الدولة الجديدة الإيمانَ.

– تحسين العلاقات بين الطوائف والجماعات المختلفة، من أهل المدينة، وقد ذكرت الصحيفة طوائف اليهود، تحقيقا للعدل وتمام الإنصاف، حيث عدتهم مواطنين في دولة الإسلام.

– إقرار الحقوق الإنسانية، وكفالتها، ما جعلها مثالا مشعا سبق المنظمات والهيئات العالمية الراعية لحقوق الإنسان، التي ما ظهرت إلا بعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن خلفت دمارا وخرابا وفقرا وأمية وأمراضا وبطالة، وقتل الملايين من الأبرياء؛ حيث تم الإقرار والإعلان العالمي لحقوق الإنسان في 1949/12/10م[3]، ومنذ هذا التاريخ شرعت قوانين وضعية، تقوم على احترام حقوق الإنسان

---

[1]– المبارك فوري، صفي الرحمن، **الرحيق المختوم**، بيروت، دار هلال، ط1 (دت)، ص: 168 .

[2]– ينظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، 502/1-504.

[3]– ينظر محمود شريف بسيوني، **الوثائق الدولية المعنية بحقوق الانسان**، القاهرة، دار الشروق، ط1 (2003)، 11/2.

وحمايتها، وغايتنا من إبراز هذا التاريخ هي الرد على الدعوات الدولية القائلة بان الإسلام دين لا يحفظ حقوق أتباعه وحرياتهم.

ويكفي في الرد على هذه الشبهة إيراد بعض الحقوق التي جاءت في الصحيفة؛ إذ نلاحظ مجموعة من الحقوق الأساسية، فمنها: المساواة أمام القانون، وسيادة القانون على الجميع دون تمييز بين قوي وضعيف، ولا تفضيل لجنس، أولون، أوأصل، مع الاعتراف لأهل الكتاب بحرية الاعتقاد.

فهي تدل بوضوح على جملة من الحقوق، المطلوبة في سياسة الناس، المحققة للأمن على النفس والمال والعرض، فلاتجار حرمة إلا بإذن أهلها[1].فهذه كليات عظيمة وحفظها مقصد ضروري،إذا فقد يختل نظام الحياة،وتعم الفوضى والفساد المجتمع .

– كما أقرت الصحيفة، الأمن الاجتماعي بإعطائها الحق في الدية لكل طائفة،قاضية بذلك على جذور العنصرية، والاستقلال المالي، والحق في الامتلاك لكل طائفة على حدة،لتنمية وتحريك عجلة الاقتصاد، وكذلك أثبتت حرية التحالف لكل الفصائل، ما لم يخل ذلك بالأمن والاستقرار، وسيادة الدولة الإسلامية.

وما حقق الحاكم سنة العدل في حكمه، وإدارته أمورَ الولاية والرعية، إلا نال بلا شك رضى الله، واستحق العزة التي يؤتيها الله من يشاء، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[آل عمران: 26].

وقرنت العزة بالملك هاهنا؛ لأنها لا تكون إلا بالحكم بما جاء في الكتاب والسنة، والحكمِ بين الناس بالعدل.

ولابن خلدون كلام جميل في تاريخه، عن بعض أسس قيام الدولة، أوالقيادة الواعية، يقول: "العالم بستان سياجه الدولة، والدولة سلطان تحيا به السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك، والملك نظام يعضده الجند، والجند أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، والرعية عبيد يكنفهم العدل، والعدل مألوف وبه قوام العالم"[2].

ولا ينحصر عدل الرسول ﷺ، في حكمه وسياسته، في صحيفة المدينة فقط، بل هذا أول بيان، وأول وثيقة سياسية افتتح بها عهدة حكمه في ظل الدولة الإسلامية الجديدة، ومظاهر عدله –عليه الصلاة والسلام–، لا تحصى ولا تعد، يشهد له بها العدوقبل الصديق، وكتب التاريخ تزخر بهذه المواقف، حيث دون المستشرقون الكثير منها؛ منهم المنصفون، ومنهم مثيروالشبهات، ومِن مَن أنصف

---

[1]– ينظر محمود شريف بسيوني، **الوثائق الدولية المعنية بحقوق الانسان**، 11/2.

[2]– ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**، 51/1.

شخصية الرسول الكريم ﷺ، وأقر بعدله وسماحته في معاملة أصحاب الأديان الأخرى، المستشرق الروماني جيورجيو يقول: "وضع النبي ﷺ، دستورا جديدا لهذه المدينة المستقلة، وقد حوى هذا الدستور اثنين وخمسين سُنَّةً، كلها من رأي رسول الله، خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى؛ ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان، وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم"[1].

وفي ما يلي بعض الوثائق السياسية، التي وضعها الرسول الكريم، والتي توضح عدله –عليه الصلاة والسلام–، وصيانته للحقوق[2]:

ب– وثيقة صلح الحديبية 6هـ: التي أبرمها مع قريش، ونرى في هذه الوثيقة الحريات، والتأكيد على السلام، والتعايش السلمي بين الجميع، وتجنب الحرب، فضلا عن كفالة الحق في الحياة، والملكية والأمن لكل من الجانبين عند المرور، أوالإقامة العارضة في أرض الجانب الأخر.

ج– وثيقة صلح نجران 10هـ: وقد أبرمه الرسول ﷺ مع نصارى نجران .

د– وثيقة خطبة الوداع 10هـ: واشتملت على مبادئ الجماعات، وتشييد العمران، وأسباب تحقق الحياة الطيبة الكريمة للشعوب.

3– تحقيق الأمن الاقتصادي: يعتبر الأمن الاقتصادي من أكبر التحديات التي تواجه الدول والشعوب معا؛ ذلك أنه مطلب لا يتحقق به مجرد البقاء، والاستمرار للبشر، بل يتعداه إلى تحقيق سبل العيش الكريم للفرد والجماعة، وتظهر أهميته على جميع الأصعدة والمجالات؛ سواء السياسية أوالفكرية أوالاجتماعية، لارتباطه الوثيق بحياة الناس، وعليه فيتوجب على القائد الواعي الرشيد، السعيُ جاهدا لتحقيقه؛ لتطمئن الرعية في ظل حكمه، وتأمن بانعدام التهديدات، التي تمس بحقوقها وحرياتها.

وقد عرف الأمن الاقتصادي تعريفات متنوعة:

مفهوم الأمنالاقتصادي: يقول بطرس غالي إن الأمن لا يقتصر على التحرر من التهديد العسكري الخارجي، ولا يقتصر تعلقه بسلامة الدولة وسيادتها ووحدتها الإقليمية، وإنما يمتد ليشمل الاستقرار

---

[1]– كونستانس جيورجيو، **نظرة جديدة في سيرة رسول الله**، تعريب محمد التونجي، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط1 (1982)، ص:193.

[2]– محمود بسيوني، **الوثائق الدولية المعنية بحقوق الانسان**، ص24.

السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي؛ لأنه متعلق بالاستقرار الداخلي، بقدر ما هومرتبط بالعدوان الخارجي[1].

أما هنري كسنجر؛ فهويعرف الأمن على أنه أي تصرف يسعى به المجتمع إلى تحقيق حقه في البقاء[2].

ما نلاحظه هوتعدد التعريفات للأمن الاقتصادي عند العلماء، وتناسبا مع عنوان الدراسة ، فإنني أختار التعريف الآتي: "الأمن الاقتصادي: هوأن يملك المرء الوسائل المادية، التي تمكنه من أن يحيا حياة مستقرة، ومشبعة، ويتمثل الأمن الاقتصادي في امتلاك ما يكفي من النقود، لإشباع حاجاتهم الأساسية؛ وهي: الغذاء، والمأوى اللائق، والرعاية الصحية الأساسية، والتعلم"[3]؛ والمفهوم الذي استطعت الخروج به، عن **الأمن الأقتصادي** هو التالي: **قدرة القائد السياسي الرشيد على توفير الغذاء، والعلاج، والسكن، والتعليم لرعيته في ظل أمن سياسي داخلي، وخارجي، ورفاه اجتماعي، ليحيوا حياة طيبة.**

وفي الحقيقة أن الأمن الاقتصادي، معناه توفير جميع الاحتياجات المادية للأفراد والمجتمعات في ظل الدولة؛ حتى يشعر المحكوم بالطمأنينة، وعدم الخوف من الفقر، المؤدي إلى انتشار الآفات الاجتماعية والجرائم.

فالحاكم الراشد يتوجب عليه العمل على إيجاد الوسائل المحققة للأمن الاقتصادي، والبحث عن كل وسيلة شرعية لبلوغه، تأمينا للحاجات الأساسية لحياة الجماعة المسلمة وضمان استقرارها، لاسيما أن نصوص الوحيين قد أشارت إلى هذه الوسائل، وباعتبار القيادة واعية عاملة بتشريعات الكتاب والسنة، فهي مسؤولة أكثر من أي قيادة سياسية غيرها عن تحقيقه، والعمل على إسعاد المحكومين، وتوفير جميع الأسباب المحققة للحياة الطيبة لهم، وهذا باتباع السنن الإلهية، وفق المنهج الإسلامي القويم،لنتابع في هذا العنصر منهج الإسلام وكيفية تحقيقه.

أ– منهج الإسلام في تحقيق الأمن الاقتصادي: من مهمة القيادة السياسية الراشدة، الوصول إلى كيفية تحقيق الأمن الاقتصادي على أرض الواقع، وذلك بتحديد المنهج الإسلامي الكفيل ببعثه، وإرسائه، وتحقيقه، فقد "أكد الإسلام على عظم مهمة القيادة، وتولي أمر المسلمين، فقال عليه

---

[1]– بوزنادة معمر، **المنظمات الإقليمية ونظام الأمن الجماعي**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، (د،ط) (1989)،ص:16.

[2]– فايز الدويري، **الأمن الوطني**، عمان، دار وائل ، (د،ط) (2013)،ص:62.

[3]– سعيد علي القنيطي، **التخطيط الاستراتيجي لتحقيق الأمن والنهضة المعلوماتية بالمملكة العربية السعودية**، الرياض، جامعة الملك عبد العزيز، (د،ط) (2007م)، ص: 4.

السلام:" كلكم راع ومسؤول عن رعيته"[1]، وهذه المسؤولية لاشك أنها جسيمة؛ إذ تمتد الرعاية إلى كل فرد من أفراد الرعية ، ولأجل ذلك وجب على ولي الأمر أن يتعاطى مع هذه المسؤولية بشكل إيجابي"[2]، وذلك باتباع آليات، انطلاقا من كتاب الله، وهي مجملة في ما يلي:

أ–1– آليات بلوغ الأمن الاقتصادي: لا شك أن مصطلح الأمن الاقتصادي لم يذكر في القرآن الكريم بهذا المركب، وهذا لا يعني مطلقا أن القرآن قد أغفل هذا الموضوع المهم في حياة الناس؛ الذي لا تستقيم عيشتهم بدونه، حتى عد من المطالب الشرعية للجماعات والأفراد عامة، وللجماعة المسلمة خاصة، وإنما بين القرآن الكريم سنن الله في تحقيقه، ولعل من الآيات الخادمة لمفهوم الأمن الاقتصادي، التي تظهره على أنه من الأسباب السنية للحياة الطيبة على مستوى الجماعات، قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[البقرة: 126]؛ فهذه الآية الكريمة جمعت بعض سنن الحياة الطيبة، كالأمن، وحاجة الإنسان الضرورية للغذاء وسيلةً للبقاء، تفصيلا للضروريات، ثم تأتي الكماليات لتحقيق متاع الحياة، فأمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء، وهويستتبع التعمير، والإقبال على ما ينفع وعلى اكتساب الثروة.

إذن فلا تعمير للبلاد، ولا تحقق للعمران البشري إلا بتحقيق الأمن الاقتصادي فيه وعليه، فالقرآن الكريم يحث ويحفز ولاة الأمور وأصحاب الملك، وقادة الحكم، ومن تعلقت رقاب الخلق بذممهم، إلى تأمين حاجة المحكومين، بتوفير الأمن وأسباب العيش الكريم لهم، من غذاء وسكن وعمل، ورعاية صحية وتعليم، وغير ذلك؛ أي: كل الرعاية الاجتماعية الممكنة للجماعة المسلمة.

فالأمن الاقتصادي تشكله جملة من العناصر، أهمها: الغذاء، والصحة، والرعاية الاجتماعية، واستحداث المشاريع التنموية، ومكافحة الأمراض الاجتماعية؛ من فقر، وبطالة، وتسول[3].

ولا شك أن القرآن يشتمل على آيات عديدة، من شأنها المساهمة في تحقيق هذا النوع من الأمن، وفي ما يلي نماذج مختارة:

---

[1]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتابالاستقراض، باب العبد راع في مال سيده، [2409]، 418/2 .

[2]– حميد الصغير، (**المقاصد الشرعية لحماية المستهلك في الفقه الإسلامي**) (مقال منشور بكلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الأول، المملكة المغربية، وجدة، (د،ت)) ص:99.

[3]– محمد منصوري، (**وسائل تحقيق الأمن الاقتصادي في الإسلام**)، (مجلة الإحياء، كلية الحضارة والعلوم الإنسانية، جامعة وهران، العدد 20)، ص: 451.

أ–1–1– الإعمار والإصلاح في الأرض: قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[هود: 61]. لا شك أن الغاية الكبرى من خلق الإنسان تتلخص في العبادة وتعمير الأرض، وهذا مضمون الاستخلاف؛ فإصلاحُ الأرض وإعمارها هوالقيام بالتنمية الاقتصادية الشاملة في البلاد.

والتنمية "الاقتصادية في الفكر الاقتصادي المعاصر، تعني تلك التحولات الهيكلية، والسياسية، والاجتماعية، التي من شأنها إشباع حاجات الأفراد، وتحقيق حياة كريمة لهم، والقضاء على الفقر والتخلف، وهي بهذا لا تختلف كثيرا عن المفهوم الإسلامي لها، إلا في اعتبارها جزءًا لا يتجزأ من مضمون خلافة الله للإنسان على الأرض"[1]. والتنمية الاقتصادية جزء من التنمية الحضارية المنشودة، في جميع الجوانب السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

فإعمار الأرض وإصلاحها، وعدم إفسادها، والضرب في الأرض، والابتغاء من فضل الله، هولب التنمية الاقتصادية الشاملة، التي تعتبر السبيل الوحيد لتيسير حياة الجماعة المسلمة من مختلف الزوايا، وفق سنن الله الجارية العادلة للفوز بالحياة الطيبة. والملاحظ أن التنمية الاقتصادية الشاملة هذا المصطلح الاقتصادي، ورغم أنه غير مذكور في نصوص القرآن الكريم، إلا أنه يسير جنبا إلى جنب مع كلمتين ذكرتا في القرآن، هما: الحياة الطيبة؛ فلا حياة طيبة بدون إعمار وإصلاح وعدم إفساد، وبدون تنمية اقتصادية شاملة، "فلم نجد في القرآن الكريم استخداما لمصطلح النموأوالتنمية، في معرض الحث والأمر، ولكن وجدنا العديد من المصطلحات التي تدل على التنمية، ومنها: الإعمار، والابتغاء من فضل الله، وإصلاح الأرض، وعدم إفسادها، ونشدان الحياة الطيبة"[2].

وبناء على ذلك، تكون هذه التنمية والتعمير والإصلاح، منسجمة كل الانسجام مع عقائد الجماعة المسلمة، وهذا يكون دفعا قويا لإعانة القائد المسلم الراشد لتحقيقها، وذلك بالسمع والطاعة، وبذل الوسع والجهد للوصول والنهوض إلى التطور المنشود من التنمية المحققة للحياة الطيبة، وذلك من خلال

أ–1–2– تجويد العمل وإتقانه والتفاني فيه: فقد حث الإسلام على ضرورة إتقان كل الأعمال، وتحسينها، وتجويدها، سواء ما كانت تحت الرقابة البشرية، أولم تكن عملا بالأمر المنصوص عليه في الآية الكريمة: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة: 105].

فيكفي الإنسانَ استشعارُه برقابة الله تعالى والرسول ﷺ على عمله، حتى يتقن ويجود ما يقوم به، وبعد ذلك سيشهد له بنفع هذا العمل المتقن والحسن الجماعة المسلمة، وسينال بعد ذلك الذكر الحسن

---

[1]– حميد الصغير، **المقاصد الشرعية لحماية المستهلك في الفقه الإسلامي**، ص: 116.

[2]– نفسه، ص:117.

والمدح الطيب والثناء الجميل، الذي ينال به الإعزاز في الدنيا، وهذا فضل من الله ونعمة تعد من المظاهر السننية للحياة الطيبة، فيجازي الله على العمل المتقن أتم جزاء؛ الجزاء الأوفى، وهوتطور ونهوض وازدهار على جميع الأصعدة؛ فالإتقان يؤدي إلى تحقق تحسين النوعية، التي تجلب وتزيد الطلب على المنتجات، فيتم بها تحقيق النفع والفائدة والازدهار، والرخاء والرفاهية، التي يسعد بها كل أفراد المجتمع، ومن هذا ترغيب الرسول ﷺ في إتقان العمل؛ إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ»[1]، يقول المناوي في شرح هذا الحديث: "فعلى الصانع الذي استعمله الله، أن يعمل بما علمه الله، عمل إتقان وإحسان، بقصد نفع خلق الله"[2]؛ حب الله تعالى للعمل المتقن معناه مباركته وتزكيته، وحب صاحبه الذى أتقنه ومتى أحب الله العبد جعله من المقربين المحسنين،إضافة إلى انتفاع الناس بعمله وتحقيق مصالحهم الدنيوية، وانتفاعه بالأجر، ثم اشتهر في المجتمع وعرف بإتقانه لعمله،مما يكسبه محبة الناس، واحترامهم وفق سنة الله العادلة في الجزاء من جنس العمل.

فتجويد جميع الأعمال البدنية التي يقوم بها الإنسان، وإتقانها هو مطلق الإحسان، وذلك هو "الْإِحْسَان النَّفْع الْحسن والإفضال النَّفْع الزَّائِد على أقلالْمِقْدَار"[3].

فالإتقان يصحبه ويلزمه الإخلاص والتفاني، ومن واجب كل عامل أن يكون أمينا في عمله، يداوم الحضور وعدم التغيب، ويتجنب إضاعة وقت العمل، وعليه أن يشعر بالمسؤولية تجاه عمله، ومن الأمانة عدم الخيانة باستغلال منصبه لتحقيق مصالح ومنافع شخصية، وهذا كله داخل ضمن استشعار الرقابة الإلهية قبل البشرية، "ومما يساعد على تحقيق الجودة، توخي الإيمان في العامل المنتج، والخلق الإسلامي الرفيع، الذي يسموبالعمل إلى المرتبة العبادة لله تعالى، وكل هذا محافظةٌ على سلامة المجتمع واستقراره، وزيادةٌ للمبيعات والصادرات، وبالتالي تحقيقٌ للانتعاش الاقتصادي، وتحقيقٌ لمكانة مرموقة بين الدول"[4]. ذلك أفضل من الأعتماد الكلي على ثروات، وطاقات البلاد كالبترول والغاز لتحقيق التنمية الاقتصادية،فهي مع أهميتها الاقتصادية للبلاد غير مضمونة مع تقلبات سوق العرض والطلب،ومرور الدول ببعض الجوائح الطبيعية،والحروب.

أ–1–3– إحياء الأرض الموات: ولا يكون إعمار، ولا إصلاح، بدون إحياء الأرض، والعمل على استصلاحها واستغلالها أحسن استغلال، بالزرع والغرس والحرث، قال ﷺ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيِّتَةً

---

[1]– رواه البيهقي، **شعب الإيمان**، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، [4929]، 7/ 232.

[2]– المناوي، **فيض القدير**، [1861]، 363/2.

[3]– العسكري، **الفروق اللغوية**، 197/1.

[4]– محمد منصوري، **وسائل تحقيق الأمن الاقتصادي في الإسلام**، ص:454 .

فَهِيَ لَهُ. وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ»[1]، فإحياء الموات يكون باستصلاح الأرض البور، غير المملوكة، من ما لا ينتفع به على وجه من الوجوه[2]. ومن بعد الاستصلاح، والإحياء يبيح الشرع أن يمتلكها من قام بغرسها وزرعها، ما لم يعرف لها مالك، وهذا تشجيع للفلاحين والمزارعين للإقبال على خدمة الأرض.

وعند جمهور الفقهاء معناه: "أن يعمد شخص إلى الأرض التي لم يتقدم ملك عليها لأحد، فيحييها بالسقي أو الزرع أوالغرس أوالبناء"[3]. والملاحظ أن تعريف الجمهور يوضح مفهوم إحياء الأرض البور،فهو من اجود التعاريف لمعنى إحياء الأرض البور.

ويلاحظ أن استعمال كلمة إحياء الأرض لم يخرج عن معنى الزرع، والحرث، والسقي، والبناء، والغرس، والاستصلاح، وكلها تصب في معنى الانتفاع بالأرض، لتحقيق مصالح الناس، وهي الغاية من وراء التنمية الاقتصادية، لذلك أولى الإسلام عناية بالغة باستغلال الأرض، والحث على إعمارها، ورغَّب في ذلك بأن جعل لمن يحييها ويعيد إعمارها جزاءا وفاقا؛ (وهوتمليك تلك الأرض)؛ بشرط أن لا يكون لها صاحب أومالك، وجزاء الآخرة خير وأبقى، فهي له صدقة جارية، ما أكل منها آدمي أوحيوان، قال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»[4].

فهذا منهج الإسلام في تحفيز الناس على خدمة الأرض، وإعادة إصلاحها، قال ﷺ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ»[5].

رغم أن الشرع الحكيم يحث، ويرغب في استصلاح الأرض البور لستغلالها في تلبية حاجة الشعوب للغذاء، نجد بعض الحكومات غير الرشيدة،تستغل الأراضي الفلاحية الخصبة للبناء وتشييد العمران،مقلصة بذلك مساحة الأراضي الزراعية، فهذه جريمة في حق اقتصاد البلاد، وهذا بناء غير منظم،وغير مدروس، وغير مراقب يهدد أمن الشعوب في غذائها، ويساهم في فقدان نسبة كبيرة من

---

[1]– رواه مالك، **الموطأ**، كتاب الأقضية، باب الْقَضَاءُ فِي عِمَارَةِ الْمَوَاتِ، [2750، 1076/1 ،ورواه أبو داود، **سنن أبي داود**، بابما جاء في إقطاع الارضين، [3073]، 664/4.

[2]– وهبة الزحيلي، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دمشق، دار الفكر، ط3 (2012)، 426/4

[3]– سعدي أبو جيب، **القاموس الفقهي**، دمشق، دار الفكر، ط2(1408هـ، 1988م)، 108/1.

[4]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، [2195]، 817/2، وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع ، [3985]، 585/3.

[5]–رواه الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الأحكام، باب: ما ذكر في إحياء الأرض الموات، [1378]، 654/3، قال هذا حديث حسن غريب؛ ورواه أبي داود، **سنن أبي داود**،كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب إحياء الموات، [3073]، 4/ 680 .

الأراضي الخصبة، وينبؤ عن حال الحكام والحكومات الإسلامية وجهلهم بسنن الاقتصاد، وتنكبها،أو رغبتهم في البقاء تحت مذلة التبعية الاقتصادية والسياسية.

ولا شك أن نفع هذا التمليك يعود على صاحبه، وعلى كافة أفراد المجتمع، فالاعتناء بالأرض وحده كفيل بحل مشكلة الغذاء، ومن ثم تحقيق الأمن الغذائي[1]، لذلك على ولاة الأمور والحكام، القيام بعملية إحياء الأراضي، لتسخير خيراتها، واستثمارها في تحقيق منفعة الرعية؛ فالأرض مورد لكل الخيرات، ولوحقق الاكتفاء الذاتي في المحاصيل الزراعية وحدها، لكان ذلك سببا للحياة الطيبة، تسعد به الجماعة المسلمة، وتحفظ عزتها وكرامتها.

ومن الدول من تستعمل القمح سلاحا للضغط على الشعوب المعارضة لسياستها، ولواعتنت تلك الشعوب المعارضة بإحياء الأرض، وبتهيئتها، وجعلها صالحة للزرع والغرس، لتم القضاء على كبرى المشاكل، المهددة لأمن الأمم واستقرارها وسيادتها، ما يزعزع جانبها الديني، في محاولة لطمس معالم ثقافتها، والحركاتُ الإسلامية "الساعية في تقوية الجوانبها الاقتصادية والمالية، ومن توظيفُها في دعوة الله، هي بذلك تأخذ بأهم أسباب التمكين؛ "إذ من القواعد المهمة في الاقتصادي الإسلامي: العمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي[2] للأمةوبغير إحياء الأراضي، واستصلاحها الهادف إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي والاستغناء لا يمكن للأمة أن تحافظ على عزتها التي خصها الله بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: 8]؛ إذ بدونه لا يُمَكَّنُ لها في الأرض؛ فلا عزة ولا سيادة لأمة تعتمد في جمع قوتها على غيرها، وعليه فواجب "على الإمام عمارة البلدان، باعتماد مصالحها، وتمهيدها سبلها ومسالكها، وتنفيذ ما يتولاه المسلمون من أموال بسنن الدين، من غير تحريف في أخذها وإعطائها"[3].

ومصالحها في توفير الغذاء الأساسي لشعوبها؛ الذي لا قائمة له إلا بالاهتمام بالأرض واستصلاحها، بحفر الآبار؛ إذ الماء سر الإنبات، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[لقمان: 10].

لنخلص إلى أن توفيرَ الأمن الغذائي للشعوب، لتحصينهم من الأزمات والمجاعات، وحمايةَ استقلالية القرار السياسي السيادي لدولتهم، يستلزم إعداد الأرض وإحياءها وزراعتها؛ فقد كان النبي

---

[1]- الأمن الغذائي:مصطلح شاع استخدامه في الدول النامية حديثا و بوجه خاص بعد ظهور أزمات غذائية عالمية في النصف الثاني من الستينات ومعناه ضمان استمرار تدفق المستوى الاستهلاكي المعتاد من الغذاء؛ ينظر: عبد الرحمن يسري، **دراسات في علم الاقتصاد الاسلامي**، ص:230.

[2]- إشباع الضرورات الغذائية الأساسية التي تمثل الكفاف عن طريق تنمية الإنتاج المحلي أي الاكتفاء الذاتي؛ ينظر: عبد الرحمن يسري ، **دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي**، ص:250.

[3]- النصيبي، أبوسالم محمد بن طلحة الوزير، **العقد الفريد للملك السعيد**، القاهرة، المكتبة الوهبية، ط1(1283هـ)، ص:53.

يواسي الصحابة في الزراعة والثمرة، ومن ذلك ما جاء عن رافع بن خديج أنه قال: «دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا تَصْنَعُونَ بِمَحَاقِلِكُمْ؟ قُلْتُ: نُؤَاجِرُهَا عَلَى الرُّبُعِ، وَعَلَى الْأَوْسُقِ مِنَ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، قَالَ: لَا تَفْعَلُوا، ازْرَعُوهَا أَوْ أَزْرِعُوهَا أَوْ أَمْسِكُوهَا، قَالَ رَافِعٌ: قُلْتُ: سَمْعًا وَطَاعَةً»[1].

فهذا أمر ونهي من النبي ﷺ للصحابة، يصاحبه الرفق بهم، وهذا من خصال القائد الناجح، ففي إشفاقه على الرعية، وحرصه على مصالحهم تحقيقٌ للنفع لهم، وزيادة للطاعة منهم له، (قلت سمعا وطاعة)؛ فالحاكم الواعي يعلم فائدة الزراعة في تحقيق الأمن الغذائي لشعبه، لينعموا بطيب الحياة، محافظا على عزتهم، وسيادة وطنهم، وفي حديث آخر في الترغيب في زرع الأرض، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يوما يحدث – وعنده رجل من أهل البادية–: "أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ: اللَّهُ دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللَّهِ لَا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ"[2].

نفهم أن النبي لما حدث الرجل من أهل البادية بهذا الحديث، فهو إنما كان حاثا على الزرع بطريقة غير مباشرة، حتى إن الرجل في الجنة ليزرع ويحصد، وهذه هي القمة في تحفيز أهل البادية؛ أهل الأرض، على خدمتها ورعايتها بالزرع، وعدم التفريط فيها، وفي رواية لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ أَرْضٍ، فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيُزْرِعْهَا أَخَاهُ، وَلَا تَبِيعُوهَا»[3].

ففي هذه الأحاديث دلالة واضحة على اهتمام الإسلام بالزراعة، التي تشكل عصب الغذاء وأساسه الرئيس، ما يسهل الوصول إلى تحقيق الأمن الغذائي، ما دامت بلادُ المسلمين تزخر بأجود أنواع الأراضي والمناخات، التي تلائم وتعطي أنواع الخيرات والثمرات، ما يُمَكِّن القيادة الحكيمة من تحقيق الاكتفاء الغذائي، بمقدار تغطية الأمة بأجود أنواع الغذاء.

ولأن زراعة الأرض لا تكفي وحدها لتحقيق الأمن الاقتصادي، فقد شُرِّعت المعاملات المالية، تعضد وتقوي سوق الزرع، لتعرضه في الأسواق الداخلية والخارجية، وتحقق أرباحا تعزز بها ميزانية الدولة ومداخليها.

---

[1]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المزارعة، بَابُ مَا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُوَاسِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الزِّرَاعَةِ وَالثَّمَرَةِ، [2339]، 107/3.

[2]– نفسه، كتاب المزارعة، باب كراء الأرض بالذهب والفضة، [2348]، 108/3.

[3]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب البيوع،باب كراء الأرض، [1536]، 1177/3.

فقد أباح الشرع المعاملات والبيوع، التي تخدم الجماعة المسلمة، وتحقق أمنها؛ الأمن الاقتصادي، فجعل الله الإباحة أصلا في المعاملات بين الناس، تمكينا لهم من قضاء حوائجهم ومصالحهم، وطريقةً ميسَّرة لكسب معاشهم، فأشار إلى كثير منها في الكتاب، وتضمنتها كذلك السنة، وفي مايلي بعضها باختصار، لأن المقصد بيان حكمة القائد في تحقيق هذا الأمن، من وراء المعاملات، وذلك بحسن اختيار الكفاءات التي تحسن الإشراف والتخطيط، هذا المورد الهام من موارد الاقتصاد، وأما المعاملات المالية والبيوع الجائزة؛ فهذه شرعها الحكيم العزيز فإن أُحسِن استثمارها عم نفعها، خيرًا وأرباحا، وارتفع بها مستوى حياة الجماعة المسلمة إلى الرفاه والرخاء، وإن أسيء تسييرها وإدارتها حل خرابها على جميع أفراد المجتمع فقرا وأزمات اقتصادية، تجر وراءها الآفات الاجتماعية، والمساوئ الأخلاقية؛ فكانت إباحة المعاملات وسائر أنواع التجارات من أهم آليات تحقيق الأمن الاقتصادي.

ثانيا: أسس اختيار الكفاءات

قال تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: 55]، عند تعريف الكفاءة ذكرت مجموعة من المعارف كأول شرط لها والمعارف تكتسب بالعلم والتعلم ولذا فعلى القائد السياسي والإمام أن يختار الأكفاء أصحاب العلم من لديهم حصيلة معرفية عليمة كافية لتدبير أمور الدولة وتحقيق التنمية الإقتصادية المنشودة قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة: 247].

لا أرى من المغالاة أن ذكرت الكفاءة ركنا أساسا لبناء الحضارة العظيمة، ولا من المبالغة في شيء أن عددت تدهور الأمة وتخلفها اليوم، بسبب إهمال وتهميش الكفاءات، رغم أن الشريعة الإسلامية أولت موضوع الكفاءة اهتماما بالغا، وقد أشار إلى ذلك كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وهذه الأمثلة والنماذج؛ التي أعرضها في ما يلي، واضحة كل الوضوح في مدى عناية الدين الإسلامي بها.

وقبل بيان منهج الإسلام في اختيار الكفاءات، لزم أن نعرف الكفاءة بمفهومها الإداري المهني.

فعرفت أنها القدرة على العمل وحسن تصريفه، وعرف الكفء بأنه: "المماثل والقوي القادر على تصريف العمل، والجمع أكْفاء وكفاءة"[1].

والكفاءة في العمل: "القدرة على أدائه كما يؤديه المحترفون له عادة"[2].

---

[1]– مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، (د، ب)، دار الدعوة، (د، ط، ت)، 791/2.

[2]– محمد رواس قلعجي، معجم لغة الفقهاء، 382/1.

وإجراءً لتعريف يخدم الدراسة نقول إنها مجموعة المعارف والقدرات والمهارات والصفات العامة والشهادات الدراسية والتدريبات التي حصل عليها الفرد وتؤهله للعمل[1].

لا شك أن الإعداد الجيد للعنصر البشري من جميع جوانبه، الروحية المعنوية[2]، والفنية التقنية العلمية[3]، يعد من الأهمية بمكان في تحقيق الأمن الاقتصادي لأي أمة، باعتباره "القوة المفكرةالمنظمة"[4]، هنا يكمن رشد القيادة السياسية، التي تعمل جاهدة على إيجاد الكفاءات، ومن ثم رعايتها وإعدادها لتقلد مناصب هامة وحساسة، للقيام بمشروع بعث ونهضة وإصلاح الأمة، وتحقيق مكانة لها بين الأمم.

1– معايير اختيار الأكفاء: هناك صفات مهمة يجب توفرها في من يؤهل لتسيير مصالح، وشؤون الناس، وبغيرها لا يكون النجاح وتختلف هذه الصفات من حيث الأهمية، فالأمانة أهمها ثم يأتي العلم والقوة؛ ذلك أن الحفيظ على مصالح الناس، الحافظ لحقوقهم القائم عليها، لا يفرط فيما وكل إليه، فخيره للناس أفضل من صاحب العلم دون الأمانة، "فالصفتان، وإن كانتا مطلوبتين لمواجهة هذا الأمر هنا، إلا أن الحفظ أولى، وأهم من العلم.. إذ قد يستغنى الحفظ هنا عن العلم، ويتحقق للناس بعض الخير، أو كثير منه.. على حين أنه لو استغنى العلم عن الحفظ لما تحقق للناس، في هذه الحال، خير أبدا، ولكان العلم مجرد حقائق مرسومة في كلمات، أو مودعة في كتاب.. فإذا اجتمع الحفظ والعلم، اجتمع الخير كلّه"[5].

قال تعالى: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: 55]، من هذه الآية الكريمة نستنتج أهم معايير اختيار الكفاءات؛ وهي:

الأمانة أولا، فالخوف على مصلحة البلاد؛ إذ بحرص المسؤول القيادي وخوفه على مصالح الرعية، يكون حفيظا على ثروات البلاد، حافظا لأمنها واستقرارها سياسيا وعسكريا؛ فلا تقع منه ريبة ولا تخاف منه خيانة أبدا.

---

(1)– أحمد مختار عبد الحميد عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، 136/1

(2)– الروحية المعنوية: وتتضمن الالتزام بالمنهج الرباني في كل شؤون الحياة استشعار الرقابة الإلهية ،الصبر والعدل والحلم اوالحكمة والإيثار وحب الخير للجماعة والحفاظ على وحدتها، وكل قيم وأخلاق الإسلام.

(3)– الفنية التقنية العلمية: وتتضمن اليد العاملة المؤهلة واستعمال أصحاب الخبرات و التجارب المعتمدةعلي البحث العلمي،لأن العنصر البشري هو القوة المعول عليها في تحقيق التنمية الاقتصادية.

(4)– عبد الرحمن يسري، **دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي**، ص: 212.

(5)– عبد الكريم يونس الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن** ، 3/7 .

لأن العلم لا ينفع وحده، ولا يمكن اعتبار صاحب الكفاءة العالية من لديه رصيد علمي معرفي، أوالمحصل لعدد من المؤهلات والشهادات، ولكن لا بد من تزينه بالأخلاق والفضائل كالأمانة، فهذا ملك مصر يزكي نبي الله يوسف عليه السلام، لِما بلغه عنه، وعرف من أمانته، وعفته وصبره على محنة السجن والظلم، رغم براءته، فهذه الأخلاق والخصال كافية لأن يثق فيه الملك ويزكيه، ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: 54]، يقول سيد قطب: "لقد تبينت للملك براءة يوسف... وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة كذلك تبينت له كرامته وإباؤه وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ولا يتهافت على لقاء الملك... ولكن يطلب الكرامة لشخصه ولدينه، الذي يمثله قبل أولئك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه"[1].

فلا شك أن هذه الأخلاق العالية، تضيف الكثير للمسؤول القيادي، صاحب العلم والقوة، الذي أُستودع أمانة التعمير والتنمية، وتحقيق الأسباب المحصلة للحياة الطيبة، ولو بقدر قليل، فالملك بجلالة قدره، وأي ملك، ملك مصر، ينحني إجلالا وتعظيما وحبا لهذا الإنسان الكفء، فتأتي النتائج موافقة للأسباب، تَوِّليه لأهم منصب في البلاد، ألا وهو عزيز مصر؛ أي: الأمين على خزائن مصر، فأصبح مصير اقتصاد مصر والبلدان المجاورة تحت تصريف الحكيم، "ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة، التي يرى أنه أقدر عليها، وأن وراءها خيرا كبيرا لشعب مصر وللشعوب الماجورة"[2].

ومن الأمانة الالتزام بكل المسؤوليات الملقاة على كاهله، والقيام بها على أكمل وجه، لأن فوز الدنيا والآخرة مرتهن بذلك، فإن هو أخلص النية في ذلك، والتزم الجد والفعالية المهنية والإدارية في التسيير، وحسن التصرف والتخطيط الدقيق لشؤون البلاد، كل حسب تخصصه، جاءت النتائج على أحسن ما يراد، وقد كان يوسف عليه السلام خبيرا بأسرار المهنة وخصائصها، فما تقدم وما عرض نفسه لهذا المنصب الحساس، إلا لتيقنه من كفاءته وخبراته في ميدان الاقتصاد والتسيير، ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾، فما طلب مسؤولية الإشراف على خزائن الأرض، إلا لعلمه بأنه سوف يلتزم بكل حيثيات ومتطلبات تلك المهام، "وهو يضع نفسه في الموقف الصعب، مع الثقة الكاملة في أن يتحمل المسؤولية بعون الله، في إنقاذ مصر من خطر داهم"[3].

---

[1]–سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2004/13.

[2]– نفسه، 2005.

[3]– عبد الحليم عويس، **الإعجاز التاريخي والأدبي والتربوي(في سورة يوسف)**، (بحث مقدم للؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة)، ص: 862.

وفعلا فقد تولى مسؤوليات متنوعة مختلفة [1]، والتزم بها جميعا، فكان الوفي والمخَلِّص مصرَ من مجاعة حتمية.

ومن الأمانة وعدم الخيانة أن لا يستعمل صاحب الوظيفة نفوذه، فيستغل منصبه لتحقيق مصالح شخصية، وأغراض مادية غير مشروعة، ويخضع المصلحة العامة للمصلحة الشخصية، فهذا إخلال بعظم وشرف المهمة والوظيفة والمنصب، وفيه ضرر كبير بمصلحة الجماعة المسلمة؛ فالمسؤول الذي يستغل المنصب والوظيفة، لتحقيق مكاسب شخصية، متاجرا بمنصبه من خلال إهدار المال العام، أوالتلاعب به، وتولية الرجل غير المناسب في المنصب الحساس، محاباة[2] ومجاملة، متناسيا بذلك مصلحة الجماعة، معرضا اقتصاد الدولة إلى التدهور والكساد والركود، ناهيك عن المفاسد الأخرى، مثل انتشار الفقر والبطالة، وهكذا يضحي المجتمع في وسط غير ملائم من تفشي المحسوبية[3]، التي تعد من أكبر عناصر الفساد الإداري، الذي يجعل الموظف يتراخى في أداء مهامه، متوا كلا على حسبه، أونسبه، أوقرابته لصاحب الوظيفة، فيقل بذلك مردوده الإنتاجي، أوينعدم تماما، وهذا هوسبب المشكلات الاقتصادية، والتخلف الذي تشهده المجتمعات المسلمة في الوقت الراهن، باستغلال "المنصب الإداري، أوسوء استخدام السلطة الرسمية، وترجيح المصلحة الشخصية على المصلحة العامة"[4].

فالأمانة معيار رئيس لاختيار الأكفاء ولذلك جاء ذكره أولا في الآية الكريمة ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

العلم ثانيا: ولهذا كانت استشارة العلماء واجبة؛ إذ بعلمهم يهتدي الحاكم إلى ضرورة اختيار أصحاب العلم، في إدارة وتسيير أمور الدولة، فصاحب العلم قادر على أن ينهض باقتصاد البلاد، وقادر على إحداث تغيير جذري في المجتمع، ليخلصه من الطاقات السلبية، التي أقفلت القلوب فأصبحت لا تتدبر، وأغلقت بها العقول حتى أضحت لا تفكر، إلا بِمَلءِ شهوة البطن، والاستجابة لشهوة الفرج؛ فهو يستحق أن يُستَودَع أمانة التنمية والتمكين للأمة، لتتحقق لها حياة طيبة ،"إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة ..خيرا مما ينهض بها أحد في البلاد وبما يعتقد

---

[1]– المسؤوليات التي التزمها يوسف عليه السلام، تشمل: التخطيط والتموين، إدارة الأموال، تسيير الإقتصاد، مباشرة العمل ببناء المخازن لحفظ القمح، الإرشاد والتوعية والتعليم،إضافة إلى الدعوة لدين الله.

[2]– المحاباة: حاباه في البيع ونحوه: تساهل معه وأختصه القاضي في الحكم وتحيز إلى فلان حباه وأنظم إليه ووافقه في الرأي دون مراعاة للحق؛ ينظر: أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، 440/1.

[3]– المحسوبية:إسناد الوظائف أومنح الرَّقيّات على أساس الرِّعاية والنّفوذ، لا على أساس الكفاءة "يرجع تراخي الموظَّفين وتواكلهم إلى تفشِّي المحْسوبيَّة"، ينظر: أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، 492/1.

[4]– عماد صلاح عبد الرزاق الشيخ داود، **الفساد والإصلاح الإداري**،دمشق، من منشورات إتحاد الكتاب العرب، (2003م)، 22/1.

أنه سيصون به أرواحا من الموت وبلادا من الخراب ومجتمعا من الفتنة فتنة الجوع فكان قويا في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته"[1].

لذا جاز أن يُعَرِّف الإنسان أهل الحل والعقد بعلمه وأمانته، حتى يُولوه المناصب الحساسة في البلاد، ويأتمنوه على مصالح الرعية؛ حتى يتسنى له أن يقوم بحفظها ورعايتها، مستثمرا في ذلك ما علمه الله، مفعِّلا خبرته التي صقلها بالممارسة والتدريب.

ومنه فعلى صاحب الخبرة والكفاءة أن يحرص على أن يعرض معارفه وتجاربه، مفَعِّلا بهذا سنة الله في الأخذ بالأسباب، وفي هذا السياق جاء تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾تبريرا "منه لها الإختيار؛ فهو يعرف من نفسه أنه موصوف بالحفظ والصيانة اللازمين... وهو على خبرة بالعلم المناسب لهذا النوع من العمل ولكل عمل علمه الخاص به . . تصرف فيها التصرف الأحوط والأرشد والأصلح لعموم الناس"[2].

وبناءً على أقوال المفسرين في هذه الآية الكريمة نخلص إلى أن الأكْفاء لا يتمهلون في طلب تولي المناصب، بل يطلبونها؛ يطلبون بها تفعيل سنة الله في الأخذ بالأسباب، ولا يتوانون في تقديم خدماتهم لإنقاذ الجماعة المسلمة من الأخطار والمهالك التي تداهمها، خاصة إذا علموا من أنفسهم القدرة على التصرف الصائب، المناسب لحفظ أمنها وأمانها، يقول الرازي: "إن التصرف في أمور الخلق كان واجبه عليه؛ فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، فيجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان، وأن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ورفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول"[3].

فهذا رد من الرازي على من قال كيف ليوسف عليه السلام أن يطلب الإمارة، ثم كيف يمدح نفسه ويزكيها أمام الملك، وهكذا يبقى فضل العلم ونفعه قويا شديدا، لكل شأن في الدنياالاخرة، وحسبُنا في ذلك حديث أبي هريرة بأن العلم من الصدقات الجارية، التي تنفع صاحبها حيا وميتا.

القوة ثالثا: قال تعالى:﴿ قَالَتِ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص:26]، فقد جاءت الآية بمعيارين أساسين على أساسهما يمكن اختيار الأشخاص، الذين يضع فيهم ولي الأمر ثقته، وهويوليهم مسؤولية التعمير والبناء، وتحقيق التنمية الاقتصادية الشاملة، التي تؤَمِّن وتُطَمْئِن الجماعة المسلمة على مصالحها الأساسية، في ظل تسييرهم وإدارتهم، فإذا اجتمعت هاتان الكفاءاتان في القائم بالأمر، والمتعهد بالعمل، تم المراد وفازت الجماعة المسلمة بأطيب حياة، يقول ابن

---

[1]–سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2005/13.

[2]– محمد المكر، **التيسير في أحاديث التفسير**، 187/3.

[3]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 473/18.

القيم: "وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر، من رسالة أوولاية أوغيرهما، فإنما ينتدب لها القوي عليها، الأمين على فعلها، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده، انتدب له قويا أمينا، معظَّما ذا مكانة، مطاعا في الناس"[1].

فبتمكين صاحب القوة البدنية، صاحب الأخلاق، الأمين الموثوق في أمره، لِما شاع عنه وسط الناس من الأمانة والأخلاق النبيلة، تستفيد الجماعة المسلمة عدة أمور، منها أنَّ القويَّ يهابه الناس، ويستطيع مواجهة أهل الفساد، وردع الظالمين، ومنعهم من إلحاق الضرر بالمجتمع؛ فهويقف كالسد المنيع في وجه الطواغيت والمترفين، أعداء الإصلاح والمصلحين، وقد تصدى موسى –عليه السلام–، للرعاة حين منعت الفتاتان من السقي عنهما، "فانتهى إلى حجر لا يرفعه إلا عشرة فرفعه وحده"[2].

فالقوي في إنكار المنكر، صاحب القوة الظاهرة للعيان، إضافة إلى أنه صاحب سلطة، فبتوليه الأمارة يُخَول له مهمة تغيير المنكر في مرتبته الأولى، التغيير باليد، فالقوي فيما وُلِّي، قوي على ما استودع، قوي بقوته وشدته، يسد ويغلق باب الفتن، وقد ثبت من الآثار والسير وأخبار الصحابة، أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–، كان بقوته حصن منيع للمسلمين من الفتن، فعن حذيفة بن اليمان –رضي الله عنه– قال: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ؟ قُلْتُ: أَنَا كَمَا قَالَهُ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا لَجَرِيءٌ، قُلْتُ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، قَالَ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، وَلَكِنْ الْفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: يُكْسَرُ، قَالَ: إِذًا لَا يُغْلَقَ أَبَدًا، قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ»[3].

فلقد عُرِف ابن الخطاب بالقوة، كما عرف بالعدل والزهد، فكان يهابه الجميع، هيبة أساسها الحق والعدل، وقوامها خشية الله في السر والعلن، حتى قال فيه رسول الله ﷺ: «إِيهٍ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»[4].

---

[1]– ابن القيم، **التبيان في أقسام القرآن**، تح: محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، (د،ط،ت)، 1/ 122 .

[2]–الطبري، **جامع البيان**، 227/18.

[3]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الصلاة، باب الصلاة كفارة، [525]، 196/1.

[4]– نفسه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، [3294]، 126/4.

وهذه فائدة جليلة لتمكين صاحب القوة من المنصب الرفيع، الذي يؤثر إيجابيا في التغيير والإصلاح الهادف النافع في المجتمع، أنه يكون له أتباع كثر؛ فالناس تنجذب بالفطرة للقوي، المدافع عنهم وعن مصالحهم؛ إذ إن الجماعة تشعر بالاطمئنان والأمن والاستقرار، مادامت في حمايته؛ لذلك فهم يتبعونه ويزكونه؛ فتقوى بذلك شوكته، فتصبح له شعبية واسعة وسط الناس، ويكسب ثقتهم، وينال حبهم ومودتهم، ما يسهل عليه أداء مهامه دون معارضة أوعوائق، فينصاع الجميع لطاعة أوامره، ولوكانت صارمة شديدة عليهم؛ إذ تطبيق الحدود يحتاج إلى القوة والشدة والصرامة؛ حتى لا تشيع الشفاعة التي تبرز الطبقية في المجتمع، والمحسوبية المضيعة لهيبة العدالة، القاضية على سلطة القانون، ثم المخاطر تنتشر الجريمة، ولا تجد من يردع المجرمين البغاة، وهذا ما تتخبط فيه الأمة في هذا العصر، نتيجة تعطيل حدود الله، بعدم تقديمها القوي الأمين، لتوليه المنصب المناسب، نتيجة الزهد في اختيار الأكفاء.

حيث شدد وحذر الخطاب القرآني، والحديث النبوي، من تفشي هذه الآفة في أوساط الجماعة المسلمة، وهذه وصية الله للحكام بالعدل والمحافظة على الأمانة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾[النساء: 58]، وهذا خطاب عام على الإطلاق لكل المسلمين، وخاص بأصحاب النفوذ والمناصب والوظائف، بأن يطبقوا العدل في مسائل الحكم وشؤون العباد، يقول محمد رشيد رضا: "هاتان الآيتان هما أساس الحكومة الإسلامية، ولولم ينزل غيرهما لكفتا المسلمين في ذلك،.... والحكم بين الناس له طرق: منها الولاية العامة والقضاء... فإن خزيت أمانة أولئك الرجال، وهم أركان الدولة، سقط بناء السلطة، وسلب الأمن، وراحت الراحة من بين الرعايا كافة، وضاعت حقوق المحكومين، وفشا فيهم القتل والتناهب، ووعرت طرق التجارة، وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة، وخوت خزائن الحكومة، وعميت على الدول سبب النجاح، فإن سدت عليها نوافذ النجاة، ولا ريب أن قوما يساسون بحكومة خائنة، إما أن ينقرضوا بالفساد، وإما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم، يسومونهم خسفا ويستبدون فيهم عسفا فيذوقون من مرارة العبودية ما هوأشد من مرارة الانقراض والزوال"[1].

بهذا التفسير الوافي الجامع المانع، يبين محمد رشيد رضا أغلب آثار ومخاطر ومفاسد استخدام المحاباة والمحسوبية في الحكم بين الناس، وهاتان الآفتان يتوقف عليهما فساد مصالح العباد في كل زمان ومكان، ومن الخيانة لله، وللرسول ﷺ، وللجماعة المسلمة، استعمال الرجل محاباةً وهوغير كفء للوظيفة؛ فيُخَرِّب ويضر أكثر من ما ينفع ويصلح، قال ﷺ: «مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلا مِنْ عِصَابَةٍ، وَفِي تِلْكَ

[1]- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 5/136-145.

الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ، وخانَ رَسُولَهُ، وخانَ الْمُؤْمِنِينَ»[1]، فالملاحظ من هذه النصوص الشرعية، آثار خيانة الأمانة وسوء استغلال المنصب، تجتمع لتكون دنيوية وأخروية، فلا يكفر عن صاحبها عقوبته الدنيوية، حتى استحق بعد ذلك العذاب الأليم في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ، وَمَنْ أَعْطَى أَحَدًا حِمَى اللَّهِ، أَوْ قَالَ: تَبَرَّأَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[2].

فتقرر بنص الحديث أن تولية الموظفين محاباة هوعين الإفساد، وهوضد المصلحة العامة مصلحة الجماعة، وإلا كيف تفسر استحقاق اللعنة وعدم قبول الطاعات، لمن يقدم على هذا الفعل، وأرشدت السنة إلى أن هذا الأمر هومن أمارات آخر الزمان، فقد جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» فقال الرجل: وكيف إضاعتها؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[3].

2– السنن الإلهية في الكشف عن الكفاءات:على القائد الراشد الواعي بأهمية الكفاءات والمؤهلات في التنمية والتطور، الأخذُ بسنن الله وتفعيلُها في الوصول للأشخاص الأكفاء، ومن هذه السنن:

أ– **سنة الوقت**: ومن الأمانة حرص المرء على القيام بما وُكل إليه على أكمل وجه، وإجادته وإتقانه، ومن الحرص الواجب عدم تضييع الوقت، وقت العمل وقت قضاء مصالح الناس، فهويعتبر من حقوق المحكومين، وبه تنمى الأعمال، وتنجز المشاريع التنموية النافعة، المحققة لمشروع النهوض، الذي تسعد به الجماعات الإنسانية،ونخلص إلى سنة أخرى من سنن الحياة الطيبة، ألا وهي **سنة الوقت**، فمن أحسن استثمار سنة الوقت، فقد فاز بالحياة الطيبة، وحقق مصالحه، ومصالح من استودع رعاية مصالحهم وشؤونهم، ومن تنكبها وغفل عنها، ذاق مرارة المعيشة الضنك في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

ولولم يكن للوقت أهمية لما أقسم به المولى تبارك وتعالى في محكم تنزيله، وهوالغني عن القسم، وفي القسم به تعظيم لشأنه، "فيكون القسم به الدال على تعظيمها ورفع من شأنها"[4].

---

[1]– الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب الأحكام، [7023]، 104/4، قال الذهبي هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[2]– رواه أحمد في مسنده، مسند أبي بكر الصديق، 187/1، ورواه الحاكم، المستدرك، كتاب الأحكام، [7024]، 104/4، وقال هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه.

[3]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب العلم، باب من سئل علم وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث، [59]، 21/1.

[4]– محمد بن صالح بن محمد العثيمين، **مجموع فتاوي ورسائل الشيخ**، جمع وترتيب فهد بن ناصر، دار الثريا، (د،ط)، (1413هـ)، 10/ 798.

إن للوقت جلالة وقيمة، وله تأثير بالغ في الحياة، وهذه الآيات توضح ذلك:

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ ﴾[الفجر: 1-2]، وقال عز قائل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾[الضحى: 1-2]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ ﴾[العصر: 1-2]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾[الليل: 1-2]، وما كان هذا الأقسام عبثا، وإنما ليلفت سبحانه نظر عباده إليه، ويرشدهم إلى حسن استثماره واغتنامه في الأعمال الصالحة النافعة، والطاعات المحصلة للأجر والثواب، المحققة لطيب الحياة.

فبتفعيل سنة الوقت يستطيع الإنسان النجاح، وباستثماره يحقق أهدافه، وهذا هو الفارق بين النجاح والفشل؛ إذ كل الناس سواسية أمام الوقت، القانون العادل الصارم الثابت؛ فليس لأحد تعبئة كمية من الوقت واستثماره في المستقبل، بل كمية الوقت المتاح في اليوم يتساوى فيه الجميع، ولكن من يغتنم أوقاته ويوازن بينها وبين المصالح والطاعات والقربات فإنه ينال المراد؛ إذ القدرة على حسن إدارة الوقت سمة الناجحين في الدنيا، الفائزين بالآخرة، يقول ابن القيم إن تضييع الوقت "يفضي إلى درْك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة، ويكدر عين الصحبة، فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات النقص، فإن لم يكن في تقدم فهومتأخر ولا بد، فالعدد سائر لا واقف، فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، وإما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة وقوف البتة، ما هوإلا مراحل، تطوى من أسرع طي إلى الجنة أوالنار"[1].

إن الاستهانة بقيمة الوقت جريمة، ومنكر عظيم في حق كل فرد من أفراد الجماعة، فهو مسؤول أمام الله عن أمانة الوقت، يقول ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ، وحَياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ»[2].

وقد كان ﷺ، من أشد الناس حرصا على وقته، فكان يقسم وقته فيما يحقق المنفعتين الخاصة والعامة معا، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء الله، وجُزءا لأهلْه، وجُزءا لنَفْسه، ثُمَّ جَزَّأَ جُزْءَه بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيردَ ذَلِكَ عَلَى العَامَّة بالخاصَّة»[3].

---

[1]- ابن القيم، **مدارج السالكين**، 278/1.

[2]- رواه الحاكم، **المستدرك**، كتاب الرقاق، [7846]، 341/4، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي على ذلك.

[3]- رواه الآجري، أبوبكر محمد بن الحسين بن عبد الله، **الشريعة**، تح: عبد الله الدميجي، السعودية، دار الوطن، ط2(1420هـ، 1999م)، 1508/3، ورواه البيهقي، **شعب الإيمان**، 24/3.

يقول ابن القيم في الإشارة إلى قيمة الوقت في حياة الناس: "فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها؛ فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه، فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهومادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة المعيشة الضنك في العذاب الأليم، ويمر أسرع من مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله، فهوحياته، وإن عاش فيه عيشة البهائم، وقطع وقته في الغفلة والشهوة والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه بالنوم والبطالة، فموت هذا خير من حياته"[1].

فالسنة الإلهية ثابتة عادلة في جزاء إضاعة الوقت، ترتبط فيها النتائج بالمقدمات ارتباطا منطقيا؛ فهي "تغطي ذلك النور وتكدر عين الصحبة مع الله، فإن صاحب الوقت مع صحبة الله، وله مع الله معية خاصة بحسب حفظه وقته مع الله، فإن أضاع وقت تعرض لقطع هذه الصحبة، فلا شيء أضر على العارف بالله من إضاعة وقته"[2].

فليعلم المُستعمَلُ المُوَكَلُ بإدارة وتسيير وقته أن ضرر إضاعته وقته يبدأ بنفسه، ليحجُبَ عنها أنوار معية وحب الله، ويهوي به إلى دركات النقص والتأخر، فيصارع الفشل في حياته؛ ذلك أنه لا يمكن تعويض ما مضى من غير الاستفادة والإفادة، إضافة إلى تضييعه مصالح الناس، وتسببه في تعطيل حركة عجلة التنمية، وليتق الله في الحفاظ على الوقت، بعدم تضييعه في الاشتغال بالمعاصي، أو اللغو والإعراض عن أداء واجبه، وليعلم وليدرك أنه مسؤول عنه يوم القيامة، و«لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ» [3].

فهذه دقيقة عظيمة النفع في بيان قيمة الوقت، وأهميته في الإسلام، ليتنافس ولاة الأمور في اختيار الأكْفاء، الذين يحرصون على استثمار سنة الوقت، في النهوض بواقع الجماعة المسلمة، وتحقيق أمنها واستقرارها من كل المناحي، سياسيا، واقتصاديا، واجتماعيا، وثقافيا، ناشدين التنمية الشاملة، وهذا الاقتصاد في الوقت والشح فيه وإن كان الشح مذموما في أمور، فهو محمود في ادخار الأوقات، للقيام بالمصالح، يقول ابن القيم "فمن لم يكن شحيحا بوقته، تكره الناس على الأرض، عيانا مفلسا، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله"[4].

---

[1]– ابن القيم، **الجواب الكافي من سأل عن الدواء الشافي**، 109/1.

[2]– نفسه، 279/1.

[3]– رواه الترمذي، **سنن الترمذي**، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، [2417]، 612/4، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[4]– ابن القيم، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، مصر، دار السلفية، ط2 (1394هـ)، 299/1.

وإن كان الشح بالوقت عمارةً للقلب، فأولى أن يكون عمارةً للأرض وتعميرا لها، وتهيئة وتشيدا للمجتمع المسلم الفعال المفيد؛ يأكلُ من ما يزرع، ويلبس ما ينسج، ويحكم بما أُنزل على نبيه ﷺ، دستور في فلاح الدارين، وحياة طيبة وفق سنن الله الحاكمة الجارية، ولا شك أن سنن الحياة الطيبة سواء على مستوى الأفراد أوالجماعات كثيرة، لا تسع وريقات هذه الدراسة لإحصائها، ولكن ذكرت بعضا منها، وما لم يذكر كثير، ولإتمام النفع والفائدة لابد من بيان بعض الأثار السننية للحياة الطيبة الدنيوية والأخروية.

فلا شك أن للوقت أهمية عظيمة في الإسلام، وأن استثماره في الفائدة والصلاح مسؤولية جميع المسلمين، فضلا بمن كُلف رعاية مصالح الناس، إذا كان للوقت نصيب كبير في قضائها والقيام بها، ومن لم يحافظ عليه وضيعه، فإنها ستضيع –ولا بد– بذلك مصالح القوم.

ب– سنة الشورى: يقول صاحب العقد الفريد إن من فضل الشورى أنها "تكشف طباع الرجال؛ فمتى طلبت اختيار رجل لتشاوره في أمر من الأمور؛ فهو يظهر لك رأيه وفكره، وعدله وجوره، وخيره وشره"[1].

فلا يبلغ القائد السياسي الصالح مرتبة الرشد في سياسة الرعية، ولا ينال هذا الشرف، إلا بموافقة الشريعة الغراء، والسير على سنن الله الواردة بها؛ إذ الرشد يطلق على معان عظيمة جليلة، مثل الاستقامة والهداية وإصابة الحق والصواب[2]، وكل ذلك نقيض الغي والضلال.

والرشيد من أسماء الله، ومعناه مرشد الخلق إلى مصالحهم، وهاديهم ودليلهم عليها، وقيل: الذي تنساق تدابيره إلى غاياتها على سنن السداد[3]، فالقائد الرشيد هو المنساق نحو سنن السداد، المستجيب لأمر الله المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: 159]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: 38]، مقتديا في ذلك بسنة الرسول ﷺ، الذي كان يأتيه خبر السماء، ومع ذلك كان يستشير الصحابة –رضوان الله عليهم–، في أمور الحكم والرعية، "وقد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستن به بعد"[4].

---

[1]– النصيبي أبوسالم، **العقد الفريد للملك السعيد**، ص: 53.

[2]– ينظر، ابن فارس، **مقاييس اللغة**، 318/2؛ وينظر: الأصفهاني، **مفردات القرآن**، كتاب الراء رشد، ص: 213.

[3]– ينظر ابن الأثير، مجد الدين أبوالسعدات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، بيروت، المكتبة العلمية، (د،ط) (1399هـ– 1979م)، 225/2.

[4]– رواه البيهقي، **السنن الكبرى**، كتاب أدب القاضي، باب مشاورة الوالي والقاضي في الأمر، [20329]، 318/20، ورواه ابن حجر،**فتح الباري**، باب قول الله تعالى وأمرهم شورى بينهم وشاورهم في الأمر، 340/13.

فقد عَلِم الحق سبحانه وتعالى أنه ﷺ، في غنى عن رأي الصحابة –رضوان الله عليهم–، ولكن هذا التشريع يخدم الجماعة المسلمة فيما بعد، ليتبعوا هديه ﷺ في التشاور فيما بينهم، وهم أحوج إلى هذا؛ كونهم غير مؤيدين بالوحي؛ لتبقى الشورى سمة هذه الأمة، يقول سيد قطب إن الآيات تصور "خصائص هذه الأمة التي تطبعها وتميزها، ومع أن هذه الآيات مكية؛ نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، فإننا نجد فيها أنه من صفة هذه الجماعة المسلمة (وأمرهم شورى بينهم)...، ما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن يكون نظاما سياسيا للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم عليه أمر الجماعة، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة "[1].

وسيرة النبي ﷺ، كونه قائدا للجماعة المسلمة، حافلة بمواقف الشورى التي تصلح بأن تدرس الآن في الجامعات والأكاديميات العالمية، الخاصة لتخريج القادة السياسيين، ولعل أحسن ما حُدِّث به عن أخذه – عليه الصلاة والسلام–، بآراء أصحابه، قوله لأبي بكر وعمر: «لَوْ أَنَّكُمَا تَتَّفِقَانِ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ مَا عَصَيْتُكُمَا فِي مَشُورَةٍ أَبَدًا»[2]، والمواقف كثيرة، ولكن حاجة الدراسة وخصوصيتها تلزم بالاختصار.

وقد التزم الصحابة من بعده ﷺ نهجه، واستنوا بسنته في الشورى؛ فما عزموا على أمر، ولا عقدوا حكما من أمور الدولة، إلا بعد أن يتشاوروا عليه، ومن أمثلة ما واجه الصحابةَ تولية أبي بكر الصديق خليفةً لرسول الله ﷺ، وميراث الجدة، وقتال مانعي الزكاة، وجمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وغيرها من الأمور الشرعية، وعلى هذا بين علماء الأمة وفقهاؤها حكم وجوب الشورى بالنسبة للإمام، قال ابن خويز منداد فيما نقل القرطبي عنه: "واجب على الولاة مشاورة العلماء"[3]؛ وهم أهل لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: 43]؛ فمشاورة أهل العلم تعود بالمصلحة والمنفعة لعمارة البلاد؛ لكفاءتهم العلمية، فإن كان منهم خطأ، فقد كانت هذه صفة نادرة وقليلة الوقوع، "وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ، يستشيرون الأمناء من أهل العلم...، قال سفيان: "ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة""[4].

إذن عندما يستشير الحاكم؛ وليُّ أمر المسلمين، العلماءَ الأمناءَ في أمور الحكم والدولة، وشؤون الرعية، فإن باستطاعته الوصول إلى تعيين الكفاءات، التي تخدم مصالح البلاد من كل النواحي؛ فالتنمية

---

[1]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3160/5.

[2]– رواه أحمد، **مسند أحمد**، حديث عبد الرحمن بن غنم الأشعري، [17994]، 517/29، وذكر ابن حجر أن هذا الحديث في فضائل الصحابة لأسد بن موسى، والفسوي، بسند لابأس به؛ ينظر: ابن حجر، **فتح الباري**، 341/13.

[3]– القرطبي، **الجامع للأحكام القرآن**، 250/4.

[4]– نفسه، 251/4.

الاقتصادية ليست بمفردها سببا لتحقيق سعادة المحكومين، وتنعُّمهم بالحياة الطيبة في ظل دولة الإسلام، فهذا منطق الغرب الكافر، الذي يربط سعادة الناس "بتحقيق القدرة المالية المستقلة ،الفاعلة والناتجة عن بضاعة متطورة، وتجارة منافسة، وزراعة ملائمة، ضمن نظام مالي واعد ومتطور"[1].

فالتنمية الاقتصادية منظور وتصور قرآني إسلامي، ومفهوم شامل يحوي تنمية المحبة والمودة بين أفراد الجماعة المسلمة، وتنمية التكافل الاجتماعي بينهم، وتنمية روح المسؤولية، وتنمية الشعور بالآخر وحب الخير له، فموضوع "التنمية في التصور الإسلامي هو الإنسان، بكل مقوماته، بما فيها العنصر المادي والروحي، فالمقصد من التنمية هو: ترقية هذه المقومات الإنسانية، وتحسينها وحمايتها، وهي التي جمعها فقهاء الإسلام في الضروريات الخمس (الدين والنفس والعقل والنسل والمال)، إلا أن هناك حياة أخرى، فلا بد للإنسان أن ينبط ينضبط في عمله الدنيوي بما لا يتعارض مع حياته الأخروية"[2]. وعلى هذا الأساس يتم اختيار الكفاءات المسيرة، التي تدير مصالح الدولة.

ثالثا: سنة طاعة القيادة السياسية الرشيدة

ولما كانت القيادة السياسية الرشيدة من الأسباب السننية لتحصيل الحياة الطيبة للرعية، وسبب لسعادة المحكومين في دار الحياة الدنيا، كان لازما عليهم الطاعة لولي أمرهم وعليه وجب ذكر سنة أخرى ضرورية ولها ارتباط وثيق ومنطقي بالقائد السياسي الرشيد، والحاكم العادل الذي أقام حكم وساسة الرعية على تشريعات المصدرين الكتاب والسنة، وهي:

1– طاعة القائد السياسي الرشيد: طاعة ولي الأمر واجبة بنص الوحيين القرآن الكريم والسنة النبوية، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[النساء: 59]؛ ولاشك أن طاعة الحاكم لها من المنافع المادية والمعنوية التي تعود على الرعية بالخير وإلا لما قرنها المولى سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله الكريم ﷺ فمحال أن يأمر الله بطاعة الحاكم وهو يعلم سبحانه أن الطاعة تجني على الأمة الخراب والدمار، والشر والفساد، وقد بين صاحب تفسير الميزان هذا الأمر بقوله: "أما الوجه الأول فلأنه غفل عن أن القرآن مملوء من النهي عن طاعة الظالمين والمسرفين والكافرين، ومن المحال أن يأمر الله مع ذلك بطاعتهم ثم يزيد على ذلك فيقرن طاعتهم بطاعة نفسه ورسوله"[3].

---

[1]– حميد الصغير، **المقاصد الشرعية لحماية المستهلك في الفقه الإسلامي**، ص:32.

[2]– نفسه، ص:117.

[3]– الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، 5/ 399.

فطاعة ولي الأمر شروطها واضحة من خلال الآية الكريمة، فهو الذي ارتبط قيام حكمه بأصول التشريع سالفة الذكر والتي لولاها لما كانت قيادة رشيدة أصلا، لكل من شروط القيادة الرشيدة الحكم بشرع الله ولأننا لن نخوض في بيان شروط الحاكم الذي يطاع، وطاعته اقترنت بطاعة الله والرسول ﷺ، ولا داعي لذكرها في ثنايا هذا البحث، لأن المراد بيان أثر طاعة ولاة الأمور والحكام على واقع وحياة الجماعة المسلمة، لتحيا حياة طيبة وهي ثمار أزيد قطافها لبيان نفعها وصلاحها وخيرها، ولهذا نجد النصوص الشرعية كثيرة تحث على وجوب طاعة القائد الرشيد، فقد أمر الرسول الكريم ﷺ كذلك بطاعة ولاة الأمور فقال: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»[1].

يقول صاحب التحرير والتنوير "لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْأُمَّةَ بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ عَقَّبَ ذَلِكَ بِخِطَابِهِمْ بِالْأَمْرِ بِطَاعَةِ الْحُكَّامِ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ لِأَنَّ الطَّاعَةَ لَهُمْ هِيَ مَظْهَرُ نُفُوذِ الْعَدْلِ الَّذِي يَحْكُمُ بِهِ حُكَّامُهُمْ"[2]؛ العدل والطاعة من قيم القرآن الكريم،وتصنفها يدخل في خانة القيم السياسية،التي ذكرها الله كثيرا في كتابه،باعتبارهما محور الحكم وأساسه، وهما متلازمتان متكاملتان، لايتصور الفصل بينهما؛ فالأولى منها وهي العدل أمر بها الحكام، وأغلظ العذاب على المفرط فيها الظالم للرعية،والثانية هي الطاعة أمر بها الرعية وأوجبها عليهم، حفظا للنظام والأمن في البلاد، ودفعا لمفاسد الفتن والفوضى.

2– آثار طاعة القيادة السياسية على واقع حياة الجماعة المسلمة: من المعلوم أن طاعة الحاكم والخضوع لأوامره، تخلف آثارا جليلة على الرعية في الدارين، نحاول ذكر أهمها:

أ– الأثار الدنيوية:

– تحقيق المصلحة العامة "وبذلك تتحقق المصلحة العامة، من وراء ارتباط... المسلمين جميعًا بأولي الأمر"[3].

– إشفاق الحاكم على الرعية، وزرع بذور الثقة بينهما، مما يجعل القائد يسعى جاهدا لتحقيق مصالحهم ومنافعهم.

– حاجة الأمة الماسة لحاكم تلتف حوله، وتقاتل تحت رايته، حتى أن اليهود مع تكذيبهم للرسل، وقتلهم الأنبياء طلبوا ملك يقاتلوا تحت لوائه؛ قال تعالى ﴿ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة: 246].

– تماسك المجتمع وتلاحم بين الحاكم والمحكومين.

---

[1]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، [7142]، 9/ 62.

[2]– ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 5/ 96.

[3]– مجمع البحوث، **التفسير الوسيط**، 2/ 837.

– الفوز بالحياة الطيبة حياة السعادة الدنيوية.

– تحقق النظام والأمن والاستقرار والقضاء على الفوضى، نهوض للأمة، وارتقاء واقع المجتمع المسلم.

– الحاكم هو من يحفظ ضروريات الأمة في دينها حتى لا يغير ودم أبنائها حتى لا يزهق، وعرض نسائها حتى لا ينتهك، وثرواتها حتى لا تنزف وتسرق، ويصون سيادتها و يحفظ كرامتها.

– حماية وحدة الأمة من التشتت وتصدع لحمة الصف.

– الدفاع عن الرعية من كيد الأعداء، وردع أهل الشر والمجرمين الطغاة.

– تحقق التنمية والنهضة المنشودة.

– إشفاق الحاكم على الرعية، وزرع بذور الثقة بينهما، مما يجعل القائد يسعى جاهدا لتحقيق مصالحهم ومنافعهم.

ب– الأثار اللآخروية: الآخرة المرضية، والتي من أسبابها طاعة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»[1]. الفوز بالنعيم الأبدي ودخول الجنة التي وعدها رسول الله ﷺ لمن اتبع سنن الأمر والنهي المتمثلة في قوله ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»[2].

وبهذا نلخص إلى أن الإسلام دين التحضر فقد سبق الهيئات الدولية والمنظمات العالمية في إرساء قواعد وأسس الحكومة المدنية فهذه سنة من سنن الله العادلة التي تقضي بطاعة الحاكم المسلم حتى يستتب الأمن والاستقرار السياسي الذي يعطي ثمارا طيبة تتجلى في نشر روح المحبة والأخوة.

نخلص إلى أن تحقق الحياة الطيبة المنشودة لا يتوقف عند اختيار القائد الرشيد فقط؛ بل تلزم للقائد والمقود صفات وتصرفات حتى تتكامل الجهود، وتؤتي ثمارها طيبة، فيلزم من القائد العدل حتى يحقق وظيفته، ومن الرعية الطاعة حتى يتم له ولها ما يريدان.

وبتحقيق هذه السنة الإلهية المتمثلة في طاعة الحكام وولاة الأمور مع توفر شروط الطاعة سالف الذكر من إقامة شرع الله، وتطبيق مبدأ المساواة، وسنة العدل، وسنة الشورى يستطيع حملة أمانة سياسية أمور الخلق أن يظفروا ببعض أسباب ووسائل الحياة الطيبة التي وعدها الله لعباده المؤمنين وفق سنة الله التي لا تبديل ولا تحويل لها.

---

[1]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب من يقاتل من وراء الإمام ويتقي به، [2957]، 4/ 50، وأخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، [1835]، 3/ 1466.

[2] – أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، أبواب السفر، باب من يذكر في فضل الصلاة، [616]، 2/ 516.

المبحث الثالث:

السنن الشروط للحياة الطيبة

من ما تم عرضه في المبحث السابق يُمكن التوصل إلى جميع السنن التي ذُكِرت في الدراسة؛ الفطرية منها والمكتسبة محققة للحياة الطيبة؛ مجتمعةً؛ أو متفرقة، وهذا التحقق رهين بمعادن البشر وطبائعهم، فإذا علمنا أن النفس البشرية بأبعادها المختلفة والمتنوعة لا تتحقَّق لها السعادةُ لتحيا في ظلال حياة طيبة إلا بازدواج وسائل إشباعها، وتلبية رغباتها؛ فلا تتحقق بتوفر الحاجات المادية وحدها مهما غالى الإنسان في ميله وتوجهه المادي البحت، وحرص كل الحرص على تلبية مطالب نفسه الحسية، ضاربا عرض الحائط شق تكوينه الروحي، ذلك أن "المادة وحدها غير قادرة على ضمان تدبير حياة الإنسان، وبث الطمأنينة في أعماقه، وهي عاجزة عن ضمان التأسيس أو الحفاظ على أي قيم أخلاقية في حياته"[1].

فلا يتصور ولا يعقل أن تُقصر الحياة الطيبة على التمتع بزينة الحياة وزخرفها، أو الإكثار من عرض الدنيا باكتناز الذهب والفضة وبناء وتشيد المنازل والقصور وكثرة الأموال والذرية، رغم أنها أساس من الأساسات التي بنى وأرسى، عليه القرآن الكريم مفهوم الحياة الطيبة، هذا المفهوم القرآني البحت الذي غايته توفير كل أسباب السعادة للفرد والجماعة المسلمة بعيداً عن الغموم والهموم والأكدار الجالبة للمعيشة الضنك.

ولهذا حاولت في هذا المبحث بيان شروط تحقيق الحياة الطيبة التي لا ينفصل فيها الدين عن الدنيا، ولا الدنيا على الآخرة، ولا ينفصل فيها الجانب الروحي الوجداني عن الجانب الحسي الجسماني، الحياة الطيبة التي هي جزاء مقابل عمل، تخضع لسنن الله العادلة، والتي تحكمها سنن المعية الربانية، والتي تبنتها الدراسة وجعلتها الشرط الأساس والأول والأخير للفوز بطيب الحياة بمفهومها القرآني الخالص.

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: سنن المعية الربانية

المطلب الثاني: سنن الولاية

---

[1]– محمد الكتاني، **من المنظور الإسلامي**، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط 1(1410هـ– 1989م)، ص: 21.

المطلب الأول: سنن المعية الربانية

إذا أراد الإنسان البحث عن السعادة، التي يلهث وراءها كل كادح، وحارث على وجه الأرض، ينشد الحياة الطيبة فيجري لتحصيل أسبابها جري الوحوش فيكد و يشقى من أجل شيء من المال، أو الجاه يظن أن سعادته، وغبطته فيه، فإذا حصل عليه لم يجد سروره فيه، بل قد يكون المال نقمة على صاحبه، فيزداد تعاسة وشقاء، لأنه خالف السنن الإلهية، وسلك غير السبيل الموصل لها، فكثير من الناس يخطىء طريق السعادة،وفي هذا الفرع أردت بيان أن معية الله للعبد أجود وأقصر، وأضمن الطرق المؤدية للحياة الطيبة .

الفرع الأول: مفهوم المعية

جاء في كتاب المفردات للراغب الأصفهاني تقتضي الاجتماع إما في المكان: نحو معا في الدار، أو في الزمان، نحو ولدا معا، والمعية تقتضي النصرة ومن كان الله معه فهو منصور[1].

والمعية في اصطلاح العلماء نوعان: **العامة:** هي الشاملة لجميع الخلق كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ﴾[الحديد: 4]، ومقتضى المعية هنا الإحاطة بالخلق علماً وقدرةً وسلطانا وتدبيراً، **والخاصة:** وهي التي تقصدها الدراسة، لتبين بعض سننها، والتي تختص بالرسل وأتباعهم كقوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: 40]، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: 128]، وهذه المعية تقتضي مع الإحاطة النصر والتأييد.

وعليه تبنت الدراسة تعريفا للسنن المعية يكون كالتالي: **حقائق الله المطلقة التي أخضع لها البشر جميعهم المؤمن والكافر، في الخلق والقدرة بإيجادهم من العدم، وإحاطته بكل أحوالهم وتدبير وتصريف شؤونهم،بما ينفعهم في الدارين بتسخير كونه وتشريع دينه لحفظ مصالحهم ودفع المضار عنهم.**

وهذا التعريف يخص النوع الأول وهو المعية العامة، أما المعية الخاصة المحققة سننها للحياة الطيبة، فهو كالتالي:

تعريف سنن المعية الربانية الخاصة: هي أفعال الله التي خصّ بها فئة من عباده المخلصين الذين أيدهم بزيادة فضل ورعاية ومدهم بعونه ونصره نتيجة لحسن توكلهم عليه مع استفراغهم الجهد في الإتيان بالأسباب وتفويضهم الأمر كله إليه.

---

[1]– ينظر: الراغب الأصفهاني، **المفردات**، 1/ 771.

وعليه فإن حصول العون الإلهي، والفوز بمعية الرحمان لا يكون بالتمنى والرجاء، دون السعي مع تعطيل الأسباب الدنيوية بل هو مرهون بشروط، "فتحقق حصول العون والتوفيق الرباني مرتبط بشروط"[1].

وهذه الشروط هي الأخذ بسنن المعية الربانية وتدخل هذه السنن ضمن منظومة سنن التأييد التي تمثل دائرة الاستعانة وطلب النصرة والتوفيق بتيسير الأمور، والتمكين للعبد بمباركة جهده، ولا يتم ذلك محاباة، بل هي سنن الله العادلة، التي لا تحابي أحداً فالتوفيق والنصرة ومعية الله جاءت نتيجة مقدمات وأعمال قلوب أو جوارح، قلوب أيقنت، واستسلمت، وخضعت لخالقها، وموجدها، وجوارح أطاعت ونفذت في انكسار وعبودية تامة سنن الهداية، ففعلّتها واستثمرتها في الخير والإصلاح ليقوم بواجب الخلافة في الأرض على أكمل وجه ليستحق العبد بعد ذلك وعد الرحمن بالاستخلاف والتمكين، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[النور: 55]؛ ومن ضمن هذه السنن المحققة لطيب الحياة:

الفرع الثاني: سنة الإخلاص

الإخلاص هو الإسلام[2]، الإخلاص هو إفراد الحق بالطاعة[3]، صدق من عرف الإخلاص بالإسلام أو الإسلام بالإخلاص، فلا يصح إسلام العبد بدون إخلاص وإلا وقع في شرك الرياء؛ والإخلاص من أعمال القلب المقرون بالنية وقد تقرر عن النبي ﷺ أن أوثق عرى الإيمان الإخلاص، "مَنْ أَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ، وَأَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَنْكَحَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ... فَصَرَّحَ بِأَنَّ هَذِهِ الْخِصَالَ كُلَّهَا إِيمَانٌ، وَأَبَانَ أَنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ الْإِخْلَاصُ"[4].

فنعمة الإيمان أعظم النعم على المؤمنين لا تضاهيها نعمة ،وزادها الإخلاص في العمل، مع التواضع والطاعة والخضوع لسنن الله بأنواعها الكونية والاجتماعية وسنن الهداية، فبمجراتها ،والأخذ بهذه السنن الثلاثة مجتمعة يحظى المسلم التقي بمنحة التأييد والمعية الربانية،بكل أنواعها كما يقول الطيب برغوث "ما يمنحه الله تعالى من عون وتأييد مباشر وغير مباشر"[5].

---

[1]- عزيز البطيوي، **سنن العمران البشري في السيرة النبوية**، ص: 269.

[2]- الماتريدي محمد بن محمود أبو منصور، **التوحيد**، الإسكندرية، دار الجامعات المصرية، (د،ط،ت)، 395/1.

[3]- ابن تيمية، **الإيمان الأوسط**، 1/ 582.

[4]- الترميذي، [2521]، 670/4، وأحمد، من حديث معاذ بن أنس الجهني، [15617]، 383/24.

[5]- الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والقافية السننية**، ص: 167.

وهنا يظهر إخلاص العبد، فبوعيه بمنظومات السنن الثلاثة، والعمل بموجبها، وتفعيلها إيجابيا وسط جماعته، أو أمته، فيحاول البناء والتعمير، والصلح والإصلاح، فيستثمر ما سُخر، وانكشف له من أسرار الكون وكنوزه، في العودة بالأمة إلى مكانتها الريادية، لاسترجاع مجدها الضائع، واستنقاذ أبناءها من وحل واقعهم المخزي، وذل ضعفهم وهوانهم على الناس.

فالوعي السنني مظهر لإخلاص العبد وصدق إيمانه ما يوجب التأييد والتمكين والنصر والإمداد بالعون الرباني، فكل من عطل آليات النظر والتفكر والتدبر، والسير والاعتبار بعواقب الأمم والجماعات البائدة، فغفل بذلك عن إدراك سنن الله في النهوض أو السقوط، لم يثمر إيمانه إخلاصا، ولم يحقق وظيفته الاستخلافية التي كلف بها، ولم يؤد حق أمانة الرسالة التي تحملها.

فالإخلاص إيمان، يصاحبه وعي يصدقه عمل وإصلاح يثمر إنجاز وتعمير ونهيا عن الإفساد والتدمير، واستكمالا لمهمة أصفياء الرحمن المبعوثين لهداية الناس وإصلاحهم، فتجربة الأنبياء عبر التاريخ تجسد الوعي السنني فكل من "يدرس بعمق الحركة الرسالية للأنبياء عبر التاريخ، يجدها كلها محاولة منهجية متناسقة وممتدة، لتأسيس وعي الإنسان بدورته الوجودية من جهة، وبناء وعيه بميزانية التسخير التي وضعت بين يديه لإنجاز مهمته الاستخلافية في الأرض من جهة أخرى، والتي امتدت لتستوعب قطاع آيات الآفاق، وقطاع آيات الأنفس وقطاع سنن الهداية، وقطاع سنن التأييد التي لا يغني أي منها عن الآخر بأي حال من الأحوال، ولا يستقل بتحقيق الأصالة والفعالية والاطرادية في الدورة الانجازية للفعل أو الموقف الاستخلافي البشري"[1].

فالإخلاص إحسان كله حيث فسر الإحسان بالإخلاص[2]، الإحسان مطلوب في كل شيء، ومن نال مرتبة الإحسان فاز بالقرب من الرحمن، وذاق أنس المعية الربانية، وحتى نربط بين سنن العية الربانية، وسنة الإخلاص ونبين وثاقة حلة الإحسان بالإخلاص، وكيف أن الإخلاص والإحسان من سنن الله المحققة للحياة الطيبة التي تضمن السعادة فمن يعيش في ظلالها، ولا حياة طيبة بدون علم والإحسان في العلم مطلوب يقول ابن تيمية: "فمن الإحسان أن يحسن الطالب ظنه بمن يتعلم منه العلم أو يسمع عليه الحديث، لينال بذلك بركة العلم"[3].

---

[1]– الطيب برغوث، **سنن الصيرورة الاستخلافية**، ص 46.

[2]– رواه البيهقي، **شعب الإيمان**، 1/ 114.

[3]– ابن تيمية، **شرح حديث جبريل عليه السلام في الإسلام والإيمان والإحسان المعروف باسم كتاب الإيمان الأوسط**، تح: علي بن بخيت الزهراني، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي، (د،ط) (1423هـ)، 225/1.

يشير شيخ الإسلام إلى البركة في العلم، بفضل الإخلاص فيه، والإحسان إلى المعلم، وهذه كلها أسباب محصلة للبركة الجالبة للخير، وكذلك العلم من أعظم الأسباب السننية لطيب الحياة، فهو حياة للقلوب، ونور للعقول.

فَفُزْ بِعِلْمٍ وَلاَ تَطْلُبْ بِهِ بَدَلاً ..... فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ[1].

فالعلم حياة، وأفضل حياة ما وصفها القرآن بالطيبة، والعلم من أسباب الحياة الطيبة، وإن خالطه الإحسان، بانت بركاته، وعم نفعه، والإخلاص فيه، سر الفوز بالقربة والمعية الربانية.

يرتب شيخ الإسلام الإخلاص أول الأمور التي يتحقق بها الإحسان في العلم "ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ بهذا العلم، والإخلاص فيه، وطلب مرضاته به، فإن أول من تسعر به النار يوم القيامة رجل تعلم حتى يقال عنه: عالم، وقد قيل، كما جاء في الحديث الصحيح"[2].

ولأن لا خير في علم بلا عمل، كان من بين أهم أسباب الظفر بالحياة الطيبة سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات العمل بمقتضى العلم، ومن العمل بما علم الإنسان وعدم كتمه ضرورة العمل بسنن الله الجارية في خالقه وكونه، الحاكمة لحركة التاريخ، والمجتمعات البشرية، ويكمن هنا العمل بحسن استثمارها لحسن تسخيرها، فمر أراد تحقيق شروط الحياة الطيبة، والفوز بمعية الله، فعليه الجمع بين الوعي السنني، والإنجاز الفعال بالعمل والإخلاص فيه ليحقق الاستخلاف الحق والتمكين بمقتضى القانون الرباني المتمثل في سنن المعية ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾[المائدة: 12]، فمعية الله آمان للخائف ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: 40]، ونصر للضعيف ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: 249]، وتأييد وتمكين للمتقين الذين أخلصوا وأحسنوا في أعمالهم الظاهرة والباطنة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: 128].

تقرر الآية الكريمة سنة المعية، التي تؤكد عدل سنن الله المطلق، فكل ما قدم التقوى سبب نال التأييد والنصر والمعونة والهداية نتيجة حتمية وجزاء حق من رب كريم "أَنَّ الْمَعِيَّةَ لِجَمَاعَةِ الْمُتَّقِينَ الْمُجْتَنِبِينَ لِمَا يَجِبُ تَرْكُهُ وَالْمُحْسِنِينَ لِمَا يَجِبُ فِعْلُهُ، فَهِيَ مُعَلَّلَةٌ بِوَصْفٍ مُشْتَقٍّ هُوَ مُقْتَضَى سُنَّةِ اللهِ فِي عَالَمِ الْأَسْبَابِ لِكُلِّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ"[3].

يفرق صاحب التفسير السنني في حديثه عن سنن المعية الربانية بين معية الله للمتقين التي كان شرطها وجوب تقديم التقوى سبب أساس في حصول التأييد والعون والنصر، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا

---

[1]–علي بن أبي طالب، ديوان علي بن أبي طالب،ت تح: عبد الرحمان المصطاوي،بيروت،دار المعرفة،ط3(1426هـ)،ص:13.

[2] – ابن تيمية، **كتاب الإيمان الأوسط**، 1/ 227.

[3] – رشيد رضا، **تفسير المنار**، 10/ 369.

وَّالذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: 128]، وبين معية خاصة غير مرتبطة بقانون الأسباب والمسببات ﴿ لَا تَحْزَنِ اِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾فهي معية غير خاضعة لناموس السنن "وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ هُنَا فَهِيَ لِذَاتِ الرَّسُولِ وَذَاتِ صَاحِبِهِ غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ بِوَصْفٍ هُوَ عَمَلٌ لَهَا بَلْ هِيَ خَاصَّةٌ بِرَسُولِهِ وَصَاحِبِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ صَاحِبُهُ، مَكْفُولَةٌ بِالتَّأْيِيدِ... إِذْ لَيْسَ الْمَقَامُ بِمَقَامِ سُنَنِ اللهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ"[1].

وهذه المعية من أعظم مظاهر العناية الربانية، ومقامات القرب، ومن فاز بهذا المقام ذاق حلاوة القرب ورضى بعد ذلك بكل ما ياتي من عند المنعم، من سنن الابتلاء والتداول، مفعلا سنة القناعة والصبر، فيواجه الحياة بشدائدها ورخائها بصدر رحب غَمَرَهُ الإيمان، وغَمَرَهُ الإخلاص، وصدقه العمل، فلا يحزن ولا يخاف والله معه "عندما يعجز عن مواجهة التحديات التي تفرزها في وجهه حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، بالمتاح والمقدور له من إمكانات سنن الآفاق والأنفس والهداية، فيمده سبحانه وتعالى بإمكانات تسخيرية إضافية من منظومة سنن التأييد التي لا حدود لفعاليتها التسخيرية"[2].

هذا الإمداد الرباني بسنن التوفيق والتأييد، لم يأت عبثا بل جاء نظير تقديم الإيمان الحق والإخلاص المصاحب للطاعة والخضوع، مع حسن التوكل وتفويض الأمر، ومن كان هذا حاله، كان كثير الدعاء والتضرع لله في كل الأوقات عند السراء شاكرا وحامدا، وعند الضراء صابرا مبتهلا، قال ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[3].

ومن أمر المؤمن العجيب، ذو السر العظيم، في اطمئنان قلبه، وسكينة وراحة باله، وكثرة توفيقه في حياته، مما حصل له طيب الحياة وعاش السعادة التي يفتقدها معظم الناس ممن تنكبوا سنن السعادة والحياة الطيبة، أمر الدعاء والتضرع إلى الله قبل وبعد الخوض في كل شأن من شؤون حياته، وعليه تكون سنة الدعاء، هي السنة الثابتة من سنن المعية الربانية.

---

[1] – رشيد رضا، **تفسير المنار**، 369/10 .

[2]– الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافية والسننية**، ص:37.

[3] – أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، [2999]، 4/ 2295.

الفرع الثالث: سنة الدعاء

الدعاء: الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير والابتهال إليه بالسؤال؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[الأعراف: 55].

إن سنة الدعاء من سنن الله الحاكمة والجارية في خلقه مثلها مثل بقية السنن، فالدعاء المشروع بالالتزام بشروطه وآدابه وأوقاته، لا ينافي القبول وفق ما أجرى الله تعالى عليه سننه، فكما أن حصول الشبع مرتبط بتقديم سبب الأكل فكذلك حصول ما قدر الله مرتبط بأسباب ومن أعظمها سنة الدعاء. "الدعاء من سنة الله"[1]، وهو مخ العبادة.

الدعاء سنة وعبادة، حين يقترن بالعمل حيث جعل الله لكل أمر من أمور الحياة قانوناً وسنة تحكمه، فالنصر محكوم بأسبابه ،والتمكين؛ له سننه التي إذا فعِلت تحقق المبتغى، وعليه فالدعاء من سنن الله فلا يصح الدعاء بالرزق وتكثيره والإنسان لا يسعى ولا يكدح لذلك، كما لا يصح الدعاء بالذرية الصالحة وعدم الإقدام على الزواج، وأطلق عليه ابن القيم مصطلح الاعتداء بالدعاء ويكون "بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، أو تخليده إلى يوم القيامة.... أو يسأله أن يطلعه على الغيب، أو أن يهب له ولدا من غير زوجة"[2]، وهذا ما يؤكد على سننية الدعاء فهو سبب لرد البلاء وتحقيق التوفيق والنجاح إن قدم العبد أسباب الاستجابة مع تمام التوكل على الله.

ولكن هل يتفرغ العبد للدعاء ويعتمد كل الاعتماد على صلته القوية بربه، وقربه وتحرى ساعات الاستجابة مع تقديم الطاعات، والتسابق إلى فعل الخيرات، دون العمل أو بذل الجهد لتحقيق مبتغاه كالنصر في المعارك، أو النجاح والتوفيق في الدراسة مثلا؛ هذا ما ستجيب عنه الدراسة في عنصر سننية الدعاء.

أولا: سننية الدعاء

"وَحَقِيقَةُ الدُّعَاءِ اسْتِدْعَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْعِنَايَةَ وَاسْتِمْدَادُهُ إِيَّاهُ الْمَعُونَةَ"[3]، وطلب العناية والاستمداد هذا يجب أن يكون مسبوقا بعمل بذل فيه الجهد من العبد، حتى يحقق سنن الله الجارية في خلقه، الحاكمة لهم، وإلا فقد تنكبها، وصادمها، حيث لا يسأل المعونة والنصر من لم يحرك ساكنا نحو تحقيق هدفه كمن يسأل النجاح في الامتحان، وهو غائب عنه.

---

[1]- حسن عياد، **منتهى البيان في قضايا القرآن**، لندن، شركة بريطانية، ط 1(2015م)،ص: 154.

[2]- ابن القيم، **بدائع الفوائد**، تح: علي بن محمد العمران، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ط 1(1425هـ)، 854/3.

[3]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 5/ 262.

الدعاء في اللغة الطلب والابتهال، يقال: دعوت الله أدعوه دعاء: ابتهلت بالسؤال، ورغبت فيها عنده من الخير[1]، ودعاء الله طلب منه الخير[2]، والدعاء: سؤال العبد ربه على وجه الابتهال، وقد يطلق على التقديس، والتحميد ونحوهما[3]. يقول صاحب كتاب منتهى البيان في قضايا القرآن "هل جلس الرسول ﷺ في المدينة داعيا على كفار قريش دون أن يحاربهم في بدر؟ هل انتصر محمد ﷺ بالدعاء؟"[4].

وهل يجلس المريض يدعو، ويتضرع إلى الله دونما تقديم أسباب الشفاء باتخاذ سنن العلاج والتداوي، وهذا يخالف قانون وناموس السنن القائمة على مبدأ السببية وهذا ما وقع فيه المسلمون اليوم، من تواكل فالأمة بأسرها تدعو لفلسطين سواء من صعيد عرفات، أو من كل بقاع الأرض المسلمة مع دعاء الختم في ليالي رمضان المباركة.

فهل من استجابة؟ والجواب بسيط، الغفلة والعزوف عن مجاراة سنن الله والأخذ بسنة الدعاء ومعرفة أسباب الاستجابة "ويجب معرفة سنة النجاح ومعرفة سنة النصر وسنة الربح وإذا ما اقترن ذلك كله بالدعاء فإن الله سيلهم الداعي إلى الطريق الأمثل لمعرفة سنن هذه الأمور فيعمل ويصل إلى ما يريد، فهو بدعائه يكون قد عبد الله لأن الدعاء مخ العبادة"[5].

وبناء على هذا واجب على المؤمن أن يعرف الأسباب ويعمل وفقها بتفعيل سنن الله في الدعاء واستثمارها لتحقيق النصر والنجاح فيحقق بذلك غايته الدنيوية المبتغاة بالدعاء، وينال ثواب العبادة والتضرع والانكسار بين يدي الله ذلك أن دعاء الله أعظم عبادة، هذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾[الأعراف: 55-56].

يقول ابن قيم الجوزية: "هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان فإن دعاء

---

[1]– مجمع اللغة، **المعجم الوسيط**، 1/ 268.

[2]– الفيومي، **المصباح المنير**، 1/ 194.

[3]– سعدي أبو حبيب، **القاموس الفقهي**، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط 2 (1408 هـ – 1988م)، 1/ 131.

[4]– حسن عياد، **منتهى البيان في قضايا القرآن**، ص: 153.

[5]– نفسه، ص: 155.

المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر"[1].

فعندما يُفَعِلُ العبدُ سنة الإخلاص، ويستثمرها في التأدب مع الله بالدعاء المقترن بالعمل وهذه هي سننية الدعاء المحقق للاستجابة التي يخص بها سبحانه وتعالى عباده بمقتضى سنن المعية، فمعية الله هنا تظهر في حسن توفيقه، ونصره لعبده وتحقيق ما سأله العبد أياه، فحينما تفعل سنة الدعاء، يسهل المولى تعالى لعبده الحاجة التي أرادها، ويثمر هذا من خلال مباركة الله لما سأله ومتى تم له هذا تحققت له السعادة وطيب الحياة ومن قال بأن تحقق الدعاء بنوال الاستجابة "لا يجلب منفعة ولا يدفع به مضرة وإنما هو عبادة محضة... فهو غلط"[2].

فاستجابة الدعاء من أعظم أسباب سعادة الإنسان وانشراح صدره، وحصول الأمن النفسي له فالإنسان بطبعه وفطرته، إذا دعى الله، وسأله أمرًا من أمور الدنيا المشروعة، وجاءت الاستجابة، شعر برضا الله، وازداد حبا، وقربا وصلة بخالقه، مما يقوي إيمانه، فيضاعفه الطاعات والعبادات ويسابق نحو الخيرات.

"أَنَّ الدَّاعِيَ لَا بُدَّ وَأَنْ يَجِدَ مِنْ دُعَائِهِ عِوَضًا، إِمَّا إِسْعَافًا بِطَلَبَتِهِ الَّتِي لِأَجْلِهَا دَعَا وَذَلِكَ إِذَا وَافَقَ الْقَضَاءَ، فَإِذَا لَمْ يُسَاعِدْهُ الْقَضَاءُ فَإِنَّهُ يُعْطَى سَكِينَةً فِي نَفْسِهِ، وَانْشِرَاحًا فِي صَدْرِهِ، وَصَبْرًا يَسْهُلُ مَعَهُ احْتِمَالُ الْبَلَاءِ الْحَاضِرِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَا يَعْدَمُ فَائِدَةً، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الِاسْتِجَابَةِ"[3].

من كلام الرازي نخلص إلى أن سنة الدعاء من السنن الجالبة للسعادة، المحققة للحياة الطيبة التي يسعى إليها المؤمن، ونفعها محقق سواء واقف السؤال، ونال العطاء المطلوب، أو لم يعطى، سُأله، فسنة المعية تظهر في هذه الحالة، أي عند عدم الاستجابة النفسي، المصاحب للصبر، لمعاودة الدعاء والإلحاح، مع الإصرار على الطلب، بالسعي وراء البحث عن أسباب أخرى، ربما إذا حققها، جاءت الاستجابة، فازداد يقينا في عطاء ربه، وإيمانا وتصديقا في وعده الذي أعطاه لعباده مصدقا لقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: 60]، وهذا منتهى التذّلل لله، وعدم الاستكبار عن عبادة الدعاء، وعدم اليأس والقنوط من عطاء الله ورحمته

---

[1] – ابن قيم، **بدائع الفوائد**، 3/ 835.

[2]– ابن تيمية، **أمراض القلب وشفاؤها**، القاهرة، المطبعة السلفية، ط 2(1399هـ)، 45/1.

[3] – الرازي، **مفاتيح الغيب**، 5/ 265.

فهو لا يخلف الميعاد سبحانه وتعالى "مَنْ أَحْسَنَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا نَالَ حُسْنَ النَّجَاحِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّعَاءِ اسْتُجِيبَ لَهُ، أَوْ أُعْطِيَ خَيْرًا مِمَّا طَلَبَهُ"[1].

فسنة الله في الدعاء قائمة على تحقق الأسباب، والتي على رأسها حسن العمل، والسعي وراء تحقيق المراد، كما هي قائمة على جملة من الآداب والتي نذكر بعضها:

ثانيا: آداب سنة الدعاء

لما كان من الواجب على العبد المؤمن من التأدب مع الله بإخلاص العبادة له، حق الإخلاص، والإيمان بكل ما أخبر به سبحانه وتعالى في كتابه العظيم الذي أنزله على حبيبه محمد ﷺ، وحسن الخلق معه سبحانه وتعالى بتطبيق أوامره، واجتناب نواهيه، والرضا بقضائه وقدره، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب: 36].

ومن أعظم مظاهر التأدب مع الله التوجه إليه سبحانه وتعالى بالدعاء، الذي حثنا عليه في آيات كثيرة من كتابه العزيز، ولأن هذا الدعاء سبب من أسباب حصول طيب الحياة للإنسان كان لازما عليه التأدب بآدابه والتي منها:

1- **عدم العجلة بالاستجابة:** جبل الإنسان على حب العجلة في قضاء أموره، كلها ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[الأنبياء: 37]، فالعجلة في طبعه وتكوينه، وإن عجل الله واستجاب له بدعائه فرح، واطمئن، وإن لم تتحقق بسرعة ربما فزع، وأصابه الكدر وانحباس الخاطر، ولو علم ما في عدم الاستجابة من خيره لفرح واطمئن أيضا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[يونس: 11].

فلا ينبغي للعبد أن ييأس إذا دعا ولم تظهر الاستجابة ويقول: دعوت ولم يستجب لي فعلى المسلم الصبر وعدم الاستعجال قال ﷺ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[2].

فالعجلة من الموانع التي تمنع إجابة الدعاء من الموانع التي تمنع إجابة الدعاء أن يستعجل الإنسان المسلم ويترك الدعاء؛ لتأخر الإجابة[3].

---

[1] – رشيد رضا، **تفسير المنار**، 8/ 410.

[2]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، [6340]، 8/ 74.

[3]– زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تح: الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 7(1422هـ – 2001م)، 2/ 403.

فلا ينبغي للعبد أن يقطع رجاءه من إجابة دعائه، وعن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ"، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟، قَالَ يَقُولُ: "قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»[1].

فعلى العبد أن يعلم أنّ تأخّر الإجابة قد تكون خير له، فينقطع عن الدعاء والانقطاع عن الدعاء نوع من الاستكبار عن عبادة الله، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾[الأنبياء: 19].

وقد يصرف عنه بعدم الإجابة من الضر والشر ما هو أفضل بكثير من إعطاء السؤال والطلب، قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا. قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ. قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ»[2].

يقول صاحب كتاب المنهاج في شعب الإيمان: "وليس لأحد من الله حق حاصل عنده، متأخر عنه، فيستعجل به ويضجر من تأخره، فلا عتب ولا اعتراض عليه ولأن الدعاء عبادة واستكانة والضجر والاستعجال به إقصاء بهما فدل ذلك على أنهما من الحوائل بينهما وبين الإجابة كما يرجى أن يكون خلافهما من مقربات الإجابة"[3].

وقد يكون تأخير الإجابة من الله في الدنيا إدّخار للعبد إياها يوم القيامة، وتأجيل لها إلى يوم لا ينفع مل ولا بنين، وهذا أعظم العطاء، وخير من إجابة الدعوة في العاجل، فصاحب هذه الدعوة في الآخرة هو أحوج إليها منه إلى الدنيا، فلا تكون سبب لدخوله إلى الجنة بتكفير ذنب، أو تطهيره من معصية ستكون سببا لخلوده في النار، فالدعاء كله خير ونفع ومصلحة سواء في الدنيا، أو الآخرة، فإنه دافع للهلاك،وهو بشرى للمؤمن بأن الدعاء زادهه وسلاحه في الدارين؛ والدعاء نجاة، ورزق، وسبب الخيرات فقد كان الرسول ﷺ ينصح الجماعة المسلمة بالدعاء، ويعلمهم اليقين في الإستجابة.

فالله يستحي جلّ جلاله أن يردّ السائل خائبا، وقد رفع يداه إلى السماء «إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[4].

---

[1]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، فيقول: دعوت فلم يستجب لي، [2735]، 4/ 2096.

[2]– رواه أحمد، **مسند أحمد**، مسند أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، [11133]، 214/17 .

[3]– الحليمي أبو عبد الله، **المنهاج في شعب الإيمان**، 530/1.

[4]– رواه الترمذي، **سنن الترمذي**، [3556]، 536/5، قال: هذا حديث حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه .

ومن كرم المولى سبحانه وتعالى أن لا يردّ عبده السائل، وهو من أمر إلى دعائه، وأقرّ وأثبت الإجابة منه لعبده "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ"، فكيف لا تكون الإجابة لمن سأله وعنده اليقين وأحسن الأدب مع الله بأن استفرغ الجهد، وجاء بالأسباب، وأتمّ الأدب وحمد الله كثيرا وأثنى عليه ودعاه في الشدة والرخاء. قال ﷺ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»[1]؛ فبشرى لمن استيقظ في ثلث الليل وسأل الله من فضله،واستغفر لذنوبه،ودعى فاستجيب له.

2– الدعاء في الرخاء والشدّة: قال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرَبِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»[2].

على العبد أن يستعين بسنة الدعاء في جميع أحوال حياته سواء في الشدة والكرب كما في الرخاء والسراء، لأن من يعرف الله في الرخاء يعرفه في الشدة، وهذا ما علّمه الرسول ﷺ لابن عباس وهو غلام[3].

فسنة الدعاء، من سنن الله في خلقه التي يجب على الإنسان تفعيلها واستثمار خيراتها ومنافعها في كل الأوقات، دون تخصيصها، حال الشدة والبلاء "ويحتمل أن يكون الدعاء في الرخاء بدل الثناء والشكر والاعتراف بالمنن ومسألة التثبت والتوفيق والمعونة والتأييد والاستغفار لغواهم، والتقصير فإن العبد وإن جهد لم يوف ما عليه من حق الله تعالى بتمامه"[4].

ومعنى كلام الحليمي أن من سنن المعية و التوفيق سنة الدعاء في الرخاء، فهو سبب التوفيق والمعونة الربانية، و التأييد الذي خصّ الله به عباده المتقين، فمن صفة المؤمن المحسن المتقي المؤيد بمعية الله أن يكون دائم الصلة بالله، لسانه رطب بالذكر والدعاء الذي هو أعظم مراتب الذكر، ومُخّ العبادة، حيث أنّ العبادة مواظبة على الطاعات، مع الخضوع ومنتهى الحب للمعبود فهي تحقق للعبد الراحة النفسية، والسكينة والاطمئنان، فهي بذلك تجلب السعادة وتدخل السرور على القلب، فكذلك الدعاء عبادة عظيمة النفع، أن داوم عليه الإنسان، وجعله سبب القرب والراحة والرضى والالتجاء إلى الخالق

---

[1]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب صلاة المسافرين ومواضع الصلاة، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، [758]، 522/1.

[2]– رواه الترمذي، **سنن الترمذي**، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، [3382]، 462/5،

[3]– ينظر: أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المِسْتَفاض الفِرْيابِي، كتاب القدر، تح: عبد الله بن حمد المنصور، السعودية ، أضواء السلف ، ط1 (1418هـ – 1997م)، 130/1 .

[4]– أبو عبد الله الحليمي، **المنهاج في شعب الإيمان**، 531/1.

لجوء محبة وقرب لا لجوء حاجة واضطرار "مَنْ سَرَّهُ أَيْ أَعْجَبَهُ وَفَرِحَ قَلْبُهُ وَجَعَلَهُ مَسْرُورًا أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ جَمْعُ الشَّدِيدَةِ وَهِيَ الْحَادِثَةُ الشَّاقَّةُ وَالْكُرَبِ بِضَمِّ الْكَافِ وَفَتْحِ الرَّاءِ جَمْعُ الْكُرْبَةِ وَهِيَ الْغَمُّ الَّذِي يَأْخُذُ بِالنَّفْسِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ بِفَتْحِ الرَّاءِ أَيْ فِي حَالَةِ الصِّحَّةِ وَالْفَرَاغِ وَالْعَافِيَةِ لِأَنَّ مِنْ شِيمَةِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُرَيِّشَ السَّهْمَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ وَيَلْتَجِئَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ الِاضْطِرَارِ"[1].

فمن أدراك سنن المعية، والأخذ بها، المداومة على عبادة الدعاء، والمؤمن بعقيدته، وإيمانه، وعبادته لله، مع إخلاصه، والقيام بسنن الأمر والنهي، وتنفيذها في استسلام وانقياد، تكون حياته حياة طيبة، تغمرها السعادة، ويعمها أوقات الرخاء الذي يكثر فيها من الدعاء والشكر والحمد، ولا يقطع بذلك صلته بالدعاء، ليأمل بعدها الاستجابة أوقات البلاء والشدّة.

ولا يكون ممن تنكّب سنن المعية، وغفل عن سنة الدعاء، فذاق مرارة المعيشة الضنك، باستعجاله الإجابة، مع القنوط واليأس عند التأخر، أو مع الإلحاح والدعاء وقت الضر، ثمّ العتو والجحود وقت الرخاء واليسر فمثل هذا في كتاب الله سنة تدعو إلى الاعتبار والتدبر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا ﴾[يونس: 12]، فهذا حال الكفار كانوا يستعجلون العذاب الذي توعدهم إياه الأنبياء، مستهزئين ولكن عند وقوعه يتضرعون إلى الله لكشفه.

والمعنى إذا أصاب الإنسان أي ضرر أو فقر أو غير ذلك من الشدائد دعا الله طالبا كشفه وتخليصه منه...في أغلب أحواله ليرجع بعد رفع الضر إلى حالة الكفر والعصيان[2].

فيعرض القرآن سنن الله في خلقه، سنة العجلة وسنة الدعاء عند الاحتياج، وسنة النسيان عن كشف البلاء، وهي من صفات المشركين، ممن قصّ الله علينا قصصهم، دعانا إلى الاعتبار بمآلهم، وعذابهم في الدنيا والآخرة.

يقول صاحب تفسير المنار هذا شأن بني البشر وغرائزهم وما يعرض لهم في حياتهم من خير وشر والجوء إلى الله عند الحاجة مع استعجال الأمور قبل أوانها[3].

فمخالفة سنن الله في خلقه ضياع وشقاء وعذاب أليم، وسبب للهلاك قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿12﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ

---

[1]– المباركفوري، **تحفة الأحوذي**، 229/9 .

[2]– ينظر: مجمع البحوث، **التفسير الوسيط**، 60/4.

[3]– ينظر: رشيد رضا، **تفسير المنار**، 254/11.

لِيُومِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿13﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿14﴾ ﴾ [يونس: 12-14].

فآخر الآية الكريمة ينبأ سنة الله في استئصال المجرمين المحرومين من سنن المعية، والمتنكبين سنة الدعاء، والجاحدين لنعم الله، وتأتي البشرى من قلب العذاب والإهلاك لتقرر سنة أخرى من سنن الله في استخلاف المؤمنين الأرض من بعد المجرمين، وفق سنة الله العادلة القاضية بحسن تعميرها، وإصلاحها، وعدم الإفساد فيها، وهذا الاستخلاف للاختبار والاعتبار أيضا، فسنة الاستئصال والعذاب كانت بسبب الدعاء والإلحاح عند الحاجة والاضطرار، ثم الإعراض والصد عن سبيل الله وقت الرخاء وكشف البلاء، فهكذا تجري سنن الله في الأقوام السابقة، واللاحقة على السواء باطراد وثبات وعدل مطلق بمقتضى سنن الله.

المطلب الثاني: سنن الولاية

من شروط تحقق الحياة الطيبة للإنسان بالإضافة إلى سنة الدعاء، نجد سنة الولاية؛ ولاية الله للعبد وهي صفة لا ينالها إلا من اصطفاه الله واختاره من عباده فهي صفة القرب والعشق بين العبد وربه.

الفرع الأول: ولاية الله للعبد

والولاية هي النصرة، والقرب في النسب، قال ابن الأثير وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل[1].

أما الولي فله معنيان؛ أحدهما: فعيل بمعنى مفعول وهومن يتولى الله سبحانه أمره الله تعالى: وهو يتولى الصالحين يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايته، والثاني: فعيل، مبالغة من الفاعل، وهوالذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، و"أولياء الله هم أحبابه المقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم، الموحدون له، الذين لا يشركون بالله شيئًا، وإن لم تجر على أيديهم خوارق"[2].

وجاء في كتاب جامع العلوم في اصطلاحات الفنون أنَّ: "الْوَلَايَة هي الْقرْبَة وَالتَّصَرُّف، وهي مرتبَة عالية لخواص الْمُؤمنِينَ المقربين فِي الحضرة الصمدية، تحصل بالمواظبة على الطَّاعَات واجتناب السَّيِّئَات"[3].

---

[1]- ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، 15/ 407.

[2]- سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هوحق الله على العبيد**، تح: زهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 1(1423هـ - 2002م)، 337/1.

[3]- القاضي الأحمد، **دستور العلماء**، 129/4.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: 62-64]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فأولياء الله هم المؤمنون المتقون"[1].

وللولاية مقام عظيم يقتضي القرب من الله، "فَوَلِيُّ اللَّه تَعَالَى هُوالَّذِي يَكُونُ فِي غَايَةِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّه تَعَالَى"[2]، وهذه المرتبة المشرفة إنما ينالها الإنسان ابتداء بالإيمان الحق، الذي لا يخالطه ولا تعكره شائبة، الإيمانِ بكل أركانه، الإيمانِ الفطري؛ "أَيْ إِنَّهُمْ ظَلُّوا عَلَى فِطْرَةِ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا"[3]، تلك الصورة الرائعة، التي يقدمها القرآن الكريم لعلاقة أهل الإيمان بولاية الله، والتي يسميها صاحب المنار "وِلَايَةُ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الَّتِي تُؤَيِّدُهَا الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْعَظِيمَةُ"[4]، فيالها من مكانة، ويالها من قربة، وياله من فوز عظيم، هذه ثمار الإيمان فلا ولاية بغير الإيمان، ولا إيمان بغير تقوى الله، التقوى التي توفق لجميع الأعمال الصالحة، المحصلة للحياة الطيبة، والتي من مظاهرها الأمن والغبطة الذي ضده الخوف والحزن، فهذا وعد المولى لأوليائه بنفي الخوف عنهم، وعْدُ من لا يخلف الوعد، "كيف يخافون وكيف يحزنون، وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه؟ وعلام يحزنون ومم يخافون، والبشرى لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ إنه الوعد الحق الذي لا يتبدل، لا تبديل لكلمات الله"[5]، ولا تبديل لسنن الله، الناموس العادل من مبدأ الإيمان، ومن اتقى الله في السر والعلن فله جزاء الحياة الطيبة وهي الفوز العظيم، فهما بشرتان؛ فأما "في الحياة الدنيا فهي أن يحييهم الله حياة طيبة، وأن يجعل لهم ودا ومحبة في قلوب خلقه، وأن يعيشوا في كنف رعايته وفي حمى لطفه الخفي. وأما البشرى في الآخرة فهي النعيم المقيم، ورضوان الله الذي لا سخط بعده ولا تأثيم"[6].

عطاء عظيم من رب عظيم، وفق سنن ثابتة عادلة حكيمة، تجري في الكون، والخلق على السواء، مَن قَدَّم الأسباب فاز بالنتائج بفضل من الله، ولا تقتصر ولاية الله لعبده على هذا الفضل المتمثل في الأمن والسرور، والطمأنينة، والرضى، والبشرى في الدنيا قبل الآخرة، بل يتعدى إلى أكثر من ذلك، وهذا ما تضمنه حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ

---

[1] – ابن تيمية،**جامع المسائل** ، 98/1.

[2]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 275/17.

[3]– محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 3/ 36.

[4]–محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 36/3 .

[5]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 11/ 1804.

[6]– محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 68/3.

حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المؤْمِنِ، يَكْرَهُ المؤْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

في هذا الحديث تتبين مكانة أولياء الله، وعظيم قدرهم، ورفيع منزلتهم عند الله تعالى؛ حيث يشعر الإنسان بالتهديد الشديد، المخوف، في بداية هذا الحديث القدسي فالله سبحانه وتعالى، يتوعد ويهدد بهلاك وإعلان الحرب على كل من فتح باب العداوة على أوليائه، وإعلان الحرب من الله دمارٌ، واستئصال، وهلاك دنيوي وأخروي، ذلك أن الله هوالقوي الشديد، المتين، القادر، الجبار، العظيم، فحرب الله معناه حرب لا تبقي ولا تذر، فهذا الولي الذي نال ولاية الله بالإيمان والتصديق بجميع الأركان والطاعة لجميع أوامره ونواهيه، العابد لله الخاضع لحكمه وشرائعه، "فأولياء الرَّحْمَن هم المخلصون لرَبهم المحَكِّمون لرَسُوله فِي الْحرمة والحل، الَّذين يخالفون غَيره لسنته وَلَا يخالفون سنته لغَيْرهَا، فَلَا يبتدعون وَلَا يدعونَ إِلَى بِدعَة وَلَا يتحيزون إِلَى فِئَة غير الله وَرَسُوله وَأَصْحَابه، وَلَا يتخذون دينهم لهوا وَلَعِبًا، وَلَا يستحبون سَماع الشَّيْطَان على سَماع الْقُرْآن، وَلَا يؤثرون صُحْبَة الأفتان على مرضاة الرَّحْمَن وَلَا المعازف والمثاني على السَّبع المثاني"[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من كان مؤمنا تقيا، كان لله وليا"[3]، فليست الولاية بالأمر المحال، صعب المنال؛ لذا أوردت هنا قول شيخ الإسلام ليسعى كل مؤمن للفوز بمقام الولاية، إيمان + تقوى= تصبح من أولياء الله؛ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وليس من لوازم الولاية الكرامات، أوالخوارق، التي يتصور الناس أنها ضرورية للولي، دون أن ننفي الكرامة، فهي ثابتة بالقرآن والسنة والواقع، ولكن أقصد أن ولاية الله للمؤمن لا تستلزم بالضرورة أن يكون من أهل الكرامات، وهذا حتى يجتهد كل مؤمن تقي ليرقى بإيمانه ونقاه إلى مصاف أولياء الله؛ بالرجوع إلى كتب شروح الأحاديث حتى تكتمل الرؤية الشرعية لولي الله، فها هوالله سبحانه وتعالى يبارز بالحرب لكل من تصدى بالعداوة لأوليائه.

"فَإِنَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّى نُصْرَةَ أَوْلِيَائِهِ، وَيُحِبُّهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ، فَمَنْ عَادَاهُمْ، فَقَدْ عَادَى اللَّهَ وَحَارَبَهُ، ... لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ مُعَادَاةَ أَوْلِيَائِهِ مُحَارَبَةٌ لَهُ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ وَصْفَ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ تَحْرُمُ مُعَادَاتُهُمْ، وَتَجِبُ مُوَالَاتُهُمْ، فَذَكَرَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ، وَأَصْلُ الْوِلَايَةِ الْقُرْبُ، وَأَصْلُ الْعَدَاوَةِ الْبُعْدُ، فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ

---

[1]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الرقائق، باب التواضع، [6502]، 3/ 105.

[2]– ابن قيم الجوزية، **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1/ 265.

[3]– محمد بن صالح بن محمد العثيمين، **شرح العقيدة الواسطية** خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط 6(1421هـ)، 2/ 297.

بِمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنْهُ، وقَسَّمَ أَوْلِيَاءَهُ الْمُقَرَّبِينَ قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ فِعْلَ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكَ الْمُحَرَّمَاتِ، لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ الَّتِي افْتَرَضَهَا عَلَى عِبَادِهِ. وَالثَّانِي: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ بِالنَّوَافِلِ، فَظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ يُوصِّلُ إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَوِلَايَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ سِوَى طَاعَتِهِ"[1]، يوضح الله لعباده في هذا الحديث القدسي طرقا موصلة للقرب منه، وأولها، وأصلحها الفرائض التي افترضها على عباده، وكلّها تدخل في سنن الأمر والنهي التي سبق وأن تعرضت لها الدراسة بالشرح، وهي مهمة الإنسان الأولى التي خُلق لأجلها العباد، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]، فأعظم وأحب وسيلة للتقرب إلى الله هي القيام بفرائضه التي سنها لعباده على لسان الرسل والأنبياء، إذا شعر العبد بحلاوة وأنس العبادة اجتهد بالنوافل لا تضيع عنه أوقات المناجاة والقرب، ومتى تذوق طعم القرب، ونعيم جوار ربه فاز بثمرات الولاية ومنافع القرب، وهي أن يسموبجوارحه إلى مرتبة الكمال وهنا تنكشف له بعض الحجب فيسمع بسمع الله "السميع العليم" ويبصر بنور الله "الخبير البصير"، وتتجلى له أنوار قدرة الله الباهرة؛ فيكون يد الله التي يبطش بها، وهذا دليل المعونة، والنصرة، ويوفقه الله في سعيه فيصبح رجله التي يمشي بها في كل باب يطلبه أومقصد يبتغيه، وبشرى ما بعدها بشرى باستجابة الدعاء، فيصبح هذا الولي مستجاب الدعوة، حتى قال ﷺ: «لو أقسَم على اللهِ لأبَرَّه»[2].

فأولياء الله أحسنوا عبادته فأحسن وأجزل لهم الجزاء، فطوبى لعباد الله المخلصين وأوليائه المصطفين، المؤمنين المتقين، هذه المكانة العالية حتى إن ولي الله "لو حلف يمينا طمعا في كرم الله تعالى بإبراره لأبره"[3]، أي إن هذا الولي لوحلف على الله وسأله شيئاً أن يفعله له سبحانه وتعالى، لفعله الله مصدقا إياه في قسمه ويمينه، فلا يخيبه ولا يرّده بلا استجابة للقسم وإبرار ليمينه ولا يحنثه، فهذه المنحة دليل القرب عند الله تعالى، وهذا القرب المفضي لإبرار قسمه لا يكون إلا لأولياء الله، فهنيئا لهم بهذه الهبة والكرامة والعطاء الرباني، الذي هوثمرة من ثمار سنة الولاية الندية، تتمخض سنة القناعة والرضا التي لا تكون إلا لمن عمَّر الإيمان قلبه ففاض قناعة ورضا.

---

[1]– ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي ، **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تح: شعيب الأرناؤوط، ط 7(1422هـ – 2001م)، بيروت، مؤسسة الرسالة، 334/2.

[2]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، [2703]، 3/ 186؛ وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، [2854]، 2191/4.

[3]– شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)**، تح: عبد الحميد هنداوي ، باب الغضب والكبر، الرياض، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1(1417هـ– 1997م)، 10/ 3244.

الفرع الثاني: سنة القناعة والرضا

ومن الثمار الطيبة لولاية الله للعبد، أن ينال حظا وافرا من القنوع، والرضا باليسير من العطاء، وقنع إذا رضي، ومنه حديث القناعة كنز لا يفنى[1]. فالقناعة كنز لا ينقطع الإنفاق منه، لذا نجد الإسلام يحث المؤمن على القناعة، والرضا، وترك ونبذ الحرص، والطمع، ذلك أن القناعة تورث العزة، التي هي وصف من أوصاف الكمال، وصف بها المولى –عز وجل– نفسه في القرآن الكريم "العزيز"، ليحفز المؤمن على ضرورة التحلي بهذا الوصف، على قدر الطاقة البشرية، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الصافات: 180]، وقال أيضا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[المنافقون: 8]، ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[النساء: 139].

جاء في التفسير الوسيط العزة: هي الغلبة والقوة[2]، فالذي يطلب العزة في غير الإيمان، والتمسك بعروة الله الوثقى التي لا انفصام لها؛ وهي الإسلام، فسوف يذله الله لأنه سبحانه وتعالى جعل العزة له تبارك وتعالى، ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، فلا عزّة إلا للمؤمنين، الذين أقر الله لهم بالإيمان تصديقا وعملا ويقينا؛ "فرَبٌّ عزيز أنزل كتابا عزيزا على نبي عزيز لأمة عزيزة"[3]؛ فمن أعزه الله جعل صدره ينشرح للإيمان، وألبسه لباس القناعة، والرضا، "فأشرف أنواع العزة الإيمان"[4]، فهذه قطاف وآثار الإيمان قوة وغلبة.

والإنسان عامة، والمؤمن خاصة، يسعى ليكون قويا، وهذا من ما فطر وجبل عليه؛ فالقوة مصدر العزة والكرامة، والغلبة تجلب الأمن، وبها يزول الخوف، الذي يورث الذُل والجبن، وهما ما يستعاذ منها، وعليه فالمؤمن قوي ليس بالضعيف، عزيز ليس بالذليل، آمن ليس بالخائف، كريم النفس قنوع بما رزقه الله، حتى استغنى به عن مذّلة سؤال غيره؛ فالإيمان مصدر القوة والتأييد، والعزة والرضا، ومصدر القناعة التي تعتبر كنزا لا ينفد. والتحلي بعز القناعة والاستغناء عَن النَّاس، مَظَنَّةُ الإخلاص والعز، "وَمن فوائدها أَن يتَمَكَّن من الإيثار والبذل والسماحة وَالتَّصَدُّق على الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين"[5].

---

[1]– شمس الدين، أبوالعون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، دمشق، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ط 2(1402 هـ– 1982م)، 385/2.

[2]– ينظر: مجمع البحوث، **التفسير الوسيط**، 2/ 940.

[3]– الرازي، **مفاتيح الغيب**، 264/2.

[4]– نفسه، 189/8.

[5]– أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، **معارج القدس في مدراج معرفة النفس**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 2(1975م)، 81/1.

إذن فقد كانت القناعة ركنا أساسيا من أركان السعادة، ولها ارتباط وثيق بالإيمان، ولا يستطيع المؤمن أن يشعر بحلاوة الإيمان إلا إذا كان قنوعا بما قسم الله له، ورضي به، والله صدق سيد الخلق والأنام حين قال (عليه الصلاة والسلام): «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافاً، وَقَنَّعَهُ اللّهُ بِمَا آتَاهُ»[1].

ذلك أن الرضى بما تفضل الله به على عبده، يحقق له راحة نفسية، لأن الغنى الحقيقي غنى النفس، وليس الغنى بكثرة المال، وإنما الغنى القناعة، فلا يلهث صاحبها لتحصيل المال الواسع بشتى الطرق، فيحرص على الازدياد أشد الحرص، دونما مبالاة بمصدر المال، حتى وإن كان من حرام، وتطمع نفسه في الازدياد والازدياد، حتى يجري في هذه الحياة الدنيا جري الوحوش، وهذا ما يؤكده رسول الله ﷺ في هذا الحديث: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْس»[2].

قال القرطبي: "إنَّ الْغِنَى النَّافِعَ أَوالْعَظِيمَ أَوالْمَمْدُوحَ هُو غِنَى النَّفْسِ، وَبَيَانُهُ أَنَّهُ إِذَا اسْتَغْنَتْ نَفْسُهُ كَفَّتْ عَنِ الْمَطَامِعِ، فَعَزَّتْ وَعَظُمَتْ، وَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْحُظْوَةِ وَالنَّزَاهَةِ وَالشَّرَفِ وَالْمَدْحِ أَكْثَرُ مِنَ الْغِنَى الَّذِي يَنَالُهُ مَنْ يَكُونُ فَقِيرَ النَّفْسِ لِحِرْصِهِ، فَإِنَّهُ يُوَرِّطُهُ فِي رَذَائِلِ الْأُمُورِ وَخَسَائِسِ الْأَفْعَالِ، لِدَنَاءَةِ هِمَّتِهِ وَبُخْلِهِ، وَيَكْثُرُ مَنْ يَذُمُّهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَصْغُرُ قَدْرُهُ عِنْدَهُمْ، فَيَكُونُ أَحْقَرَ مِنْ كُلِّ حَقِيرٍ، وَأَذَلَّ مِنْ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُتَّصِفَ بِغِنَى النَّفْسِ يَكُونُ قَانِعًا بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ، لَا يَحْرِصُ عَلَى الِازْدِيَادِ لِغَيْرِ حَاجَةٍ"[3].

وبتأمل شرح القرطبي للحديث، نجد أنه جمع بين القناعة والرضا، والعزة والكرامة وطيب العيش، لما قنع ورضى بما قسم الله له، ونال نزاهة النفس وعزتها، وحظي بمقام المدح والشرف، وتعالت نفسه عن مذمّة الطمع ورذيلة البخل والشح والحرص على الازدياد، ومن ثمار الإيمان.

---

[1]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، باب في القناعة والزهد، [1054]، 2/ 730.

[2]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، [6446]، 8/ 95، وأخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، [1051]، 2/ 726.

[3]– أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، بيروت، دار الكتب العلمية، 7/ 35-36.

خلاصة الفصل:

نلخص في هذا الفصل إلى أن للحياة الطيبة أسبابا سننية؛ فردية وجماعية، وتقسم إلى فطرية ومكتسبة، متى التزم الانسان بشروطها تحقق أي منها، نال قسطا وافرا من طيب الحياة.

وقد تنوع مفهوم الحياة الطيبة إلى معان كثيرة، تصب كلها في منفعة الانسان؛ فهي الرزق الحلال في الدنيا، والخصب والقوة النامية.

الفصل الثالث:

السنن المظاهر والآثار للحياة الطيبة في القرآن الكريم وتمثلاتها في المجتمع الرباني – جيل التنزيل –

مما سبق عرضه سالفا، ظهر أن هناك أسبابا سننية يسعد بها الإنسان، وتجعله يحيا حياة طيبة، وتخلف مظاهر جلية في حياة البشر؛ حتى إنه ليظهر للناس أن هذا الإنسان، من الذين يتمتعون بطيب الحياة، وينعمون بالسعادة؛ ولكن هذه المظاهر على قدر ما تكون حقيقة قد تكون خداعة كاذبة، تظهر عكس ما هي عليه في الحقيقة؛ فتصدر في حق الإنسان أحكاما خاطئة، وليتفادى الإنسان الوقوع في الخطأ عند الحكم على هذه المظاهر فيكون الخطأ مدعاة للإثم، والإثم ذنبا، فكان لزاما وضع حدود وضوابط للتفريق بين المظاهر الحقيقية السننية للحياة الطيبة، والمظاهر الزائفة اللاسننية الخداعة الكاذبة. وعدلت عن المظاهر الكذابة للحياة الطيبة – كعنوان مقابل للمظاهر السننية الحقيقية للحياة الطيبة – لقساوة اللفظ، وشناعته، فكانت الأسباب اللاسننية الزائفة للحياة الطيبة في مقابلة الأسباب السننية الحقيقية للحياة الطيبة، ولأن المظاهر تخلف أثارا واضحة في حياة الفرد والجماعة وجب بيانها،من المعلوم وأن للحياة الطيبة شروطا قد يتفق الناس عليها أو يختلفون؛ هذا ما سوف أعرضه في هدا الفصل من الدراسة؛ ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المظاهر السننية واللاسننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم

المبحث الثاني: الآثار السننية للحياة الطيبة

المبحث الثالث: تمثلات المظاهر والآثار السننية للحياة الطيبة في المجتمع الرباني

المبحث الأول:

المظاهر السننية واللاسننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: المظاهر السننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم

المطلب الثاني: المظاهر اللاسننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم

قبل الحديث عن المظاهر بنوعيها السننية واللاسننية يجب تعريف كل من المظهر والسبب والشرط والآثر، مجانبة للتداخل، ورفعا للخلاف.

مما لاشك فيه أن هناك فرقا بين الأسباب[1] والمظاهر[2] والشروط[3]، الآثار[4]؛ سواء من الناحية اللغوية، والاصطلاحية، أو الأصولية، ولا يختلف على هذا الفرق اثنان، ولكن فيما يتعلق بموضوع الدراسة، فوقع هناك تداخل بين أسباب الحياة الطيبة ومظاهرها، فمثل المال، والبنون، من بين أهم أسباب الحياة الطيبة، ولكن نستطيع أيضا إدراجهما في مظاهرها؛ ذلك أن هذه النعم من الأمور المتجليات التي تتجلى وتظهر على صاحبها؛ فالمشهود والمعهود والمتعارف عليه عند البشر أن المال سبب للفوز بالحياة السعيدة، وكذلك نستطيع أن نجعله مظهر لها.

وتحرزا من الوقوع في هذا التداخل، أحاول قدر الطاقة البشرية تجنبه بالابتعاد عن السنن الأسباب التي جاءت في مبحثها... وعليه يكون المظهر كالتالي.

المطلب الأول: المظاهر السننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم

للحياة الطيبة مظاهر سننية لا يختلف عليها الناس على اختلاف ألوانهم والسنتهم ومللهم، تتجلى على مستوى البدن،كما تتجلى مظاهرا سننية للوقاية والعلاج؛ سننا تشريعية جاء ت على شكل نصوص من القرآن والسنة، وأقرها الطب الحديث ما أثبت إعجاز الوحيين علميا، ومن خلالها يُعرف أن صاحبها ينعم بطيب الحياة.

---

[1]–السبب: جاء في كتاب العين، هو الحبل والطريق لأنك تصل به إلى ما تريد، وهو كل شيء يتوصل إلى غيره؛ ينظر: الفراهيدي، **العين**، 203/7؛ وينظر: الجوهري، **الصحاح**، 1/ 145؛ **والسبب عند الأصوليين**: ما يضاف إليه الحكم، لتعلق الحكم به من حيث أنه معرف للحكم أو غير معرف له؛ ينظر: زين العابدين، **التوقيف على مهمات التعريف**، 1/ 190.

[2]– والمظهر: **الْمظهر** الصورة التي يبدو وعليها الشيء والعلاقة وقيل الشكل الخارجي، والجمع مظاهر، **مجمع اللغة**، **المعجم الوسيط**، 578/2.

[3] – الشرط: الشَّرْط مَا يوضع ليلتزم فِي بيع أَو نَحوه و (فِي الْفِقْه) مَا لَا يتم الشَّيْء إِلَّا بِهِ وَلَا يكون دَاخِلا فِي حَقِيقَته و (عِنْد النُّحَاة) تَرْتِيب أَمر على أَمر آخر بأداة وأدوات الشَّرْط الْأَلْفَاظ الَّتِي تسْتَعْمل فِي هَذَا التَّرْتِيب مثل إِن وَمن وَمهما (ج) شُرُوط؛ نفسه، 1/ 479.

[4]– (الْأَثر) الْعَلامَة ولمعان السَّيْف وَأثر الشَّيْء بَقِيَّته وَفِي الْمثل (لَا تطلب أثرا بعد عين) يضْرب لمن يطْلب أثر الشَّيْء بعد فَوت عينه وَمَا يحدثه وَجَاء فِي أَثَره فِي عقبه وَمَا خَلفه السَّابِقُونَ وَالْخَبَر الْمَرْوِيّ وَالسّنة الْبَاقِيَة (ج) آثَار وأثور؛ نفسه، 1/ 5.

الفرع الأول: المظاهر السننية للحياة على مستوى البدن

اعتنى الإسلام بجسم الإنسان كثيرا، ورتب على أساسه الأحكام؛ فجاءت التشريعات كلها تصب في مصالح الإنسان للحفاظ عليه وتنمية قوته، ما يجنبه مضار الأسقام و الأوجاع.

أولا: إشراقةُ المُحَيَّا

إن للسعادة مظاهر تتجلى على الوجوه، فتضفي عليها نورا وضياء، وترسم على المحيا صورة وضيئة تعكس الفرح، والطمأنينة، والرضا، وحبها للحياة؛ بهجة النفس، وإشراقها وحبها للخير، ومن المعروف أن حب الإنسان للحياة، ذلك أن يحيا حياة طيبة، وإلا لنقم عليها، وكره العيش فيها؛ قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]، وقال خير الأنام: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ"[1]، وقال صلوات ربي وسلامه عليه: "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ"[2].

ومن بديع الأسلوب القرآني وهو يصف الجماعة المسلمة؛ صحابة رسول الله ﷺ، ويثني عليهم في سورة الفتح، فيعرض أوصافهم وحالاتهم الظاهرة التي تنبئ عن حالاتهم الباطنة، أو المضمرة[3]، فآثار الطاعة، والعبادة، والرضى، تركت نورا، وضياء يعلو الوجوه، وبشاشة، وطلاقة توضح سعادة الدنيا، التي نعموا بها، والتي ما كانوا ليبلغوها لولا ما قدموا من أسباب، وعملوا بمقتضى سنن الله الجارية في خلقه، الثابتة، العادلة ذلك أنهم قدموا الشدة والغلظة وقوة القلب إزاء أعدائهم الكفار، وبسطوا رحمتهم، ورأفتهم، ولين جانبهم مع إخوانهم المسلمين، وقاموا بواجب العبادة في طواعية وانكسار، وقلب يملأه الحب، والرغبة في القرب والفوز بالرضا؛ فنالوا الأجر العظيم، وظهرت بذلك سعادتهم كزينة على وجوههم "الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها... وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة"[4].

ينعت سيد قطب الصحابة – رضوان الله عليهم– بـ "الجماعة السعيدة" مرتين وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ

---

[1]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، [2626]، 2026/4.

[2]– رواه االترمذي، **سنن الترمذي**، أبواب البر والصلة، باب ماجاء في صنائع المعروف، [1956]، 339/4. قال حسن غريب.

[3]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 26/ 3331.

[4]– نفسه، 3331/26-3332.

فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: 29]، وصفهم بهذا الوصف دليل على أن السعادة من الظاهر التي تتجلى على الوجه، وان السعيد من طابت حياته، حتى بانت سمة ترسمها ملامح المحيّا[1]؛ فإشراقة المحيّا والوجه الطلق والميل إلى التبسم، مظاهر جامعة دالة على أن صاحبها ذاق حلاوة طيب الحياة، فأشرق محياه بسحر الابتسامة، فتبسم في وجه الآخرين ليشعرهم بسعادته، سيما أن التبسم في وجه الناس مطلب شرعي، قال ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»[2].

وما حث النبي ﷺ على شيء أو أمر بأمر إلا كان ﷺ طلق الوجه، مشرق المحيا، زاده ابتسام الثغر نورا على نوره، وجمالا على جماله، واتفق أصحاب السير أنه: "طليق الوجه، بسّام من غير ضحك"[3]، بسّام المحيا وأكثر الناس تبسما، وما كان ليرغب في أمر ولا يأتيه فهو القدوة والمثل الأعلى لأصحابه ﷺ، يقول جرير بن عبد الله – رضي الله عنه–: "ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي"[4].

لقد كان النبي ﷺ يعلم الصحابة – رضوان الله عليهم– فن الابتسامة التي ترسم على المحيا، سهلة لا مشقة فيها، فتبعث في النفس بهجة وسرورا، فتعطي صاحبها جرعة أمل محقونة بالفعالية والإيجابية التي تبعث الثقة والرضا؛ فيسري سحرها كالمصل والدواء؛ فيشفى الجسد من علله وأمراضه، والنفس من اضطراباتها، وتسكن وتستقر آمنا وطمأنينة فيهنأ صاحبها بحياة طيبة، لا يعكر صفوها أدران العبوس، الذي ينقش على الوجه تجاعيد تشين صورة المحيا؛ فالوجه العبوس ينفر الجمع، ويسهم في تقليل التواصل بين الناس، حتى يقطع الود بينهم، وينمي الكراهية والضغينة؛ فيُطرد صاحب الوجه العبوس من كل جماعة، و"الله يحب الطلق الوجه، ولا يحب العبوس"[5]؛ ذلك أنه مصدر للطاقة السلبية، فينأى وحيداً في ركنه بلا ولي ولا نصير، لأن عبوسه المستمر سبب لنفور الآخرين منه، فيكون بذلك قد هيأ لنفسه أسباب المعيشة الضنك، ورسم مظهرها البشع على محياه، لذا مدح الشرع طلاقة الوجه وإشراقه، قال ابن عمر: "البر شيء هين، وجه طليق وكلام لين"[6]، والبر كله خير للإنسان ولمجتمعه فهو طاقة

---

[1]– المحيا: الوجه، ينظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، ط 1(1429هـ– 2008م)، 1412/2.

[2]– سبق تخريجه، ص 4.

[3]– محمد بن يوسف الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد**، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1(1414 هـ – 1993م)، 41/7.

[4]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**،كتاب الجهاد والسير، باب من لا يثبت على الخير، [3035]، 65/4.

[5]– محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، **آداب الصحبة**، تح: مجدي فتحي السيد، مصر، دار الصحابة للتراث، ط 1(1410 – 1990م)، 88/1.

[6]– البيهقي، شعب الإيمان، [7702]، 10/ 404.

إيجابية للفوز بطيب الحياة، وقال ابن القيم: "طَلَاقَةُ الْوَجْهِ، وَالْبِشْرُ الْمَحْمُودُ وَسَطٌ بَيْنَ التَّعْبِيسِ وَالتَّقْطِيبِ، وَتَصْعِيرِ الْخَدِّ، وَطَيِّ الْبِشْرِ عَنِ الْبَشَرِ، وَبَيْنَ الِاسْتِرْسَالِ بِذَلِكَ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ، بِحَيْثُ يُذْهِبُ الْهَيْبَةَ، وَيُزِيلُ الْوَقَارَ، وَيُطْمِعُ فِي الْجَانِبِ، كَمَا أَنَّ الِانْحِرَافَ الْأَوَّلَ يُوقِعُ الْوَحْشَةَ وَالْبَغْضَةَ، وَالنُّفْرَةَ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَصَاحِبُ الْخُلُقِ الْوَسَطِ: مَهِيبٌ مَحْبُوبٌ، عَزِيزٌ جَانِبُهُ، حَبِيبٌ لِقَاؤُهُ، وَفِي صِفَةِ نَبِيِّنَا ﷺ مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ. وَمَنْ خَالَطَهُ عِشْرَةً أَحَبَّهُ"[1]، فطلاقة الوجه سبيل للود والحب بين الناس، كما قال ابن عيينة: "والبشاشة مصيدة المودة والبر شيء هين وجه طليق وكلام لين وفيه رد على العالم الذي يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، وعلى العابد الذي يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم. قال الغزالي: ولا يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى يقطب ولا في الوجه حتى يعفر ولا في الخد حتى يصعر"[2].

وذم التقطيب والعبوس، وحتى يتجنب الإنسان مَسقَطة الذم، ويبشر بمحمدة المدح، وفي ما يأتي بعض أقوال أصحاب القرون الخيرية، ومن تلاهم بإحسان في طلاقة الوجه، وثمار طلاقة الوجه كثيرة ومتنوعة، فضلا من الله وعظيمَ عطاءٍ، وليس في تسييجها تقصيرٌ، ولكن تحديدٌ وضبطٌ لموضوع البحث، وكلها محققة للحياة الطيبة، مظهرة ومجلِّية لها، ومنها:

- إشراقة المحيا وبشاشة الطلعة، وطلاقة الوجه ثلث حسن الخلق: "حسن الخلق: بذل الندى، وكف الأذى وطلاقة الوجه"[3]، وطلاقة المحيا مكفرةٌ للذنوب الجالبة لسخط الرب، مطهرةٌ للمسلم من آثار المعاصي والآثام، وهي مذهبةٌ للوحشة، مؤنسةٌ للوحدة، عادمةٌ للبغضاء المسببة للعداوة.
- طلاقة الوجه والبشاشة صفة العلماء والحكماء، تقضي على المعاندة والمجادلة المفضية للمباغضة، وهي حصانة ضد الظلم.
- طلاقة المحيا تواضع، ومن تواضع نال الرفعة.
- طلاقة الوجه ممدحة للمؤمنين بشرى لهم في الدنيا والآخرة.

ثانيا: صحة البدن

أسبغ الله على عباده نعما كثيرة يستحيل إحصاؤها أوعدها؛ ومن أهمها وأظهرها على عباده نعمة الصحة والعافية، وسلامة الجسد والأعضاء من الأمراض والعلل والعاهات الجسدية المختلفة، ولأهميتها في حياة الإنسان اعتنى بها القرآن عناية كبيرة، حيث خص لها مساحة واسعة في كتابه، ليرشد ويوجه

---

[1]- ابن القيم، **مدارج السالكين**، 2/ 296.

[2]- المناوي، **فيض القدير**، 3/ 226.

[3]- ابن تيمية، **الإيمان**، تح: الألباني، عمان، المكتب الإسلامي، ط 5(1416هـ- 1996م)، 1/ 10.

الإنسان إلى كيفية المحافظة عليها، فسن قواعد الوقاية وشرع الأحكام، والتشريعات للحفاظ عليها، وفرض عبادات بالقيام بها، يصون الإنسان صحة بدنه ويحميه من الأمراض والأضرار الفتاكة بقوته وسلامته، وحين يغفل هذا الإنسان عن القواعد الضوابط الشرعية فيقع في الضرر والأذى والمرض، يرشده ويوجهه أيضا إلى كيفية التداوي والعلاج لرفع الضرر عن البدن، فكتاب الله زاخر ووافر بآيات قرآنية عن المحافظة على سلامة جسم الإنسان وصحته، وآيات قرآنية عن كل ما ينفع، ويضر الإنسان سواء من المأكولات، أو المشروبات، أو التصرفات، والعادات؛ ناهيك عن الهدي النبوي؛ فالطب المتطور اليوم يستعمل الطب النبوي بديل عن طب العصر الحديث، فهناك كم هائل من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن صحة الإنسان والوقاية من الأمراض فقد اهتمت السنة النبوية بصحة الإنسان البدنية اهتماما ألم بجميع النواحي والجوانب.

وهذا ما تحاول الدراسة توضيحه لنقنع أن الصحة مظهر من مظاهر الحياة الطيبة الحقيقية التي لا يختلف عليها اثنان وذلك من خلال مايلي:

1– مفهوم الصحة الجسمية:

الصحة: ذهاب السقم والبراءة من كل عيب وريب[1]، صح يصح صحة فهو صحيح: إذا لم يكن به مرض[2]، وهي التوافق التام بين الوظائف الجسمية المختلفة، مع القدرة على مواجهة الصعوبات العادية المحيطة بالإنسان، ومع الإحساس الإيجابي بالنشاط والقوة والحيوية[3]، وتعتبر الصحة البدنية من أهم أسباب مظاهر الحياة الطيبة، وهذا التداخل بين الأسباب والمظاهر منطقي؛ ذلك أن الصحة سبب أساس في سعادة الإنسان، وهي من المظاهر الجلية التي يتم بها التفريق بين السليم الصحيح والسقيم المريض؛ حيث نجد أن سليم البدن يتمتع بحياته، ويقوم بواجبه الاستخلافي؛ فيسعى بذلك لتحقيق حياة طيبة، في حين أن عليل البدن الذي فرط في صحته يشتغل بالتداوي، والسعي وراء العلاج والبحث عن الأدوية لمعالجة آلامه وتسكين أوجاعه؛ فهو بذلك مجانب للحياة الطيبة؛ لا يقوم بدوره في تطوير حياته وتحصيل منافعه ومصالحه الدنيوية، دون أن ننسى مدى ارتباط الصحة الجسمية، بالصحة النفسية، فمؤشر حالته المرضية الجسدية دمرت حالته النفسية؛ فهما وجهان لعملة واحدة؛ فالنفس والجسد ليسا منفصلين؛ متى أصاب المرض أحدهما سيتأخر الآخر بالتأكيد، وهذا ما أثبتته الدراسات والأبحاث

---

[1]– الخليل الفراهيدي، **كتاب العين**، 3/ 14.

[2]– أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي، **الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي**، جدة، دار المجتمع، ط 1 (1411 هـ – 1991م)، 3/ 550.

[3]– عبد العزيز القوصي، **أسس الصحة النفسية**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 4(1471هـ– 1952م)، ص: 5.

العلمية الحديثة؛ حيث إن عددا من الأمراض النفسية سببها عضوي، والعكس صحيح، وصدق من قال العقل السليم في الجسم السليم.

ولمعرفة مدى ارتباط ببعضها البعض، والتأثير الكبير، لكليهما على الأخرى، نلاحظ تعريف الصحة النفسية هو كالتالي: "هي التوافق التام أو التكامل بين الوظائف النفسية المختلفة، مع القدرة على مواجهات الأزمات النفسية العادلة التي تطرأ عادة على الإنسان، ومع الإحساس الإيجابي بالسعادة والكفاية"[1]، ويوضح صاحب التعريف التداخل والتأثير بين الصحتين، بحيث إذا أراد الإنسان تجنب الاضطرابات النفسية، عليه تجنب الأمراض الجسمية، "والواجب أن يكون المرء بحيث لا يقع في نزاع نفسي، أي أن يكون قادرا على الجسم في مشكلاته"[2].

من خلال التعريفين نصل بأن الصحة بنوعيها سواء الجسمية، أو النفسية توصل الإنسان إلى الشعور بالسعادة والإيجابية، وهي في حد ذاتها مظهر للحياة الطيبة الذي يتفق عليه الناس، وعلى هذا الأساس نجد علماء النفس متوسعين في ربط الحياة الجسمانية بالحياة النفسية، "لاسيما ديكارت ومن أتى بعده"[3]، لتشخيص ومعالجة الأمراض النفسية، "ولعل أقوى ما يلفت النظر في ميدان العلاقة بين الجسم والعقل ما نجده بين التطور الجسمي والتطور العقلي من موازاة"[4]؛ وعليه فلا غنى في العناية بالجانب الجسمي، والتغافل عن الجانب النفسي؛ ولأن الدراسة قد بينت بعض وسائل الاهتمام بالصحة النفسية في مبحثها، ومطلبها[5]؛ لذلك ستعرض الدراسة في هذه النقاط لبعض القواعد العامة للمحافظة على الصحة الجسمية من خلال القرآن والسنة، ليعود الإنسان إلى المصدرين الأساسين فيتمكن من التمتع بصحة بدنية، وينعم بجسم وأعضاء سليمة، قوة وإيجابية ونشاطا لمواجهة الحياة، فيكون بذلك حقق جزءا مهما في طريقه نحو الحياة الطيبة.

---

[1]–عبد العزيز القوصي، **أسس الصحة النفسية**، ص: 5.

[2]–نفسه، ص: 6.

[3]–نفسه، ص: 29.

[4]– نفسه، ص: 30.

[5]– يراجع الفصل الأول، المبحث الثالث، المطلب الثاني، سنن الأنفس، ص 118.

2– عناية الوحيين القرآن والسنة بالصحة الجسمية:

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

جاء في تفسير المنار في هذه الآية ما نصه: "وَفِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ... إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللهِ، وَهُو النُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ وَلَا.... فَكَوْنُهُ حَبْلَ اللهِ بِإِطْلَاقٍ وَالشِّفَاءَ النَّافِعِ"[1].

فسبحان الذي بيّن كل شيء لعباده في مجمل تنزيله، فهو الكتاب الشامل لعموم مناحي الحياة، ولأن صحة جسم الإنسان من الأمور الأولية والأساسية، المهمة جدا في حياته، فإننا نجد آيات كثيرة، تحمل في طياتها قواعد عامة للوقاية، وأخرى للعلاج نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝1 قُمْ فَأَنذِرْ ۝2 وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝3 وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝4 وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝5﴾ [المدثر: 1-5]، تعتبر هذه الصورة من أوائل ما أنزل على رسول الله ﷺ وفيها الأمر بتطهير الملبس من النجاسات. "أَمَرَ بِتَطْهِيرِ ثِيَابِهِ مِنَ الْأَنْجَاسِ وَالْأَقْذَارِ... ومَا الْمُشْرِكُونَ كَانُوا يَصُونُونَ ثِيَابَهُمْ عَنِ النَّجَاسَاتِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ يَصُونَ ثِيَابَهُ عَنِ النَّجَاسَاتِ"[2].

ليظهر للمشركين خاصة وللناس عامة أن هذا الدين يهتم بطهارة الإنسان، وبالتالي نظافة البدن المفضية للصحة؛ فالإنسان مفطور على حب الشيء النظيف الطاهر، وبغض الشيء الوسخ القذر؛ فهذا الدين يوافق الفطرة ويحفظ صحة الإنسان البدنية، و"يروى أن هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن حسين بن واقد، ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه قال: وما هي؟"[3] قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: 31].

وعليه فالقرآن الكريم بين قواعد الوقاية من الأمراض، حتى لا يحتاج الإنسان بعدها إلى علاج ودواء، وبهذا يكون أول مظهر للعناية بالصحة الجسمية ما يأتي.

---

[1] – رشيد رضا، **تفسير المنار**، 6/ 131.

[2] – الرازي، **مفاتيح الغيب**، 30/ 697.

[3]– الزمخشري، **الكشاف**، 100/2.

ثالثا: تنمية قوة البدن

حث الإسلام على تنمية القوة الجسدية، قوة البدن، ليتمتع المسلم بعبادته، ويساهم بذلك في القيام بدوره الاستخلافي، فيحقق ذاته، وأهدافه لينعم بحياة طيبة، قال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[1].

ولتحقيق هذه القوة البدنية للفوز بمحبة المولى عز وجل، أرشد الإسلام الإنسان المسلم إلى منهج وقائي صحي ليكون في أحسن حالاته الصحية ونلخصه في هذه النقاط:

1- **إباحة الأطعمة المفيدة للجسم**: أباح الإسلام كل طعام طيب، وجاءت النصوص القرآنية متضافرة، ترشد المسلم إلى الأطعمة المفيدة المقوية لجسمه، قال تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۖ وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [النحل: 114]، قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَاۖ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَۖ ﴾ [البقرة: 57].

فالطعام المقوي للبدن لا يقتصر على الخضر والفواكه والزروع باختلافها، وإنما يشمل أيضا أنواع اللحوم على تنوعها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ [المائدة: 1]، وقال عز من قائل: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنعام: 118]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا ﴾ [النحل: 14]، وقال جل شأنه: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَاۖ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَۖ ﴾ [البقرة: 57]، ذكر الله المن والسلوى في مقام الامتنان على بني إسرائيل بنعمه عليهم، وقيل بأن الْمَنَّ: المشهور أنه الترنجبين، وهو شيءٌ يشبه الصمغ: حلو مَشوب بحموضة، وَالسَّلْوَى: طائر يشبه السمانى[2].

وجاء في تفسير المنار أَنَّ الْمَنَّ "يَنْزِلُ كَالنَّدَى، وَهُو مَادَّةٌ لَزِجَةٌ حُلْوَةٌ تُشْبِهُ الْعَسَلَ"[3]. يقرر صاحب المنار قاعدة مهمة وهي: "أَنَّ كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ الدِّينُ مِنَ الْعَبْدِ فَهُو لِمَنْفَعَتِهِ"[4].

فهذا الطعام الذي ذكره القرآن الكريم وسنه الله لعباده، وأباح أكله هو منفعة خالصة للعبد، يقوي بدنه، وينمي قوة جسمه، بما يستطيع به أن يحيا حياة طيبة؛ يقول صاحب تفسير زهرة التفاسير أن توافر النعم التي منحها الله سبحانه وتعالى تسهل على الناس الحياة العزيزة الكريمة المنيعة، ولكن إذا

---

(1) – أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب القدر، باب استعن بالله ولا تعجز، [6868]، 8/ 56.

(2)– ينظر: مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 1/ 109.

(3)– رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 268.

(4)– نفسه، 268/1 .

بطروا النعمة وسئموا من طيب العيش فلهم الشقاء والسقم ؛ لأن المنّ والسلوى كان ينزل عليهم من غير كد أو تعب، ولم يعرفوا قيمة المنعم، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب[1].

فكلما ذكر القرآن الكريم الأكل أو الطعام فهو يريد حصول الانتفاع للإنسان، "والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه"[2]، فانظر أيها الإنسان إلى نعم الله عليك فهو يجمع لك نعمة الأكل والنفع والتلذذ؛ فهذه الطيبات تقوي الإنسان في بدنه إضافة إلى دفع الضرر عن النفس، ولهذا اعتنى الإسلام بغذاء المسلم أيما عناية، حتى بوب الفقهاء والمحدثون كتبهم بأبواب للأطعمة والأشربة، وقد جاء الخطاب القرآني في عدة آيات في مقام المدح، وبيان فضل قوة البنية الجسدية، قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247]، وقال تعالى: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡطَةٗ﴾ [الأعراف: 69]؛ فالبسطة والقوة في البنية الجسدية نعمة توجب الشكر وكل النعم محققة للحياة الطيبة؛ فالإسلام يحبب إلى تقوية البدن، والحفاظ على الصحة الجسمية، بل يشجع المسلم على ذلك بذكر مجموعة من الأطعمة والأشربة ذات الفائدة الكبيرة، والقيمة الغذائية المفيدة، و"لا يكتفي الإسلام بهذه الإباحة المطلقة، بل إنه يشجع بطريقة جميلة ليس فيها الغصب ولا الإجبار على أنواع معينة من الطعام لما فيها من القيمة الغذائية والصحية، فمن الأطعمة التي جاء ذكرها بالاستحسان في القرآن اللحوم ومنتجاتها سواء منها لحوم البر أم لحم البحر والعسل واللبن والتمر"[3].

فالإسلام لا يرضى لأتباعه ضعف البنية الجسدية والكسل والخمول؛ بل يحثهم على النشاط والحركة لأن في الحركة بركة، والكسل مما يستعاذ به كل يوم، ومن الأطعمة التي تجنب الكسل والخمول وتعمل على تقوية البدن، والتي أشار إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة "اللحوم"، يقول تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [النحل: 5]، زواج الخطاب القرآني في سياق ذكر الأكل والطعام بين الغذاء النباتي، والغذاء الحيواني، فأكد على أهمية اللحم وقيمته الغذائية بالنسبة لبناء ونمو البدن "واللحوم تحتوي كمية كبيرة من البروتين والدهون وهي مواد لازمة لبناء أنسجة الجسم وتوليد الطاقة... وحقيقة أن النبات يحتوي على هذه المواد أيضا ولكن لكي يحصل الإنسان على الكمية اللازمة لنموه وطاقته فلابد له من كمية كبيرة جدا من النباتات"[4].

---

[1]- ينظر: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، **زهرة التفاسير**، دار الفكر، (د،ط،ت)، 1/ 239، وينظر: مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 262/8.

[2]- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 1/ 408.

[3] – أحمد شوقي الفنجري، **الطب الوقائي في الإسلام**، ص: 55.

[4] – أحمد شوقي الفنجري، **الطب الوقائي في الإسلام**، ص: 50.

إذن لابد من الموازنة في الغذاء بين النباتات واللحوم حتى يعيش الصحة والسلامة ويحيا حياة طيبة، فالاعتدال والوسطية منهجاً إسلاميا وشعار الأمة الخاتمة فاللحوم لها ميزة هامة ذلك "باحتوائها على الحموض الأمنية الأساسية والتي لا يستطيع الإنسان الاستمرار بحياته بدونها"[1].

ولأن القرآن الكريم دستور يحكم حياة الإنسان المسلم ، ويدله على ما يعرف به الطريق القويم؛ طريق المنفعة والصحة والعافية، والحياة الكريمة الطيبة، فواجب عليه تدبره لينال نفعه، ويستلهم من نصوصه دُرراً وكنوزا، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 9]؛ فهو يأخذ بناصيته لبر الأمان،ما تدبر آياته، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: 66]؛ فهذا اللبن الذي أنعم الله به على عباده، خالصا من نجاسة الدم وخبث الفرث "ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث ، هنيئا يجري على السهولة في الحلق"[2].

فهذه العناية الإلهية تتجلى في فصل عذوبة اللبن عن نجاسة الدم؛ فالخالق المبدع عالم بنفور نفس عبده الضعيف من رائحة الدم؛ "وخُلُوصُهُ "نَزَاهَتُهُ مِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْبَوْلُ وَالثُّفْلُ، وَسَوْغُهُ لِلشَّارِبِينَ سَلَامَتُهُ مِمَّا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الدَّمُ مِنَ الْمَضَارِّ لِمَنْ شَرِبَهُ، فَلِذَلِكَ لَا يُسِيغُهُ الشَّارِبُ وَيَتَجَهَّمُهُ، وَهَذَا الْوَصْفُ الْعَجِيبُ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيَّةِ"[3].

فاللبن غذاء مفيد كامل سواء للصغار، أو الكبار، "فهويحتوي على العناصر الغذائية الضرورية للجسم بكاملها وبنسب تقترب من التكامل مع بعضها، بما يتلائم وحاجيات البدن،.. كما يحوي على كميات كافية من كل العناصر المعدنية كالفوسفور والنحاس والكلس، ما عدا الحديد حيث يحتاج الطفل الرضيع إلى كميات إضافية لما هو موجود في اللبن: وكذلك فهو يحوي كميات كافية من الفيتامينات أ – وب مركب – Complex، والنياسين، أما محتواه من الفيتامين د "[4].

فبهذه العناصر الغذائية الضرورية والمهمة أحتل اللبن هذه المرتبة الأساس وتصدر قائمة طعام الإنسان، فهو أول غذاء جعله المولى الخالق تبارك وتعالى للإنسان عند مولده، فهو يسبق بذلك كل أكل نباتي أو حيواني، ويفي بحاجة الرضيع إلى وقت غير قصير، وهو ما اختاره من لا ينطق على الهوى – صلوات ربي عليه وسلامه– حين أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من اللبن، فاختار ﷺ اللبن، فقال له

---

[1] – عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن الكريم**، ص: 36.

[2]– البغوي، **معالم التنزيل** ، 5/ 28.

[3]– ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 14/ 199.

[4]– عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن الكريم**، ص 156.

جبريل – عليه السلام– اخترت الفطرة، فهو من لوازم الفطرة النقية السليمة، وهو أقرب إلى الكمال من أي غذاء آخر، ويعده الأطباء أفضل الأغذية، ولا يستطيع الإنسان التخلي عنه لحاجة العضوية له، وهو من المواد الأساسية للبناء والنمو واكتساب المناعة، والقوة والنشاط والحيوية في كل مراحل حياته، كما يعد اللبن المصدر الطبيعي الذي يدخل في تكوين وحماية، وحفظ الهيكل العظمي والأسنان، وبه يتقوى الصغير الضعيف والكبير العاجز والمريض المتألم، وهو دليل صارخ في وجه العلم على قدرة الخالق، وعجيب صنعه، وسلطان بيّن على الألوهية، فعملية خروج اللبن من بين الدم والفرث وطريقة التحويل العلمية التي يصفها القرآن بدقة ما كان العلم لينكرها وقت التطور، ولم تكن معروفة لبشر، وقت نزول – الكلام المعجز– يقول سيد قطب: "والقرآن – يعبر عن الحقائق العلمية البحتة– يحمل أدلة الوحي من الله في خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه الخصائص ويعترها؛ ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين"[1].

وإخبار القرآن يعاضده إخبار النبي ﷺ فقد أشار الرسول ﷺ إلى قيمة اللبن الغذائية في سنته، وأنه لا يعادله شراب، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عته– قَالَ: "... ثُمَّ أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَبَنٍ فَشَرِبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا سُقِيَ لَبَنًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِئُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ»[2].

ومن نفع اللبن وبركته المحققة لقوة البدن، أنه لا يقتصر عليه كغذاء مفيد لجسم الإنسان وأساس تغذيته، في حياته الدنيا، ليحيا، صحيحا، قوي البنية، فيسعد بذلك ولكن نفعه يمتد ويتعدى مصالح الحياة الدنيوية، ليتصل بمنافع حياة الإنسان الأخروية فهو أيضا غذاوءه وطعامه في دار النعيم الأبدي – الجنة– قال عز قائل: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [محمد: 15].

فنعمة اللبن نعمة عظيمة تستوجب الشكر المتتالي شكرا يليق بصاحب النعم، الذي جعل اللبن شرابا سائغا لذة للشاربين غذاء ينمي القوة البدنية للإنسان في حياته وفي آخرته. وجعله دليلا قاطعا على صدق – نبوة حبيبه المصطفى ﷺ– حيث أشار في زمنه على القيمة الغذائية للبن، في عصر لم يكن الناس ليدركوا العناصر الغذائية الأساسية والمهمة لحياة الإنسان الموجودة في اللبن.

---

[1] – سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2181/14.

[2]– رواه أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الأشربة، باب ما يقول إذا شرب اللبن، [3730]، 55/ 561، قال الارنؤوط حسن، وابن ماجه، باب الزيت، [3322]، 1103/2، والبيهقي، شعب الإيمان، باب أكل اللحم، [3732]، 393/3.

الفرع الثاني: المظاهر السننية للوقاية

سن الله هي مجموعة من القواعد والقوانين التي تنظم حياة البشر، من أجل صلاحهم وفلاحهم في الدارين الدنيا والآخرة، والتي بالالتزام بها وتطبيقها يحفظ الإنسان صحة بدنه، وسلامة جسده، من الأمراض والعلل، ومنها:

أولا: المظاهر الوقائية

بلغت عناية الإسلام بصحة الإنسان وعافية بدنه ما سنه من تشريعاته في الوقاية وحماية الإنسان من الفيروسات والمكروبات القاتلة، ومن عظمة تلك التشريعات أن صارت معتمدة الآن من قبل المنظمة العالمية للصحة، ما يثبت سبق الإسلام وحكمة تشريعاته.

1– الوقاية من الأمراض: يقول المثل المشهور درهم وقاية خير من قنطار علاج، لقد جاءت الإرشادات الإلهية في صور أوامر محددة مضبوطة ونواهي واضحة جلية، توجه الإنسان إلى ضرورة العناية بنعمة الصحة، لحفظه من شرور الأمراض والأسقام، بإتباع الأساليب الشرعية التي أثبتها العلم الحديث، ومنها ما جاء في الأمر بعدم الإسراف في الأكل والشرب؛ لأن معظم علل الجسم مصدرها المعدة، "وهذا يتضمن إرشادا إلهيا صحيا متعلقا بصحة المؤمن العامة، وسلامة جسمه، وثقوب ذهنه، فمن لم يسرف في الأكل وتوابعه، ولم يأخذ منه أكثر من حاجته تمتع بجسم سليم وعقل سليم، ومن أسرف في الأكل وتوابعه أسرع بخطاه إلى العطب والهلاك جسما وعقلا"[1].

فتَقَرَّرَ من هذه الآية قاعدة صحية علمية في الأكل والشرب، وعلاقتهما بصحة جسم الإنسان؛ حيث "اكتشف باحثون من فنلندا معادلة غذائية يمكن أن تزيد من عمر الإنسان بنسبة 20 بالمئة، ويقولون إن الإنسان بمجرد أن يتبع نظاماً غذائياً لا يُسرف فيه، ويعتمد على نسب محددة من الغذاء وبخاصة الغذاء النباتي، فإن ذلك سيساهم في خفض نسبة الكوليسترول، ويخفض ضغط الدم، وهذان هما السببان الرئيسيان للموت المفاجئ، وسبحان الله تعالى الذي جعل عدم الإسراف عبادة يُثاب المؤمن عليها عندما أمرنا بذلك، يقول تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31]، فالاعتدال في الطعام والشراب وسائر المباحات من الطب الوقائي القرآني.

وها هو المصدر الثاني من مصادر الشريعة، ويوافق هذا الأمرُ الإلهيُّ في ضرورة التقيد بنظام غذائي للإنسان؛ فالسنة النبوية أيضا تبين ضرر إطلاق العنان لشهوة البطن، حتى لا يتضرر جسم

[1]– محمد الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 2/ 175.

الإنسان، قال المصطفى ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[1].

فلا تعارض بين نصوص القرآن والسنة، فبجمع الآيات والأحاديث نجد تكاملا وتوافقا دقيقا، سواء في الأوامر أوفي النواهي، وبهما معًا تتجلى الحقائق وتكشف الحكم؛ ولبيان الحكمة من النهي عن الإسراف في الأكل والشرب نعرض جملة من الأخطار[2] والمضار التي تعرض جسم الإنسان إلى الأمراض والعلل، منها:

– يسبب التخمة وعسر الهضم.

– التهام وجبة كبيرة من الطعام قد تؤدي إلى هجمة خناق صدري، وخاصة إذا كانت الوجبة دسمة، وهي حالة من الألم الشديد خلف القفص تمتد إلى الكتف والذراع الأيسر، والفك السفلي، بسبب نقص التروية القلبية، وتظهر هذه الحالة غالبا عند المصابين بأمراض الأوعية الدموية القلبية إثر الجهد.

– توسع المعدة الحاد، وهي حالة خطيرة قد تؤدي للوفاة.

– انفتال المعدة، وهي إصابة خطيرة ونادرة تحدث بسبب حركة معاكسة للأمعاء بعد امتلاء المعدة الزائد بالطعام.

– المعدة الممتلئة بالطعام أكثر عرضة للتمزق إذا تعرضت لرضّ خارجي، وقد يتعرض المرء للموت بالنهي القلبي (Vagal Inhibition) إذا تعرض للضرب على المنطقة فوق المعدة.

– تصلب الشرايين: وهو داء خطير يشاهد بشكل ملحوظ عند الذين يتناولون كميات كبيرة من اللحوم، حيث يصابون بفرط تدسم الدم.

– داء النقرس (Gout) داء الملوك: وهو ألم مفصلي يأتي بشكل هجمات عنيفة وخاصة في مفاصل القدم والإبهام، ويشاهد كثيرا من اللذين يتناولون كميات كبيرة من اللحوم.

وقائمة الأمراض ما زالت طويلة، وأضرار الإسراف في الطعام والشراب تحصد كل يوم ضحايا، وأرواح، فهذه المخاطر، وقد أرشد إلى اجتنابها الإسلام، حيث وجه المسلم إلى عدم الإسراف في الأكل والشرب لسلامة المعدة والجسم كله، ما دام المعدة هي بيت الداء؛ تعود إلى سؤال الطبيب النصراني الحاذق لعلي بن الحسين بن واقد لنكمل الشق المتبقي من النص، فبعد أن بين له أن الله جمع الطب كله

---

[1]– رواه الترمذي، **سنن الترمذي**، أبواب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، [2380]، 4/ 590، قال حديث حسن صحيح.

[2]– ينظر: أحمد مصطفى متولي، **الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية**، القاهرة، دار ابن الجوزي، ط 1 (1426هـ–2005م)، ص: 957–958؛ وينظر: عبد الحميد دياب، أحمد قرقوز، **مع الطب في القرآن الكريم**، دمشق، مؤسسة علوم القرآن، ط 2 (1402هـ– 1982م)، ص: 130.

في نصف آية ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31]، يسأله هل هناك شيء عن الطب في سنة النبي ﷺ، قال النصراني "ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب؟ فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: وما هي؟ قال قوله «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء"[1]–.

"وقد أجمع الأَطباءُ – قديما وحديثا – على أَن المعدة بيت الداء والحميةَ رأس الدواءِ، وأن الدواء قلَّما ينفع مع عدم الحمّية. وكثيرا ما اعتمد حكماءُ الهند على حمية المريض أَياما، فَيَصِحُّ جسمه بدون علاج آخر"[2].

إذن فقاعدة (كلوا واشربوا ولا تسرفوا)، قاعدة صحية عظيمة، تصحب المسلم في كل مراحل حياته، حتى لا يعرض جسمه وصحته البدنية للتهلكة، باعتبار الأكل وسيلة لا غاية، وبتطبيق هذه القاعدة يترفع المسلم الإنسان عن مرتبة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: 12].

فالمسلم يعتبر نفسه خليفة لله في أرضه، وهوالذي كرمه، وفضله على جميع المخلوقات، وهو المسؤول عن تعمير الأرض، وعدم الإفساد فيها، بل مهمته الإصلاح، فكيف يسمح لنفسه أن يتصف بغريزة الحيوان، إضافة إلى تشبهه بالكفار المشركين، ذلك أن الكافر جعل همه الوحيد في هذه الحياة الدنيا إشباع غرائزه الحيوانية من أكل وشرب، "أن الكفار ليس لهم همٌ في دنياهم إلا الانكباب على الأكل والتمتع في الدنيا، لا هَم لهم إلا ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح قول الرسول ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»[3]، إضافة إلى أن "الشره ضار بالنفس والفكر: فكثرة الأكل تؤدي إلى همود في النفس، وبلادة في التفكير، وميل إلى النوم، قال لقمان الحكيم "يا بني، إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة"[4]، فهذه الكلمات من الحكيم لقمان، تعتبر نصائح من ذهب لكل طالب علم، وصاحب لب ضالته الحكمة، وغايته التبحر في العلوم، ذلك "إن الله ليبغض الحبر السمين، وإنما يكره الله الحبر السمين، لأَن المطلوب من أهل العلم، التقلل في الطعام والشراب"[5].

---

[1]– الزمخشري، **الكشاف**، 2/ 100.

[2]– مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط للقرآن**، 3/ 1410.

[3]– سعد بن عبد الرحمن ندا، (**مفهوم الأسماء والصفات**)، (مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 58، (1436هـ– 2015م))، ص: 48 –49.

[4]– عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن**، ص: 130.

[5]– مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 3/ 1410.

ومن الطب الوقائي في القرآن الكريم ما جاء في بيان خبث بعض المأكولات والمشروبات، فحرم جملة من المطعومات وأطلق عليها مسمى الخبائث، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157]، ولا يقف القرآن عند كلمة الخبائث، مجملة بل يوضعها ويعددها، واحدة واحدة، حتى لا تبقى للإنسان حجة، فقد فصلها تقريبا في سورة المائدة الآية الثالثة حيث قال عز قائل: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3].

هذه الخبائث بالنسبة للمطعومات، أما بالنسبة للمشروبات كان الخمر أم الخبائث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: 90].

لا شك أن كل هذه المحرمات ضررها بالغ، على جسم الإنسان وإلا ما حرمها الله، فبعضها توصل العلم الحديث، وأثبتت البحوث العلمية عظيم ضررها، ومدى فتكها، وتدميرها للبدن والبعض الآخر، ربما لم يتوصل العلم الحديث إلى كشف أضراره، ولكن يبقى البحث متواصلا لبيان علة التحريم، والحكم الربانية الجليلة، من وراء كل نهي أو تحريم، وفي انتظار هذا الفتح العلمي نكشف في هذا العنصر بعض أضرار ومخاطر ما حرم في سورة المائدة الآية الثالثة كالميتة والدم ولحم الخنزير فنبدأ بـ:

2– بيان مخاطر وأضرار الخبائث:

أ– الميتة: ما مات حتف أنفه[1] وباصطلاح الفقهاء هي ما فارقته الحياة من غير ذكاة[2].

وخبثه في أن "الدم بعد فقدان الحياة يصبح بحكم تركيبه من أصلح الأوساط لنمو الجراثيم... يذكر كتاب والز في فحص اللحوم أن اللحم الذي لا يصفى منه الدم جيدا لا يكون صالحا... وييسر للجراثيم انتشارها بسرعة وسط اللحم"[3].

ولكن الذكاة الشرعية تعمل على تخليص الحيوان من الدم وبذلك تقضي على مصدر لانتشار الجراثيم، "فبمجرد موت الحيوان بعد خمس ساعات تقريبا تتحول جثته إلى مستودع للجراثيم والعفونات، والبكتريا وتفرز سموما، وتتولد بكميات كبيرة تضر الإنسان ضررا بالغا"[4].

---

[1]– الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، أبو عبد الله الحَلِيمي، **المنهاج في شعب الإيمان**، تح: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط 1 (1399هـ – 1979م)، 3/ 50.

[2]– عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن**، ص: 133.

[3]– نفسه، ص: 133.

[4]– ينظر: أحمد مصطفى متولي، **إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية**، ص: 533-536.

ب– الدم: الدم المحرم هو المسفوح الذي دلت الآية 145 من سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَنۡ يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: 145]، ورد في قوله تعالى: ﴿دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ أي دما مصبوبا سائلا من الحيوان"[1].

فالدم السائل هوالدم المحرم في الإسلام ذلك أنه محمل بالفضلات والسموم فهويحمل فضلات الجسم ونتائج أفعال الهدم، أمثال البوله Urea، حمض البول Uric acid والكرياتينين، غاز الكربون Co_2، ومن ذلك فتناول كمية من الدم يؤدي إلى اعتلال دماغي يتظاهر بالسبات Coma [2].

قال الدكتور ولارسون: "الدم إذا سقطت عليه الجراثيم من السكين، أومن يد الجزار، فإنها تتولد بسرعة هائلة، وتغزوا لدم كله... والدم مادة خصبة لنمو الجراثيم... فالدم يمثل خطرا كبيرا للصحة... إلى جانب عسر الهضم والمواد والفضلات"[3].

ج– لحم الخنزير: صرح القرآن بتحريم لحم الخنزير لما فيه من أضرار تعود على الإنسان، فتدمر صحته، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث، "فالخنزير حيوان قذر في طراز حياته اليومية، شبق، حريص، يلتهم الأقذار والنجاسات، والجيف حتى جيف أقرانه"[4].

فما الحكمة في تحريم لحم الخنزير؟ صحيح أنه لم يرد في القرآن الحكيم تعليل واضح لتحريم أكل لحم الخنزير، ولكنه معدود في قائمة الخبائث التي حرمها الله، ولا شك أن الخبيث المحرم فيه من المفاسد العظيمة للناس في حياتهم، فإذا سرى الخبث النجس في جسد الإنسان، انتشر ضره ليمس جوانب عديدة من حياته، صحته وماله ونفسيته، للارتباط الوثيق بين صحة البدن وصحة النفس، وتحولت حياته الطيبة التي كان يحياها إلى معيشة ضنك، وبدت عليه مظاهر التعاسة، والحزن والقلق، والاضطراب والمرض، وإذا عايش الألم والسقم والوجع فهو اليؤوس القنوط، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَنۡ يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: 145]؛ ثم يسأل الجاهل ما هي الحكمة من وراء تحريم لحم الخنزير، ولماذا لم يعلّل الشارع الحكيم موطن الضر، كما بينه في تحريم الخمر والميسر؛ كن على يقين أيها الإنسان أنه إذا زارك المرض، صغرت أو انعدمت أمامه كل المطالب، والأمنيات، إلا مطلب الشفاء وعودة العافية للبدن؛ وبناء على هذا تقدم الدراسة بعض الأضرار التي توصل إليها البحث العلمي؛ من مخابر العلماء لبيان حكمة التحريم، لمن يطلبها، نلخصها في النقاط الآتية:

---

[1]– مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الكريم**، 3/ 1349.

[2]– عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن**، ص: 135.

[3]– أحمد مصطفى متولي، **إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية**، ص: 535.

[4]– عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن**، ص: 137.

يعتبر الخنزير موطنا ومصدرا لأمراض عديدة منها[1]:

1- الزحار الزقي: تسببه طفية الزقيات الكولونية Balantidium Coli التي تعيش في أمعاء الخنزير.

2- الداء البريمي اليرقاني النزفي (داء وايل): ... أما الداء البريمي نموذج Romona فمستودعه الأساسي هو الخنزير.

3- شريطية السمك العريضة: طولها (3 – 10 م) ويلعب الخنزير دور الخازن في دورة حياتها.

4- الأميبيا النسيجية Entameba Histolyitca وتسبب الزحار الأميبي، يلعب الخنزير فيها دور العائل العادي.

5- الحمرانية (حصبة الخنزير) Eryspeloid.

- شريطية لحم الخنزير أو الشريطية المسلحة Taenia Solium تتحول في أمعاء الإنسان إلى الطور اليافع وتسبب له اضطرابات في الهضم، وآلام، وإسهال، فهي منتشرة عالميا، ويقل انتشارها في البلدان الإسلامية التي يحرم فيها أكل لحم الخنزير.
- داء الحويصلات الخنزيرية في الإنسان Human Cysticer Cosis.
- الشعرية الحلزونية Trichinella Spiralis وهي دودة شعرية صغيرة تسبب الأضرار التالية: (تخريش والتهاب جدار الأمعاء، طفح جلدي وشري... وقد تسبب الموت بسبب شلل العضلات التنفسية أو إصابة القلب، ولا علاج لها، وتنتشر في أمريكا وكندا وأوربا، تصلب الشرايين لحم الخنزير يمتاز بارتفاع نسبة الشحوم بشكل كبير، وارتفاع نسبة حمض البول في لحمه، الآلام المفصلية، التسمم الوشيقي Botulism).

قائمة الخبائث مازالت مفتوحة ولكن لدواعي البحث، عمدت الدراسة إلى بيان أشهرها، والتي خاض فيها العلم الحديث كثيرا، ومن زاوية مغايرة، نفتح نافذة أخرى للطب الوقائي الإسلامي الذي شرع نظما وجاء بمنهج فريد متكامل لحفظ الصحة الجسمية للإنسان، سبق وأعجز به كل المعرف الإنسانية، فهذا الإسلام دين ودنيا ،دين الفطرة لا يعادي حاجات الإنسان وميولاته ورغباته الفطرية، بل يلي هذه الاحتياجات بصورة راقية نبيلة، يحفظ بها مقاصد الشرعية الضرورية، وجودا، وعدما؛ وتلبية لحاجة الإنسان الجنسية، وتهذيبها، سن أحكاما وشرع أوامر ونواهي تنظم العلاقات الجنسية وتحافظ على الصحة الجنسية، يقول الدكتور أحمد شوقي في كتابه "الطب الوقائي في الإسلام" كيف أن الإسلام اعتنى بصحة البدن: "وهو يتناول تثقيف المسلم بأمور الجنس وغوامضه وتكوين الجنين ونموه ثم تعليمه كيف يختار زوجته بل وتعليمه طرق المعاشرة الجنسية السليمة، ثم أوامر للنظافة الجنسية كالاستحمام بعد

[1]-عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن**، ص: 159.

الجماع والاستنجاء من البول والغائط، وعدم إتيان النساء في المحيض... إلى جانب تحريم الزنا واللواط والشذوذ ثم تحليل الطلاق وتعدد الزوجات في الظروف الطيبة والإنسانية القاهرة"[1].

وحفظا لصحة البدن وسلامة الجسد وضع الإسلام تعاليم لمنع الإصابة بالأمراض الجنسية، وربَطَها بالعقيدة، وهذا الأسلوب القرآني الرائع ليلتزم المرء بقواعد الصحة "هوأسلوب يقوم على ربط التعاليم الصحية بعقيدة الأمة، والاستفادة من تأثير العقيدة وطاعة الناس"[2].

3- مظاهر الطب الوقائي الإسلامي:

- تحريم الزنا، واللواط، ووطء المرأة في الحيض؛ تجنبا للأمراض الجنسية المختلفة ،كالزهري (السفلس)، والإيدز، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝5 إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝6 ﴾ [المؤمنون: 5-6]، وقال أيضا مرشدًا الأزواج إلى وجوب اعتزال النساء أثناء فترة الحيض: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222].

فرغب المؤمنين في العفة، وزينها في قلوبهم وجعلها من الصفات المميزة لهم، وجعلها سببا للفلاح في الدارين، وفلاح المرء بسعادتِه، وسعادتُه تحقق له حياة طيبة؛ فالعفة إذن موصلة للحياة الطيبة، و"هذا تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك"[3].

وجعل الإسلام حفظ الفرج عن الحرام من صفات المؤمنين، وسببا للفوز بالمتاع الطيب في الأرض [4]، فمن سنن الحياة الطيبة الحفاظ على صحة البدن، والتي منها حفظ الفرج حيث رتب الله الجزاء الحسن ألا وهو الفوز بمتاع الدنيا الطيب في كنف زوج يوفر السكينة المنشودة، وصحةِ البدن، وعافية الجسم، وخلوه من الأمراض التي تعكر صفوة الحياة، وتجنبه المعيشة الضنك في جوار المرض والألم، أفضل متاع، "وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع، بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال؛ وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب"[5]، هذا قانون السنن العادل الذي يرتب الجزاء على العمل.

---

[1]- أحمد شوقي الفنجري، **الطب الوقائي في الإسلام تعاليم الإسلام الطبية في ضوء العلم الحديث**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3 (1991م)، ص: 13.

[2]- نفسه، ص: 15.

[3]- السعدي، **تفسير الكريم الرحمن**، 1/ 547.

[4]- ينظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 18/ 2453.

[5]- نفسه، 18/ 4255.

فهذا كلام في قمة الروعة يبين كيف أن الزنا يدمر الفرد والمجتمع، وأمةً بأسرها، وفي حفظ الفروج نجاةٌ من الآثام والأسقام، وحفظ لروابط الأسرة من التصدع والتشتت، وللجماعة المسلمة من شيوع الفاحشة فيها، فيدركهم عقاب الله في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا...»[1]، وأيُّ إعجاز هذا؛ فالنبي ﷺ ربط بين شيوع الفاحشة بانتشار المرض.

– ظهور الفاحشة أي الزنا "وله شاهد عن ابن عباس في الموطأ بلفظ ولا فشا الزنا في قوم قط الأكثر فيهم الموت"[2]، أي شيوع جريمة الزنا في المجتمع عقوبتها الدنيوية، انتشار الأمراض المعدية الخطيرة المميتة، التي يصعب علاجها، يقول الطيب محمد على البار في كتابه الأمراض الجنسية: "قرار منظمة الصحة العالمية WHO في الاجتماع الثامن والعشرين: "أن الأمراض الجنسية هي أكثر الأمراض المعدية انتشارا، والتي تشكل تهديدا خطيرا على الصحة في العالم اليوم، وللأسف فإن كثيرا من الدول لم تدرك بعدُ أبعاد هذه المشكلة"[3].

والعالم اليوم يعايش الأوجاع والطواعين المختلفة، ربما زمنه – عليه الصلاة والسلام– كان طاعونا واحداً معلوما، طاعون العصر، واليوم أمراض جنسية كثيرة، بعضها مجهول وبعضها معلوم، ويتربع على عرشها طاعون – الإيدز[4] المخيف– الذي يدمر جهاز المناعة، فيُضحي المريض عرضة لشتى الفيروسات، وربّ – زكام– يدخله القبر "فمنذ أوائل ثمانينات القرن الماضي أدى "الإيدز" إلى وفاة 35.4 مليون شخص"[5] وبلغ عدد الإصابات بمرض الإيدز القاتل (نسبة الوفيات مائة بالمائة)[6]، أرقام مفزعة تقر بها الوزارات والمنظمات العالمية للصحة، ويقف العلم الحديث أمامها موقف متحسر مكتوف الأيدي، والسبب اقتراف الفواحش، وتعدي حدود الله، إذ إن "الزنا واللواط من أبشع

---

(1)– رواه ابن ماجة، **سنن بن ماجه**، أبواب الفتن، باب العقوبات، [4019]، 5/ 150.

(2)– ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب أجر الصابر على الطاعون، [5734]، 10/ 193.

(3)– محمد علي البار، **الأمراض الجنسية أسبابها– وعلاجها**، جدة، دار المنايرة، ط 2(1406هـ– 1986م)، ص: 6.

(4)– الإيذر: المرحلة الأخطر و المتأخرة من عدوى فيروس فقدان المناعة المكتسبة.

SIDA : phase grave et tardive de l'infection par le virus d'immunodeficience humaine (VIH. 1 et V.I.H.2) (abreviasion de syndrome d'immunodeficience acquise). Petit Larousse de la Medecine, docteur Yves Morin, distributeur exclusif au canada, p 847.

(5)– محمد علي البار، **الأمراض الجنسية**، ص: 8.

(6)– نفسه، ص:8 .

الفواحش التي حرمها الله بين البشر؛ لما تناله من كرامة الإنسان والإنسانية، ولما تنزل بالبشرية إلى مستوى البهيمة"[1].

ولا يقف أثر وضرر اقتراف الفواحش عند انحطاط بشرية الإنسان، وخروجها عن الطبيعة، وملامستها لبهيمة الأنعام، بل يتعدى إلى بروز مظاهر وخيمة، تنغص على الإنسان عيشه، وتجعله يصارع الآلام، ويتأوه ترانيم الآهات ويتنفس حسرات الأوجاع؛ فما هي يا ترى أمراض وأسقام إتيان الفواحش؛ تبين الدراسة أخطرها على صحة الإنسان، والتي لم تكن معهودة، أومنتشرة في آسلافنا، ترتب حسب ظهورها في العصر الحديث.

1- مرض الزهري[2] (السفيلس) ظهر أثناء الحرب العالمية الثانية (عندما انتشر في الجنود، وسماه الإيطاليون "الداء الفرنسي"[3] والناتج عن الزنا، يقول الدكتور جون بيستون: "إن القرائن التي جمعت من عدة دراسات تدل على أن الأمراض الجنسية تنتج في معظمها عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج، (أي الزنا)[4]".

حيث وصل عدد الإصابات بالسفيلس في العالم عام ستين وتسعمئة وألف (1960م) حوالي (20800)[5] إصابة، ولخطورة هذا المرض عقد عام أربعة وستين وتسعمئة وألف (1964م) مؤتمر عالمي ضخم في أمريكا بحث مرض الزهري (السفيلس)، والأمراض المشابهة له[6] وتظهر على المريض المصاب بالسفيلس "آفات جلدية مخاطية في كل مكان، ويتحول في طور من أطواره إلى (Lekoplakia) سرطان اللسان، كما يصاب الكبد والطحال والكلية والسحايا والدماغ... وهنا يكمن الخطر... فتظهر الآلام الفظيعة"[7].

فسرعة انتشار هذا المرض وهيمنته على كافة أعضاء الجسم تترجم ببساطة خطورته، وتدميره لعضوية الجسم، وتقدر منظمة الصحة العالمية WHO عدد المصابين بالزهري (السفيلس) بخمسين

---

[1]- عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن الكريم**، ص: 168.

[2] - **الزهري**: هو **مرض** مُعدٍ جداً ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي،تسببه بكتيريا تيبوننيما

Syphilis : maladie infetieuse sexuellement transmissible due à une bactériee, Treponema pallidum (tréponéme pale) . syn vérole .larousse da la médcine p906.

[3]- محمد علي البار، **الأمراض الجنسية**، ص: 17.

[4]- عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن الكريم**، ص: 169.

[5]- ينظر: نبيل صبحي الطويل، **الأمراض الجنسية**، ص 13، نقلا عن عبد الحميد دياب، مع الطب في القرآن الكريم، ص167.

[6]- نفسه، ص: 11.

[7]- ينظر: عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن الكريم**، ص: 169 .

مليون سنويا[1]، إذا كانت هذه الأرقام مهولة، فما بالك بداء العصر، الداء الذي يحصد سنويا ملايين الأرواح، والذي ينبغي أن يطلق عليه اسم مرض اللواط، ألا وهو"الإيدز" أو مرض فقدان المناعة المكتسبة، الذي يعتبر مرضا مزمنا يشكل خطرا على الحياة سبق تعريفه تعريفا علميا طبيا، المهم أنه فيروس نقص المناعة البشري (Human HIV- immunodeficiency)، فهو انتشر في الولايات المتحدة لأول مرة سنة تسع وسبعين وتسعمئة وألف (1979م)، وفي نهاية الثمانينات، كانت الحالات المصابة بهذا الفيروس في الولايات المتحدة الأمريكية (3064 حالة)[2]، وتمكن خطورة هذا المرض أن المريض يصبح وجهة مقصودة لجميع الأمراض، وأطول مدة يعيشها المصاب لا تتعدى العامين أو أقل، لأن المرض يهاجم الخلايا اللمفاوية التي تدافع عن الجسم؛ وعرف هذا المرض وأنتشر وسط الشاذين جنسيا، حتى لا تكاد تجد مرض الإيدز إلا وانطبع في مخيلة الناس صورة مثلي شاذ جنسيا، يقول أحد المصابين بهذا المرض العار "إنني مهتم لأحوال إخواني الشاذين جنسيا المصابين بالإيدز، والذين يرفضوا الجميع أن يقدموا لهم أي خدمات، عليهم اللعنة!"[3]، ويقول آخر: "إنك لا تعيش آلام الإيدز فقط ولكن تعيش منبوذا من المجتمع"[4].

كيف يدمر هذا الفيروس بنية الجهاز المناعي، حتى تنتشر المكروبات والفيروسات، والبكتيريا والطفيليات والفطريات ليصبح جسم المريض قبلة لها، والتي تعرف باسم الأخماج الانتهازية (Infections Opportunistic)، والأدهى والأمر انتشار أورام خبيثة (ساركوما- كابوسي) (Kaposissarcoma)، ليصاب الجهاز المناعي وتنخفض الخلايا اللمفاوية انخفاضا بليغا، فيعدم دفاعها، ومقاومتها، فتعيث الجراثيم فساداً في جسم المريض؛ فيشكو الحمى، والآلام، يبدأ العدُ التنازلي لفقدان الوزن، إضافة إلى تدهور صحتهم النفسية، فيصاب المريض باليأس، والإحباط؛ حيث تشير الدراسات أن الكثير منهم يقدم على الانتحار، فهو ينتظر الموت في كل يوم، ... ألا يكون طاعون العصر هو الطاعون الذي تنبأ له رسول الله ﷺ؟!.

لذلك نجد الفزع والرعب اليوم يعم العالم بأسره نتيجة لتزايد حالات الإصابات بالايدز، وعدم الوصول إلى دواء، أو لقاح شاف حافظ؛ "فإن الهلع والرعب أخذ يدب في أوصال المجتمعات الغربية

---

[1]- ينظر: محمد علي البار، **الأمراض الجنسية**، ص: 18.

[2]-ينظر: محمد علي البار، **الأمراض الجنسية**، ص: 47.

[3]- نفسه، ص: 133.

[4]- نفسه.

وأخذت الصحف والمجالات تنشر مظاهرات الشاذين جنسيا في الولايات المتحدة، وأوروبا هو يطالبون حكوماتهم بان تحميهم من الطاعون الجديد الايدز"[1].

3- رصد للفئات التي تصاب بالايدز في المجتمعات الغربية: يبين الجدول مرض الايدز حسب فئات المرضى في الولايات المتحدة 1985:

الفئة المريضة	عدد الحالات	النسبة المئوية
الشاذون جنسيا	7621	%73.4
مدمنو المخدرات (بالوريد)	1685	%17
مرضى الهيموفيليا	65	%0.7
مرضى نقل الدم بسبب	134	%1.4
اتصالات جنسية بين الرجل والمرأة	81	%0.8
آخرون غير معروف السبب	661	%6.7

من خلال تحليل نتائج هذا الجدول يتضح أن الفئة الأكثر تضرر بهذا المرض هم الشاذون جنسيا.

يقول الدكتور علي البار[2] أنه عندما ظهر المرض في الثمانينات في الولايات المتحدة الأمريكية، اتصل أحد الأطباء ويدعى جوتليب بزملائه في مدينتي سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس يسألهم عن هذه الظاهرة الغريبة (الايدز) فوجئ بأنهم أيضا يتساءلون عن نفس المرض الذي بدأ يظهر على مجموعة من الرجال المصابين بالشذوذ الجنسي، ... وأنهم فاقدون للمناعة، ومصابون بالتهاب رئوي حاد مميت، وبورم خبيث يدعى غرن كابوسي[3].

عمدت أولا إلى الحديث عن الأمراض الجنسية التي تنتقل عن طريق الزنا واللواط، وبيان مدى معاناة المرضى، ومدى ارتفاع معدل نسبة الوفيات بهذه الأمراض، إضافة إلى الذعر والفزع الذي عرفته الوزارات والحكومات، من الانتشار السريع لهذا الداء الطاعون، لأترك في الأخير المظهر الوقائي المعجز الذي شرعه الدين الإسلامي لاجتناب الوقوع في مثل هذه الأمراض الجنسية الخطيرة، باتباع المنهج الرباني القويم.

[1]- محمد البار، **الأمراض الجنسية**، ص: 151.

[2]- نفسه ، ص146.

[3] – نفسه، ص: 137 .

الفرع الثالث: المظاهر السننية للعلاج

أمر الإسلام بالتداوي عند المرض وأكد عليه؛ دفعا للضرر عن البدن؛ فليس في تشريعات الدين الخاتم التعبد بإلحاق الأذى بالجسم و تعذيب النفس، طلبا للوصول إلى درجة القرب أو الولاية، عكس ما نجده في بعض طقوس الدينات الوضعية.

أولا: سننية العلاج والتداوي

شاءت حكمة إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخضع خلقه لسنن ونواميس ثابتة، بثها في كتابه المسطور والمنظور على سواء، وأمر الإنسان بتدبر آيات القرآن والكون لاكتشافها واستثمارها؛ حتى يعيش حياة طيبة، ومن جملة هذه السنن سنن للعلاج والتداوي، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: 82].

لقد أولى الإسلام صحة الإنسان عناية فائقة، حيث وضع منهجاً صحياً قويماً لحفظ صحة جسم الإنسان، فوضع قواعد وقائية معجزة لدفع الداء قبل وقوعه، وقد سبقت الإشارة إليها في صفحات هذا البحث، ولكمال الدين الإسلامي، وشموليته جاءت تعاليمه خادمة للدين والدنيا، رابطة بين الجانب الروحاني التعبدي والجانب الجسماني الشهواني، ولأن الإنسان قد يغفل عن المنهج الوقائي، الصحي، ويقع في الأسقام، والأمراض، فيتضرر بدنه، ويعاني مرَّ المرض فلا يمكن أن يطلب منه التضرع والصلاة والعبادة فقط ليخلص جسمه من الضرر والوجع، ولكن شرع له باب العلاج والتداوي لرفع السقم، والتخلص من المعاناة؛ فسنت التشريعات الداعية، والموجبة للتداوي والعلاج، والتي توجزها في النقاط الآتية:

1- سننية العلاج والتداوي في القرآن الكريم والسنة النبوية: قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿83﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿84﴾ ﴾ [الأنبياء: 83-84]، وقال عز قائل: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: 44]، وقال العزيز الحكيم: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: 82].

يقول الرازي في تفسيره للآية الكريمة: "وَالْمَعْنَى وَنُنَزِّلُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ الَّذِي هُو قُرْآنٌ مَا هُو شِفَاءٌ، فَجَمِيعُ الْقُرْآنِ شِفَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، .... شِفَاءٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَشِفَاءٌ أَيْضًا مِنَ الْأَمْرَاضِ

الْجُسْمَانِيَّةِ، ... وَأَمَّا كَوْنُهُ شِفَاءً مِنَ الْأَمْرَاضِ الْجُسْمَانِيَّةِ فَلِأَنَّ التَّبَرُّكَ بِقِرَاءَتِهِ يَدْفَعُ كَثِيرًا مِنَ الْأَمْرَاضِ. وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِالْقُرْآنِ فَلَا شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى»"[1].

فكلام الله شفاء للنفس والروح، وشفاء للبدن العليل "فَالْقُرْآنُ هُوالشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ... وَإِذَا أَحْسَنَ الْعَلِيلُ التَّدَاوِيَ بِهِ، وَوَضَعَهُ عَلَى دَائِهِ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ، وَاعْتِقَادٍ جَازِمٍ وَاسْتِيفَاءِ شُرُوطِهِ لَمْ يُقَاوِمِ الدَّاءُ أَبَدًا... فَمَا مِنْ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ سَبِيلُ الدِّلَالَةِ عَلَى دَوَائِهِ وَسَبَبِهِ وَالْحِمْيَةِ مِنْهُ، لِمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهْمًا فِي كتابه"[2].

من أخذ بالمنهج الرباني، والتزم بتشريعاته وخضع لأوامره، وفقه سنن الله في العباد وعمل بمجاراتها، ولم يتنكبها؛ ذلك أن الله جعل سننًا تعمل مجتمعه ولا تتخلف يخضع لها جميع البشر في أفعالهم وسلوكهم، في الحياة، فإذا اتبعوها وأخذوا بها، سعدوا وفازوا وتنعموا بطيب الحياة، ومنها سنن العلاج والتداوي، ورفع الضر عن البدن.

يقول الشيخ السعدي: "القرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العاملين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا، ... فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل"[3].

يقول الشيخ بأن القرآن مشتمل على العلم اليقيني، فعلم الله سنته التي بثها في الوجود، الثابتة التي لا تتغير، وما فيها من أسباب ووسائل، للفوز والفلاح، والنصر والتمكين، ونجد من العلماء من عرف السنن بالأسباب والوسائل، فمن عمل وفْقَها فاز بالسعادة والرحمة، وهي مفتاح الحياة الطيبة، في الدارين؛ لذا نجد تعاليم القرآن، وتشريعاته تحث وتلح على ضرورة التداوي، وترشد وتوجه إلى كيفية العلاج سواء النفسي، أو البدني الجسمي فأشار الوحيان (القرآن، والسنة) لاكتشاف سنن التداوي والعلاج، إشارات بينة جلية، يستنبطها كل حاذق، ومتى عقلها وتدبرها، أمكنه التنعم والفوز بخيراتها

---

[1] – الرازي، **مفاتيح الغيب**، 389/21.

[2]– ابن القيم، **زاد المعاد**، 4/ 322.

[3]– السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، 1/ 465.

وحقق الشفاء المشار إليه والمرغوب فيه، والذي هو"من أجَلّ نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين"[1]، والشفاء والعافية وسلامة البدن من المظاهر السننية للحياة الطيبة.

2– سنن العلاج والتداوي في القرآن الكريم:

أ– سنة إتباع الأسباب: ورد ذكر هذه السنة في كشاف السنن الإلهية[2]، وهي محل التوكل فالاعتماد على الله سبحانه وتعالى مسبب الأسباب، وتعاطي الأسباب عبادة، وطاعة، والأخذ بها أمر الشرع به، وعليه فعلى الإنسان الأخذ بسنن الحياة الطيبة، والتي منها أولا الأخذ بأسباب الحياة[3]، والحفاظ على أمانة النفس التي كرمها الله وحرم التعدي عليها مما يؤدي إلى إعدامها، فشرع لحفظها وجودا سنة الزواج، والتكاثر، والأكل والشرب، والتداوي والعلاج ومن ضمن سنن الله في الأخذ بأسباب الشفاء للحفاظ على صحة الجسم؛ ما سنعرضه في وسيلتين شفائيتين من نصوص الوحي، نكتفي بهما في هذا المبحث، لان الدراسة تعرضت لبعض الوسائل في المباحث السابقة[4] الأولى الاغتسال بالشراب البارد، والثانية العسل.

ب– سنة الأخذ بأسباب الشفاء: من سنن الله في التداوي والعلاج سنة الأخذ بأسباب الشفاء[5]، حيث جعل الله الشفاء في تلاوة القرآن،كما جعله في أشياء أخرى ذكر بعضها في كتابه،كي يتسنى لعباده السعي وراء أسباب الشفاء، ومنها:

ب–1– التداوي بالاغتسال والشراب: قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿41﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿42﴾ ﴾ [ص: 41-42].

هكذا تمضي سنن الله في عباده فهذه سنة الابتلاء، وحياة الأنبياء مفعمة بالابتلاءات، والصبر، أكبر مدرسة للمرسلين تخرجوا منها بشهادات التقدير والامتياز، فهذا نبي الله أيوب معلم الصبر للبشرية – عليه السلام– "جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده"[6]، بالضراء، وصبر أيوب مثل في الصبر الرفيع وتصور حسن العاقبة فجاء الابتلاء بالمرض وفق الناموس الإلهي، واختبر الممتحن

---

[1]–السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، 1/ 744.

[2]– زينب عطية محمد، **أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم**، كشاف موضوعي، السنن الإلهية في الأفاق والأنفس والأمم، ط 1(1416هـ– 1995م)، قطر، دار الوفاء، المجلد الثاني، 1/ 1649.

[3]– فلا صحة جسمية لمن لا حياة له أصلا (كالميت).

[4]– يراجع المبحث الثالث من الفصل الأول: أنواع السنن الإلهية، الفرع الثاني: سنن آفاق الأرض (الإعجاز العلمي في النخيل الرطب، الزيتون، العنب، وبيّنت الدراسة فوائدها لجسم الإنسان)، ص 97.

[5] – زينب عطية، **السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم**، 1/ 1651.

[6]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 23/ 3005.

بالضر والألم الشديد، إضافة إلى الغم الكثير بسبب "زوال الخيرات وحصول المكروهات... لا جرم، ذكر الله لفظين وهما النصب والعذاب"[1]، وإن كان الكلام عن الابتلاءات السابقة لهذا النبي الكريم – عليه السلام- من زوال رزقه، ووفاة أبنائه، ليس مقامها هاهنا، ولكن أشرنا إليها في سياق الكلام، وللاقتداء والإتباع، "وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء"[2]، فهو نموذج الصبر في كتاب الله؛ ولأن من ضمن الأخذ بأسباب الشفاء التضرع إلى الله بالدعاء، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 83]، "ولأن شريعة الله للناس طرف من ناموسه في خلق الكون، وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس"[3]، وقع الابتلاء بالمرض واعتل البدن، وضعف، وقام العليل الأوجاع والأسقام، ولكن وفق سنة الله في خلق الإنسان ضعيف، جاء النداء والتضرع بالدعاء للخالق الرحيم من العبد الصالح: "مسني الضر"، فالإنسان بطبعه ضعيف، رغم ممدحة الصبر، إلا أن معجزة الدعاء والاستغاثة للباري، أعظم بدرجات، وهكذا تجري السنن في الخلق، فالسنن التشريعية تنص على ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: 186].

ضرورة الدعاء فهو من العبادة، وتدفع سنة الله العادلة في نصرة الأنبياء والرسل وعباده الصالحين سنة الله في الابتلاء، ليصدق وعد الرحمان ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: 186].

فسنة التداوي بالاغتسال والشراب تفعل فعلها في جسد العليل ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: 42]، فامتثل وضرب الأرض برجله (وهذا من اليقين المحقق للاستجابة) فانفجرت عين فاغتسل – عليه السلام- فذهبت آلامه وأوجاعه، وصح بدنه، والتأمت جروح وقروح جلده، يقول الطبري: "فركض برجله فنبعت عين، فاغتسل منها، فلم يبق عليه من دائه شيء ظاهر إلا سقط، فأذهب الله كل ألم وكل سقم، وعاد إليه شبابه وجماله"[4]،بعد الدعاء واتخاذ الأسباب استجاب المولى تبارك وتعالى لنبيه وعبده أيوب وكشف عنه ضره، هذا منهج الأنبياء في التوكل.

ب-2- التداوي بشرب العسل: قال تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: 69].

---

[1]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 26/ 396.

[2]- نفسه.

[3]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 23/ 3019.

[4]- الطبري، **جامع البيان**، 18/ 503.

وروى البخاري في صحيحه من حديث أَبِي سَعِيدٍ – رضي الله عنه-: "أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ، فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلًا»، ثُمَّ أَتَى الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلًا»، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلًا»، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، فَقَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلًا» فَسَقَاهُ فَبَرَأَ"[1]، وفي هذا إقرار النبي ﷺ بأن العسل شفاء من كل الأمراض، وتكذيبه لبطن العليل أي "مما يصلح للشفاء بعد بهذه الكمية التي سقيته إياها"[2].

وهكذا يوجه القرآن الناس إلى التداوي بالعسل، دفعا لمفسدة المرض والسقم، قبل اكتشاف العقاقير الطيبة، والأدوية وإلا لقال قائل، كيف أن القرآن يعتني بصحة بدن الإنسان، ويحث على ضرورة العلاج للمريض، وهذا باتخاذ أسباب الشفاء، ولا أدوية أو عقاقير تذكر أثناء نزوله؛ فالطب الحديث يعترف أن العسل قمة المضادات الحيوية الموجودة الآن ويدخل في صناعة وتركيب الكثير من الأدوية الحديثة، والعسل بكل ألوانه الأبيض، والأصفر، والأحمر، والأسود، شفاء نافع، ورحمة للتخفيف من آلام المرضى فقد جاء في حديث البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلاَثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ»[3].

وفي حديث آخر عن قتادة قال: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ – أَوْ: يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ – خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَو لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»[4].

فيقين النبي ﷺ في أن العسل من الأدوية الشافية من الأدواء، دليل على عناية الإسلام، واهتمامه بأسباب سعادة الإنسان، ومراعاته لكل حالات الجسم، ليحقق له الصحة والسلامة وعافية البدن، فيتقوى على الاضطلاع بمهمة الخلافة التي كلف بها، وفق سنن الله، يقول ابن القيم: "وَالْعَسَلُ فِيهِ مَنَافِعُ عَظِيمَةٌ، فَإِنَّهُ جَلَاءٌ لِلْأَوْسَاخِ الَّتِي فِي الْعُرُوقِ وَالْأَمْعَاءِ وَغَيْرِهَا، مُحَلِّلٌ لِلرُّطُوبَاتِ أَكْلًا وَطِلَاءً، نَافِعٌ لِلْمَشَايِخِ وَأَصْحَابِ الْبَلْغَمِ، وَمَنْ كَانَ مِزَاجُهُ بَارِدًا رَطْبًا، وَهُو مُغَذٍّ مُلَيِّنٌ لِلطَّبِيعَةِ، حَافِظٌ لِقُوَى الْمَعَاجِينِ وَلِمَا اسْتُودِعَ فِيهِ، مُذْهِبٌ لِكَيْفِيَّاتِ الْأَدْوِيَةِ الْكَرِيهَةِ، مُنَقٍّ لِلْكَبِدِ وَالصَّدْرِ، مُدِرٌّ لِلْبَوْلِ، مُوَافِقٌ لِلسُّعَالِ الْكَائِنِ عَنِ الْبَلْغَمِ، وَإِذَا شُرِبَ حَارًّا بِدُهْنِ الْوَرْدِ، نَفَعَ مِنْ نَهْشِ الْهَوَامِّ، وَشُرْبِ الْأَفْيُونِ، وَإِنْ شُرِبَ وَحْدَهُ مَمْزُوجًا بِمَاءٍ نَفَعَ مِنْ عَضَّةِ الْكَلْبِ الْكَلِبِ، ... وَيُسَمَّى الْحَافِظَ الْأَمِينَ... وَيَفْتَحُ أَفْوَاهَ الْعُرُوقِ،

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، [5684]، 7/ 123.

[2]- نفسه.

[3]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، [5680]، رفع الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ "في العسل والحجم"، 7/ 122.

[4]- نفسه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، [5683]، 7/ 123.

وَيُدِرُّ الطَّمْثَ، وَلَعْقُهُ على الريق يُذْهِبُ الْبَلْغَمَ، وَيَغْسِلُ خَمْلَ الْمَعِدَةِ، وَيَدْفَعُ الْفَضَلَاتِ عَنْهَا، وَيُسَخِّنُهَا تَسْخِينًا مُعْتَدِلًا، وَيَفْتَحُ سُدَدَهَا، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِالْكَبِدِ وَالْكُلَى وَالْمَثَانَةِ، وَهُو أَقَلُّ ضَرَرًا لِسُدَدِ الْكَبِدِ وَالطِّحَالِ مِنْ كُلِّ حُلْوٍ"[1].

كاد ابن القيم أن لا يترك داء أو منفعة لاستعمال العسل إلا ذكرها، ما نكتفي به عن أقوال المعاصرين من الأطباء والباحثين في بيان ووصف العسل كدواء لكل داء والتي ستبين الدراسة بعضها لنقف على الخواص العلاجية للعسل.

ب–3– مكونات العسل: يحتوي العسل أكثر من سبعين مادة[2] مختلفة فهو:

- أهم منبع للمواد السكرية الطبيعية، وإن 1 كغ من العسل يعطي طاقة تقدر بـ 3250 حريرة.
- يحتوى على الخمائر (الإنزيمات) التي تساعد في عمليات الاستقلاب والهضم – يحوي مجموعة من الفيتامينات
- يحوي العسل أنواعا من البروتينات والحموض الأمينية، والحموض العضوية، وعلى منشطات حيوية، وعلى روائح عطرية.
- الأملاح المعدنية وأهمها: أملاح الكلس، والصوديوم والبوتاسيوم والمنغنيز والحديد والكلور والفوسفور والكبريت واليود.
- كما يؤكد الكثير من الباحثين على وجود مواد مضادة لنمو الجراثيم في العسل، كما يعتقد بوجود هرمون نباتي ونوع من الهرمونات الجنسية (من مشتقات الاستروجين)[3].

فبعد أن تعفنا على المواد التي يتكون منها العسل، حُقَّ له أن يسمى "شفاء للناس"، فلم تجتمع هذه المواد على الإطلاق في أي نوع من الغذاء، أو الشراب، ويكمن السر في ذلك في الشق الأول من الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل: 69].

الإيحاءات الربانية، جاءت متتالية في هذه الآية كلي من كل الثمرات، فقد ذلّل الله لك كل الطرق، وهيأها بطريقة يقع معها النفع فتنوع الثمرات، وأنواع الأزهار، والأشجار، سّر تنوع مكونات العسل وخواصه ومواده، فهكذا هي سنن الله في خلقه سواء الناطق، أو غير الناطق، "الإيحاء إلى

---

[1]– ابن القيم، **الطب النبوي**، باب هديه في علاج استطلاق البطن، بيروت، دار الهلال، (د،ط،ت)، 1/ 28.

[2]– ينظر: عبد الحميد دياب، **مع الطب النبوي**، ص: 182.

[3]– نفسه، ص: 184.

النحل: إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه... دلائل بينة شاهدة على أنّ الله أودعها علماً بذلك وفطنها"[1].

فخالق الكون، المبدع الذي أوحى إلى النحل، وذلّل لها السبل، وأمرها بالأكل من الثمرات على تنوعها واختلاف ألوانها، ومذاقها، وأشكالها، غاية واحدة يقصدها وهي مصلحة الإنسان عن طريق الاستشفاء بما يخرج من بطنها ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: 69]، فكيف يتحقق الاستشفاء بالعسل.

يذكر صاحب كتاب –العسل فيه شفاء للناس–، أمراض كثيرة يتم شفاءها بالعسل"[2]:

1- **شفاء النزلات الشعبية**: مثل حالات المصاب بالنزلات الشعبية من كريب ورشح وانفلونزا وما شابهها، بتناول العسل بعد مزجه بالحليب الساخن، ... كما أن العسل ما يزال يستعمل منذ عصر ابيقراط في حالات ارتفاع الحرارة، ويؤكد البروفسور شوفان أثر العسل كمخفض للحرارة.

2- **شفاء التهابات الأنف والحنجرة والبلعوم والقصبات**: "في المؤتمر العالمي العشرين للنحالة في بوخارست قدم تقريرا عن النتائج المشجعة التي تحصل عليها من جراء استخدام العسل في معالجة المرضى المصابين بالتهابات الأنف الحادة المزمنة Rhinitis والتهاب الحنجرة Laryngitis والتهاب البلعوم والقصبات Bronchitis"[3].

وقد عرف العسل منذ القديم بفعاليته في مداواة ومعالجة أمراض الرئة والسل، فقد كان الرئيس ابن سينا يعالج مرض السل الرئوي بالعسل، وإلى يوم الناس هذا وجميع الشعوب تستعمل العسل لكل أنواع الالتهابات الجرثومية، "إن الشراب المحضر من العسل يمتص الرطوبة ويهدئ السعال"[4].

3- **شفاء لإمراض الدم**: أثبت الطب الحديث مدى فاعلية العسل في معالجة أمراض فقر الدم وقدرته الهائلة في زيادة نسبة الكريات الحمراء وارتفاع الخضاب في الدم "وللعسل فعل مضاد للنزف ويمكن أن يعاوض عن نقص فيتامين K وذلك لاحتوائه على مواد لها نفس التأثير"[5].

4- **شفاء لأمراض القلب**: الحمد لله الذي جعل العسل شفاء للناس، وعلاجًا ناجعًا لكثير من الأمراض والعلل، وتعتبر أمراض القلب على اختلافها أكثر الأمراض المعيقة لحركة ونشاط الإنسان، والتي تجعله هزيل الجسم، ضعيف القوى، شارد الذهن، مضطرب النفس؛ وتعتبر أمراض القلب آفة العصر

---

[1] – الزمخشري، **الكشاف**، 2/ 618.

[2] – ينظر: محمد نزار الدقر، **العسل فيه شفاء للناس**، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 3(1401هـ- 1981م)، ص: 172.

[3] – محمد نزار الدقر، **العسل فيه شفاء للناس**، ص: 177.

[4] – نفسه، ص: 184.

[5]– عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن**، ص: 185.

عصر التطور والضغوطات، حيث شاع وكثر انتشارها في هذا الزمن بمعدلات مفزعة، حتى أضحت السكتات القلبية أكثر أسباب موت الفاجئة، وانتشر هذا الموت وسط الشباب، وطُقَّ ناقوس الخطر وسط الأطباء والباحثين لتدارك الفاجعة.

والعلاج والحل مذكور منذ قرون في كتاب الله العزيز ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾وتبهر النتائج والأبحاث الحديثة أطباء القلب والشرايين، بدور العسل الفريد في تقوية عضلة القلب "بشكل ممتاز عن طريق سكاكره السريعة التمثيل، كما يوسع الأوعية الإكليلية، ويفيد في تنظيم دقات القلب المضطربة"[1].

5- **شفاء لأمراض النساء والتوليد**: من المعلوم أن المرأة معرضة للأمراض أكثر من الرجل ذلك أنها تكابد وهن لحمل ومصاعب الولادة، وتضعفها الرضاعة، ويجهد بدنها الرقيق عناء تربية الأبناء ومسؤوليات البيت المختلفة الملقاة على عاتقها، فنجدها فريسة للإمراض، كتعفنات والتهابات المهبل والرحم والأعضاء التناسلية، وهنا أيضا يدخل العسل كدواء سحري لعلاج هذه الأمراض؛ لابد أن تمر كل امرأة في فترة الحمل على المرحلة الأولى وهي أشد المراحل وأصعبها على جسم المرأة وتسمى (الوحام) ذلك أن جسم المرأة تعرض لدخول عارض خارجي لا تعرفه العضوية فتظهر على الحامل أعراض غريبة كالمرض (الاقياء، الإغماء، غثيان، ...).

يستعمل العسل لعلاج التهاب المهبل، فالعسل كما تعلم مضاد للجراثيم وللعفونة، ومن البديهي أن أي التهاب يحصل في جسم الإنسان سببه جرثومي، ولهذا بدهن جدار المهبل، وعنق الرحم والأعضاء التناسلية بكمية من العسل، تقضي على التعفنات والجراثيم ويتحقق الشفاء خلال ثلاثة أيام من العلاج فقط، حيث أصبحت هذه التقنية تستخدم بكثرة في عيادات التوليد وأمراض النساء، وأصبحت من البديهيات والمسلمات.

6- **شفاء لأمراض العين**: يقول عبد الحميد دياب في كتابه مع الطب في القرآن الكريم "استخدم العسل قديما وحديثا في معالجة أمراض العين، وأعطى نتائج مشجعة وجيدة"[2]، ويذكر الأمراض التي تأكدت التجارب العلمية العديدة والتي لا تقبل الشك من علاجها باستعمال العسل:

- التهاب حواف الأجفان، التهاب القرنية.
- كثافات القرنية وتقرحاتها.
- حروق العين.

---

[1]-عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن**، ص: 198.

[2]- نفسه، ص: 92.

– قصر البصر، "حيث عالج به في مستشفى أوديا الاقليمي الذي يعتبر من أشهر مشافي العيون في العالم كثيرا من التهابات القرنية وتقرحاتها"[1].

وأمر به ﷺ "لأنه ينفع العين ويقوّيها ويشدّ أعصابها ويحفظ صحتها ويذهب باللحم الزائد في القروح وينقى أوساخها ويجلوها ويذهب الصداع إذا اكتحل به مع العسل الرقيق ... وهو أجود الأكحال"[2].

والاكتحال بالعسل والماء نافع جدا للعين وهو مجرب وسط العائلات وهو نصيحة الجدات الحكيمات للبنات، يضفي على العين لمعان وصفاء؛ ولو تتبعنا كل البحوث والدراسات الحديثة المثبتة والمجربة على العسل لمعالجة الأمراض لنفذ المداد وما وسعت صفحات البحث، عرض كل ما توصل إليه العلم الحديث في الاستشفاء بالعسل.

نكتفي بهذا بخصوصية الدراسة والبحث، ولنثبت سنة من سنن الله في العلاج والتداوي بما ذكره في كتابه، وأرشد إليه عباده وحثهم على ضرورة استنباط سننه في كونه وخلقه، لينعموا بالحياة الطيبة، لأن سنة التداوي والعلاج من مظاهر الحياة الطيبة السننية ذلك أن العلاج والتداوي محصل لصحة البدن، يقول ابن عباس: "النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار"[3]، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: 8].

وفي الأخير نلمس بعد هذه الرحلة الصحية المباركة ونحن ننتقل بين نصوص الوحيين – القرآن الكريم والسنة النبوية–، مدى اهتمام الدين الإسلامي بصحة الإنسان، حيث أسقط، وخفف، عدة عبادات مفروضة ليعتني الإنسان بصحة بدنه ولا يجهده إجهاداً قد يعرضه للإنهاك، والمشقة والتعب المؤدي للمرض والضعف.

وكيف أن كل ما ذكر في نصوص الوحيين من وسائل للاستشفاء والتداوي، قد برهنت الأبحاث والدراسات الحديثة، نجاعتها في القضاء على الأمراض، ورغم غزارتها، مازال الباب مفتوح، لاكتشاف المزيد منها، فأسرار الوحيين لا تنقض، ولا تعد ولا تحصى، وفي هذا تحفيزاً للعقول والأدمغة للتفكر والتدبر في آيات القرآن، ووحي السنة.

---

[1]– الدقر، **العسل**، ص: 9.

[2]– محمود محمد خطاب السبكي، **المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود**، تح: أمين محمود محمد خطاب، باب فوائد الاكتحال، مصر، مطبعة الاستقامة، ط 1 (1351– 1353 هـ)، 10/ 104.

[3]– ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 4/ 670.

ثانيا: ممارسة الرياضة

لما كان من أحب الصفات التي وصف بها الله سبحانه وتعالى – عبده المسلم- صفة ﴿ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: 26]، جاءت تشريعاته، وتوجيهاته، مرغبة، محببة داعية إلى العناية بالبدن، في كل الجوانب، حتى يفوز المسلم بصفة (القوي)، لذلك اهتم الإسلام بصحة الأبدان، ليعيش المسلم حياة النشاط، والقوة، فيكتسب الطاقة المحركة الإيجابية، التي تحقق له حياة طيبة ملؤها الصحة والعافية، والسلامة من كل ما يعكر صفوها، وينغص عليه عيشه.

ومن هذه النظرة الشمولية الموضوعية لدين الإسلام جاءت التشريعات المشجعة والداعية لممارسة الرياضة البدنية التي تعتبر شفاء وعلاج لكثير من الأمراض، وبهذا يضيف الشرع سبقا آخر إلى رصيده، بأن حث على أهمية الرياضة البدنية لجسم الإنسان؛ فسبق العلم الحديث بقرون مضت، وبناء على هذا تعرض الدراسة بعض النصوص الشرعية المرغبة والتي تدعو المسلم إلى ممارسة الرياضة البدنية لتطوير وتنمية قوة جسمه.

فهذا حديث شريف يذم الكسل، يحث على الحركة والنشاط، قال ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَهُو لَهْو وَسَهْوٌ، إِلَّا أَرْبَعَ خِصَالٍ: مَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَتَعَلُّمُ السِّبَاحَةِ»[1]. ومن الرياضات التي حث عليها الإسلام منها:

1- الرماية: عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ قَال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُو عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»[2].

يتجلى لنا واضحا من خلال الحديث أن الإسلام يصرح بفضيلة الرمي، حتى إن العلماء والفقهاء والمحدثين جعلوا في كتبهم أبوابا عنونوا لها ببيان فضل الرمي؛ ولا شك أن الرمي كما هو مأمور به للإعداد للقتال والجهاد في سبيل الله، كذلك هو تدرب وتحذق للاعتناء برشاقة الجسم وقوة الأعضاء ورياضة البدن، لهذا حث عليها الرسول الكريم كثيرا ورغب فيها الصحابة، وتكمن منافعها وفوائدها للجسم، وتعوّد صاحبها على الشجاعة، وعلى دقة الملاحظة والنظر، فيدرب عضلاته على التوافق الدقيق مع عضلة العين، ما يثمر دقة التصويب الذي خطط له العقل؛ فيكون بذلك قد ربط بين حركة اليد، وخطفة البصر، وبديهة العقل، وقد قيل إن سلامة العقل من سلامة البدن؛ فسلامة البدن والعقل من أسباب الحياة الطيبة، ويكفي في مدح فضيلة الرمي أن الرماية استعملت وسيلة ومظهرا دالا على

---

[1] – رواه النسائي، **السنن الكبرى**، كتاب عشرة النساء، باب ملاعبة الرجل زوجته، [8889]، 8/ 176 .

[2] – أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، [1917]، 3/ 1522.

كلية حفظ النفس من الهلاك؛ سواء للبقاء باستعمال الرماية لغرض الصيد والإطعام، أو لغرض حماية الدم من الإزهاق.

2– السباحة: تعتبر السباحة رياضة كاملة يستفيد منها جسم الإنسان، فعُدَّت من الحقوق التي أقرها الإسلام وأثبتها للأولاد، فهي من الرياضات التي دعى إليها الإسلام، وحث عليها الرسول ﷺ في أكثر من حديث، وأطلق عليها في العصر الحديث الرياضة الكاملة ؛ وهذا لفوائدها التي تشمل جوانب عدة: بدنية، ونفسية، واجتماعية، كما أنها من الرياضات القديمة في العالم، مثل الرماية والمصارعة وركوب الخيل، وفائدتها للبدن أنها محركة للكثير من العضلات عن طريق دفع الماء، ما يؤدي إلى تقوية بنية السباح، وبمجرد التواجد في الماء يشعر الإنسان بالراحة والاسترخاء.

وقد أثبتت البحوث والدراسات الحديثة" أنَّ السباحة رياضة ترويحية، ممارستها تدخل السعادة إلى النفس بعد العناء العقلي أو العضلي، وتثير المرح والسرور لممارسيها...كما تعالج بعض التشوهات التي توجد في الجسم وتكسب الممارسين العادات الصحية السليمة كما تلعب دورا هاما في علاج الكثير من الحالات النفسية... تحسن السباحة في معدل السعة الحيوية، تحسن في الحد الأقصى لاستهلاك الأكسجين للسباحين وتعطي مرونة لحركات المفاصل، مفاصل الرجلين والذراعين"[1]؛ فهي بذلك رياضة الرياضات، وكلما تحرر الإنسان من القيود وشعر بالراحة النفسية، خف عنه هاجس القلق المفضي للاضطراب، المؤدي للاكتئاب والحزن، الذي يحرم الإنسان من التمتع بالحياة الطيبة.

أما بالنسبة لفوائدها الاجتماعية فهي رياضة تندرج ضمن الرياضات التي تتحقق بها كلية حفظ النفس؛ ففي إنقاذ الغريق من الغرق حفظ للنفس من العدم، وفي حفظ النفس من الموت حفظ لاستمرار الحياة، وفي استمرار حياة الفرد تستمر حياة المجتمعات؛ والإنسان الرياضي قوي البدن، يستطيع القيام بالأعمال، وإنجاز الأشغال بشكل أفضل، قال تعالى: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص: 26].

"والروح الرياضية تشجع على حب العمل اليدوي والحرفة... وقد كان رسول الله يخدم نفسه بنفسه، ولا يستنكف عن حمل الحجارة فوق كتفه عندما يبني مسجده أو بيته؛ فبينما كان أصحابه يجهزون الطعام ذهب يجمع لهم الحطب، فقالو له: "نحن نَكْفِيكَ ذلك يَا رَسُولَ اللهِ" فَقَالَ لهم: "أعَلَم

[1]– علي محمد زكي، طارق، محمد ندا، إيمان زكي، **السباحة تكنيك– تعليم– تدريب– إنقاذ**، القاهرة، دار الفكر العربي، (1423هـ–2002م)، ص ص: 17– 234– 254.

أَنَّكُمْ تُكْفُونَنِي وَلَكِنْ الله يَكْرَهُ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرَاهُ مُتَمَيِّزًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ"، وكان يقول: "ما أكل ابن آدم طعامًا خيرًا من صنع يده"[1].

وبذلك يتطور المجتمع ويزدهر، ولا عجب بعد كل هذه الفوائد لصحة الإنسان ونفسيته ومجتمعه، أن يحث عليها الشرع، ويذكرها النبي ﷺ بالمدح والترغيب في سبيل منهج إسلامي عقائدي لإيجاد مجتمع قوي.

3- ركوب الخيل (الفروسية): يعتبر ركوب الخيل رياضة النبلاء والملوك، فليس التخيل في قدرة أي كان، ولم يكرم دين من الأديان الخيل كما كرمها الإسلام؛ حيث جاء ذكرها في كتاب الله في مواضع كثيرة، فجاء ذكرها في باب متاع الإنسان في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: 14].

ثم ذكرت في الحث على الإعداد للجهاد في سبيل الله؛ فهي مما يرهب العدو، وهي رمز للقوة والتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 60].

كما ذكرت في مقام امتنان الله على عباده بما أنعم عليهم، وسخر لهم وسائل الحمل والركب، قال تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 8].

والنصوص الشرعية في ذكر الخيل كثيرة، لذلك تحاول الدراسة تفسير بعضها للوقوف على فوائد الخيل، وارتباطها بحياة الإنسان ارتباطا وثيقا، فهي "تراث مديد وتاريخ عريق في الحياة العربية؛ فهي ترتبط جوهريا بحياة الإنسان العربي الذي يعايشها وتعايشه، فمنذ القدم كانت العلاقة بينهما علاقة وثيقة جدا تزداد التصاقا وحبا؛ حيث كانت وسيلته الأولى في ارتحاله وتنقله، وفي هجرته وحروبه، وفي صيده وتنزهه وسباقه على مر العصور والأزمنة، ويعد اقتناء الخيل والإعتناء بها في الماضي والحاضر دليلا على الثراء والنعمة ومظهر من مظاهر العظمة والقوة والجاه[2].

---

[1] – أحمد شوقي الفنجري، **الطب الوقائي في الإسلام**، ص 75.

[2]– سند بن مطلق، **الخيل معقود في نواصيها الخير**، الرياض، مكتبة العبيكان، ط 1 (1424هـ- 2002م)، ص:9.

"ومن كانت هكذا صلته بحياة الإنسان فهي تشكل جزء من طيبها، وعنصر أساس في سعادته، حتى قيل ثلاث من سعادة الإنسان "امرأة حسناء ودار وراء وفرس مربوط بالفناء"[1]، و لقد كرمته العرب حتى شبته بالإنسان في صفاته، وحب الخيل من الأمور الفطرية التي جبل عليها الإنسان، فالنفس تتوق إلى المال الكثير ومنطبعة على حب الحلي من ذهب وفضة، دون أن ننسى فطرة حب النساء والأولاد فكلها متاع الحياة الدنيا، وقرن سبحانه وتعالى، وعطف حب الخيل على القناطير من الذهب والفضة، يقول صاحب تفسير التيسير في أحاديث التفسير: "بأن هذه الشهوات القوية في نفس الإنسان العادي"[2]، وكذلك شهوة الخيل فهي معروفة، وتستهوى كثيرا من النفوس، ويُعْتنَى بها منذ القديم إلى يوم الناس هذا، فنشهد اليوم قيام بطولات عالمية لسباق الخيل ترعاها أغنى وأكبر الدول في العالم، وتبذل فيها الأموال الكثيرة؛ فشهوة الخيل محققة لطيب الحياة، وإلا كيف يعبر القرآن عنها ويصفها بأنها متاع الحياة الدنيا، ويطيب العيش بها مجتمعة كما جاء ذكره في الآية الكريمة أو متفرقة، ويجمع ابن كثير بعض فوائد الخيل في تفسيره للآية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: 14]، فيقول: "وَحُبُّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ تَارَةً يَكُونُ ربطها أصحابها معدة لسبيل الله مَتَى احْتَاجُوا إِلَيْهَا غَزَوْا عَلَيْهَا، فَهَؤُلَاءِ يُثَابُونَ، وَتَارَةً تُرْبَطُ فَخْرًا وَنِوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا وِزْرٌ وَتَارَةً لِلتَّعَفُّفِ وَاقْتِنَاءِ نَسْلِهَا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا فَهَذِهِ لِصَاحِبِهَا سِتْرٌ... وَأَمَّا الْمُسَوَّمَةِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– الْمُسَوَّمَةُ الرَّاعِيَةُ، وَالْمُطَهَّمَةُ الْحِسَانُ"[3].

وَقَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: "لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا الْخَيْلُ، وَفِي رِوَايَةٍ مِنَ الْخَيْلِ إِلَّا النِّسَاءُ"[4].

ربّ سائل يسأل لم فطر الإنسان عامة والعرب خاصة على حب الخيل، وتربعت على عرش اهتماماته، واحتلت مكانة مرموقة لديه، وخلدتها آثارهم وأشعارهم؛ حيث تعامل الإنسان العربي مع الخيل معاملة خاصة، ففضلها على أهل بيته، ومن اعتزاز العربي بها، أن اطلق عليها أسماء من أسمائه، و دواوين الشعر العربي شاهدة على ما تركه حب الخيل من آثار نقشت على شكل قصائد ومعلقات تغنى بها الشعراء منذ العصر الجاهلي، فهذا امرؤ القيس يصف حركة خيله بدقة:

---

[1]- سند بن مطلق، **الخيل معقود في نواصيها الخير**، ص36.

[2]- محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 207/1.

[3]- ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، 22/ 17.

[4]- نفسه، 22/ 16.

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[1]

وعرف عن عنتر بن شداد تعلقه وحبه لجواده الأدهم، فيقول:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا ... أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لِبَانِ الْأَدْهَمِ[2]

فصدر البيت وعجزه، يخبر عن الأحوى[3] وأخدر والأغرّ؛ فأصحابها فرسان عرفوا بالشجاعة، والمروءة، والإقدام، وكذلك صفات خيلهم، فكثيرا ما وصف الجواد بالجمال والقوة، والشجاعة والكرم، والوفاء، وعلو الهمة، فهي الصاحبة في الجهاد، والصابرة في ساحات الوغى والدم يغشاها، قال عنتر بن شداد: "مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثَغْرَةِ نَحْرِهِ... وَلُبَانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلِ بالدَّمِ"[4]، يقول الحادي:

يا مهرتي خبي خبيت..... والهرف لا يطري عليك[5]

وقد كان – عليه الصلاة والسلام- يحب الخيل كثيرا، ويحث أصحابه – رضوان الله عليهم- على التخيل وروى الترمذي عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ الْخَيْلِ الأَدْهَمُ، الأقرعُ، الأرْثم»[6]. والأدهم[7]، والأرثم[8] والأقرع[9]؛ وكان له عليه الصلاة والسلام باع واسع في الخيل عارف بالسلالات، بالسلالات، حتى إن رجلا استشاره يريد شراء فرس، قال: فأيها أشتري؟ قال ﷺ: «فَاشْتَرِ أَدْهَمَ أَغَرَّ مُحَجَّلًا مُطْلَقَ الْيُمْنَى، فَإِنَّكَ تَغْنَمْ وَتَسْلَمُ»[10].

---

[1]- امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار، **ديوان امرئ القيس**، ط2 (1425 هـ - 2004م)، بيروت، دار المعرفة، 122/1 .

[2]- أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي، **إيضاح شواهد الإيضاح**، تح: الدكتور محمد بن حمود الدعجاني، لبنان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1 (1408 هـ - 1987م)، 768/2؛ وينظر: الحسن بن أحمد بن محمد الأعرابي، أبو محمد الأسود الغندجاني، **أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها**، تح: محمد علي سلطان، ط 1(1427هـ- 2007م)، 1/ 47؛ وينظر: عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، **ديوان عنترة بن شداد**، ص: 768 .

[3] - **أسماء خيل عربية**: الأحوى: لعويد بن سلمى بن ربيعة الضبي، أخدر: فحل من الخيل، الأغرّ؛ ينظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوان عنتر بن شداد، ص 51.

[4] – أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، **شرح ديوان الحماسة**، تح: غريد الشيخ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1(1424 هـ - 2003م)، 1/ 122.

[5]- الأصفهاني، **شرح ديوان الحماسة**.

[6]- رواه الترمذي، سنن الترمذي، باب ما جاء ما يستحب من الخيل، [1696]، 4/ 203، وقال صحيح غريب.

[7]- الأَدْهَمُ: الأَسودُ، وبه دُهْمَةٌ شَديدةٌ؛ ينظر: الفراهيدي، **العين**، 31/4 .

[8]- الأَرْثَمُ الَّذِي أَنفه أَبيض وَشَفَتُهُ الْعُلْيَا؛ ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، 12/ 226 .

[9]- الأَقْرَع: الذي لا شَعْر على رَأْسِهِ؛ ينظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، 44/4.

[10]- رواه البيهقي في السنن الكبرى، [12896]، 536/6، رواه الحاكم، **المستدرك**، كتاب الجهاد، [2459]، 2/ 102، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي مع أن عبيد بن الصباح ضعيف.

أ– مباركة النبي ﷺ للخيل: لقد بارك النبي ﷺ الخيل لما فيها من خير فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: « الْبَرَكَةُ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ»[1]، «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ»[2]، وفي رواية عند مسلم: «الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بنَوَاصِي الْخَيْلِ»[3]، قال: فقيل له يا رسول الله أيم ذاك، ذاك، قال: «الأَجْرُ وَالمغْنَمُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[4].

قال صاحب فتح الباري: "اقترن بها الخير ولازمها إلى يوم القيامة، وهي في سعيها ذلك لا تخرج عن الأجر والغنيمة، وربما ظفرت بهما معا، وأما الأجر: فإنها كلما أكلت أوشربت أومشت، أوحتى بالت كتب الله لصاحبها أجرا، وأما الغنيمة: فذلك فبالنصر على الأعداء وأخذ أموالهم"[5].

وجاء في حديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه– عن النبي ﷺ قال: «وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَلِرَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ، فَالرَّجُلُ يَتَّخِذُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُعِدُّهَا لَهُ، فَلَا تُغَيِّبُ شَيْئًا فِي بُطُونِهَا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرًا، وَلَوْ رَعَاهَا فِي مَرْجٍ مَا أَكَلَتْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا أَجْرًا، وَلَوْ سَقَاهَا مِنْ نَهْرٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ تُغَيِّبُهَا فِي بُطُونِهَا أَجْرٌ، حَتَّى ذَكَرَ الْأَجْرَ فِي أَبْوَالِهَا وَأَرْوَاثِهَا، وَلَوِ اسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا أَجْرٌ، وَأَمَّا الَّذِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ، فَالرَّجُلُ يَتَّخِذُهَا تَكَرُّمًا وَتَجَمُّلًا، وَلَا يَنْسَى حَقَّ ظُهُورِهَا وَبُطُونِهَا فِي عُسْرِهَا وَيُسْرِهَا، وَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ وِزْرٌ، فَالَّذِي يَتَّخِذُهَا أَشَرًا وَبَطَرًا وَبَذَخًا وَرِيَاءَ النَّاسِ، فَذَاكَ الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ وِزْرٌ»[6].

بشرح هذه الأحاديث نستخلص بعض البركات والخيرات التي ذكرتها هذه القبسات النورانية من مشكاة النبوية؛ ذلك أن التعفف عن المسألة فيه حفظ لعزة المرء وكرامته، ما يشعره بالثقة في نفسه والرضا، فيجنب بذلك الاضطرابات النفسية المفضية للعيش الضنك.

ولمن ربطها في سبيل الله أجر؛ "فكل ما يكون من فعلها في أثناء تصرفاتها وحركاتها فذلك كله في حسناته؛ لأن النيَّة الأولى انسحبت عليها، وبفضل الله تعالى على العبد بالإجزاء بها، فيكتب له ما يأتي بعدها"[7]، وفي هذا تحصيل للحسنات للعبد، وربح للثواب وتثبيت للجزاء؛ فهذا أجر الفرس

---

[1]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، [2851]، 28/4.

[2]– نفسه، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ «أحلت لكم الغنائم»، [3119]، 4/ 65.

[3]– نفسه، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر، [2852]، 4/ 28.

[4]– نفسه، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير، [2851]، 4/ 28.

[5]– ابن حجر، **فتح الباري**، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر، 6/ 56

[6]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، [987]، 680/2.

[7]– القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري المالكي، **القبس في شرح موطأ مالك بن أنس**، تح: محمد عبد الله ولد كريم، ط 1(1992م)، دار الغرب الإسلامي، كتاب الجهاد، 2/ 580.

المرابط في سبيل الله، فصاحبه يحصد الخير والبركات؛ إذ "الخيل التي أعدت له هي المخصوصة بالخير والبركة"[1].

الخيل عز وغنم وبركة لصاحبها، ألا ترى أنها وسيلة حمل مرغَّبٌ فيها، تمثل حقيقة المركب الهنيء، وهي كلها غنم لصاحبها وبركة في الركوب؛ حيث تعطيه منظرا كريم عزيز، بالإضافة إلى فوائدها الأكيدة لصحة بدنه، ورشاقة جسمه، والدراسات والأبحاث تؤكد ذلك،حيث أنها تستخدم في إنتاج الأمصال ومضادات السموم وإنتاج هرمونات الأستروجينات من أبوال الأفراس الحوامل[2]، وتصنف ضمن قائمة الرياضات المفيدة والصحية للإنسان، ونذكر جملة ما قاله الطب[3] في هذا:

- ركوب الخيل يعزز عضلات الجسم الرئيسية، ويقويها ويمنع تقلصاتها، ويعد نشاطا عقلي، فأثناء تعلمك التواصل مع خيلك، وتنفيذ الحركات، والتغلب على العقبات، سيخزن عقلك معلومات حول كيفية إكمال هذه المهام.
- تنشّط الدورة الدموية.
- تُعلِّم الإنسان كيفيّة التحكّم بجسمه من خلال تَوازنه أثناء ركوب الخيل.
- تُقوّي التركيز لدى الإنسان.
- تقوي القلب وتُحسّن أداء الأوعية الدموية والشرايين.
- رياضة مهمة للذين يعانون من الشلل الدماغي، الذي يؤثر على الحركة؛ حيث تُستخدم هذه الرياضة كعلاجٍ لحالاتهم.
- يطور مهارات حل المشكلات.
- ينمي المهارات الاجتماعية.
- يساعد على بناء الثقة والتواصل–تحسين الحالة العقلية حيث ثبت أن قضاء الوقت مع الحيوان يرفع مستويات هرمون السيروتونين المعزز للمزاج.
- تساعد على تخفيف الوزن خاصّةً عند البطن والأرداف؛ فهي تحرق الدهون، كما أنّها من أكثر الرّياضات التي تساعد على حرق السعرات الحرارية، وتُسهِّل عملية الهضم أيضاً.
- تُخفّف التشنّجات مما يعمل على علاج مَشاكل المفاصل.
- يُمكن من خلال ركوب الخيل مُعالجة الأشخاص الذين أُصيبوا بمشاكل في العمود الفقري والجلطات.

---

[1]– ابن حجر، **فتح الباري**، باب الخيل معقود في نواصيها الخير، 6/ 55.

[2]– ينظر: مسند بن مطلق، **الخيل معقود في نواصيها الخير**، ص:19.

[3]– مروة عصمت، **فوائد ركوب الخيل... فوائد صحية ونفسية**، https://www.dailymedicalinfo.com/view-article يوم التصفح 27-1-2019.

بالإضافة إلى فوائدها للجسم فنفعها يمتد ويتعدى إلى النفس وأسرارها فيداويها، ويخفف عنها الاضطرابات، وحالات القلق، فهي تكسب صاحبها الثقة بالنفس، فمن استعملها للتجارة، أوطلبا للرزق، كفي بذلك مذلة المسألة واستغنى، وهذا مما يقوي شخصية الإنسان، وفي ركوبها عزّ "لأن ركوبها عز"[1]، وقال مصداقا لكلام الصادق المصدوق ﷺ: «ولرجل ستر، ولرجل أجر...»، ومن وثق بنفسه، تدرب وتعلم، عزيمة الصبر، فلا شيء يعلم الصبر كاحتكاك الإنسان، ومرافقته للحيوان، أليس "الرعي" مهنة الأنبياء والرسل الكرام، فقصد الله من وراء ذلك تعليمهم الصبر والرفق والشفقة والرحمة بالحيوان، وهكذا فهو يعتني بأكلها، وشربها، وسياستها، فتنشأ بينه وبين جواده عواطف، فيحنو عليها، ويصبر على ترويضها، وتدريبها، فيكتسب بذلك استقرار نفسي، يطمئن به، ويتجلى كمظهر من مظاهر الحياة الطيبة.

المطلب الثاني: المظاهر اللاسننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم

بعد ما بينت الدراسة في المطلب السابق بعض مظاهر الحياة الطيبة السننية، والمتمثلة في اشراقة المحيا، وصحة البدن نحاول في هذا المطلب الثاني عرض بعض مظاهر الحياة الطيبة اللاسننية، والتي رغم أنها تحسب على صاحبها بأنه يتمتع بحياة هنيئة، لما يظهر عليه ممّا يحذفه أصحاب الطبع السليم، والنفس المتوازنة، والفطرة النقية، من سنن أسباب لطيب الحياة، ولكن! لعدم تفعيل هذه السنن، أو سوء استثمارها، فلا يجني ثمارها، ولا تتحقق مسبباتها وفق أسبابها التي وضعت لها، ذلك أن البشر يخضعون في تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة لقوانين ثابتة، وكل ما يترتب عليها من مظاهر للحياة الطيبة كالرفاهية، السعادة، العز...، ولكن تبقى مظاهر فقط لعدم استفادة صاحبها من أثارها الايجابية وتسخيرها لمنفعته، ومنفعة مجتمعه، للقيام بعملية الاستخلاف التي تعتبر مسؤوليته الأولى في هذه الحياة الدنيا. سوف نناقش في هذا المطلب مظهرين من مظاهر الحياة الطيبة اللاسننية؛ وكعادة الدراسة تكون وضعية الانطلاق من نصوص القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 8] ذكرت الآية الكريمة نعما عديدة، تحقق منافع الإنسان و يقضي بواسطتها مصالحه في التنقل بنفسه أو نقل متاعه؛ "فبينت جملة من أنواع الدواب التي سخرها لخدمته ومنفعته، مما يرتفق به في مرافقه الضرورية، أو يتغذى منه بأطيب الأغذية، وأشارت الآيات الكريمة إلى المنظر الجميل الذي تكون عليه الأنعام عند عرضها حين سرحها وذهابها إلى المراعي، وحين رجوعها ورواحها منها"[2]، لفتا لمنحى فيها؛ لأن الجمال

---

[1]- ابن القيم، **أحكام أهل الذمة**، 3/ 1272.

[2]- محمد المكي، **التيسير في أحاديث التفسير**، 308/3.

مطلوب إضافة إلى منفعة الركوب؛ فالنفس فطرت على حبه، بيد أن من الناس من شغله الالتفات إلى جمالها وغالى فيه؛ فكان يرى سعادته في جمال المركب أفضل من نعمة الركوب في حد ذاتها، وحصر منفعة مركبه في اتخاذه وسيلة يمتع بها ناظريه، غافلا ومتنكبا عن المقصد العام له، وهذا انحراف بالنعمة عما سخرت له، وانحراف عن سنة الله في جعل المركب للنتقل والركوب.

الفرع الأول: اتخاذ المركب للزينة دون الركوب

خلق الإنسان وفطر على حب الجمال، والمنظر الحسن، وهذا المنظر الحسن والجمال تزيده الزينة، والتزين جمالا على جمال، وحسنا وبهاء، والزينة[1]: ما يتزين، ويوم الزينة يوم العيد، والزين نقيض الشين... ويقال أزينت الأرض بعشبها، وازَّيّنَتْ وتَزَيّنَتْ، أَي: حَسُنت وبَهُجَتْ، والزِّينة اسمٌ جامعٌ لكلّ شَيْء يُتَزيَّن بِهِ[2].

ولا ينكر إلا جاهل أو متنطع أن الله أباح التزين، والتمتع بالطيبات، ومدح الجمال، وحبب خلقه إليه، قال عز قائل: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31]، ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [الأعراف: 32]، مجيزا بذلك للإنسان اللباس الحسن والتزين به، وأقر بذلك النظرة الجمالية، والإسلام دين يربي أتباعه على تذوق الجمال، كيف لا وهو دين الجمال، سواء في الطبيعة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 99]، يقول سيد قطب: "هو التوجه المباشر إلى الجمال الباهر للنظر والتملي والاستمتاع فانظروا بالحس البصير والقلب اليقين انظروا إليه عند كمال نضجه واستمتعوا بجماله، لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع كما أنه مجال تدبر في آيات الله وبدائع صنعته"[3].

أوفي الحيوانات قال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴾ [النحل: 6].

قال أبو القاسم ابن جزي: "وإنما قدم {تُرِيحُونَ} على {تَسْرَحُونَ} لأن جمال الأنعام بالعشي أكثر، حيث ترجع من المراعي وبطونها ملأى، وضروعها حافلة"[4].

---

[1]- ينظر: أبو نصر الفارابي، **الصحاح**، باب زين، 5/ 2132.

[2]- أبو منصور، **تهذيب اللغة**، 13/ 174.

[3]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2/ 1161.

[4]- محمد المكي الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 3/ 308.

فهي بجمالها تدخل البهجة والسرور على قلوب أصحابها تقديم الجمال على الركوب وحمل الأثقال ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: 7]، رغم أن حمل الأثقال نعمة عظيمة، فهي تخفف مشقة، الوصول وبلوغ البلاد البعيدة وهي محملة بالأثقال، بغية التجارة، أو الارتحال، فكلها منافع للإنسان، ولكن تقديم الجمال على كل هذه المصالح والمنافع الجلية الظاهرة العظيمة لعلمه سبحانه وتعالى أن الإنسان مفطور على حب الجمال، وما يروق نظره، ويبتهج قلبه لمرآه؛ ومن هذا المنطلق الفطري جعل الله سنة الزينة[1] من سنن الله الفطرية[2].

إذن سنة الزينة من السنن الفطرية، ولكن إذا لم يفعل الشيء الموصوف بالزينة في محله، ومقامه السليم الذي وضع له كان ذلك انحرافا عن السننية، وعن الفطرة، لأن سنن الله فطرية لا تناقض الحاجات والرغبات والميولات الإنسانية، بل تتماشى وفقها، وعليه هناك مظاهر تبدو على الإنسان، من الأمور المترجمة لطيب الحياة، حيث لا يقع الاختلاف عليها، لانضباطها بمعايير تدركها العقول بكل بساطة، كما هو عنوان الفرع الأول من المطلب الثاني الموسوم "اتخاذ المركب للزينة دون الركوب".

فهذا مظهر غير سنني، ومعنى ذلك أن بعض الناس، ممن نعايشهم يتخذون المركب للزينة، ويضيّقون بذلك نفعها ومصلحتها، لحاجة في نفسهم المريضة، فيحرمون من قضاء مصالحهم، ومصالح أهلهم، وربما مصالح ومنافع مجتمعهم، ويحبسونها للزينة فقط، يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية: "وَالْحَيَوَانُ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِمَّا أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ فِي ضَرُورِيَّاتِ مَعِيشَتِهِ مِثْلَ الْأَكْلِ وَاللِّبْسِ أَوَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي أُمُورٍ غَيْرِ ضَرُورِيَّةٍ مِثْلَ الزِّينَةِ وَغَيْرِهَا، وَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ أَشْرَفُ مِنَ الثَّانِي"[3].

ثم يعدد صاحب مفاتيح الغيب المنافع ويرتبها حسب الضرورية وغير الضرورية، فيبدأ بالضرورية ليحصرها في الدفء، الأكل، النسل، الدر، ثم ينتقل إلى المنافع غير الضرورية: "الْمَنْفَعَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ الْإِرَاحَةُ رَدُّ الإبل بالعشي إِلَى مَرَاحِهَا... وَاعْلَمْ أَنَّ وَجْهَ التَّجَمُّلِ بِهَا أَنَّ الرَّاعِيَ إِذَا رَوَّحَهَا بِالْعَشِيِّ وَسَرَّحَهَا بِالْغَدَاةِ تَزَيَّنَتْ عِنْدَ تِلْكَ الْإِرَاحَةِ وَالتَّسْرِيحِ الْأَفْنِيَةُ، وَتَجَاوَبَ فِيهَا الثُّغَاءُ وَالرُّغَاءُ، وَفَرِحَتْ أَرْبَابُهَا وَعَظُمَ وَقْعُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ مَالِكِينَ لَهَا"[4].

---

[1]- زينب عطية محمد، **السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم**، ص: 955.

[2]- نفسه، ص 2.

[3]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 19/ 174.

[4]- نفسه.

جعل الرازي المنفعة الأولى غير الضرورية: اتخاذ المركب أيًا كان (الخيل، البغال، الحمير، السيارة...) وما لا نعلم ممّا سوف يبدع عقل الإنسان ويخترعه كوسيلة للركوب والسفر والتنقل؛ ونخرج منه ما يفرح به صاحبه لجماله، ويعمل على تزينه سواء مما كان يستعمل قديماً كوسيلة للحمل وهي مذكورة في هذه الآية (الأنعام، الخيل، البغال، الحمير)، فينشغل صاحبها بتزينها، فيحسن رعيها، وسرحها بتوفير المراعي كثيرة الكلأ، وفيرة المياه، حتى تسمن وتحفل ضروعها فتعظم في قلوب الناس، فيتسابقون على شرائها، وهذا غرضه بيّن وهو منفعة بيعها، وقد ذكرها الرازي ضمن المنافع الضرورية "لأن النسل والدر قد ينتفع به في الأكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود"[1].

فاتخاذ المركب والعمل على تزينه والاعتناء به للمتاجرة والبيع يعتبر من المظاهر السننية للحياة الطيبة، ولا تحصره الدراسة ضمن المظاهر اللاسننية، لأن البيع إنما شرع وأبيح لتحقيق مصالح الإنسان وقضاء حاجاته الضرورية، من مأكل ومشرب وملبس... الخ.

أما ما تريد الدراسة والبحث إجلاءه من خلال عرض بعض غايات، وأهداف الناس من وراء اتخاذ المركب للزينة فقط؛ وهو ما يخالف السنن، فسوف يتم تقديمه في هذه النقاط.

أولا: اتخاذ المركب للزينة رياء واختيالا

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: 18]؛ فمن جعل المنفعة الوحيدة للمركب هو التكبر على الخلق، والإعراض عنهم، فيميل بوجهه، وبكامل جسده وهو راكب فوق دابته، أو على متن سيارته؛ فهو يعمد إلى الركوب وغرضه الوحيد الافتخار، بمركبه وبيان زينته، حتى أنه ليبالغ في اقتناء وشراء أثمن وأغلى المراكب دون الحاجة إليها، فقط ليظهر، ما هو عليه من طيب الحياة، ومتاع الدنيا، مباهاة، وغرور، فرحا بتميزه، على بقية الناس بمركبه الجميل، الهنيء وقصده وراء هذا الركوب الاختيال، وحب الظهور والتطاول على عباد الله قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "هو الذي يفخر على عباد الله بما أعطاه الله من أنواع نعمه، وقد ذم الله الفخور في هذا الوضع لئلا يقدم على رعاية الحقوق لأجل الرياء والسمعة"[2].

ومن كان همه الوحيد من الركوب الظهور أمام الناس في أبهى حلّه وأبهى مركب خيلاء وفرحا بما أتاه الله غير شاكرا لنعمه، مقتنعا أنه من كسبه وسعيه وكده ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ [فصلت: 50]، يبين سيد

[1]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 19/ 174.

[2]- نفسه، 101/10.

قطب هذا: "فأما الذي لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسبه أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هومن كسبه فيفخرُ ويختال به"[1].

يقول ﷺ فيمن يتخذ المركب للزينة رياء دون تحقيق منفعة الركوب: «فَالرَّجُلُ يَتَّخِذُهَا تَكَرُّمًا وَتَجَمُّلًا، وَلَا يَنْسَى حَقَّ ظُهُورِهَا وَبُطُونِهَا فِي عُسْرِهَا وَيُسْرِهَا، وَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ وِزْرٌ، فَالَّذِي يَتَّخِذُهَا أَشَرًا وَبَطَرًا وَبَذَخًا وَرِيَاءَ النَّاسِ، فَذَاكَ الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ وِزْرٌ»[2].

فركوبه هاهنا مذمومًا، وفرحه بزينة مركبه مذموما ذلك أن هذا الركوب مظهر للحياة الطيبة يخالف السنن لا سنني، وفرحه، المذكور وهو يباهي ويميل بمركبه، "فرح بطر وطغيان"[3]، والمعنى فرحه بمركبه الجميل واتخاذه للزينة دون الاهتمام بصرفه لما خلق، أو اخترع له حقيقة، وهو التخفيف على الإنسان من مشقة السفر وعناء الحمل، وهذا المعنى أفاد الاقتصار على الزينة دون الركوب الفعال والإيجابي.

ثانيا: اتخاذ المركب للزينة لجذب انتباه الناس

يجعل بعض الناس العامل الأساسي في اختيارهم للمركب جماله ولونه اللافت للانتباه؛ من باب أن الجمال عامل مهم لجذب اهتمام الناس ومحبتهم، غير مبالين بجوهر النفع والاستفادة فيه، من بحث عن جودته وصلابته، وتوفر قطع غياره في السوق، أو كونه مركبا اقتصاديا من جهة استهلاكه للوقود يملك سجلا من الأداء الجيد، أو غير ذلك من مزايا ومعايير اختيار المركب، فتلك هي المزايا السننية الحقيقية المعول عليها عند الاقتناء، دون أن نبخس قيمة المظهر وجماله أو لونه الجذاب، ولكن لا نجعله من الأولويات؛ إذ يعتبر هذا انحرافا عن سنن الله في تفعيل المسخرات؛ لتحصيل منافعها وقضاء مصالح الإنسان؛ ليصل إلى تحقيق الاستخلاف السنني بتعمير الأرض وعبادة الله؛ والدراسة بهذا التقديم لا تزعم أن جمال المركب غير مهم بتاتا؛ إذ أنه يأتي في الدرجة الثانية بعد التأكد من جودة الجوهر، بل يجب الموازنة بينهما دونما تغليب لأحدهما وإهمال للآخر، والموفق من وفقه الله للجمع بينهما في جميع أمور حياته؛ فلم يصادم السنن بالاهتمام بالمظهر دون الجوهر؛ ومخطئ كل الخطأ من كان همه اقتناء أجمل المراكب وأبهاها مظهرا؛ ليكون محط أنظار الآخرين، محاولا نيل إعجابهم للفوز بصحبتهم وموالاتهم لأنهم من الملأ، من سادة القوم وأصحاب النفوذ والسيادة في المجتمع؛ فهو يسعى للتقرب من مجالسهم والدخول تحت ولايتهم ليبرز بين الناس في المجتمع فيعرف ويشتهر، غير مبال في ذلك بمدى صلاحهم

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2/ 3494.

[2]- أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة، [987]، 680/2.

[3]- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 13/ 133.

أو فسادهم، لاسيما أن المعروف عن الملأ هم القوم البارزون في المجتمعات المتكبرون والمترفون، ولفظ "الملأ " الوارد هنا وفي سورة سبأ (النمل) ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ يطلق في اللغة على القادة والسادة، لما لهم من مكانة وهيبة " تملأ " الأبصار، وتستلفت الأنظار"[1].

ومنذ عهد الأنبياء والرسل إلى يوم الناس هذا عرفوا بمعاداتهم للأنبياء والمصلحين في كل عصر ومصر، ومن خلال تتبع آيات القرآن وقصص المرسلين، نجد الوصف الغالب على الملأ الظلم والفساد والترف ومعارضة دعوة الرسل وأهل العلم والتقوى في كل مجتمع، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: 60]، يقول الرازي" أَنَّ ذَلِكَ الْمَلَأَ بَعْضُ قَوْمِهِ وَذَلِكَ الْبَعْضُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونُوا مَوْصُوفِينَ بِصِفَةٍ لِأَجْلِهَا اسْتَحَقُّوا هَذَا الْوَصْفَ وَذَلِكَ بِأَنْ يكونوا هم الذين يملؤون صُدُورَ الْمَجَالِسِ وَتَمْتَلِئُ الْقُلُوبُ مِنْ هَيْبَتِهِمْ وَتَمْتَلِئُ الْأَبْصَارُ مِنْ رُؤْيَتِهِمْ وَتَتَوَجَّهُ الْعُيُونُ فِي الْمَحَافِلِ إِلَيْهِمْ "[2]، ومهمتهم تكذيب الرسل وتضليلهم في "التَّكْلِيفُ وَالتَّوْحِيدُ وَالنُّبُوَّةُ وَالْمَعَادُ"[3]، فهذا الذي تنكب السنن وجعل همه الوحيد اقتناء أجمل المراكب وأبهاها، ليحظى بالقرب من هؤلاء القوم المفسدين الظالمين بمجاراتهم في أفعالهم، فتجده يقود حملات الكذب والضلال، وينفق الأموال ويسخر مركبه الذي غالى في تزينه لإعانتهم على الصدى للحق وسبيل الدعوة، خدمة لهم و ليفوز بمعرفتهم؛ فيكون ممن تمتلأ الأبصار من رؤيته، وتلتفت الأنظار إليه، خاصة أنه جعل قدوة له في حياته –الْمَلَأُ– "أَشْرَافُ الْقَوْمِ، فَإِنَّهُمْ يَمْلَئُونَ الْعُيُونَ رُوَاءً بِمَا يَكُونُ عَادَةً مِنْ تَأَنُّقِهِمْ بِالزِّيِّ الْمُمْتَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّمَائِلِ"[4]؛ فهو بانحرافه عن مسار السنن يرى سعادته في جذب أنظار الناس ولفت انتباههم، فاختار التميز بالمركب الجميل، واتخذه وسيلة يكسب بها ودّ سادة القوم المترفين المتكبرين، وهذا واقع مشهود على حال الأمة، وما آلت إليها من موالاة أصحاب النفوذ و الدول القوية على حساب عقيدتها ومبادئ الإسلام؛ ومن تجارب الجماعات السابقة والأمم الغابرة ندرك كيف كانت عاقبة هؤلاء القوم – الملأ– والتاريخ يشهد على مصارعهم، وتجرى سنة الله الثابتة العادلة أن مهما زاد ضلال الملأ الطواغيت، ومهما كثر أتباعهم المنحرفين عن الحق فإنه لا بد أن "يجيء الفتح ويفصل اللّه بين الأمة المهتدية والأمة الضالة، ويأخذ المكذبين المستكبرين، وينجي الطائعين المستسلمين .. وما جرت سنة اللّه قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم للّه

---

[1]– محمد المكي، **التيسير في أحاديث التفسير**، 231/2.

[2]– الرازي ، **مفاتيح الغيب** ، 296/14.

[3]– نفسه، 296/14 .

[4]– رشيد رضا، **تفسير المنار**، 437/8.

وحده، وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمانهم، وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم .. وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة اللّه على مدار التاريخ"[1]؛ فدروس الجماعات السابقة ومصارعها مواعظ وعبر؛ يربي بقصصها القرآن الجماعة المسلمة كي تتجنب عذابهم و عقابهم الدنيوي والأخروي، وتكمن قيمة هذا الدرس السنني أن من بالغ في الاهتمام بالمظهر وغفل عن الجوهر مهمشا مقصد الشرع في تسخير المركب في تهوين صعاب الطريق ومشقة السفر وحمل المتاع، فلا بد أن يناله خزي الإتباع ومنقصة موالاة الظالمين، وخاتمة السوء والعذاب الغليظ.

ثالثا: اتخاذ المركب للزينة شحاً بخلاً وتقتيراً

لا شك أن الإنسان يشح بحكم خلقته وجبلته[2] ولا ينكر أحد أن الشح، والبخل سنتان من سنن الله في خلقه سنة شح النفس[3]، سنة البخل[4]، سنة التقتير[5]، وجاء ذكر هذه السنن الثلاث في القرآن الكريم مقام الذم، ذلك أن:

1- **البخل شر**: قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: 180].

فهناك من يتفضل الله عليه بسعة الرزق ويمتعه بالمركب الجميل الهنيء، ولكن يبخل به على نفسه، فلا يستعمله في الركوب، والتنقل، بل يضل حابسا له سواء الإسطبل، والزريبة، أو المرآب، ومواقف السيارات والمراكب، فيركنه في مكانه، مع كثرة الاعتناء به من تزينه بالغسل، والمسح، وربما تغير الطلاء، من فترة إلى أخرى، دون استغلاله للركوب، أو السفر وقضاء المصالح، والحاجات، وهذه الفئة من الناس نعايشهم يوميا، ونرى منهم العجائب فترى الأهل، يتعبون ويشقون في استعمال وسائل التنقل العمومية وما يصاحبها من ضوضاء وجلبة واكتظاظ، ومشقة وعناء بقطع المسافة في وقت طويل نظرا لتوقفها المستمر في كل موقف لنقل ركاب، أو مسافرين، ووضع آخرين، فتكون الرحلة، أو الانتقال كارثيا، فينالهم العنت، ويصيبهم القلق، والتعاسة، مع امتلاكهم مراكب تتصف بكل صفات الجمال والجودة والسرعة والرفاهية؛ ذلك أن صاحبه بخيل شحيح، يقتر على نفسه وأهله، خوفا من النفقة عليهم باستعماله، فهذا شر عظيم جزاؤه الخزي في الحياة الدنيا وطوق من النار في أعناقهم يوم القيامة، فلا يظنوا أنهم ببخلهم هذا قد نفعوا أنفسهم بما يعود عليهم بالاقتصاد من وراء الحرص؛ حيث يحسبون أن

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 4/ 22 .

[2] - ينظر: زينب عطيه، **السنن الإلهية في الأفاق والأنفس والأمم**، 1/ 1712.

[3]- نفسه، ص: 1673.

[4]- نفسه، ص: 1678.

[5]- نفسه، ص: 1712.

متاعهم لا يصيبه أذى أو ضرر، بل يبقى على صورته الجميلة المتزينة، ويعتقدون أنهم بمنع الانتفاع بالمركب مهما كان نوعه قديما (بغال، حمير، خيل...) أو حديث (سيارة، حافلة...) صيانة له، ومحافظة عليه من الفساد والهلاك؛ بل هذا المنع والبخل شر يترصدهم في الدنيا وعذاب الطوق في الآخرة، قال ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ»[1]، يقول الرازي: "اعلم أن الآية دالة على ذم البخل بشيء من الخيرات والمنافع"[2].

ولا يختلف اثنان على أن المركب منذ القديم إلى يومنا هذا كله منافع وخير للناس، والبخيل المانع للانتفاع بها مذموما مدحورا، عذابه مشهود موعود بطوق من النار في العنق مربوط؛ فعقاب بخلهم وشحهم، وتقتيرهم على أهلهم، وأنفسهم عليهم مردود بالشر والذم.

"والنص القرآني ينهاهم عن هذا الحسبان الكاذب، ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة نارا... وهوتهديد مفزع... والتعبير يزيد هذا البخل شناعة حين يذكر أنهم يبخلون بما آتاهم الله من فضله... فهم لا يبخلون بمال أصيل لهم... فحسبوا أن في كنزه خيرا لهم وهوشر فضيع"[3].

2- **البخل يوصل للعسرى:** قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿8﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿9﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿10﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿11﴾ ﴾ [الليل: 8-11].

فوعد الله البخيل بأنه يعسر عليه أسباب الخير، والسعادة؛ لأن العسرى لا تجتمع مع السعادة أبدا، وبعد تعسير أموره عليه ، وابتعاد أسباب الفوز بطيب الحياة من صلاح وفلاح وخير، فحينها لا ينفعه ماله، ولا ينعم بمركبه الذي لم يفعِّله، لما سخره الله له من ركوب وحمل وبلوغ البلاد البعيدة، وأما تسهيل العسرى له فهذا أمر عظيم، ووعيد من عزيز منتقم، فكان "التعبير بلفظ التيسير مثل التبشير في قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: 21]، من باب التبكيت والتنكيت"[4]، ومعنى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ سنخذله ولا نوفقه، وسيصطدم في طريقه بكل المعوقات والعراقيل إذا هلك وهوى في الدرك الأسفل من النار"[5]، فهذا المانع لنعم الله، المقتر على أهله بمنافع المركب الهنيء، حيث بخل عليهم، من الاستمتاع بنعومة وجودة، وسرعة، وتذليل وتسخير المركب لهم لقضاء مصالحهم، وحمل أثقالهم، والسفر، مع التمتع بمناظر الطبيعة الخلابة، وتوفير الأمن والسلام لهم من كل مساوئ المركب

---

[1]- رواه أحمد، **مسند أحمد**، صحيفة همام بن منبه، [849]، 8/ 335 .

[2]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 9/ 442.

[3]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 4/ 538.

[4]- محمد الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 6/ 433.

[5]-محمد الناصري، **التيسير في أحاديث التفسير**، 6/ 433.

السوء، طيلة تنقلهم وسفرهم، فهذا البخيل سيذلل الله له الصعاب والعراقيل، وتنجذب نحوه المشاق، انجذابا، ويساق له أسباب الشقاء سوقا، حتى لا يكاد يوفق، وينصر في شأنه، ليعلم أن من يعادى السنن، ويتنكبها، ولا يستثمرها، ويفعلها فيما قننت له ويجني الخذلان، والخسارة، وتكون التعاسة مصاحبة لحياته، والعسرة مسهلة لطرق المعصية "فيقع في المعصية ولم يدبّرها، ونوفق له أسباب المخالفة"[1].

يقول صاحب الكشاف في معنى "﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾؛ فسنخذله ونمنعه الألطاف، حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشدّه، ويضيق صَدْرَهُ حَرَجاً، وتردّى في الحفرة في قعر جهنم"[2].

3- البخل إذلال وخزي وعذاب مهين: يعد البخل شرا كلّه، ومذموما في الشرع، وصاحبه مقبحا في المجتمع، ومن أسوأ الأخلاق والطباع البشرية؛ وهذا بالإمساك والامتناع عن الإنفاق؛ فهو مخالفة للفطرة؛ إذ كل ما يملكه العبد إنما هومن فضل الله ورزقه، فهو"لا ينفق إلا من رزق الله؛ فهولا يخلق رزقه، ولا ينال إلا من عطاء الله"[3]، فإذا انضاف إليه التبخل وهوالأمر بالبخل، فنفس البخيل مريضة، غير متزنة، تشعر بالنقص معقدة من عدم الإنفاق، والعطاء، والبذل، فلا يكفيها مذمة البخل، فعدم اتزانها يفرض عليها أن تأمر وتدعوإلى البخل حتى تكون كل النفوس مثلها.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: 37]؛ "فهؤلاء المذكورون في هذه الآية ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل؛ الذي هو أشر خصال الشر، ما هو أقبح منه وأدل على سقوط نفس فاعله وبلوغه في الرذالة إلى غايتها؛ (و) هو أنهم مع بخلهم بأموالهم وبما منحوا به وكتمهم لما أنعم الله به عليهم من فضله (يأمرون الناس بالبخل) كأنهم يجدون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجاً ومضاضة"[4].

فنفس البخيل المريضة تتحرج من كل نفس كريمة جوادة، لأن النفس السخية تورث صاحبها العزة والكرامة، وحب الآخرين، فبعطائه يملك النفوس ويستعبد القلوب، لذا يحرص البخيل ذميم الطباع، سيء الخلق، الذي تنفر منه الجموع، على أن يَعُمّ وينتشر طبع البخل الجماعةَ والمجتمعَ، وبانتشار البخل تنتشر الكراهية والضغينة بين الجميع، وكما يقال المصيبة إذا عمت خفت، "والذين يبخلون لا يكتفون

---

[1]- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، **لطائف الإشارات**، تح: إبراهيم البسيوني، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3(د،ت)، 736/3.

[2]- ينظر: الزمخشري، **الكشاف**، 4/ 762.

[3]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 5/ 660.

[4]- أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، **فتحُ البيان في مقاصد القرآن**، (د،ط)(1412 هـ - 1992م)، بَيروت، المكتبة العصريَّة، 3/ 118.

بهذه الخسيسة الخلقية في نفوسهم بل يحبُّون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل، ويؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً، يقول لك البخيل: لا تنفق؛ لأنه يتألم حين يرى إنساناً جواداً، ويريد أن يَكون الناس كلهم بخلاء؛ كي لا يكون أحد أحسن منه"[1].

وقوله كأنهم عشقوا البخل، قد لا يسلم له؛ لأن الخلق الخسيس –كما نعته في أول الكلام– لا يعشق، ولومن صاحبه المدمن عليه، ولو عشقه لما تحرج منه، ولما ضاق به، حتى كلف نفسه عناء الدعوة إليه، فلما شعر وأحس بحسنة السخاء، وفضيلة العطاء، وممدحة البذل، سعى إلى نشر مفسدة البخل، والحث عليها، ليتصف بها الآخرون وتعمّ الجميع، وبذلك يشعر بالراحة والاستقرار الموجب لتوازن نفسه المريضة !لأنه يدرك جيدا أن السخاء أفضل من البخل والإمساك، وفي تعقيب الشيخ في الأخير كلام يخالف به وصفه الأول من عشقهم البخل؛ يقول: "إنه يعرف أن الكرم أحسن، بدليل أنه يريد أن يكون الناس كلهم بخلاء"[2]، ذلك أن العاشق للشيء يتبناه ويقدمه في قرارة نفسه على كل ما يخالفه.

ونخلص أن الله كرم الإنسان بحمله في البر والبحر، وسخر له الدواب والمراكب والسفن ؛ليحقق مصالحه في التنقل وحمل الأثقال، وفق سننه الجارية في خلقه، وأما اتخاذه لمجرد الزينة رياء ولجذب الأنظار ولفت الانتباه وعدم استخدامه لتلبية حاجات أهله في الركوب ليتمتعوا بالحياة الطيبة، فهذا مظهر لا سنني يترتب عليه الإثم والشقاء والمعيشة الضنك.

الفرع الثاني: التوسع في الإنفاق إسرافاً إلى حد الترف

أكد الإسلام على قيمة المال وأهميته ومدى تأثيره في حياة الأفراد والجماعات وما يَنَالُ حياتهم من طيب العيش بتوفره، وهو قوام للحياة، وهو من أسباب السعادة، وعدَّه الشرع من زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف:46]، وهو ركن أساس من أركان الدين والدنيا، لتعلقه بعبادة الإنسان، ووسيلة عظيمة لحفظ نفسه، وسبيل للعيش الكريم، وهو من أسباب الفوز بالدرجات العليا والنعيم المقيم، كما جاء في حديث في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "جاءَ الفقَراءُ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: ذهَبَ أهلُ الدُّثُورِ منَ الأموالِ بالدرَجاتِ العُلا، والنَّعيمِ المقِيمِ، يصَلُّونَ كما نصَلي، ويصومونَ كما نصُومُ، ولهمْ فضْلُ أموالٍ يحُجُّونَ بها، ويَعتمرونَ، ويجاهِدونَ، ويتصدَّقونَ، قالَ: «أَلا أحدِّثُكم بما إنْ أخذْتم أَدركتُم مَن سبَقكُم، ولَم يُدْرِكْكُمْ أحدٌ بَعدَكم، وكنتُم خيْرَ مَن أنتُم بينَ ظَهرانَيْهِ؛ إلا مَن عمِلَ مثلَهُ؟ تسبِّحونَ، وتَحمَدونَ، وتكبِّرونَ خلْفَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين»[3].

---

[1]– الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 4/ 2226.

[2]– نفسه.

[3]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، [843]، 1/ 168.

وزاد مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»[1]، وهذا فضل الله لعظيم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21]، ولما كان هذا الفضل من الله عظيم، حث سبحانه وتعالى على السعي لتحصيله، ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]، كما دعى إلى حسن التصرف فيه، بالإنفاق المعتدل، المتزن، لا إسراف، ولا تبذير، ولا شح ولا تقتير وبخل، حيث وصف عباد الرحمان في سورة الفرقان بأنهم ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67].

جاءَت هذه الآية بمدحهم بالاعتدال والقصد في شؤون معاملاتهم وإنفاقهم؛ "فصفة عباد الرحمن: القصد والتوسط؛ فإذا أَنفقوا من أَموالهم على أَنفسهم وعيالهم، أَو تصدقوا منها على الفقراء والمساكين، أَو بذلوا في وجوه الخير، والمصالح العامة التي تعود بالنفع على المسلمين، التزموا الاعتدال والوسط، فلم يجاوزوا الحد في الإنفاق الحد في الإنفاق دُنْيا ودِينًا"[2].

فعباد الرحمن، فقهوا سنن الله، وعرفوا دخول سنة التوازن في سنن الله الفطرية [3]، وكان التوازن بابتغاء الوسط والاعتدال سمةَ الأمة الشاهدة، التي أقر لها ربها سبحانه وتعالى بالأفضلية؛ لهذا كان منهج الاعتدال مطلبا شرعيا، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77]، و المنهج القويم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67] هو منهج الإسلام الذي ارتضاه لعباده؛ "هذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال"[4]، "والقوام الوسيط"[5]، ولـمَّا كان الاعتدال والتوسط خصيصة من خصائص الشريعة الغراء، في كل مجالات ونواحي الحياة، فقد خصَّ الشارع الحكيم المال والإنفاق بتشريعات حكيمة، وعادلة قصد الحفاظ عليه، والعمل على تنميته بطرق شرعية، ومن هذه التشريعات النهي الصريح عن الإسراف والتبذير وإضاعة الأموال، كما نهى عن إيتاء السفاء المال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: 5]، لأن المال هو ما تقوم به معايش الناس

---

[1]- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب المساجد وموضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، [142]، 1/ 416.

[2]- مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 7/ 1541.

[3]- ينظر: زينب عطية، **السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم**، 1/ 1672.

[4]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 19/ 2579.

[5]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 24/ 482.

ومنافعهم ومصالحهم، و"السُّفَهَاءُ هُنَا هُمُ الْمُبَذِّرُونَ أَمْوَالَهُمُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَهَا فِيمَا لَا يَنْبَغِي وَيُسِيئُونَ التَّصَرُّفَ بِإِنْمَائِهَا وَتَثْمِيرِهَا"[1].

فهذا السفيه الذي لا يحسن التصرف في المال، ولو كان الابنَ قرةَ العين وفلذة الكبد، أو غيره ممن يكون سببا في تضيع الأموال، فهنا يمنع الشرع إعطاءهم الأموال، وفي منعهم حفظٌ للمال من الضياع، فجاء النهي بعدم تسليم الأموال إلى السفهاء المبذرين رغم أن المال مالهم، وفي ذلك دلالة بينة على عناية الإسلام بمصالح العباد، وحرصه على دفع كل ما قد يؤدي إلى الفساد، خاصة أن المال مقصد ضروري، وبفقده يختل نظام الحياة وتتوقف مصالح الناس، فيقعون في العوز والضيق المفضي للفقر المكروه فطرة؛ حيث كان الرسول ﷺ، يتعوذ منه في قوله: «اللهُمَّ فَإِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ»[2]، ومتى وقع السفيه في الفقر فإن وليه مضطر إلى النفقة عليه من ماله؛ فضياع مال السفيه مؤدٍ ولابد إلى نقصان مال الولي. يقول صاحب تفسير المنار في هذا المعنى "فَبِذَلِكَ تَكُونُ إِضَاعَةُ مَالِ السَّفِيهِ مُفْضِيَةً إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَالِ الْوَلِيِّ"[3]، وفي إضاعة مال الفرد، إلحاق للأذى بالمجتمع المسلم وبجماعة المسلمين؛ لأن هذا المال الضائع بسبب السفه وانعدام الحكمة في التصرف في المال، تضيع معه آلية عظيمة من آليات التكافل الاجتماعي ألا وهي **الزكاة** – العبادة المالية– ذلك أن "التَّكَافُلُ فِي الْأُمَّةِ، وَاعْتِبَارُ مَصْلَحَةِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا عَيْنُ مُصْلَحَةِ الْآخَرِينَ"[4].

ومن هذا الباب كان منطلق الشريعة في تحريم الإسراف والتبذير، وذم الترف، ومضت سنة الله جارية في إهلاك المترفين، وإلحاق العقوبة الدنيوية قبل الأخروية بهم.

---

[1] – رشيد رضا، **تفسير المنار**، 4/ 310.

[2] – أخرجه مسلم، صحيح مسلم، باب: التعوذ من شر الفتن وغيرها، [589]، 4/ 2078.

[3] – رشيد رضا، **تفسير المنار**، 4/ 311.

[4] –نفسه.

المبحث الثاني:

الآثار السننية للحياة الطيبة

للسنن الأسباب للحياة الطيبة التي تتجلى مظاهرها في حياة من أخذ بها –آثار جليلة؛ يجدها صاحبها اطمئنانا في القلب، وانشراحا الصدر، وراحة في البدن؛ وهذا أمر مطرد لا يتخلف لكل من تبين السنن، انضبط بشروطها؛ فيكون حينئذ جديرا بالحياة الطيبة؛ وهذا ما يتطرق إليه هذا المبحث؛ **والذي يشتمل على مطلبين:**

المطلب الأول: الآثار السننية الفردية للحياة الطيبة

المطلب الثاني: الآثار السننية الجماعية للحياة الطيبة

المطلب الأول: الآثار السننية الفردية للحياة الطيبة

ليست الحياة الطيبة مستحيلة كما قد يتبادر إلى الذهن؛ فقد يحصل الإنسان السعادة بأيسر الأشياء وأقربها، وأما اشتراط مقدمات في ايجاد الحياة الطيبة وتحقيقها، فهذا تنعكس نتائجه تبعا في آثارها الكبيرة والجليلة على حياة الإنسان في جوانبها المتعددة، وهذه الآثار الطيبة هي ما نحاول تفصيله في الفروع الآتية.

الفرع الأول: القبول بين الناس

القبول ميزة وخصيصة السعداء فنجد أكثر الناس قبولا أكثرهم سعادة[1] وهذا القبول هبة من الله يؤتيها من يشاء من عباده، فهي ثمرة نبيلة من ثمار مظاهر وتجليات الحياة الطيبة على مستوى البدن تخص إشراقة المحيا، وقبل البدء في عرض آثارها، وتجنبا للوقوع في التداخل بين الآثار والمظاهر، لابد من تقديم ميسر لمفهوم الآثار والمظاهر.

جاء في كتاب العين أن الأثر بقية ما ترى من كل شيء، وما لايرى بعد ما يبغى علقة، وأثر السيف: ضربته، وأثر الحديث: أن يأثره قوم عن قوم... والمصدر: الأثارة، والمأثرة[2].

والأثر: العلامة التي يخلفها الشيء[3]، وبالجمع بين المعنيين، نخلص إلى استنتاج بعض الآثار السننية للحياة الطيبة، التي سبق ذكرها في مطلبها، وعليه تكون هذه الآثار على شكل نتائج منطقية سننية للمظاهر سالفة الذكر.

من العلامات على فوز العبد بطيب الحياة، أن يرزقه الله القبول والمحبة بين خلقه، وكل من أحبه الناس ووضعوا له رداء القبول بينهم، فإن ذلك دليل على محبة الله له، ورضاه عنه، إذ من أحبه الله فإنه يأمر الملائكة بأن تحبه، وفي ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال: « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»[4]، والقبول إنما هو قبول القلوب له بالمحبة والميل إليه والرضا عنه[5].

وحب الله للعبد، وحب الناس له تبعا، معناه إرادة الخير المطلقة له، بالإتباع والنصرة والتأييد، ومن ثم الاقتداء، وهي أبواب عظيمة لتحصيل الثواب والأجر، لاسيما إذا تمخضت المحبة بدوام الدعاء، عن

---

[1]- ينظر: مهدي الموسوي، **أسرار الحياة**، كندا، مكتبة نورص، ملهمون، ط2 (2016م)، ص: 80.

[2]- ينظر: الفراهيدي، **معجم العين**، باب الثاء والراء، 236/8-237.

[3]- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، باب الهمزة، 5/7 .

[4]- البخاري في **صحيحه**، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، [3209]، 111/4.

[5]- ينظر: ابن حجر، **فتح الباري**، 462/10.

ظهر الغيب لهذا المحبوب، "وقد شوهد رجال من المسلمين علماء صالحون كثر الثناء عليهم وصرفت القلوب إليهم في حياتهم وبعد مماتهم ومنهم من كثر المشيعون لجنازته وكثر الحاملون لها والمتشغلون بها، وربما كثر الله الخلق بما شاء من الجن المؤمنين أو غيرهم مما يكون في صور الناس"[1].

ومن محاسن ومحامد هذه المحبة، صرف القلوب له، تتبع آثاره الدنيوية، ومن ما لا شك فيه، بأنه صاحب فضائل وطاعات، ومن أهل الإيمان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: 96]، قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله، عز وجل، لمتابعتها الشريعة المحمدية –يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة ... ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم"[2]، فمن ترك من العلم ما يكون له صدقة جارية، وما نفع به حيا وميتا، ومن رزق القبول بين الناس والملائكة والجن، سهلت أموره وتيسرت، وسخر له الله له عباده لتصريف شؤونه، وسخر له رزقه يساق إليه سوقا، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ [الطلاق: 2]، وكان عثمان يقول: "مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ عَمَلًا إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ"، ومن خلال هذا الحديث نستنتج سنة الله "الجزاء من جنس العمل"؛ سنة قوامها القسط والعدل والجزاء الوفاق، فقد جرت سنة الله في خلقه بأن يجازي كل عامل بحسب عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؛ في الدنيا والآخرة، وجزاء العمل الصالح القبول في الدنيا، والفوز بالسعادة في الآخرة، في ظل حياة طيبة، وما كان هذا القبول من الناس له لولا قبوله لنفسه ورضاه عن حاله وقناعته بما أعطاه الله ورزقه، فليس يحسد الناس على ما فضل الله بعضهم بسعة المال، فقناعته كنزه الذي لا يفنى؛ فوضع القبول لم يكن لشكله أو جاهه؛ ولكن جزاء من عند الله، ومحبة لصدق إيمانه، وإخلاص عمله، ونقاء سريرته، وحبه الخير لغيره وقبوله للآخرين على ما هم عليه، "ومن لا يقبل نفسه فكيف يقبل الآخري، ومن لا يقبل الآخرين كيف يعيش معهم، ومن لا يعيش مع الآخرين كيف يعيش الحياة"[3]، فإذا أردنا الفوز بالقبول في الأرض وبين الخلق فعلينا بتطبيق قانون الحياة الطيبة، وناموسها المتلخص فيشكل معادلة سهلة بسيطة طرفها الأول إيمان صادق، والثاني عمل صالح مخلص، ونجد بعض الناس إن لم نقل أكثرهم يشتكي من بغض الناس له والنفور من مجالسه رغم تيسر أحواله المادية، ولا تعجب لموقف الناس هذا؛ ذلك أن هؤلاء المنفور

---

[1]- القرطبي، **التذكرة في أحوال وأمور الآخرة**، تح: الصادق بن محمد بن إبراهيم، الرياض، مكتبة دار المنهاج، ط1(1425 هـ)، 812/1.

[2]- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 305/9.

[3]- مهدي الموسوي، **أسرار الحياة**، كندا، مكتبة نورص، مولهمون، ط 2 (2016م)، ص: 83.

منهم خالفوا سنة الله في الحياة الطيبة، التي من أثارها على العبد قبول المؤمنين له ومحبتهم إياه؛ فجاءت النتيجة على وفق ما قدموه؛ وهذا الذي قلناه إنما هو مع المؤمنين فقط، ولم يجعل الله للعصاة المتكبرين محبة،كما قال قتادة وهو يفسر آية ود الرحمن للمؤمنين: "إِي وَاللَّهِ، فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ"[1]، "مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ وَرَحْمَتَهُم"[2]؛ فحب الله للمؤمنين، يقتضي أن يُحببهم للمؤمنين إخوانهم ليس للكافرين، وهكذا يتضح المقال في نفور القلوب من بعض الناس؛ "وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب، وروح رضى يلمس النفوس؛ وهو ود يشيع في الملأ الأعلى، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلىء به الكون كله ويفيض"[3]، وبتأمل كلام سيد قطب نخرج بفائدة عظيمة مفادها أن محبة هذا السعيد، وإشراقة وجهه بدأت مع الملأ الأعلى حتى شاعت عندهم ففاضت على الأرض قبولا بين الخلق ثم امتلأ بها الكون وانتفع منها؛ فالمقبول عند الناس نفعه متعد إلى الخلائق جميعهم، وهذه بعض أقوال أهل العلم في حقيقة القبول عند الناس وبيان الطرق الموصلة إليه.

- عن هشام بن عروة عن أبيه قال: "مكتوب في الحكمة ليكن في وجهك بسطا، وكلمتك طيبة، تكن أحب إلى الناس من الذي يعطيهم العطاء"[4]. فبسط الوجه موصل إلى محبة الناس، ومحبة الناس توصل للقبول.
- وفي فيض القدير أيضا قال بعض العارفين: "التبسم والبشر من آثار أنوار القلب"[5]. التبسم نور على الوجه ونور في القلب وبشرى لأهل البر والتقوى.
- وفي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿38﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿39﴾﴾ [عبس: 38-39]، قيل: "مشرقة بالبهجة والمسرة، تضحك استبشارا بما لاح لها من دلائل الفوز، وما هبّ عليها من أنسام الرضوان والجنان"[6]. ومن علامات رضوان الله سبحانه وتعالى على عبده أن يجعل في وجهه القبول.

وهذه بعض آثار طلاقة الوجه الموصلة للقبول عند الناس:

- طلاقة المحيا تثمر حب الناس وتنمي روابط المودة، وتقوي أواصر الألفة بينهم.
- طلاقة الوجه وبشاشته مفتاح للفوز بالبر، وأفضل عباد الله وأكرمهم هم أهل البر والتقوى.

---

[1]- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 5/ 269.

[2]- نفسه.

[3]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 4/ 2321.

[4]- البيهقي، **شعب الإيمان**، باب فصل في طلاقة الوجه وحسن البشر لمن يلقاه، [7699]، 403/10.

[5]- نفسه، 3/ 297.

[6]- عبد الكريم يونس الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، 16/ 1461.

الفرع الثاني: القيام بالعبادات والطاعات

من الآثار السننية للصحة الجسمية، القيام بالطاعات والعبادات، وخدمة المجتمع على أكمل وجه،فلا ينكر عاقل نعمة الصحة، والعافية في حياة الناس هي من الأمور التي يغبن عليها الناس بشقيها الجسمية والنفسية فهما متكاملتان؛ يستطيع الإنسان، صحيح البدن، سليم الجسم، خدمة نفسه ومجتمعه، وتنفيذ أمور دينه، والقيام بالتكاليف على أكمل الوجوه وأتمها، وما شرعت الأحكام إلا لمصالح العباد في الدارين، ولم يكلف الله عباده بما فيه مشقة أو عنت، ومع هذا نلحظ أنه إذا ما أصيب جسد الإنسان بالأمراض والعلل، فإنه يصعب عليه القيام بالفرائض على ما فيها من منافع ظاهرة وباطنة، سواء للنفس، أو الجسد، "فالصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب مبيضة للوجه مفرحة للنفس مذهبة للكسل منشطة للجوارح ممدة للقوى شارحة للصدر مغذية للروح منورة للقلب حافظة للنعمة دافعة للنقمة جالبة للبركة مبعدة من الشيطان مقربة من الرحمن"[1]، فاجتمع فيها كل هذه المنافع والمصالح، وما إن يبتلى المرء ببدنه حتى يحرم نصيبه من كل هذه الفوائد، متى حبسه المرض الشديد، الناشئ عن تفريط عن أدائها كاملة، وقد يحرمه مرض الشلل من الوقوف بعرفة، فيحرم منافع الحج ومغانمه، بما في ذلك من تبادل المنافع والتعارف، وتكفير الذنوب، وتحصيل المغفرة المرجوة من الرحلة، ومن ما لا شك فيه أن الصحة البدنية، واللياقة الجسدية الجيدة، عون عظيم للحاج على الأداء الأمثل لمناسك الحج، لذا جعل الشارع الحكيم الاستطاعة البدنية شرطا لوجوب الحج، قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿27﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿28﴾ ﴾ [الحج: 27-28]، ورجالا بمعنى ماشين على أرجلهم[2]، ولا يخفى بعد الفج، ومشقة الطريق، ما يستلزم على طالبه التمتع بصحة جيدة، للتمكن من بلوغه أولا، ثم أداء مناسكه ثانياً؛ من وقوف بعرفة من شروق الشمس إلى غروبها، ومبيت بمزدلفة في العراء، ثم رمي الجمرات وسط الزحام، ولا يصح التحلل من الإحرام إلا بعد الرمي، والنحر، والحلق، والطواف، وكل هذا لا يستطيعه المريض، العليل هزيل البنية، فحظ الهزيل المفرط هزيل بالضرورة لتفريطه في صحت وما رعاها و أعتنى بها.

---

[1]- ابن القيم، **الطب النبوي**، ص: 250.

[2]- مجمع البحوث الإسلامية، **التفسير الوسيط**، 1207/6.

فإذا أراد رحمات التحليق وحسناته، منعه الأذى من رأسه، فجانبه بالتقصير، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْمُحَلِّقِينَ، قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْمُحَلِّقِينَ؟ قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَالْمُقَصِّرِينَ»[1].

فثبت بهذا النص أن النبي ص قد ظاهر لهم في الرحمات، ودعاؤه مستجاب، وهذه فضيلة أخرى، يفوز بها المتعبد، صحيح البدن، سليمه، ويحرم المريض السقيم المفَرِّطُ في صحته، وعبادة الصيام وما أدراك ما عبادة الصيام ؛ فقد عرف الصوم عند الأمم التي كانت من قبلنا منذ آلاف السنين، ونصوص القرآن تقر هذه الحقيقة التاريخية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183]، وقد اتخذوه وسيلة للاستشفاء والعلاج من الأمراض؛ فقد كان الحكماء يعالجون المرضى بالحمية بمنع الأكل والشرب كليا أو جزئيا، فقد أكد أطباؤهم وعلماؤهم أمثال أرسطو وسقراط وجالينوس بأن الصيام هو الطريق الطبيعي للشفاء، في حين جعل الإسلام المقصد الأساسي من الصوم التقوى؛ قال تعالى في سورة البقرة ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ وبهذا يكون القرآن قد لخص الحكمة من تشريعه في كلمة التقوى، يقول حسين شرفة في كتابه "سنن الله في إحياء الأمم": "فوقاية النفس من الرذائل ومساوئ الأخلاق من التقوى؛ ووقاية الجسد من الأمراض ليظل سليما يؤدي واجب الاستخلاف وعمارة الأرض ضرب من ضروب التقوى، والإحساس بمعاناة الآخرين وما يتبعه من شكر النعم ناشئ عن التقوى"[2]؛ والتقوى لفظ يتسع ليشمل كل خير، تؤتى ثماره في الحياة الدنيا صحة في البدن وشفاء من الأمراض؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 184]، فهذه سنة الله في إيراد الخير لكل من استجاب لأمر الصوم، وصدق يقينا حديث الحبيب المصطفى وهو يرشد أمته إلى فضائل الصيام وفؤائده العائدة على جسم الإنسان وصحته؛ فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ طَعَامُهُ، وَثُلُثٌ شَرَابُهُ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[3]، فهذا التوجيه النبوي الحكيم لخطورة الانقياد وراء شهوة البطن التي اتخذها الشيطان سلاحا يستعبد به الإنسان ويحيل معدته وعاء شرور وأسقام وأوجاع، فحذر من لا ينطق عن الهوى من مغبة السقوط في حبال الشيطان ومكائده، وذلك بترشيد أكله وشربه؛ ليحافظ على عافيته وصحة بطنه وعقله، وفي شرح صاحب كتاب فيض القدير هذا الحديث فيقول: "فإذا ملأ بطنه انتكست بصيرته وتشوشت فكرته لما يستولي على معادن إدراكه من الأبخرة الكثيرة

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، [1727]، 174/2.

[2]- حسين شرفة ،**سنن الله في إحياء الأمم**، ص:429.

[3]- سبق تخريجه، ص 15.

المتصاعدة من معدته إلى دماغه فلا يمكنه نظر صحيح ولا يتفق له رأي صالح وقد يقع في مداحض فيروغ عن الحق كما أشار إليه خبر لا تشبعوا فتطفئوا نور المعرفة من قلوبكم وغلب عليه الكسل والنعاس فيمنعه عن وظائف العبادات وقويت قوى البدن وكثرت المواد والفضول فينبعث غضبه وشهوته وتشتد مشقته لدفع ما زاد على ما يحتاجه بدنه فيوقعه ذلك في المحارم قال بعض الأعلام: صوم العوام عن المفطرات وصوم الخواص عن الغفلات وصوم العوام جنة عن الإحراق وصوم الخواص جنة لقلوبهم عن الحجب والافتراق"[1].

فهذه أضرار مادية و معنوية لمن جعل همه بطنه، وغفل عن حكمة الصيام، وفوائده التربوية؛ فهو مدرسة الأخلاق يتعلم فيها الصائم الإحساس بالمساكين الجائعين حولا كاملا، لا شهرا واحدا فضيلا ويتدرب على الصبر عن الحرام وعلى كبح شهوات البطن والفرج؛ فينال حسن الجزاء وبشرى الصابرين، ناهيك عن ما أثبته العلم، والطب الحديث عن منافع الصيام وتجويع الجسد لمكافحة الأمراض الكثيرة.

"الصوم نظام حياتي غذائي دوري، يلتزم به الإنسان المؤمن شهرا في كل عام، وله تأثيره العميق على نفسيته وجسمه، وهو تدبير وقائي، كما هو إجراء علاجي لكثير من الحالات المرضية"[2]؛ فأين العليل من فقد نعمة صحة البدن بتفريطه وغفلته، عن سنن الوقاية وسنن العلاج، وما تحويه من خيرات؟! وأين هو من منافع الصيام الدنيوية وثوابه الآخروي؟ لاسيما أن الله جعل عبادة الصوم خالصة له !! وهكذا تجري سنة الله العادلة في كل من صام رمضان إيمانا واحتسابا، وتنعكس عليه بالتقوى والمغفرة جزآءً وفاقا.

الفرع الثالث: كرم الضيافة والراحة

من الآثار السننية لنعمة المسكن الواسع والمركب المريح، أن يتدرب الإنسان على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات ونبل الآداب، التي تُذهب وحشة النفس وقباحتها، وتكسب صاحبها محبة الآخرين واحترامهم؛ فسعادة الإنسان في اتخاذه مسكنا واسعا، متعدد المرافق، يستقبل فيه الضيوف، ويكرمهم في راحة، دون إحراج أو ضيق، وإكرام الضيف رغب فيه الشرع، وحث عليه، ورتب عليه الأجر العظيم؛ لما فيه من توثيق أواصر المحبة والأخوة، وتحقيق المودة الجامعة، المحصلة للوحدة المنشودة، قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: 103]، وقال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ،

---

[1]- المناوي ، **فيض القدير**، 4/ 242

[2]- عبد الحميد دياب، **مع الطب في القرآن**، ص: 200.

قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: يَوْمُهُ وَلَيْلَتُهُ وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ، وَقَالَ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

والضيافة من شيم الأنبياء، وسنة من سننهم، ومنهم إبراهيم –عليه السلام–، "أولُ من ضيف الضيف، وجاء بها الإسلام العظيم، في آدابه السامية، وتشريعاته الحكيمة"[2]، وتشريعات الإسلام كلها رحمة وخير للمكلفين، وقد سئل الأوزاعي عن كرامة الضيف قال: "طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج، وعلى المائدة"[3]، العجيب في تشريعات الإسلام تكامليتها حيث أنها تكون وحدة موضوعية تخدم الإنسان وتلبي حاجاته الفطرية، فنجد أن طلاقة الوجه ممدحة موصلة لمحبة الناس ومن آثارها الجليلة على الفرد الفوز بميزة القبول عند الناس، ومن كرم الضيافة أن تلقى الضيف بوجه طلق، فاجتمع لصاحب الوجه الطلق الكريم مع الضيف ممدحتين يثاب عليهما.

فللضيف في الإسلام حق الإكرام؛ «وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ»[4]. ومن الكرم ضيافته في دار واسعة فسيحة مرتبة، يخصص له غرفة منفردة المرافق، حتى تصان حرمة أهل البيت، ويؤدَّى حق الضيافة على أكمل وجه، جزاء ثابت؛ صدقة كاملة.

فالضيافة من مكارم الأخلاق، التي يجب بعثها وإحياؤها وسط الجماعة المسلمة، وهي من الشيم النفسية المحققة للطمأنينة، والسعادة، والسكينة.

والسكن في دار واسعة جميلة، يعين الإنسان على الطاعة والعبادة، والقيام بجميع الأعمال، التي هو مسؤول عنها، قال تعالى في مقام الامتنان بنعمة البيوت: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ [النحل: 80]، وقال عز من قائل: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: 82].

فالإيواء إلى البيوت للسكن أعظم نعمة للإنسان؛ فهو يحقق عدة سنن إلهية؛ منها سنة الزواج وسنة التكاثر، ومن ثمة سنة الله في استقرار المجتمع، وهذا الناموس الإلهي يضمن استمرار الجنس البشري إذا أحسن الإنسان استثمارها وتفعيلها بمراعاة حق الله فيها. وذكر وهب بن منبه: أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض استوحش فيها لما رأى من سعتها ولم يرى فيها أحدا غيره فَقَالَ: يَا رَبِّ أَمَا لِأَرْضِكَ هَذِهِ عَامِرٌ يُسَبِّحُكَ فِيهَا، وَيُقَدِّسُ لَكَ غَيْرِي؟، . . . قال عز وجل: إِنِّي سَأَجْعَلُ فِيهَا مِنْ ذُرِّيَّتِكَ مَنْ

---

[1]– أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، [6091]، 11/8.

[2]– ابن العربي، **المسالك في شرح موطأ مالك**، دار الغرب الإسلامي، ط1(2007م)، 397/7.

[3]– ينظر: أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 2/ 18.

[4]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الصيام، بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ الدَّهْرِ، [182]، 2/ 813.

يُسَبِّحُ بِحَمْدِي وَيُقَدِّسُ لِي، وَسَأَجْعَلُ فِيهَا بُيُوتًا تَرْفَعُ لِذِكْرِي، فَيُسَبِّحُنِي فِيهَا خَلْقِي، وَسَأُبَوِّئُكَ فِيهَا بَيْتًا أَخْتَارُهُ لِنَفْسِي، وَأَخُصُّهُ بِكَرَامَتِ..."[1].

وجاء ذكر البيوت في القرآن الكريم في معرض بيان نعم الله على الإنسان؛ فهي موطن الاستقرار والسكون الآمن والراحة، "إنها نعم تأخذ بوجدان الإنسان العاقل إلى الشعور بالطمأنينة والراحة والسكون، وإن الشعور بها ليؤدي بالاستسلام إلى خالقها والمنعم بها وفاء له"[2].

فهذا أسلوب القرآن في تحريك وجدان المنعم عليه، ليؤدي واجب الشكر للمنعم والاعتراف له بالجميل، والإقرار بألوهيته سبحانه وتعالى؛ ولأن راحة الإنسان لا تكتمل بمجرد إيجاده للمسكن الواسع؛ فمن مقاصد الشريعة الحاجية تحقق مصالح الناس التي يحتاجونها للتوسعة ورفع الضيق والمشقة، إباحة التمتع بالطيب في المأكل، والملبس، والمسكن، والمركب المريح الهنيء الذي يحمله، ويحمل عليه أثقاله، ولهذا كانت آثاره عليه جليلة كثيرة نحاول ذكر أهمها.

- إكرام الضيف سنة، والرسول ﷺ أمر بذلك، وقَرَنَ إكرامَه بصدق إيمان المرء وحقيقته، فلا إيمان لمن كان مقصرا في حق ضيفه مسيئا الخلق معه، وغاية الإكرام طلاقة الوجه، وبشاشة المحيا مع الضيف، وقد عدّ النبي ذلك من حسن الخلق، الذي له درجة العبادات والشعائر الكبرى في قوله: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم"[3].
- طلاقة الخلقة صاحبها عزيز، محبوب مرغوب في لقائه، ذو هيبة ووقار.

ولا تتم الراحة إلا بالمركب الهنيء: ذكر الله سبحانه وتعالى وسائل الحمل والتنقل التي سخرها للإنسان ضمن مظاهر تكريمه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، فبعد أن كرم الله الإنسان بالمسكن اللائق الذي يحفظ له كرامته ويصون له عرضه من الانتهاك، ويحفظه من كشف حرماته، فقد سخر له مراكب البر والبحر ليحمله ويحمل أثقاله أثناء حلِه وترحاله، وهذه التكريمات الإلهية المتوالية يهتدي بها إلى سعادته الدنيوية والأخروية؛ ليحيى حياة طيبة خالية من المشقة والضيق، ولخصيصة التكريم سلطه على جميع منافع الكون مسخرة مُذللة مُهيئة لتحقيق مصالحه؛ فالدواب المطيعة والمطيقة لحمل الأثقال وحمل هذا السيد المكرم مصروفة لخدمته برا وبحرا؛ ولما كرمه بنعمة القوة العقلية صنع مراكب وسفن

---

[1]- البيهقي، **شعب الإيمان** ، 5/ 447.

[2]- حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، **منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام**، المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1(1424هـ- 2004م)، 503/1.

[3]- رواه أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، [4798]، 176/7، ورواه البيهقي، **شعب الإيمان**، باب حسن الخلق، [7632]، 364/10، ورواه أحمد، **المسند**، حديث عائشة رضي الله عنها، [25057]، 133/6، تعليق الأرنؤوط، حديث صحيح لغيره.

وبواخر لنقله في البحار والمحيطات، يقول ابن عباس: "وحملناهم في البر والبحر في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل وفي البحر على السفن، وهذا أيضا من مؤكدات التكريم المذكور"[1].

ويتجلى أثر هذا التكريم في اكتساب الإنسان عزة ورفعة تجعله يزداد قربا لصاحب النعم، وإيمانا ويقينا يقوي صلته بخالقه، يقول ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70] "... لا يصطفي لنفسه إلا أعز الأشياء وأشرفها وأعظمها قيمة وإذا كان قد اختار العبد لنفسه، وارتضاه لمعرفته ومحبته، وبنى له داراً فى جواره وقربه، وجعل ملائكته خدَمه يسعون فى مصالحه فى يقظته ومنامه وحياته وموته "[2] .

فإذا ركب العبد مركبه الفاره وشعر بالراحة، امتلأ قلبه حب لخالقه ورازقه إياه ،وحب الله عبادة من أعظم العبادات، يقول ابن القيم: "فَأَصْلُ الْعِبَادَةِ: مَحَبَّةُ اللَّهِ، بَلْ إِفْرَادُهُ بِالْمَحَبَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ الْحُبُّ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَلَا يُحِبُّ مَعَهُ سِوَاهُ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ لِأَجْلِهِ وَفِيهِ، كَمَا يُحِبُّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ، فَمَحَبَّتُنَا لَهُمْ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ، وَلَيْسَتْ مَحَبَّةً مَعَهُ، كَمَحَبَّةِ مَنْ يَتَّخِذُ مَنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ"[3]، وحب الله يجعله يبادر إلى الأعمال الحسنة يسارع إلى الخير يزرع الإيجابية و النفعية أين ما حل، زيادةً على أن حب العبد لربه يورث حب الخالق لعبده وهذا الأخير كان مقدما، وفي الحب قرب، وفي القرب ولاية، وفي الولاية كرمات ومقامات لا يصل إليها إلا العارف المحب للمنعم، وهذا الأثر من أعظم الآثار وأجلها وأهمها في تحقيق طيب الحياة بما فيها من قبول ورضى وقناعة واطمئنان وسكينة تغني عن كل المكاسب دونها، ولا يلتفت إليها من بلغ هذا المقام.

إضافة إلى فوزه بحب الله ينال محبة الناس بتسخيره مركبه في خدمة وإعانة المحتاجين من أفراد الجماعة المسلمة الذين كان عوزهم للتنقل والحمل والسفر شديدا؛ لتعلق مصالحهم ومعايشهم به؛ فهو من وسائل تحقيق التكافل الاجتماعي، ولو انتبه أصحاب الخير وأهل الوقف إلى تخصيص باب من أبواب الوقف إلى حبس وسائل التنقل وتسيير منفعتها لصالح المجتمع لحلت مشاكل عويصة تواجه المسلم يوميا، كتوفير مراكب لتنقل المرضى والعجزة الفقراء إلى المستشفيات أوقات العلاج داخل أو خارج البلد، وأخرى لطلبة العلم الذين يواجهون الصعاب والمشاق للتنقل إلى الدراسة بدلا من تفعيلها في المجتمع لنقل الموتى فقط، فالأحياء أولى بالاهتمام والعناية.

---

[1]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 374/21.

[2]- ابن القيم، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، 241/1.

[3] - ابن القيم، **مدارج السالكين**، 119/1.

وخلاصة المعنى أن فضل المنان الكريم بتسخير المركب الهنيء والمسكن الواسع لعبده الضعيف يخلف أثار طيبة على حياة الإنسان مما يجعله يقوم بواجبه الاستخلافي في عمارة الأرض أفضل بكثير ممن شغلته هموم البحث عن مسكن لائق، أو كدر ضيق مسكنه حياته فغمته المشاكل الأسرية فتشتت قواه بين زوجة غير راضية يبحث عن السكينة في جنبها؛وأم غاضبة يريد تحصيل برها ، فألهته همومه عن القيام بدوره كزوج أو ابن بار أو عامل يسعى لكسب رزقه ورزق من يعول فضيع حقوق الله وهو يحاول إعطاء حقوق أهله وإرضائهم ففرط في الأولى ولم يحقق الثانية.

المطلب الثاني: الآثار السننية الجماعية للحياة الطيبة

تحصيل الحياة الطيبة كما هي من المطالب العاليات للأفراد، فهي كذلك بالنسبة للجماعات، فسعادة الفرد بسعادة مجتمعه وجماعته، فالإنسان بطبعه اجتماعي لا يستطيع العيش بمفرده فإذا تقرر سالفا أن للحياة الطيبة آثار سننية فردية فما هي آثارها السننية على مستوى الجماعات، لتحيا الجماعة المسلمة في ظلال السعادة والغبطة والسرور.

الفرع الأول: آثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

خص المولى تبارك وتعالى أمة حبيبه محمدﷺ بميزة خالصة لها دون الأمم التي كانت من قبلها وهذه الخصيصة شرف لأبنائها وممدحة لهم ،ما أخذوا بسنن الله المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي من أثارها السننية الجماعية ما تبينه الدراسه في هذه النقاط.

أولا: القضاء على المفاسد المتحققة والمحتملة الوقوع

يكفي الجماعة المسلمة ما تعيشه وتعايشه في هذا العصر من انتشار الفواحش ما ظهر منها وما جُهر به وليس بطن؛ لأن المجاهرة بالفاحشة أصبحت سمة هذا العصر وخصيصة خاصة؛ ما تشيعه وسائل الإعلام والاتصال المختلفة ومواقع التواصل الاجتماعي، حتى تنافس المجاهرون بالرذائل تنافسا لم يسبق له مثيل على ساحة الفواحش والمناكر المعهودة والمعروفة؛ فتحولت المعاصي والذنوب إلى كبائر الجهر بها، يقول عبد الحميد ابن باديس: "أما الذي يجاهر بمعصيته ويعلن بها؛ فهذا قد تعدى على مجتمع الناس بما أظهر من فساد، وما أوجد من قدوة سيئة، وما عمل لمجاهرته على شيوع الفاحشة فيهم"[1].

فهذه من المفاسد المتحققة التي ابتلى بها المجتمع المسلم، وبتفعيل سنة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يدي الظالم ومنعه من ممارسة المنكر تنجو الجماعة المسلمة المبتلاة من

[1]- عبد الحميد بن باديس، **مجالس التذكير من حديث البشير النذير**، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1(1403هـ- 1983م)، 125/1.

المفاسد محتملة الوقوع، التي تظهر على شكل عقاب جماعي من الله سبحانه وتعالى يشمل الجميع الصالح قبل الطالح، والتي يأمل كل مسلم عدم وقوعها أو عدم معايشتها على الأقل.

وقد تبين ما في المجاهرة من المفاسد والظلم، وأن أهلها هالكون لا محالة، وتجر آثاما كثيرة بما يتسبب من شيوع الفاحشة وسوء القدوة وما تبقى أثاره بينة في المجتمع[1].

ثانيا: حفظ الدين والملة والعقيدة

حفظ الدين من مقاصد الشريعة الإسلامية الضرورية، التي إذا فقدت اختل نظام الحياة وعم الفساد والفوضى المجتمع، حتى يستحيل العيش؛ لذا كفل الإسلام حفظه من جانبين: جانب الوجود بإقامة العبادات والدعوة إلى التوحيد والإيمان وكلف رسل مبشرين ومنذرين لتبليغ أحكامه، ولحفظه من جانب العدم حرم الشرك وشرع الجهاد؛ تمكيننا للدين ودرءا للعدوان وحماية للعقيدة، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: 190]، وقال عز من قائل: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: 193]؛ يقول سيد قطب: "وكان واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة، ضمانا لحرية العقيدة، وكفالة لأمن الذين هداهم الله، وإقرارا لمنهج الله في الحياة، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير"[2].

وفي هذا القتال (الجهاد في سبيل الله) مصالح عظيمة للجماعة المسلمة خاصة، وللبشرية بعد ذلك عامة، وفي إتباع المنهج الإسلامي وإقامة شرع الله تحررهم من قيود العبودية التي كانت تقيد حقوقهم وبشريتهم؛ لأن لا خير له إلا في هذا المنهج الرباني، "ولعله يحسن أن نقول كلمة مجملة عن الجهاد في الإسلام... لقد جاءت هذه العقيدة... التي جاء بها الإسلام لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض... ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق الله... قيادتها إلى الخير الذي لا خير غيره في مناهج الجاهلية جميعا ... والتي تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح؛ حيث تحرم منها ولا يتعدى عليها معتد، بأكثر من حرمانها من هذا الخير، والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال"[3].

---

[1]- ينظر: عبد الحميد بن باديس، **مجالس التذكير من حديث البشير النذير**، 1/125-126.

[2]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2/186-187.

[3]- المرجع نفسه، 2/186 .

وبحفظ الدين والملة والعقيدة يُبلغ الإسلام، وتقوم الدعوة إلى هذا المنهج الرباني الشامل لخير الدنيا والآخرة؛ فتنعم البشرية جمعاء بالسعادة في ظلال حكم إسلامي يطبق منهجا ربانيا تسيره قيادة سياسية راشدة، راية حكمها شعارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثا: تحقيق خلافة الله في الأرض

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: 30].

لو تأملنا كتاب الله عز وجل لأدركنا أن قصة الخلق كلها تدور حول موضوع خلافة الإنسان، وقضية أمانة الاستخلاف، ومسؤولياتها العظام التي رفضت تحملها مخلوقات أعظم قوة من الإنسان وأقدم وجودا منه.

ولو حاول الإنسان الاضطلاع بها دون الاستجابة لفريضة الأمر والنهي، لصعبت عليه المهمة إن لم نقل تستحيل عليه، لأن الأمر والنهي هو الأساس الذي من أجله بعث الله النبيين والمرسلين، وهو أساس الإعمار والعمران والإصلاح في الأرض، يقول الإمام الغزالي في بيان أهمية أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "إن الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الْقُطْبُ الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد"[1].

إذن مهمة هذا الكائن مهمة عظيمة تقوم على "كشف ما في الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه"[2]، ووفق سنن ونواميس الله التي تحكم الكون كله تجري في الخلق لا تنفذ هذه المهمة الاستخلافية في غياب سنن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فوظيفة الخلافة في اكتشاف ثروات الأرض الباطنة والظاهرة، وخاماتها، لتسخيرها في تحقيق منافعه ومصالحه المتعلقة بمعاشه واستمراره على وجه المعمورة، مرتبط حتما بالأمر والنهي، ذلك أن وراء كل أمر بالمعروف خير، وصلاح، ونفع، وخلف كل نهي، منكرا جليا وفساد ودمار، وتخلف، وفي بيان أهمية وأثر الأمر والنهي في تحقيق خلافة الله في الأرض يقول الدكتور أبو فارس عبد القادر: "ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في غاية الأهمية بالنسبة للمجتمع الإسلامي، فيها تصلح أحوال المسلمين العامة والخاصة، وإذا فقدت وأهملت انتشر الفساد في البر والبحر، وعمت الفوضى واضطرب حبل

---

[1]- أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 2/ 306.

[2]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1/ 56.

الأمن والأمان، ودب الضعف في بنية الأمة وكيانها وهذا يقضي إلى الهزيمة والخذلات"[1]؛ فإذا أرادت الأمة تحقيق الإنجازات الحضارية الكبرى للنهوض بواقع الجماعة المسلمة لتحيا حياة طيبة كريمة مع قيامها بواجبها الاستخلافي في الأرض،فعليها بتفعيل سنن الأمر و النهي.

الفرع الثاني: أثار القيادة السياسية الرشيدة

تلعب القيادة السياسية الرشيدة دورا بالغ الأهمية في تحقيق الحياة الطيبة، بالحرص على التخطيط والتسيير الجيد لتنفيذ كل طموحات وآمال الرعية، كما لها أثر فعال في تعاظم شأن ومكانة البلاد داخليا وخارجيا.

وعلى هذا يكمن دور القائد السياسي الرشيد في أن يمضي بأمته قدما إلى الكمال المقدر لها بإتباع المنهج الإلهي، المتمثل في الفلاح والنصر والتمكين، والعزة والريادة وقيادة البشرية والخيرية، والاستقرار والأمن السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي؛ "حيث تكون الأمة كلها منقادة للقيادة الرشيدة، وتصبح الأمة كلها على الطريق المستقيم أما الجماعات المنحرفة من أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا ولم يقم من بينهم راشدون ويُقومون هذه الانحرافات فكان أن ظلوا جميعا وهلكوا جميعا.. وهكذا شأن الجماعات تفقد القيادة الرشيدة .. لا يستقيم لها طريق ولا تستقر لها حال إنها أشبه بالغنم ليس لها راع يوردها موارد العشب والماء ويدفع عنها عادية الذئاب والسباع"[2].

إن من أعظم أسباب الرشد والحكمة التي يُمدح بها القائد، ويُثنى بها على فضائله وتخلد بها إنجازاته في تاريخ البشرية، ليست قوته الجسدية ولا عظمة جيوشه، أو ضخامة عدد جنوده، ولا كثرة وتعدد موارد خزينة الدولة، رغم أن هذه الأسباب كلها مجتمعة تحقق النصر والتمكين والحياة الطيبة للمحكومين، ولكن إذا غاب عنها فقه السنن الإلهية وتنكبها القائد كان سعيه واجتهاده لخدمة رعيته لا طائل منه؛ ولهذا نجد الرعيل الأول صحابة رسول الله ﷺ لما فقهوا السنن، وفعلوها في سياسة الخلق والبلاد واستثمروها أحسن استثمار، كانت النتيجة فتوحات إسلامية بلغت مشارق الأرض ومغاربها، حتى أضحى العالم الإسلامي بموقعه الجغرافي والسياسي يحظى بمكانة عظيمة بين دول العالم، ولو تتبعنا كتب السيرة والتاريخ الإسلامي لوقفنا على سنن النصر والتمكين والامتداد، وسنن الهزيمة والانحسار ويُختصر معنى ذلك بتفعيل سنن النصر والفتح وفقهها ومجاراتها وعدم الغفلة عنها، لتحقيق طيب الحياة للجماعة المسلمة.

---

[1]- أبو فارس محمد عبد القادر، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، الأردن، دار الفرقان، ط 1(1402هـ)، ص: 19.

[2]- عبد الكريم يونس الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، 543/2.

أولا: سنن الفتح والامتداد

متى أرادت الأمة العودة إلى عصور عزها وقوتها، ورامت فرض نفسها كأمة فاعلة مؤثرة صانعة لقراراتها، حامية لسيادتها،حافظة لهويتها،وصائنة لأمن وأمان أبنائها سياسيا، واجتماعيا، وأن تنعم بأمنها الغذائي، فاتحة لأمصار كافرة وداعية لدين الحق وناشرة لقيم الإسلام ومبادئه السمحة، فإنه واجب عليها الأخذ بهذه السنن، والتي نذكر منها :

1- **سنة التمكين في الأرض**: لقد مكن الله للرعيل الأول صحابة المصطفي -رضوان الله عليهم - أن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، بمجارتهم السنن الإلهية التي تناولها القرآن منذ بداية الدعوة الإسلامية، لما كانت الدعوة في مراحلها الأولى، وهو ما تعكسه سورة فاطر قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۖ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۖ﴾ [فاطر: 43]، فكانت هذه البذور الأولى التي غرست في نفوس الصحابة -رضوان الله عليهم- مع العقيدة والتوحيد، لقد تشرب الصحابة - رضوان الله عليهم - موضوع السنن مع العقيدة؛ حتى أثمر في نفوسهم إيمانا ويقينا، فاضطلعوا بمهمة الدعوة لدين الله، وعملوا على نشر الإسلام ليعم الإسلام سائر الأمصار، وينعم بنوره وهدايته سائر الأقوام، فهبوا فاتحين أقطار المشارق والمغارب، يجهزون الجيوش و،يعدون كل قوة ورباط خيل ليرعبوا أعداء الله الكفار تحت راية التوحيد وقيادة رجال لا يخافون الموت، بل يتسابقون إلى الشهادة، أتين بسنن النصر وأسبابه؛ فنصرهم الله بالرهبة، يقول تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: 2]، فكان للمؤمن المجاهد الفاتح رهبة في قلوب الفرس والروم، وفي قلوب اليهود خاصة لما يلقي الله عليه من إجلال وهيبة، ويقول رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1]؛ "فكان الرّعب في قلوبهم سببا للهزائم في الفتوحات الإسلاميّة كلّها أنّه خفيّ عن العيون"[2]؛ والمتتبع المتأمل لحركة الفتوحات الإسلامية يفهم جيدا أن الغاية الأسمى للمسلمين لم تكن خوض الحروب، والاستلاء على كنوز وقصور كسرى وهرقل، بقدر ما كانت نشر الدين والقيام بواجب الدعوة للإسلام، فلما مُنعوا وصدوا عن سبيل الله من قبل فارس والروم، ومُنعوا عن تبليغ رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فحققوا النصر ومُكن لهم في الأرض تمكينا حار له العالم بأسره؛ حتى كتبت فيه المجلدات، وجعلوا يبحثون عن أسباب هذه الفتوحات؛ فقالوا وكيف لرعاة غنم أن يسقطوا الإمبراطورية الفارسية،

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التيمم، [335]، 1/ 74.

[2]- ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، 1/ 342.

وهم أقل عددا وعتادا؟! وكيف تم هذا بشكل لا يسمح للمقارنة مع جيوش الكفر؟! وكتب الجواب واضحا سطره أبطال القادسية واليرموك، وأبطال نهاوند الذين فعلوا السنن وفق الترتيبات الربانية، والتشريعات الحكيمة؛ فأظهروا سنة طاعة القيادة الرشيدة، واستثمروا سنن الأمر والنهي مع التخطيط الفعال وتنفيذ سنة الاحتياط، وأخذ الحذر والمبادرة والمباغتة؛ متحدين كرجل واحد همهم نصرة الحق، ورفع راية التوحيد، وهذا الذي فسر به ابن خلدون سبب النصر والفتوحات قائلا: "عصبيّة واحدة جامعة لكلّهم وفي الجانب الآخر عصائب متعدّدة لأنّ العصائب إذا كانت متعدّدة يقع بينها من التّخاذل ما يقع في الوحدان المتفرّقين الفاقدين للعصبيّة تنزّل كلّ عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الّذي عصابته متعدّدة لا يقاوم الجانب الّذي عصبته واحدة" [1].

فكانوا عصبة واحدة أساسها، الأخوة الإيمانية التي أنشأها الإسلام وأمر بوجوب الحفاظ عليها ونهى عن التفرق والاختلاف؛ هذا هو سر قوة الفتوحات الإسلامية وسر النصر والتمكين، يوضح طه جابر العلواني بيان أهمية وحدة المسلمين؛ فإن كتاب الله وسنة نبيهﷺ لم يحتفلا بشيء بعد التوحيد احتفالهما بوحدة المسلمين، وزرع الآلفة بينهم[2].

ولعل من أهم آثار هذه الفتوحات الإسلامية على الأمة الإسلامية وعلى العالم بأسره مايلي :

أ- انتشار الدين الإسلامي في ربوع الأرض شرقا وغربا، وإشعاع نوره وهداياته، وإشراق قيمه وأخلاقه وإتزان أحكامه وتعاليمه ومبادئه الإنسانية السامية، القائمة على رعاية حقوق الإنسان وحمايتها والكافلة للحريات والنابذة للعنصرية تحت راية «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ»[3].

ب- توسع رقعة الدولة الإسلامية؛ حيث شملت العراق والشام مصر، وشمال أفريقية وجزر البحر المتوسط[4]، وامتدت حتى آسيا، في ظل حكم القائد المسلم، الراشد الذي يسوس الرعية بمقتضى سنة

---

[1]- ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، 1/ 342.

[2]- ينظر: طه جابر العلواني، (**أدب الاختلاف في الإسلام**)،كتاب الأمة، رقم 9، إصدار رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر، ط2 (1406 هـ)، ص:18.

[3]- رواه أحمد، **المسند**، [23489]، 474/38، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، وقال الأرنؤوط إسناده صحيح إسماعيل هو ابن علية وسعيد الجريري هو ابن إياس، وأبو نضرة هو المنذر بن المالك بن قطعة العبدي.

[4]- أحمد معمور العسيري ، **موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر**، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1(1411 هـ - 1996م)، ص: 110.

العدل، مطبقا سنة الشورى، ما يجعل الناس يدخلون في الإسلام بعد ما شاهدوا هزيمة ملوكهم الأكاسرة و القياصرة الظالمين.

ج- انتعاش بيت مال المسلمين وامتلاء خزينة دولة الإسلام بما كان يتدفق عليها من الغنائم والفيء[1].

د- خروج الجماعة المسلمة من ضيق العيش وقسوة الفقر إلى السعة والرخاء؛ حيث كانت أموال الغنائم والفيء تبلغ ذوي الحاجة من فقراء المسلمين والأرامل والمحتاجين؛ ليتعيش الجماعة المسلمة العيش الكريم والحياة الطيبة في ظلال دولة الإسلام القوية، لا شك أن لهذه الفتوحات أثار جليلة عظيمة، ألف فيها المؤرخون المجلدات ولكن لخصوصية البحث نقتصر على نتراه الدراسة مهم.

فهذه بعض سنن النصر والتمكين، التي أن فعلها لقائد الصالح، الواعي قدم قومه وأمته نحو مقامات الفتح والامتداد، وبتنكبها تذوق الأمة المسلمة اليوم ذل الهزيمة والانحسار، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165]، يقول سيد قطب أنفسكم التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر وأنفسكم التي أخلت بشرط الله وبشرط رسوله ﷺ وأنفسكم التي خالجتها الأطماع والهواجس، وأنفسكم التي لم تأخذ بسنن الله التي أوضحها لكم رسول الله ﷺ ومنها التخطيط للمعركة؛ فهذه الهزيمة جاءت نتيجة حتمية لعصيان القائد، وعدم طاعة أوامره وتعليماته؛ فالإنسان يعرض نفسه لسنة الله لا بد أن تنطبق عليه مسلما كان أو مشركا[2].

فحين يخالف الإنسان سنة من سنن الله الثابتة تأتي النتائج في غير صالحه ولو كان تقيا مقربا.

وهذا بيان موجز عن أثر تفعيل هذه السنة في نصر الأمة وتقدمها فأهمية الطاعة ذلك "لأن فقد الطاعة يجعل القيادة غير قادة على استعمال القوى في مواجهة العدو والتنازع في الأمر واختلاف وجهات النظر... يؤدي إلى الفشل والهزيمة"[3].

وعلى هذا تسعى القيادة الرشيدة إلى تفعيل سنن الله في تحقيق التنمية المتكاملة[4] تحقيق الرفاهية والسعادة للمحكومين وتأمين حقوقهم الإنسانية، وحماية حرياتهم الشخصية، تلبية لحاجياتهم وتحقيق

---

[1]- الفيء: هو المال الحاصل للمسلمين من أموال الكفار بغير قتال، موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي؛ ينظر: أسامة بن سعيد القحطاني، ومجموعة من الدكاترة ، **موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي**، الرياض، دار الفضيلة، ط1 (1433 هـ - 2012م)، 315/6.

[2]- ينظر: السيد قطب، **في ظلال القرآن**، 514/4 .

[3]-عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني الدمشقي، **الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم**، دمشق، دار القلم، ط1(1418هـ-1998م)، 425/1.

[4]- التنمية المتكاملة وأقصد بها الارتقاء بالجماعة المسلمة إلى مستوى معيشي لائق في جميع الجوانب: المعرفية، الاجتماعية، الاقتصادية، الخُلُقية من أجل الوصول إلى السعادة المنشودة في ظل حياة طيبة.

المستوى المعيشي الكريم لهم، لينعموا في ظلاله بحياة طيبة مستقرة وآمنة، ولن يكون لها هذا إلا بالأخذ بسنن الله كما رأينا، والأخذ بأسباب الحضارة والنهضة الشاملة، والمسارعة إلى إيجاد حلول ناجعة لمشكلة تخلف المجتمعات الإسلامية، ولن يتم هذا المبتغى إلا بتفعيل سنن الله التي أوجد مفاتيحها في القرآن الكريم.

المبحث الثالث:

الحياة الطيبة وتمثلاتها في الجيل الرباني

– على عصر التنزيل–

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تمثلاتها العقائدية – سنن التغيير والحياة الطيبة في مجتمع عصر التنزيل–

المطلب الثاني: تمثلاتها التشريعية والاقتصادية– سنن التدرج والحياة الطيبة في مجتمع التنزيل–

المطلب الثالث: تمثلاتها الاجتماعية –سنن التأخي والحياة الطيبة في مجتمع عصر التنزيل–

تكشف لنا دراسة السيرة النبوية، والبحث في تفاصيلها العطرة والخالدة، عن سنن الله الجارية التي سن الرعيل الأول فقهها وتفعيلها؛ فقد أدركها الصحابة – رضي الله عنهم- وتعاملوا معها؛ "فأصبحوا في الصدارة وقادوا ركب الحضارة، وكانوا أساتذة الدنيا"[1]، والتاريخ يشهد لهم بأنهم أقاموا مجتمعا حضريا خيرًا، وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، فعاشوا في ظلاله حياةً طيبة أساسها السعادة، "وشأنها أن يتصور كل مسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ حتى يدرك أن لا قوام لهذه الحياة ولا مساك لها إلا بالتلبس بها؛ إذ هي أساس الحياة السعيدة، والعيشة الهنية في الأولى والآخرة، وهي طريق الرقي في مدارج السمو والكمال"[2].

فما كان للرعيل الأول من الصحابة في مجتمع المدينة على عصر التنزيل أن ينعموا بالسعادة، والرضا والقناعة، تغمرهم السكينة والراحة النفسية، إلا لما ساروا على الصراط؛ ينهلون من ينابيع النبوة، ويعملون بالقرآن، فأدركوا العلم، وأدركوا سنن الله الجارية في خلقه تطبيقا واقتداء، ومناهج عيش وحياة، ذلك أن السيرة النبوية زاخرة بالسنن، شأنها شأن القرآن الكريم؛ فبلغوا بعلمهم وعملهم بما في القرآن والسنة، مشارف الأرض ومغاربها فنالوا كنوز الملوك وقصورهم، قال ﷺ: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[3].

"فالسيرة النبوية تجربة غنية، فيها من الدروس والعبر مالا يعد ولا يحصى، فهي زاخرة بدلالاتها، متنوعة بمعطياتها، ومهمة بوقائعها؛ إذ هي عطاء مفتوح بابه على مصراعيه لكل زمان ومكان، خالدة بقيمها وسنن الله فيها؛ إنها كنز الدروس والعبر، ومدخر القيم التي تنبض بالنور، تهدي للتي هي أقوم، وترشد إلى الطريق السوي، وتضع معالم النجاة أمام الناس وترسم لهم طريق الله المستقيم"[4].

ولا عجب بعد النظر في واقع المسلمين اليوم، وما يحويه من التخلف الحضاري والتدهور الاجتماعي، وتكالب الأمم عليهم، وإنما يعزى هذا إلى إعراضهم عن دراسة السيرة، وجهلهم بالسنن الإلهية التي هي وافرة فيها، فدراستها عبارة عن استشراف مستقبل زاهر للأمة المسلمة، و"سير أغوار

---

[1]- حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم**، ص: 10.

[2]- رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، ص: 12.

[3]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ «أحلت لكم الغنائم»، [3120]، 4/ 85.

[4]- رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، المرجع السابق، ص: 12.

هذه السنن ومعرفتها وفهمها، وبالتالي حسن توظيفها بما يساعد على استشراف وبناء مستقبل أمة الإسلام"[1]. وهذه السنن مستمدة من سيرة النبي ﷺ.

وقبل الخوض في بيان سنن الحياة الطيبة في مجتمع المدينة نلقي نظرة وجيزة على ظروف نشأة هذا المجتمع الخير.

المطلب الأول: تمثلاتها العقدية – سنن التغيير والحياة الطيبة في المجتمع الرباني–

تحاول الدراسة في هذا المطلب تتبع مسيرة نشأة المجتمع المسلم، ودور الوعي السنني للحركة النبوية في بناء دولة الإسلام الأولى، وفق الأحكام والتشريعات التي جاء بها الوحي، وانبثقت من لب العقيدة منصبغة بقيم الدعوة الإسلامية المتمثلة في شخص النبي ﷺ، الذي أسس لقواعد مجتمع تجسدت فيه مظاهر الحياة الطيبة في بساطتها وعظمتها في آن واحد؛ لنستخلص السنن الإلهية التي اتبعها النبي ﷺ بصفته القائد والمؤسس، وأخذ بها الصحابة – رضوان الله عليهم– بعده، وعملوا بمقتضاها فشيدوا صرح دولة الإسلام، دولة المجد العظيمة في إنجازاتها، التي ما كانت لتكون لولا نضجها ومرورها بمرحلة الوعي السنني العقدي التي أرسى النبي ﷺ ركائزها المتينة في المرحلة المكية لتؤتي ثمارها طيبةً في المرحلة المدنية، فتجسد هذا المجتمع في واقع بشري أخذ بسنن التغير، واستثمر وفعَّلَ سنن البناء والتعمير، فجاءت سنن النصر والتأييد، تحاكي سنة الجزاء مقابل العمل، فنشأ المجتمع الحضاري النموذجي المثال، "فالدعوة الإسلامية باعتبارها حركة تخطيط وتأطير مباشر للحياة البشرية، اهتمت أولا بمداخل الوعي الوجودي الكبرى، وكلياته الأساسية التي إذا ما أحكمت واستوى استيعاب الناس لها، انصلحت تبعا لذلك حياتهم، واستقامت أمورهم، وامتلكوا مفاتيح أصالة الجهد الاستخلافي وفعاليته واطراديته"[2].

وهذا ما وضع النبي ﷺ قواعده في المرحلة المكية من الدعوة الإسلامية؛ حيث بدأ ببناء المنظومة العقدية التي بدأت بذورها الأولى مع بداية الدعوة الإسلامية[3] بالأمر بالقراءة في قوله تعالى: اقرأ، بهذا الأمر الرباني الذي انطلقت به مرحلة الدعوة المكية.

---

[1]– عماد عبد الكريم خصاونة، خضر إبراهيم قزق، **السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل**، السعودية، جامعة آل البيت، (د،ط)(2008م)، ص: 209.

[2]– الطيب برغوث **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة**، (أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، قسنطينة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، 1430هـ– 2009م)، ص: 267.

[3]– نفسه، ص: 8.

الفرع الأول: سنة الله في التغيير

بعد تشريفه ﷺ بمسؤولية النبوة ابتدأت مهمة الواجب الرسالي وإلزامية التبليغ في قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 2]، وهكذا اضطلع – صلوات ربي وسلامه عليه- بتغيير مصير قومه ومصير الناس جميعا، ولاشك أن هذا التغيير كان خاضعًا لسنن الله الجارية الحاكمة؛ حيث متى تأسس المجتمع على قواعد سننية جاءت النتائج شهودًا حضاريًّا، وعليه يأتي السؤال الملح: ما هي هذه السنن التي خضع لها العهد المكي التي تحقق طيب الحياة للجماعة المسلمة؟ وهذا ما سنتعرض له في هذه النقاط الآتية:

أولا: معنى سنة التغيير

من فضل الله – سبحانه وتعالى- أن كرم الإنسان بالعقل، وبمقتضى هذا التكريم جعله مخيرا في أفعاله وسلوكه لا مجبرا؛ فمهمة الاستخلاف تناقض الحتمية والجبرية، وأحوال الخليفة الذي استودع أمانة ثقيلة، واقعه في تغيير مستمر، وهذا أمر مشاهد؛ "فيكفي أن تلقي نظرة إلى واقع البشر لمشاهدة التغيير سواء في إمكانات الناس الاقتصادية والصناعية، أم في التغيير الأخلاقي الذي يلاحظ بين الأجيال؛ إذ أن هذا التغيير مشاهد"[1]، وعليه كان التغيير في جميع المجالات أمرا سننيا برغب فيه الشرع، ولكل إنسان القدرة على إحداثه في حياته، وفق سنن الله الجارية في خلقه، وإلى هذا التغيير أشار ابن خلدون في مقدمته "ولم أترك شيئا في أوّليّة الأجيال والدّول، وتعاصر الأمم الأول، وأسباب التّصرّف والحول، في القرون الخالية والملل، وما يعرض في العمران من دولة وملّة، ومدينة وحلّة، وعزّة وذلّة، وكثرة وقلّة، وعلم وصناعة، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلّبة مشاعة، وبدو وحضر، وواقع ومنتظر، إلّا واستوعبت جمله، وأوضحت براهينه وعلله"[2].

ونص الآية الكريمة يبين أن التغيير في إمكان الإنسان فهو مطالب أن يأتي به أولا ،حتى يحدث التغيير الثاني الإلهي؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

لاشك أن سنة الله في التغيير من السنن التي تتميز بالحركية والفاعلية الإيجابية، التي تكلمت عليها الدراسة في مبحث خصائص السنن، والتي جعلها النبي ﷺ مرتكزًا أساسًا لبناء المجتمع الحضاري النموذجي الذي وُصِفَ بالخيرية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، ولكي تتحقق هذه الخيرية ويقع التغيير إلى الأصلح والأحسن، لابد من تغيير شامل في شتى مناحي الحياة؛ فقد وصل التعفن والفساد إلى القمة، وهذا حين جاء الأمر الرسالي بالدعوة؛ فما تسلم الإسلام القيادة إلا "بعد ما

---

[1]- سعيد جودت، **حتى يغيروا ما بأنفسهم**، دمشق، مكتبة زيد بن ثابت الأنصاري، ط 6 (1404 هـ – 1984م)، ص 8.

[2]- ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**، 1/ 10.

فسدت الأرض، وأسنت الحياة، وتعفنت القيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة وظهر الفساد في البر والبحر"[1].

وعليه كان أولَ تغيير تأسيسي لما سيأتي بعده من تغيرات، هو تغييرُ التصورات العقدية عن الوجود الإنساني، وعلاقته بالكون والحياة.

ثانيا: تغيير التصور العقدي

إن الجوهر واللّب المشترك بين جميع الرسالات السماوية من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ يقوم على تصحيح التصورات العقدية المنحرفة عن الإله المعبود، وبيان الغاية الكبرى للوجود الإنساني؛ فهو مقدمة الإصلاحات التي نادى بها الأنبياء والرسل جميعهم، يقول الطيب برغوث: "الإصلاح العقدي هو مقدمة المشاريع الإصلاحية وهو نقطة انطلاق الأنبياء مع أقوامهم لإحداث التغيير، وهو القاعدة الصلبة لبناء صرح الرقي في مختلف المجالات الفكرية والروحية والأخلاقية والعمرانية، وعلى أثرها يقع التوافق النفسي للإنسان والانسجام مع مجتمعه في الحياة"[2].

وعليه يجب أن يحدث التغيير من الأرضية ابتداء إلى القمة، وهذا أصعب أنواع التغيير؛ لتعلقه بما ألفه الناس، وتربوا عليه لعقود من الزمن؛ فالأفكار العقدية تغرس في أعماق النفس وتحاط بحواجز مقدسة، تعتبر خطوطا حمراء، وحدودا يحرم التعدي عليها؛ لذلك كان الاهتمام النبوي كله مصوبا نحو هذه المنظومة العقدية لهدم وإبطال المعتقدات الجاهلية، المبنية على التفسيرات الخرافية أو المادية لمحور المنظومة العقدية المتمثل في الإله المعبود وما يتعلق به من أمور غيبية، لإعادة بنائها وفق التصور الإسلامي الصحيح الذي يحقق لأتباعه حياة طيبة خالية من أغلال العبودية، والاستغلال باسم الدين؛ لأن أشنع مظاهر المعيشة الضنك تتجلى في عبودية الأشخاص أو الأموال أو الأهواء التي قيدت أيدي الناس، وغلَّت ورقابهم في عصر الجاهلية، المضرة بمصالحهم في الدارين، والتي يصفها الطيب برغوث بـ: "الفسوقية الفكرية والعقدية والسلوكية والاجتماعية... عن أمر الله وسننه في خلقه، (التي) تؤدي إلى إخراج حركة الاستخلاف عن خط الفاعلية البنائية النوعية التكاملية؛ جزئيا أو كليا، والدفع بها إلى الحركة على خطوط الفاعلية التنافرية الاهتلاكية الهدمية المنهكة، التي تضر بالمصالح الإنسانية الدنيوية والأخروية معا"[3].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1/ 9.

[2]- ينظر: الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة**، ص: 242-243.

[3]- الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة** ، ص: 127.

فكان أول همِّ النبي ﷺ في هذه المرحلة بعد الأمر التكليفي بالإنذار والتبليغ، التأكيد على قضية التوحيد؛ فتفرغ لهذه المهمة العظيمة عن كل ما هو سواها، مثل ما جاء في كتب السيرة أن رجلا كان عنده مال لرسول الله ﷺ، فجاءه يكلمه بشأنه، فأخبره عليه الصلاة والسلام: أن ذلك لم يعد يعنيه كثيرا[1]. فالأمر الذي كلف به جللٌ عظيم، يهون دونه كل أمر، فكان عليه الصلاة والسلام يعمل على إفراغ الصحابة من براثين الجاهلية وعبودية غير الله إلى أنوار الإسلام وعبودية الله الواحد القهار، وكان منهج النبي ﷺ قائمًا على إفراغ الصحابة من مآثر الجاهلية ثم ملئهم إيمانا وتوحيدا، كما يقول الصوفية (التخلية والتحلية)[2].

فعملية التغير تعتبر سنة الله في خلقه، وهي تستدعي أولا إفراغ الإنسان من أفكاره وتصوراته وعاداته وموروثاته المترسبة التي تشربها حتى أيقنها، والتركيز على إظهار بطلانها وتفاهتها، وهذه فإنه إستراتيجية المصطفى ﷺ في عملية بناء المنظومة العقدية.

الفرع الثاني: منهج النبي ﷺ في التغيير

انتهج النبي ﷺ منهجًا فذًّا عظيم النفع في ترسيخ عقيدة التوحيد، التي تعتبر المحور الأساس في البناء العقدي، فإذا نجح الأمر في إرساء هذه القواعد الصلبة، جاء الصرح بعدها عاليا شامخا قوياً، واشتملت نظرية التفريغ ثم الملء على الأمور الآتية:

أولا: التفريغ من سنن الضلال

المتمثلة في الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهذا التفريغ هنا يطال السيئ من التصورات العقدية فقط، يقول عزّ اسمه ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: 35].

فالهداية إلى الحق حياة طيبة لصاحبها، والحق نقيض الباطل، ولأن هذا الحق هو خير كله للإنسان وجب تبيانه له؛ فإذا "لم يتبين للناس سبيل التغيير ما حصل التغيير"[3] السنني، فكان لزاما على رسول الله إيضاح وتبين ما مدى بطلان عبادة الأوثان، والتقرب إلى الأصنام بالقربان، فقد كان

---

[1]- حسين مؤنس، **دراسات في السيرة النبوية**، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، (1405هـ- 1985م)، ص: 79، نقلا عن الطيب برغوث، **المنهج النبوي**، ص: 234.

[2]- التخلية قبل التحلية فالتطهير هو إخراج دغل القلب وفساده، فيكون مهيأ لاستقبال الخير والترقي فيه؛ ينظر: عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، **أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة**، المملكة العربية السعودية، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1(1423هـ- 2003م)، 1/ 344.

[3]- مصطفى بن عبد القادر الرفاعي، **شرح كتاب حرب المستضعفين**، المملكة العربية السعودية، مؤسسة التحايا للإعلام، قسم التفريغ، (1436هـ- 2015م)، ص: 25.

الرجل منهم على عصر الجاهلية يذبح الذبائح ليقدمها إلى اللات والعزى، وهذه جزيرة العرب التي "كان فيها تخلف عظيم وجهل كبير، وطبقية وترف، وظلم وطيش وعدوان؛ كانت حياة الناس كحياة الأنعام بل أضل؛ لا يعرفون الله ولا يعبدونه بل يشركون به، ويعبدون الأصنام والأوثان وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما (اللات والعزى ومناة...)، التي لا تنفع ولا تضر، ولا تغني من جوع، يقدون لها القرابين ويتوسلون بها، ويطوفون بالكعبة عراة، يصفقون ويصفرون وتتعالى أصواتهم بالصياح، وصدق الله حيث يقول في وصف الجاهلية"[1] ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: 35].

فاستحق هذا الوضع المخزي أن يغير؛ إذ هو "أولوية الأولويات"[2]؛ فتفريغ الصحابة من تصوراتهم العقدية الباطلة لاستبدالها بنور التوحيد كان أصعب التحديات في العهد المكي فكانت حجة النبي ﷺ في هذا التغيير الجذري من أعماق النفس، قائمةً على هداية الحق التي لن تكون بغير عبادة الله الأحد الصمد ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ [يونس: 35]، فهذا محصل نقاش الكفار المشركين، واحتجاجهم على أحقية التوحيد وبطلان وتفاهة عقائد الشرك جيء به إلزاماً بعد إلزام[3].

ذلك أن أصنامهم التي يعبدونها لا تخلق ولا تنفع، والله الذي يهدي إلى الحق يخلق، وخلُق الله كله نفع ومصلحة وحياة؛ "فَهُمْ يُشَاهِدُونَ بَدْءَ خَلْقِ النَّبَاتِ فِي الْأَرْضِ عِنْدَمَا يُصِيبُهَا مَاءُ الْمَطَرِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ، وَمَوْتَهُ بِجَفَافِهَا فِي فَصْلِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ ثُمَّ إِعَادَتَهُ بِمِثْلِ مَا بَدَأَهُ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى..."[4].

فتوحيد الخالق المنعِم بماء المطر، الذي به حياة كل شيء، الذي يبدأ أمر الخلق كلهم، من البدء إلى البعث والإعادة يعتبر من محصلات الفوز في الدنيا والسعادة في الدارين، "أنهم توهموا نفع ما اتخذوه معبودا من شركائهم فبطل توهمهم واضمحل باطلهم... ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك"[5]؛ فالذي يهدي إلى الحق نفعه مستمر إلى عباده ورزقه موصول لهم، وفضله وخيره وافر عليهم.

---

[1]- رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، ص: 128.

[2]- ينظر: الطيب برغوث، **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة**، ص: 242.

[3]- ينظر: الواحدي، **التفسير الوسيط**، 4/ 87 .

[4]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 11/ 295.

[5]- أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر، **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت)، 1/ 148.

إذن هذا التغيير الذي أراده النبي ﷺ لقومه من وراء دعوة التوحيد تغيير منطقي تقرره نتائج الهداية إلى الحق بعد بطلان وثنية الشرك وعبادة الأصنام، "وهذه الأمور المسؤول عنها من إعادة الخلق وهدايتهم إلى الحق...يقرره لهم اعتمادا على وضوح النتائج بعد تسليمهم بالمقدمات"[1].

ولم يقتصر ضلال المشركين على عبادة الأوثان فقط، بل طال جوانب كثيرة من حياتهم، ولهذا لم يكن التغييرُ مقتصرًا على إبطال معبوداتهم، وإرشادُهم إلى عبادة من يهدي إلى الحق وتوحيده بالعبادة دون الشركاء، بل تعدى إلزامية إلى تفريغهم من قبائح العادات ومآثر الجاهلية كالظلم ووأد البنات، فتعدى بذلك التفريغ إلى السلوك بعد أن عالج الاعتقاد، وحاول النبي ﷺ إبطال عادات ومآثر الجاهلية التي توارثوها وألفوها؛ فكان همه إفراغ الصحابة من قبائح العادات بتغيير نفوسهم وتزكيتها.

ثانيا: تغيير النفوس وتقويم السلوك

اتبع المشركون شهواتهم، وقدسوا هوى النفس؛ فظلموا أقرب الناس إليهم؛ فقتلوا أولادهم خشية الفقر، ووأدوا بناتهم خشية العار، وظلموا أمهاتهم وزوجاتهم وحرموهن من جميع حقوقهن، واعتبروا المرأة متاعًا من الأمتعة التي يمتلكونها، ومن مظاهر الظلم الذي تفشى في مجتمع الجاهلية عادة الثأر، أو كما سماها النبي ﷺ دماء الجاهلية، فكان الثأر يمتد إلى القبيلة فأبيدت قبائل عن بكرة أبيها، حتى لم يبق فيها إلا النساء والأطفال، وأصبح الثأر سنة من سننهم التي تقوم عليها حياتهم، وأكبر قانون عندهم يخضع له الجميع حتى أشرقت شمس الهداية على أرض العرب، ببعثة الرسول ﷺ، فحارب عادة الانتقام والثأر وخطب في الناس: «أَلا وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ مَا أَضَعُ مِنْهَا دَمُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»[2]، فشرَّع الدين القصاص في جرائم القتل للقضاء على ظاهرة الانتقام والثأر "المنتشرة في بعض المجتمعات؛ ذلك أن الشرع الإسلامي قد راعى اعتبارا عمليا لا يمكن إنكاره أو حتى التقليل من شأنه، وهو أن جريمة القتل تقع على إنسان بعينه وتصيب أقرب الناس إليه بالأذى سواء أكان معنويا أو ماديا، ولا ريب أن المجتمع كله يتأذى من قتل النفس بغير حق، ولكن مساس الجريمة بأولياء دم المجني عليه أبلغ من مساسها بالمجتمع، ومن ثم فإن لأولئك في الشرع سلطانا يستطيعون به أن يشفوا أنفسهم من الجاني عن طريق القضاء، ويستطيعون أن يدركوا به مصلحتهم إن رضيت نفوسهم بالدية أو بالعفو مطلقا، ولا ترد فكرة الانتقام أو الثأر البتة؛ لأن شريعة القصاص تقضي على جذورها"[3].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 5/ 368.

[2]- رواه النسائي، **السنن الكبرى**، كتاب المناسك يوم الحج الأكبر، [4025]، 4/ 193، قال الأرنؤوط صحيح لغيره وهذا إسناد حسن في الشواهد، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، [3087]، 5/ 273.

[3]- الشيرازي أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف، **تكملة المجموع شرح المهذب**، لبنان، بيروت دار الكتب العلمية، (د،ط) (1971م)، ص: 315.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البقرة: 178].

فقد أعطى الإسلام للنفس الإنسانية حرمتها ومكانتها المقدسة تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: 70]، وبهذا كان مقصد حفظ النفس من مقاصد الشريعة العظيمة والضرورية، التي إذا فقدت اختل نظام الحياة وعمّ الفساد والفوضى، فكانت جهنم دار الخلد لمن قتل نفسا بغير حق، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: 93].

وإذا كان هذا عقاب من يقتل نفسا واحدة فكيف بمن ينتقم من قبيلة بأكملها لاستيفاء ثأره وشفاء غليل نفسه المريضة، لهذا من الوصايا التي وصى بها الرسول الكريم ﷺ أمته وهو يودعها التأكيد على حرمة دماء الناس، وإبطال دماء الجاهلية والتبرؤ منها؛ ذلك أن دماء الجاهلية أو الثأر والانتقام ظلم، والإسلام دين يقوم على العدل والمساواة؛ إذ القصاص أصله وعماده المساواة، بينما "الانتقام لا يعرف تسوية ولا يرضى العدل في العقاب... الانتقام يقوم على الظلم والإسراف في العقاب"[1].

فنهاهم الإسلام عن كل ما ينشر بينهم العداوة والبغضاء، وأبدلهم بأحكام وشرائع تحييهم، وتحقق لها الحياة الكريمة الطيبة ، و"قد من الله على المؤمنين المستضعفين إذ بعث فيهم رسولا منهم يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويتلو عليهم آيات الله، ويغير ما بأنفسهم من عادات الجاهلية"[2].

فلما كانت التغير إلى الأصلح والأحسن باتباع منهج التفريغ ثم الملء، وجب على رسول الهدى ﷺ إرشادهم إلى سنن الحياة الطيبة التي ارتضاها لأمته عن طريق هذا المنهج المتمثل في تحرير النفوس والعقول، وذلك بالدعوة والحث على التوحيد، والإيمان الصادق، وضرورة إعمال العقل، والتدبر في القرآن والكون، وإحياء مبادئ الخير والمحبة والقناعة في القلوب، وترغيبهم في الحلال والعفة والإحسان، وزرع روح الأخوة الإيمانية بين أفراد المجتمع المسلم الحديث الفتي.

يقول عز اسمه: ﴿ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴾ [الطلاق: 11].

---

[1]–الشيرازي، **تكملة المجموع شرح المهذب** ، ص: 314.

[2]– رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، ص: 132.

وبهذا تقرر آيات القرآن الكريم أن الله بعث رسولا كريمًا؛ ليدل الناس على سنن الحياة الطيبة، فأول ما بيّنه النبي ﷺ أصول وأركان التوحيد، التي إذا أخذ بها الإنسان أثمرت نتائجها سعادة وطمأنينة ورضًا، وبهذا بدأت عملية الملء بعد التفريغ التي تصدرتها أركان الإسلام الخمسة، وأعظمها كلمة التوحيد لما لها من دور أساس في تحقيق الحياة الطيبة.

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله: وهي كلمة الحق التي بعث بها محمد ﷺ وهي مطلق الحب والخضوع، والتصديق والإيمان الذي يأتي بعده الصلاح والفوز مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: 70-71].

جاء في تفسير لطائف الإشارات للقشيري أن القول السديد هو النطق بالشهادتين، ومن قالها بإخلاص أصلح الله له أعماله الدنيوية من الخلل، وغفر له في الدار الآخرة، ونال بذلك السعادة في الدارين[1].

فالسعادة متضمنة في توحيد الله، والتصديق برسله وخاتمهم –صلوات ربي وسلامه عليه–؛ فمن امتلأ قلبه بكلمة الإخلاص (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتم إفراغه من كل مظاهر الشرك، فاز بغير شك بحظ عظيم من طيب الحياة؛ "لهذا كانت السعادة متضمّنة لهذين الأصلين الإسلام، والإيمان عبادة الله وحده وتصديق رسله؛ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله"[2].

وعليه فكل إنسان جاء بكلمة التوحيد مخلصًا محبا ،كان أسعد الناس في الدنيا والآخرة.

وَقَدْ حَوَتْهُ لَفْظَـــةُ الشَّهَادَةِ ... فَهْيَ سَبِيلُ الْفَـوْزِ وَالسَّعَادَةِ
مَـــنْ قَـالَـهَا مُعْتَقِدًا مَعْنَاهَا ... وَكَـانَ عَامِـلًا بِمُقتضَاهَا
فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَمَاتَ مُؤْمِنَا ... يُبْعَثُ يَوْمَ الْحَشْرِ نَاجٍ آمِنَا[3].

والفوز والفلاح لا يأتي اعتباطا؛ فقد قامت الأدلة على أن التوحيد أعظم الحسنات المفضية للفوز، والشرك أعظم السيئات والذنوب المفضية للهلاك والعذاب والشقاء في الدارين، وعلى أساسها

---

[1]– ينظر: القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، **لطائف الإشارات**، تح: إبراهيم البسيوني، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3 (د.ت)، 3/ 172.

[2]– ابن تيمية، **النبوات**، تح: عبد العزيز بن صالح الطويان، المملكة العربية السعودية، أضواء السلف، ط 1(1420هـ-2000م)،410/1-411.

[3]– حافظ بن أحمد الحكمي، **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، تح: عمر بن محمود أبو عمر، الدمام، دار ابن القيم، ط 1(1410 هـ - 1990م)، 1/ 32.

افترق الناس مؤمنين سعداء وكافرين أشقياء، وبها تُنَال القربات ويُرتب أهل الفضل والمعرفة، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18].

"ولهذا فإنَّ لهذه الكلمة الجليلة فضائلَ عظيمةً، وفواضلَ كريمةً، ومزاياً جمّةً، لا يُمكن لأحد استقصاؤها، ومما ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنَّ الله – تبارك وتعالى – جعلها زبدةَ دعوة الرسل، وخلاصةَ رسالاتهم"[1].

فأعظم درجات الفوز والتنعم بطيب الحياة هي أن يمتلئ صدر الإنسان بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فهي مزية المقربين الفائزين، وهي الكلمة الطيبة التي ضربها الله مثلا في كتابه؛ حيث قال عز اسمه ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: 24]، وقال سفيان بن عينية "ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله"[2].

فبهذا كان أعظم تغيير قام به النبي ﷺ تجاه – الصحابة رضوان الله عليهم– هو أن ملئهم بسنن الهداية، وأرسى بذلك قاعدة التوحيد الصلبة التي لا تميد بالجماعة المسلمة، متى تعرضوا للشدائد والصعاب؛ لاسيما أنهم سيذوقون أشد أنواع التعذيب والصد والتكذيب من قومهم المشركين، فكانت كلمة التوحيد طوق النجاة من الفتنة وثمن الجنة وسبب النجاة من النار.

ولأن كلمة التوحيد ليست الركن الوحيد الذي اعتمد عليه – نبي الرحمة– ﷺ في سنة التغيير نحو الأصلح والأحسن والأنفع، فقد كانت أركان الإسلام تشرع بتدرج حكيم، كل في وقته وأوانه المناسب، كالصلاة، والزكاة، والصيام والحج، والتي تعتبر مفاتيح وأعمدة دار الحياة الطيبة بمعناها الحقيقي الذي ينعم صاحبها بالسعادة والفوز العظيم الأبدي في الدنيا والآخرة، ولأنها درست وبحث كثيرا في الدراسات السابقة، وجعلت مباحث مستقلة في بيان أسباب الحياة الطيبة، فنتجاوزها تفاديا للتكرار والحشو، مع ذكرها ضمنيا في ثنايا البحث وبيان منافعها الدنيوية والأخروية المحققة للسعادة.

بعد ما أسس النبي ﷺ القواعد الصلبة لبناء المنظومة العقدية القائمة على كلمة التوحيد والإخلاص، والإيمان الحق، ولتعطي هذه المنظومة "أهدافها الكبرى في الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي"[3]، لابد من استكمال تأسيس مجتمع الإسلام، مجتمع القيم والمبادئ الإنسانية الذي

---

[1]– عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، **دراسات في الباقيات الصالحات**، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، العدد 33، ط 33(1421هـ–2000م)، ص: 20.

[2]– ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن، **كلمة الإخلاص وتحقيق معناها**، تح: زهير الشاويشبيروت، المكتب الإسلامي، ط 4(1397هـ)، 53/1.

[3]– الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة**، ص: 301.

تلغى فيه الفروق الفردية، والنعرات القبلية وتقضى فيه على أسباب العداوة والبغضاء التي سادت في أهل الجاهلية.

ولأن التغيير في مثل هذا المجتمع الذي تشرب أفراده الظلم والجور واستحلوا الخبيث، وأدمنوا على الخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل، حتى كان "لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف، ولا أعرف من المنكر، ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها إلى هوة الهلاك... معاقرة الخمر... وتعاطي الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال"[1]، فكان يلزمه بلاغ حكيم تحكمه سنة الله في التدرج.

المطلب الثاني: تمثلاتها التشريعية والاقتصادية – سنن التدرج والحياة الطيبة في المجتمع الرباني–

باعتبار القرآن الكريم دليلًا يحوي كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان إلى أن يعيش في أمن وسعادة واستقرار، فجاءت تشريعاته توافق فطرته وطبيعته، فبين فيه سبحانه وتعالى أحكاما إن أحسن الإنسان التعامل معها نال طيب الحياة في الدارين.

يقول محمد عمارة: "تلك هي سنة التدرج، وهذا هو قانونها الحاكم في كل عوالم الخلق والإصلاح والتغيير، وذلك هو منهاجها في الخروج بأمتنا من واقعها الفكري والثقافي والإعلامي الراهن إلى حيث الإصلاح الإسلامي المنشود"[2].

فالتدرج سنة من سنن الله المطردة التي حكمت منظومة التشريع الرباني، فمع تدرج الوحي تحقيق لمصالح العباد الدنيوية والأخروية.

الفرع الأول: سنة التدرج في تحريم الخمر

كانت مجالس الخمر والقمار في الجاهلية من أكبر وأكثر مسببات العداوة والبغضاء والمحصلة للجرائم، والخالقة لكل الرذائل والمنكرات من انتهاك الأعراض والتعدي على الأموال ظلما وجورا؛ ولما كانت هذه العادة الخبيثة متمكنة في نفوس أهل الجاهلية رغم مفاسدها العظيمة، جاء التدرج الرباني المحكم يحاكي طبيعة النفس، خاصة أن هذا ليس من التصورات العقدية، فكان أول ما أنزل في الخمر قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: 67].

---

[1]- رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، ص: 150.

[2]- محمد عمارة، **سنة التدرج في الإصلاح**، al-omah.com، د- محمد عمارة يكتب سنة التدرج في الإصلاح، تاريخ التصفح 2020/03/20م.

يقول سيد قطب: "فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة، التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبداً؟ ماذا صنع ليقف في وجه عادة أصيلة قديمة، تتعلق بها تقاليد اجتماعية كما تتعلق بها مصالح اقتصادية؟"[1].

جاء العلاج الرباني الرحيم النافع يبين في إشارة يفهمها اللبيب الفرق بين المسكر المضر والرزق الذي يستحسنه صاحبه ليأتي الجواب في مرحلة ثانية ردًّا على أسئلة طرحت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ۖ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة: 219].

والسؤال دليل على يقظة في الضمير المسلم[2]، فدلت الآية الكريمة على أن "مَا كَانَ إِثْمُهُ وَضَرَرُهُ أَكْبَرَ مِنْ نَفْعِهِ فَهُوَ مُحَرَّمٌ يَجِبُ اجْتِنَابُهُ، وَذَلِكَ مَا فَهِمَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ فَامْتَنَعُوا مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُلْزِمِ الْأُمَّةَ هَذَا"[3]، فهكذا جرت سنة التدرج في تحريم الخمر؛ حيث ترك الأمر لأفهام الصحابة، ونظرهم في الأمرين (الإثم والنفع) وترك الترجيح بينهما، مع مراعاة مصلحة الجماعة المسلمة دونما إلحاق العقاب الدنيوي فترك هذه المساحة من الاختيار لجماعة المسلمين منهج تربوي رباني عظيم، قائم على الرفق في معالجة العادات الإنسانية المألوفة والتي في تحريمها دفعة واحدة مشقة عظيمة تلحق بالعباد، وتحت إلحاح محمد الملهم الذي علم بعقله وفهمه أن ضرر الخمر وإثمها كبير، فعند ذهاب العقل يضع المرء بنفسه وغيره أمورًا يندم عليها أشد الندم عندما يعود لوعيه، فذلك طلب من الله بيانا شافيا فيها فنزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: 43].

قضت سنة الله في التدرج تحريم إقامة الصلاة على شارب الخمر لعلّة عدم الغلط في أدائها ولكن الصلاة موزعة على مدار النهار[4]، فكيف للمدمن على شرب الخمر أن يصلي مع العلم باقتراب أوقاتها وعدم الإفاقة من السكر، فكسر الله بهذا التدرج عادة الإدمان على الخمر بالإدمان على الصلاة، وكذلك أدمنت الجماعة المسلمة على صلاتها، لما وجدت فيها من راحة نفسية وسعادة واطمئنان وقوة روحية لمواجهة شدائد الحياة، "وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب... وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الدين"[5].

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 479/2.

[2]- نفسه، 473/2.

[3]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 99.

[4]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2/ 666.

[5]- نفسه.

وبهذه المرحلة في تحريم الصلاة في حالة السكر تم التمهيد للتحريم القطعي الذي لا هوادة فيه؛ ذلك أن الخمر مسببة للعداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، خبيثة تصد عن ذكر الله وتمنع صاحبها من إقامة فريضة الصلاة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 90-91].

في هذه الآيات بيان يسعى إليه الشيطان من وراء تزيين المحرمات في نفس الإنسان وما يصحبها من مفاسد، فبغوايته تقع العداوة فيقع الشر بين الناس، فتتمزق "وحدة المجتمع، ويصبح الإنسان في مجتمعه إما طالبا أو مطلوبا، لا يبيت على أمن، ولا يستقرّ على حال..."[1].

ولقد ذكر صاحب تفسير محاسن التأويل مضار الخمر[2] على الفرد والجماعة ومنها:

- أنها تضعف قوة الإرادة فتفضي إلى ارتكاب الموبقات وتجر إلى الفقر والشقاء.
- أنها توقف النمو العقلي والجسدي في الأولاد.
- أنها تعد للأمراض المعدية.
- إنها تضعف قوة الإرادة فتفضي إلى ارتكاب الموبقات، وتجرّ إلى الفقر والشقاء.
- أنها تغير مادة القلب والأوعية الدموية، تقرب النهاية المخزية في الأمراض التي تنتهي بالموت.

الخطاب للمؤمنين لنهيهم عن الخمر لقبحها وعظيم مفسدتها، ثم جاء الاستفهام فهل انتم منتهون "فرتب النهي عن شرب الخمر على كونها مشتملة على تلك المفاسد"[3].

فكان التدرج في تحريمها مدعاة لتركها والحد من تعاطيها، يقول سيد قطب: "ولما نزلت آيات التحريم... لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد في نوادي المدينة: "أيها القوم إن الخمر قد حرمت» فمن كان في يده كأس حطمها ومن كان في فمه جرعة مجها، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه... وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر"[4].

كما مس التغيير الجوانب السيئة والقبيحة في المجتمع الرباني على عصر التنزيل فحرمت العادات القبيحة وتدرج الشارع الحكيم في تحريمها مراعاة لإنسانية وبشرية الصحابة – رضوان الله عليهم–، كان

---

[1]- الخطيب عبد الكريم يونس، **التفسير القرآني للقرآن**، 4/ 19-20.

[2]- محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، **محاسن التأويل**، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(1418 هـ)، 112/2.

[3]- الرازي، **مفاتيح الغيب**، 12/ 426.

[4]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3/ 348.

التدرج أيضا في إباحة معاملات مالية تحتاج إليها الجماعة المسلمة في تحقيق طيب الحياة من الجانب الاقتصادي الذي يعتبر عصب الحياة، ونذكر منها:

الفرع الثاني: سنة التدرج في إباحة المعاملات المالية الجائزة

أباح الإسلام جملة من المعاملات المالية الجائزة[1]، ذلك أنها خادمة، ومحققة للأمن الاقتصادي، وهي من مقاصد الشريعة الحاجية، التي تعتبر مصالح يحتاج الناس إليها للتوسعة و رفع الضيق و الحرج، وهي وسيلة لكسب المال بطرق مشروعة، ومنها: البيع قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: 275]؛ وبيع السلم، الذي هو "بيع السلعة الاجلة الموصوفة بثمن عاجل"[2]، والسلم من البيوع التي شرعت دفعاً للحرج وتسهيلاً على الناس، وهذه البيوع أبيحت لتعارف الناس بها في معاملاتهم. ودليله من كتاب الله قوله عز وجل: ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: 282]، وأبيح هذا البيع لقضاء حاجة كل واحد من المتبايعين، والتسهيل عليهما في الانتفاع وتحقيق الربح، وتحريك عجلة الاقتصاد، والتيسير على العباد ورفع الحرج والمشتقة عنهم، وكذلك الرهن ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة: 283]؛ وروي أن النبي «اشْتَرَى طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ إِلَى أَجَلٍ، فَرَهَنَهُ دِرْعَهُ»[3]، ويعتبر هذا الحديث دليلا لجواز الرهن، وكذلك لبيع التقسيط "إلى أجل"، وبيع التقسيط أيضا من البيوع التي تنشط حركة الاقتصاد، وتحقق التنمية الاقتصادية المنشودة، للفوز بطيب الحياة في ظل الدولة الإسلامية.

ومن آليات الإسلام في تحقيق التنمية الاقتصادية الإجارة التي هي: "تمليك منفعة رقبة بعض"[4]، فالإسلام يبيح كل ما يمكن تحقيق النفع والمصلحة للجماعة المسلمة، والإجازة بشروطها نوع من المصلحة.

---

[1]- المعاملات المالية: في الفقه هي الأحكام الشرعية المتعلقة بالأمور الدنيوية الأحكام الشرعية المنظمة لتعامل الناس في الدنيا؛ وهي الأحكام الشرعية المنظمة لتعامل الناس في الأموال؛ ينظر: محمد رواس قلعجي، **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس، ط2(1408هـ - 1988م)، 438/1ح وينظر: محمد عثمان شبير، **المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي**، عمان، دار النفائس، ط6(1427هـ- 200م)، ص:12.

[2]- نفسه، ص:114 .

[3]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**،كتاب الرهن، باب من رهن درعه، [2509]، 142/3.

[4]- عبد العظيم بن بدوي بن محمد، **الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز**، مصر، دار ابن رجب، ط3(1412هـ، 2001م)، 354/1.

ولأهمية المال في الإسلام، وحفظا له من الضياع والتبديد، جعل الشرع الحكيم الزعيم غارما؛ أي يجب أن يكون هناك ضمان للدين، قال رسول الله: "العارية مؤداة، والمنحة مردودة، والدين مقضي، والزعيم غارم"[1].

وكل معاملة جائزة، باركها الشرع، ويسرها تحقيقا لمصالح الناس، وجعلها من الوسائل التي يكسب بها المال، تلبية لنداء الفطرة ،وتنمية لاقتصاد البلاد و ازدهاره ،لينعم الناس بالحياة الطيبة في الحياة الدنيا ونيل الثواب والآجر في الآخرة، بمقتضى سنن الله الجارية في خلقه، والحاكمة لكونه، التي سطرها في كتابه، وأمر بتدبرها وتفعيلها، حيث يتولى الحق سبحانه إرشاد المسلمين إلى ما يجب أن تكون عليه معاملاتهم المالية؛ حتى يحققوا التنمية التي تنهض ببلدانهم، ويجانبوا الفقر، والعوز والحاجة المادية؛ فهذه المعاملات المالية مشروعة، لما فيها مصلحة للطرفين، والاقتصاد الإسلامي قائم على أولوية تحقيق المصالح للجماعة المسلمة بالطرق الشرعية. وإذا كانت الآيات القرآنية قد أجملت هذه المعاملات المالية التي تدعم الاقتصاد، فقد فصلتها السنة النبوية مبينة نفعها، وزادها الفقهاء شرحا وتفصيلا، بوضع الشروط اللازمة للتعامل بها. وطلبا لحسن التسيير، وإدارة هذه الموارد الاقتصادية المهمة، لتحقيق التنمية الاقتصادية الشاملة في الدولة، كان لزاما على القائد الحكيم حسن اختيار الكفاءات، وإعدادها للقيام بواجب التعمير والتنمية، وعليه يكون العنصر الموالي.

فبالتغيير إلى الأحسن فرضت سنة التدرج في الإصلاح، فأبيحت بيوع وعقود لتحقيق منافع الناس ومصالحهم، ليتجلى المنهج الرباني في التربية والتوجيه؛ إذ استدعى الأمر تغيير عادة ألفها الناس ولها علاقة وثيقة بتركيبهم الجسماني وهي الخمر؛ فالإدمان على المسكر له علاقة بخلايا المخ العصبية حتى لا يستطيع الشخص المدمن التوقف أو التحكم في نفسه، لذا تدرج الشارع الحكيم في تحريمه على ثلاث مراحل، فإذا كان هذا حال الخمر، فما بالك إذا تعلق الأمر بالمال، الذي يعتبر إدمانًا من نوع آخر، فلقد استغرق تحريم الربا أربعة مراحل؛ ذلك أن الإنسان فطر على حب المال، وخاصة إذا اعتاد على التعامل بالربا ووقع التراضي من الطرفين، فكيف يمكن إقناعه بحرمة هذه المعاملة المالية؟ هذا ما تجيب عنه الدراسة في:

---

[1]– رواه أبو داود، **سنن أبي داود**، باب في تضمين العارية، [3565]، 5/ 418، ورواه ابن ماجه، **سنن بن ماجه**، باب الكفالة، [2405]، 482/3، ورواه أحمد، مسند أحمد، حديث أبي أمامة الباهلي، 632/36، ورواه البيهقي، **السنن الكبرى**، باب وجوب الحق بالضمان، [11392]، 119/6، قال صحيح.

الفرع الثالث: سنة التدرج في تحريم الربا

بمّا أن التدرج سنة إلهية جارية في الخلق، حاكمة لكل شؤون العباد ومسار حياتهم، اقتضت حكمة الشارع التدرج في الأحكام التشريعية لمن ألفوا إباحية مطلقة في الجاهلية "التنقل بهم رويدا رويدا، من طباع سيئة إلى أخرى حسنة، وهكذا كان التدرج في تحريم الربا"[1].

أولا: سننية تحريم الربا بالتدرج

لاشك أن التدرج ضرورة سننية لتربية النفوس خاصة إذا تعلق الأمر بالمال؛ فالنفوس فطرت على حبه والحرص على جمعه بطرق شتى لا يفرقون بين الحرام والحلال، لذا لم ينزل تحريم الربا من أول الأمر دفعة واحدة، بل اقتضت سنة التدرج وحكمة الله العظيمة أن يحرم على مراحل ومن يتتبع النصوص القرآنية يقف على هذا التدرج الحكيم.

فكان أول ما نزل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّتَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: 39]، "الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل"[2]، ولكن لم ترتب الآية الكريمة وعيدًا لأكل الربا، وإنما تنفي عنه ثواب وأجر الصدقة أو الزكاة؛ فالتصرف مباح رغم أنه يضر بصاحب الحاجة أو المعوز، وهذا الضرر ممّا يوقع صاحبه في الحرج والمشقة؛ فالذي احتاج إلى يقترض من غيره لاشك أنه في ضراء وضرورة وحاجة ماسة وإلا لما قبل على نفسه الزيادة، وهذا "ما كانت العرب تفعله من قولها للغريم أتقضي أم تربي؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال، ويصبر الطالب عليه"[3]، فمثل هذا الفعل لا ثواب ولا أجر فيه، ذلك أن صاحبه يبغي زيادة ماله ونموه، وفي الحقيقة هذه الزيادة لا تنمو عند الله فالذي يقبله الله ويضاعف لصاحبه الأجر والثواب هو "الصدقة تريدون وجه الله"[4].

فالمال الذي لا يربو عند الله لا خير فيه، ولا ينفع صاحبه ولا يسعد به، مع أن المال من أسباب سعادة الناس، يقول صاحب التحرير والتنوير "لَمَّا جَاء التَّرْغِيب وَالْأَمر ببذلك الْمَالِ لِذَوِي الْحَاجَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَلَاحِ أَعْقَبَ بِالتَّزْهِيدِ فِي ضَرْبٍ آخَرَ مِنْ إِعْطَاءِ الْمَالِ لَا يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَكَانَ الرِّبَا فَاشِيًّا فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ... فَلَمَّا أَرْشَدَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُوَاسَاةِ

---

[1]- رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، ص: 231.

[2]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج 4، ص 109.

[3]- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1422 هـ)، 371/1.

[4]- القرطبي، **جامع البيان**، 20/ 106.

أَغْنِيَائِهِمْ فُقَرَاءَهُمْ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِتَهْيِئَةِ نُفُوسِهِمْ لِلْكَفِّ عَنِ الْمُعَامَلَةِ بِالرِّبَا... وَمعنى فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ أَنَّهُ عَمَلٌ نَاقِصٌ عِنْدَ الله غير زاك عِنْدَهُ، وَالنَّقْصُ يُكَنَّى بِهِ عَنِ الْمَذَمَّةِ وَالتَّحْقِيرِ"[1].

فهذه إشارة من الله الحكيم إلى المسلمين على أن المال الذي مصدره الربا ناقص مذموم لا خير فيه، مال خاسر للجماعة المسلمة الذين هم أصحاب لبّ وبصيرة، والمؤمن كيس فطن يفهم الإشارة، فوقع الفهم بأن المال الذي لا ثواب فيه عند الله لا نفع فيه لبعضهم البعض، ولما كانوا يجاورون اليهود ويعلمون جيدا خبثهم ومكرهم وأخلاقهم الذميمة وأنهم خرجوا عن سنن الله، حيث ظلموا أنفسهم وصدوا عن سبيل الله، وأكلوا الأموال بالباطل، ولم يحرموا الربا الذي نهاهم الله عن التعامل به، فجاءت سنة الله العادلة القائمة على ترتب الجزاء على الفعل فكانت نتيجة أفعالهم الخسيسة أن "حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم، لأن معنى تحريم الطيبات أن الله حرمهم متعة في طيب، وذلك لأنهم استحلوا متعة في غير طيب"[2]، فكان تحريم الطيب عليهم عقوبة لهم بمقتضى سنن الله الماضية والجارية فيهم "لِأَنَّ الْغَرَضَ مِنَ السِّيَاقِ الْعِبْرَةُ بِكَوْنِهِ عُقُوبَةً... لِيَعْلَمَ الْقَارِئُ وَالسَّامِعُ أَنَّ أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الظُّلْمِ يَكُونُ سَبَبًا لِلْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ"[3].

ولقد سبق وأن بينت الدراسة أن الظلم سبب لضعف الأمم وفساد العمران وسقوط الحضارات، وهذا ما أكده العلامة ابن خلدون في مقدمته ولهذا جاءت المرحلة الثانية حيث بين الله الدرس والعبرة من سيرة اليهود للمسلمين، قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿160﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿161﴾ ﴾ [النساء: 160-161].

فهذا التلميح من الله ما كان ليكون لو أن وراء الربا خيرا للجماعة المسلمة، فاليهود حرفوا كتابهم، الذي نهاهم عن أخذ الربا مطلقا، وجعلوا التحريم مقتصرًا على "شعبهم، ومن إخوانهم دون الأجانب"[4]، فبيان سوء حال اليهود وعذابهم نتيجةَ عصيانهم عبرةٌ للمسلمين، لترك التعامل به رغم عدم التصريح بالنهي.

وبعد هذا التلميح عن جرائم اليهود كان على الجماعة المسلمة الاعتبار بعاقبة اليهود وعذاب الله لهم، وفي الاعتبار قياس بأن تعاملهم بالربا مآله التحريم أيضا، وبهذا يتم استعدادهم للتحريم القطعي؛

---

[1]- الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، 21/ 105-106.

[2]- الشعراوي متولي، **تفسير الشعراوي**، 3/ 1686.

[3]- رشيد رضا، **تفسير المنار**، 50/6.

[4]- نفسه، 6/ 49.

ومع سننية التدرج الحكيم للتشريع الإسلامي تطل علينا المرحلة الثانية، وفيها التحريم الصريح لكنه يخص الربا الفاحش الكثير لأن الاستغلال هنا سيضر بالفقير المعوز ضررا بليغا؛ حيث كان الدين فيه يتزايد حتى يصبح أضعافًا مضاعفة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ [آل عمران: 130].

"وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الرِّبَا هُوَ أَشَدُّهُمْ ضَرَرًا وَهُوَ مَذْمُومٌ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ، بَلْ هُوَ مَمْنُوعٌ فِي قَوَانِينِ الْأُمَمِ الَّتِي تُبِيحُ غَيْرَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبَا... وَهُوَ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِثْلَ أَنْ يُؤَخِّرَ دِينَهُ وَيَزِيدَهُ فِي الْمَالِ وَكُلَّمَا أَخَّرَهُ زَادَ فِي الْمَالِ حَتَّى تَصِيرَ الْمِائَةُ عِنْدَهُ آلَافًا مُؤَلَّفَةً، وَفِي الْغَالِبِ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مُعْدَمٌ مُحْتَاجٌ،... فَيَشْتَدُّ ضَرَرُهُ وَتَعْظُمُ مُصِيبَتُهُ وَيَعْلُوهُ الدَّيْنُ حَتَّى يَسْتَغْرِقَ جَمِيعَ مَوْجُودِهِ فَيَرْبُو الْمَالُ عَلَى الْمُحْتَاجِ مِنْ غَيْرِ نَفْعٍ يَحْصُلُ لَهُ، وَيَزِيدُ مَالُ الْمُرَابِي مِنْ غَيْرِ نَفْعٍ يَحْصُلُ عَلَيْهِ لِأَخِيهِ..."[1].

وهو عين أكل أموال الناس بالباطل، وعين الضرر الذي نهى عنه الرسول بين الجماعة المسلمة، فإذا فشا هذا الربا بين المسلمين ذاقوا مرارة المعيشة الضنك، ولذلك كان من رحمة الإسلام وتشريعه الحكيم أن حرم الربا وأعلن الحرب على صاحبه، فالمقصد العام من التشريع جلب المصالح ودفع المفاسد.

وجاء النداء بلفظ يا أيها الذين آمنوا تحريكا لمشاعرهم وتذكيرا لهم بعهد الإيمان الذي قطعوه على أنفسهم بدخولهم الإسلام، وهذا النداء ما يأتي بعده من أوامر ونواهي كلها خير ومنافع لجماعة المسلمين، والمؤمن لا يضر أخاه المؤمن، وهذا ما حاول النبي ﷺ غرسه في الجماعة المسلمة بدعوة الأخوة الإيمانية وهو أكبر ما عمل النبي ﷺ على تغييره وسط الصحابة – رضوان الله عليهم– قال ابن مسعود – رضي الله عنه–: "إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يُؤْمَرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يُنْهَى عَنْهُ"[2].

فكانت هذه الآية بمثابة التأهيل الفعلي لتحريم الربا تحريما قطعيا، فكانت المرحلة القاضية على كل أنواع الربا قليلة وكثيرة، وبطريقة تهتز لها النفوس والعقول، يقول عز اسمه ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 275]، والقرآن حين يواجه المعاملات الربوية بمواجهة شديدة يغلظ على العمل الربوي ويبشعه بطريقة

---

[1]–رشيد رضا، **تفسير المنار**، 3/ 96.

[2]– الأصبهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ط) (1409هـ)، 1/ 130؛ وينظر: المرْوزي أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، **الزهد والرقائق لابن المبارك**، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت)، 1/ 12.

تنفر منها النفس الإنسانية المستقيمة التكوين[1]، وهذا التبشيع مُرَاد لأن ممّا كان يزعمه العرب في الجاهلية ويخشونه هو مسّ الشيطان وتلبسه بالإنسان فيصرع ويتخبط، "وهو إعلان السخط الإلهي بأروع صورة وأقوى تعبير على المرابين المستغلين، الذين يستغلون حاجة المحتاجين واضطرار المضطرين، فيختلسون منهم ثمرة أعمالهم، ويقطفون زهرة أموالهم، وذلك هو مغزى إشهار الحرب من الله ورسوله على عصابة المرابين، وعقابهم في الدنيا بمس الشياطين، وفي الآخرة بجعلهم في النار من الخالدين"[2].

فهذه سنة الله في تسليط العذاب الدنيوي والأخروي على المرابي المستغل لحاجات الفقراء والمعوزين، الضارب بمعول تدمير وتهديم لاقتصاد بلاده؛ فالربا تتعدى أضراره الناحية الاقتصاديةالضرب الناحية الاجتماعية والنفسية للمجتمع وتزعزع بذلك الناحية السياسية.

فهو كلّه مفاسد وأضرار تعود على الفرد والجماعة، ويعدد رشيد رضا مضاره بقوله إنه: "مخرب البيوت، ومزيل الرحمة من القلوب، ومولد العداوة بين الأغنياء والفقراء" وغيرها كثيرة تذكرها الدراسة بعد المرحلة الرابعة من تحريم الربا وهو التحريم القطعي لقليله وكثيره على السواء وهو ما جاء في آيات البقرة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة: 275].

فهذا العرض البشع الذي يصوره القرآن لآكل الربا كي ينفر منه المسلمين فقد فطرت القلوب من خوفها من مسّ الشيطان أو الجن، أو غيرهما من قوى الشر التي يعتقدها الناس، ليكشف عن قبح جرم التعامل بالربا وما يتركه من آثار وخيمة على المجتمع؛ فهو "فساد في الأرض وهلاك للعباد"[3]، ومن يريد أن يتدبر حكمة الله البالغة في تحريم الربا فهذه بعضها.

ثانيا: الحكمة من تحريم الربا

1– محق البركة: وعد الله آكل الربا بتبديد ماله والذهاب بثروته، حتى لا يعلم كيف أفلس، فلا ينعم بماله، يقول رشيد رضا "فَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِمَحْقِ الرِّبَا مَحْوُ مَا يَطْلُبُ النَّاسُ بِزِيَادَةِ الْمَالِ مِنَ اللَّذَّةِ وَبَسْطَةِ الْعَيْشِ وَالْجَاهِ وَالْمَكَانَةِ، وَزِيَادَةُ الرِّبَا تَذْهَبُ بِذَلِكَ لِاشْتِغَالِ الْمُرَابِي غَالِبًا عَنِ اللَّذَّةِ وَخَفْضِ الْمَعِيشَةِ بِوَلَهِهِ فِي مَالِهِ، لَمْ يُحْسِنِ التَّصَرُّفَ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى ثَمْرَةِ الْمَالِ"[4]، فهذا ضرب آخر من المحق أيضا؛ بحيث ضاع عمر المرابي في جمع المال ومضاعفته دون أن يسعد أو ينعم به حتى هلك.

---

[1]– ينظر: الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 2/ 1184.

[2]– الناصري محمد المكي، **التيسير في أحاديث التفسير**، 1/ 189.

[3]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2/ 48.

[4]– نفسه.

الربا وسيلة من وسائل الاستعمار الحديث: الذي يعتمد على الحرب الاقتصادية، وذلك بالضغط على الدول الفقيرة المحتاجة إلى قروض عن طريق المؤسسات المالية الدولية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، والتي أصبحت وظيفتها تقديم القروض للدول الفقيرة مقابل حساب فوائد عليها، وحبذا لو توقف الأمر عند حساب الفوائد الربوية بل يتعداه إلى التدخل في السياسة الداخلية لتلك الدول، "أما على مستوى القروض الدولية فقد يؤثر على سياسة الدولة وأمنها واقتصادها ويجعلها تابعة لغيرها وقد يدفعها إلى الحروب وكان الربا وسيلة من وسائل الاستعمار والهيمنة فالغزو الاقتصادي كان وسيلة للتمهيد للاحتلال العسكري"[1].

وسقطت الدولة الإسلامية الواحدة تلو الأخرى في مشكلة القروض الربوية، ودفعت الثمن باهضا، "ففي الجزائر مثلا دخل الداي في علاقات مالية مع مرابين يهوديين فرنسيين كانا يقدمان له القروض في مقابل صفقات من القمح، وكان الداي يتأخر في الأداء أحيانا، فكان اليهوديان يلجأن إلى القنصل الفرنسي الذي كان يتدخل دائما لصالح الربا وأهله، وهذا هو الوضع الطبيعي لأن الربا والديون والاستعمار كانت كلها شيئا واحدا"[2].

فبعد أن استنفذ الاستعمار العسكري ثروات وخيرات دول العالم الثالث، دخل في ثوب جديد، صورة الاستعمار الاقتصادي والمالي القائم على أساس ربوي مهما تنوعت واختلفت أسماء المعاملات المالية الربوية، "وما حدث للبلاد الإسلامية التي وقعت فريسة الديون في القرن الماضي، وقد انتهى الأمر في معظم الحالات باحتلال أراضيها واستغلالها لمصلحة الشعب المستعمر الدائن"[3].

2- الربا بقضي على روح التعاون وسط الجماعة المسلمة: ويولد الأنانية وحب الأثرة، فلا يراعي المرابي حاجة أخيه، ولا يهمه إلا نفسه ومصلحته، فتنعدم بذلك كل معاني الخير والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد المحققة للبركة والنماء في الأموال وتوثيق أواصر المحبة والألفة بين الناس، فيقطع المعروف بينهم، ويسد باب القرض الحسن، ويفتح باب القرض الربوي واستغلال العوز، وبهذا يتفكك المجتمع وتذهب قوته، وينفك تماسك أفراده فلا يتعاون أفراده فيما بينهم، وبذلك يضعف هذا المجتمع ويصبح عرضة للانهيار والسقوط، ويفقد أفراده طيب الحياة وسعادة العيش؛ لأن " الْإِسْلَامَ لَا يُبِيحُ لَكُمْ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْقَسْوَةِ وَالْبُخْلِ وَاسْتِغْلَالِ ضَرُورَةِ الْمُعْوِزِ أَوْ حَاجَتَهُ وَاتَّقُوا اللهَ فِي أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْبُؤْسِ

---

[1]- سعد عبد المجيد سليمان السبعاوي، **نفحات من القرآن والسنة في منبر الجمعة**، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط)(1971م)، 3/ 114.

[2]- حسين مؤنس، **الربا وخراب الدنيا**، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط 2(1406هـ- 1986م)، ص: 51-52.

[3]- حسين مؤنس، **الربا وخراب الدنيا**، ص: 115.

فَلَا تُحَمِّلُوهُمْ مِنَ الدَّيْنِ هَذِهِ الْأَثْقَالَ الَّتِي تَرْزَحُهُمْ وَرُبَّمَا تُخْرِبُ بُيُوتَهُمْ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ فِي دُنْيَاكُمْ بِالتَّرَاحُمِ وَالتَّعَاوُنِ فَتَتَحَابُّونَ، وَالْمَحَبَّةُ أُسُّ السَّعَادَةِ"[1].

ومثل هذه المفاسد والمضار المفضية إلى قساوة قلب الإنسان على أخيه الإنسان، حتى تضيع القيم الاجتماعية التي حثنا عليها القرآن مصدقا لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2]، والتعاون من المقْرض دون زيادةٍ تراحمٌ بينه وبين المقترض، ما ينشر مظاهر التكافل بين الجماعة المسلمة، وأكلُ أموال المسلمين عن طريق الربا المحرم مدعاةٌ إلى التفرق وخراب البيوت، وشيوعٌ للفساد والطغيان، ويتوعد الله "المجتمع الربوي بالمحق والسحق، والضلال،وبالتخبط وبالقلق والخوف"[2]، ولاشك أن هناك حكمًا جليلة عظيمة كثيرة أدت إلى تحريم الربا، تضيق الدراسة عن الإحاطة بها.

3– انتشار العداوة والبغضاء بين الناس: من الأضرار الاجتماعية الخطيرة التي تترتب عن الربا، ومن مفاسده الكبيرة انتشار العداوة والبغضاء وسط الجماعة المسلمة؛ ذلك أن صاحب المال المرابي لا يراعي حاجة المستدين إلى المال، بل يطالبه بالزيادة مقابل ذلك، ما أظهر جانبه الاستغلالي وأثرة نفسه المريضة ،فيقابل جشعه وطمعه كراهية الناس له؛ المحتاجين لقرضه أو غير المحتاجين على السواء؛ لأن خبر تعامله بالربا حين ينتشر في أوساط أفراد الجماعة المسلمة ؛ فإنه تجري سنة الله في الجزاء من جنس العمل؛ فيحاصر بعداوة المجتمع له؛ فماَ يُلَاقِي الْمُرَابِي مِنْ عَدَاوَةِ النَّاسِ، وَمَا يُصَابُ بِهِ فِي نَفْسِهِ مِنَ وَسَاوِسِ وَغَيْرِهَا، فأَمَّا عَدَاوَةُ النَّاسِ، فَالْمُحْتَاجِينَ منهم والْمَعُوزِينَ، وَقَدْ تُفْضِي الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى مَفَاسِدَ وَمَضَرَّاتٍ، متى قَامَ الْفُقَرَاءُ بما يعطل أشغال الأغنياء، وقاموا يُعَادُونَ الْأَغْنِيَاءَ وَيَتَأَلَّبُ الْعُمَّالُ عَلَيْهِمْ[3]، فتعم الفوضى والفساد بين الناس.

4– تعسر أسباب الحياة: وهذا ما يعيشه العالم اليوم فكل التعاملات المالية أخضعت جبراً للربا فمن يرغب بمسكن واسع يرتاح فيه، ويجد فيه الحياة الطيبة المشروعة التي هو أحد أسبابها، يصدمه واقع السكن الربوي، ومن فكر من مركب مريح يغنيه عن مشقة التنقل، وحرج المواصلات العامة، يفرض عليه واقع التعامل الربوي، وحتى الفوز بالصالحة ذات الدين لإكمال نصف الدين، يجابه بالقرض الربوي...

5– الركود الاقتصادي: "ويتفرع من ذلك السبب الرئيسي الكبير... بلاءِ الربا... بلاءُ الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سويا معتدلا؛ بحيث لا تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها، إنما

---

[1]– رشيد رضا، **تفسير المنار**، 4/ 109.

[2]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1/ 329.

[3]– ينظر: رشيد رضا، **تفسير المنار**، المرجع السابق، 3/ 78.

ينمو مائلا جانحا إلى حفنة الممولين المرابين، القابعين وراء المكاتب الضخمة في المصارف، يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة، ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير في طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع... ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح، ولو حطم الملايين وحرم الملايين وأفسد حياة الملايين، وزرع الشك والقلق والخوف في حياة البشرية جميعا!"[1]، وبانهيار اقتصاد البلاد تنتشر الآفات الاجتماعية كالبطالة، السرقة، والمخدرات، وغيرها.

6– اللعن في الدنيا و الآخرة: عن جابر قال «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ»، وَقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ»[2]، ولعنة الله ورسوله من أخطر المفاسد والأضرار سواء على الفرد أو المجتمع.

فإذا كانت اللعنة تحل على الفرد بعينه فيما يخص المعاملة الربوية الفردية، فكذلك يكون المجتمع الذي يقوم أساسه الاقتصادي على الربا، فأفراده معرضون لحرب من الله ورسوله، حركتهم في الحياة حركة المتخبط القلق المضطرب الذي لا يعرف طعما للسعادة والطمأنينة الذي يعيش معيشة الضنك، المجانب للحياة الطيبة.

المطلب الثالث: تمثلاتها الأخلاقية الاجتماعية – سنن التأخي والحياة الطيبة في المجتمع الرباني–

استمر النبي ﷺ في وضع أسس بناء المجتمع المسلم، ولم يقتصر التغيير على التصور العقدي فقط، بل تعداها إلى الشريعة والأخلاق؛ حيث أن التوحيد أصبح راسخا في النفوس والعقيدة ثابتة ثباتا لا يتزعزع ولا يضطرب، عقيدة خرجوا لأجل الحفاظ عليها والعمل بها من مكة قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: 8]، تاركين الأهل والمال "لقد صنعت العقيدة الدينية الجماعة المسلمة صافية في توحيدها، وتوحدها، وتوجهها، وجعلت المؤمنين عبيدًا خاشعين لله، يرون في مكة قبل الهجرة سعادتهم في الطاعة، ويقصرون آمالهم في رضى الله، ويرجون سعادة حقيقية يعيشونها في الدنيا مع الناس، ويتمتعون بها في الآخرة عند الله"[3].

والسعادة التي كانوا يرجونها في الحياة الدنيا ليحيوا في ظلالها حياة طيبة رسم النبي ﷺ خطوطها العريضة انطلاقا من المقومات القديمة لمنظومة سنن التغيير التي اعتنى بها النبي ﷺ مع فجر الدعوة

---

[1]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج 2، ص 58.

[2]– أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب المساقاة ،باب لعن آكل الربا و مؤكله ،[1598] ، 1219/3.

[3]– أحمد أحمد غلوش، **السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1424هـ– 2004م)، 1/ 8 .

الإسلامية الأولى؛ حيث حاول غرس المنظومة الأخلاقية والقيمية في الصحابة مع أصول التوحيد وأركان الإيمان؛ ليكون مجتمعا إنسانيا؛ "تهيمن عليه القيم الأخلاقية والروحية الرفيعة، وتدفع بالعلاقات الإنسانية فيه إلى مستويات رفيعة من العدل والسماحة والرفق والإيثار والإحسان والاحتسابية والشكر والتقوى، بحيث يستطيع فيه كل إنسان أن يحقق إنسانيته"[1].

ولا يتحقق بناء هذا المجتمع إلا بتغيير النفوس وإصلاحها وتزكيتها وإحيائها "بمحبة الله ورسوله ﷺ والأخلاق الحسنة والخصال الحميدة"[2].

ولإرساء هذه المنظومة الأخلاقية القيمية عمل النبي ﷺ جاهداً على بعث مفهوم الأخوة الإيمانية بدل الأخوة العشائرية، ونبذَ العصبية والقضاء على حمية الجاهلية، واعتمد في ذلك على ما يأتي:

الفرع الأول: سنن الأخوة الإسلامية والحياة الطيبة

تعتبر الأخوة الإسلامية الأساس المنيع والمتين الذي وضعت عليه اللبنات الأولى في تشيد المجتمع المسلم على عصر التنزيل، ونعني بها أخوة الدين الواحد التي تنعدم أمامها كل الأسباب الأخرى، من نسب أو عشيرة أو عشيرة أو لغة، الوحدة القوية التي عمد النبي ﷺ إلى العمل على تعميق تلاحم المجتمع المسلم، وراعى زرع المحبة بين أفراده في أحاديث شريفة دونتها كتب السنة، ومواقف وأعمال جليلة خلدتها كتب السيرة؛ ومن أقواله الشريفة قوله: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[3]، وبتأمل كتب السيرة ندرك إن أخوة المؤمنين لم تكن من أجل الاشتراك في نشاط ما وترك ما عداه، أو التوحيد في الولاء لفرد وفقط، وإنما كانت الأخوة في الله، وتحت وشيجة العقيدة, إنها ليست علاقات الدم، ولا علاقات الأرض، ولا علاقات الجنس، ولا علاقات التاريخ، ولا علاقات اللغة، ولا علاقات الاقتصاد، ليست هي القرابة، وليست هي الوطنية، وليست هي القومية، وليست هي المصالح الاقتصادية.

إنما هي علاقة العقيدة الإيمانية التي تجمع بين الراعي والرعية في اتجاه واحد, وتأخذ روابطها من الإسلام وتجعل كل فرد مسئولا عن حقوق هذه الأخوة أمام الله تعالى، وأمام الناس أجمعين في إيثار خال من الأنانية، وفي خلق بعيد عن الفوضى والظلم.ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى هذا الجيل الأول الذي طبق الأخوة الإيمانية[4] بكل تجرد وصدق بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ

---

[1]- الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها**، ص: 260.

[2]- رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، ص: 137.

[3]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإِيمَانِ، باب من الإيمان أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، [13]، 13/1.

[4]- ينظر: أحمد أحمد غلوش، **السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني**، 692/1.

ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَاْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿74﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿75﴾ ﴾ [الأنفال: 74-75].

كانت الشريعة الإسلامية السباقة إلى إقرار الوحدة الإيمانية شامل عام للإنسانية جمعاء هو أول بين جميع البشر؛ شعوبهم وقبائلهم، دون إعتبار لأجناسهم أو ألوانهم؛ فالمجتمع الإسلامي هو تلك الأسرة الكبيرة التي تذوب فيها الفوارق بين الأغنياء والفقراء، الأسود منهم والأبيض، يتعايش فيه أفراده بالقيم والأخلاق الكريمة، وتتجسد فيه معاني المحبة والرحمة والأخوة الإيمانية؛ فيأخذ القوي فيه بيد الضعيف ويحترم فيه الصغير الكبير، مجتمع أقر وأثبت، حقوق المرأة وأكد عليها ؛ليحقق التوازن الفعال الفطري السنني لتلبية حاجيات بعضهم البعض وتكميلها.

فأرسى الإسلام ركائز الإخاء والمؤاخاة لقيام صرح وكيان الجماعة المسلمة؛ حتى تتمتع بحياة طيبة، وعيش كريم وسعادة حقيقية؛ فقد جاءت نصوص الوحي لتشيد بها وتبين فضل المؤاخاة، ومكانتها في المجتمع الإسلامي، وقد مثل التآخي بين المهاجرين، وبين المهاجرين والأنصار؛ الذي قام به النبي ﷺ مثلا ونموذجا يحتذى به لكل مجتمع يرغب في العيش الطيب، ويروم التنعم بالسعادة في الدنيا والفوز في الآخرة. "فالمجتمع المسلم مجتمع متميز عن سائر المجتمعات بمكوناته وخصائصه؛ فهو مجتمع رباني، إنساني، أخلاقي، متوازن. والمسلمون مطالبون بإقامة هذا المجتمع، حتى يمكنوا فيه لدينهم، ويجسدوا فيه شخصيتهم، و يحيوا في ظله حياة إسلامية متكاملة؛ حياة توجهها العقيدة الإسلامية، وتزكيها العبادات الإسلامية، وتقودها المفاهيم الإسلامية وتحركها المشاعر الإسلامية، وتضبطها الأخلاق الإسلامية وتجملها الآداب الإسلامية، تهيمن عليها القيم الإسلامية و محكمها التشريعات الإسلامية، وتوجه اقتصادها وفنونها وسياستها التعاليم الإسلامية"[1]. فكان الأساس المتين لبناء المجتمع المسلم الأول على المحبة الإيمانية ؛حيث آخى فيه النبي ﷺ بين المسلمين؛ مهاجرين وأنصار.

الفرع الثاني: منهج النبي ﷺ في المؤاخاة بين المسلمين

انتهج النبي ﷺ – وهو ينظم الحياة الاجتماعية– في المدينة المنورة، دار الهجرة على سنة المؤاخاة بين المسلمين، وتمت على مرحلتين، المؤاخاة بين المهاجرين، والمؤخاة بين المهاجرين والأنصار.

أولا: المؤاخاة بين المهاجرين

تجدر الإشارة هنا أن نظام المؤخاة بدأ في مكة بعد البعثة ؛ قصد حاية الدعوة، وضمان التآلف بين المؤمنين، ولإيجاد الجماعة المسلمة القوية التي كانت خليطا من الأقوياء والضعفاء والأغنياء،

[1]– يوسف القرضاوي، **ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده**، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط (2001م)، ص: 7.

والفقراء، ويحميها من التشذرم والتفكك، والانهيار الذي يخلفه الاختلاف؛ ذلك أن الاختلاف بين الناس سنة من سنن الله في الخلق، ومّما سبق ذكره أن الإسلام جاء لينفى الفروق القائمة على أساس عنصري، وأقر مبدأ التفاضل بالتقوى، وأن كل الناس من آدم وآدم من تراب مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10].

ولأن بعض المهاجرين كان أفضل من بعض من ناحية المال أو الجاه، فعمل النبي – عليه الصلاة والسلام- على المؤاخاة بين الأعلى والأدنى منهم؛ حتى يُشعر المهاجرين أنفسَهم برحمة الإسلام ورفقه بأتباعه، فكان هذا التآخي الذي قام بها الرسول ﷺ بين المهاجرين أنفسِهم، ولم تكن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فقط، وإنما كانت تتم أحيانا بين المهاجرين أنفسهم فقد ثبت أن آخى النبي ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب، وآخى بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن مسعود، وآخى بين عمه حمزة وبين زيد بن حارثة، قال ﷺ: «تَآخَوْا فِي اللَّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ، ثم أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: هَذَا أَخِي»[1].

ونفس الخبر عن ذِكْر المؤاخاة بين الصحابة المهاجرين – رضوان الله عليهم – أجمعين، يذكرها ابن هشام يقول : "وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ"[2]، ليحقق قيمة عظيمة من قيم القرآن الكريم آلا و هي التكافل الاجتماعي.

رغم أن بعض أهل العلم ينكرها بشدة ويردها تماما، وسوف نذكر هذا الرأي المخالف فيما بعد، "وكانت كما قال ابن عبد البر وغيره مرتين، الأولى بمكة قبل الهجرة بين المهاجرين بعضهم بعضا على الحق والمواساة، فآخى بين أبي بكر وعمر وطلحة والزبير، وبين عثمان وعبد الرحمن.... وهكذا بين كل اثنين منهم إلى أن بقي علي، فقال: آخيت بين أصحابك، فمن أخي؟ فقال: أنا أخوك"[3].

وجاءت أحاديث كثيرة[4] في مؤاخاة النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه- يقول ابن إسحاق: "فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامَ الْمُتَّقِينَ، وَرَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِين، الذيَ لَيْسَ لَهُ خطيرٌ[5] وَلا نَظِير مِنَ الْعِبَادِ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رضي الله عنه- أَخَوَيْنِ"[6].

---

[1]- ينظر: بن هشام، **السيرة النبوية لابن هشام**، 1/ 504.

[2] - نفسه، 1/ 505 .

[3]- الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد، **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1417هـ - 1996م)، 2/ 191.

[4]- ينظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، دار الفكر، (د،ط) (1407هـ- 1986م)، 226/3.

[5]- الخطير: النظير والمثل، ينظر: ابن هشام، **السيرة لابن هشام**، 1/ 505.

[6]- ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج 3، ص 36.

وكان هذا الفعل منه ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ليذهب عنهم وحشة الغربة، بتركهم لمكة المكرمة ومفارقة الأهل والأحباب والعشيرة، وممن أنكر حديث المؤاخاة بين رسول الله و بين علي رضي الله عنه، شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يبطل هذا الخبر ويضعف مصدره يقول: "وَأَمَّا الْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ كَمَا يُقَالُ: إنَّهُ آخَى بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَإِنَّهُ آخَى عَلِيًّا وَنَحْوَ ذَلِكَ فَهَذَا كُلُّهُ بَاطِلٌ وَإِنْ ذَلِكَ نَقْلٌ ضَعِيفٌ"[1].

وتبعه في إنكار خبر مؤاخاتة ﷺ وعلي بن أبي طالب رضى الله عنه، تلميذه ابن القيم في زاد المعاد ويرى أن الأخوة التي كانت بينهم أخوة الدار وقرابة النسب مستغنين بذلك عن تآخي جديد، ولو ثبت ذلك لكان أحق الناس بأخوة الحبيب المصطفى ﷺ رفيقه في الغار وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق فاستغنوا بأخوة الإسلام عن أي أخوة[2]. ويرد كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة مفاده أن أحاديث المؤاخاة لعلي رضي الله عنه كلها موضوعة[3].

وهكذا يّرد ابن تيمية كل قول بوقوع المؤاخاة بين الرسول ﷺ وبين علي رضى الله عنه، ولا ينكر مؤاخاة المهاجرين بعضهم مع بعض، ويؤكد على أن النبي ﷺ لم يؤاخ عليا.

ويذكر حديثًا نصه أن النبي ﷺ آخى بين أصحابه فجاء علي تدمع عيناه، فقال يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ "أَنْتَ أَخِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"[4]، وإذا سلمنا بأن المؤاخاة الحقيقية كانت بين المهاجرين والأنصار ولم تكن بين المهاجرين بعضهم مع بعض.

لا يمكن أن تّرد عقيدة الولاء والبراء التي كانت بين المسلمين المهاجرين قائمة على الأخوة الإسلامية لا أخوة النسب والدار والعشيرة، ومن أوضح النصوص الدالة على وجوب الولاء للمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71]، ومن نصوص البراء قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا

---

[1]- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 11/ 100.

[2]- ينظر: ابن القيم، **زاد المعاد**، 3/ 56.

[3]- ينظر: ابن تيمية، **مناهج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تح: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط 1(1406هـ- 1986م)، 4/ 32.

[4]- رواه الترمذي، ج 5، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ح 3720، ص 636، وقال هذا حديث حسن.

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: 4].

ومن مظاهر الولاء الحب والبغض في الله، بأن يحب المسلم أخاه المسلم لأجل إيمانه فقط، وعلى ذلك يجب نصرته وإعانته والنصح له، وهو ما جاء في تعريف الولاء[1]، وهذه المحبة الإيمانية واجبة على كل مسلم، دون نظر هل تمت المؤاخاة بين الجماعة المسلمة أم لا، ولنفكر الآن كيف آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

ثانيا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ من أعظم النعم التي يقرها المولى عز وجل لجماعة المسلمين، ويذكرهم بها في نصوص كتابه عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: 103].

ولعل هذا الأمر يدل على اهتمام الإسلام بالواقع الاجتماعي للمسلمين، وعلاقتهم ببعضهم البعض ليحقق لهم بهذه الأخوة الحياة الطيبة التي ينشدها الناس فرادى وجماعات.

ولعل سائلًا يسأل كيف أن هذه المؤاخاة سبيل للعيش الكريم والسعادة في الحياة الدنيا؟

والجواب بسيط، فلقد ذكرت الدراسة سابقا أن الصحابة فروا من مكة تاركين وراءهم أموالهم ومساكنهم وتجارتهم، وبالكاد أخذوا زاد الطريق، وهذا ما واجهه النبي ﷺ باعتباره القائد للجماعة المسلمة، وهو من أمرهم بالهجرة إلى المدينة، فكيف له أن يوفر لهم المأوى والعيش الكريم !؟

فما كان منه – عليه الصلاة والسلام– لحل هذه الأزمة الاجتماعية إلا أن فعّل سنة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ولقد ضرب الأنصار أرقى النماذج في المواساة والتضحية والحب والتآزر والتعاون، فكان أروع مثال في التكافل الاجتماعي على مر التاريخ، وبهذا التآخي الراقي تم حفظ وحماية الدعوة المحمدية في مرحلتها الثانية؛ فقد "واجه المهاجرون من مكة إلى المدينة مشاكل متنوعة، اقتصادية واجتماعية وصحية، فمن المعروف أن المهاجرين تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة... وكانت مشكلة معيشتهم وسكناهم تواجه الدولة الناشئة"[2].

---

[1]– الولاء والبراء: الولاء هو محبة المؤمنين لأجل إيمانهم، ونصرتهم، والنصح لهم، وإعانتهم ، ورحمتهم، وما يلحق بذلك من حقوق المؤمنين، والبراء بغض أعداء الله من المنافقين وعموم الكفار، وعداوتهم، والبعد عنهم، وجهاد الحربيين منهم بحسب القدرة؛ ينظر: عبد الله بن عبد العزيز بن حمادة الجبرين، **تسهيل العقيدة الإسلامية** ، دار العصيمي، ط2 (دت)، 1/543- 552.

[2]– أكرم ضياء العمري، **السِّيرةُ النَّبويَّةُ الصَّحيْحَةُ**، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط 6(1415 هـ - 1994م)، 1/ 241-242.

فجاء نظام المؤاخاة كالعلاج والحل للأزمة، ويتضح لنا ذلك من النماذج الآتية:

1- **الإيثار بمصدر العيش:** كان النخيل مصدر عيش الكثير من الأنصار، فعرضوا على النبي ﷺ بأن يشاركوا المهاجرين في بساتين النخيل (التمر)، فقد جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «قَالَ: قَالَتْ الْأَنْصَارُ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ النَّخْلَ، قَالَ: "لَا"، قَالَ: "يَكْفُونَا الْمَئُونَةَ وَتشْرِكُونَا فِي التَّمْرِ"، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»[1].

لقد عرض الأنصار على النبي ﷺ أن يتقاسموا النخل مع المهاجرين، على أن يعملوا معهم فرفض النبي ﷺ هذه الشركة لعلمه أن الْمُهَاجِرين لَا علم لَهُم بالزراعة (النّخل) وكره أن يخرج شيء من عقار الأنصار عنهم[2].

ويظهر هذا الحديث حكمة، ورشد القائد السياسي الغيور على اقتصاد بلده، وقمة عدله، وحنكته في تسيير الأمور، فقد رفض هذه المقاسمة في مصدر الرزق والعيش، رغم أن المهاجرين كانوا في أشد الحاجة إلى هذه الشركة، فلم يستغل ﷺ كرم الأنصار، وتكافلهم مع المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم، مع أن النخل والثمر مصدر وقوام عيشهم، فكان رفضه – عليه الصلاة والسلام- "كراهية أن يخرج عنهم شيئًا من رقبة نخلهم الذي به قوام أمرهم شفقة عليهم"[3]، فمعظم المهاجرين كانوا تجارًا، ولا معرفة لهم بالزراعة، وهذه الشركة لو تمت بينهم وبين الأنصار لكانت لتدمر إنتاج النخل، ومدح القرآن الكريم هذا التصرف النبيل من الأنصار بآيات تتلى إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9].

2- **الإيثار بالمال والزوجة:** من صور التآخي العظيمة ما كان بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، ولو لم يكن الخبر مثبتًا بإسناده في صحيح البخاري لوقع الشك في هذا التصرف الفريد الذي يصور النموذج الفذ لقمة في العطاء والعون والبذل من الأنصار، حيث وصل بهم الأمر في تقديم المساعدة للمهاجرين إلى أن يتنازل الرجل عن أحب شيء لديه المال والزوجة، فربما قد يخطر على بال الإنسان أن يتصدق بشطر ماله في سبيل الله ولكن أن يتنازل عن زوجته لآخر، ويطلقها من أجل أن يتزوجها غيره فهذا مالا يصدق ولا يتصور فقد جاء حديث عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: "قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ، فَقَالَ

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، [3782]، 5/ 32.

[2]- ينظر: العينى بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بيروت، دار إحياء التراث العربي،(د،ط،ت)، 12/ 161.

[3]- القسطلاني شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ط 7(1323 هـ)، 436/4.

سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتْ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا..."[1].

لاشك أن مثل هذا التصرف دليل على ترسخ قواعد الأخوة الإيمانية في نفوس الجماعة المسلمة مهاجرين وأنصارًا، الأخوة الصادقة التي أساسها الحب في الله، الأخوة التي عرفها المهاجرون والأنصار فهانت عندهم الأموال وكل متاع الدنيا الزائل، فطابت نفوسهم بما يبذلونه لإخوانهم من عون، فهان العطاء أمام الإخاء والمحبة، وذابت الفوارق والحواجز، وعاشوا إخوة فحققوا خلافة الله في الأرض حبا وإخاء وعدلا وحياة طيبة نعموا في ظلالها بالسعادة والاستقرار والأمن.

3- **الإيثار بالدار والمسكن**: لقد فتح الأنصار أبواب بيوتهم وقلوبهم للمهاجرين، محققين بذلك أعظم صورة من صور التكافل الاجتماعي، كيف لا وهم الذين بذلوا من قبل العزيز والنفيس لإخوانهم!؟، فلا عجب بعد ذلك لمن تنازل عن مصدر العيش واقتسمه مع أخيه المهاجر، وطلق زوجته ليتزوجها غيره ويسكن إليها، أن يشارك سقف بيته، فحوى المسكن الواحد الأنصاري والمهاجر، فتقاسموا كل شيء المال والطعام والمسكن، قال ﷺ: «إِنَّ خَيْرَ دُورِ الْأَنْصَارِ: دَارُ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمَّ دَارُ بَنِي الْحَارِثِ، ثُمَّ بَنِي سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ»[2].

ومن أشهر البيوت[3] التي أوت وكانت حاضنة للمهاجرين:

أ- دار مبشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقُباء: ونزل بها مجموعةٌ من المهاجرين، نساءً ورجالاً، وقد ضمَّت هذه الدُّور عمر بن الخطاب، ومن لحق به من أهله وقومه، وابنته حفصة وزوجها، وعيَّاش بن أبي ربيعة.

ب- دار خُبَيب بن إساف أخي بَني الحارث بن الخزرج بالسُّنْح: نزل بها طلحة بن عبيد الله وأمُّه، وصهيب بن سنان.

ج- دار أسعد بن زُرارةَ من بني النَّجار، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطَّلب.

د- دار سعد بن خيثمة أخي بني النَّجار، وكان يسمَّى: بيت العزاب، ونزل بها العُزَّاب من المهاجرين.

هـ- دار بني النَّجار، والمحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر، نزل بها عثمان بن عفان، وزوجته رقيَّة بنت رسول الله ﷺ.

---

[1]- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، [3781]، 31/3.

[2]- نفسه، كتاب مناقب الأنصار، باب فضل دور الأنصار، [3791]، 33/5.

[3]- علي محمد محمد الصّلابيّ، **السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث**، لبنان، بيروت، دار المعرفة، ط 7(1429هـ- 2008م)، ج 1، ص 260.

هذه بعض البيوتات التي كانت مأوى للمهاجرين وغيرها كثير، فتح أصحابها أبوابها للمهاجرين إيثارًا على النَّفس، فكانت هذه المبادرة من أهم ما سهل ويسر إقامة المهاجرين بدار الهجرة، ومهدت لانطلاق الدعوة في مرحلتها الثانية وبداية بناء الدولة المسلمة الفتية.

"وبهذه المقاسمة وهذا التَّكافل الاجتماعيُّ، كان من أهمِّ العناصر الَّتي مهَّدت لإقامة رسول الله ﷺ وصحابته المهاجرين معه، وبعده، إقامةً طيِّبةً، تنبض بالإيثار على النَّفس، وبودِّ الأخوَّة الصَّادقة المؤمنة"[1].

وبهذا الإخاء الراقي الذي شرعه النبي ﷺ في السنة الأولى من الهجرة عالج – عليه الصلاة والسلام- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمهاجرين، وبذلك حافظ على الدعوة وضمن استمراريتها، ويقول الطيب برغوث وهو يشرح ما قام به النبي ﷺ لحماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها إنه: "تقنين التكافل الاجتماعي بين المهاجرين والأنصار عبر المؤاخاة والارتقاء به إلى مستوى الواجبات التي تجعل المانع أو الباذل يحس بأنه يؤدي واجبا مفروضا عليه شرعا يثاب عليه من الله تعالى، ويعاقب على التقصير فيه"[2].

وبتشريع نظام الإخاء بين المهاجرين والأنصار نجح الرسول ﷺ في التغلب على معظم المشاكل التي واجهت الهجرة، وواجهت الدولة الفتية وواجهت الجماعة المسلمة، وأخذت بيد الدعوة إلى بر الأمان وبيد المهاجرين إلى طيب الحياة الدنيا، وأخذ بيد الأنصار إلى خير الدنيا والآخرة فاستحقوا الثناء والمدح قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَالإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: 9].

ومن هذه الآية نستنتج سنة من سنن الله العادلة أن النصر لا يأتي بالأماني، وإنما يأتي بتقديم الأسباب، ومن أسباب النصر التآلف والاتحاد والأخوة؛ حيث هانت في سبيل الأخوة الإيمانية كل المحبوبات الدنيوية، من مال وزوجات صالحات ودور مشيدة، وأساس هذه الأخوة هو الإيمان الصحيح الذي هو مناط سعادة الدنيا والآخرة ، والعقيدةُ الراسخة في النفوس[3].

وبفضل هذا الآخاء الفذ عرفت البشرية أروع مثال من أنبل مجتمع، مجتمع الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين، و"بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة، لأن عدد الراغبين في الإيواء

---

[1]- علي محمد محمد الصّلابيّ، **السيرة النبوية**، 1/ 260.

[2]- الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها**، ص: 308.

[3]- ينظر: رشيد رضا، **تفسير المنار**، 61/10.

المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين... والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا... وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه"[1].

وهكذا نخلص إلى أن الإخاء خير كله، وعطاء وبذل وإحياء وفلاح؛ حيث دمج المهاجرين في المجتمع الجديد، وكلهم حب وعزيمة وقوة للبناء والتعمير وتشيد الدولة المسلمة.

و"قد تمكن عليه الصلاة والسلام من إدماج المهاجرين في المجتمع، وتأليف وحدة اجتماعية متماسكة بينهم وبين الأنصار، بلغت مستويات رفيعة ونموذجية من الترابط والتكامل والانسجام الاجتماعي الفريد الذي أعطى للدعوة والدولة والمجتمع قوة ومنعة ذاتية كبيرة من ناحية، وقدم صورة حية مؤثرة عن نموذج المجتمع الذي يبشر به الإسلام ويسعى لبنائه من ناحية أخرى"[2].

وهذا هو دور القائد السياسي الرشيد والحكيم في إرساء قواعد الأمن والاستقرار في المجتمع، فبفضل نظام الإخاء والمؤاخاة استطاع النبي ﷺ إيجاد مجتمع متكافل منسجم قوي، يقوم الولاء فيه لله ولرسول ﷺ، وللإسلام، وللمحبة الإيمانية.

لقد قام النبي ﷺ بما يلزم إجراؤه من الأسباب المادية والمعنوية، في سبيل الخروج بالجماعة المسلمة من مهانة الضعف والمذلة، المصاحبة للأذية من طرف عشيرته وقومه الأقربين، خلال مراحل دعوته المختلفة، بداية من مرحلة الدعوة السرية، أين كان النبي ﷺ يأمر أصحابه –رضوان الله عليه – بأخذ الحيطة والحذر والسرية التامة، وهم يتعلمون أصول دينهم الجديد، مع تفعيل سنة التغيير، وسنة الحيطة والحذر والكتمان، حتى يظهر الله هذا الأمر؛ فكان بيت النبوة ودار الأرقم المعقل الأول لنشر دعوة الحق؛ ففي هذه المرحلة، على عصر التنزيل، ظهرت ثمار شجرة الحياة الطيبة العقائدية، وتمثلاتها في الجيل الرباني؛ في عدد محدود من الرجال والنساء الذين فهموا المضامين الأولى للخطاب الرباني القرآني؛ فبدأ معهم الوعي الرسالي الموصل إلى الوعي بسنن الهداية والوحي؛ الوعي "الذي يمنح الإنسان القدرة على الاستثمار الأصيل الفعال التكاملي، المطرد لسنن الآفاق والأنفس"[3].

وبتطبيق الوعي السنني والوعي الرسالي تعمقت قاعدة الدعوة، وترسخت بكثرة الأتباع والأصحاب، ودخل "الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء؛ حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحُدِّث به"[4]، ونجمل جملة السنن الإلهية، التي ركز عليها الوحي في هذه المرحلة،في سنة الابتلاء في الدين، وسنة الصبر، وسنة الحذر وأخذ الحيطة، وسنة التغير، وسنة التجديد، وسنة التدافع، ووسط هذا التدافع

---

[1]- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 9/ 345.

[2]- الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها**، ص: 315.

[3]- نفسه، ص: 201.

[4]- ابن هشام، **سيرة ابن هشام**، 184/1.

بين الحق والباطل، وصبر النبي ﷺ والمسلمين الأولين، جاء الأمر الرباني بالهجرة؛ لحماية الدعوة والمحافظة عليها، ووضع حدٍّ لأذية الكفار واضطهادهم للمسلمين؛ فأخذ عليه الصلاة والسلام كافة التدابير لإنجاح الهجرة وتوسيع دائرة الدعوة ونطاقها الجغرافي لضمان استمرارها، ولم يخرج المصطفى ﷺ في هذه المرحلة الرئيسية لبناء المجتمع المسلم عن خط سير السنن الإلهية في الخلق، لتحقيق الحياة الطيبة للجماعة المسلمة، فاعتمد على سنة الأخذ بالأسباب، في تحقيق السند الاجتماعي والاقتصادي للدعوة، وللمسلمين المهاجرين الذين تركوا وراءهم الأهل والمال، وكانت سنة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أكبر سند مادي ومعنوي للدعوة؛ إذ هي "في حاجة إلى سند اجتماعي لها لتنجز مهامها المنطوة بها"[1]، وكان التكافل الاجتماعي الذي تم بين المهاجرين والأنصار من المبادئ الإسلامية الراقية، التي جعلت أشاعت الجماعة المسلمة روح التعاطف، والتآلف، والمودة، والتعاون كأنهم مجتمع واحد وكيان واحد.

ونخلص بمجموعة السنن الإلهية التي نستطيع استنباطها، والتي حقق فيها الرعيل الأول جيل الصحابة رضوان الله عليهم المعنى الحقيقي للحياة الطيبة.

– سنة الإيثار، سنة البذل والعطاء، سنة التضحية في سبيل نجاح الدعوة، سنة التدرج، سنة التأييد.

[1]– رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، ص 202.

الخلاصة:

نخلص من هذا الفصل أنه لتحقق الحياة الكريمة الطيبة للإنسان، لا بد أن تتناغم رؤيته وفكره وجهده مع السنن الإلهية بأنواعها، التي جعلها الله مفاتيح للسعادة، وأن يطرح هواه؛ حتى لا يوصله إلى المعيشة الضنك، كما هو حاصل ومشاهد في حياة البشرية اليوم، في صراع دائم مع سنن الكون ونواميسه، وحال الأمة الإسلامية ليس بدعا من هذا الواقع المخزي؛ والناظر للمجتمع المسلم اليوم، والأحداث الجسام التي ألمت بأمة "لا إله إلا الله"، وما أصابها من نوازل عظام واضطرابات وهزات شديدة قوية مدمرة، أدت إلى زعزعة أركانها وأسسها؛ حتى أثرت في بنيانها من القواعد؛ فشهدت دمار الحروب الأهلية وخرابها، والقتل والتقتيل، كما تنبأ له رسول الله ﷺ، فلا المقتول يعلم لِمَ قُتِلَ! ولا القاتل يعلم لِـمَ يَقْتُلُ! فتشرد المسلمون من مواطنهم، وضربوا في مناكب الأرض شرقا وغربا، باحثين عن الأمن وطالبين للاستقرار والإيواء، تصحبهم ذلة؛ هي ذلة الربيع العربي![1]، وانتشرت الفتن داخل هذه الأمة كقطع الليل المظلم، لا تعرف لها بداية، ولا تتوقع لها نهاية، ولم يعرف السبب ولا المسبب، ولا ميز الجاني من الضحية، ولا الظالم من المظلوم، فاختلط الحابل بالنابل وسْط فوضى عارمة، عز سبيل الخروج منها.

وهذا الانحسار الحضاري الذي يعاني منه المسلمون اليوم، كان سببه العدول عن الانضباط والانسلاك بالسنن التي شرعها للشهود الحضاري (الشهادة على الناس والقيادة لهم)، ولسنا مبالغين حين نقول إن أخطاء بعض الأمم السابقة التي حذرنا الله منها، من ما كان سبب انحسارهم الحضاري، قد تسربت إلينا بفعل التخلف والانسلاخ عن الدين[2] ومرد ذلك، أن السنن الإلهية لا تحابي ولا تجامل ولا تتأثر بالأماني، وإنما تأثرها منوط بالأعمال المبنية على وعيٍ، وفهم الواقع، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ

---

[1]- **مفهوم الربيع العربي**: هو حركة احتجاجية سلمية ضخمة انطلقت في بعض البلدان العربية خلال أواخر عام 2010م ومطلع 2011 م، وبدأت الشرارة الأولى من تونس وتصاعدت بوتيرة سريعة إلى الحد الذي مكنها من الإطاحة برأس النظام وتنحيته في أيام قليلة. وتميزت هذه الثورات بظهور هتاف عربي أصبح شهيرا في كل الدول العربية وهو"الشعب يريد إسقاط النظام". بدأت الثورات في تونس عندما أضرم الشاب محمد بوعزيزي النار في نفسه احتجاجا على الأوضاع المعيشية والاقتصادية المتردية، وعدم تمكنه من تأمين القوت لعائلته، فاندلعت بذلك الثورة في تونس وانتهت في 14 يناير عندما غادر زين العابدين البلاد. وبعدها بتسعة أيام، اندلعت ثورة 25 يناير المصرية تلتها بأيام الثورة اليمنية وإثر نجاح الثورتين التونسية والمصرية بإسقاط النظام بدأت الاحتجاجات السلمية المطالبة بإنهاء الفساد وتحسين الأوضاع المعيشية بل وأحيانا إسقاط الأنظمة في بعض الدول العربية مثل ليبيا اندلعت الثورة فيها في 17 فبراير وسرعان ما تحولت إلى ثورة مسلحة، وبعدها بشهر تقريبا اندلعت احتجاجات سلمية واسعة النطاق في سوريا في 15 مارس 2011؛ ينظر: وفاء لطفي، **"الثورة والربيع العربي"**، القاهرة، الجامعة الإسلامية، ط 1(2011م)، ص: 10.

[2]- ينظر: أحمد محمد كنعان، **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**، ص: 21.

بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء 123]، وللأسف نرى العالم الغربي الكافر يتفرج، وهو في الجهة الآمنة المستقرة، المتقدمة المتطورة، والسؤال هنا لِمَ هذا الوضع المزري؟ ولِم هذا التمزق و التخلف في صفوف المسلمين؟.

ويأتينا الجواب واضحا دقيقاً من عمق القرآن الكريم؛ إنه عزوف المسلمين عن فهم ومعرفة السنن الإلهية في الأنفس والآفاق، وقصورهم وزهدهم في دراستها والبحث فيها؛ فعدم الارتقاء بالوعي بمبدأ الواقعية إلى مستوى السنة، أو القانون الكلّي العام، يعد قصورا هيكليا في منظوماتنا الفكرية والسلوكية والاجتماعية، ما يفسر جانبا مهماً جداً من جوانب الضعف الكبيرة في أدائنا الحضاري المعاصر، ما جعله يتسم بالجزئية والآنية والتنافرية والاهتلاكية والاستئنافية، واللاجدوى في كثير من الأحيان، ما أثر ويؤثر بعمق في موقعنا على خريطة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري[1].

فأصبحت أمة محمد كالقصعة المستباحة؛ لغفلة أبنائها عن السنن والقوانين الربانية التي تحكم حياة الأفراد والجماعات والأمم، سنن خطها خالق السنن وفق منهج رباني عادل، سنن لا تحيد ولا تتخلف دقيقة منتظمة وجدية ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14].

فإذا أرادت أمة الإسلام اليوم الشفاء من هذه **الغثائية**، والخروج من هذا التيه الذي دام قرونا وقرونا، وتسترد مكانتها بين الأمم، حيث قال عنها الله سبحانه وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 110]، وإذا أرادت فهم التاريخ ليمكنها صنع تاريخ مشرف، وتحظى بشهود حضاري، فعليها بمعرفة عوامل البناء والتشييد والأمن والاستقرار والنصر والتمكين والبقاء والريادة، وتجنب عوامل الهدم والتدمير والانكسار والانحسار والاستبدال والمهانة؛ إذ لا تتحقق لها هذه المعرفة إلا بفهمها للسنن، وما كان تحقق الحياة الطيبة للجيل الأول؛ صفوة البشرية وخير القرون ضربًا من الاستحالة في تحققها، وإذا نحن حذونا حذوهم في تفعيل هذه السنن بعد اكتشافها وفقهها، وفهم أبعادها وآثارها، والتزمنا بشروط تحققها، فإن حياتنا ستكون كحياتهم، ما دام هناك من البشر من عاشها وتنعم في ظلالها بالسعادة وطيب العيش؛ فليس بعيدا عنا اليوم تحقيقها، إذا انطلقنا من ذات المعطيات والأسباب والشروط، وما تحقق مرة يمكن تحقيقه مرات.

[1]– ينظر: الطيب بن مبارك برغوث، **الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**، جدة، مركز الراية للتنمية الفكرية، ط 1(1427 هـ-2006م)، ص: 21-22.

الخاتمة

خلصت في دراستي هذه بعد الإجابة على الإشكالية المحورية للدّراسة، وما تبعها من أسئلة فرعية إلى استشفاف بعض النتائج المهمّة التي وصلت إليها، وأراها لا تقلّ أهمية عما استخلصته في فصول الدراسة، وهي:

أولا: النتائج

1- السنن الإلهية هي الحقائق الثابتة المطلقة التي بثّها الله في كونه، وأثبتها تحكم خلقه وكونه بما يحقق مصلحة عباده.

2- يَلحق بالسنن ما يرتبط بها من نتائج منطقية لعمل الإنسان وسلوكه، باعتبار نتائجها حقائق ثابتة عادلة، مطردة لا تقبل النقض.

3- تعددت تعاريف السنن الإلهية عند العلماء والمفكرين المعاصرين ناشئ عن كونها تجمع معاني كثيرة، وزوايا متنوعة، فمنهم من حصرها في بعدها الكوني فكانت السنّة عنده هي الناموس، وخصّها بعضهم ببعدها الاجتماعي التاريخي فجاءت السنّة بمعنى السيرة والعادة والطريقة والمثال المتّبع، بينما خصَّها فريق ثالث بالبعد التشريعي العقدي، فكان منها الأحكام والشرائع والمواثيق والعهود.

4- تنوعت صيغ القرآن الكريم في عرض السنن، فكان منها الشرطية، والفعلية المحققة، والاخبارية وغيرها.

5- جاء تعبير القرآن الكريم عن السنن الإلهية بأشكال وأساليب متعددة كالتصريحي، والتقريري، والخبري، والإنشائي، والوجداني، والأسلوب التحذيري التنبيهي.

6- خصائص السنن كثيرة متعددة؛ فمنها الربانية والثبات و الاطراد والشمول، ومنها الفطرية، والتكاملية وخصيصة السّعة والمرونة، والاختيارية.

7- تنقسم السنن الإلهية حسب ذكرها في القرآن الكريم إلى سن آفاق، سنن أنفس، سنن هداية .

8- سنن الحياة الطيبة متعددة ومتنوعة، فكان منها الفطرية، كالمال، وكان منها الكسبية كالزوجة الصالحة.

9- الحياة الطيبة هي كل المحبوبات والمرغوبات النفسية و الجسدية في ضوء المنظومة القيمية الشرعية النافعة في الدارين، التي ينعم في ظلالها الفرد وتسعد الجماعة.

10- لا يمكن حصر سنن تحصيل الحياة الطيبة في الإيمان والعبادة وإن كان تلك هي الأساس والأصل لتحقق السعادة.

11- لا تقتصر الحياة الطيبة على التمتع بالزينة والزخرف أو الإكثار من عرض الدنيا، وكثرة الأموال والذرية، وقصة قارون مع كونه من قوم موسى خير دليل على ذلك.

12- الحياة الطيبة بمفهومها القرآني لا ينفصل فيها الجانب الروحي الوجداني (الإيمان) عن الجانب الحسي الجسماني (الزوجة الصالحة، المال)؛ فلم تجتمع آسية مع كفر فرعون رغم ملكه ولم تتحقق الحياة الطيبة لقارون رغم أمواله بسبب كفره.

13- تخضع الحياة الطيبة لشروط سننية من أخذ بها فاز في ظلال السعادة، ومن تنكبها ذاق مرارة معيشة الضنك.

14- للحياة الطيبة تجليات تظهر كأمارات تنبئ بسعادة صاحبها واطمئنان باله وسعة خاطره، راسمة إشراقة المحيا وصحة البدن والقبول عند الناس.

15- إمكانية تحقق الحياة الطيبة بتفعيل السننية في حياتنا؛ طالما أن من أسلافنا، من حققها، فقط علينا الالتزام بشروطها.

ثانيا: التوصيات

بعد تسجيل أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث أود أن أختم هذه الدراسة بذكر بعض التوصيات التي رأيت أنها تستحق لفت الأنظار إليها وهي:

1- التأكيد على أهمية موضوع السنن الإلهية وعلاقته بحياة الناس سعادة وشقاء، والتنبيه على خطورة تنكب السنن والغفلة عليها.

2- ضرورة البحث الجاد والمستفيض في مختلف الدراسات السننية المعاصرة، وذلك من خلال التنسيق بين مختلف المخابر وفرق البحث التي تهتم بموضوع السنن الإلهية، وبين الجامعات في العالم الإسلامي، وتوجيه أنظار الباحثين إلى أهمية طرح هذه الأبحاث السننية والدراسات في أطروحاتهم، ورسائلهم العلمية والأكاديمية.

3- الدعوة إلى تكثيف عقد المؤتمرات الدولية الخاصة الوعي السنني، والتنبيه على مدى أهمية هذه اللبنة الأساسية، وما يتعلق بها من مستجدات تطرح نفسها بقوة في ساحة البحث السنني، والتأكيد على خطورة إهمالها وإغفال النظر فيها.

فهارس الرسالة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

رأس الآيـــــة	الآية	الصفحة
ســــورة الفاتحة		
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾	4	**173**
سـورة الـبـقـرة		
﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾	9	110
﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ ... فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾	27	59
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ ... مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾	30	341
﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾	31	25
﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ ..... وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾	57	286
﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾	60	94
﴿ مَا لَكَ مِن ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾	120	41
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ..... إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾	126	236
﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾	127	187
﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾	145	41
﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾	154	149
﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ... لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾	164	62
﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ... ﴾	179	12، 147، 149
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ..... بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾	180	182، 355
﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾	185	141
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى .... فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾	186	227، 304
﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ ..... أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾	188	184
﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾	190	340

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	193	340
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم ..... وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾	215	182
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ۖ ... إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾	222	286
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً ..... مَن يَشَآءُ ﴾	247	242، 287
﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾	249	261
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾	255	152
﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ .... كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾	269	176
﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ ... فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾	275	185، 361، 366
﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾	276	44
﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾	282	361
﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾	283	361
آل عمران		
﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ... ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾	13	62
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ..... ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾	14	312، 313
﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾	21	324
﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ ..... مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾	26	229، 233
﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ..... ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾	28	195، 196
﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾	97	199
﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾	103	66، 222، 230، 335، 374
﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ..... ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾	104	224، 225
﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾	110	218، 219، 223، 348، 350، 381

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾	137	3، 7، 31، 32
﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ ... الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ ... وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) ﴾	141-142	71
﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾	159	252
﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾	164	118، 187
﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ ... عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾	165	345
﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾	178	139
﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ... السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾	180	323
سورة النساء		
﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾	5	184، 327
﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم ... إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾	22	127
﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾	26	23، 31، 32
﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾	34	200، 203
﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ ..... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾	37	325
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ..... إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾	58	248
﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾	59	254
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ..... حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾	65	188
﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾	82	117
﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ .... وَلَا نَصِيرًا ﴾	123	381
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..... فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾	136	158
﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾	139	274
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾	174	89

سورة المائدة		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾	1	286
﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ..... فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾	3	293 ،295
﴿ إِنِّي مَعَكُمۡ ﴾	12	261
﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم ﴾	66	190 ،188
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾	90	360 ،293
﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ..... عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾	91	190
سورة الأنعام		
﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾	38	285
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾	82	162
﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّيۡلِ سَكَنٗاۖ ﴾	96	209
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا ... إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾	99	97، 98، 101ن 103، 318
﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴾	118	286
﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ ..... ﴾	122	149، 150
﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا ﴾	145	294
﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ .... وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿161﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي .... رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿162﴾ لَا شَرِيكَ .... أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿163﴾ ﴾	161-163	170
سورة الأعراف		
﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾	10	185
﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾	31	285، 290، 292، 318
﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ ..... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾	32	214، 318
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ... تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	54	88

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾	55	263، 264
﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤ ﴾	59-64	40، 133، 164، 135، 136، 322
﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۚ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢ ﴾	65-72	133، 137، 140، 141، 142، 287
﴿ تَنۡحِتُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا ﴾	74	206
﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾	85	94
﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ... كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾	96	67ن 126
﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾	157	293
﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ... كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾	172	158
﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَٰحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾	184	137
﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾	199	120

سورة الأنفال		
﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	2	111
﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾	24	151
﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ ... ٱلْأَوَّلِينَ﴾	38	31، 32
﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾	46	66
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا ..... وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	53	75
﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ..... ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾	60	127، 312
﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ .....بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿62﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ .... ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿63﴾﴾	62-63	230
سورة التوبة		
﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ..... لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾	24	210
﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾	40	258، ÷ 261
﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ..... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	71	244ن 225، 373
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ..... ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾	72	208
﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾	105	156، 177، 237
سورة يونس		
﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ .... بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾	5	88، 93
﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ .... لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾	11	266
﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾	12	296، 270
﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن ... نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾	13	71
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾	57	112
﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾	58	162

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ..... هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ ﴾	62-64	271
﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾	99	75
﴿ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾	108	166
سورة هود		
﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾	52	140
﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ ..... فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾	61	173، 185، 237
﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴾	82	34
﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧ ﴾	116-117	129، 130ن 231
سورة يوسف		
﴿ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾	54	244
﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾	55	242، 242ذ3
سورة الرعد		
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ... لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾	2	88ن 90
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ ﴾	3	95
﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ... مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴾	11	35، 74، 75
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾	28	111
سورة إبراهيم		
﴿ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ ﴾	17	151

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾	32	38، 211، 122
سورة الحجر		
﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿11﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿12﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿13﴾ ﴾	11-13	23، 31
﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾	19	83
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾	26	81
﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿73﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿74﴾ ﴾	73-74	34
﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾	82	336
﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾	94	231
سورة النحل		
﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾	4	81
﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿5﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿6﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ... رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿7﴾ ﴾	5-7	213
﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾	8	312، 317
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا ... فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾	14	286
﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾	15	95
﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	18	141
﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾	21	149
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾	36	128، 129
﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	43	253
﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾	66	288
﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾	67	99، 358
﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾	69	304، 306

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾	78	38
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾	79	157
﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ..... تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾	80	207، 209، 336
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ..... أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾	97	79، 149، 218
﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .... عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ ..... هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) مَن كَفَرَ بِاللَّهِ ..... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ﴾	104-106	195
﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾	114	286
﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾	128	258ن 261
سورة الإسراء		
﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾	7	166
﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾	9	288
﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ... السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾	12	92
﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾	15	129، 132
﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾	16	35
﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾	29	127
﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ... عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾	58	71
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .... كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾	70	215ن، 337، 338، 355
﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ ... خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ ... لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) ﴾	76-77	23، 31
﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾	82	301
سورة الكهف		
﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾	13	137

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ... يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾	55	31، 32
﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمُهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾	59	35
سورة مريم		
﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿25﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿26﴾ ﴾	25-26	100
﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾	43	187
﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾	54	120
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾	96	331
سورة طـــه		
﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾	53	39
﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾	123	113، 124
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾	124	114
سورة الأنبياء		
﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾	19	267
﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾	30	150
﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾	37	266
﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿83﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿84﴾ ﴾	83-84	301، 304
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	107	190
سورة الحج		
﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ... كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾	5	39
﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾	24	153
﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ ... مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿27﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ... فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿28﴾ ﴾	27-28	168، 333

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾	48	121
سورة المؤمنون		
﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ .... مَلُومِينَ (6) ﴾	5-6	296
﴿ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾	20	106
﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾	76	401
سورة النور		
﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾	3	200
﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ ... لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾	35	104، 106
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ .... مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾	43	88
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ..... وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾	55	259
سورة الفرقان		
﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ..... فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾	2	83
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾	20	179
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾	67	327
﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾	74	198
سورة الشعراء		
﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ .... يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا ... يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) ﴾	155-156	41
﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (173) ﴾	172-173	34
سورة النمل		
﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾	41	166
﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ... أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	61	96
سورة القصص		
﴿ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾	4	147

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾	26	246
﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾	27	180، 310، 311
﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ .... مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾	59	74
﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ .....الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾	77	327
﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ...وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾	81	34
سورة العنكبوت		
﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾	14	34
﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ...إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾	20	62
﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ..... ﴾	64	150، 151
سورة الروم		
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم ...لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	21	65، 126، 198، 199
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ... النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	30	57، 191، 192
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ...وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (40) ظَهَرَ الْفَسَادُ ...لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) ﴾	40-41	73
سورة لقمان		
﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ .... مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾	10	88، 89، 90، 94، 240
﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾	18	320
سورة الأحزاب		
﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .... أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾	38	32، 36
﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ...فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَّلْعُونِينَ ...تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ ...اللَّهِ تَبْدِيلًا (62) ﴾	60-62	32، 40

سورة سبأ		
﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ... لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾	9	34، 141
﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ... طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾	15	63
﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا... سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿16﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم... ٱلْكَفُورَ ﴿17﴾﴾	16-17	63
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾	28	193
سورة فاطر		
: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾	1	137
﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾	6	127
﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾	18	166
﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾	22	149، 150
﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾	24	125
﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾	28	175
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿29﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿30﴾﴾	29-30	137
﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾	39	138
﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ... زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿42﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي... وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿43﴾﴾	42-43	32، 343
سورة يس		
﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى... ٱلْعَلِيمِ ﴿38﴾ وَٱلْقَمَرَ... ٱلْقَدِيمِ ﴿39﴾ لَا ٱلشَّمْسُ... يَسْبَحُونَ ﴿40﴾﴾	38-40	88، 93
سورة الصافات		
﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾	36	137

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173) ﴾	171-173	70
﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾	180	274
سورة ص		
﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا ... الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) ﴾	41-42	304
سورة الزمر		
﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ ﴾	7	166
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	9	175
﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾	65	41
سورة غافر		
﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾	51	70، 71
﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ..... سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾	60	227، 265
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ... يَكْسِبُونَ (82) ... فَلَمْ يَكُ ... الْكَافِرُونَ (85) ﴾	82-85	32
سورة فصلت		
﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾	10	44
﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾	11	160
﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ ... وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾	12	88
﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾	39	150
﴿ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾	44	301
﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾	46	166
﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾	50	320
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾	53	85

سورة الشورى		
﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ..... مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾	13	188
﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾	38	252
سورة الجاثية		
﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ... سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾	21	58
سورة محمد		
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَالنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴾	12	292
﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ فِيهَآ ..... وَأَنۡهَٰرٌ مِّنۡ خَمۡرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾	15	289
﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾	24	37
سورة الفتح		
﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾	4	48، 137، 162
﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾	20	186
﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ... وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿22﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ .... ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴿23﴾ ﴾	22-23	32
﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ... ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾	29	280، 281
سورة الحجرات		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ... فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾	6	63
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ... مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿6﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ ... ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿7﴾ ﴾	6-7	64
﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ ... ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿9﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ... لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿10﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ... هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿11﴾ ﴾	9-11	63، 65
سورة ق		
﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾	6	93
سورة الذاريات		
﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴾	7	88، 93
﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿20﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿21﴾ ﴾	20-21	174

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (33) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) ﴾	33-34	33
﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾	41	34
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	56	164، 273
سورة القمر		
﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾	19	34
﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾	20	34
﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا ... نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (34) نِّعْمَةً مِّنْ ... شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم ... بِالنُّذُرِ (36) ﴾	33-36	33
سورة الواقعة		
﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) ﴾	75-76	88، 91
سورة الحديد		
﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ ﴾	4	258
﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾	17	150
﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾	21	327
سورة المجادلة		
﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾	11	175
سورة الحشر		
﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ ..... يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾	6	186
﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾	7	44
سورة الصف		
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..... خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ..... عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ .... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13) ﴾	10-13	161، 208

سورة الجمعة		
﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾	2	118
﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾	10	185، 327
سورة المنافقون		
﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	8	240، 274
سورة الطلاق		
﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ ..... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾	2	331
سورة الملك		
﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾	14	192، 381
﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾	15	67، 185
سورة القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾	4	118
سورة الحاقة		
﴿ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا ﴾	7	34
﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿38﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿39﴾ ﴾	38-39	91، 92
سورة المعارج		
﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿19﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿20﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿21﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿22﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿23﴾ ﴾	19-23	168، 169
سورة نوح		
﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿1﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿2﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿3﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿4﴾ ﴾	1-4	131
﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿15﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿16﴾ ﴾	15-16	88، 93

سورة الجن		
﴿ وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾	16	35، 67
سورة المزّمل		
﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ ..... يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾	20	180
سورة المدثر		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿1﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿2﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿3﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿4﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿5﴾ ﴾	1-5	285
سورة القيامة		
﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾	40	147
سورة المرسلات		
﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿25﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿26﴾ ﴾	25-26	150
﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾	27	96
سورة النبأ		
﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾	13	93
﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾	31	101
سورة التكوير		
﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿15﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿16﴾ ﴾	15-16	91
﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿19﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿20﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿21﴾ وَمَا صَٰحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿22﴾ ﴾	19-22	137
سورة الانشقاق		
﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾	16	91
سورة الطارق		
﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾	5	91
﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾	11	93

سورة الفجر		
﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾	2-1	250
﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾	20	182
﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾	24	151
سورة الشمس		
﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦﴾	6-1	91
سورة الليل		
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝٢﴾	2-1	250
﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١﴾	11-8	324
سورة الضحى		
﴿وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢﴾	2-1	250
سورة التين		
﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾	1	103
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾	1	174
﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾	15	40
سورة العاديات		
﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾	8	182
سورة التكاثر		
﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾	8	309
سورة العصر		
﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾	2-1	250
سورة قريش		
﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾	4-3	211

فهرس الأحاديث

الرقم	طرف الحديث	الصفحة
1	أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلاَثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، ...."	20
2	أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ... وَايْمُ اللَّهِ لَوأَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"	196
3	اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ"	256
4	أَتَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ عز وجل، ....."	297
5	أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِﷺبِقِنَاعٍ مِنْ بُسْرٍ،فَقَرَأَ:مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ..."	98
6	إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ،.."	330
7	إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، ..."	289
8	إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"	249
9	إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ"	176
10	إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"	348
11	إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"	249
12	أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ"	213
13	ارْفَعْ ثِيَابَكَ وَسَلِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ السَّعَةَ"	207
14	اشْتَرَى طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ إِلَى أَجَلٍ، فَرَهَنَهُ دِرْعَهُ"	361
15	أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...."	343
16	اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ، وحَياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ"	256

17	أَلا أحدِّثُكم بما إنْ أخذْتم أَدركتُم مَن سبَقكُم، ولَم يُدْرِكْكُمْ أحدٌ بَعدَكم، وكنتُم خيْرَ مَن أنتُم بينَ ظَهرانَيْهِ؛ إلا مَن عمِلَ مثلَهُ؟ تسبِّحونَ، وتَحمَدونَ، وتكبِّرونَ خلْفَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين"	326
18	أَلَا أُخبِرُكُمْ بِخَيْرِ مَا يُكْنَزُ؟ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ"	299
19	أَلا أُنَبِّئُكم بِدرجةٍ أَفضَلُ مِن الصلاةِ والصيامِ والصدَّقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاحُ ذَات البَين، وفَسادُ ذَات البَين هِي الحَالِقَة"	171
20	أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"	154
21	أَلا وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ مَا أَضَعُ مِنْهَا دَمُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ"	354
22	إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ"	267
23	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ"	184
24	إِنَّ النّاسَ إِذا رَأَوُا الظّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقابٍ"،	266
25	إِنَّ خَيْرَ دُورِ الْأَنْصَارِ: دَارُ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمَّ دَارُ بَنِي الْحَارِثِ، ثُمَّ بَنِي سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ"	376
26	إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّها فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ"	180
27	إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - أَوْ: يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَو لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ"	305
28	أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، ....."	20
29	إِنِّي لَأَعْرِفُ شَجَرَةً بَرَكَتُهَا كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ النَّخْلَةُ"	98
30	أوصيكُم بتقوى الله والسمعِ والطَّاعةِ وإنْ عَبْداً حبشيًّا، ....."	20

31	إِيهٍ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"	247
32	الْبَرَكَةُ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ"،	315
33	تَآخَوْا فِي اللَّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ، ثم أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: هَذَا أَخِي"	372
34	تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ"	280، 281
35	تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ"	20
36	تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ"	200
37	ثَلَاثٌ مِنَ السَّعَادَةِ، وَثَلَاثٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ، فَمِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ تَرَاهَا تُعْجِبُكَ، وَتَغِيبُ فَتَأْمَنُهَا عَلَى نَفْسِهَا، وَمَالِكَ، وَالدَّابَّةُ تَكُونُ وَطِيَّةً فَتُلْحِقُكَ بِأَصْحَابِكَ، وَالدَّارُ تَكُونُ وَاسِعَةً كَثِيرَةَ الْمَرَافِقِ"	206
38	خَيْرُ الْخَيْلِ الأَدْهَمُ، الأقرعُ، الأرْثم"	314
39	الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بنَوَاصِي الْخَيْلِ"	315
40	خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ"	200
41	الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ"،	315
42	دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا تَصْنَعُونَ بِمَحَاقِلِكُمْ؟ قُلْتُ: نُؤَاجِرُهَا عَلَى الرُّبُعِ، وَعَلَى الْأَوْسُقِ مِنَ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، قَالَ: لَا تَفْعَلُوا، ازْرَعُوهَا أَوْ أَزْرِعُوهَا أَوْ أَمْسِكُوهَا، قَالَ رَافِعٌ: قُلْتُ: سَمْعًا وَطَاعَةً"	241
43	الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"	198
44	ذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"	176
45	ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ"	327

46	الشِّفَاءُ فِي ثَلاَثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ"	305
47	صَدَقَ اللَّهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلًا"	305
48	عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"	262
49	فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ"	175
50	فَاشْتَرِ أَدْهَمَ أَغَرَّ مُحَجَّلًا مُطْلَقَ الْيُمْنَى، فَإِنَّكَ تَغْنَمْ وَتَسْلَمُ"	314
51	قَالَ: قَالَتْ الْأَنْصَارُ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ النَّخْلَ، قَالَ: "لَا"، قَالَ: "يَكْفُونَا الْمَئُونَةَ وَتشْرِكُونَا فِي التَّمْرِ"، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا"	375
52	قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافاً، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ"	275
53	كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء الله، وجُزءا لأهلْه، وجُزءا لنَفْسه، ثُمَّ جَزَّأَ جُزْءَه بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيردَ ذَلِكَ عَلَى العَامَّة بالخاصَّة"	250
54	كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْقَعُ لَهُ الزَّبِيبُ، فَيَشْرَبُهُ الْيَوْمَ وَالْغَدَ وَبَعْدَ الْغَدِ ....."	102
55	كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَهُو لَهْو وَسَهْوٌ، إِلَّا أَرْبَعَ خِصَالٍ: مَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَتَعَلُّمُ السِّبَاحَةِ"	310
56	كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ؟....."	247
57	لا تَتْرُكُ هَذِهِ الأُمَّةُ شَيْئًا مِنْ سَنَنِ الأَوَّلِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُ"	19
58	لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ"	251
59	لاَ تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ: الله، الله"	159
60	لَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ"	324
61	لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ"، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟، قَالَ يَقُولُ: "قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ"	266

62	لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"	370
63	لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، ....."	19
64	لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، أَوامْرَأَةً صَالِحَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى إِيمَانِهِ) وَيَكُونُ مِنْهَا مِنْ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ مَا امْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا فِي كِتَابِهِ"	201، 203
65	لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ"	369
66	لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا..."	227ن 297
67	لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ، فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ، ....."	95
68	اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْمُحَلِّقِينَ، قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْمُحَلِّقِينَ؟ قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَالْمُقَصِّرِينَ"	334
69	اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامِ، فَإِنَّ جَارَ الدُّنْيَا يَتَحَوَّلُ"	211
70	اللهُمَّ فَإِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ"	328
71	لو أقسَم على اللهِ لأبَرَّه"	373
72	لَوْ أَنَّكُمَا تَتَّفِقَانِ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ مَا عَصَيْتُكُمَا فِي مَشُورَةٍ أَبَدًا"	253
73	لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا"	73
74	لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْس"	275
75	لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا"	172
76	مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ"	291، 334
77	ما مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعاصي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لا يُغَيِّرُوا إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقابٍ"	226
78	مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ...."	267

79	مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ"	58، 160
80	مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، ....."	217
81	مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ. وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ"	150، 235
82	مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلا مِنْ عِصَابَةٍ، وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ، وخانَ رَسُولَهُ، وخانَ الْمُؤْمِنِينَ"	248
83	مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي"	256
84	مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ"	99
85	مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرَبِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ"	268
86	مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ"،	206
87	مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً" "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ .... شَيْئًا"	22
88	مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا ....."	22
89	مَنْ عَرَّفَ نَفْسَهُ لِرَبِّهِ عَرَّفَ رَبَّهُ لِنَفْسِهِ"	442
90	مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ أَرْضٍ، فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيُزْرِعْهَا أَخَاهُ، وَلَا تَبِيعُوهَا"	241
91	مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ،....."	335
92	مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِالْقُرْآنِ فَلَا شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى"	302
93	مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً،....."	249
94	الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ"	392
95	هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ"	171
96	وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ"	310

97	وَالدَّابَّةُ تَكُونُ قَطُوفًا فَإِنْ ضَرَبْتَهَا أَتْعَبَتْكَ، وَإِنْ تَرَكْتَهَالَمْ تُلْحِقْكَ بِأَصْحَابِكَ"	214
98	وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَولَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ"	227
99	وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ"	211
100	وُلِدَ لِي غُلَامٌ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ، فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ، ....."	101
101	وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَلِرَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ، فَالرَّجُلُ يَتَّخِذُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،....."	315، 317
102	وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ"	336
103	وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا"	120
104	يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ"	167
105	يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ"	344
106	يَا عَائِشَةُ: بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ، يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ ....."	99
107	يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا "	167
108	يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي"	266
109	يَسِّرا ولا تُعسّرا وَبشِّرا ولا تُنفّرا وتطاوعا"	297
110	يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ،....."	220

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية ورش**

- **الكتب:**

1. إبراهيم أنيس، **دلالة الألفاظ**، القاهرة، ، مكتبة الانجلو المصرية، (د،ط،ت).

2. إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، **الموافقات**،تح: أبو عبيدة مشهور بنحسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط 1(1417هـ- 1997م).

3. إبراهيم مصطفى، الزيات أحمد، حامد عبد القادر، النجار محمد، **المعجم الوسيط**، القاهرة، دار الدعوة (د،ط،ت).

4. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله أبو حامد عز الدين، **شرح نهج البلاغة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية، (د،ط،ت).

5. ابن الأثير، الإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ،**النهاية في غريب الحديث والأثر**، تح: محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، لبنان، بيروت، دار الفكر، ط 2(1399هـ- 1979م).

6. ابن الأثير، **الشافي في شرح مسند الشافعي**، تح: أحمد سليمان، أبي تميم ياسر بن إبراهيم، السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، ط 1(1426هـ- 2005م)، 4/ 326.

7. الآجري، أبوبكر محمد بن الحسين بن عبد الله، **الشريعة**، تح: عبد الله الدميجي، السعودية، دار الوطن، ط2(1420هـ، 1999م).

8. أحمد أحمدغلوش، **السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1424هـ- 2004م).

9. أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر، **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت).

10. أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي،**السنن الكبرى**، تح:محمد عبد القادر عطا، بيروت، لبنان، ط3(1424 هـ - 2003 م).

11. أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني، **مسند بن حنبل**، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 1(1421هـ-2001م).

12. أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط 1(1422هـ - 2002م).

13. أحمد حسن فرحات، **سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول**، الأردن، عمان، دار عمار، ط 1(1420هـ-1999م).

14. أحمد بن مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، مصر، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، ط 1(1365 هـ - 1946م).

15. أحمد رضا، عضو المجمع العلمي العربي، **معجم متن اللغة**، لبنان، بيروت، دار مكتبة الحياة، (1377هـ - 1958م).

16. أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، بيروت، مكتبة لبنان، (1986م).

17. أحمد شوقي الفنجري، **الطب الوقائي في الإسلام تعاليم الإسلام الطبية في ضوء العلم الحديث**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3(1991م).

18. أحمد علي وآخرون، **الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1(2004م).

19. أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، بيروت، عالم الكتب، ط 1(1429 هـ - 2008م).

20. أحمد مصطفى متولي، **الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية**، القاهرة، دار ابن الجوزي، ط 1(1426هـ- 2005م).

21. أحمد معمور العسيري، **موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر**، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1 (1411 هـ - 1996م).

22. أسامة بن سعيد القحطاني، ومجموعة من الدكاترة ، **موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي**، الرياض،دار الفضيلة، ط1 (1433 هـ - 2012م).

23. إسماعيل حقي بن مصطفى، الإستانبوليأبوالفداء،**روح البيان** ، بيروت، دار الفكر، (د،ط،ت).

24. إسماعيل علوي وبنعيسي زغبوش، **العلاج النفسي المعرفي**، عمان، الأردن، جدارا للكتاب العالمي، ط 1(1429هـ-2009م).

25. الأصبهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ط)(1409هـ).

26. الأصفهاني، أبوعلى أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ،**شرح ديوان الحماسة**، تح: غريد الشيخ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1(1424 هـ - 2003م)، 1/ 122.

27. الأصفهانى، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد **المفردات في غريب القرآن**، تح: محمد سيد كيلاني، لبنان، دار المعرفة، (د،ط،ت).

28. أكرم ضياء العمري، **السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ**، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط 6(1415 هـ - 1994م).

29. الألباني، **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، بيروت،المكتب الإسلامي ، ط2(1405 هـ - 1985م).

30. الألباني، **صحيح الجامع وزيادته**، المكتب الإسلامي، (د،ط،ت).

31. الآلوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تح: علي عبد الباري عطية، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1415هـ).

32. الآمدي أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي ،**الإحكام في أصول الأحكام**، تح: عبد الرزاق عفيفي، لبنان، بيروت، (د،ط، ت).

33. امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار، **ديوان امرِئ القيس**، بيروت،دار المعرفة، ط2 (1425 هـ - 2004م).

34. بتول قاسم ناصر، **القانون المطلق**، لبنان، بيروت، دار الفارابي، (د،ط) (2011م).

35. البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، **صحيح البخاري**، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا،دمشق، دار طوق النجاة، ط 1(1422هـ).

36. ابن بطال أبوالحسن علي بن خلف بن عبد الملك، **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، تح: أبوتميم ياسر بن إبراهيم، السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، ط 2(1423هـ - 2003م).

37. البطيوي عزيز، **سنن العمران البشري في السيرة النبوية**، هرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط 1(1439هـ- 2018م).

38. البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء ،**معالم التنزيل في تفسير القرآن**، بيروت، دار التراث العربي، ط 1(1420هـ).

39. البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر ،**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تح:عبد الرزاق غالب المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، (دط) (1415هـ- 1995م).

40. أبو بكر الجزائري جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، السعودية، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط 5(1424هـ- 2003م).

41. أبوبكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، **الإخوان**، تح: فاضل بن خلف الحمادة الرقي، الرياض، دار أطلس الخضراء، ط 1(1433هـ- 2012م).

42. أبوبكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي المعروف بابن أبي الدنيا، **إصلاح المال**، محمد عبد القادر عطا، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط 1(1414هـ - 1993م).

43. بوزنادة معمر، **المنظمات الإقليمية ونظام الأمن الجماعي**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعة، (1989م).

44. البيضاوي ناصر الدين عبد الله بن عمر ،**تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة**، تح: نور الدين طالب وغيره، الكويت، (د،ط) (1433هـ- 2012م).

45. البيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسي الخُسْرَوْجِرديالخراساني أبو بكر، **شعب الإيمان**،تح: محمد السعيد بسيوني زغلول، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1 (1410هـ).

46. التهانوي محمد علي، **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون العلوم** ، تح:على دحروج، عبد الله الخالدي، جورج زيناتي، لبنان، مكتبة لبنان، ط 1(1996م).

47. ابن تيمية أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، **الوصية الكبرى، رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أتباع عدي بن مسافر الأموي**، تح: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، السعودية، الطائف، مكتبة الصديق، ط 1(1408هـ- 1987م).

48. ابن تيمية، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط 1(1418هـ).

49. ابن تيمية، **الإيمان**، تح: الألباني، عمان، المكتب الإسلامي، ط 5(1416هـ- 1996م).

50. ابن تيمية، **العبودية**، تح: محمد زهير الشاويش، باب دعوة الأنبياء إلى عبادة الله، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 6(1426هـ-2005م).

51. ابن تيمية، **النبوات**، تح: عبد العزيز بن صالح الطويان، المملكة العربية السعودية، أضواء السلف، ط 1(1420هـ-2000م).

52. ابن تيمية، **أمراض القلب وشفاؤها**، القاهرة، المطبعة السلفية، ط 2(1399هـ).

53. ابن تيمية، **جامع الرسائل**، تح: محمد رشاد سالم، السعودية، الرياض، دار العطاء ، ط1(1422هـ - 2001م).

54. ابن تيمية، **شرح حديث جبريل عليه السلام في الإسلام والإيمان والإحسان المعروف باسم كتاب الإيمان الأوسط**، تح: علي بن بخيت الزهراني، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي،(د،ط)(1423هـ).

55. ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ترتيب عبد الرحمن العمي وابنه، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط)(1412هـ).

56. ابن تيمية، **مناهج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تح: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط 1(1406هـ- 1986م).

57. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام **جامع المسائل** المجموعة السابعة، تح: علي بن محمد العمران، مكة، دار عالم الفوائد.

58. الجرجاني الشريف، علي بن محمد بن علي الزين ، **كتاب التعريفات**، تح:جماعة من العلماء بإشراف الناشر، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1403هـ- 1983م).

59. الجزائري طاهر بن صالح ابن أحمد بن موصب السمعوني ،**توجيه النظر إلى أصول الأثر**، تح: عبد الفتاح أبي غدة، حلب، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط 1(1416هـ- 1995م).

60. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، تح: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1(1422هـ).

61. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جنى إمام العربية، **سر صناعة الإعراب**، تح: حسن هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1442هـ- 2000م).

62. جودت سعيد، **حتى يغيروا ما بأنفسهم**، لبنان، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 8(1979م).

63. الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي،**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تح: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط4(1407هـ-1987م).

64. جويس م هوكنز ،**قاموس أكسفورد الأساسي إنكليزي–عربي**، لبنان، بيروت،اكاديميا،(د،ط) (1990م-1994م).

65. جيفري ساكس،اليخاندروآدالر،عائشة بن بشر،**التقرير العالمي لسياسات السعادة وجودة الحياة**،دولة الامارات، 2019.

66. الحافظ أبوعبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، بيروت، دار المعرفة، (د،ط،ت) قال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين

67. حافظ بن أحمد الحكمي، **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، تح: عمر بن محمود أبو عمر، الدمام، دار ابن القيم، ط 1(1410 هـ - 1990م).

68. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، **إحياء علوم الدين**، بيروت، دار المعرفة، (د،ط،ت).

69. أبوحامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، **معارج القدس في مدراج معرفة النفس**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 2 (1975م)..

70. ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي أبو الفضل الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي محب الدين، (د،ط،ت).

71. الحسن بن أحمد بن محمد الأعرابي، أبومحمد الأسود الغندجاني، **أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها**، تح: محمد علي سلطان، ط 1 (1427هـ- 2007م).

72. حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، السعودية، الرياض، دار الفضيلة، ط 2 (1432هـ- 2011م).

73. حسن عياد، **منتهى البيان في قضايا القرآن**، لندن، شركة بريطانية، ط 1(2015م).

74. الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، أبوعبد الله الحَلِيمي، **المنهاج في شعب الإيمان**، تح: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط 1(1399هـ - 1979م).

75. حسين شرفة، **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة**، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1429هـ- 2008م).

76. حسين مؤنس، **الربا وخراب الدنيا**، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط 2(1406هـ- 1986م).

77. حسين مؤنس، **دراسات في السيرة النبوية**، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، (1405هـ- 1985م).

78. الحصري محمد خليل ،**أحكام قراءة القرآن**، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط 4(1999م).

79. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي،**منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام**، المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1(1424هـ- 2004م).

80. أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، تح: صدقي جميل، بيروت، دار الفكر، (د،ط)(1420هـ).

81. أبوحيان، محمد بن يوسف الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1422هـ-2001م)، 239/5.

82. الخازن علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن المعروف ،**لباب التأويل في معاني التنزيل**، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1415هـ).

83. الخرافي عبد المحسن عبد الله الجار الله، **مفهوم وتاريخ العمل الإنساني**، برنامج دبلوم القيادات الإنسانية الدفعة الثانية الكويت، مركز التطوير والتدريب للاتحاد العالمي للمؤسسات الإنسانية، (د،ط،ت).

84. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ط 2(1408هـ- 1988م).

85. الخليل الفراهيدي أبو عبد الرحمان بن أحمد، **كتاب العين**، تح: محمد المخزومي، إبراهيم السامرائي، بيروت، دار مكتبة الهلال، (د،ط،ت).

86. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، **سنن أبي داود**، تح: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دمشق، دار الرسالة العالمية، ط 1(1430هـ- 2009م).

87. الدهلوي، أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بالشاه ولي الله، **حجة الله البالغة**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1(1415هـ- 1995م).

88. الرازي الإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي، **مفاتيح الغيب**، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 3(1420هـ).

89. الرازي زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي عبد القادر الحنفي، **مختار الصحاح**، تح: يوسف الشيخ، بيروت، صيدا المكتبة العصرية، ط 5(1420هـ- 1999م).

90. راشد سعيد شهوان، **السنن الربانية في التصور الإسلامي**، الأردن، عمان، الأكاديميون، ط 1(1430هـ- 2009م).

91. ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي ،**جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تح: شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 7(1422هـ - 2001م).

92. ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن، **كلمة الإخلاص وتحقيق معناها**، تح: زهير الشاويشبيروت، المكتب الإسلامي، ط 4(1397هـ).

93. رشيد كهوس، **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، القاهرة، دار السلام، ط 1(1438هـ- 2018م).

94. رشيد كهوس، **تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح**، القاهرة، دار الكتاب المغربي، ط 1(1437هـ- 2015م).

95. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بالمرتضى، **تاج العروس من جواهر القاموس**، بيروت، دار الهداية، ط 1(1414هـ).

96. الزحيلي وهبة بن مصطفى، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط 2(1418هـ).

97. الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد، **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1417هـ - 1996م).

98. الزركشي محمد بن عبد الله بن بهادر ،**اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة**، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت).

99. زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبويحيىالسنيكي، **الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة**، تح: مازن المبارك، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 1(1411هـ).

100. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد جار الله، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، لبنان، بيروت، دار الكتاب العربي.

101. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله، **أساس البلاغة**، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1419هـ- 1998م).

102. الزواوي سعيد قاضي، **الجرجرية في ترتيل القرآن**، الجزائر، عالم المعرفة، ط 1(2011م).

103. زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تح: الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 7(1422هـ - 2001م).

104. زين الدين محمد المدعوبعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، **الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية**، تح: عبد القادر الأرنؤوط – طالب عواد، بيروت، دار ابن كثير، (د،ط،ت).

105. زينب عطية محمد، **أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم**، كشاف موضوعي، السنن الإلهية في الأفاق والأنفس والأمم، قطر، دار الوفاء، ط 1(1416هـ- 1995م).

106. سالم مختار، **الإبداعات الطبية لرسول الإنسانية**، بيروت، مؤسسة المعارف، (د،ط،ت).

107. السباعي مصطفى بن حسين، **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، لبنان، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 3(1402هـ- 1982م).

108. السديري توفيق بن عبد العزيز ،**الإسلام والدستور**، السعودية ، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط 1(1425هـ).

109. سعد عبد المجيد سليمان السبعاوي، **نفحات من القرآن والسنة في منبر الجمعة**، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط) (1971م).

110. سعدي أبوجيب، **القاموس الفقهي**، دمشق، دار الفكر، ط2(1408هـ، 1988م).

111. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تح:عبد الرحمن بن معلا اللويحق، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1420هـ- 2000م).

112. سعيد جودت، **اقرأ وربك الأكرم**، لبنان، بيروت، دار الفكر، ط2(1414هـ- 1993م).

113. سعيد علي القنيطي، **التخطيط الاستراتيجي لتحقيق الأمن والنهضة المعلوماتية بالمملكة العربية السعودية**، الرياض، جامعة الملك عبد العزيز، (د،ط)(2007م).

114. ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، **كتاب الألفاظ**، تح: فخر الدين قجاوة، لبنان، مكتبة لبنان، ط 1(1998م).

115. سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هوحق الله على العبيد**، تح: زهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 1(1423هـ - 2002م).

116. سند بن مطلق، **الخيل معقود في نواصيها الخير**، الرياض، مكتبة العبيكان، ط1(1424هـ- 2002م).

117. سهيل إدريس، **المنهل، قاموس فرنسي –عربي**، لبنان، بيروت، دار الآداب، ط31(2003م).

118. سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، المصدر: الشاملة الذهبية

119. سيد قطب، **في ظلال القرآن**، مصر، القاهرة، دار الشروق، ط 15(1408هـ- 1908م).

120. سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، القاهرة، دار الشروق، ط 3(1408هـ- 1988م).

121. السيد محمد حسن الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، العربي منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، شبكة الفكر القاهرة،دار الفكر، (د،ط،ت).

122. ابن سيده أبوالحسن علي بن إسماعيل المرسي، **المخصص**، تح: خليل إبراهيم جفال، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 1(1417هـ- 1996م).

123. الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير، **الموافقات**، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، مصر، الجيزة، دار ابن عفان، ط 1(1417هـ- 1997م).

124. شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)**، تح: عبد الحميد هنداوي، الرياض، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1(1417هـ- 1997م).

125. الشعراوي محمد متولي، **تفسير الشعراوي، خواطر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم**، القاهرة، طبعت بمطابع دار أخبار اليوم، 6 أكتوبر، (د،ط،ت).

126. شمس الدين، أبوالعون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، دمشق، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ط 2 (1402 هـ- 1982م).

127. الشوكاني محمد بن علي بن عبد الله اليمني، **فتح القدير**، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط 1(1414هـ).

128. الشوكاني محمد بن علي بن محمد عبد الله اليمني، **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، تح: أحمد عزو عناية، دمشق، دار الكتاب العربي، ط 1(1419هـ- 1999م).

129. الشيرازي أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف، **تكملة المجموع شرح المهذب**، لبنان، بيروت دار الكتب العلمية، (د،ط) (1971م).

130. صالح بن إبراهيم الضيع، **الدين علاج لجريمة النفس**، الرياض، دار علم الكتب، ط 2(1998م).

131. الصالح صبحي، **دراسات في فقه اللغة**، بيروت، دار العلم للملايين، ط 3(2009م).

132. الصالح صبحي، **مباحث في علوم القرآن**، دار العلم للملايين، ط 24 (2000م).

133. الصنعاني محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاوي أبو إبراهيم عز الدين، **التنوير شرح الجامع الصغير**، تح إسحاق محمد إبراهيم، الرياض، مكتبة السلام، ط 1(1432هـ- 2011م).

134. الصنعاني، محمد بن إسماعيل الحسني، الكحلاني أبوإبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير، **التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ**، تح: محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الرياض، مكتبة دار السلام، ط 1(1432 هـ - 2011م).

135. طارق الحاج، **علم الاقتصاد ونظرياته**، الأردن، دار صفاء، (د،ط)(1998م).

136. الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم ،الحافظ الطبراني، **المعجم الأوسط**، تح: محمد الطحان، الرياض، السعودية، مكتبة المعارف، ط 1(1405هـ 1985م).

137. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، **المعجم الكبير**، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، باب من مناقب عبد الله بن عباس وأخباره، [10611]، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط 1(1415هـ- 1994م).

138. الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير أبو جعفر، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تح: أحمد محمد شاكر، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1420هـ- 2000م).

139. الطحاوي أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري ،**شرح مشكل الآثار**، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 1(1415 هـ، 1494م).

140. طه جابر العلواني،(**أدب الاختلاف في الإسلام**)،كتاب الأمة،رقم 9،إصدار رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر، ط2(1406 هـ).

141. الطوفي سليمان بن عبد القوي بن الكريم الصرصري، أبو الربيع نجم الدين، **شرح مختصر الروضة**، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، باب تعريف الخبر، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1407هـ- 1987م).

142. الطويل عزت، **النفس في القرآن الكريم**، المكتب الجامعي الحديث، (1403هـ - 1982م).

143. الطيب برغوث، (**الأطروحة السننية الخلدونية ونظرية المدافعة والتجدد**)، برج الكيفان، الجزائر، دار النعمان، (د،ط)(2017م).

144. الطيب برغوث، **التكاملية المعرفية والحاجة إلى منظور سنني كوني متوازن**، الجزائر، دار النعمان، ط(2017م).

145. الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية**، الجزائر، المحمدية دار قرطبة، ط1 (1425هـ-2004م).

146. الطيب برغوث، **الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**، جدة، مركز الراية للتنمية الفكرية، ط 1(1427 هـ- 2006م).

147. الطيبي شرف الدين الحسين بن عبد الله، **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للمسمى بالكاشف عن حقائق السنن**، تح: عبد الحميد هنداوي، الرياض، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1(1417هـ-1997م).

148. ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تونس، دار سحنون، مصدر دار السلام، ط2(1427هـ- 2006م).

149. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، تونس، الدار التونسية للنشر، (د،ط)، (1984م).

150. العايد أحمد وآخرون، **المعجم العربي الأساس**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وتوزيع لاروس، (د،ط)(1989م).

151. عبد الباسط الجمل، **عالم الحياة بين القرآن والعلم**، القاهرة، عالم الكتب، ط 1(1421هـ-2001م).

152. عبد الحميد بن باديس، **مجالس التذكير من حديث البشير النذير**، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1(1403هـ- 1983م).

153. عبد الحميد دياب،أحمد قرقوز، **مع الطب في القرآن الكريم**، دمشق، مؤسسة علوم القرآن، ط 2(1402هـ- 1982م).

154. عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، **تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)**، تح: أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1416هـ - 1995م).

155. عبد الدائم الكحيل، **جدد حياتك بالصيام**، مكتبة نور، كتاب الكتروني.

156. عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ط 1(1984م).

157. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، **الأشباه والنظائر**، دار الكتب العلمية، ط 1(1411هـ - 1990م).

158. عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني الدمشقي،**الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم**، دمشق، دار القلم، ط1(1418هـ-1998م).

159. عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1(1420هـ -2000م).

160. عبد الرحمن عيسوي، **الإسلام والعلاج النفسي الحديث**، بيروت، دار النهضة العربية،(د،ط،ت).

161. عبد الرحمن يسري أحمد، **دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي**، باكستان، الدار الجامعية، (د،ط)(2001م).

162. أبوعبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، **الزهد والرقائق لابن المبارك**، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت).

163. أبوعبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، **المدخل**، دار الفكر،(د،ط)(1401هـ- 1981م).

164. أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر سعدي، **الوسائل المفيدة للحياة السعيدة**، المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ط 2(1409هـ).

165. أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي، **إيضاح شواهد الإيضاح**، تح: الدكتور محمد بن حمود الدعجاني، لبنان،بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1(1408 هـ -1987م).

166. عبد العزيز القوصي، **أسس الصحة النفسية**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 4(1471هـ-1952م).

167. عبد العزيز جاويش، **الإسلام دين الفطرة والحرية**، تقديم مجدي سعيد، القاهرة دار الكتاب المصري، مكتبة الاسكندرية، (دط)(2011م).

168. عبد العزيز مفتاح، **القرآن الكريم وعلم النفس**، بنغازي، منشورات جامعة قابوس، ط 1 (1997م).

169. عبد العظيم بن بدوي بن محمد، **الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز**، مصر، دار ابن رجب، ط3 (1412هـ، 2001م).

170. عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، **لطائف الإشارات**، تح: إبراهيم البسيوني، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3 (د،ت).

171. عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1(1413هـ، 1999م).

172. عبد الكريم يوسف الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، القاهرة، دار الفكر العربي، (د،ط،ت).

173. عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع،**أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة**،المملكة العربية السعودية، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1(1423هـ- 2003م).

174. عبد الله بن عبد العزيز بن حمادة الجبرين، **تسهيل العقيدة الإسلامية**، دار العصيمي، ط2 (دت).

175. عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبومحمد، جمال الدين، **السيرة النبوية لابن هشام**، تح: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، (د،ط،ت).

176. عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، **دستور العلماء**، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، بيروت،دار الكتب العلمية، ط 1 (1421هـ - 2000م).

177. عبده الشمالي، **دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وأثار رجالها**، بيروت، دار صادر، ط 1 (1979م).

178. عدنان شريف، **من علم الفلك القراني، الثوابت العلمية في القران الكريم**، بيروت، دار العلم للملايين، ط1(2001م).

179. ابن العربي، **المسالك في شرح موطأ مالك**، دار الغرب الإسلامي، ط1(2007م).

180. ابن العربي، محمد بن عبد الله القاضي أبوبكر المعافري الاشبيلي المالكي، **أحكام القرآن**، تعليق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 3(1424 هـ - 2003م)

181. أبوبكر بن العربي محمد بن عبد الله المعافري المالكي، **القبس في شرح موطأ مالك بن أنس**، تح: محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، ط 1 (1992م).

182. العسكري أبو هلال ، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران، **الفروق اللغوية**،تح: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة، (د،ط،ت).

183. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي، الملقب بسلطان العلماء، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، علق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، ، القاهرة، دار الكتب العلمية، ط(1414 هـ - 1991م).

184. ابن عطية، محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1(1422هـ).

185. العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني الطالبي، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، بيروت، المكتبة العصرية، ط1(1423هـ).

186. علي بن أبي طالب الهاشمي القُرشي،**ديوان على ابن أبي طالب**،تح: عبد الرحمان المصطاوي،بيروت،دار المعرفة، ط3 (1426هـ).

187. علي بن محمد أبوالحسن نور الدين الملا الهروي القاري، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، لبنان، دار الفكر، ط 1(1422هـ - 2002م).

188. علي بن نايف الشحود، **المهذب في ثمرات الإيمان**، ماليزيا، بهائج دار المعمور، ط 1(1430هـ-2009م).

189. علي شريعتي، **معرفة الإسلام**، لبنان، بيروت، دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م، ط 2(1428هـ-2007م).

190. علي علي صبح، **التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف**، مصر، المكتبة الأزهرية للتراث، ط 1(1423 هـ- 2002م).

191. علي محمد زكى،طارق،محمدندا،إيمان زكى،**السباحة تكنيك-تعليم-تدريب-إنقاذ**،القاهرة،دار الفكرالعربي، (1423هـ-2002م).

192. علي محمد محمد الصّلابيّ، **السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث**، لبنان، بيروت، دار المعرفة، ط 7(1429هـ- 2008م).

193. عماد صلاح عبد الرزاق الشيخ داود، **الفساد والإصلاح الإداري**،دمشق، من منشورات إتحاد الكتاب العرب، (2003م).

194. عماد عبد الكريم خصاونة، خضر إبراهيم قزق، **السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل**، السعودية، جامعة آل البيت، (د،ط)(2008م).

195. عمر أحمد عمر، **السنن الإلهية في النفس البشرية**،سوريا، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر،ط1 (1412هـ- 1992م).

196. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، **التمهيد لما في الموطإ من المعاني والأسانيد**، تح: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، المغرب، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، (د،ط)(1387هـ).

197. عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، **ديوان عنترة بن شداد**، (د،ط،ت).

198. العينى بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بيروت، دار إحياء التراث العربي،(د،ط،ت).

199. غازي عناية، **حقائق العلم في القرآن والسنة**، لبنان، بيروت، دار الكتاب العلمية،(دط)(1417 هـ – 1997م).

200. غاستون مير، أفلاطون،**تعريب بشارة صارجي**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ط 1(1970م).

201. الغمراوي، محمد أحمد، **سنن الله الكونية**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ط 1(1355هـ- 1936م).

202. ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين، **معجم مقاييس اللغة**، تح: عبد السلام محمد هارون،بيروت، دار الفكر، (دط)(1399هـ- 1979م).

203. أبو فارس محمد عبد القادر، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، الأردن، دار الفرقان، ط 1(1402هـ).

204. فايز الدويري، **الأمن الوطني**، عمان، دار وائل ، (د،ط)(2013).

205. فتحي حسن ملكاوي، **بحوث المؤتمر التربوي، نحو بناء نظرية تربوية إسلامية معاصرة**، عمان، الشركة الجديدة، (د،ط،ت).

206. أبو الفراء إسماعيل حقي بن مصطفى المولى، **روح البيان**، بيروت، لبنان، دار الفكر، (د،ط،ت).

207. الفِرْيابِي أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المِسْتَفاض ،**كتاب القدر** ،تح:عبد الله بن حمد المنصور، السعودية ، أضواء السلف ، ط1 (1418هـ - 1997م).

208. فضل بن عبد الله مراد، **المقدمة في فقه العصر**، صنعاء، الجيل الجديد، ط 2(1437 هـ - 2016م).

209. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب ،**القاموس المحيط**، تح: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 8(1426هـ- 2005م).

210. فيكتور إيميل فرانكل، **إرادة المعنى أسس وتطبيقات العلاج بالمعنى**، تر: إيمان فوزي تربية عين شمس، القاهرة، دار زهراء الشرق.

211. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، بيروت، المكتبة العلمية، (د، ط، ت).

212. قاروط محمد محمد، **الإنسان والنفس في ضوء الكتاب والحديث**، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1423هـ - 2002م).

213. القاضي عبد الجبار، بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي أبو الحسين، **تنزيه القرآن عن المطاعن**، بيروت، دار النهضة، (د،ط)(1426هـ-2005م).

214. ابن قدامة المقدسي نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن ،**مختصر منهاج القاصدين**، قدم له الأستاذ محمد أحمد دهمان، دمشق، مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ، (1398 هـ - 1978 م).

215. ابن قدامة المقدسي أبومحمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد ،**المغني**، القاهرة، مكتبة القاهرة، (د،ط)(1388هـ - 1968م).

216. القرطبي ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي الظاهري، **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 2(1399هـ - 1979م).

217. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي البردوني، **الجامع لأحكام القرآن**، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، مصر، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط 2(1384هـ- 1964م).

218. القرطبي، **التذكرة في أحوال وأمور الآخرة**، تح:الصادق بن محمد بن إبراهيم، الرياض، مكتبة دار المنهاج، ط1(1425هـ).

219. القسطلاني شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ط 7(1323 هـ).

220. القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، **لطائف الإشارات**، تح: إبراهيم البسيوني، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3 (د.ت).

221. القِنَّوجي أبوالطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري ،**فتحُ البيان في مقاصد القرآن**، بَيروت، المكتبة العصريَّة،(د،ط)(1412 هـ - 1992م).

222. ابن قيم الجوزية، **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة**، بيروت، دار الكتب العلمية.

223. ابن قيم الجوزية، **الجواب القاضي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء**، المغرب، دار المعرفة، ط 1(1418هـ- 1997م).

224. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تح: محمد عبد السلام إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(د،ت).

225. ابن قيم الجوزية، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت).

226. ابن قيم الجوزية، **أحكام أهل الذمة**، تح: يوسف بن أحمد البكري - شاكر بن توفيق العاروري، الدمام، رمادى للنشر، ط1(1418هـ - 1997م).

227. ابن قيم الجوزية، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تح: محمد حامد الفقي، الرياض، المملكة العربية السعودية، مكتبة المعارف.

228. ابن قيم الجوزية، **التبيان في أقسام القرآن**، تح: محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، (د،ط،ت).

229. ابن قيم الجوزية، **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، تح: سيد إبراهيم، القاهرة، دار الحديث، ط 3 (1999م).

230. ابن قيم الجوزية،**بدائع الفوائد**، تح: علي بن محمد العمران، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ط (1425هـ).

231. ابن قيم الجوزية، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، مصر، دار السلفية، ط2(1394هـ).

232. ابن القيّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين الجوزية، **الطب النبوي**، بيروت، دار الهلال، (د،ط،ت).

233. ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تح: سامي بن محمد سلامة، السعودية، الرياض، دار طيبة، ط 2 (1420هـ- 1999م).

234. ابن كثير، **البداية والنهاية**، دار الفكر، (د،ط) (1407هـ- 1986م).

235. الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء الحنفي، **الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تح: عدنان درويش محمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، (د،ط،ت).

236. كونستانس جيورجيو،**نظرة جديدة في سيرة رسول الله**،تعريب محمد التونجي،بيروت ، الدار العربيةللموسوعات، ط1(1982م).

237. الماتريدي محمد بن محمود أبو منصور، **التوحيد**، الإسكندرية، دار الجامعات المصرية، (د،ط،ت).

238. ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد، سنن بن ماجه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (د، ط، ت)، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية

239. مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني، **موطأ الإمام مالك**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د،ط)(1406هـ- 1985م).

240. مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، **موطأ الإمام مالك**، تح: بشار عواد معروف، محمود خليل، مؤسسة الرسالة،(د،ط،ت).

241. مالك بن نبي، **شروط النهضة**، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط 4(1407هـ- 1987م).

242. مأمون حموش، **التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون**، رابطة النساخ مركز النخب العلمية، ط 1(1428هـ - 2007م).

243. المباركفوري، صفي الرحمن، **الرحيق المختوم**، بيروت، دار هلال، ط1 (دت).

244. المباركفوري أبوالعلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم ،**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت).

245. المتقي الهنديعلاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي ،**كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تح: بكري حياتي، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط 5(1401هـ- 1981م).

246. مجاهد بن جبر، التابعي المكي القرشي، **تفسير مجاهد**، تح: محمد عبد السلام أبوالنيل، مصر، دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط1(1440هـ- 1989م).

247. مجد الدين أبوالسعدات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، بيروت، المكتبة العلمية، (د،ط)(1399هـ، 1979م).

248. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي،**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تح: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، (د،ط)(1412هـ - 1992م).

249. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**،دار الدعوة، (د،ط،ت).

250. مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط1(1393هـ-1973م)-(1414هـ-1993م).

251. أبوالمحاسن جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي، **الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي**، جدة، دار المجتمع، ط 1(1411 هـ - 1991م).

252. محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، **الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، مكة المكرمة، دار المنهاج النجاة، ط 1(1430هـ - 2009م).

253. محمد الأمين بن عبد الله الارميالهرري،**تفسير حدائق الروح والريحان** ، بيروت، دارطوق النجاة ، ط1(1421هـ-2001م).

254. محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**،لبنان،بيروت،دار الفكر، (د،ط) (1415هـ-1995م).

255. محمد السيد الجليند، **الوحي والإنسان – قراءة معرفية**، القاهرة، دار قباء، (د،ط،ت).

256. أبومحمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي، **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، دار بلنسية، ط 2(1423هـ - 2002م).

257. محمد الغزالي، **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، دار الشروق، (د،ط،ت).

258. محمد الكتاني، **من المنظور الإسلامي**، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط 1(1410هـ- 1989م).

259. محمد المكي الصالحي، **التيسير في أحاديث التفسير**، لبنان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1(1405هـ- 1935م)، 2/ 167.

260. محمد باقر الصدر، **المدرسة القرآنية**، لبنان، بيروت، دار التعارف، ط 2(1401هـ- 1991م).

261. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط27(1415هـ-1994م) .

262. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 3(1416هـ- 1996م).

263. محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، **تهذيب اللغة**، تح: محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1(2001م)

264. محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، **زهرة التفاسير**، دار الفكر،(د،ط،ت).

265. محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، **آداب الصحبة**، تح: مجدي فتحي السيد، مصر، دار الصحابة للتراث، ط 1(1410 – 1990م).

266. محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي، أبوحاتم، **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت).

267. محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي،**الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**،ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1(1408هـ-1988م).

268. محمد بن صالح بن محمد العثيمين، **شرح العقيدة الواسطية**، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي، ط 6(1421هـ).

269. محمد بن صالح بن محمد العثيمين، **مجموع فتاوي ورسائل الشيخ**، جمع وترتيب فهد بن ناصر، دار الثريا، (د،ط)، (1413هـ).

270. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، **فتح القدير**، بيروت، دار ابن كثير، ط 1(1414هـ).

271. محمد بن قاسم بن يعقوب الأماسي الحنفي، محيي الدين، ابن الخطيب قاسم، **روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار**، حلب، دار القلم العربي، ط 1(1423 هـ).

272. محمد بن يوسف الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد**، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1(1414 هـ - 1993م).

273. محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، **محاسن التأويل**، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1418هـ).

274. محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، الرباط ، المطبعة الوطنية ، ط2(1988م).

275. محمد حسين علي، **الصوت اللغوي في القرآن**، بيروت، دار المؤرخ العربي، ط 1(1420هـ- 2000م).

276. محمد رابت النابلسي، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، سوريا، دار المكتبي، ط 2(1426هـ- 2005م).

277. محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني،**تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د،ط)(1990م).

278. محمد رواس قلعجي، **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس، ط2(1408هـ - 1988م).

279. محمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، القاهرة، دار نهضة مصر، ط 1(1997- 1998).

280. محمد عبد القادر الفقي، **البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)(2006م).

281. محمد عبد القادر بن محمد المبارك الحسني، **العقيدة في القرآن الكريم**، لبنان، بيروت، دار الفكر، (د،ط،ت).

282. محمد عبده **الإسلام بين العلم والمدينة**، سوريا، دمشق، دار الصدى للثقافة، ط 1(2002م).

283. محمد عثمان شبير، **المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي**، عمان، دار النفائس، ط6(1427هـ- 200م).

284. محمد علي البار، **الأمراض الجنسية أسبابها- وعلاجها**، جدة، دار المنايرة، ط 2(1406هـ- 1986م).

285. محمد عمارة، **معالم المنهج الإسلامي**مصر، القاهرة، دار الشروق، ، ط 2(2009)، ص: 40.

286. محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**،القاهرة ،دار الكتب المصرية ، (دط)(1364 هـ).

287. محمد نزار الدقر، **العسل فيه شفاء للناس**، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 3(1401هـ- 1981م).

288. محمد هيشور، سنن **القرآن في بناء الحضارات وسقوطها**، الولايات المتحدة الأمريكية، هرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1(1997م).

289. محمود شريف بسيوني، **الوثائق الدولية المعنية بحقوق الانسان**، القاهرة، دار الشروق، ط1(2003م).

290. محمود محمد خطاب السبكي، **المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود**، تح: أمين محمود محمد خطاب، باب فوائد الاكتحال، مصر، مطبعة الاستقامة، ط 1 (1351- 1353 هـ).

291. المراغي، أحمد بن مصطفى، **تفسير المراغي**، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 1(1365هـ- 1946م).

292. المرْوزي أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، **الزهد والرقائق لابن المبارك**، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط،ت).

293. مسلم أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، لبنان، بيروت، دار ابن حزم، ط 1(1416هـ- 1995م).

294. مصطفى بن عبد القادر الرفاعي، **شرح كتاب حرب المستضعفين**، المملكة العربية السعودية، مؤسسة التحايا للإعلام، قسم التفريغ، (1436هـ- 2015م).

295. مصطفى صادق الرافعي، **كتاب المساكين**، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط2(د،ت).

296. مصطفى فهمي، **الدوافع النفسية**، القاهرة، دار مصر،ط3(1955م).

297. المظهري الحسين بن محمود بن الحسن مظهر الدين الزيداني الكوفي الضرير الشيرازي الحنفي ،**المفاتيح في شرح المصابيح**، تح: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، وزارة الأوقاف الكويتية، دار النوادر، ط 1(1433هـ- 2012م).

298. مقاتل بن سليمان أبوالحسن بن بشير الأزدي البلخي، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تح: عبد الله محمود شحاته، بيروت، دار إحياء التراث، ط 1(1423 هـ).

299. الملا الهروي علي بن سلطان محمد، أبوالحسن نور الدين القاري، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، لبنان، بيروت، دار الفكر، ط 1(1422هـ - 2002م) .

300. ابن الملقن سراج الدين أبوحفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، سوريا، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، ط 1(1429 هـ - 2008 م).

301. المناوي زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي، **التيسير بشرح الجامع الصغير**، الرياض، مكتبة الإمام الشافعي، ط 3(1408هـ- 1988م).

302. المناوي زين الدين محمد، **التوقيف على مهمات التعاريف**، القاهرة، عالم الكتب، ط 1(1410هـ- 1990م).

303. المناوي،**الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي**، تح: أحمد مجتبى، الرياض، دار العاصمة،(د،ط،ت).

304. المناوي، زين الدين محمد المدعوبعبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي ثم القاهري، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، مصر، المكتبة التجارية الكبرى،ط 1(1356هـ).

305. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الإفريقي، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط 3(1414هـ).

306. منقور عبد الجليل، **علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي**، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دط)(2001م).

307. مهدي الموسوي،**أسرار الحياة** ، الإمارات العربية، ملهمون، ط2 (2016م).

308. الميداني، عبد الرحمن بن حسن حبنكة، **الحضارة الإسلامية وأسسها ووسائلها**، دمشق، دار القلم، ط1(1998م).

309. ناهد عبد العال الخراشي، **أثر القرآن في الأمن النفسي**، دار الكتاب الحديث، ط 1(1423هـ-2003م).

310. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، **السنن الكبرى**، تح: عبد الغفار سليمان البنداري، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1 (1411هـ- 1991م).

311. النصيبي، أبوسالمحمد بن طلحة الوزير، **العقد الفريد للملك السعيد**، القاهرة، المكتبة الوهبية، ط1(1283هـ).

312. أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران الأصفهاني، **كتاب الطب النبوي**، تح: مصطفى خضر دونمز التركي، دار ابن حزم، ط 1(2006م).

313. أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتب العلمية، (دط)، (1409هـ).

314. النفراوي أحمد بن غانم بن سالم ابن مهنا، شهاب الدين الأزهري المالكي، **الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، لبنان، بيروت، دار الفكر، (د،ط)(1415هـ - 1995م).

315. النووي أبوزكريا محيي الدين يحيى بن شرف، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 2(1392هـ).

316. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، تح: الشيخعادل بن أحمد عبد الموجود، ود. عبد الرحمان عويس، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1(1415هـ- 1994م).

317. ابن الوزير إبراهيم علي، (**على مشارف القرن الخامس عشر الهجري**)، (دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر)، مصر، القاهرة، دار الشروق، ط 4(1409هـ- 1989م).

318. وفاء لطفي، "**الثورة والربيع العربي**"، القاهرة، الجامعة الإسلامية، ط 1(2011م).

319. وهبة الزحيلي،**الفقه الإسلامي وأدلته**، دمشق، دار الفكر، ط 4(د،ت).

320. وهبة الزحيلي، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دمشق، دار الفكر، ط3(2012).

321. وهبة بن مصطفى الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط 2(1418 هـ).

322. يوسف إبراهيم، **السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي**، جامعة قطر، (د،م،ن).

323. يوسف القرضاوي، **الإيمان والحياة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 4(1399هـ- 1979م).

324. يوسف القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2 (1404هـ -1983م).

325. يوسف القرضاوي، **ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده**، لبنان، بيروت ، مؤسسة الرسالة، (د،ط)(2001م).

- الرسائل الأكاديمية والمجلات العلمية:

1. أحمد محمد كنعان، **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**، سلسلة كتاب الأمة (26)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (1411هـ).

2. الاقطوغاني يونس وهبي ياؤوز، (**حركة التجديد في تقنين الفقه الإسلامي**)، (مجلة الأحكام العدلية وقوانين ملاق الإسلامية كمثال تجريبي، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية،1971م).

3. الاقطوغاني يونس وهبي ياؤوز، (**حركة التجديد في تقنين الفقه الإسلامي**)، (مجلة الأحكام العدلية وقوانين ملاق الإسلامية كمثال تجريبي، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية،1971م).

4. بوعود أسماء، (**برنامج علاجي معرفي سلوكي ديني مقترح للتكفل باضطراب القلق العام لدى طلبة الجامعة**)، (مجلة تنمية الموارد البشرية، العدد 10، جامعة سطيف 2).

5. بوعون فوزية، (**مستوى التدين وعلاقته بالسلوك الإجرامي**)، (مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم النفس، تخصص علم النفس العيادي، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، شعبة علم النفس).

6. حميد الصغير، (**المقاصد الشرعية لحماية المستهلك في الفقه الإسلامي**)(مقال منشور، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الأول، المملكة المغربية، وجدة.

7. الخالدي ياسر علي عبد ، الطائي كاظم صافي حسين ، (**الجرس الصوتي دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن**)، (كلية الآداب، جامعة القادسية، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 18، كانون أول 2014م).

8. ديانا صاحب محمد صاحب، (**السنن الإلهية في سورتي الإسراء وفاطر**)(رسالة الماجستير في أصول الدين، فلسطين، غزة ،جامعة الخليل، 1439هـ- 2018م)، ص: 98.

9. رانيا محمد عزيز نظمي، (**النفس وحقيقتها في القرآن الكريم**)، (مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، جامعة المنوفية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية).

10. ساحلي مبروك، **مناهج وتقنيات الدراسات المستقبلية وتطبيقاتها في التخطيط**، جامعة أم البواقي، الجزائر، (المجلةالجزائريةللأمنوالتنمية)، (العدد 7، جويلية 2014م).

11. سامي شهيد منكور، (**الأخلاق عند الرواقية**)، (مجلة الكوفة، العراق، العدد: مح 3، ع 7، 2010م).

12. سعد بن عبد الرحمن ندا، (**مفهوم الأسماء والصفات**)، (مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 58، (1436هـ ،2015م)).

13. السندي عبد القادر بن حبيب الله، (**حجية السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي**)، (السنة الثامنة، العدد الثاني، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ط 1(1395هـ- 1975م)).

14. صالح بن عبيد بن صالح العبيد، (**أسباب الحياة الطيبة من خلال القرآن الكريم**)، (أطروحة مقدمة لنيل درجةالماجستير، المملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية، 1433هـ- 1434هـ).

15. الطيب برغوث **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة**، (أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، قسنطينة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، 1430هـ- 2009م).

16. الطيب برغوث، (**الفعالية الحضارية السننية**)،(سلسلة آفاق في الوعي السنني (5)، الجزائر، دار قرطبة، ط 1(1425هـ- 2004م)).

17. عبد الحليم عويس، **الإعجاز التاريخي والأدبي والتربوي (في سورة يوسف)**، (بحث مقدم للؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة).

18. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، (**دراسات في الباقيات الصالحات**)، (المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، العدد 33، ط 33(1421هـ- 2000م))

19. عبد الله بن عبد العزيز المصلح، وعبد الجواد الصاوي، **الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**؛ مجلة الجلد Dermatology Times، في عددها الصادر في شهر آب (أغسطس) 2000.

20. عبد الله علي عبد الرحمن أبو السعود، (**الإعجاز النفسي في القرآن الكريم (دراسة تأصيلية)**، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2005م).

21. عمر حيدوسي، (**التدافع وسننه في القرآن الكريم**)، (أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير، باتنة، جامعة الحاج لخضر،كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية، 1423هـ-2002م)

22. عمر حيدوسي، (**السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث**)، (أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، باتنة، جامعة الحاج لخضر، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية و العلوم الإسلامية، 1433هـ، 2012م).

23. فريدة زعبوب، (**وسائل القرآن الكريم في تثبيت العقيدة الإسلامية**)،(مجلة الإحياء، العدد21،كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة1) ،2018م.

24. الكردي محمود فهمي، (**الاستقرار والتغيير في فكر ابن خلدون**)، (الإسهامات المعرفية والمنهجية لابن خلدون في إطار الفكر الاجتماعي، مؤتمر عبد الرحمن بن خلدون، قراءة معرفية ومنهجية، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، جامعة عين شمس).

25. كوريم سعاد، (**تفسير القرآن بالقرآندراسة في المفهوم والمنهج**)، (مجلة إسلامية المعرفة بين 13ع، 1428هـ- 2007م).

26. محمد الذوادي، (**حركية التغيير الاجتماعي في فكر ابن خلدون وعلماء الاجتماع الغربيين الأوائل**)، (مؤتمر عبد الرحمن بن خلدون، قراءة معرفية ومنهجية).

27. محمد المهدي محمود علي، (**حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في العصر الحديث**)، (المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، العدد الأول، ط5 (1392هـ- 1972م)).

28. محمد علي الأحمد وآخرون، (**إسلامية المعرفة**)، (مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد 51).

29. محمد منصوري، (**وسائل تحقيق الأمن الاقتصادي في الإسلام**)، (مجلة الإحياء، كلية الحضارة والعلوم الإنسانية، جامعة وهران، العدد 20).

30. محمود محمد ربيع عمران أبو شخيدم، (**الإعجاز العلمي في عالم النبات في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**-دراسة موضوعية-)، (رسالة ماجستير،ن تخصص أصول الدين، كلية الدراسات العليا ، جامعة الخليل،1437هـ- 2016م).

31. محمود محمد شاكر، ويلك آمن.. ، (**جمهرة مقالات الاستاذ محمود شاكر**)، (القاهرة، مكتبة الخانجي، مجلة الرسالة، العدد 365، ط3(2003م)، 1940/07/1م).

32. **موسوعة علم النفس والتربية**، لبنان، بيروت، (د،ط) (2000-2001)،editor creps INT.

33. ميساء محمد الراوي، (**العنب إعجاز بين غذاء وشفاء**)، (من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الطب وعلوم الحياة).

34. هبة رؤوف عزت، (**المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية**)، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (18)، قضايا الفكر الإسلامي، 1416هـ- 1995م).

35. اليعقوبي مصطفى ،(**الدراسة المعجمية للمصطلح**)، (مجلة دراسات مصطلحية فاس، معهد الدراسات المصطلحية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 5، 2006م).

36. يوسف سعدون، (**علم الاجتماع ودراسة التغير التنظيمي في المؤسسات الصناعية**)، (مخبر التنمية والتحولات الكبرى في المجتمع الجزائري، جامعة باجي مختار عنابة).

37. يونسملال، (**السنن الإلهية في الكون المادي والحياة البشرية**)، (دراسة قرآنية تأصيلية في المفهوم والموضوع، مجلة الحقيقة للعلوم الإنسانية و الاجتماعية جامعة أدرار، العدد 11).

- مواقع الأنترنيت:

1. إبراهيم بن محمد الحقيل، **سنن الله تعالى في خلقه** (النعم والنقم)، مقال منشور على الانترنت، يوم https://albayan.co.uk/print.aspx?id=5611.2019/07/25

2. إبراهيم بن محمد الحقيل،**من سنن الله تعالى في خلقه** (5) سنة الزيادة، يوم التصفح 2019/01/19م https://khutabaa.com/khutabaa-section/corncr-speeches/180777

3. رمضان مصري هلال، (**التمر غذاء ودواء وإعجاز**)، (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، يوم التصفح: 2019/03/19. quran-m.com.quran/article/2535.

4. كريمي، **الهيئة العالمية للكتاب والسنة، شجر الرمان بين العلم والقرآن**، يوم التصفح 2019/01/20م https://www.eajaz.org/index.php/scientific-miracles/Medicine-and-life-sciences/11243-Pomegramate-trees-between-scienceandthequran.

محمد جابري، **السنن الالهية ملتقى اهل التفسير**، مقال منشور على النات يوم التصفح 15 -12- 20019م. https://vb.tafsir.net/tafsir23143/#.XfW5EBvjLI

6. مروة عصمت، **فوائد ركوب الخيل...فوائد صحية ونفسية**،

يوم التصفح 27-1-2019.https://www.dailymedicalinfo.com/view-article

7. محمد عمارة، **سنة التدرج في الإصلاح**، al-omah.com، د- محمد عمارة يكتب سنة التدرج في الإصلاح، تاريخ التصفح 2020/03/20م. الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والإستراتيجية، www.politics-dz.com، تاريخ التصفح 2019/01/15م.

Yves Clot: Les histoires de la psychologie du travail, Approche pluridisciplinaire, 2 éd Octares, 1999, France, P 159.

8- محمد كريمي، **شجر الرمان بين العلم والقرآن**، الهيئة العالمية للكتاب والسنة، https://www.eajaz.org/index. تاريخ التصفح: 2019/01/20م.

9. يوسف القرضاوي، **مقاصد الشريعة الإسلامية المتعلقة بالمال**، المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، الدورة الثامنة عشرة للمجلس، (1429هـ- 2008م)، يوم التصفح 2019/09/13م

https://www.e-cfr.org/blog/2014/01/31/مقاصد-الشريعة-المتعلقة-بالمال/

فهرس الموضوعات

مقدمة

1- إشكالية البحث ..... ب

2- أسباب اختيار الموضوع ..... ج

3- أهمية الموضوع ..... د

4- أهداف البحث ..... د

5- الدراسات السابقة ..... ه

6- منهج البحث ..... و

7- منهجية كتابة البحث ..... ز

8- صعوبات البحث ..... ح

9- خطة البحث ..... ح

الفصل الأول: السنن الإلهية في القرآن الكريم

المبحث الأول: مفهوم السنن الإلهية **2**

تمهيد حول أهمية السنن **3**

المطلب الأول:مفهوم السنن في اللغة 5

الفرع الأول: الدلالةالصوتية والمعجمية والصرفية لمفهوم السنن 5

الفرع الثاني: الدلالة الدينية الشرعية والدلالة الطبيعية 12

الفرع الثالث: الدلالة الاجتماعية والدلالة الجمالية 13

المطلب الثاني: السنن في الاصطلاح **15**

الفرع الأول: السنن في العلوم الإسلامية 15

الفرع الثاني: السنة في العلوم الإنسانية 42

المبحث الثاني: خصائصالسنن الإلهية **56**

المطلب الأول: فطرية السنن **57**

الفرع الأول: معنى فطرية السنن 57

الفرع الثاني: اتساع السنن 62

الفرع الثالث: مرونة السنن **68**

المطلب الثاني: اختيارية السنن 74
الفرع الأول: معنى الاختيارية 74
الفرع الثاني: فاعلية السنن 76
الفرع الثالث: آثار فطرية واختيارية السنن 80
المبحث الثالث:أنواع السنن الإلهية 85
المطلب الأول:سنن الآفاق..... 86
الفرع الأول:سنن آفاق السماوات..... 88
الفرع الثاني: سنن آفاق الأرض 94
المطلب الثاني:سنن الأنفس..... 109
الفرع الأول: سنن النفس البشرية 109
الفرع الثاني: سنن الاستقرار النفسي..... 111
المطلب الثالث:سنن الهداية 122
الفرع الأول:سنن الأمر والنهي..... 123
الفرع الثاني:سنةالله في بعث الأنبياء والرسل 129
الفرع الثالث:سنة الله في الجزاء والعقاب **132**
ملخص الفصل..... 144
الفصل الثاني: الحياة الطيبة في القرآن الكريم –مفهومها أسبابها شروطها–
المبحث الأول: مفهوم الحياة الطيبة 146
المطلب الأول: مفهوم الحياة..... 147
الفرع الأول: تعريف الحياة لغة واصطلاحا..... 147
الفرع الثاني: الحياة في القرآن الكريم 149
المطلب الثاني: تعريف الحياة الطيبة كمركب 152
الفرع الأول: تعريف الطيبة لغة واصطلاحا 152
المبحث الثاني: السنن الأسباب للحياة الطيبة 156
المطلب الأول: السنن الأسباب الفردية للحياة الطيبة..... 157
الفرع الأول: السنن الأسباب الفطرية للحياة الطيبة 158
الفرع الثاني: السنن الأسباب الكسبية للحياة الطيبة..... 188

المطلب الثاني: السنن الأسباب الجماعية للحياة الطيبة 216
الفرع الأول: سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... 217
الفرع الثاني: سنة القيادة السياسية الرشيدة 228
المبحث الثالث: السنن الشروط للحياة الطيبة..... 257
المطلب الأول: سنن المعية الربانية..... 258
الفرع الأول: مفهوم المعية..... 258
الفرع الثاني: سنة الإخلاص 259
الفرع الثالث: سنة الدعاء 263
المطلب الثاني: سنة الولاية 270
الفرع الأول: ولاية العبد لله 270
الفرع الثاني: سنة القناعة 274
الفصل الثالث: السنن المظاهر والآثار للحياة الطيبة في القرآن الكريم وتمثلاتها في المجتمع الرباني – جيل التنزيل –
المبحث الأول: المظاهر السننية واللاسننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم..... 278
المطلب الأول: المظاهر السننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم..... 279
الفرع الأول: المظاهر السننية للحياة على مستوى البدن 280
الفرع الثاني: : المظاهر السننية للوقاية..... 290
الفرع الثالث: : المظاهر السننية للعلاج 301
المطلب الثاني: المظاهر اللاسننية للحياة الطيبة في القرآن الكريم 317
الفرع الأول: اتخاذ المركب للزينة دون الركوب..... 318
الفرع الثاني: التوسع في الإنفاق إسرافاً إلى حد الترف..... 326
المبحث الثاني: الآثار السننية للحياة الطيبة..... 238
المطلب الأول: الآثار السننية الفردية للحياة الطيبة..... 330
الفرع الأول: القبول بين الناس 330
الفرع الثاني: القيام بالعبادات والطاعات 333
الفرع الثالث: كرم الضيافة والراحة 335
المطلب الثاني: الآثار السننية الجماعية للحياة الطيبة..... 339

الفرع الأول: آثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 339
الفرع الثاني: أثار القيادة السياسية الرشيدة 342
المبحث الثالث: الحياة الطيبة وتمثلاتها في الجيل الرباني – على عصر التنزيل–..... 347
المطلب الأول: تمثلاتها العقدية – سنن التغيير والحياة الطيبة في المجتمع الرباني–..... 349
الفرع الأول: سنة الله في التغيير..... 350
الفرع الثاني: منهج النبي ﷺ في التغيير 352
المطلب الثاني: تمثلاتها التشريعية والاقتصادية – سنن التدرج والحياة الطيبة في المجتمع الرباني–358
الفرع الأول: سنة التدرج في تحريم الخمر 358
الفرع الثاني: سنة التدرج في إباحة المعاملات المالية الجائزة 369
الفرع الثالث: سنة التدرج في تحريم الربا..... 363
المطلب الثالث: تمثلاتها الأخلاقية الاجتماعية – سنن التأخي والحياة الطيبة في المجتمع الرباني–369
الفرع الأول: سنن الأخوة الإسلامية والحياة الطيبة..... 370
الفرع الثاني: منهج النبي ﷺ في المؤاخاة بين المسلمين 371
الخاتمة 382
فهرس الآيات القرآنية 386
فهرس الأحاديث 405
فهرس المصادر والمراجع.....412
فهرس الموضوعات..... 439
ملخص الرسالة

ملخص الرسالة

الملخص باللغة العربية

الملخص باللغة الإنجليزية

الملخص باللغة الفرنسية

الملخص باللغة العربية

السنن الإلهية للحياة الطيبة في القرآن الكريم

حاولت هذه الدراسة الجمع بين موضوعين أساسيين من موضوعات القرآن الكريم، هما المتمثلان في ثنائية السنن الإلهية والحياة الطيبة، وذلك تحت – عنوان السنن الإلهية للحياة الطيبة في القرآن الكريم–، وهذا بقصد إماطة الحجب عن الحياة المرغوبة والمنشودة من كل كادح وحارث على وجه المعمورة. وقد تعرضت في سبيل هذه الغاية لتوضيح مفهوم السنن الإلهية، وبيان أهم خصائصها، مأخوذا ذلك من القرآن الكريم نصا أو تلميحا، مظهرة الجانب الإعجازي السنني فيها. ثم دلفت إلى بيان العلائق الوطيدة بين السنن الإلهية، والحياة الطيبة، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات.

وعنيت ببيان المظاهر السننية واللا سننية للحياة الطيبة، وتجلياتها في حياة الناس، وصولا إلى آثارها السننية على الفرد والمجتمع، للخلوص إلى عدم استحالة تحققها في واقع الناس لتمثلاتها في المجتمع المسلم الجيل الرباني على عصر التنزيل، بغية الوصول إلى تحققها في عصرنا هذا عصر التشرذم والفرقة المؤدية إلى التخلف والأفول.

وفي خاتمة جمعت النتائج والخلاصات، ختمت الباحثة ما توصلت إليه في أن فقه السنن الإلهية وتفعليها محقق للحياة الطيبة في الدنيا و الآخرة.

Abstract :

The Divine rules of well-being in the Holy Qur'an

This study attempts to combine two main topics from of the Holy Qur'an, which are represented in the dualism of divine regulations and well-being, under the title of: the Divine Sunnah of well-being in the Holy Qur'an -

The purpose of this study is to unveil desired and aspired life by every human being on earth.

Accordingly, I had to clarify the concept of the divine rules and to explain their most important characteristics by relying on the Holy Qur'an "text or a hint", showing the Sunni miraculous side in it. Then I proceeded to the demonstration of the solid relationships between divine regulations and well-being, be it at the level of individuals or groups.

I focused on reflecting the Sunni and non-Sunni aspects of well-being and its manifestations on the lives of human beings up to its Sunni effects on the individual and society to conclude that it is possible to achieve this through its representations in Muslim society, "the divine generation over the era of revelation" in order to achieve its realization in our era of fragmentation and division which leads only to underdevelopment and extinction.

In a conclusion that gathered results and outlines, the researcher concluded what she reached, that the doctrine of divine Sunnah and its activation can guarantee the well- being in this world and the hereafter.

Résumé:

Les règlements divins pour une vie digne dans le Saint Coran

La présente étude a tenté de combiner deux sujets principaux dans le Saint Coran, il s'agit de la dualité des règlements divins et la vie digne (décente) sous le titre de:" Les règlements divins pour une vie digne dans le Saint Coran".

Ceci pour dévoiler la vie désirée et aspirée par chaque être humain qui cherche et œuvre sur cette terre.

pour cela j'ai essayé de clarifier le sens des règlements divins, d'expliquer leurs caractéristiques les plus importantes en m'appuyant sur les textes ou les indices se trouvant dans la saint coran, tout en mettant à l'évidence l'aspect d'inimitabilité des règlements qui y sont cités.

J'ai ensuite procédé à la démonstration des relations solides existant entre les règlements divins et le bien-être (ou la vie décente) que ce soit pour les individus ou pour les groupes (collectivités).

Puis, je me suis concentrée sur la mise en évidence des aspects des règlements divins pour une vie digne, et de leur expression dans la vie des gens, arrivant à leurs effets sur l'individu et sur la société, pour conclure à la possibilité de concrétiser cela dans le vécu des gens, du moment que ceci a déja eu lieu dans la société musulmane « la génération de l'ère de la révélation » afin d'atteindre sa réalisation dans notre ère qui se caractérise par la division et la répulsion qui mènent inévitablement au sous-développement et à l'extinction.

Dans la conclusion qui a rassemblé les résultats et les résumés, la chercheuse a conclu que la doctrine des règlements divins et leur activation peuvent garantir (la vie digne) et le bien-être ici bas et dans la vie éternelle.